سلسلة بيت الدعوة

المُشَمِّرُونَ

الشّيخُ الدُّكْتُورُ

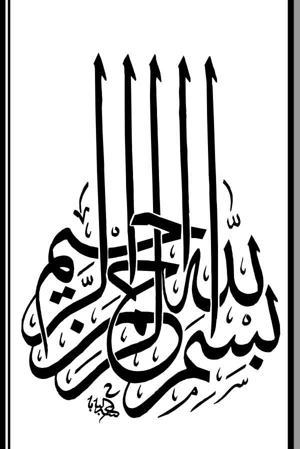
جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ المُهَلْهِلِ الْيَاسِينِ



مؤسسة السماحة

المشمرون

جاسم بن محمد بن المهلهل الياسين



الطبعة الثانية
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

بطاقة الكتاب

اسم الكتـــاب : المشمرون
تأليــــــف : جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين
الناشــر : شركة السماحة للنشر والتوزيع الكويت
الصف والإخراج : مركز بدور للثقافة والترجمة
عدد الصفحـات :
عــدد المـــلازم :
مقاس الكتـاب : ١٧× ٢٤
رقـــم الإيداع :٢٠١٠/٢٣١٢٣

شركة السماحة للطباعة والنشر
والتوزيع - الكويت
ت/٩٩٥٥٧٤٧١
الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦
ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

المشمرون

تأليف
جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

مؤسسة السماحة
شروق للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية

١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

تطلب مؤلفات الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

في الكويت من: شركة السماحة - الكويت.

ت/ ٩٩٥٥٧٤٧١

الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦

ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

في مصر من: شروق للنشر والتوزيع



الإهْدَاءُ نثرًا

إِلَى وَالِدَتِي مُنِيرَةَ، الَّتِي لَهَا مِن اسْمِهَا نَصِيبٌ، فَقَدْ أَنَارَتْ لِي طَرِيقَ حَيَاتِي، فَعَرَفْتُ رَبِّي، وَسَلَكْتُ مَنْهَجَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ.

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي أَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الْخَيْرِ كُلَّهَا، فَكَانَتْ مَدْرَسَةً فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَهِيَ الَّتِي عَلَّمَتْنِي كَيْفَ يَكُونُ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَعَلَّمَتْنِي الإِحْسَانَ إِلَى الآخَرِينَ وإِنْ أَسَاؤُوا، وأَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الصَّبْرِ الَّتِي قَرَأْنَا فِي المجَلَّدَاتِ وَكَتَبْنَاهَا. لَقَدْ عَلَّمَتْنِي مَعْنَى الإِنْفَاقِ مِمَّا كَانَ فِي يَدِهَا لِتُدْخِلَ بِهِ السُّرُورَ عَلَى الآخَرِينَ.

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الشَّكْوَى فِي حَيَاتِهَا، وَلَمْ تَئِنّ مَعَ كَثْرَةِ أَمْرَاضِهَا.

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وَفَاتِهَا -رَحِمَهَا اللهُ- بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ، وَإِنِّي لأَذْكُرُ قَوْلَ أَحَدِ الأَصْدِقَاءِ عَنْ أُمِّهِ بَعْدَ وَفَاتِهَا: لَقَدْ ذَهَبَتْ مَنْ كُنَّا بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ. وَإِنِّي لأَقُولُ: لَئِنْ تَنَعَّمْتُ بِدُعَاءِ أُمِّي فِي حَيَاتِهَا، فَإِنِّي أَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ لَهَا دُعَاءً، ازْدَادَتْ نَفْسِي إِحْسَاساً بِالنَّعِيمِ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَنَعَّمُ بِدُعَائِهَا فِي حَيَاتِهَا وَأَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَفِي الْحَالَتَيْنِ، فَإِنِّي أَتَنَعَّمُ بِخَيْرِهَا فِي الْحَيَاةِ وَالمَمَاتِ.

وَلَسْتُ أَعْرِفُ لإِنْسَانٍ فَضْلاً عَلَيَّ -فِيمَا أَنْعَمُ بِهِ مِنْ فَضْلٍ- خَيْراً يُعَادِلُ أَوْ يُقَارِبُ فَضْلَ وَالِدَتِي -رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَى. وَأَسْأَلُ اللهَ -سُبْحَانَهُ- أَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَهَا لِي، وَيَسْتَجِيبَ دُعَائِي لَهَا.

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْهَا الصَّبْرَ وَالتَّجَلُّدَ؛ فَقَدْ شَطَبَتْ مِنْ حَيَاتِهَا مَا يُسَمَّى بِالإِيذَاءِ، فَكَانَتْ لاَ تُؤْذِي أَحَداً وَلا شَيْئاً، حَتَّى الأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ تَمْشِي عَلَيْهَا، عَلَّمَتْنِي مَعَانِيَ كَثِيرَةً، قَدَّمَتْهَا وَهِيَ تُضَحِّي بِصِحَّتِهَا وَوَقْتِهَا وَسَعَادَتِهَا.

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي أَعْرِفُ مِنْ مَدْرَسَتِهَا الْكَثِيرَ، وَلاَ يَسَعُنِي ذِكْرُهُ فِي هَذَا الإِهْدَاءِ، وَسَأُفْرِدُ لَهُ رِسَالَةً خَاصَّةً، إِنْ شَاءَ اللهُ.

إِلَى وَالِدَتِي أَهْدِي ثَوَابَ هَذِهِ الرَّسَائِلِ، لَعَلِّي أُؤَدِّي زَفْرَةً مِنْ زَفرَاتِهَا فِي وِلادَتِي.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَى وَالِدِي – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَى رَفِيقَةَ الدَّرْبِ أُمّ مُعَاذٍ، الَّتِي كَانَتْ لِي عَوْناً فِي صَبْرِهَا عَلَى سَهَرِي وَسَفَرِي.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَى أَوْلادِي جَمِيعاً، ذُكُوراً وَإِنَاثاً.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَى كُلّ مَنْ أَسْهَمَ فِي إِخْرَاجِهَا، وَجَعَلَهَا بَيْنَ يَدَي النَّاسِ فِي المُشْرِقِ وَالمُغْرِبِ.

وَإِنَّنِي إِذْ أَكْتُبُ هَذَا الإِهْدَاءَ، أَرْجُو مِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ يَكُونُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَذَا الْكِتَابُ أَلاَّ يَنْسُونَا جَمِيعاً مِنْ صَالِحِ دُعَائِهِمْ.

* * *



أَمَّـــاهُ كُنْــتِ مُنِيــرَةً وَمَنَــارَةً   عُلْيَــا وَصَــرْحاً ثابـتَ الأَرْكَــانِ
قَــدْ كُنْــتِ مَدْرَسَــةً تُعِـدُّ نُفُوسَنَــا   لِــصَنَائِعِ المَعْــرُوفِ وَالإِحْــسَانِ
قَــدْ كُنْــتِ لِلأَيْتَــامِ أُمَّــاً بَــرَّةً   وَالجَــارِ وَالمِــسْكِينِ أَرْأَفَ حَــانِ
أَرْضَـعْتِنَا الأَخْـلاقَ شَـهْدَاً سَلْسَلاً   تَــدْنُو ثِمَــارُ قُطُوفِهَــا لِلْجَــانِي
عَلَّمْتِنَــا الــصَّبْرَ الجَـمِيلَ خَـلِيقَةً   وَالقَوْلَ لِلحُسْنَى وَكَفَّ لِسَانِ

❋ ❋ ❋

أَبَتَــاهُ قَــدْ رَبَّيْتَنِــي وَأَحَــطْتَنِي   برِعَايَــةٍ فِــي غِبْطَــةٍ وَأَمَــانِ
وَفَّــرْتَ أَسْـبَابَ الـسَّعَادَةِ وَالهَنَـا   فَجَعَلْتَنِي أَسْمُو عَلَى الأَقْرَانِ
فَجَـزَاكَ رَبُّ العَـرْشِ خَـيْرَ جَزَائِـهِ   وَأُسْــكِنْتَ فِي رَوْحٍ وَفِي رَيْحَــانِ

❋ ❋ ❋

نَوَّرْتَ **يَا بَدْرَ** الدُّجَا سُبُلَ العُلا   بالفَــضْلِ لاَ فَــظٍّ وَلاَ مَنَّــانِ
كَــمْ ذَا تُقَابِــلُ بِالــسُّرورِ تَــدَلُّلِي   بمَحَبَّــةٍ وَبرَأْفَــةٍ وَحَنَــانِ
أَحْبَبْتَنِــي قَــرَّبْتَنِــي رَبَّيْتَنِــي   بالعِــزِّ فِي ثِقَــةٍ وَفِــي اطْمِئْنَــانِ

❋ ❋ ❋

أرَفيقَتِــي كُنْــتِ الــشُّعَاعَ إِذا دَجَـا   لَيْــلُ الحَيَـاةِ بمُظْـلِمِ الحِـدْثَانِ
قَــدْ كُنْــتِ خَـيْرَ شَرِيكَــةٍ وَمُعِينَــةٍ   فِي الــبِرِّ عِنْــدَ تَقَــاعُسِ الأَعْــوَانِ
الــصَّبْرُ فِيــكِ مَـعَ الوَفَــاءِ سَـجِيَّةٌ   بتَعَـاقُبِ الأَفْـرَاحِ وَالأَحْـزَانِ

❋ ❋ ❋

يَــا حَبَّــذَا **أَفْــلاذُ أَكْبَــادٍ** بِهَــا   كَــمُلَ المُــرَادُ وَقَــرَّتِ العَيْنَــانِ

فَاحْفَـظْ **مُعَـاذاً** وَاحْفَظَـنَّ **مُهَلْهِـلاً** أَمَـــدَ الزَّمَـــانِ **وَعَابِـــدَ الـــرَّحْمَنِ**

لاَ زَالَ **عَبْـــدُ اللهِ** فِي حِفْـــظٍ وَلاَ زَالُـــوا جَمِيعـــاً غُـــرَّةَ الفِتْيَـــانِ

وَلْتَـــحْظَ **عَـائِـشَـةٌ وَفَـاطِـمَةٌ** بِـمَا قَـــدْ شَـــاءَتَا مِـــنْ بُغْيَـــةٍ وَأَمَـــانِ

وَاحْفَـظْ **هَـيَـا وَمُنِيـرَةً** يَـا رَبَّنَـا مِـــنْ مُبْطِـــنِ البَغْـضَاءِ وَالـشَّنَآنِ

❋ ❋ ❋

يَـا رَبِّ لاَ زَالَ الجَمِيـعُ بِنِــعْمَةٍ وَقِـــهِمْ شُرُورَ الحَاسِـــدِ المِعْيَـــانِ

صَلَّى الإِلَـهُ عَـلَى **النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ** وَالآلِ وَالأَصْحَـــابِ كُـــلَّ أَوَانِ

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

❋ ❋ ❋

مقدمة الكتاب

إن الحمد لله ـ سبحانه ـ نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ.

ثم أما بعد:

فهذه رسائل تخاطب العقل والوجدان معًا، وهي نفحات إيمانية تضع بين يدى الشباب مصابيح الهداية، وتغرس فى قلوبهم مجموعة من القيم والمعاني، والتي يحتاجها الشباب الذين بدأوا فى سيرهم معركة الدعوة المباركة، وتأتي هذه المجموعة بعد وضع المعاني التى وردت فى كتابنا « وصية لا وصايا» ، وهنا يكون من المناسب جدًا طرح معان جديدة تبني على ما سبق من أجل الاكتمال التربوي.

وقد جاءت الرسالة الأولى: « **الأخوة** » تبين أن من مقومات المجتمع المتحاب بروح الله الملتقى على شعائر الإسلام، أن يقوم فيه إخاء العقيدة مقام إخاء النسب، والحق أن أواصر الأخوة في الله هى التى جمعت بين أبناء الإسلام بعد قوة العقيدة.

وكانت الرسالة الثانية:« **الصفات اللازمة للدعاة** » توضح أن نصرة هذا الدين متوقفة اليوم على وجود القيادة الإسلامية الفذة ، وهى ليست بالضرورة أن تكون بصورة فرد قائد، فمجموع العاملين الحائزين على صفات القادة المؤمنين من الممكن أن يطلق عليهم القيادة المنقذة من هذا الوضع المتدهور، وهذه الصفات التي اشترطناها إذا اتصف بها الداعية جديرة بأن تحميه من المنزلقات ومكائد الشيطان بإذن الله تعالى.

والرسالة الثالثة: «**الأهداف الرئيسية للدعاة إلى الله**» تذكر أنه أصبح من الضرورى وجود التجمع العضوى العامل فى جميع المنحنيات الثقافية والخيرية والعمل العام، وهذه التجمعات تحتاج فى مسيرتها إلى تهديف واضح، وأن تكون منضبطة بقواعد الإسلام وحدوده فى إطار أهداف رئيسية للدعاة إلى الله في كل مجال، وإذا كان الحصول على رغيف الخبز يحتاج إلى ترتيب وتنظيم للجهود كان إيجاد مجتمع الأمن والإيمان من باب أولى.

والرسالة الرابعة: «للدعاة فقط» للحديث عن كبرى الحركات الإسلامية فى العصر الحديث (الإخوان المسلمين) بإيضاح ما يتعلق بالحركة من خصائص ومميزات هيأتها لتكون دعوة عالمية تستقطب الشباب وتكتسح الأفكار والأطروحات الموجودة.
وذكر القواعد العامة فى الرد على الشبهات التى تحاك وتقال عن الإخوان المسلمين، والرد على بعضها، مع ذكر بعض التمنيات التى نرجو أن تتأصل فى حركة الإخوان المسلمين.
وفى الرسالة الخامسة: «طريق الأمناء إلى تحقيق الوفاء» كان الحديث عن الأخلاق من الثوابت المقررة في دين الإسلام، وقد كان متحققا من الناس جميعا في كل شؤون الأمة فى الحرب والسلام، وفى كل أحوالها فى الغنى والفقر، والقوة والضعف، والسعة والضيق، فعمت الحياة الثقة، وصارت الكلمة عندهم قانونا نافذ المفعول، وهذا ما نوده من أن يكون الوفاء طابع حياتنا كلها؛ ليستريح الناس من نكبات الغدر وويلات الخيانة، وظلام الظلم والبغى.

تقدم الرسالة السادسة شيئا من «سيرة الرسول الإنسانية» فى الحب والتسامح والعفو والرفق حتى مع الحيوان البهيم، إلى غير ذلك من المعانى التي بثها الرسول ﷺ فكانت سراجا للسالكين، خففت من أعبائهم، وحطمت من أغلالهم.
وجاءت الرسالة السابعة: «حوارات فى هموم الأمة» تبين أن فى التمسك بديننا عصمة من الفتن، وتقدم الدواء الذي يتمثل فى الدين القويم بعقيدته الثابتة الراسخة وأخلاقه التي تصنع سياجا يحمي ويصون .

وتقدم الرسالة الثامنة: «العلم بين يدي العالم والمتعلم» لتوضح منزلة العلم وأهله من عالم ومتعلم، حتى نشمر لإيقاد هذه الشعلة من جديد فتنير لنا ولغيرنا الطريق فنسير جميعا على نور وبصيرة.

أسأل الله ـ عز وجل ـ أن يوفقنا لما فيه الخير والهدى والصلاح إنه على كل شىء قدير.

الشَّيْخُ الدُّكْتورُ

جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّد بْنِ مُهَلْهِل الياسين



الرسالة الأولى

الأخـــــوة

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن من مقومات المجتمع المتحاب بروح الله الملتقى على شعائر الإسلام، أن يقوم فيه إخاء العقيدة مقام إخاء النسب، وربما ربت رابطة الإيمان على رابطة الدم. والحق أنَّ أواصر الأخوة فى الله، هى التى جمعت أبناء الإسلام أول مرة وأقامت دولته ورفعت رايته، وعليها اعتمد رسول الله ﷺ بعد تأسيس العقيدة؛ إذ إنَّ آصرة الأخوَّة فى الله هى الدرجة الثانية من درجات القوة بعد قوة العقيدة والإيمان.

ونحن فى هذه الرسالة سوف نبين لك أخى المسلم شيئًا عن هذه الآصرة، آصرة الأخوة وشروطها وواجباتها ومستلزماتها: من الإِيثار فى الله وسلامة الصدر مما حاك فيه، وغيره من المستلزمات التى ستعرفها خلال قراءتك للرسالة.

والله نسأل، أن يكلأنا برعايته ويقوى فينا هذه الآصرة؛ آصرة الأخوة فى الله، حتى نفوز برضوانه، إخوانًا على سرر متقابلين فى جنات النعيم.

والله الموفق لما يحب ويرضى

***

مدخـل

خصال الأخوة فاعرفها:

إن أصحاب الإِسلام وحملة رسالته يجب أن يستشعروا جلال العقيدة التى شرح الله بها صدورهم وجمع عليها أمرهم، وأن يولوا التعارف عليها ما هو جدير به من عناية وإعزاز. إنه تعارف يجدد ما درس من قرابة مشتركة بين الخلق، ويؤكد الأبوة المادية المنتهية إلى آدم عليه السلام بأبوة روحية ترجع إلى شرائع الأديان، المختومة برسالة الإسلام، وبذلك يصير الدين الخالص أساس أخوة وثيقة العُرى، تؤلف بين أتباعه فى مشارق الأرض ومغاربها، وتجعل منهم على اختلاف الأمكنة والأزمنة، وحدة راسخة الدعامة شاهقة البناء لا تنال منها العواصف الهوجاء.

وهذه الأخوة هى: روح الإيمان الحى، ولباب المشاعر الرقيقة التى يكنها المسلم لإِخوانه، حتى إنه ليحيا بهم ويحيا لهم.

فكأنهم أغصان انبثقت من دوحة واحدة أو روح واحدة فى أجسام متعددة. وذلك حين يعرف الأخ من يختار لأخوته، وحين يعرف من يخالل من الناس، إذ إن المرء كما قالﷺ: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[1].

فعنصر الاختيار المحتكم إلى شرع الله هو الذى يميز رابطة الإيمان؛ إذ لابد للمؤمن من خصال وصفات مُعَينة، يتميز بها حين يُرَغب الغير فى أخوته.

هذه الخصال والصفات هى بحسب الفوائد المطلوبة فى الأخوة،واعلم أخى المسلم أنه يُطلب بالأخوة فوائد دينية ودنيوية:

فالدنيوية كالانتفاع بالمال والجاه، والاتفاقات المصلحية التى تربط بين الناس، حينما تكون الغايات المادية هى مبلغ علمهم، والأعراض العاجلة أكبر همهم، ومن الملاحظ أن

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذى (٢٣٧٨)، وقال: «حديث حسن غريب»، وأحمد (٣/ ٣٠٣، ٣٣٤)، والحاكم(٧٣٢٠)، ط . دار الكتب العلمية عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال:«صحيح إن شاء الله» ووافقه الذهبى، وحسنه الألبانى

المصلحة الدنيوية لا تجمع بين جماعة من البشر، إلا وتغرس العداء المستحكم ضد آخرين؛ لأن طيبات الدنيا لا تتسع لمطامع البشر إذا لم يروض شهوتهم الدين، بما يعدل فيه بينهم من الدنيا، ويوجهه إلى رغائب الآخرة: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[١].

أما الفوائد الدينية: فيجتمع فيها أغراض مختلفة كالتحابب فى الله والتعاون على تنفيذ أوامره سبحانه والدعوة إليه، وتقديس الحق وإسداء المعروف، عن رغبة فيه، والتباذل فى ذات الله والإيثار عن سماحة رائعة، والمساواة بين الأنساب والأجناس، وتبادل الاحترام والحب، والاستئناس بمشاهدة الأخ ومجاورته وزيارته، إلى غير ذلك من فوائد وعلائم الإخاء الصحيح، إخاء العقيدة الخالصة لوجه الله، لا إخاء المنافع الزائلة، ولا إخاء الغايات الدنيا.

هذا، واعلم أخى أنّه ينبغى أن تتوفر فيمن تُؤثِر أُخُوَّته، أربع خصال،نذكرها فيما يلى:

الأولى: أن يكون مسلمًا متمسكًا بدينه عاملاً بمقتضاه من الأوامر والنواهى متبعًا لمنهجه من الكتاب والسنة بعيدًا عن البدع والأهواء. لذلك قال النبى ﷺ: «**إن آل أبى فلان ليسوا بأوليائى، إنما ولِّيى الله وصالح المؤمنين**»[٢].

الثانية: أن يكون متخلقًا بأخلاق الإسلام محافظًا على مكارم ومحاسن الشيم والأخلاق. قال ﷺ: «**إنما بُعِثتُ لأتمم مكارم الأخلاق**»[٣].

قال الشاعر:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه   فقوم النفس بالأخلاق تستقم

فاحرص أخى على مؤاخاة من يكون دليلك إلى أرض النجاة ومرآتك إلى الخير، الذى

(١) الأنفال:٦٣.

(٢) أخرجه البخارى (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٣)أخرجه أحمد (٢/ ٣٨١)،والبخارى فى الأدب المفرد (٣٧٢)، والحاكم فى المستدرك (٤٢٢١) ط. دار الكتب العلمية عن أبى هريرة رضي الله عنه، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٤٥).

يحب لك ما يحب لنفسه، فالأرواح كما قال ﷺ: «**جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**»[١].

الثالثة: أن يكون نظيف النفس من أدران النقص بعيدًا عن الرذائل مستقيمًا كما يريد الله ورسوله، متطهرًا بالقول والفعل، إذ لا فائدة من مؤاخاة الفاسق، اللهم إلا أن يُخالَط لإصلاحه، إذ إن الفاسق لا تؤمن غائلته، ولا يوثق بصداقته لأنه يتغير بتغير الأغراض كما أنّ صحبة الفساق ومشاهدة الفسق تُهوّن أمر المعصية على القلب وتبطل نفرة القلب عنها،ثم إن مصاحبتهم ومجالستهم بغير قصد الدعوة إنما هى كمجالسة جليس السوء الذى نهانا عن مجالسته الرسول ﷺ فى الحديث الذى يرويه البخارى ومسلم: «**إنما مَثَلُ الجليس الصالح والجليس السوءِ، كحامل المسك ونافخ الكيرِ. فحَامِلُ المسك إما أن يحذيك، وإمَّا أن تبتاع منه، وإما أن تجدَ ريحًا طيبةً. ونافخُ الكيرِ، إمَّا أن يُحْرق ثيابَكَ، وإما أن تجد ريحًا خبيثةَ**»[٢]، وبذلك قال الشيخ أحمد بن عطاء:«**مجالسة الأضداد ذوبان الروح، ومجالسة الأشكال تلقيح العقول، وليس كل من يصلح للمجالسة بصالح للمؤانسة،ولا كل من يصلح للمؤانسة يؤمن على الأسرار،ولا يؤمن على الأسرار إلا الأمناء فقط**»[٣].

الرابعة: ألا يكون حريصًا على الدنيا يعض عليها بالنواجذ، إذ أن هذه من صفات إخوان الدنيا: أخوة وقتية ولغاية مُعَيَّنة تنتهى بانتهاء المصلحة المادية التى يرجوها من خلال أخوته لك، وهؤلاء كما وصفهم الشاعر كثيرون ولكنهم عند الشدائد قلة:

ما أكثر الأصحاب حين تعدهم   ولكنهم عند النائبات قليلُ

وبعد هذه الخصال لابد أن نقرر أنه ما من إنسان إلا وفيه عيب كما قال سعيد بن المسيب ـ سيد التابعين : «**إنه ليس من شريف ولا عالم ولا ذى فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغى أن تذكر عيوبه، ومن كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه**

(١) أخرجه البخارى (٣٣٣٦) عن عائشة ، ومسلم (٢٦٣٨) عن أبى هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخارى (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨) واللفظ له عن أبى موسى رضي الله عنه .
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٢٩٦).

لفضله»[1]. وحقًا إذا بلغ الماء القلتين لم يحمل الخبث.

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٠٠).

المبحث الأول
فضائل الأخوة

أخى المسلـــم فى آسيا أخى المسلـــم فى إفريقيا

أخى المسلـــم يا من أنت لم تسعــــدنى بالرؤيا

وبين عـروقنا تجـــرى دماء أخـــوة عليا

تحفزنى لدفـــع الشر إن ناديتنى حـــــيا

فأطــوى الأرض غضبانا أقاتـــــل دونك البغيا

أخى فى الدين لا تحــزن سيقبل فجـــرنا الفضى

وتبصر ركبنا يومـــــا إلى غــــاياته يمضى

يزف الخيــــر للدنيا ويزهق دعــــوة البغى

ومن أناشيد الدعوة الإسلامية:

يا إله الكون هل يرضيك أَنَّا إخوة فى الله، للإسلام قمنا

ننفض اليوم غبار النوم عنا لا نهاب الموت لا بل نتمنى

أن يرانا الله فى ساح الفدا

الأخوة من مستلزمات الإيمان:

يقول سيد قطب - رحمه الله - فى «**ظلال القرآن**»: «**هاتان القاعدتان المتلازمتان هما: الإيمان والأخوة، فالإِيمان بالله وتقواه ومراقبته فى كل لحظة من لحظات الحياة، والأخوة فى الله، تلك التى تجعل من الجماعة المسلمة بنية حية قوية صامدة قادرة على أداء دورها العظيم فى الحياة البشرية وفى التاريخ الإِنسانى، ولابُدَّ منها للجماعة المسلمة كى تستطيع أن تضطلع بالأمانة الضخمة التى أناطها الله تعالى بها، وأخرجها للوجود من أجلها**»[1].

محبة الأخ من شعب الإيمان:

---

(١) فى ظلال القرآن (٢/ ٢٣)، طبعة الشروق.

قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَرَّه أن يجد حلاوَة الإيمان فليحبَّ المرء لا يحبه إلا لله عز وجل**»[١]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فى ظِلِهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه..**» (ومنهم) «**رَجُلانِ تَحَابا فى الله، اجْتمعا عليهِ وتفرقا عَلَيهِ...**»[٢].

أى: تقابلا على العمل على ذكر الله وحده، ونيل رضاه، وتعاونا على الخير وأحب كل منهما صاحبه فى ظل رضاء الله والعمل الصالح ابتغاء أجره، ولم يجتمعا لجَنْى فائدةٍ دنيوية أو ثمرة شهية تلهيهم عن حقوق الله تعالى[٣].

وقد ورد عن ابن عمرو فى ذلك مرفوعًا: «**خَيْرُ الأصحَاب عِند الله خَيرُهُمْ لِصَاحِبِه**»[٤].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**ما تحابَّ اثنان فى الله تعالى إلا كانَ أفضلُهُما أشدُّ حُبًا لصاحبِه**»[٥].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إنَّ لله عبادًا يُجْلِسهُم يومَ القيامةِ على منابرَ من نورٍ يغشّى وجوهَهُم النورُ حتى يُفرَغَ من حسابِ الخلائق**»[٦].

وهذه المحبة لا تتأثر بالبر والجفاء، وبهذا عبر يحيى بن معاذ الرازى ـ رحمه الله ـ عن ذلك فقال: «**حقيقة المحبة أنها لا تزيد بالبر ولا تنقص بالجفاء**»[٧].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٨)، والحاكم (٤/ ١٦٨) عن أبى هريرةه، وقال الحاكم:«صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (٦٢٨٨).

(٢) أخرجه البخارى (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه

(٣) شرح الترغيب والترهيب (٤/ ١٦).

(٤)أخرجه الترمذى (١٩٤٤)، وأحمد (٢/ ١٦٧) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال الترمذى: «حسن غريب»، وصححه الألبانى.

(٥) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد (٥٤٤)، وابن حبان (موارد الظمآن ٢٥٠٩)، والحاكم (٤/ ١٧١) عن أنس، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبى، وصححه الألبانى في الصحيحة (٤٥٠).

(٦) أخرجه الطبرانى فى مسند الشاميين (٨٢٦) عن أبى أمامة، وقال المنذرى والهيثمى :«إسناده جيد»، انظر: مجمع الزوائد (١٠/ ٢٧٧)، والترغيب (٤/ ٢٠).

(٧) طبقات الشافعية (٦/ ٥١).

وقد وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تبين أن العقيدة أساس الأخوة منها:

لا رابط إلا رابط العقيدة:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ ﴾ (١).

يقول سيد قطب: «**وهكذا تتقطع أواصر الدم والنسب إذا انقطعت آصرة القلب والعقيدة، وتبطل ولاية القرابة فى الأسرة إذا بطلت ولاية القرابة فى الله، فلِلّه الولاية الأولى وفيه ترتبط البشرية جميعًا، فإذا لم تكن، فلا ولاية بعد ذلك والحبل مقطوع، والعروة منقوضة**» (٢).

ويقول ابن كثير: «**أمر الله تعالى بمباينة الكفار وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى الله تعالى عن موالاتهم إن استحبوا ـ أى اختاروا ـ الكفر على الإيمان**» (٣).

إخاء العقيدة جامعة الإيمان:

تستوعب جامعة الإيمان كل مستجيب مهما كان أصله أو ماضيه ولا تجعل دخوله مشروطًا بإذن الذين سبقوه، بل الأمر بيده متى شاء: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١١﴾ (٤).

فالإيمان يدعو للنظر إلى سائر الناس نظرة عطف وتقبل،وتبسط إليهم اليد بالدعوة الحسنة، فكلهم أهل لها، يرجى فيهم أن يؤولوا إلى صف المؤمنين بينما تدعو العصبية إلى بث العداء فى الآخرين لأنهم جبلوا على خلاف لا ينتهى ولا يرجى منه خير .

وبذلك يقول سيد قطب ـ رحمه الله: «**إما دخول فيما دخل فيه المسلمون وتوبة عما مضى**

---

(١) التوبة: ٢٣.

(٢) الظلال (٤/ ١٦٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٢).

(٤) التوبة: ١١.

من الشرك والاعتداء،وعندئذ يصفح الإسلام والمسلمون عن كل ما لقوه من هؤلاء المشركين،وتقوم الوشيجة على أساس العقيدة ويصبح المسلمون الجدد إخواناً للمسلمين القدامى، ويسقط ذلك الماضى كله بمساءته من الواقع ومن القلوب»[1].

الأخوة فى الله طريق إلى سعادة البشرية:

يقول المودودى ـ رحمه الله ـ فى رسالة (**كيف السبيل إلى وحدة الأمة الإسلامية**):

«لست مبالغاً فيما أقول: إنه لا توجد نظرية لا فى القديم ولا فى الحديث تُوَحّد الإنسانية وتصلح أساساً للدولة العالمية، إلا نظرية الإسلام والإسلام فقط.

هذه هى المنهجية الوحيدة التى باستطاعتها أن تجمع بين الناس جميعاً وتجعل منهم عائلة واحدة، يتكون منها مجتمع عالمى، وتنشأ عليها دولة عالمية، ولا يمكن للإنسان أن يلتقى مع أخيه على صعيد واحد وينشئ معه علاقات أخوية إلا حينما يشعر فى قرارة نفسه بأن الله الواحد هو الذى خلقه، وبأنه مسؤول أمامه وهو خالقه وخالق الناس جميعاً وربه ورب الناس كافة، خلقه والناس جميعاً من مادة بعينها ويسرى فى عروقهم دم واحد ولا فضل لأحد منهم على الآخر لكونه مولوداً ونطفة رجل ـ كذا وكذا ـ ولا تظن امرأة كذا وكذا؛ بل الفضل أو الذل والحسن أو القبح يرجعان إلى ما يأتى به الإنسان فى حياته من الأخلاق والأعمال، ولم يعرض الإسلام هذا المبدأ على الناس كمجرد نظرية أو فلسفة بل إنه أقام على أساسه مجتمعاً حركياً ساوى فيه جميع البلاد والأجناس والأمم»[2].

الارتباط بحبل الله تعالى طريق إلى النجاة:

إن توجيه البشرية على أساس العدالة فى القسمة فى الأموال ومرافق الحياة، والإغراء بالمشاركة فيها لا يذهب المطامع بل يزكيها، ولا يزيل الداء بل يخففه؛ والطريقة الوحيدة التى لا طريق سواها هى ربط الإنسانية بهدف أكمل منها، وأبعد من أهدافها ،وأسمى من

(١) الظلال (٤/ ١٤٩).

(٢) رسالة كيف السبيل إلى وحدة الأمة الإسلامية للمودودى، ص١٩.

أهوائها ومكانها، وأكمل من هويتها وهو الله لا إله إلا هو[١].

جزاء الأخوة فى الله:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾[٢].

يقول سيد قطب: «**والمتقون هم الذين يراقبون الله ويقون أنفسهم عذابه وأسبابه، ولعل العيون فى الجنات تقابل فى المشهد تلك الأبواب فى جهنم، وهم يدخلون الجنات بسلام آمنين، فى مقابل الخوف والفزع هناك. ونزعنا ما فى صدورهم من غل، فى مقابل الحقد الذى يغلى به صدر إبليس فيما سلف من السياق، ولا يمسهم فيها نصب ولا يخافون فيها خروجاً جزاء ما خافوا فى الأرض واتقوا فاستحقوا المقام المطمئن الآمن فى جوار الله الكريم**»[٣].

عقد الأخوة:

وهكذا يظل الاتحاد ينمو حتى يكون عقداً واجب الوفاء، وقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عن (عقد الأخوة) هذا[٤]، وبَيَّن أنَّ الحقوق التى ينشئها إذا كانت من جنس ما أقره النبى ﷺ فى أحاديثه والتى تجب للمؤمن على المؤمن فإنما هى حقوق واجبة بنفس الإيمان والتزامها بمنزلة التزام الصلاة والزكاة والصيام والحج، والمعاهدة عليها كالمعاهدة على ما أوجب الله ورسوله، وهذه ثابتة على كل مؤمن، وإن لم يحصل بينهما عقد مؤاخاة، فيأتى العقد يؤكدها إذن، ولم يحصل خلاف إلا فى التوارث عند عدم وجود القرابة كما كان الأنصار والمهاجرون يتوارثون بالتآخى الذى أقره النبى ﷺ أول مقدمه المدينة، وقد قال أكثر الفقهاء بنسخ ذلك، وأجازه أبو حنيفة وأحمد بن حنبل فى إحدى

---

(١) نحو إنسانية سعيدة «محمد المبارك» ص١٠٩.

(٢) الحجر: ٤٥ ـ ٤٨.

(٣) الظلال (٥/ ٢٠٨).

(٤) الفتاوى (١١/ ١٠٠، ١٠١).

الروايتين ا.هـ.

إن هذا العقد الأخوى يزيد الواجب الإيمانى ثبوتاً،وما أراه إلا كبيعة سلمة بن الأكوع الثانية رضي الله عنه، تؤكد بيعته الأولى، حين كانتا فى ساعة واحدة يوم الحديبية، تحت الشجرة كما جاء عنه فى صحيح البخارى، فى قوله: (بايعنا النبى ﷺ تحت الشجرة فقال لى: «**يا سلمة، ألا تبايع؟**» قلت: يا رسول الله قد بايعتُ فى الأول،قال:«**وفى الثانى**»[1]. فكذلك المسلمون، أوجب الإسلام على بعضهم البعض حقوقاً ويتبايعون بعقد أخوة فى الثانى، زيادة خير وابتغاء توثيق، وعنصر تذكير ينشئ الجماعة المؤتلفة المتماسكة المستحكمة، التى وصفها (إقبال) فى أرجوزة له حين قال:

كل فرد بأخيه ائتلفا   مثل در فى سموط ألفا

لفهم فى عيشهم معترك   كل فرد بأخيه ممسك

وهكذا فإنه ليس من عمل للداعية المسلم اليوم أعمق من غدوة يهب فيها للدعوة بفضل الله ناشئاً يغمس نفسه، فيؤازره فيستغلظ فيستوى على عقد الأخوة، يعجب الدعاة ويغيظ الكفار:

توارى الليل عن وجه الصباح   ونادى الدهر حى على الفلاح

وصفقت الأمانى مائسات   وغنى المجد زغردة النجاح

وغردت البلابل شاجيات   تداعبها الغصون على انشراح

وقد ألقت جمانا من نداها   يقبل فى الشروق لَمى الأقاحى

وغاص الحزن فى قاع الحنايا   وغطى الشوق آفاق النواحى

وأيقظن الطيوف نفوس قوم   تراخوا عند مندلج الصباح

أضاعوا فى الكرى مجداً تليداً   وناموا بين محتدم الكفاح

---

(١) أخرجه البخارى (٧٢٠٨)، ومسلم (١٨٠٧) عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

كأشلاء ممزقـــة الحشايا تداعت فى الروابى والبطــاح
دعاهم فى الدجى داعى المعالى فآسى صوته عمق الجـــراح
وهبوا مثـــل تيار عنيف تحرك سيره أعتى الريـــــاح
شباب فى ظلال الوحى عاشوا وفى ظل الصوارم والرماح
وعافوا أن تظللهم طمــور عليها وضحـــة الكفر البواح
رضوا ألم الصدى شماً كراماً وعافــوا ورد حوض مستباح
أذَانُ الفجر أيقظـهم شموساً فهب القوم للصوت الرياحى
وكانوا بسمة من ثغر دهـــر يحييهم إلى أمـــــــل متاح
فكانوا حلم تاريـــخ كئيب رثاهم حين بادروا بالنـــواح
بهم سيعود للإسلام مجد يضىء الكون بالحق الصـــراح
وورد من رحيق الوحـى أشهى إلى الظمآن من ماء قـــراح
فعاشــوا سالمين على الليالى كطير غير مهضـــــوم الجناح
ولا عاش الألى تاهوا ومادوا وباعــوا دينهم بيع السماح[1]

---

(١) مجلة الشهاب عدد (١٩) السنة السابعة ص١٤. شعر سفر عبد الرحمن الحوالى .

المبحث الثانى
من واقع الأخـــــوة

حقيقة الصحبة والأخوة:

لقد مَنَّ الله سبحانه وتعالى على أهل الإيمان حيث جعلهم إخواناً فى الله، وبهذا ورد عن الرسول ﷺ أنه قال: «**إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يَشُدُّ بَعْضُه بَعْضاً**»[١]، وللأخوة فوائد منها التعاضد والتعاون، وتقوية جنود القلب واستراحة الأرواح فى التوجه إلى الرفيق الأعلى، حتى يصير مثالها فى الشاهد كالأصوات إذا اجتمعت طرقت الأجرام، وإذا تفردت قصرت عن بلوغ المرام.. وهى توفيق قد لا يتكرر، يقول عمر رضي الله عنه: «إذا رأى أحدكم وداً من أخيه فليتمسك به، فقلما يصيب ذلك».

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾[٣]. وقال تعالى فى وصف أصحاب الرسول ﷺ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[٤]. كل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على آداب حقوق الأخوة والصحبة. فمن اختار صحبة أحد من الناس لابد أن يتأدب بأول الآداب وهو أن يكون حبه لأخيه خالصاً لوجه الله تعالى كما ورد فى الحديث عنه ﷺ: «**وَأنْ يُحِبّ المَرء لا يُحِبُّهُ إلا لله**»[٥]، فإنه بذلك يفتح على نفسه باباً من أبواب الخير يقوده إلى الجنة، ويغلق باباً من أبواب الشر يهوى به فى النار، فهى محبة خاصة كما قال عنها يحيى بن معاذ: (ليس الحب إلا ما نشأ عليه القلب ونما، وربى فى أرض المودة وسما)[٦]. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ

---

(١) أخرجه البخارى (٤٨١، ٢٤٤٦)، ومسلم (٢٥٨٥)، عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه.
(٢) المائدة: ٢.
(٣) البلد: ١٧.
(٤) الفتح: ٢٩.
(٥) أخرجه البخارى (١٦، ٢١، ٦٠٤١) ومسلم (٤٣) عن أنس رضي الله عنه.
(٦) طبقات الشافعية (٦/ ٦٥).

﴿ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [١]. لقد نبهنا الحق جل وعلا على الحذر من كل خليل يقطع عن الله [٢].

الأخوة التى صنعها الإسلام:

ينادى الإسلام أبناءه ومتبعيه فيقول لهم: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [٣]. ويقول القرآن الكريم فى آية أخرى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [٤]، وفى آية أخرى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [٥]. ويقول النبى الكريم ﷺ: «**وكونوا عباد الله إخواناً**» [٦]، وكذلك فهم المسلمون الأولون رضوان الله عليهم من الإسلام هذا المعنى الأخوى، وأملت عليهم عقيدتهم من دين الله أخلد عواطف الحب والتآلف، وأنبل مظاهر الأخوة والتعارف فكانوا رجلاً واحداً وقلباً واحداً ويداً واحدةً حتى امتن الله عليهم بذلك فى كتابه الكريم فقال تبارك وتعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [٧].

وإن ذلك المهاجر الذى يترك أهله ويفارق أرضه فى مكة ويفر بدينه، كان يجد أمامه أبناء الإسلام من فتيان يثرب، ينتظرون وكلهم شوق إليه وحب له وسرور بمقدمه، وما كان لهم سابق معرفة به ولا قديم صلة وما ربطتهم به وشيجة، من صهر أو عمومة وما دفعتهم إليه غاية أو منفعة، وإنما هى عقيدة الإسلام جعلتهم يحنون إليه، ويتصلون به ويعدونه جزءاً من أنفسهم وشقيقاً لأرواحهم، وما هو إلا أن يصل المسجد حتى يلتف

(١) الفرقان: ٢٧، ٢٨.
(٢) الإحياء (٥/ ٣٩٨).
(٣) آل عمران: ١٠٣.
(٤) الحجرات: ١٠
(٥) التوبة: ٧١.
(٦) أخرجه البخارى (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣) عن أبى هريرة رضي الله عنه.
(٧) الأنفال: ٦٣.

حوله الغر الميامين من الأوس والخزرج، وكلهم يدعوه إلى بيته ويؤثره على نفسه ويفديه بروحه وعياله ويتحدث بمطلبه هذا، حتى يؤول الأمر إلى الاقتراع، روى الإمام البخارى فيما معناه: «ما نزل مهاجرى على أنصارى إلا بقرعة»(١).

الأخوة رباط بين الماضى والمستقبل:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾(٢).

يقول سيد قطب: «**هذه الصورة النظيفة الواعية تبرز أهم ملامح التابعين، كما تبرز أخص خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق من جميع الأوطان والأزمان. هؤلاء الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار ولم يكونوا قد جاءوا عند نزول الآية فى المدينة إنما كانوا قد جاءوا فى علم الله تعالى، وفى الحقيقة القائمة فى هذا العلم المطلق من حدود الزمان والمكان - سمة نفوسهم أنها تتوجه إلى ربها فى طلب المغفرة لا لذاتها ولكن كذلك لسلفها الذين سبقوا بالإيمان وفى طلب براءة القلب من الذين آمنوا على وجه الإطلاق ممن يربطهم معهم رباط الإيمان مع الشعور برأفة الله ورحمته ودعائه. بهذه الرحمة وتلك الرأفة** ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾».

نفسية التغافر (التسامح):

التسامح والعفو عن زلات الإخوان من صفات المؤمن، الذى يكظم الغيظ ويعفو عن الناس وينتحل الأعذار لإخوانه ويحسن الظن بهم، ويختار من الكلمات ما يستل السخيمة من الصدور. وقد ضرب ابن السماك الزاهد المثل فى ذلك حينما قال له صديق: (الميعاد بينى وبينك غداً نتعاتب). فقال له ابن السماك - رحمه الله تعالى: (بل الميعاد بينى وبينك غداً

---

(١) أخرجه البخارى (٣٩٢٩) عن خارجة بن زيد بن ثابت «أن أم العلاء - امرأة من نسائهم بايعت النبى ﷺ، وأخبرته أن عثمان بن مظعون طار لهم فى السكنى حين اقترعت الأنصار على سُكنى المهاجرين... الحديث) و«طار لهم»: أى خرج لهم فى القرعة.

(٢) الحجرات: ١٠.

نتغافر). وهو جواب يأخذ بمجامع القلوب ملؤه فقه وواقعية، يشير إلى وجود قلب وراء هذا اللسان يلذعه واقع المسلمين وتؤلمه أسباب تفرقهم.

وكذلك يكون استدراك العاقل لهفوات اللسان، فلماذا التعاتب المكفهر بين الإخوة. كأنَّ كلاً منهم يطلب من صاحبه أنْ يكون معصوماً. أليس التغافر أولى وأطهر وأبرد للقلب؟ أليس جمال الحياة أن تقول لأخيك كلما صافحته: (ربِّ اغفر لى ولأخى هذا)، ثم تضمر فى قلبك أنَّك قد غفرت له تقصيره تجاهك.

أو ليس عبوس التعاتب تعكيراً يصطاد الشيطان فيه كيف يشاء؟ بلى والله.

قال الشاعر المسلم: وقد حدثت بينه وبين إخوانه جفوة فكتب إليهم:

من اليوم تعارفنا ونطوى ما جرى منا

فلا كان ولا صار ولا قلتم ولا قلنا

وإن كان لابد من العتب فبالحسنى

ثم أبى إلا أن يزيد فرحه بلقاء إخوانه وإزالة شبح القطيعة بينهم وبينه فقال:

تعالوا بنا نطوى الحديث الذى جرى ... ولا سمع الواشى بذاك ولا درى

تعالوا بنا حتى نعود إلى الرضا ... وحتى كأنَّ العهد لم يتغيرا

لقد طال شرح القال والقيل بيننا ... وما طال ذاك الشرح إلا ليقصرا

من اليوم تاريخ المحبة بيننا ... عفا الله عن ذاك العتاب الذى جرى

ثم قال للمرة الثالثة وهو يمد حبل المودة الخالصة والأخوة الظاهرة:

تعالوا نخل العتب عنا ونصطلح ... وعودوا بنا للوصل والعَوْد أحمد

ولا تخدشوا بالعتب وجه محبة ... له بهجة أنوارها تتوقد

فلا تخدش أيها الداعية محبة إخوانك ـ بكثرة العتاب وتوجيه اللوم لهم من غير احتياج، وإلا وضعت نفسك على شفير الهلاك.

ولذلك قال الإمام الشافعى: «**من صدق فى أخوة أخيه: قتل عِلله وسد خلله وعفا عن زلله**».

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [1].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله: «**مما يترتب على هذه الأخوة أنْ يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هى الأصل فى الجماعة المسلمة، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذى يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه، وأن يستباح فى سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين البغاة من إخوانهم ليردوهم إلى الصف وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة،وهو إجراء صارم وحازم كذلك.**

وذلك أن من قواعد الشرع والحكمة أيضاً أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له فى الإسلام تأثيرٌ ظاهر فإنه يحتمل له ما لا يحتمل لغيره، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره، فإن المعصية خبث وإذا بلغ الماء القلتين لم يحمل الخبث».

رابطة الأخوة بالله رابطة أدبية:

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ﴾ [2].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله: «**الأخوة علاقة أدبية شعورية لا تترتب عليها التزامات محددة، كالتزام التوارث، والتكافل فى دفع الديات، وهى التزامات النسب بالدَّم التى كانت تلتزم كذلك بالتبنى، وذلك كيلا يترك الأدعياء بغير رابطة فى الجماعة بعد إلغاء رابطة التبنى**»[3].

ويقول الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله ـ فى كتابه:(أحاديث الجمعة):«**إن الإسلام عقيدة وجنسية، ليست جنسية الدم والأرض، ولكنها جنسية الأخوة والروح، وهى أقوى**

---

(١) الحشر: ١٠ .

(٢) الأحزاب: ٥.

(٣) الظلال (٦/ ٥٣٦).

وأفضل».

وللأخوة واقع بيّن فى قصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فهى قصة من عالم الحقيقة، ولكنها فى طبيعتها أقرب إلى الرؤى الحالمة، وهى قصة وقعت فى هذه الأرض ولكنها فى طبيعتها من عالم الخلد والجنان.

لأنها مثلت حال المتآخين فى الله بأنهم :

متكاتفين يسودهم ويقودهم هدف بديع

هدف القضاء على الفساد قد استبد بكل ريع

هدف القضاء على اللصوص وكل سمسار خليع

الأخوة شعار أمتنا:

الأخوة فى الإسلام هى أخوة فى الله، على منهج الله، لتحقيق منهج الله، فهى أخوة تنبثق من التقوى والإسلام وهى ركيزة أساسها الاعتصام بحبل الله، أى عهده ومنهجه ودينه، وليست مجرد تجمع على أى تصور آخر وعلى أى هدف آخر ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة.﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [1] . هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة امتن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى، وهى نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائماً. وهكذا قامت الجماعة الأولى المسلمة فى المدينة على ركيزتين:

على الإيمان بالله، ذلك الإيمان المنبثق من معرفته سبحانه وتمثل صفاته فى الضمائر وتقواه ومراقبته واليقظة والحساسية إلى حد غير معهود إلا فى الندرة من الأموال، وعلى الحب ـ الحب الفياض الرائق والود العذب الجميل والتكافل الجاد العميق، وبلغت تلك الجماعة فى ذلك مبلغاً لولا أنه وقع لعُدَّ من أحلام الحالمين.

ومن هنا كانت هذه العودة إلى محاولة تأكيد معنى الأخوة كجزء من إحياء فقه الدعوة، فإن الأخوة شرعة دعوتنا وشعارها واسمها وميثاقها الذى واثقنا به وكتابها الذى كتبته

---

(١) آل عمران :١٠٣.

على نفسها، وما زالت تأتى دعوتنا المباركة ببصائر جديدة من تجاربها المتكررة تسرع بها إلى ابتغاء كل وسيلة إلى هذه الفضيلة، وتجميع أنصارها إلى الله على التحابب والتكافل والتسامح، ومكملات هذه الرواسى الشامخات وكمالها أن ترى من بعد وحدة الرؤية والفكر والخيال والرجاء والمصير، وحدة القلب والروح بل وحدة اللفظ أيضاً فلا تكون هناك إلا صيحات واحدة بحروف متقاربة تعبر عن مفهوم واحد، كما أراد إقبال حين قال:

نحن من نعمائه ملف إخاء   قلبنا والروح واللفظ سواء

فلم يقتنع بوحدة القلب حتى توحدت الألفاظ[1].

ولا يعرف الخير من فى قلبه مرض   ولا صلاح إذا لم تصلح الذات

متى النهوض وهذا القلب منتهك   والصف مضطرب والشمل أشتات

(١) فقه الدعوة ـ محمد أحمد الراشد ـ مجلة المجتمع العدد (١٣٥)، ص ٢٧.

المبحث الثالث
من روابط الأخوة وسبل تحقيقها

الأخوة رباط الجماعة:

يقول المودودى فى كتاب (تذكرة دعاة الإسلام): علاوة على الصفات الفردية المطلوبة للدعاة فإننا نحتاج إلى أمر آخر من الصفات والأخلاق لتأسيس حياتنا الجماعية والمحافظة عليها. إنه مما لا غنى لنا عنه لإحكام نظام جماعتنا والزيادة من تماسكه ونفعه، أن يكون بين أعضائنا التحاب والتواثق (بمعنى الأخوة) وأن يكونوا معتادين للتناصح والتواصى بينهم بالحق والصبر؛ ليقدموا بأنفسهم ويقدموا معهم غيرهم فى سبيل الدعوة، إنه لا غنى عن هذه الصفات لنظام أى جماعة فى الأرض، وإلا فلو تخلق كل فرد فى ذاته بأعلى ما يكون من الصفات الجميلة والأخلاق المحمودة، بدون أن يكونوا مرتبطين بينهم - يعنى بالأخوة - متخلقين بالصفات الجماعية المذكورة، فإنهم لا يستطيعون أبداً أن يقوموا فى وجه الباطل ويقارعوه. فإنه من الظاهر أن كل فرد فى هذه الدنيا إنما يعيش متكاملاً مع غيره من الأفراد، فإذا لم يكن بين الأفراد حسن التكافل والمواساة والإخلاص والإيثار والتضحية (وكلها تدخل ضمن الأخوة) من بعضهم لبعض، فإن الاختلاف فى طبائعهم لابد أن يقضى على ما يبتغون من التعاون بينهم؛ إذ لا يسير نظام الجماعة إلا على مبدأ أن تترك شيئاً لخاطر غيرك ويترك هذا الغير شيئاً لخاطرك وهذا الإيثار والتضحية مهم جداً.

فعن أنس ﷺ: أنّ رجُلاً سأل النبيَّ ﷺ عن الساعة فقال: متى الساعةُ؟ قال: «وماذا أعدَدْتَ لها؟» قال: لا شىء، إلا أنى أحبُّ الله ورسوله ﷺ. فقال: «**أنت مع من أحببت**».

قال أنسٌ: فما فرحنا بشىء فرحنا بقول النبى ﷺ: «**أنت مع من أحببت**» قال أنس: فأنا أحب النبى ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبى إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم[1].

---

(١) أخرجه البخارى (٣٦٨٨) عن أنس رضي الله عنه.

من سبل تحقيق الأخوة:

قال رسول الله ﷺ: «**لا تَدخُلونَ الجَنَّةَ حتى تُؤمنوا ولا تُؤمنوا حتى تحابُّوا؛ ألا أدُلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السّلام بينكم**»[(١)].

وعن قتادة رضي الله عنه قال: سُئلَ ابنُ عُمر رضي الله عنهما: هَلْ كان أصحابُ رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: «نَعَمْ، والإيمانُ فى قُلوبهم أعظمُ من الجبل»[(٢)]، وقال جابر بن سَمُرة: وكانوا يتحدثون فيأخذون فى أمر الجاهلية فيضحكون، ويبتسم ﷺ[(٣)]، وقال ﷺ: «**إنَّ الله أوحَى إلَيَّ أنْ تواضعوا حتَّى لا يفخَرَ أحدٌ على أحدٍ ولا يبغى أحدٌ على أحدٍ**»[(٤)].

وقول الرسول الكريم ﷺ: «**تَرَى المُؤمِنِينَ فى تَراحُمِهم وَتَوادِّهِمْ وتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ إذَا اشتكىَ منه عُضوٌ تداعى لهُ سائِرُ جَسَدِهِ بَالسَّهَرِ وَالحُمَّى**»[(٥)].

وقوله ﷺ: «**والذى نفسى بيده لا يُؤمِنُ عبدٌ حتى يُحِبَّ لجاره - أو قال - لأخيهِ ما يُحبُّ لنفسِهِ**»[(٦)]. وقد قيل فى صفة الإخوان: لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم كقلب واحد[(٧)].

وعلى الأخ أن يخفض جناحه لإخوانه المسلمين وله فى ذلك الأجر العظيم، كما قال عابد الحرمين الفضيل بن عياض - رحمه الله: «**لأن يلاطف الرجل أهل مجلسه ويحسن خلقه معهم خير له من قيام ليله وصيام نهاره**»[(٨)]. وهذا بيان لما روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن المؤمن ليُدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم**

---

(١)أخرجه مسلم (٥٤) عن أبى هريرة رضي الله عنه .

(٢)أخرجه عبد الرزاق فى المصنف (٢٠٦٧١ ، ٢٠٩٧٦) ، وأبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ٣١١).

(٣)أخرجه مسلم (٢٨٦٥) عن عياض بن حمار.

(٤)أخرجه مسلم (٢٣٢٢) عن جابر بن سمرة رضي الله عنه .

(٥)أخرجه البخارى (٦٠١١) ،ومسلم (٢٥٨٦) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(٦)أخرجه البخارى (١٣)، ومسلم (٤٥) واللفظ له عن أنس رضي الله عنه .

(٧)مجلة المجتمع العدد (١٦٧)، ص٢٨.

(٨)الوفيات (٤/ ٤٨).

النهار»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٩٨) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصححه الألباني.

المبحث الرابع
آفات الأخـــــوة

هناك آفات تعكر على الأخوة معانيها السامية سنذكرها فيما يلى:

الآفة الأولى: الأثرة:

إن الأثرة الغالبة آفة الإنسان، وغول فضائله، إذا سيطرت نزعتها على امرئ محقت خيره،ونمت شره، وحصرته فى نطاق ضيق خسيس،لا يعرف فيه غير شخصه فلا يهتاج بالفرح أو الحزن إلا لما يحسبه من خير أو شر،وأما الألوف المؤلفة من البشر فهو لا يعرفهم إلا فى حدود ما يصل إليه عن طريقهم ليحقق آماله أو يثير مخاوفه.

ولذلك قال ﷺ: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[١].

الآفة الثانية : التهكم والاستهزاء والسخرية من الآخرين:

ومما يمزق أواصر الأخوة: التهكم والاستهزاء والسخرية من الآخرين، وإن هذه الأخلاق تنشأ عن جهالة وغفلة، فإن من حق الضعيف أن يحمل، لا أن ينال منه. ومن حق الحائر أن نرشده لا أن نضحك عليه، وإذا وجدت بشخص عاهة أو عرضت له سيئة، فآخر ما يتوقع من المسلم أن يجعل ذلك مثار تندره واستهزائه.

الآفة الثالثة : التفاخر بالأنساب:

مما اتخذه الإسلام لصيانة الأخوة بين المسلمين ومحو الفروق الفردية المصطنعة، توكيد التكافؤ فى الدم والتساوى فى الحق وإشعار العامة والخاصة بأن التفاخر بالأنساب باطل؛ لأن أبوة آدم جمعت الناس تحت نسب واحد. هذا وإن عادة العرب فى الاستعلاء بالنسب غلبت فى مجتمعهم تعاليم الإسلام ـ أحياناً ـ فكان ذلك من أسباب الفتوق الخطيرة فى ماضينا وحاضرنا.

يقول محمد المبارك، فى كتابه: (نحو إنسانية سعيدة) [٢]:

---

(١)أخرجه مسلم (١٤٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢)ص ١٠٦.

«الأنانية طريق إلى التعاسة: إن تعصب الفرد لنفسه وأنانيته تحول دون سعادة أسرته، وعصبية الأسرة تمنعها من أن تعيش بوئام فى المجتمع، وعصبية طبعه من الأمة لنفسها تمنع الوئام بين طبقات المجتمع، وتعصب الأمة لنفسها عصبية تبعدها عن الحق والمثل الأعلى، وكلها تحول دون الإسلام والأمن فى المجتمع البشرى العام، وقد حمل العرب (المسلمون) الدواء لهذه البشرية ونشروا العدل فى الأرض ووثقوا فيها روابط الأخوة. وذلك الدواء الذى حرر البشرية من عصبيتها وأنانياتها وأهوائها ومطامعها الفردية والجماعية».

ويقول المودودى ـ رحمه الله ـ فى كتابه: (نحو ثورة سلمية): «**الأنانية والأثرة طريق الإفساد: إن عكس الأخوة الأثرة والأنانية، وهى التى تجعل الأفراد لا يعتدون على حقوق الآخرين فحسب، بل تتحول بهم إلى العنصرية والقومية والامتيازات الطبقية على مستوى كبير وتتولد منها صورة منوعة من الدمار والفساد**»[1].

الآفة الرابعة : عدم الاحتكام إلى شرع الله فى علاقات الناس:

إن العيش فى ظل مجتمع يحكمه الإسلام، لهو الكفيل الوحيد لاستتباب الروابط بين أفراده واستقامة العلاقات بينهم.

فى هذا المجتمع تحكم العبودية لله وحده علاقات الناس فالحب لله والبغض لله والموالاة لله والإعطاء لله والمنع لله. وحرى بالعلاقة التى يضبطها الإيمان والتوحيد أن تستقيم وألا تضطرب بينما يغيب هذا كله فى ظل المجتمعات الجاهلية التى تحكم علاقات أفرادها بالمصلحة الشخصية والنظرة المادية وبالشهوة والأغراض. فيتحول الناس فيه إلى حياة الغاب، حيث لا بقاء إلا لقوة المخلب والناب. موازين مقلوبة وأعراف منكرة وتصورات مشوهة. والواقع هو شاهد الصدق على ذلك.

هذا هو مجتمع الإسلام،مجتمع الأخوة فى الله وهذا هو مجتمع الجهل مجتمع الأثرة والشهوة.

---

(١)ص ٣٧.

الآفة الخامسة : ترك بعض ما أنزل الله:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله: «إذا ترك الناس بعض ما أنزل الله ـ جهلاً أو هوى ـ وقعت بينهم العداوة والبغضاء، إذ لم يبقَ هنا حق جامع يشتركون فيه، بل تقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون»[1].

وهذه الآفات هى التى عبر عنها النبى ﷺ بحالقة الدين فى قوله: «فإن فساد ذات البين هى الحالقة، لا أقول هى تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»[2].

---

(١)مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٢٧) .

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩١٩)، والترمذى (٢٥٠٩) عن أبى الدرداء رضي الله عنه وقال:«هذا حديث صحيح»، وصححه الألبانى.

المبحث الخامس
حقوق الأخوة

إن أعباء الدنيا جسام والمتاعب تنزل بالناس كما يهطل المطر فيغمر الخصب والجدب. والإنسان وحده أضعف من أن يقف طويلاً تجاه هذه الشدائد، ولئن وقف إنه لباذل من الجهد ما كان فى غنى عنه، ولو أن إخوانه هرعوا لنجدته وظاهروه فى نجاح قصده، لتيسر أمره. هذا وقد قيل: «المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه». ولهذا وجدت حقوق على الأخ تجاه إخوانه لابد له من السعى لتحقيقها، وهذه الحقوق هى:

١ ـ مساندة الإخوان له فى السراء والضراء، واستشعاراً منه بأن قوته لا تتحرك فى الحياة وحدها، بل إن قوى المؤمنين تساندها وتشد أزرها[١].

٢ ـ ومن حق أخيك عليك أن تكره مضرته وأن تبادر إلى دفعها، فإن مسه ما يتأذى به، شاركته الألم وأحسست معه بالحزن. أما أن تكون ميت العاطفة قليل الاكتراث؛ لأن المصيبة وقعت بعيداً عنك فالأمر لا يتقبل، وهذا تصرف لئيم وهو مبتوت الصلة بمشاعر الأخوة الغامرة التى تمزج بين نفوس المسلمين فتجعل الرجل يتألم للألم ينزل بأخيه. هذا والتألم الحق هو الذى يدفعك دفعاً إلى كشف مشاكل إخوانك فلا تهدأ حتى يزول غمها، فإذا نجحت فى ذلك استنار وجهك واستراح ضميرك[٢] لذلك يقول سعيد بن العاص ـ رحمه الله: «إنى لأكره أن يمر الذباب بجليسى مخافة أن يؤذيه»[٣].

٣ ـ ومن علامات الأخوة الكريمة أن تحب لأخيك النفع وأن تفرح لوصوله إليه، كما تبتهج بالنفع يصل إليك أنت، فإنه فى تحقيق هذا النفع قد تقربت إلى الله بأزكى الطاعات وأجزلها مثوبة، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله ـ عز وجل ـ سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة أو تقضى عنه ديناً،**

---

(١) خلق المسلم، الغزالى ص١٧٣، ١٧٨ ـ ١٧٩.
(٢) خلق المسلم ص ١٧١، ١٧٢.
(٣) العقد الفريد (٢/ ٤٢٩).

أو تطرد عنه جوعاً، ولئن أمشى مع أخ فى حاجة أحب إلىّ من أن أعتكف فى هذا المسجد شهراً، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه فى حاجة حتى تتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام»[(١)].

ولهذا المفهوم نرى أبا سليمان الدارانى يقول: «**إنى لألقم اللقمة أخاً من إخوانى فأجد طعمها فى حلقى**»، وهذه صورة من صور التكافل الاجتماعى الذى دعا إليه الإسلام قال تعالى: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾[(٢)].

وحول هذه الآية يقول سيد قطب ـ رحمه الله: «إن التكافل الاجتماعى هو قاعدة المجتمع الإسلامى والجماعة المسلمة مكلفة أن ترعى مصالح الضعفاء فيها، واليتامى بفقدهم آباءهم وهم صغار ضعاف أولى برعاية الجماعة وحمايتها. رعايتها لنفوسهم وحمايتها لأموالهم، ولقد كان بعض الأوصياء يخلطون طعام اليتامى بطعامهم، وأموالهم بأموالهم للتجارة فيها جميعاً، وكان الغبن يقع أحياناً على اليتامى، فنزلت الآيات فى التخويف من أكل أموال الأيتام، عندئذ تحرج الأتقياء حتى عزلوا طعام اليتامى من طعامهم، فكان الرجل يكون فى حجره اليتيم يقدم له الطعام من ماله، فإذا فضل منه شىء بقى له حتى يعاود أكله، أو يفسد فيطرح، وهذا التشدد ليس من طبيعة الإسلام فوق ما فيه من الغرم أحياناً على اليتيم، فعاد القرآن الكريم يرد المسلمين إلى الاعتدال واليسر فى تناول الأمور، وإلى تحرى خير اليتيم والتصرف فى حدود مصلحته، فالإصلاح لليتامى خير من اعتزالهم، والمخالطة لا حرج فيها إذا حققت الخير لليتيم.

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٢/ ٤٥٣) (١٣٦٤٦)، وفى الأوسط (٦٠٢٦)، وفى الصغير (٨٦١) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/ ١٩١): «رواه الطبرانى فى الثلاثة وفيه مسكين ابن سراج وهو ضعيف»، وحسنه الألبانى فى «الصحيحة» (٩٠٦).

(٢) البقرة: ٢٢٠.

فاليتامى إخوان للأوصياء، كلهم أخوة فى الإسلام أعضاء فى الأسرة المسلمة الكبيرة. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ ، فليس المعول عليه هو ظاهر العمل وشكله ولكن نيته وثمرته»[١].

ويذكر فتحى يكن: «**أن الأخوة فى نظر الإسلام هى الآصرة العقيدية التى تشد المسلمين بعضهم لبعض والرباط الربانى الذى يربط بين قلوبهم وشيجة القربى فى الله، وهى من أوثق عرى الإيمان كما يقرر نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام، حيث يقول: «إن أوثق عرى الإسلام أن تحب فى الله، وتبغض فى الله»**[٢].

والأخوة إحدى المقومات التى يعتمد عليها الإسلام فى تمكين بنية المجتمع الإسلامى وإحكام الربط بين أبنائه، والحركة الإسلامية أحوج ما تكون إلى تعميق هذه الآصرة كيما تكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، أو كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر، وكيما تؤدى الأخوة دورها المطلوب فى كيان الجماعة، بين الإسلام حقوقها وواجباتها العملية الحسية، تأكيداً على أنها تكاليف وأعباء ليست كلاماً ونظريات.

٤ ـ التناصر: إن إخوة الدين تفرض التناصر بين المسلمين، لا تناصر العصبيات العمياء، بل تناصر المسلمين المؤمنين العاملين لإحقاق الحق وإبطال الباطل، وردع المعتدى وإجارة المظلوم، فلا يجوز ترك مسلم يكافح وحده فى المعترك، بل لابد من الوقوف إلى جانبه على أى حال، لإرشاده إن ضل وحجزه إن تطاول والدفاع عنه إن هوجم والقتال معه إذا استبيح[٣].

٥ ـ تسهيل الأمور الصعبة: وهذا واجب عظيم يزداد تأكيداً إذا كنت ذا جاه فى المجتمع أو صاحب منصب تحفه الرغبة والرهبة، إذ إن للجاه زكاة تؤتى كما تؤتى زكاة المال، فإذا

---

(١) فى ظلال القرآن (١/ ٢٣٢).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٦)، عن البراء ﷺ ، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٠٩).

(٣) خلق المسلم ص ١٧٣، ١٧٤ .

رزقك الله سيادة فى الأرض وتمكيناً بين الناس فليس ذلك لتنتفخ بعد انكماش، أو تزهو بعد تواضع، وإنما يسر الله لك ذلك ليربط بعنقك حاجات لا تقضى إلا عن طريقك، فإذا أنت سهلتها قمت بالحق المفروض، وأحرزت الثواب الموعود، وإلا فقد جحدت النعمة.

٦ ـ الدعاء لهم: يكفى فى ذلك أن الله يجعل له ملكاً يقول له عند دعائه لأخيه: ولك مثله.

ومن الصور العجيبة فى دعاء الأخ لأخيه فى ظهر الغيب ما أخرجه الخطيب البغدادى فى تاريخه عن عبد الله بن الخطيب أن الطيب بن إسماعيل أبا حمدون وهو أحد القراء المشهورين كانت له صحيفة مكتوب فيها ثلاثمائة من أصدقائه، وكان يدعو لهم كل ليلة فتركهم فنام فقيل له فى نومه: يا أبا حمدون لم لم تسرج مصابيحك الليلة؟ فقعد فأسرج، وأخذ الصحيفة فدعا لواحد واحد حتى فرغ(١).

٧ ــ ومن علامات الأخوة النصيحة كما أُنشد أحدهم:

أخى لا تلن فلنا قــــدوة	لمثــــلى ومثلـك فى المأزم
تقدم فأنت الأبى الشجـــاع	ولا تتهـيب ولا تحجــــــم
عليك بهَدْى الرسول الكريم	ومنهاج قــــرآنه المحكــــم
فلا تحجزن عن الكرامــات	ولا تتشـــاءم ولا تســـأم
ولا تبتئس من سموم الضلال	ولا تخشَ من نهشة الأرقـــم
ولا تكُ من معشر تافــــه	يقيس السعـادة بالدرهـــــم

كان الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ ملحاحاً فى الحث على هذا الخلق لَهَّاجاً فى تزيينه،حتى جعله ثلث العيش،فقال:«**لم يبقَ من العيش إلا ثلاث:أخ لك تصيب من عشرته خيراً، فإن زغت عن الطريق قَوَّمَك، وكفاف من عيش ليس لأحد عليك فيه تبعة.وصلاة فى جمع تكفى سهوها وتستوجب أجرها**».فزينة الحياة عنده فى جيل التابعين ذاك،كانت ترتفع عن

(١) تاريخ بغداد (٩/ ٣١٦).

الأرض وتتناقص حتى لم يبقَ منها مما يرى إلا هذه الثلاثة التى يقدمها: الأخ الناصح المقوّم لاعوجاجك،فكم ثمن هذه الزينة فى يومنا هذا؟

ثم جعل الحسن التقدم بالنصيحة خصلة ضرورية للمؤمن الذى هو مرآة أخيه، إن رأى منه ما لا يعجبه سدَّدَه وقومه ووجهه وحاطَه بالسر والعلانية:

فالعين تبصر منها ما دنا ونأى ولا ترى نفسها إلا بمـــرآة

وعند عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النصيحة، من إحسان الصلات الإخوانية وواجباتها، وذلك قوله: «**من وصل أخاه بنصيحة له فى دينه، ونظر له فى صلاح دنياه فقد أحسن صلته وأدَّى واجب حقه**».

وأما الحارث المحاسبى فقد جعله دليل الحب فقال فى رسالته للمسترشد: «**واعلم أنَّ من نصحك فقد أحبَّك، ومن داهنك فقد غشك، ومن لم يقبل نصيحتك فليس بأخٍ لك**».

فمثل التقدُّم بالنصيحة قبولُها. فالصادق يفرح بها، والمداهن يضجر منها، وقد وصف الله تعالى الكاذبين ببغضهم للناصحين،وقال:﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [(١)]. وللناصح الحق فى أن يسقط من عينه من يرد نصيحته، وأن يستن بسنة الشافعى ـ رحمه الله ـ التى بينها فى قوله: «ما نصحت أحداً فقبل منى إلا هبته، واعتقدت مودته، ولا رد أحد علىَّ النصح، إلا سقط من عينى ورفضته» [(٢)].

والداعية اليوم له فى فعلهم موعظة ونور وبلاغ ولابد له أن يخرج من الفتن التى من حوله، بالتعاون مع إخوانه بالنصيحة والتكافل.

فعن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**المُؤمنُ مِرآةُ أخيه، والمُؤمنُ أخُو المُؤمِن يَكُفُّ عليهِ ضَيْعَتَهُ ويَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ**» [(٣)].

---

(١)الأعراف: ٧٩.

(٢)مجلة المجتمع عدد (١٨٥)، ص ٣٣.

(٣)أخرجه البخارى فى الأدب المفرد (٢٣٩)، وأبو داود (٤٩١٨) عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . وحسنه الألبانى (٦٥٣٢)، واللفظ للبخارى.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**خَيْرُ الأصْحَابِ عنْدَ الله خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرانِ عِنْدَ الله خَيرُهُمُ لجاره**»[1].

ومن الأمور الجميلة التى ذكرت فى قبول النصيحة ما قاله محمد بن محبوب: كنا عند عبد الله بن طالب التميمى المالكى يوماً فخاطبه بعض أهل مجلسه بخطاب خشن، لم يُخاطب مثله بمثله فنظر بعضهم إلى بعض، وتمادى ابن طالب فى مكالمته كأنه ما سمع مكروهاً. فلما قام الرجل، قال لنا ابن طالب: رأيت نظر بعضكم إلى بعض، وقلت فى نفسى رجلٌ قصدنى يؤدى الذى يجب من حقى عليه هنا، أصول عليه بسلطانى؟! هذا لؤم.

وإجمالاً لهذه الحقوق نذكر بعضاً من أحاديث الرسول ﷺ فى حقوق الأُخوة:

* قال رسول الله ﷺ: «**حَقُّ المُسلِم على المُسلمِ سِتٌ: إذَا لَقيتَهُ فَسَلِّم عَليه، وإذا دَعَاك فأجبْهُ، وإذا استَنَصَحك فانَصحْ لهُ، وإذا عَطَسَ فَحَمِدَ الله فَشَمِّتْهُ، وإذا مَرِضَ فَعُدْهُ، وإذا مات فاتَّبِعْهُ**»[2].

* وقال: «**لا يقيمن أحدكم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه. ولكن تفسَّحوا ـ أو توسَّعوا**»[3].

* وقال: «**إذا كُنْتُم ثَلاثَةً فلا يَتَنَاجى اثْنانِ دُونَ الآخَرِ حَتَّى تخْتِلطُوا بالناسِ، أجلَ أن ذلكَ يُحزِنُهُ**»[4].

* وعن أبى هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما الغيبةُ**»، **قالوا: الله ورسولهُ أعلمُ، قال**: «**ذكرُكَ أخاكَ بما يكرَهُ**»، قيل: أفرَأيتَ إنْ كَانَ فى أخِى ما أقولُ؟ قال: «**إنْ كَان**

(١)أخرجه الترمذى (١٩٤٤)، وأحمد (٢/ ١٦٨)، والدارمى (٢/ ٢١٥)، والحاكم (٤/ ١٦٤) عن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما، وصححه الألبانى. واللفظ للترمذى.

(٢)أخرجه مسلم (٢١٦٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه .

(٣)أخرجه البخارى (٦٢٦٩)، ومسلم (٢١٧٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤)أخرجه البخارى (٦٢٩٠)، ومسلم (٢١٨٤) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

فيهِ ما تَقولُ فَقد اغتبتَهُ. وإنْ لم يكُنْ فيه، فَقدْ بَهتَّهُ»[١].

* قال ﷺ : «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فإن كان ظالماً فلينهَهُ، فإنه له نصر، وإن كان مظلوماً فلينصره**»[٢].

* وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «**الدين النصيحة**» قال: قلنا: لمن يا رسول الله؟، قال: «**لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[٣].

* «**اللهم إنَّما أنَا بَشَرٌ، فأيُّ المُسلِمينَ لعنتُهُ، أو سَبَبتُه أو جَلَدْتُه فاجعَلْهَا لَهُ صَلاة وَزَكاة وَقُربةً تُقَربهُ بها إليك يوم القيامةِ**»[٤].

* «**لا تَحاسَدُوا، ولا تَنَاجَشُوا وَلاَ تَباغضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبع بَعضُكُمْ عَلَى بَيع بَعض. وَكُونُوا عِبَاد الله إِخْوَانًا. المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِم لا يَظلِمُهُ، وَلاَ يَخذُلُه، وَلاَ يَحقرُه. التقوى ها هنا**»، وَيشيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مرات «**بحسَب امرئ مِنْ الشَّر أنْ يَحقِرَ أخَاهُ المُسْلِم، كُلُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ حَرَامٌ. دَمُهُ ومالُهُ وعرضُهُ**»[٥].

* «**مَا مِنْ مُسْلِمَين يَلتَقيان فَيَتَصافحانِ إلاّ غُفر لَهُمَا قَبلَ أن يتَفرَّقا**»[٦].

* «**لا تجلس بين رجلين إلا بإذنهما**»[٧].

* دخل رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، وهو فى المسجد قاعدٌ فَتزحَزَحَ له رسولُ الله ﷺ فقال الرجلُ: يا رسولَ الله، إنَّ فى المكانِ سَعَةً. فقال النبى ﷺ: «**إنَّ للمسلمِ لَحَقًا إذا رآه أخوه أنْ**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) عن أبى هريرة رضي الله عنه .

(٢) روى أوله البخارى (٢٤٤٣) عن أنس وزاد عليه مسلم (٢٥٨٤) من قوله: «فإن كان...» الحديث . عن جابر رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم (٥٥) عن تميم الدارى.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٠١، ٢٦٠٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه .

(٥) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) عن أبى هريرة رضي الله عنه .

(٦) أخرجه أبو داود (٥٢١٢)، والترمذى (٢٧٢٧)، وقال: «حديث حسن غريب»، وابن ماجه (٣٧٠٣)، وأحمد (٤/ ٢٨٩، ٣٠٣)، عن البراء رضي الله عنه ، وصححه الألبانى.

(٧) أخرجه أبو داود (٤٨٤٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وحسنه الألبانى.

يتزحزَحَ له»[(١)].

* وعن جرير بن عبد الله البجلى قال: مَا حَجَبنى النبىُّ ﷺ مُنْذُ أسْلَمتُ وَلا رآنى إلاّ تَبسَّم فى وَجْهى[(٢)].

* **«لا تَحْقِرنَّ مِنَ الْمعروُفِ شَيئًا، وَلَوْ أنْ تَلْقَى أخَاكَ بِوَجهٍ طَلِقٍ»**[(٣)].

* **«لاَ تُظْهرْ الشَّماتَةَ لأخيكَ فَيَرْحَمُهُ الله وَيَبتَلِيكَ»**[(٤)].

وختامًا لمبحث حقوق الأخوة نذكر بيان الغزالى فى الإحياء ففيه تقسيم علمى دقيق:

الحق الأول: فى المال:

المواساة بالمال مع الأخوة على ثلاث مراتب:

الأولى: إن أعلى هذه المراتب، هى أن تؤثره على نفسك، وتقدم حاجته على حاجتك، وهذه مرتبة الصديقين، ومنتهى درجات المتحابين، ولقد قال الله فيهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[(٥)].

المرتبة الثانية: هى أن تترك منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك فى مالك، ولقد قال الحسن يصف الصحابة ومدى وضوح المشاركة عندهم قال: كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه.

المرتبة الثالثة: وهى أدنى مراتب الأخوة، والتى هى: أن ينزل الأخ أخاه منزلة عبده أو خادمه ليقوم بحاجته فى فضلة ماله، فإذا سنحت له حاجة وكانت عند أخيه فضلة من حاجته، أعطاه ابتداء ولم يحوجه إلى السؤال فإن أحوجه إلى السؤال فهو غاية التقصير فى

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٨٩٣٣) عن واثلة بن الخطاب، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير (١٩٦٧).

(٢) أخرجه البخارى (٣٠٣٥)، ومسلم (٢٤٧٥) عن جرير.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٢٦) عن أبى ذر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذى (٢٥٠٦) عن واثلة رضي الله عنه، وقال: «حسن غريب»، وضعفه الألبانى.

(٥) الحشر: ٩.

حق الأخوة.

وعلى هذا فاعلم أخى الحبيب إن لم تصادف نفسك فى مرتبة من هذه المراتب الثلاث مع أخيك فاعلم أنَّ عقد الأخوة لم ينعقد بعد فى الباطن وإنما الجارى بينكما مخالطة رسمية.

الحق الثانى: فى الإعانة بالنفس فى قضاء الحاجات بها قبل السؤال، وتقديمها على الحاجة الخاصة.

وهذه أيضًا لها درجات كما فى المواساة فى المال، وأدنى هذه الدرجات القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة، ولكن مع البشاشة والاستبشار، قال ميمون بن مهران يصف الأخ المسلم: من لم تنتفع بصداقته لم تضرك عداوته.

وكان فى السلف من يتفقد عيال أخيه بعد موته أربعين سنة، يقوم بحاجتهم ويتردد كل يوم إليهم ويعولهم من ماله، وأيضًا كان الواحد منهم يتردد إلى دار أخيه، فيقف على الباب ويسأل: هل لكم حاجة أقضيها؟ وكان يقوم بها حيث لا يعرفه أخوه فبهذا تظهر الشفقة والأخوة. وأعلى الدرجات أن تكون حاجة أخيك أعلى وأهم من حاجتك أو مثيلها، وأن تكون متفقدًا لأوقات حاجة أخيك غير غافل عن أحواله كما لا تغفل عن أحوال نفسك، والأهم من ذلك أنك تغنيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلى الاِستعانة به بل تقوم بحاجته، كأنك لا تدرى أنك قمت بها ولا ترى لنفسك حقًا، بسبب قيامك بها بل له المنة بقبول سعيك فى حقه وقيامك بأمره. هذا والأحب إلى الله، وهو أعلى الدرجات: ألا تقتصر على قضاء حاجة أخيك، بل تجتهد فى البداية بالإكرام والزيادة والإِيثار والتقديم على النفس والأقارب والولد.ولقد قال الحسن: إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا، لأنَّ أهلنا يذكروننا بالدنيا، وإخواننا يذكروننا بالآخرة، فأما عطاء، فقال: تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث فإن كانوا مرضى فعودوهم، أو مشاغيل فأعينوهم وإن نسوا فذكروهم.

الحق الثالث فى اللسان : بالسكوت مرة وبالنطق أخرى:

١ ـ السكوت عن المكاره:

قال أنس رضي الله عنه:(كان رسول الله ﷺ قلما يواجه الرجل بشيء يكرهه في وجهه)[1]، والسكوت هو أن يسكت عن ذكر عيوبه فى غيبته، وأن ينصحه فى حضرته، فالدين النصيحة، كما قال ﷺ: «**إن أحدكم مرآة أخيه**»[2]، ولكن ينبغى عليه أن ينفرد به عند إسداء النصيحة له، كما قال الشافعى ـ رحمه الله: (تعهدنى بنصحك بانفراد). وعليه ألا يؤذى أخاه ولا يتجسس عليه وإذا رآه فى طريقه لم يفاتحه بذكر غرض وسبب وجوده، لأنه بذلك يثقل عليه فربما هو يكره ذلك أو يحتاج أن يكذب عليه. ويسكت عن أسراره التى يبثها إليه ولا يفشيها لأحد البتة ولو بعد القطيعة.

أخى.. يجب علينا السكوت عن كل كلام يكرهه الأخ جملة وتفصيلاً، إلا إذا وجب عليه النطق فى أمر بمعروف أو نهى عن منكر، ولم يجد رخصة فى السكوت فعند ذلك لا يبالى بكراهته، فإنَّ ذلك إحسان إليه فى التحقيق وإن كان يظن أنها إساءة فى الظاهر. هذا والمانع من ذكر مساوئ عيوب الأخ أو الأهل كونها (من الغيبة المحرمة) فى حق كل مسلم، ويزجرنا عن ذلك أمران:

١ ـ أن تطالع أحوال نفسك فإن وجدت فيها شيئًا واحدًا مذمومًا (وهذا كثير) فهون على نفسك ما تراه من أخيك، وقدر أنه عاجز عن قهر تلك الخصلة الواحدة فى نفسه كما أنك عاجز عما أنت مبتلى به من خصال كثيرة.

٢ ـ الكمال لله وحده، ولهذا لو أنك طلبت منزهًا عن كل عيب لاعتزلت الخلق كافة ولن تجد من تصاحبه.

واعلم أخى الحبيب أنه كما يجب عليك السكوت بلسانك عما يؤذى أخاك، يجب عليك السكوت بقلبك، وذلك بترك إساءة الظن، فسوء الظن غيبة بالقلب وهو منهى عنه.

هذا وقد قال عيسى عليه السلام للحواريين: «كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائمًا وقد

---

(١)أخرجه أبو داود (٤١٨٢)، وأحمد (٣/ ١٥٤)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وضعفه الألبانى.
(٢)أخرجه الترمذي (١٩٢٩) عن أبى هريرة رضي الله عنه ، وضعفه الألباني.

كشف الريح ثوبه عنه؟ قالوا: نستره ونغطيه. قال: بل تكشفون عورته.. قالوا: سبحان الله من يفعل هذا؟ قال: أحدكم يسمع بالكلمة عن أخيه فيزيد عليها وينشرها بأعظم منها». واعلم كذلك أنه لا يتم إيمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه. قال بعض الحكماء: «ظاهر العتاب خير من مكنون الحقد». ولقد قيل لبعض الأدباء: كيف حفظك للسر؟ قال: أنا قبره، ثم أنشد يقول:

ومستودعى سرًا تبوأت كتمه فأودعته، صدرى فصار له قبرا

وقد قال بعض الحكماء: لا تصحب من يتغير عليك عند أربع: عند غضبه ورضاه، وعند طمعه وهواه، بل ينبغى أن يكون صدق الأخوة ثابتًا على اختلاف هذه الأحوال.

وترى الكريم إذا تعزم وصله يخفى القبيح ويظهر الإحسان

وترى اللئيم إذا تقضى وصله يخفى الجميل ويظهر البهتانا

وهذا العباس يوصى ابنه عبد الله رضي الله عنهما، فيقول: «إنى أرى هذا الرجل - يعنى عمر بن الخطاب رضي الله عنه - يقدمك على الأشياخ فاحفظ عنى خمسًا:

لا تفشيَنَّ له سرًا، ولا تغتابن عنده أحدًا، ولا تجريَنَّ عليه كذبًا، ولا تعصينَّ له أمرًا، ولا يَطَّلِعَنَّ منك على خيانة». وأشد الأسباب لإثارة نار الحقد بين الإخوان: المماراة والمنافسة، فإنَّها غير التقاطع. فإن التقاطع يقع أولاً بالآراء ثم الأقوال ثم بالأبدان. هذا والمماراة مضادة لحسن الخلق[١].

وقال الشافعى: «**من وعظ أخاه سرًا فقد نصحه وزانه، ومن وعظ أخاه علانيةً فقد فضحه وشانه**».

٢- النطق بالمحاب: إن الأخوة كما تقتضى السكوت عن المكاره، تقتضى أيضًا النطق بالمحاب بل هو أخص بالأخوة؛ لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور. لذلك قال عمر رضي الله عنه: «**ثلاث يصفين لك ود أخيك: أن تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له فى المجلس،**

(١) الإحياء (٢/ ١٧٧ - ١٨٠).

وتدعوه بأحب الأسماء إليه».

ومن أعظم الأسباب فى جلب المحبة:أن تثنى على أخيك فى غير وجهه بما تعرف من محاسنه وفعله وجميع مايفرح به،ومن الأسباب أيضًا الدفاع عنه فى غيبته.

الحق الرابع : العفو عن الزلات والهفوات:

هفوة الصديق لا تخلو إما أن تكون فى دينه بارتكاب معصية، أو فى حقك بتقصيره فى حق من حقوق الأخوة. هذا ولقد ذهب الصحابة والسلف إلى عدة وسائل وطرق لمعالجة هذه الزلات والهفوات التى يقع فيها الأخ فى حق أخيه.

فهذا أبو الدرداء ﵁ يقول: «إذا تغير أخوك، وحال عما كان عليه، فلا تدعه لأجل ذلك. فإنَّ أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى».

وكذلك حكى عن آخرين من السلف الصالح أنه انقلب أحدهما عن الِاستقامة فقيل لأخيه: ألا تقطعه وتهجره، فقال: «أحوج ما كان إلىَّ فى هذا الوقت لما وقع فى عثرته،علىَّ أن آخذ بيده، حتى أنقذه من المصائب وأدعو له بالعودة إلى ما كان عليه». وذلك فى أول طريق الانحراف عن الاستقامة.

وقال أحد السلف فى ستر زلات الإِخوان: (ود الشيطان أن يلقى على أخيكم مثل هذا حتى تهجروه وتقطعوه، فماذا أبقيتم من محبة عدوكم). هذا لأن التفريق بين الأحباب من محابّ الشيطان. كما أن اقتراف المعاصى من محابّه ـ فإذا حصل للشيطان أحد غرضيه فلا ينبغى أن يضاف إليه الثانى[1].

الحق الخامس : الدعاء له ولأهله:

اعلم أخى الحبيب أنّ الدعاء لأخيك فى مماته، بمنزلة الهدية له فى حياته، لذلك قال بعض السلف ـ رضوان الله عليهم: أين مثل الأخ الصالح، أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون بما خلفت وهو منفرد بحزنك، مهتم بما قدمت عليه وما صرت إليه، ويدعو لك

---

(١)الإحياء (٢/ ١٨٣ ـ ١٨٦).

فى ظلمة الليل، وأنت تحت أطباق الثرى[١].

الحق السادس : الوفاء والإِخلاص لله لا للبشر :

والوفاء هو الثبات على الحب، وإدامته إلى الموت معه، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه، فإنَّ الحب إنما يراد للآخرة، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعى، وحادثة إكرام الرسول ﷺ للعجوز التى كانت تأتيهم فى أيام خديجة رضي الله عنها خير دليل. وكلما انقطع الوفاء بعدم دوام المحبة شمت الشيطان، فإنه لا يجد متعاونين على بر متواضعين متحابين فى الله، إلا يجهد نفسه لإفساد ما بينهما. ولقد قال بشر الحافى: إذا قصر العبد فى طاعة الله سلبه الله من يؤنسه. وذلك لأن الإِخوان مسلاة عن الهموم وعون على الدين. واعلم أخى ـ حفظك الله ـ أنَّ من الوفاء ألا تتغير حالك فى التواضع مع أخيك، وإن ارتفع شأنك واتسعت ولايتك وعظم جاهك، فالترفع على الإِخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم.

ومن تمام الوفاء أن تكون شديد الجزع من المفارقة والقطيعة[٢].

الحق السابع : التخفيف وترك التكلف والتكليف:

قال بعض الحكماء: من جعل نفسَه عند الإخوان فوق قدره، أَثِم وأَثِموا ومن جعل نفسه فى قدره تعب وأتعبهم ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا، هذا وتمام التخفيف بَطىّ بساط التكليف حتى لا يستحى منه فيما لا يستحى من نفسه. قال علىّ رضي الله عنه: شر الأصدقاء من تكلف لك، ومن أحوجك إلى مداراة، وألجأك إلى اعتذار، ويقول جعفر الصادق رضي الله عنه: «**أثقلُ إخوانى على من يتكلف لى وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبى: من أكون معه كما أكون وحدى**»، هذا وقد قيل: «**من سقطت كلفته دامت ألفته، ومن خفَّت مؤنته دامت مودته**»[٣].

---

(١)الإحياء (٢/ ١٨٦).
(٢)الإحياء (٢/ ١٨٧).
(٣)الإحياء (٢/ ١٨٨ ـ ١٩١).

الحق الثامن : التزاور في الله:

في هذا الحق يرغب النبي ﷺ بقوله: «**ألا أخبركم برجالكم من أهل الجنة؟ النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والصديق في الجنة، والمولود في الجنة، والرجل يزور أخاه في ناحية المصر في الله في الجنة**»[1] .

ومن لطائف الزيارة ما ذكر أن الإمام النحوي الخليل بن أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ عاد بعض تلامِذَته فسُرّ التلميذ بزيارة شيخه له، واستقبله قائلاً: «**إن زُرْتَنَا فبفضلك، وإن زُرناكَ فلفضلك فلك الفضل زائرًا ومزورًا**».

(١)أخرجه الطبراني في الكبير (٩١/ ١٤٠) (٣٠٧) والأوسط (٥٦٤٨) عن كعب بن عجرة رضي الله عنه ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٣١٢): « رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه السري بن إسماعيل وهو متروك » .

المبحث السادس
ثـمرات الأخـــــوة

قـــال تعـــالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ (١).

يقول سيد قطب ـ رحمه الله: «هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله، يمتن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى، وهى نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائمًا. وهو هنا يذكرهم كيف كانوا فى الجاهلية أعداءً. وما كان قوم أشدَّ عداوة من الأوس والخزرج فى المدينة، وهما الحيان العربيَّان فى يثرب يجاورهما اليهود الذين كانوا يؤججون هذه العداوات وينفخون فى نارها، حتى تأكل روابط الحيين جميعًا، ومن ثم يجد اليهود مجالهم الفاسد الذى لا يعملون إلا فيه، ولا يعيشون إلا معه، فألَّف الله بين قلوب الحيين بالإسلام الذى وحد هذه القلوب المتنافرة، ومَدَّ لهم حبل الإخاء الذى اعتصم به الجميع، فأصبحوا بنعمته إخوانًا. ولا يمكن أن يجمع القلوب إلا أخوة فى الله تتضاءل إلى جانبها الأحقاد التاريخية، والثارات القبلية والأطماع الشخصية والآفات العنصرية.

فالأخوة فى الله نعمة يهبها الله للجماعة المسلمة ويهبها لمن يحبهم من عباده دائمًا(٢).

ويترتب على الأخوة فوائد وثمرات يجتنيها من يحب فى الله ويبغض فى الله وهى:

١ ـ أنه يتذوق حلاوة الإيمان فيحيا حياة السعداء.

٢ ـ أنَّه يحيطه الله ـ تعالى ـ برحمته ويقيه شدائد يوم القيامة.

٣ ـ أنه ينال الأمن والسرور ويعد فى صفوف السبعة الذين يظلّهم الله برضوانه وإحسانه وظله يوم القيامة.

٤ ـ أنَّه تكون دوحة إيمانه مورقة مزهرة مباركة.

---

(١) آل عمران: ١٠٣.
(٢) الظلال (١/ ٤٤٢).

٥ ـ أنَّه يستشعر زيادة محبة الله ورسوله ويجد حلاوتها في قلبه.

٦ ـ المحبة فى الله هى القبول وعنوان التوفيق.

٧ ـ إن زيادة درجات الجنة بجوار منازل الأبرار، هى فى صدق الإخاء فى الله.

٨ ـ إن المتحابين فى الله قلوبهم مطمئنة آمنة من الأهوال تتلألأ وجوههم نورًا وسرورًا يوم القيامة.

٩ ـ أنَّها عروة الإيمان الوثقى من تمسك بها نجا.

١٠ ـ أنَّها من بشائر الأعمال الصالحة الموصلة إلى قبول الله تعالى الدالة على الهداية والنجاح.

١١ ـ إن المتحابين فى الله مع الذين أنعم الله عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين يوم القيامة.

١٢ ـ إن الإخوة فى الله سلوك حسن، وصحبة نافعة وسيرة طيبة ونية صالحة وعيشة سعيدة.

١٣ ـ إن الداعى إلى المحبة والأخوة له نصيب فى الخير وسهم فى الأجر.

١٤ ـ إن الحب فى الله يدل على كمال الدين وصفاء السريرة والعمل المتقن وخوف الله ورعاية جانبه واحترام كتابه وحب سنّة نبيه.

١٥ ـ إنه لا يتسرب إلى من يحب فى الله الإشراك بالله تعالى: (الذى ينحرف بالمحبة إلى عبادة الأشخاص وتأليههم) [(١)].

١٦ ـ الأخوة تعين على طاعة الله تعالى مصداقًا لقول الرسول ﷺ: **«مَنْ وَلِى مِنْكُمْ عَمَلاً فأَرَادَ الله بِهِ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَزِيرًا صَالِحًا، إِنْ نَسِى ذَكّرَهُ وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ»** [(٢)].

---

(١) الترغيب والترهيب: (٤/ ٣٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٩٣٢)، والنسائى (٤٢٠٤) واللفظ له ، وأحمد (٦/ ٧٠) عن عائشة رضي الله عنها، وصححه الألبانى.

وإلى ذلك أشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله:(عليك بإخوان الصدق، فعش فى أكنافهم فإنهم زينة فى الرخاء وعدة فى البلاء).

١٧ـ الأخوة تكافل نفسى وإحساس بحاجات الأخ، والسعى لقضائها، مصداقًا لقوله ﷺ:«**لئن أمشى مع أخ فى حاجة أحب إلىَّ من أن أعتكف فى هذا المسجد**[١] **شهرًا..**»[٢].

١٨ـ الأخوة تكافل مادى لقول الرسول ﷺ: «**مَنْ نَفَّسَ عن مؤمن كُربةً من كُرَبِ الدنيا نَفَّسَ الله عنه كربة من كربِ يوم القيامة، ومن يسّر على مُعْسِرٍ يسَّر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن سَتَرَ مسلمًا ستره الله فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه**»[٣].

١٩ـ الأخوة تكاليف اجتماعية تتناول أبسط الواجبات وأهمها. يقول الرسول ﷺ: «حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه»[٤].

٢٠ـ الأخوة أنس ومحبة وتكاتف، يقول الرسول ﷺ:«**لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحلُّ لمسلم أن يَهجُر أخاهُ فوق ثلاثة أيام**»[٥].

ويقول ﷺ:«**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**»[٦]. ويقول ﷺ: «**كُل مَعْرُوف صَدَقَةٌ، وإنَّ من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طليق، وأن تفرغ من دلوك فى إناء أخيك**»[٧]. ويقول ﷺ:«**تهادوا تحابوا تذهب الشحناء**»[١].

---

(١)يعنى المسجد النبوى.

(٢)أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٢/ ٤٥٣) (١٣٦٤٦) عن ابن عمر ، وابن أبى الدنيا فى قضاء الحوائج (٣٦) عن بعض أصحاب النبى ﷺ ، وحسن إسناده الألبانى فى الصحيحة (٩٠٦) .

(٣)أخرجه مسلم (٢٦٩٩) عن أبى هريرة رضي الله عنه .

(٤)أخرجه مسلم (٢١٦٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه .

(٥)أخرجه البخارى (٦٠٦٥) ، ومسلم (٨٥٥٢) عن أنس رضي الله عنه .

(٦)أخرجه مسلم (٢٦٢٦) عن أبى ذر رضي الله عنه .

(٧)أخرجه الترمذى (١٩٧٠)، وأحمد (٣/ ٣٤٤ ، ٣٦٠)، والبخارى فى الأدب المفرد (٣٠٤) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، قال الترمذى : « حسن صحيح » .

٢١ـ الأخوة غيرة ووفاء: يقول الرسول ﷺ: «**من رد عن عرض أخيه، رد الله عن وجهه النار يوم القيامة**»[٢]. ويقول ﷺ: «**دعوة الأخ لأخيه بِظَهر الغيب مستجابة، عند رأسه مَلكَ مُوكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل**»[٣]

(١)أخرجه مالك فى الموطأ (٢/ ٩٠٨) عن عطاء الخراسانى مرسلاً. وقال ابن عبد البر فى التمهيد (٢١/ ١٢) ط. أوقاف المغرب: «هذا يتصل من وجوه شتى حسان كلها»، وضعفه الألبانى فى ضعيف الترغيب والترهيب (١٦٣١).

(٢)أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٩، ٤٥٠)، والترمذى (١٩٣١) وقال: «هذا حديث حسن»، عن أبى الدرداء رضي الله عنه .

(٣)أخرجه مسلم (٢٧٣٣) عن أبى الدرداء رضي الله عنه .

المبحث السابع
أثر المحبة في البناء الاقتصادى

لكل نظام قواعد يقوم عليها بحسب البناء العقائدى، والانبثاقات التشريعية والسلوكية التى تخرج منه، ولذلك فالإفرازات الاقتصادية والتشريعية والحياتية التى يعيشها الناس إنما هى انعكاسات لما يعتقدونه. ومن هذه الأمور «القضية الاقتصادية» التى تشغل الجميع فى هذه الأيام، ولذلك سيكون الحديث عنها من القاعدة السالفة الذكر.

واقع اليـــــوم:

من نافلة القول أن نقرر أن النظم الاقتصادية السائدة فى دنيانا اليوم نظامان، تنقسم حيالهما دول العالم جميعًا، فالبعض يأخذ بالنظام الاقتصادى الاشتراكى كما يأخذ البعض الآخر بالنظام الاقتصادى الرأسمالى، ونتيجة لهذين النظامين يعيش العالم أجمع نكبات وأزمات تنخر فى جسم الحياة البشرية، لذلك فالناس بطبعهم وحرصهم على النفع يلهثون وراء نظام اقتصادى يخفف من آلامهم ويضمد من جراحاتهم ويؤمن لهم الحياة الكريمة الهنيئة.

الواحة الطيبة:

إن الواحة التى يستظل بها الناس من هجير الجاهلية الشرقية أو الغربية هو منهج الله الكامل الذى لا يتجزأ والذى ينشئ مجتمعًا إسلاميًا متكاملاً لا ينفصل فيه النظام الاقتصادى عن النظام الأخلاقى والسياسى والاجتماعى والعسكرى، فهو دين الله الكامل المتناسق بجميع جزئياته، ولذلك لا يتهيأ وضع قواعد أى قضية من القضايا التى ذكرنا فى الموضع الصحيح بغير مراعاة ذلك الارتباط بين الجزء والكل، وموضع الجزء من الكل.

لماذا الجـزء مع الكل؟

إن ارتباط النظام الاقتصادى الإسلامى بالعقيدة يحقق أموراً كثيرة:

١ـ إنه يوفر للإنسان المسلم عنصر الرقابة الذى يشعر به المسلم فلا يأتى من الأعمال إلا

ما يتفق مع المصلحة العامة.

٢ ـ إن المسلم فى كل ما يأخذ به من النظم عن فكرة ثابتة وهى:«أن الدين هو موجه للحياة»،كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ [1].

٣ ـ إنه يحارب كل مفاسد البنية الاجتماعية نحو:

أ ـ استغلال حاجة الضعيف.

ب ـ استخدام طرق التجارة الفاسدة.

جـ ـ سلوك طرق اللصوصية بصورها المختلفة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٨٨﴾ [2].

وبعد هذه التوطئة نأتى لنتعرض إلى قضية المحبة والأخوة وأثرهما فى البناء الاقتصادى انطلاقاً من أن البناء الإسلامى وحدة متكاملة يشد بعضها بعضاً.

الرحمة والمحبة تستلزم الرفق والشفقة:

أخرج البخارى فى صحيحه عن أبى قتادة الحارث بن ربعى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنى لأقوم إلى الصلاة وأريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى كراهية أن أشق على أمه**»[3].

هذا الحديث كما أنه فى منطوقه يدل على عدم الإطالة فى الصلاة عند وجود أمر متعلق بآحاد المصلين مخافة الحرج، فهو فى مفهومه يدل على أوسع من ذلك فالنص يعطى ظلالاً على علاقة المحبة التى يجب أن تحيط فى المجتمع بين من بيده الأمر أيا كانت صورة الولاية التى عنده ومن هم تحت ولايته، وفى موضوعنا هذا يكون من باب الأخوة والمحبة

(١)طه:٦.

(٢)البقرة: ١٨٨.

(٣)أخرجه البخارى (٧٠٧) عن أبى قتادة رضي الله عنه.

الإسلامية أن تنتهج المؤسسات الاقتصادية الإسلامية طريق الرفق بمن تتعامل معهم إن كانوا مستهلكين أو مودعين أو متعاملين وذلك بأن تضع الموازين الأخوية ومستلزماتها كهدف قبل أهداف الربح والخسارة.

لذلك قال ﷺ فى الحديث الصحيح :«والذى نفسى بيده لا يضع الله رحمته إلا على رحيم» قالوا: كلنا يرحم، قال: «**ليس برحمة أحدكم صاحبه، يرحم الناس كافة**»[(١)].

إدخال السرور على المسلمين من عناوين محبتهم:

إظهار المعروف فى المجتمع الإسلامى وانتشاره بين الناس مما يزين وجه المجتمع ويحلى مذاقه لذلك قيل: لم أرَ كالمعروف، أما مذاقه فحلو، وأما وجهه فجميل[(٢)].

وهذا المعنى الجميل أصَّله النبى ﷺ فى قوله: «**أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور يدخله على المسلم، أو يكشف عنه كربة أو يقضى عنه ديناً أو يطرد عنه جوعاً، ولئن أمشى مع أخى فى حاجة أحب إلىَّ من أن أعتكف فى هذا المسجد ـ مسجد الرسول ـ شهراً... الحديث**»[(٣)]،وهذا الطرح الجميل إن كان يستطيع أن يكتبه الكاتبون ويعظ به الواعظون فالمؤسسات المالية الإسلامية والفعاليات الاقتصادية المتوضئة تستطيع أن تجسده واقعاً عملياً سلوكياً يضفى على المجتمع حلة من المحبة والإخاء، وذلك من خلال حديث النبىﷺ الذى يرويه أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:«**من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له**»، قال أبو سعيد:فذكر رسول اللهﷺ أصنافاً من المال حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل[(٤)]، وهذا التيسير وهذه الأخلاق من أهم الخنادق التى يجعلها

---

(١)أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٤٢٥٨) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (١١٠٦٠) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/ ١٨٧): « رواه أبو يعلى ورجاله وثقوا إلا أن ابن إسحاق مدلس»، وأودعه الألبانى فى الصحيحة (١٦٧).

(٢)الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٣٤٩).

(٣) سبق تخريجه ص ٩٤.

(٤)أخرجه مسلم (١٧٢٨) عن أبى سعيد رضي الله عنه .

الإنسان وتجعلها المؤسسات بينها وبين نار الدنيا والآخرة. ومن ذلك قوله ﷺ وهو يحكى قصة لأصحابه فى رجل أدخلته صنائع المعروف الجنة: «حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان رجلاً يخالط الناس، وكان موسراً ، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر. قال الله عزوجل: فنحن أحق بذلك منه فتجاوزوا عنه»[١].

ولذلك قيل: صاحب المعروف لا يقع، فإذا وقع أصاب متكأ[٢]. فالمؤسسات الاقتصادية الإسلامية عندما تشيع شعار المحبة والأخوة، إنما هى تحافظ على نفسها من السقطات الاقتصادية والتقلبات المالية التى تعيشها المجتمعات الربوية.

حسن الظن يحفظ البناء؛:

إن حسن الظن كما أنه من أساسيات الأخلاق الإسلامية هو كذلك من مستلزمات مجتمع المحبة والأخوة، فنحن إن تحدثنا عن الجانب الأخوى من جهة المؤسسات تجاه عامة المسلمين نبين حق المؤسسات الاقتصادية الإسلامية على المواطن المسلم والذى يتبلور بأمور أساسية منها: حسن الظن، وعدم التسرع بالحكم، والتثبت من الأمور؛ لأنه كما قال النبىﷺ فى الحديث الصحيح : «**بئس مطية الرجل زعموا**»[٣].

وكما قيل: «لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله فى هتك أعراض منتقصيهم معلومة، ومن وقع فيها بالثلب، ابتلاه الله قبل موته بموت القلب»[٤]، فإن كان علماء الخير هم منارات الهدى، ومصابيح الدجى فإن المال الحلال والكسب الطيب هو أساس وجود هؤلاء، وقد كان العلماء ـ رحمهم الله ـ يمتدحون بذلك فقد روى فى ذلك قصص كثيرة.

وقد كان أحد العلماء تصيبه غفلة فيقول: هذه من أثر تلك الرضعة ـ ويقصد بذلك أن جارة له أرضعته رضعة فى مرض أمه. وكلام العلماء فى أثر المال الحلال فى إنبات اللحم الطيب

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٦١) عن أبى مسعود البدرى رضي الله عنه .
(٢) الآداب الشرعية (١/ ٣٥١).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٧٢) ، وأحمد (٤/ ١١٩) ، والبخارى فى الأدب المفرد (٧٦٢ ، ٧٦٣) عن أبى مسعود الأنصارى ، وصححه الألبانى فى «الصحيحة» (٨٦٦).
(٤) الرد الوافر لابن ناصر ١٩٧ .

والفهم الخير لا حصر له.

فإذا ما تقرر ذلك، وعرفنا أن الوسائل تأخذ حكم الغايات كان واضحاً ومستساغاً أن نستبدل كلمة العلماء بالمؤسسات الاقتصادية الإسلامية ونكمل الجملة.

إسداء النصيحة طريق للإقلال من الفضيحة:

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى: «نهاية الكمال أن يكون الشخص كاملاً فى نفسه مكملاً لغيره»[(١)]، فعملية النصيحة التى يقوم بها المسلم لمؤسساته الإسلامية ستكون أداة خير فى الحد من الأخطاء البشرية، ومن ثم لا يجد المتربصون من المنافقين والماكرين طريقاً للهجوم على هذه المؤسسات؛لذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أعظم ما عبد الله به نصيحة خلقه».

النتيجـــة الطيبـــة:

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ [(٢)].

إن إحسان الظن وإسداء النصيحة سبيل وطريق للقضاء على الخلاف الذى يهدد المسلمين ويفرق شملهم، وقد قيل فى تصوير الخلاف: «**لو كان للفراق صورة لارتاعت لها القلوب ولهدت الجبال**»[(٣)].

ومن المقرر فى قواعد الشرع أنه لا عيب فى أن يجتهد العالم فيخطئ، وأن تبذل المؤسسة جهدها فتجانب الصواب، ولكن يبقى للمجتهد أجره وعليه خطؤه، والإسراع بالتشهير والانتقاص من الآخرين والغرور.. كل أولئك علامة قلة العلم وسبيل للاختلاف، وقد قال الإمام الثقة سحنون المولود سنة ١٦٠هـ: «**يكون عند الرجل باب واحد من العلم فيظن أن الحق كله فيه**»[(٤)].

---

(١)مفتاح دار السعادة (١/ ٨٠).

(٢)الأعراف: ٥٨.

(٣)الوافى بالوفيات (٤/ ٢٧٥).

(٤)ترتيب المدارك (٢/ ٦١٥).

وهذا المنهج سيحد من مسلك الجدل والمراء الذى هو سبيل الفتنة والضغينة وقساوة القلب، ولذلك قال خالد بن يزيد بن معاوية: «**إذا كان الرجل ممارياً لجوجاً معجباً برأيه فقد تمت خسارته** »[(١)].

خاتمة وتحذير:

إن المال وسيلة فى المجتمع إن استخدم للخير كان عماراً للأرض ومن عليها، وإن استخدم لغير ذلك كان دماراً ونكداً ويتحقق فيها حديث النبى ﷺ: «**سيصيب أمتى داء الأمم» فقالوا: يا رسول الله، وما داء الأمم؟ قال: «الأشر والبطر، والتكاثر، والتناجش فى الدنيا، والتباغض، والتحاسد، حتى يكون البغى»**[(٢)].

وبعد فأسأل الله العلى القدير أن يجعلنا متحابين، متآخين، يجمعنا الإسلام ويحفظنا الإيمان، ونعيش فى أمن وإيمان، فضلاً من الله الرحيم الرحمن.

---

(١)معجم الأدباء (١١/ ٤٠).

(٢)أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/ ١٦٨) ، والطبرانى فى الأوسط (٩٠١٦) عن أبى هريرة رضي الله عنه ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧/ ٣٠٨) : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه أبو سعيد الغفارى لم يرو عنه غير حميد ابن هانئ ، وبقية رجاله وثقوا » ، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٦٥٨) .

المبحث الثامن
وقفات مع ركيزة الأخوة

الناس فى العادة يبحثون عما هو مفقود إن كان فى الأعماق غاصوا له وإن كان فى التراب نقبوا عنه، لا لشىء إلا لعلمهم أنهم يحققون سبقاً أو يكتشفون غالياً أو ينالون كسباً.. وكل إنسان يبحث عن مراده وغايته وكما قيل: «همك على قدر ما أهمك خواطرك من جنس همك»، فإن كان الناس يبحثون فى الأعماق عن اللؤلؤ والمرجان، وفى التراب عن معدن الذهب والماس الثمينين، فإن الدعاة من أهل الحركة والجهاد يبحثون عن الثواب والأجر وما يثقل الميزان... وعلى ذلك ستكون هذه السطور أصابع بحث وتنقيب عن أصل يربط عباد الرحمن، ويوثق عرى الإيمان، ويجمع على الحق قلوب أهل الإسلام، ويغيظ أهل الأهواء من أتباع الشيطان... إنه «أصل الإخاء فى الله» فالأخوة فى الله تعالى عبادة عظيمة تأتى مكانتها من كونها القاعدة الملازمة للإيمان فى البناء الإسلامى فهى التي تعطيه القوة والصلابة والحيوية التى من خلالها يستطيع أصحاب هذا البناء أن يؤدوا دورهم فى الحياة البشرية... ولكونها كذلك رباطاً بين الماضى والمستقبل قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[1].

الأخوة عبادة:

الناظر فى صفحات الشريعة يرى أن الله ـ سبحانه ـ قد ذكر لنا فى تشريعه للعبادات الأجر المترتب عليها لكى تتحرك النفوس لامتثالها والإسراع إليها فنجد الشرع يتحدث عن جزاء الصيام: «**إن الصوم لى وأنا أجزى به**»[2]، ونرى فى ثواب الحج: «**من حج ولم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه**»[3]، وعن الجمعة: «**الجمعة إلى الجمعة كفارة لما**

(١) الحشر: ١٠.
(٢) أخرجه البخارى (٧٤٩٢)، ومسلم (١١٥١) عن أبى هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخارى (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠) عن أبى هريرة رضي الله عنه.

بينهما ما لم تغش الكبائر»[١]، وهكذا فى عبادتنا التى نتحدث عنها «الأخوة» نرى الأجر العظيم المترتب عليها:

١ ـ هى السبيل إلى ظل الله الذى لا ظل إلا ظله:

ففى الحديث المتفق عليه من حديث أبى هريرة ﷺ: «**سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله**» فذكر منهم: «**ورجلان تحابا فى الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه**»[٢].

٢ ـ سبيل إلى الإيمان ودخول الجنة:

ففى حديث مسلم من حديث أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذى نفسى بيده، لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا**»[٣].

٣ ـ طريق إلى علو المكانة فى الآخرة:

ففى حديث الترمذى الذى قال عنه حسن صحيح من حديث معاذ ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله ـ عز وجل: المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور، يغبطهم النبيون والشهداء**»[٤]، وهم على منابر عالية لأنهم قد استعلوا على أهوائهم وحظوظ أنفسهم فى الدنيا، استعلوا على كل طاغوت وباطل... فكان الجزاء من جنس العمل أن جعلهم الله فى منابر عالية.. وكذلك وصف المنابر بأنها من نور، وفى رواية: «من ياقوت» لأنهم ساروا على نور الله فى الدنيا، على الطريق المستقيم الذى لا يحيد عنه إلا هالك.

٤ ـ الثمن لحلاوة الإيمان:

ففى الحديث المتفق عليه عن أنس ﷺ عن النبى ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله...**»

(١)أخرجه مسلم (٢٣٣) عن أبى هريرة ﷺ .

(٢)سبق تخريجه .

(٣)أخرجه مسلم (٥٤) عن أبى هريرة ﷺ .

(٤)أخرجه الترمذى (٢٣٩٠) ، وأحمد (٥/ ٢٣٩) عن معاذ بن جبل ﷺ ، وصححه الألبانى .

[(١)].

٥ ـ الطريق إلى محبة الله سبحانه:

ففى الحديث الذى أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ: «**أن رجلاً زار أخاً له فى قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لى فى هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال: لا، غير أنى أحببته فى الله تعالى، قال: فإنى رسول الله إليك أخبرك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه**»[(٢)].

كانت هذه بعض الآثار المترتبة على الأخوة فى الدنيا والآخرة وهى نصوص واضحة فى منطوقها بينة فى مفهومها لا تحتمل تأويلاً... فهل يعجز بعد ذلك المسلمون عن التشمير لها والسعى لتحقيقها؟! هذا من حيث الثمار المجنية من شجرة الأخوة.أما من حيث الأجر المترتب عليها فسنأخذه من مفهوم بعض النصوص الواردة فى الكلام الربانى والهدى الإلهى.

فى الحديث المتفق عليه عن أبى سعيد الخدرى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد يصوم يوماً فى سبيل الله، إلا باعد الله بذلك اليوم عن وجهه النار سبعين خريفاً**»[(٣)].

فهذه المباعدة المنصوص عليها بمنطوق الحديث نتيجة صبره يوماً من الفجر إلى المغرب عن شهوة فرجه وبطنه،فكيف بمن يصبر نفسه طوال حياته مع إخوانه مضحياً بذلك لكثير من الجاه والمال معرضاً حياته لتساؤلات كثيرة من قبل من لا يرضون لمسلم أن يلتقى مع مسلم تحت طاعة الله.. فالأخوة بلا شك تحتاج إلى صبر ومصابرة ومجاهدة، فالأمر ليس سفراً قاصداً، ولا نزهة قصيرة ولا جلسة بسيطة، بل هو طريق تجذب السائر فيه زينة الحياة الدنيا وترهبه سطوة من أعماه الله واتبع هواه... لهذا الأمر كان الخطاب موجهاً ابتداء إلى النبى ﷺ، ومن ثم إلى المسلمين... فيقول الله ـ عز وجل ـ فى سورة

---

(١)أخرجه البخارى (١٦) ، ومسلم (٤٣) عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

(٢)أخرجه مسلم (٢٥٦٧) عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

(٣)أخرجه البخارى (٢٨٤٠) ، ومسلم (١١٥٣) عن أبى سعيد الخدرى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

الكهف: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [1].

وكذلك ما ورد بشأن الاعتكاف وأنه «**من اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق..**» [2] فهذا حبس للنفس عن الخروج من محيط المسجد من صلاة الفجر إلى المغرب كان له هذا الأجر العظيم، فكيف بمن يحبس نفسه مع إخوانه على طاعة الله والعمل فى سبيله !!

وهذه العبادة المفقودة فيها حقوق متبادلة بين الطرفين نذكر منها:

١ ـ الدعاء المتبادل بين المتحابين فى الله: شعارهم بذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ ﴾ [3].

٢ ـ اجتناب سوء الظن: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ ﴾ [4].

وقال ﷺ: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث**»[5].

٣ ـ ترك الغيبة: قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ ﴾ [6]، وفى رواية مسلم من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما الغيبة**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم: قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**»، قيل: أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**»[7]، وفى حديث المعراج الذى رواه أبو داود عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: « **لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل؟ قال : هؤلاء الذين**

---

(١)الكهف: ٢٨.
(٢)أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٣/ ٤٢٤) (٣٩٦٥)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣)الأعراف: ١٥١.
(٤)الحجرات: ١٢.
(٥)أخرجه البخارى (٥١٤٣) ، ومسلم (٢٥٦٣) عن أبى هريرة رضي الله عنه .
(٦)الحجرات : ١٢.
(٧)أخرجه مسلم (٢٥٨٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم » [١].

فيا للعجب من دعاة يدرسون مثل هذه الأحاديث ويسمعونها من إخوانهم ثم تراهم بعد ذلك في مجالسهم وأحاديثهم ليس لهم هم إلا النهش فى لحوم إخوانهم الذين معهم فى درب الدعوة والأخوة ! فأى قلوب هذه التى تنتهك ما حرم الله ثم تبرر ذلك بمصلحة الدعوة، وتنقية الصف وبيان الحق إلى غير ذلك من درجات التبرير الذى تُتَوِّجَهُ قاعدة «تعال نغتب فى الله ساعة» على وزن تعال نعبد الله ساعة !!... ألا فلينته أولئك من نهشهم للحوم إخوانهم أو ليسلط الله عليه عدوهم ويفرق شملهم ويجعل بأسهم بينهم شديدًا ويظفر بهم الشيطان كما ظفر بإخوة يوسف ونزغ بينهم.

٤ ـ هجر السخرية والاحتقار والهمز والتنابز...قال تعالى:﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾[٢]، وقال:﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ﴾[٣]،وفى هذا أخرج مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضي الله عنه:«**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»[٤].

هذه بعض من الحقوق المتبادلة بين الإخوان مع بعضهم البعض، وهى السبيل إلى تماسك الإخوان مع بعضهم البعض وشد بعضهم لبعض وهى نعمة من الله تعالى يمنها الله على عباده:﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾[٥]،وقال سبحانه: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[٦].

أمور يغفل عنها الإخوان مع بعضهم البعض:

الأخوة فى الله ممارسة يومية حياتية تتعلق بالإنسان العائش، فهى ليست أموراً مجردة

(١)أخرجه أبو داود (٤٨٧٨) ، وأحمد (٣/ ٢٢٤) عن أنس رضي الله عنه ، وصححه الألبانى.
(٢)الهمزة:١.
(٣)الحجرات: ١١.
(٤)أخرجه مسلم (٢٥٦٤) عن أبى هريرة رضي الله عنه .
(٥)القصص،: ٣٥.
(٦)آل عمران: ١٠٣.

تكون فى الذهن يتحدث بها الخطباء، ويحلم بها الضعفاء بل هى لاصقة وناتجة من الواقع المعاش؛لذلك الأخ اللذى يمارس الأخوة سلباً وإيجاباً فيما يحدث به نفسه وبما تعبر به عينه وما ينطق به لسانه وما يخط به قلمه... فهى صبر النفس بمعناها الشامل الواسع... ولهذه الشمولية الواقعية تحصل ممارسات خاطئة من قبل الإخوان بعضهم مع بعض هى مع إحسان الظن: «احمل أمر أخيك على أحسنه». لا تعدو أن تكون زلات تابعة للطبيعة البشرية المحفوفة بالجهل والضعف.. وسأذكر هنا بعضاً منها سائلاً المولى عز وجل أن يحفظنا من الوقوع فيها:

١ ــ الحسد:

هذا الداء العظيم الفتاك بالرباط الأخوى ينساب فى النفوس البشرية فى لحظات الغفلة الإيمانية كما ينساب الماء فى أغصان الشجر، فإن لم ينتبه إليه المسلم ويقطع دابره فسيكون سما زعافا يفتك بالجسم الإخوانى فيرديه مريضاً هزيلاً أو قتيلاً صريعاً... وكيف لا وقد فتك بأخوة الصلب: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠﴾[١]، وعندما تتحطم الأخوة، وينفك الرباط سيدب العجز بالنفس من إعادة صرح الإيمان والأخوة، وسيتدخل الشيطان قاذفاً بالوهن حتى يصبح صاحب الحسد أعجز من الغراب ﴿أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾[٢].

وعندما يسقط الأخ فى شراك وحبائل الحسد سيسهل عليه فى هذه اللحظة الانضمام إلى حزب المثبطين والمشككين من الحاسدين الذى يظنون أنهم لو أقسموا على الله لأبرهم، وهم الساقطون من الحاسدين الذين يقولون هلم إلينا: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨﴾[٣].

فإن لم يرجع إلى الله هذا الساقط ويعض أصبع الندم ويتذكر موقفه بين يدى الله

---

(١)المائدة: ٣٠.

(٢)المائدة: ٣١.

(٣)الأحزاب: ١٨.

فسيستمر حتى يسقط فى الهاوية: ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾[1].

وللحسد أسباب كثيرة لا يسعنا أن نذكرها كلها ولكن سنعرج على أمر نفسى داخل فى الطبيعة البشرية وهو الغيرة من إطراء الناس للإنسان الصالح. فعلى سبيل المثال برز أخ من الإخوان بالخطابة أو الكتابة أو من أى وجاهة من الوجاهات الاجتماعية أو الارتقاء فى أى درج من السلم الوظيفى أو يكون مدار إعجاب ومديح المجتمع إلى غير ذلك من صور الظهور الاجتماعى... فالأصل من الإنسان أن يفرح لما وصل إليه أخوه من مكانة؛ لأن فى ذلك رفعة للإسلام الذى يحمله ويتمثل به.. ولكن الشيطان يغيظه ذلك: {إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ}[2].

فيحدثه: على أى شيء يظهر هذا؟ ولماذا هذا الإطراء له من قبل المجتمع؟ ألست خيراً منه؟ فأنت أكثر منه علماً وأفصح لسانا، وقلمك تسيل منه الكلمات وقلمه تضطرب فيه الحروف.. إلى غير ذلك. وقد يكون هذا صحيحاً ولكن هذه هى سنة الحياة وكل إنسان له قدره، وصدق من قال:

إذا رفع الزمان مكان شخص وكنت به أحق وإن تباعد
أنله حق رتبته تجده ينيلك إن تقارب أو تباعد
ولا تقل للذى تدريه فيه تكن رجلاً عن الحسنى تباعد
وكم فى العرس أبهى من عروس ولكن للعروس الدهر ساعد

فمن لوازم الإيمان ستر الأخ لأخيه وتلمس الأعذار له وشكر المحامد التى هى له، وقد قال عيسى عليه السلام للحواريين: «**كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائماً وقد كشفت الريح ثوبه عنه؟ قالوا نستره ونغطيه. قال: بل تكشفون عورته!! قالوا: سبحان الله من**

---

(١) الأعراف: ٢٠٢.
(٢) الإسراء: ٥٣.

يفعل هذا؟ قال: أحدكم يسمع بالكلمة عن أخيه فيزيد عليها وينشرها بأعظم منها»[١].

وترى الكريم إذا تعزم وصله   يخفى القبيح ويظهر الإحسانا

وترى اللئيم إذا تقضى وصله   يخفى الجميل ويظهر البهتانا

والأخوة كما تقتضى السكوت عن المكاره تقتضى أيضاً النطق بالمحاسن؛ لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور. لذلك قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«ثلاث يصفين لك ود أخيك: أن تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له فى المجلس، وتدعوه بأحب الأسماء إليه»**[٢].

٢ ـ المماراة والمنافسة:

إن من أشد الأسباب لإثارة نار الحقد بين الإخوان المماراة والمنافسة، وهذه غير التقاطع. فإن التقاطع يقع أولاً بالآراء ثم الأقوال ثم الأبدان.. وهذه فى الغالب تكون من منطلقات دنيوية.. وفى قصة يوسف عليه السلام عبرة.. قال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾[٣].

٣ ـ القطيعة والتحامل القلبى:

الأصل فى علاقة المسلم مع أخيه العفو والتسامح؛ لأن الله تعالى الذى يعبدونه يتصف بصفات الكمال التى منها «العفو»، و«الكرم»، قال تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ١٤٩﴾[٤]، ولقوله سبحانه فى قصة الإفك وما صدر من مسطح: ﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى (٢/ ١٧٨) ط. دار المعرفة .

(٢) أخرجه عبد الرزاق فى المصنف (٩٨٦٥) عن إسحاق بن راشد مرسلاً ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٨٧٧٦) عن مجاهد مرسلاً ، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٢٥٧٢) .

(٣) يوسف: ٥.

(٤) النساء: ٩٤١.

وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[1]، ولحديث النبى ﷺ الذى أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: «**تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا! أنظروا هذين حتى يصطلحا**»[2]. وعند غياب هذا الأصل العظيم تقع القطيعة ويفرح بذلك المبطلون ويضحك الشيطان فرحاً وسروراً، والقطيعة قد تكون بالظاهر وقد تكون بالباطن،وقد تكون بالظاهر والباطن معًا. وأشدها ما كان بالباطن دون الظاهر، وهذه من الأمراض الحزبية الأرضية التى بدأت تزحف على المتآخين فى الله من أصحاب الدعوة إلى الله، فهو يضحك له من جهة ويغتابه من وراء ظهره، ويمسح على ظهره ويربت على كتفه ليدفعه على وجهه!!

وقبل الختام لابد من ذكر بعض الأخطاء التى تمارس من البعض تحت شعار الأخوة:

١ ـ اختلاط الرجال بالنساء:

من الأمور التى يقع فيها القليل من المتآخين فى الله سبحانه هو اختلاط الأزواج والزوجات فى مجلس واحد يتبادلون الحديث ويتناقشون فى أمورهم الدينية والدنيوية، فزوجة هذا تطرح ما عندها وما فى جعبتها وزوج ذلك يقوم بمناقشتها والرد عليها، وهكذا مع طول اللقاءات واستمرارها يخدش الحياء الذى هو السمت الحقيقى الذى يميز المرأة المسلمة الملتزمة عن غيرها وتصل النتيجة إلى ما يحدثنى به بعض ممن نثق بدينه أنه هناك فى بعض الجامعات العربية تتحدث الفتاة المتحجبة مع زميلها فى الكافتيريا وتطلب له القهوة وتصافحه وتضحك معه وكأنها تتحدث مع زميلة لها فى حجرة خاصة بها.. فماذا بقى بعد ذلك للمرأة؟!

ولله در القائل:

---

(١)النور: ٢٢.

(٢)أخرجه مسلم (٢٥٦٥) عن أبى هريرة رضي الله عنه .

لا تأمنن على النساء ولو أخا ما فى الرجال على النساء أمين

إن الأمين وإن يحفظ جهده لابد وأن بنظرة سيخون

وفى رواية ابن عباس رضي الله عنهما فى قصة امرأة ثابت بن قيس التى سماها البخارى رحمه الله «جميلة» عبرة.. حيث إنها أتت النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله، ثابت ابن قيس - وهو خزرجى أنصارى شهد أحداً وما بعدها وهو من أعيان الصحابة رضوان الله عليهم - ما أعيب عليه فى خلق ولا دين، ولكنى أكره الكفر فى الإسلام - أى أكره من الإقامة عنده أن أقع فيما يقتضى الكفر والمراد كفران العشرة من النشوز وبغض الزوج.

فقال رسول الله ﷺ: «**أتردين عليه حديقته؟**»، **فقالت: نعم، فقال رسول الله** ﷺ: «**اقبل الحديقة وطلقها تطليقة**»[١].

يا سبحان الله صحابى ومن أهل أحد ومن المقربين إلى رسول الله ﷺ ومع ذلك تطلب زوجته منه الخلع وترجع له حديقة نخل فلابد أن هناك علة وسبباً لهذا الطلب؛ إنه الشاهد من سياق هذا الحديث فى هذا العنوان، ففى رواية عن ابن عباس: «**أن امرأة ثابت أتت رسول الله** ﷺ **فقالت: يا رسول الله لا يجتمع رأسى ورأس ثابت أبداً، إنى رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل فى عدة فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهاً**»[٢].

هذه صحابية وفى مجتمع النبوة وفى خير القرون باتفاق الجميع فكيف بنساء اليوم اللاتى لا يعرفن فى غالب أحوالهن إلا معانى وعواطف عامة عن الإسلام والحجاب، ليس لهن فى الأصالة والتكوين شىء يذكر..ألا فلينتبه كذلك الأزواج الذين يتركون زوجاتهم ينظرن إلى التلفاز ومافيه من عرض لصور الممثلين والمذيعين والمغنين بكامل زينتهم...فكما أن الرجل يتأثر بالنظر إلى النساء فكذلك النساء فى نظرهن للرجال... والقصص التى تحدث فى مجتمعاتنا من جراء ذلك لا تخفى على أحد وإنما نترفع عن ذكرها

---

(١)أخرجه البخارى (٢٥٧٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢)أخرجه ابن جرير الطبري فى تفسيره (٤٨٠٧) ط . الرسالة بتحقيق أحمد شاكر، عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفا، وعزاه إليه السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٦٧١).

لما فيها من خدش للحس الإسلامى، والناظر فى منهج الله يجد أن الخطاب بغض البصر موجه للمؤمنين والمؤمنات قال الله تعالى:﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾الآية[1].

وإنما كان التركيز على الرجال دون النساء للطبيعة «الفسيولوجية» كما يقول علماء النفس، ولخاصية الحياء التى تمتاز بها المرأة المسلمة عن غيرها من بنات جنسها علاوة عن الرجال ـ كما نقول نحن المسلمين.

٢ ـ أخذ الأخ ما يختص بأخيه من غير إذنه:

تحت شعار لا تكن صادقاً فى أخوتك حتى لا تجد فى نفسك شيئًا على أخيك وهو يضع يده فى جيبك ويأخذ ما يريد... تحت ضغط هذه العبارة التى تتعامل مع العاطفة بعيداً عن ضوابط النصوص تُنتهك حقوق الناس وتضيع أحكام الشرع العظيم... فيُنسى حديث النبى ﷺ:«**لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه**»[2] وغيره مما هو فى معناه.. وهذه قضية دقيقة يتساهل فيها الكثير ولعل الذى يخرج من هذا ما لا تقوم به همة الناس عادة ـ كاستعمال دباسة للورق، أو أخذ وردة من حديقته.. إلخ، وكذلك ما تم الاتفاق على استعماله من قبل الطرفين فيكون إذناً مسبقا، وقد عين الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ مراتب الأخوة بكلمة جامعة فقال: «وأقل الحب سلامة الصدر وأعلاه مرتبة الإيثار»، وإنما يكون الإيثار إذا كان عن طيب نفس منه لا أن يأخذ استحياء أو خلسة،وهذا لا يعنى وجود التكلفة بين الإخوان بل تمام التخفيف من قبل الأخ على نفسه أن يطوى بساط التكلف وقد بيّن ذلك الخليفة الراشد الرابع على بن أبى طالب رضي الله عنه فقال: «شر الأصدقاء من تكلف لك، ومن أحوجك إلى مداراة، وألجأك إلى اعتذار»، ثم قال نسله من بعده جعفر

---

(١)النور: ٣٠، ٣١.

(٢)أخرجه أحمد (٥/ ٧٢) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٥٤٩٢) ، والسنن الكبرى (٦/ ١٠٠) عن أبى حرة الرقاشى ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٦٦٢).

الصادق ﵁: «أثقل إخوانى على من يتكلف لى وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبى من أكون معه كما أكون وحدى».

٣ ـ تجريح الإخوان بعضهم لبعض:

إن طول العهد بالأخوة والتقاء الوجوه نفسها مع بعضها البعض مع تقاربهم فى عمر الرباط الأخوى مع أهميته وفائدته إلا أنه محفوف بآفات كما قال ابن القيم رحمه الله منها:... «**أ ـ تزيين بعضهم لبعض. ب ـ الكلام والخلط أكثر من الحاجة. جـ ـ أن يصير ذلك عادة وشهوة ينقطع بها عن المقصود**»(١)، وهذه بمجموعها تؤدى بغياب الرقيب الإيمانى فى حالة الانطمار الانتمائى إلى التجريح والتشريح بالحركات الإسلامية وقياداتها، وهذه طبيعة بشرية تنمو عند من لم يشغل نفسه بالحركة والدعوة والتجميع، وتكثير الأنصار فيهتم بتجميع الأخطاء والمثالب والعيوب ومن من الناس من يخلو من العيوب!!

وأهم علاج لهذه الظاهرة التى تفتك بروح الأخوة من حيث لا يشعر أصحابها، ألا يكثر أصحاب القدم الانتمائى من جلوسهم مع بعضهم البعض بل يشغلون أنفسهم مع النبت الجديد الذى أتى يطلب اللقاء والتربية والتكوين... ومثل هؤلاء لا يجد الأخ المؤمن رغبة فى نفسه فى الحديث معهم عن مشاكل الدعوة وأصحابها؛لأن وازع الإيمان فى نفسه يمنعه من أن يشوش عليهم صفاءهم، ولأنهم لا يحسنون مشاركته فى الحديث وتركيب النقد والانتقاص، ولكونهم قدموا للدعوة والحركة لا للهدم والمنقصة.

٤ ـ المجاملة بين الإخوان وعدم المناصحة:

قال بعض الحكماء:«ظاهر العتاب خير من مكنون الحقد» لذلك جعل النبى ﷺ: «**الدين النصيحة**»(٢)، وذلك علاجاً لمن يظنه البعض أن المناصحة وبيان الخطأ للأخ قد يخدش الود الذى بينهما ناسياً أن تآلف القلوب قضية ربانية تأتى على قدر استقامة المسلم

(١)الفوائد لابن القيم ص٢٥ .
(٢)سبق تخريجه .

على منهج الله سبحانه: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَانًا﴾ [(١)]، كما أن الغضب عند خطأ الأخ وخصوصاً إذا كان الأمر يتعلق بأمر الدعوة لله سبحانه وعموم صالح المسلمين ظاهرة صحية ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [(٢)]؛ لأن ذلك الغضب علامة على الاهتمام بأمر المؤمنين «**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**»[(٣)] ، **وإن دل هذا فإنما يدل على إيجابية الأخ تجاه إخوانه وإلا بإمكانه أن يأخذ بقاعدة أهل السلب «من صمت نجا» فينجو من نقد إخوانه ومن تحاملهم عليه، وجرح صفائه عندهم،ولكنه يكون بذلك قد أخلف عهد الأخوة:«والنصح لكل مسلم»**[(٤)] وأعطى لنفسه العنان بأن يكون الحقد كما ذكرنا من قول الحكماء:«ظاهر العتاب خير من مكنون الحقد».

وفى الختام،لا يسعنا إلا أن نذكر أهمية الإخاء فى الله فيما قاله بعض السلف عن الأخ الصالح: أهله يقتسمون ميراثه ويتنعمون بما خلف، وأخوه فى الله منفرد بحزنه مهتم بما قدم عليه وما صار إليه، ويدعو له فى ظلمة الليل،وهو تحت أطباق الثرى.

---

(١)آل عمران: ١٠٣.

(٢)الأعراف: ١٥٠.

(٣)أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٧٤٧٣) ، والصغير (٩٠٧) عن حذيفة ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٤٣٣): «رواه الطبرانى وفيه يزيد بن ربيعة الرحبى وهو متروك » ، وقال الألبانى فى الضعيفة (٣١٠): «ضعيف جدًا ».

(٤)أخرجه البخارى (٥٧) ، ومسلم (٥٦) عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه .

الخاتمة

وفى الختام نسأل الله العلى القدير أن يجعلنا من المتحابين بجلاله المستظلين بظله يوم لا ظل إلا ظله وأن يجعل هذه الصفحات حجة لنا لا علينا، وأن نكون بكلماتنا عاملين، ولجمع شمل المسلمين ساعين، ولإصلاح ذات البين مشمرين، وبذلك على الله متوكلين ولأكف الدعاء رافعين: «اللهم وحد شمل دعاتك المخلصين، من عبادك الموحدين» آمين.



الرسالة الثانية

الصفات اللازمة للدعاة إلى اللّه

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ـ سبحانه ـ ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وبعد:

فهذه رسالة لطيفة فى مبناها ومعناها ، عظيمة الفائدة للسائر الجاد فى طريق المجاهدين . حيث تُبين الصفات اللازمة التى تلزم الداعية أن يحتكم إليها بين الحين والآخر ، ليرى أين هو من المؤمنين الجادين .

وزيادة فى التوضيح كان هذا التقسيم العلمى لطبيعة الصفات . وهو تقسيم اجتهادى قابل للتوسيع والتضييق ، كما أن اندراج مفردات الصفات تحت قسم من الأقسام دون الآخر هو مدار للحوار واختلاف وجهات النظر ، ولا ضير فى ذلك .

ووضع هذه الصفات بين أيدى العاملين له مزايا كثيرة :

منها : ميزانهم لأنفسهم، وكذلك وضع مقاييس من خلالها يتم اختيار العاملين المجاهدين لنصرة هذا الدين، فكما قيل : « يا له من دين لو كان له رجال »، والمراد ليس الكم العددى فهو يعد بالملايين. ولكنها قضية النوع والكيف. وهى التى حرص عليها الفاروق رضي الله عنه عندما قال : « وأنا أتمنى ملء هذه الحجرة رجالاً كأبى عبيدة ومعاذ » .

نعم فنُصرة هذا الدين متوقفة اليوم على وجود القيادة الإسلامية الفذة وهذه ليست بالضرورة أن تكون بصورة فرد قائد ، بل والمناسب لهذا الزمان : أن مجموع العاملين الحائزين على صفات القادة المؤمنين من الممكن أن يطلق عليهم القيادة المنقذة من هذا الوضع المتدهور .

ومن هذا الذى ذكرنا : نتبين أهمية وجود العناصر الحائزة للصفات القيادية ، وضرورة بناء الغيورين من المؤمنين عليها ، وتحمل عبء هذا البناء من الموجهين ومن يربونهم ، فبناء الرجال ليس سهل المنال ، ونحن فى طموحنا نذهب إلى أبعد من الاهتمام بالصفات

المكتسبة حيث نرى: أن الموجهين من الممكن أن يكون لهم دور حتى فى الجوانب الفطرية، التى ذكرت فى الرسالة [١] ـ كالذكاء، والشجاعة، والقوة والأمانة، والحلم، والجاذبية الفطرية ـ والذى يدل على أن هذه الجوانب من الممكن تكوينها قولة الأشج القيسى للنبى ﷺ: «أشىء جبلت عليه، أم شىء حدث لى ؟» عندما قال له النبى ﷺ: «**يا أشج إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة** » [٢]، وهذا يدل على عظمة الإسلام فى تكوينه للنفوس، وتربيتها وتهذيبها .

وبعد ذكر الصفات الفطرية جاء ذكر الصفات المكتسبة وهى وإن كانت تحت هذا العنوان فهى داخلة تحت الجانب الفطرى، فما ذكر من صفات مكتسبة: كالصدق، والكرم، والرحمة، وضبط النفس، والتقوى، والإرادة القوية، والتفاؤل، فهذه لم تكتسب من فراغ، بل كان رصيد الفطرية معينًا كبيرًا لعملية الاكتساب .

وعلى هذا فالتداخل بين ما هو فطرى وما هو مكتسب إنما يلفت النظر إلى مسألة مهمة فى تكوين القيادات أنه لا بد من اختيار العنصر القابل للخير ، لتمارس معه عملية التربية والتكوين.

ولوجود هذا التداخل رأينا : أن الرسالة بعد أن تحدثت عن الصفات الفطرية ، والصفات المكتسبة ذكرت ثلاثة عناوين ، أدرج تحتها جمعًا من الصفات الفطرية والمكتسبة مجتمعة فى إطار واحد « الصفات العقلية » أو « الصفات الحركية » أو «صفات من سورة المائدة » وهى فى مجموعها ومع ما ذكر من صفات تبين أهمية التوصيف لمحتوى البناء الفردى حتى يسهل التقويم وتتضح الموازين .

والله أسأل أن يعيننا على تربية أنفسنا، وفق ما يحب ربنا ويرضى، وأن ييسر لنا توجيه إخواننا إلى ما كان عليه سلف أمتنا .

---

(١) ووجود هذه الصفات تحت عنوان: « الصفات الفطرية » أمر اجتهادى تختلف فيه وجهات النظر، وكما بينا ما من شىء من هذه الصفات إلا وفيه جانب فطرى وجانب مكتسب.

(٢) أخرجه مسلم (١٨)، وابن ماجه (٤١٨٦).

القسم الأول
الصفات الفطرية

١ ــ الذكــاء:

إن الذكاء والفطنة صفة أساسية للعاملين فى الحركة الإسلامية، لا غنى عنها حيث لا نستطيع أن نتصور عملاً إسلامياً، منظماً، يجارى التخطيط العالمى الرهيب الذى رصد جميع إمكاناته للنيل من الإسلام، قائماً على سذج من الناس، قليلى الفهم والاستنباط والتقدير،محدودى الطاقة الفكرية، القائمة على الابتكار، والتخطيط والإبداع.

وبالرغم من أن الذكاء أمر نسبى، إلا أنه لابد أن يتوفر بنسبة عالية فى صف العاملين فى الدعوة الإسلامية، ولابد للقائمين على أمر الدعوة، من استغلال هذه الصفة لدى الأفراد، وكلما حسن هذا الاستغلال ووجه نحو العطاء، كلما كانت الثمار أكثر نضجاً، والطريق أقصر والجهد أوفر.

وصفة الذكاء إن توفرت عند الداعية، لا شك سوف تعينه على استكمال بقية الصفات فى شخصيته.

والداعية ـ وهو فى ميدان دعوته إلى الله ـ سوف يتعرض للنقاش والتساؤلات والاعتراضات، حين يعرض دعوته للناس.

فإن لم يكن ذكياً، فطناً، ولبيباً وصاحب حجة، ويفحم الآخرين ويبهتهم ويرد عليهم اعتراضهم بدليل أقوى من دليلهم، وحجة أوضح من حجتهم فسوف يجد نفسه فى مأزق حرج، ويعرض دعوته للفشل أو السخرية، فكم من حق لم يجد عقلاً ذكياً ضاع.

وصفة الذكاء تعين العاملين على الاستفادة من كل إمكانات الإبداع العقلية والجسمية أثناء الحركة، مع المعرفة الدقيقة بإمكانية كل منهم، ووضعه فى محله، كما تعين على حسن التصرف فى المواقف الحرجة، كفعله ﷺ وتصرفه الناتج عن ذكاء وفطانة فى قضية رفع الحجر الأسود قبل البعثة، وإرضاء جميع الأطراف المتنازعة عليه وحقن دمائهم، وكذلك حسن تصرفه ﷺ حين خرج مع من شهد غزوة أحد لتتبع فلول المشركين، وكانت نتيجة

هذا التصرف ـ الذى لا يمكن أن يخرج إلا من رجل يتمتع بوافر الذكاء والفطنة ـ بأن دب الرعب والخوف فى قلوب المشركين، عندما وصل إليهم خبر تتبع الرسول ﷺ آثارهم، فما كان من شأنهم إلا أن قفلوا راجعين إلى مكة، ولم يتصدوا للرسول ﷺ، وهو قد خرج مع صحبه الكرام من غزوة أحد منهوكى القوى، فكان تصرفاً ناجحاً من الرسول ﷺ، كى يظهر للمشركين الذين بيتوا الكرة عليه، أنه ما زال قوياً وما زال جيش المسلمين فى خير.

وبهذا التصرف السليم استطاع الرسول ﷺ أن يعيد الثقة فى قلوب جنوده، والتصميم على المضى فى الدعوة حتى النصر.

وهكذا نجد جميع مواقف الرسول ﷺ تتسم بالذكاء والحكمة فى علاج ما تداهمه من معضلات الأمور.

٢ـ الشجاعـــة:

الشجاعة من الصفات الأساسية التى ينبغى أن يتصف بها العاملون فى الحركة الإسلامية؛ لأن دعوتهم دعوة حق، والباطل لا يريد للحق أن ينتصر لأن انتصار الحق يعنى زهوق الباطل.

والحق حتى ينتصر لابد له من سواعد قوية، تحمله وتدفع به الباطل.

والشجاعة هى مصدر القوة، وهى ضد الجبن والخور وهى صفة حميدة تحث المتصف بها على الإقدام والجرأة وطلب الحق.

فعن أنس رضي الله عنه أنه قال: كان النبى ﷺ أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم ﷺ راجعاً، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبى طلحة، عرى، فى عنقه السيف وهو يقول: «**لم تراعوا، لم تراعوا**»[1].

فهذا الحديث يبين لنا شجاعة المربى الأول وقائد الأمة الرسول ﷺ كى يقتدى به

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٠٨ ، ٣٠٤٠) ، ومسلم (٢٣٠٧) عن أنس رضي الله عنه.

أصحابه، فهو المثل الأعلى للشجاعة والجرأة والإقدام.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (كنا والله إذا احمر البأس نتقى به) [(١)].

ولقد ضرب الرسول ﷺ مثلاً فى الشجاعة والإقدام لم يصل إليه أشجع الناس، ولنا فى غزوة حنين خير مثال عندما فر عنه جميع الناس،وبقى الرسول ﷺ فى ميدان المعركة معه قلة قليلة واقفاً على بغلته ينادى الناس بأعلى صوته:«**يا أصحاب الشجرة، يا أهل سورة البقرة، أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب**» [(٢)].

فكانت صفة الشجاعة لازمة للرسول ﷺ لا تنفك عنه، يقتدى به أصحابه وأمته من بعده.

إذن نستطيع أن نقول:إن صفة الشجاعة من الصفات المهمة لدى العاملين فى الحركة الإسلامية؛ لأنها تعتبر من المستلزمات الأساسية للدعوة، ولأنها ربما تمر فى مواقف تحتاج فيها إلى الشجاعة الفائقة والجرأة فى قولة الحق وإلا ضاع ذلك الحق، وإذا كانت الشجاعة صفة محمودة ينبغى أن يتحلى بها الداعية، فالجبن صفة مذمومة، ينبغى أن يتخلى عنها الداعية.

وكما أن لكل شىء ميزاناً،فكذلك للشجاعة ميزان،وإلا أصبحت تهوراً وسفهاً، وقد وصف الإمام البنا ـ رحمه الله تعالى ـ الشجاعة فقال:(الشجاعة، أن تكون شجاعاً عظيم الاحتمال،وأفضل الشجاعة، الصراحة فى الحق،وكتمان السر، والاعتراف بالخطأ والإنصاف من النفس، وملكها عند الغضب) [(٣)].

ومما تجدر الإشارة إليه أن للعقيدة المتينة السليمة أكبر الأثر فى تنمية صفة الشجاعة لدى الداعية إلى الله،فهى بلا شك توقظ حسه، وتلامس نخوته، وترفع همته.

والعاملون فى طريق الدعوة، ينبغى عليهم أن يكونوا شجعاناً لا يخافون إلا الله، ولا

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٦).

(٢)أخرجه مسلم (١٧٧٥) عن العباس بنحوه.

(٣) رسالة التعاليم ص ١٩.

يخافون الناس؛ لأنهم نذروا أنفسهم لله، وباعوها لله، فهى منه وإليه.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [١].

وحامل دين الله، ينبغى ألا يستكين ولا يجبن، ولا يخور عزمه؛ لأنه يحمل رسالة سماوية من عند الله،حملها الرسل وأتباعهم من قبل،فنصرهم الله وخذل عدوهم.

إن نفساً ترتضى الإسلام دينا ثم ترضى بعده أن تستكينا

أو ترى الإسلام فى أرض مهينا ثم تهوى العيش نفس لن تكونا

فى عداد المسلمين العظماء

٣ ـ القـــوة:

ومن الصفات التى ينبغى أن يتصف بها الداعية إلى الله، صفة القوة، بجميع جوانبها، فهى خير إن استخدمت فى وقتها، ومكانها، وشر ووبال إن استخدمت فى غير وقتها ومحلها.

والقوة، قوتان: بدنية، وفكرية، وكلتا القوتين مطلوبتان لدى الداعية.

ـ أما القوة البدنية: فقد حث عليها الإسلام، فى القرآن، وفى السنة، ففى القرآن قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ....﴾ الآية[٢].

وفسر الرسول ﷺ القوة ـ فى هذه الآية بالرمى بقوله: «**ألا إن القوة الرمى**»[٣]، والرمية إن لم تخرج من ساعد قوى ومتين فهى لا تحقق الهدف المطلوب.

(١) آل عمران: ١٧٣، ١٧٤.
(٢) الأنفال: ٦٠.
(٣) أخرجه مسلم (١٩١٧) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

وفى السنة، نجد القوة البدنية لاقت حظاً وافراً، فالرسول ﷺ هو أقوى الأقوياء، وكان يشجع أصحابه على اكتساب هذه الصفة بل ربما كان يباريهم، ويصارعهم، ويسابقهم، كما تحدثنا السيرة عن ذلك، يروى أنه تسابق ﷺ مع عائشة رضي الله عنها فسبقته مرة، وسبقها مرة[١]، وكذلك تحدثنا السيرة عن مصارعته ﷺ لأحد أصحابه فصرعه قيل: كان اسمه ركانة [٢].

ومر ﷺ على صبيان يرمون بالسهام، فأخذ يرمى معهم ويشجعهم ويذكى فيهم روح البطولة والشجاعة والقوة،ويقول: «**ارموا بنى إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً**»[٣].

هذه هى السنة الفعلية بالنسبة للقوة والحث عليها، أما السنة القولية، فقد بينها الرسول ﷺ بقوله:«**المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير**»[٤].

وأكتفى بالاستشهاد بالأحاديث النبوية عن القوة البدنية، وأنتقل إلى القوة الفكرية، وهى مطلوبة للداعية أيضا كى يتحصن بها ويحمى بها نفسه، ودعوته.

ـ والقوة الفكرية: تندرج تحتها قوى كثيرة، منها قوة التحمل، وقوة الإدراك، وقوة الصبر، وقوة العلم، وقوة التلقى وغيرها من القوى.

ولقد حث الإسلام على التحصن بهذه القوة العقلية، قال تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾[٥] إشارة إلى القوة التى رمزنا إليها بقوة التلقى، وقال تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾[٦] لابد من أخذ العهد بقوة واستجماع وتصميم.

وعهد الله هو منهج حياة، إن استقر فى القلب انبعث منه تصور وشعور، وإن استقر فى الحياة، انبعث منه وضع ونظام، وإن استقر فى السلوك، انبعث منه أدب وخلق ينتهى إلى

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٧٨)، وأحمد (٦/ ٢٦٤)، عن عائشة رضي الله عنها، وصححه الألبانى .

(٢) أخرجه أبو داود (٤٠٧٨)، والترمذى (١٧٨٤) عن أبى جعفر بن محمد بن على بن ركانة عن أبيه، قال الترمذى : « حسن غريب وإسناده ليس بالقائم » ، وضعفه الألبانى .

(٣) أخرجه البخارى (٢٨٩٩) عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) ، وابن ماجه (٧٩، ٤١٦٨)، وأحمد (٢/ ٣٦٦) عن أبى هريرة رضي الله عنه .

(٥) مريم: ١٢.

(٦) الأعراف: ١٧١.

التقوى والحساسية برقابة الله وخشية المصير[١].

من هنا يتضح لنا مدى حاجة العاملين فى الحركة الإسلامية إلى هاتين القوتين، البدنية والعقلية.

ولقد أشار القرآن إلى قيمة هاتين القوتين، فى بيان قصة أمة مجاهدة تحفز للنهوض بعبء النضال فى سبيل عقيدتها وحريتها، وكان من صفات قائدها أنه أعطاه الله ومنّ عليه بهاتين القوتين البدنية والعقلية - قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾[٢] فبسطة العلم إشارة إلى القوة العقلية، وبسطة الجسم إشارة إلى القوة البدنية.

وقد قال الإمام البنا - رحمه الله - فى الأصل الأول[٣] من الأصول العشرين: (إن القوة تشمل قوة الإنسان فى نفسه، وبدنه وعقله، وعليه أن يباشر الأسباب التى تجعله قوياً، أما قوة نفسه فبالإيمان، وأما قوة بدنه فبالرياضة والفروسية ونحوها، وأما قوة عقله فبالعلم).

فالحركة الإسلامية لابد لها من قوة تحميها، هذه هى سنة الله فى الحياة، لهذا نجد الإسلام لم يغفل جانب القوة، بل دعا إليها حماية للحق الذى جاء به.

وهناك حقيقة كبيرة، ينبغى على العاملين فى الحركة الإسلامية أن يضعوها نصب أعينهم، ألا وهى قوة الله التى لا تضاهيها قوة فى الوجود، فهى القوة وما عداها فهو واه وضئيل، وهزيل، مهما أوتى من وسائل البطش والقوة والتنكيل،فهى بمثابة خيوط العنكبوت صدق الله القائل: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾[٤].

«وإن أصحاب الدعوات، الذين يتعرضون للفتنة والأذى والإغراء والإغواء لجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة، ولا ينسوها لحظة، وهم يواجهون القوى المختلفة

---

(١) بتصرف من ظلال القرآن.

(٢) البقرة: ٢٤٧.

(٣) رسالة التعاليم ص١٠.

(٤) العنكبوت: ٤١.

المعادية، التى تحاول سحقهم وإبادتهم، كلها خيوط عنكبوت فى حساب الله، وفى حساب العقيدة الصحيحة»[١].

٤ــ الأمـــانة[٢]:

الصفة الرابعة التى ينبغى على العاملين فى الحركة الإسلامية أن يتصفوا بها، هى صفة الأمانة:

والأمانة كلمة واسعة الدلالة، وهى ترمز إلى معان شتى مناطها جميعاً شعور المرء بتبعته فى كل أمر يوكل إليه، وإدراكه الجازم بأنه مسؤول أمام ربه، لحديث الرسول ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته... الحديث**»[٣].

ولقد اتصف رسل الله بالأمانة، حيث يكفيهم فخراً أنهم حملوا رسالة الله، وبلغوها للناس، دون خوف من أحد، وصبروا على ذلك حتى نصرهم الله.

ولنا فى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة فى الأمانة، حيث كان أميناً قبل البعثة وبعدها، وعرف بذلك قبل مبعثه ولقب بالأمين. وعندما أرسله الله، حمل هذه الرسالة بأمانة، وبلغها لأمته وانتقل إلى الرفيق الأعلى وقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، والأمانة، إن لم تؤخذ بحقها وتعطى بحقها، فهى خزى وندامة يوم القيامة.

فالأمانة تحتاج إلى أشخاص أقوياء لحملها، فلا يحملها ضعيف رأفة به لضعفه، كما رأف الرسول ﷺ بأبى ذر، عندما طلبها فقال له الرسول ﷺ: «**يا أبا ذر ، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها**»[٤].

والأمانة من الصفات المكملة لصفات المؤمنين الذين اتصفوا بها ونالوا الفلاح فى الدنيا

---

(١) بتصرف من كتاب طريق الدعوة فى ظلال القرآن.

(٢) بعض العلماء يرى أن صفة الأمانة مكتسبة وليست فطرية.

(٣) أخرجه البخارى (٨٩٣) ، ومسلم (١٨٢٩) ، وأبو داود (٢٩٢٨) ، والترمذى (١٧٠٥) ، وأحمد (٢/ ٥ ، ٥٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤) أخرجه مسلم (١٨٢٥)، أحمد (٥/ ١٧٣) عن أبى ذر رضي الله عنه .

والآخرة وورثوا به جنة الفردوس. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾[١].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ وهو يتعرض لهذه الآية بالبيان فى كتابه الظلال:

«راعون لأماناتهم وعهدهم أفرادا،وراعون لأماناتهم وعهدهم جماعة، والأمانات كثيرة فى عنق الفرد، وفى عنق الجماعة، والجماعة المسلمة مسؤولة عن أماناتها العامة عن عهدها مع الله تعالى، وما يترتب على هذا العهد من تبعات،والنص يجمل التعبير ويدعه يشمل كل أمانة، وكل عهد، ويصف المؤمنين بأنهم لأماناتهم وعهدهم راعون، فهى صفة دائمة لهم فى كل حين، وما تستقيم حياة الجماعة إلا أن تؤدى فيها الأمانات وترعى فيها العهود»[٢].

فجعل الله الأمانة صفة النفس المؤمنة،كما جعل الخيانة صفة النفس المنافقة، والكافرة. ومن اتصف بالأمانة، عظم شأنه فى نظر الناس وبهذا روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: (لا يعجبك من الرجل طنطنته،ولكنه من أدى الأمانة،وكف عن أعراض الناس فهو الرجل).

والإسلام أمانة، بل هو أكبر الأمانات، وهو أمانة فى عنق كل منا، وإن لم ننهض بهذه الأمانة، فقد عرضنا أنفسنا للخيانة العظمى مع الله ومع رسوله.

فالإسلام ليس كلمة تقال باللسان، وليس مجرد عبارات، وادعاءات، ولكنه منهج حياة كاملة، لتعمير الأرض، والنهوض بتكاليف خلافة الله فى الأرض بتطبيق منهجه وشرعه.

فعلى دعاة الإسلام أن يحملوا هذه الأمانة، ولا يفرطوا فيها قيد أنملة، وإن فرطوا فيها فمن يحملها من بعدهم؟

٥ ـ الحيـــاء:

والصفة الخامسة من الصفات الفطرية التى ينبغى على العاملين فى الحركة الإسلامية أن يتحصنوا بها هى صفة الحياء.

---

(١) المؤمنون:٨.

(٢) فى ظلال القرآن (٢٤٥٦).

والحياء كما جاء فى الكشاف، وتبعه الرازى فى مفاتيح الغيب هو: تغيير وانكسار يعترى الإنسان من تخوف ما يعاب به ويذم.

وقال القرطبى: (أصل الاستحياء الانقباض عن الشىء، والامتناع منه خوفاً من مواقعة القبيح).

وقد عرفه ابن القيم ـ رحمه الله ـ بقوله:(إن الحياء حالة حاصلة من امتزاج التعظيم بالمودة، فإذا اقترنا تولد بينهما الحياء) [(١)].

ويقول الجنيد:«**إن الحياء يتولد من مشاهدة النعم ورؤية التقصير**»[(٢)].

فالحياء من المعانى والصفات الرائعة التى يتصف بها النبلاء والشرفاء من الناس، وكان الرسول ﷺ أشد الناس حياء، وقد وصفه الصحابى الجليل أبو سعيد الخدرى بقوله: (كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه فى وجهه) [(٣)].

والحياء يمنع صاحبه من ارتكاب المعاصى، والآثام، وذلك إذا علم أن الله ناظر إليه، فالشعور بمراقبة الله يورث الحياء منه، كما قال يوسف عليه السلام لامرأة العزيز، عندما غلقت الأبواب ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [(٤)].

فيوسف الصديق عندما علم أن الله ناظر إليه، رجع إليه فى الحال، ولم يعط لنفسه مجالاً أمام إغراء هذه المرأة وتغلب عليه حياؤه من الله الذى أنعم عليه، وأحسن مثواه أن يقع فى الخطيئة.

فالحياء، هو بمثابة منبه، ينبه صاحبه من الوقوع فى الرذيلة فمن لازم الحياء، لازم الخير

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٢٦٤).

(٢) السابق نفسه.

(٣) أخرجه البخارى (٣٥٦٢)، ومسلم (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١٨٠)، عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه .

(٤) يوسف:٢٣.

كله، وكما قال الرسول ﷺ: «**الحياء لا يأتى إلا بخير**»[(١)].

من أجل هذا ينبغى أن تكون هذه الصفة الرائعة ـ صفة الحياء ـ ملائمة لكل العاملين فى الحركة الإسلامية، فى كل الأحوال، ودون أن يمنعهم ذلك من الجرأة فى قولة الحق.

ومن الحياء، غض البصر، وخفض الجناح، وعدم رفع الصوت إلاّ فى وجه الباطل.

والحياء يكشف عن قيمة إيمان العبد ومقدار أدبه وسلوكه، وعندما نرى العبد يتحرج من فعل ما لا ينبغى، أو نرى حمرة الخجل تصبغ وجهه، إذا بدر منه ما لا يليق، علمنا أنه عبد صاحب حياء، وصاحب ضمير نقى، ونظيف المعدن، زكى العنصر، وبالعكس من هذا، فإننا لو رأينا شخصاً، لا يبالى من فعل المعاصى والآثام، ولا يعبأ بما يأخذ ويترك، فهو لا ريب امرؤ لا خير فيه، وليس له وازع، من الحياء يعصمه من الوقوع فى المعاصى والذنوب.

فالحياء إذن أمارة تكشف عن معدن الإنسان وعنصره.

قال جماعة من العلماء: إن الحياء خلق يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير فى حق ذى حق.

وليس الحياء جبناً، فإن الرجل الحيى قد يفضل أن يراق دمه، على أن يراق ماء وجهه، وتلك هى الشجاعة فى أعلى صورها.

ولا يمنع الإنسان حياؤه من أن يقول كلمة الحق، ويقف أمام الباطل يقرعه، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[(٢)].

إذن ليس من الإيمان فى شىء أن يمتنع الإنسان عن مناصرة الحق، ومقارعة أهل الباطل بالحجج والبراهين الساطعة.

فالحياء الذى تقره الشريعة الإسلامية، هو الذى يمنع صاحبه من ارتكاب المعاصى

---

(١) أخرجه البخارى (٦١١٧)، ومسلم (٣٧) عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) الأحزاب: ٥٣.

والوقوع فى الآثام، وفى نفس الوقت يحث صاحبه على العمل الدؤوب للإسلام ومناصرة الحق والذود عنه، والوقوف أمام الباطل بشتى أنواعه.

قال رسول الله ﷺ: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»**(١).

وهنا نود أن نسجل ملاحظة، كى لا يفهم من كلامنا ونحن نحث الدعاة على التمسك بهذا الخلق الفاضل، أن يفرطوا فيه كل الإفراط، بحيث تنصرف النفوس والهمم عن ارتياد معالى الأمور، والصعود على سلم الفضائل، والوصول إلى الغايات النبيلة.

فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: (نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين) (٢).

٦ــ الحلــم:

الصفة السادسة من الصفات الفطرية التى ينبغى على العاملين فى الحركة الإسلامية أن يتصفوا بها، ويتحلوا بها،هى صفة الحلم،وقديماً قالوا: الحلم سيد الأخلاق.

فالحليم هو الذى يحتمل أسباب الغضب، فيصبر ويتأنى، ولا يثور.

من هنا ينبغى على الداعية أن يملأ صدره بالحلم، لأن طريق الدعوة محفوفة بالمكاره، والمتاعب، والإيذاء، والبطش والسخرية، وهذه كلها عقبات تزدحم فى وجه الداعية والدعاة إلى الله.

فإن هم لم يتحلوا بصفة الحلم، ربما تنهار قواهم ويضعف صبرهم، ويفقدوا توازنهم، وتضيق بهم السبل.

والرسل هم أوسع الناس حلماً، وأشدهم بلاء ـ فمع شدة ابتلائهم عوضهم الله سبحانه وتعالى بسعة الحلم.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٥) عن أبى هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخارى فوق حديث (١٣) معلقًا مجزومًا به عن عائشة رضي الله عنها ، ووصله مسلم (٣٣٢) ، وأبو داود (٣١٦).

ولقد ضرب الله لنا فى كتابه العزيز نماذج من حلم رسله وسعة صدورهم على ما لاقوه من إيذاء وابتلاء من قومهم.

قال تعالى حكاية عن هود: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[1].

صورت لنا هذه الآية مقدار الحلم الذى يتصف به هود عليه السلام وسعة صدره، حيث لم يعبأ بهذا السباب، وبهذه السخرية والشتائم، ولم يطش لها حلمه، بل قابل هذه الشتائم والسباب والسخرية بدعوة إلى التوحيد، ووضح لهم مهمة رسالته وأخيراً نصحهم بالحسنى وأنه أمين على ذلك.

إن الشخص الغضوب، إذا استطير وراء لهب الغيظ، أفسد الأمور فى غيبة وعيه، وغلبة عاطفته، فلم يدع لإصلاحها مكاناً.

علماً بأن سيئات الغضب كثيرة، ونتائجها الوخيمة أكثر. ولن يتحقق الحلم إلاّ إذا هيمن العقل الراشد على غريزة الغضب،ورسولنا ﷺ أحلم الناس، لم يغضب لنفسه إطلاقاً مع كثرة إساءة الجهال له، ولم ينتقم لنفسه مع كثرة المسيئين له، لكنه يغضب للحق، ويغضب عندما تنتهك حرمات الله.

وكان حلمه ﷺ، فوق حد التصور، خاصة وأن حلمه يكون مع القدرة على البطش ورد الفعل بأنكى وأعتى، فقد روى أنس بن مالك قال:

(كنت أمشى مع رسول الله ﷺ، وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية، فأدركه أعرابى، فجذبه بردائه جذبة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبى ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جذبته ثم قال: يا محمد مر لى من مال الله الذى عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم

(١) الأعراف: ٦٦ـ٦٨.

أمر له بعطاء)[١].

فعلى الأخ الداعية أن يتحلى بالحلم والصفح الجميل، إن ذلك يورث المحبة والألفة، ويزيل الشقاق ويمحو مواطن الخلاف.

وصفة الحلم قل من يحوزها، فهى صفة يهبها الله لمن يشاء من عباده، ولكن لا مانع من أن يتربى عليها الأخ الداعية ويربى غيره عليها،قال ﷺ لأشج عبد القيس: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله، الحلم والأناة»، قال يا رسول الله: أنا أتخلق بهما أم الله جبلنى عليهما؟ قال: «بل الله جبلك عليهما»، قال: الحمد لله الذى جبلنى على خلتين يحبهما الله ورسوله[٢].

٧ـ الجاذبية الفطرية:

ومن الصفات الفطرية التى يحلو للداعية أن يتصف بها، صفة الجاذبية الفطرية، حيث إنها صفة طبيعية، فهى إن وجدت فى القائد، استطاع أن يجذب القلوب دون تكلف، فهى ضرورية لكل داعية، يدعو إلى الله، كى يستطيع أن يؤثر على المدعوين بجاذبيته، ويستميل قلوبهم، ومحبتهم له ولدعوته.

فإذا كانت الجاذبية الفطرية ضرورية للداعية، فهى أشد ضرورة للدعاة القياديين، لأنها من أقوى العناصر التى تتكون منها الشخصية القيادية.

ولقد كانت هذه الصفة متواجدة بأعلى صورها، فى شخص الرسول ﷺ، فقد استطاع عليه الصلاة والسلام، أن يملك قلوب من جالسوه وسمعوا حديثه، ورأوا بشاشة وجهه، وسعة صدره، وعظيم كرمه وحلمه، فلا يتمالك أحدهم أن يقول: (عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب)[٣].

---

(١) أخرجه البخارى (٣١٤٩) ومسلم (١٠٥٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٢٢٥) عن أم أبان بنت الوازع بن زارع عن جدها. وحسنه الألبانى. وأخرجه مسلم (١٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما مختصرًا.

(٣) أخرجه الترمذى (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤، ٣٢٥١)، وأحمد (٥/ ٤٥١) عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه. قال الترمذى: « هذا حديث صحيح ».

فلا بد للدعاة الذين نذروا أنفسهم لله، أن يدعوا القوم بهذه الجاذبية الخلابة، كى يشدوا النفوس حولهم ويقتربوا فى دورانهم، ومن ثم يربطونهم بفكرتهم، ويسيرون متآخين جنباً إلى جنب فى دعوتهم.

ويمكننا أن نعرف قوى هذه الجاذبية الفطرية بعدة معانٍ:

١ـ هى الملامح والصفات الجسمية الخالية من العيوب، سليمة الأعضاء والحواس.

٢ـ هى الأدب فى الحديث والقوة فى التعبير، والرزانة فى النقاش.

٣ـ وهى اللين فى المعاملة من غير ذلة، وهى القوة فى الحق من غير تكبر.

٤ـ وهى الشخصية الجذابة المطمئنة المستقرة الواثقة الهادئة.

٥ـ وهى اللباقة والحكمة والوضوح المجرد من الهوى فى عرض الحق.

٦ـ وهى الذكاء والكياسة، والنباهة والمرونة وخفة الروح وتحمل الأعباء.

كل ذلك وغيره من العطايا الإلهية العظيمة التى يهبها الله لفئة من عباده، الذين أخلصوا القول والعمل.

فكن أخى الداعية جذاباً في حديثك، فى دعوتك، فى طريقة عرضك للدعوة، لأن الناس بحاجة إلى مثل هذا العرض للدعوة كى يفهموها ويحيوها، ومن ثم تملك مشاعرهم وحبهم.

القسم الثانى
الصفات المكتسبة

١ ـ الصدق:

ومن الصفات المكتسبة التى ينبغى على دعاة الحركة الإسلامية التحلى بها والاتصاف بها اتصافاً ملازماً لا تنفك عنهم، هى صفة الصدق.

وهى دعامة الفضائل، وعنوان الرقى، ودليل الكمال، ومظهر من مظاهر السلوك السوى النظيف، والصدق يضمن رد الحقوق، ويوطد الثقة بين الأفراد والجماعات.
والصدق صفة اتصف بها الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام، فكانوا أصدق الناس لهجة وعملاً، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾[1].

وكان رسولنا الكريم أصدق الناس قبل البعثة،وكان بعدها أكثر صدقاً فى اللهجة والعمل.

وكان يسمى الصادق الأمين فى قومه قبل بعثته، وذلك لأن الله رباه على هذه الصفات الفاضلة الكريمة من نعومة أظفاره.

وقد ربى الرسول ﷺ، صحابته على هذه الصفة الفاضلة، التى أكدها الله تعالى على رسوله ﷺ بالآيات الآمرة للمؤمنين بالصدق، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾[3]. كما حث أيضاً المؤمنات على الاتصاف بهذه الصفة الكريمة.

فكانت التوجيهات النبوية الكريمة للصحابة رضوان الله عليهم، فعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «**إن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن**

---

(١) مريم: ٥٠.
(٢) التوبة: ١١٩.
(٣) الأحزاب: ٣٥.

الرجل ليصدق ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صديقاً... الحديث»[١].

وعن أبى محمد الحسن بن على بن أبى طالب ﵄، قال:حفظت من رسول الله ﷺ: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة**» [٢].

والصدق يكون فى القصد، والقول، والعمل، فعن سهل بن حنيف ﵁ أن النبى ﷺ قال: «**من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**» [٣]. إذن فالصدق يكون بالمبادرة، إلى أداء ما افترضه الله عليك ومن ذلك الجهاد فى سبيله، والدعوة إلى دينه.

والمسلم الصادق يظهر أثر صدقه فى وجهه، ومخاطبته للناس،وكما سبقت الإشارة فقد كان الرسول ﷺ، عندما يتحدث إلى ما لا يعرفونه يقولون: والله ما هو بوجه كذاب.

ويعتبر الصدق من أهم شروط المنتسبين للعمل الإسلامى، المتصدين لإصلاح عيوب الناس وأحوالهم فليعلم ذلك كل داعية، وليعى تماماً أن دعوته جاءت بالصدق، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [٤].

فينبغى عليه أن يصدق فى دعوته، وفى أسلوبه وفى مخاطبته للناس، يصدق فى القول، ويصدق فى العمل، ولا يهاب أحدا ولا يخشى فى الله لومة لائم، ولا همزة همّاز ولا لمزة لمّاز.والكذب ضد الصدق،وهو من أبشع الخصال،وأرذلها، وهو مدخل كبير من مداخل الشيطان ومكائده،وفى الحديث السابق ذكره:«**وإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور**

---

(١) أخرجه البخارى (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧)، وأبو داود (٤٩٨٩)، والترمذى (١٩٧١)، وأحمد (١/ ٣٨٤) عن عبد الله بن مسعود ﵁ .

(٢) أخرجه الترمذى (٢٥١٨) ، والنسائى (٨/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨) ، وأحمد (١/ ٢٠٠)، والحاكم فى المستدرك (٢/ ١٣) عن الحسن بن على ﵄ . قال الترمذى : « حسن صحيح »، وقال الحاكم : «صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

(٣) أخرجه مسلم (١٩٠٩) ، وأبو داود (١٥٢٠) ، والترمذى (١٦٥٣) والنسائى (٦/ ٣٦ ، ٣٧) ، وابن ماجه (٢٧٩٧)، عن سهل بن حنيف ﵁.

(٤) الزمر: ٣٣.

يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا» [١].

وأشد الكذب، الكذب على الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [٢].

ولقد نجى الله الصادقين بصدقهم، فى القول والعمل، كما قال تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [٣].

وقال كعب بن مالك للرسول ﷺ عندما نزلت توبته من السماء: **«يا رسول الله، إن الله إنما نجانى بالصدق، وإن من توبتى ألا أحدث إلاّ صدقاً ما بقيت»** [٤].

وقال إياس بن معاوية: (امتحنت خصال الرجال،فوجدت أشرفها صدق اللسان).

ويصف الإمام الدارمى أستاذه إسحاق بن راهويه بقوله: ساد إسحاق أهل المشرق والمغرب بصدقه.

٢ ــ الكـــــرم:

من الصفات المكتسبة لدى الإنسان صفة الكرم، وهى ضد البخل. والإنسان جبل على حب المال، والحرص على اقتنائه بالضرب فى مناكب الأرض.

ثم إنه أكثر ما يفكر فى حب المال لنفسه، وأقله فى الآخرين، وبين الفوز فى الدنيا والآخرة، نجاح الإنسان فى قمع دوافع البخل فى نفسه، فيعودها على الكرم والسخاء والبذل والعطاء قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [٥].

فمن كان ضعيف الإيمان،لا يدرك معنى الكرم،والعطاء، والبذل، إنما يدرك جمع المال،

---

(١) تتمة حديث ابن مسعود المتقدم بالصفحة السابقة.

(٢) الأنعام: ٢١.

(٣) الأحزاب: ٢٤.

(٤) أخرجه البخارى (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩) عن كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٥) العاديات: ٦ ـ ٨.

والتكالب على الدنيا، مما يورث لديه شراهة وطمعاً، كما يورثه حرصاً وشحا.

فالإيمان بالله واليوم الآخر، له دور كبير فى تغيير موازين الإنسان حيث يصير منه إنساناً كريماً، جوادا، معطاءً.

ولقد كان الرسولﷺ أجود الناس، يعطى عطاء من لا يخشى الفقر،وسيرته العطرة حافلة بالكرم النبوى ولقد استطاع الرسول ﷺ أن يربى صحابته على هذه الصفة الفاضلة،وكان أكرمهم بعد رسول الله ﷺ صاحبه وخليفته،أبو بكر الصديق، حتى نزلت فيه آيات تتلى إلى يوم القيامة وهى قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى (١٧) ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ (١٩) إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)﴾ [١].

قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية:(وقد ذكر غير واحد من المفسرين، أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق رضي الله عنه، حتى أن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك)[٢].

ويأتى بعد أبى بكر الصديق دور الصحابة الكرام، فى كرمهم وجودهم وبذلهم، أمثال عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما وغيرهم من الصحابة الذين بذلوا أرواحهم وأموالهم وأهلهم ابتغاء مرضاة الله ـ تعالى، وطلباً لما عنده، وتاريخهم الزكى يسطر ذلك بفخر واعتزاز.

وعلى دعاة الإسلام، والعاملين فى الصف الذى يريد أن يتصدى للباطل أن يكون كل فرد منهم، جواداً كريما، باذلاً نفسه وماله فى سبيل الله.

ولقد حث القرآن الكريم المؤمنين على هذه الصفة التى هى إحدى أمارات الإيمان قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ

---

(١) الليل: ١٧ ـ ٢١.

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٢٢) ط . سامى سلامة .

﴿دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾[(١)].

وآيات كثيرة تحث الهمم إلى الاتصاف بصفة الكرم والإنفاق فى سبيل الله.

والنفس البشرية ضعيفة، شحيحة إلا من عصم الله، ولا تطهر من هذا الشح، إلا أن تغمر بالإيمان، وترتفع على ضرورات الأرض، وتؤمل من الله رضواناً أكبر وعوضاً أعظم قال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾[(٢)].

وما يبذله الإنسان فى سبيل الله، فسوف يجد ذلك أمامه يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠﴾[(٣)].فمن يبخل بالبذل والعطاء والجود، فإنما يبخل على نفسه، ويقلل من رصيده يوم القيامة، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

٣ ـ الرحمة:

صفة الرحمة، اتصف الله بها، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٩٦﴾[(٤)]، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾[(٥)]، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾[(٦)].

وأرسل الله تعالى محمداً ﷺ بالرحمة، ليرحم الناس، وينتشلهم من ظلمات الجاهلية، إلى نور الإسلام، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[(٧)].

فالرحمة، من الصفات التى تلتف حولها القلوب، وتهوى إليها الأفئدة ـ قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾[(٨)].

---

(١) الأنفال: ٢ ـ ٤.
(٢) محمد: ٣٨.
(٣) البقرة: ١١٠.
(٤) النساء: ٩٦.
(٥) الفاتحة: ٣.
(٦) الأنعام: ٥٤.
(٧) الأنبياء: ١٠٧.
(٨) آل عمران: ١٥٩.

وَصَفُّ الدعوة بحاجة إلى رجال تتمثل فيهم صفة الرحمة وتتسع قلوبهم لها فهم دائماً إلى الصفح والعفو والحنان أقرب من القساوة والشدة، وقد قال ﷺ: «**من لا يَرحم لا يُرحم**»[(١)] لا نريد أن يكون فى صَّفنا شقى، انتزعت الرحمة من قلبه بل نريده رحيماً على المؤمنين، رفيقاً بالضالين، فبرحمته يهدى الله ذلك الضال، ويكون قد فاز بأعظم من حمر النعم.

والتراحم من دلائل الإيمان الكامل، فالمسلم يلقى الناس وفى قلبه لهم عطف وحب، ويود لهم مثل ما عنده من إيمان كما قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[(٢)].

فهو بهذه الصفة، يوسع عليهم، ويخفف عنهم، جهد ما يستطيع ومن أحوج للرحمة من داعية، جعل همه إنقاذ من تهاووا فى مصائد الشيطان، وحبائله، وانغمسوا فى ملذات الدنيا الفانية.

إنه من المستحيل عليه أن يجذب هؤلاء إلى صفه ودعوته إذا جاءهم بالزجر والشدة، والقسوة، وهو يجذبهم باليد الحانية وبالكلمة اللينة، والابتسامة الرحيمة، التى تغرس فى قلوبهم الأمل، وتزرع فى أفئدتهم، حب الله ورسوله، وتعظم فى نفوسهم رحمة الله التى وسعت كل شىء، فمن لجأ إلى الله وسار على صراطه فقد نال رحمته.

ليحرص الدعاة العاملون فى سلك الدعوة، أن يتصفوا بصفة الرحمة، ويتعاملوا مع العالم من حولهم بمقتضاها فهى خير ما يجذبهم إلى فىء الإيمان، ونعيم الطمأنينة بظل الإسلام.

٤ ــ ضبط النفس والابتعاد عن التهور والانفعال :

ومن الصفات المكتسبة التى ينبغى على العاملين فى الحركة الإسلامية أن يتصفوا بها

---

(١) أخرجه البخارى (٥٩٩٧) ، ومسلم (٢٣١٨) ، وأبو داود (٥٢١٨) ، والترمذى (١٩١١) ، وأحمد (٢/ ٢٢٨) عن أبى هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخارى (١٣) ،ومسلم (٤٥) ، والترمذى (٢٥١٥) ، والنسائى (٨/ ١١٥) ، وأحمد (٣/ ٢٧٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

ويتحلوا بها، ضبط النفس، والابتعاد عن التهور والانفعال، اللذان يؤديان إلى عاقبة غير مرضية، ونتائج محرجة.

إن الداعية يتعرض أثناء قيامه بعمله الإصلاحى إلى كثير من الجدال والتحدى والأذى، فعليه أن يتحلى بالصبر، وضبط النفس؛ لأن طريق الدعوة، كما هو معروف طويل ويحتاج إلى صبر حتى الوصول إلى نهايته.

فعملية ضبط النفس وعدم التهور والإسراع فى تهدئة الجو مطلوب من الداعية قبل التورط فيما لا تحمد عقباه.

إن ضبط النفس يتم بموازين محددة تقى صاحبها من مغبة انسياقه وراء ما يصور له خياله،ويراه فى نظره هو الأسلم،فعندئذ يغضب،ويندفع،ويتعجل الأمور فيتورط.

ولقد ذكر لنا القرآن قصة تعطى هذه المعانى، وتصورها لنا تصويراً كأننا نلمسه ونشاهده، تلك قصة الملأ من بنى إسرائيل قال تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ﴾ [1].

وفى هذه القصة عبر وعظات، فإن أشد الناس حماسة واندفاعاً وتهوراً، قد يكونون أشد الناس جزعاً وانهياراً وهزيمة ونقضاً للعهد قال تعالى حاكيا عنهم وعن حالهم: ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾ [2].

وهكذا نكثوا وعدهم، وتفلتوا من الطاعة، ونكصوا عن التكليف، وهذا شأن المتهورين المتسرعين، الذين لا يقدرون الظروف، ولا يحسبون الحساب الصحيح، ولا يعطون قيمة للتكاليف الملقاة على عاتقهم.

---

(١) البقرة: ٢٤٦.

(٢) البقرة: ٢٤٦.

ورحم الله الإمام حسن البنا إذ يقرر هذه القاعدة، ويعطيها جل اهتمامه، حينما خاطب الإخوان المسلمين،ووجه إليهم نصائحه وإرشاداته، وخصوصاً المتحمسين منهم حيث قال: (أيها الإخوان المسلمون، وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم، اسمعوها منى كلمة عالية داوية من فوق هذا المنبر فى مؤتمركم هذا الجامع - إن طريقكم هذا مرسومة خطواته، موضوعة حدوده، ولست مخالفاً هذه الحدود التى اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها، أو يقتطف زهرة قبل أوانها، فلست معه فى ذلك بحال، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات.. ألجموا نزوات العواطف، بنظرات العقول، وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف، وألزموا الخيال صدق الحقيقة، والواقع،واكتشفوا الحقائق فى أضواء الخيال الزاهية البراقة،ولا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة، ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة،ولكن غالبوها، واستخدموها، وحولوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض، وترقبوا ساعة النصر، وما هى منكم ببعيد) [١].

فينبغى على العاملين فى الحركة الإسلامية أن يدركوا هذا جيداً ويتركوا عنهم الحماس المتهور، ويتفهموا أصول العمل ويدركوا الواقع الذى يحيط بهم، وينبذوا المجازفات الفاشلة.

ولا شك أن التهور والانفعال، وعدم ضبط النفس، وتعجل الأمور، إنما تأتى نتيجة لرغبة فى النفس، أو لهوى متبع، والاستعداد الانضباطى من أبرز الصفات التى ترشح الشاب المسلم لمهمة التغيير الحضارى، فالانضباطية استعداد نفسى وذهنى للتقييد والالتزام، فإذا انعدم هذا الاستعداد انعدم بالتالى عنصر الطاعة، وانعدمت بالتالى قابلية التلقى للتنفيذ، وما قيمة القدرات الروحية والفكرية والجسدية، إذا لم يمكن الاستفادة منها وضبطها وتوجيهها، إنها قد تكون أحياناً قدرات مخربة ومعوقة.

---

(١) مجموعة رسائل الإمام البنا.

فينبغى على الدعاة السائرين على درب السلف الصالح أن يقابلوا النظرات العابسة بنظرات باسمة ضاحكة، ويقابلوا التهجم والغضب والاستفزاز، بالهدوء وضبط النفس، وسعة الصدر، وتنظيف القلب، ويعملوا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (١).

٥ ـ التقـــوى:

والصفة المكتسبة الخامسة من الصفات التى ينبغى على العاملين فى الحركة الإسلامية، التحلى بها والاتصاف بكل معانيها هى صفة التقوى، والتقوى هى الحارس النابع من أعماق الضمير، وهى مأخوذة من الاتقاء، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾(٢).

وهى شدة الحذر والخوف من قيوم السماوات والأرض، وهى تشمير النفس كى لا تقع فى المهالك والمزالق. قال الشاعر:

واصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

إن ما يعترى المسلم من انحراف، وضعف، وإسراف على النفس، وتفريط فى حق الله، إنما ذلك يعود إلى ضعف الإيمان، وإلى ضعف معنى تقوى الله فى النفوس، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (٣) هذه الآية ينبغى ألا تغيب عن قلب كل مؤمن.

فيجدر بالأخ الداعية، أن يتصرف فى حياته متصوراً أن الله مطلع على ظاهره وباطنه، عالم بهواجسه، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد، فإذا كان ديدنه هذا التصور المتصل بالله فسيكون بلا ريب ممن لا يعصى الله ولا رسوله ولا يخالف أوامره ولا يعمل بنواهيه، لأنه يعلم أن لديه مراقبة من الله عليه.

---

(١) فصلت: ٣٤.
(٢) الزمر: ٢٤.
(٣) الحديد: ٤.

فحرى بالداعية، أن يلزم هذه المراقبة فى سره وعلنه، وأن يستشعر رجوعه إلى الله والمثول بين يديه، فى يوم تشخص فيه الأبصار وتشيب من هوله الولدان.

فليكن شعارك ـ أخى الداعية ـ دائماً حديث رسولك الكريم ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»[١].

فالتقوى هى حاجز لكل ذنب، ودافع لكل خير، وكل تأسيس على غير تقوى ينهار بصاحبه فى نار جهنم، والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾[٢].

وقد ذكرت التقوى فى القرآن فى عدة مواضع، وهى وصية الله تعالى للأولين والآخرين قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[٣].

فما من شر عاجل أو آجل، ظاهر أو باطن، إلا وتقوى الله ـ تعالى ـ حرز متين، وحصن حصين للسلامة منه والنجاة من ضرره، وهى كما صورها صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ بقوله:(وهى الحارس اليقظ فى الضمير يحرسه أن يغفل ويحرسه أن يضعف ويحرسه أن يحيد عن الطريق من هنا ومن هناك)[٤].

وتواجدها فى نفوس العاملين فى الحركة الإسلامية، ضرورى جداً، كضرورة الماء والهواء، فينبغى أن تكون صفة ملازمة لشخصيتهم، ظاهرة فى تصرفاتهم وأعمالهم الحسية والقلبية، وقد أشار إلى حقيقتها رسول الله ﷺ فقال: «**التقوى ها هنا**» وأشار إلى صدره[٥].

فالتقوى إذن هى سلاح نفسى مضمون لا يستغنى عنه إنسان، فالداعية من باب أولى

---

(١) أخرجه الترمذى (١٩٨٧)، وأحمد (٥/ ١٥٣)، والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٤) عن أبى ذر رضي الله عنه، قال الترمذى: « حسن صحيح »، وقال الحاكم: « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه »، ووافقه الذهبى.

(٢) التوبة: ١٠٩.

(٣) النساء: ١٣١.

(٤) الظلال (٢/ ٣٧).

(٥) أخرجه مسلم (٢٥٦٤)، وأحمد (٢/ ٢٧٧) عن أبى هريرة رضي الله عنه.

هو أحوج إليه من غيره.

٦ ــ الإرادة القــــوية:

ومن الصفات المكتسبة التى ينبغى على الأخ العامل فى حقل الدعوة الاتصاف والتحلى بها صفة الإرادة القوية العالية.

والإرادة تشمل العزيمة، والهمة، والقوة، ويدخل فى معناها أيضاً الصبر لأن الإرادة دون صبر، لا تسمى إرادة.

ومن لا يتحلى بها، يطلق عليه لفظ شائن، ولا نرضى أن يطلق على أحد جنودنا ـ لفظ ضعيف الإرادة ـ فكيف يكون فى الصف داعية ضعيف الإرادة، كيف ينتج ويربى، ويجاهد، وهو لا يملك مقومات الهمة والصبر،والثبات على منعطفات الطريق.

وقد بدأ الإمام البنا ـ رحمه الله ـ رسالة التعاليم بهذا التوضيح فقال:«فهذه رسالتى إلى الإخوان المجاهدين من الإخوان المسلمين الذين آمنوا بسمو دعوتهم، وقدسية فكرتهم وعزموا صادقين، على أن يعيشوا بها، أو يموتوا فى سبيلها، إلى هؤلاء الإخوان فقط أوجه هذه الكلمات الموجزة»[1].

ويقول ـ أيضاً ـ فى هذا المعنى فى مجال آخر:«على أهل الدعوات أن يدركوا أن عليهم تبعة عظيمة، فى سبيل تركيز دعوتهم، وأن المبادئ التى ينادون بها تغاير ما عليه الناس، فعليهم أن يتحملوا، ويصبروا فى عزمة قوية، وإيمان ثابت ويقين لا يشوبه تردد ولا شك»[2].

فإذا لابد للعاملين فى الحقل الإسلامى من دوام العمل الجاد، وأخذه بقوة، وعزم ومثابرة ومصابرة حتى يتحقق منهج الله فى الأرض.

ومن خلال هذه الطريق، يمتحن القائمون بالدعوة، وحاملو لواءها بأنواع من

---

(١) رسالة التعاليم ص ٣.

(٢) حسن البنا يتحدث إلى شباب العالم الإسلامى ص ٢٢٨.

المصائب والشدائد والآلام، فصاحب الإرادة القوية هو الذى يستمر فى السير على الطريق،والذين يتساقطون على جوانبه هم أصحاب الإرادات الضعيفة المهزوزة الخائرة.

والإرادة يربى عليها العاملون، كما يربون على أية صفة وخلق آخر؛ لأنه لابد من قوة كامنة تقف وجهاً لوجه أمام القوة الظاهرة المسيطرة، ومن مقومات هذه القوة، الإرادة القوية، والعزيمة المتينة.

فبالإرادة القوية تضبط الشهوات والنزوات، وتستعلى على الضرورات والحاجات وتؤثر الطاعات على غيرها، وتجتاز الابتلاء، لهذا نجد الفارق الكبير بين الإنسان والحيوان أن للإنسان إرادة وهدفاً وتصوراً خاصاً للحياة يقوم على أصولها الصحيحة المتلقاة من الله خالق الحياة وما فيها. فإذا فقد هذا الفارق الرئيسى بين الإنسان والحيوان، فقد أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه، وفقد أيضاً أهم المزايا التى من أجلها كرمه الله ـ تعالى[١].

فجدير بأبناء الحركة الإسلامية، أن يكونوا على مستوى هذه الحركة، ويحرروا إرادتهم كى تعتاد الصمود والثبات، فهو أمر ضرورى لكل من يحمل دعوة الله، يرفعها عالية لتتبوأ مكانها الصحيح.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى فى مواضع كثيرة من القرآن،فقد أمر الله سبحانه وتعالى بنى إسرائيل أن يأخذوا ما آتاهم من الحق بقوة، وحزم وتذكر لما فيه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[٢].

أمرهم الله أن يأخذوا ما فيه بقوة وعزيمة صادقة، فأمر العقيدة لا رخاوة فيه ولا يقبل بأنصاف الحلول، وهو عهد من الله إلى عباده المؤمنين، فهو فصل لا هزل فيه، وهو محمل بتكاليف باهظة وشاقة، فطبيعة الطريق وطبيعة المنهج شاقة صعبة، فالجنة محفوفة

---

(١) بتصرف من كتاب طريق الدعوة فى ظلال القرآن.
(٢) البقرة: ٦٣.

بالمكاره،ومن أراد دخولها لابد له من اجتياز هذه المكاره[١].

فينبغى على الداعية السائر على هذا الدرب، أن يأخذ الأمر الملقى عليه بقوة، وبإرادة قوية وعزيمة صادقة، وهمة عالية، ويودع حياة الدعة والرخاء، ويقتدى بسيد الدعاة الرسول ﷺ عندما نودى بالتكليف، وأمر بالتبليغ نهض بعزم وقوة، وطرح الفراش جانباً، وقال: «مضى عهد النوم يا خديجة»[٢] فقام بواجب الدعوة خير قيام، وانتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة،وجاهد فى الله حق جهاده، فمن حين تكليفه ﷺ بالرسالة، وتبليغها للناس، لم تسكن له ساكنة ولم يهدأ له قرار، فهو دائماً فى حركة وعمل وجهاد ودعوة، وقد وصفته الصديقة بنت الصديق عائشة أم المؤمنين بقولها: (من رآه رآه غادياً رائحاً، لم يضع لبنة على لبنة، بل رفع له علم فشمر له) [٣]. فلابد إذاً من أخذ العهد بإرادة قوية، وجدية صادقة واستجماع نفس، وتصميم مستمر، واستشعار وتذكر حقيقة هذا التكليف، كى لا يكون الأمر كله مجرد حماسة وحمية وقوة، بل لابد من التكليف بهذه الحقيقة.

٧ ـ التفــاؤل:

تعريفه: الفأل: بفاء ثم همزة، والجمع فؤول[٤]، ومعناها فى اللغة، أن يكون الرجل مريضاً، فيسمع آخر يقول:يا سالم،أو يكون طالب ضالة فيسمع آخر يقول:يا واجد، فيقول:تفاءلت بكذا، فيتوجه فى ظنه كما سمع أنه يبرأ أو يجد ضالته، ويقال تأفَّل ـ بالتشديد ـ وفى نوادر العرب تقول:لا فأل عليك، بمعنى لا ضرر عليك ولا شر عليك.

مشروعية الفأل:

قال الرسول ﷺ:«**لا عدوى ولا طيرة، ويعجبنى الفأل الصالح، الكلمة الحسنة**»[٥]

---

(١) بتصرف من تفسير: في ظلال القرآن (١/ ٧٦).

(٢) لم أقف على تخريجه ، وذكره الأستاذ سيد قطب فى الظلال (٦/ ٣٧٤٤) ولم يعزه لأحد.

(٣) أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٣٢٤١) عن عائشة رضي الله عنها ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٥٨) : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه سليمان بن أبى كريمة وهو ضعيف » .

(٤) لسان العرب: مادة (فأل).

(٥) أخرجه البخارى (٥٧٥٦)، ومسلم (٢٢٢٤) ، وأبو داود (٣٩١٦) عن أنس رضي الله عنه.

ويفهم من هذا الحديث،أن من الفأل ما هو صالح ومنه ما هو غير صالح.

وفى رواية: «**لا طيرة وخيرها الفأل**» قالوا:وما الفأل يا رسول الله. قال: «**الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم**»[1].

قال ابن عباس: الفرق بين الفأل والطيرة، أن الفأل من طريق حسن الظن بالله والطيرة لا يكون إلا فى السوء فلذلك كرهت.

وقال النووى: الفأل يستعمل فيما يسوء، وفيما يسر، وأكثره فى السرور، والطيرة لا تكون إلا فى الشؤم.

وقد خص الشرع الطيرة بما يسوء وخص الفأل بما يسر، ومن شرطه ألا يقصد إليه، فيصير من الطيرة ـ قال ابن بطال: جعل الله فى نظر الناس، محبة الكلمة الطيبة، والأنس بها، كما جعل منهم الارتياح بالمنظر الأنيق والماء الصافى، وإن كان لا يملكه ولا يشربه.

وأخرج الترمذى وصححه من حديث أنس: أن النبىﷺ كان إذا خرج لحاجته، يعجبه أن يسمع يا نجيح، يا راشد[2]. وأخرج أبو داود بسند حسن أن النبى ﷺ كان لا يتطير من شىء، وكان إذا بعث عاملاً يسأل عن اسمه فإذا أعجبه فرح به وإن كره اسمه رئى كراهة ذلك فى وجهه[3].

وكان الرسولﷺ طول حياته متفائلاً بظهور دعوته وانتشارها فى بقاع الأرض، كان ﷺ متفائلاً وهو فى مكة، عندما كان مضطهداً، وقومه مضطهدون، فيمر على آل ياسر وهم يضربون فيطمئنهم ويبشرهم بالجنة.

---

(١) أخرجه البخارى (٥٧٥٤، ٥٧٥٥) ، ومسلم (٢٢٢٣) عن أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذى (١٦١٦)، والطحاوى فى «المشكل» (٢/ ٣٤٤)، والطبرانى فى«الصغير» (٥٤٩)، وأبو نعيم فى «أخبار أصبهان» (٢/ ٢٠٦) عن أنس رضي الله عنه، وقال الترمذى:حديث حسن غريب صحيح - وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٨٥٤).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨) وأبو داود (٣٩٢٠) والنسائى فى «الكبرى» (تحفة الأشراف ٢/ ٨٩) وابن حبان (موارد ١٤٣٠) من طريق قتادة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه به. قال الحافظ فى «الفتح» (١٠/ ٢١٥): «سنده حسن».

وكان يأتيه الرجل من أصحابه يشكيه مما حل به من أذى قريش فيطمئنه ويبشره بظهور هذا الدين، وأن المرأة ستسير من صنعاء إلى حضرموت باليمن لا يتعرض لها أحد، وتفاؤله ﷺ بوصول جنود الإسلام إلى أرض فارس، وتحطيم عرش كسرى واستيلائهم على ما فيه معروف مشهور. كما بشر الرسولﷺ سراقة بن مالك بذلك ولبسه سوارى كسرى، ولقد تم ما تفاءل به النبى ﷺ.

وكذلك نجد حياة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كلها حياة متفائلة، لما لمسوه وشاهدوه من القرائن والأحوال التى تدل دلالة واضحة على صدق رسالة الرسول ﷺ،وأن الله مظهر لدينه ومؤيد لرسوله وناصره والمؤمنين، قال تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1].

وهذا أنس بن النضر تفاءل بالجنة فى غزوة أحد، بل شم ريحها فقاتل بروح متفائلة حتى استشهد، وعمير بن الحمام عندما ألقى التمرات من يده، حين سمع أن الجنة تحت ظلال السيوف، فدخل تحت هذه الظلال بروح متفائلة حتى استشهد، وخالد بن الوليد، لم يدخل معركة من المعارك إلا متفائلاً بالنصر، وكان يحرز بهذا التفاؤل النصر تلو النصر.

وجاء دور العلماء والدعاة إلى الله فساروا بالدعوة متفائلين بالنصر والفوز والنجاح، لم يتأثروا بما يوضع لهم من عراقيل بل يزيدهم طموحاً وتفاؤلاً، لأنهم واثقون بنصر الله لهم، فلم يجعلوا لليأس منفذاً واحداً ينفذ إليهم؛لأنهم متحصنون بقوله تعالى:﴿ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[2].

وقد حدد البنا ـ رحمه الله ـ النفس المتفائلة التى تريدها صفوف الدعوة فقال: (نحن نريد نفوساً حية، قوية، فتية، وقلوباً جديدة خفاقة، ومشاعر غيورة، ملتهبة مضطرمة، وأرواحاً طموحة، متطلعة متوثبة، تتخيل مثلاً عليا، وأهدافاً سامية لتسمو نحوها وتتطلع إليها ثم تصل إليها)[3].

(١) الصف: ٩.
(٢) يوسف: ٨٧.
(٣) رسالة دعوتنا : ص ١٧، ١٨.

ورحم الله سيد قطب أن جاد بأبيات تعبر عن روحه المتفائلة وتحدث على هذا التفاؤل فى هذا الطريق، الذى هو طريق الدعوة وطريق الصادقين الذين سلكوه بروح ملؤها الطموح والتفاؤل، قال:

أخى إن ذرفت على الدموع وبللت قبرى بها فى خشوع

فأوقد لهم من رفاتى الشموع وسيروا بها نحو مجد تليد

أخى إن نمت نلق أحبابنا فروضات ربى أعدت لنا

وأطيارها رفرفت حولنا فطوبى لنا فى ديار الخلود

أخى سنبيد جيوش الظلام ويشرق فى الكون فجر جديد

فأطلق لروحك أشواقها تر الفجر يرمقنا من بعيد

فينبغى إذا على العاملين فى حقل الدعوة، أن تكون نفوسهم دائماً متفائلة ولا تترك منفذاً يدخل اليأس منه إليهم.

والدعاة بخير ما دام التفاؤل ديدنهم، والطموح طريقهم، ولا يحول بينهم وبين وصولهم إلى قمة النصر والفلاح إلا اليأس النكد،فإذا ما طرد ذلك اليأس من نفوسهم وتفكيرهم، فإن الدعوة سائرة بخير، وأهلها بخير.

فالتفاؤل والأمل بنصر الله وتأييده لجنده الدعاة هو سبيل الراشدين، والفائزين بالنصر وصدق الله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[1].

فالمؤمنون هم وحدهم المتفائلون، وغيرهم هم اليائسون، فاسلك أخى الداعية طريق المؤمنين المتفائلين، فالفوز حليفك إن شاء الله ، وتذكر قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾[2].

(١) الصافات: ١٧٣.
(٢) الأحزاب: ٢٢.

الصفات العقلية

١ ـ القدرة على الفهم والاستيعاب:

من الصفات العقلية التى ينبغى على العاملين فى الحركة الإسلامية التحلى والاتصاف بها، القدرة على سرعة الفهم، والاستيعاب الكامل، والتخطيط المتزن المنظم، وذلك لأن هذا العصر الذى تعيشه الدعوة، قد تغلغلت فيه الأفكار الاستعمارية، وغزته فى عقر داره. وجاء هذا الغزو الفكرى نتيجة طبيعية لسقوط الخلافة، وتقسيم البلاد العربية، إلى دويلات، ودخول ما يسمى بالغزو الفكرى المسموم، حيث استطاع أن يبث سمومه فى عقل الشباب المسلم، ويصور له رجعية الإسلام، ويربطه بالحركة العلمية فى أوربا، والتمدن الحاضر الذى تعيشه أوربا، والتأخر والتراجع للعرب والمسلمين، وقد لعب التخطيط اليهودى العالمى، والماسونية العالمية، دورًا كبيرًا فى زرع الأحزاب الفكرية الاستعمارية فى قلب العالم العربى والإسلامى كى يتفرقوا فيما بينهم، وإذا تم لهم هذا التفرق، استطاعوا أن يملوا عليهم شروطهم، ومبادئهم الهدامة، على حد القول السائد:فرق تسد.

وتم لهم ما أرادوا، وحصل لهم ما كانوا يبغون، فتراجع كثير من الناس عن دينهم وتقلدوا الأفكار المسمومة، وأخذوا يروجونها بين الشباب والشابات، فتبرجت المرأة، وهتكت ستر حيائها، وانحرف الشباب، وانتشرت الرذيلة بأنواعها وأدخلت القوانين الأرضية المستوردة فى المحاكم الإسلامية،وأصبح الإسلام مجرد شعارات دينية من صلاة وصوم وحج فقط أما التحاكم فصار إلى الطاغوت، ونبذ حكم الله. فجاء دور العلماء المخلصين والدعاة الصادقين يدعون إلى الإسلام ومبادئه من جديد، والخير ما يزال موجوداً فى أمة محمد ﷺ.

فينبغى علينا كدعاة إلى الله، أن يكون لدينا وعى سياسى وخبرة بالأساليب التنظيمية، ومهارة فى التخطيط المنظم والمتزن حتى نستطيع أن نواجه هذا العدوان الشرس، ونتصدى

له بأسلوب كله حكمة وحنكة.

من هنا يتوجب على الأخ الداعية، أن تكون عنده قدرة على الفهم، والتجاوب وسرعة فى التنفيذ، وأن يتسلح بالمعرفة التامة، وأن يفهم دعوته حق الفهم كى يستطيع أن يبلغها حق التبليغ.

والفهم هو أحد أركان البيعة العشرة التى بينها الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ فى رسالة التعاليم، وحث العاملين فى الحركة الإسلامية على الاتصاف والتحلى به.

فالداعية قبل أن يتكلم، عليه أن يعرف ويفهم ما يريد التكلم به، حتى لا يقع فى حرج أو مأزق لا يمكن الخروج منه.

فينبغى عليه أن يدرس كل خطوة يخطوها، إن خطب، أو كتب، أو ناقش.إن سالم، أو خاصم، إن مدح أو هاجم، ولله در الحسن البصرى له الله إذ يقول: (العامل على غير علم كالسائر على غير طريق، والعامل على غير ما يريد، يفسد أكثر مما يصلح).

فجدير بالأخ الداعية، أن تتسع مداركه، وأن يفهم دعوته الفهم الصحيح، لابد له من أن يفهم مقاصدها، والإحاطة بأحوالها، ويفهم ما هو متطلب منه بصفته منتسب لها، كما يجدر به، أن يفهم من هم أعداؤها، وماذا يريدون منها، والوسائل التى يتبعونها، للطعن فيها، والنيل منها ومن حكمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى هذا الميدان قوله: (لست بالخب ولا الخب يخدعنى) [(١)] كما يتوجب عليه، أن يستوعب ما يلقى عليه من تكاليف ومهام، ويتعرف على أحسن الطرق وأجود الوسائل لتبليغها ووصولها إلى الناس، ومن هم فى محيطه.

٢ ـ النظر الثاقب والقدرة على الوصول للقرار الحاسم دون تردد:

والصفة الثانية من الصفات العقلية التى ينبغى على العاملين فى الحركة الإسلامية الاتصاف بها، صفة النظر الثاقب، وسرعة اتخاذ القرار الحاسم دون أى تردد، ودون أى ريب.

---

(١) الخب: المخادع الخبيث.

لأن الإسلام يكره لأبنائه أن يكونوا مترددين، يحتارون فى اختيار الصواب؛ لأن الهواجس تكثر فى الرأس، فتخلق جواً من الريبة والتوجس، ثم يكونون مضطربين وهذا لا يليق بأبناء الحركة الإسلامية.

فينبغى على الأخ الداعية، إذا ما أراد أمراً من أمور الدعوة أن يفكر فيه جيداً، وإذا عزم على تنفيذه، يتوكل على الله، ثم يبدأ بالتنفيذ، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1] فلا مجال بعد العزم، للتردد والتأرجح، ومعاودة تقليب الرأى من جديد، فهذا مآله الفشل والسلبية والتأرجح، الذى لا نهاية له.

فالأمر رأى وشورى، ثم عزم ومضاء، وتوكل على الله، والله يحب المتوكلين.

وإلى جانب الخلال التى يتصف بها الداعية، خلة لا يجوز له أن يخلو منها، وهى حسن السياسة للمواقف، ووضع الأمور فى نصابها والتغلب على الصعاب، للوصول إلى الهدف، والسرعة فى التصرف، للوصول إلى أصح القرارات.

ولنا قدوة برسولنا الكريم ﷺ، فهو صاحب النظر الثاقب، والقرار الحاسم، وصاحب المشورة والعزيمة الصادقة،فكان ﷺ يرى الرأى، ثم يشاور أصحابه ثم بعد المشورة، يعزم على الأمر،ويتوكل على الله،كما حصل له فى غزوة أحد، حيث استشارهم فى طريقة الخروج، وكان رأيه ﷺ أن يترك المشركين يدخلون أزقة المدينة ثم يقاتلهم ويحشرهم فى الأزقة،وكان رأى أصحابه أن يخرج إليهم فلما رأى الصحابة مصرين على ذلك نزل على رأيهم،وحصل ما حصل فى غزوة أُحد ومع هذا قال له ربه: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[2]، والدارس لتصرفات الرسول ﷺ وأحواله،لا يكاد يرى فعلاً من أفعاله، إلا وفيه جليل الحكمة وبعد النظر.

فينبغى على العاملين فى الحركة الإسلامية، أن يتصفوا بصفة التأمل والنظر الثاقب،

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

وتكون عندهم القدرة الكافية لاتخاذ القرار الحاسم، دون أى تردد، ودون أى ريب لأن الداعية إلى الله، ينظر بنور الله، هذا النور الإلهى، إذا حل فى قلب المؤمن يولد فيه البصيرة الثاقبة، التى يعرف بها الحقائق، ويزن بها الأمور، ويدرك بها الصعاب ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[1].

٣ ـ معرفة النفوس:

لله ـ جل شأنه ـ الحكمة البالغة، بأن ميز كل إنسان عن غيره بميزات عقلية وجسمية ونفسية تختلف من إنسان لآخر، ولا تكاد تجد اثنين متشابهين فى كل شىء، لهذا كان واجب الدعاة، الحرص على النوعية الجيدة، والحائزة على الصفات التى تؤهلها بجدية فى الحقل الإسلامى.

ومن يكيف نفسه على شرائط الإِسلام، يستطيع أن يتعرف إلى النفوس، وينفذ إليها،ولابد من توفر القدرة التى تتعمق فى دخائل النفوس،التى بها يفهم الأشخاص، ويصل إلى قلوبهم من أقرب طريق.

إن مهمة الداعية لاشك أنها شاقة، وتحتاج إلى صبر وإلى يقظة وتحتاج إلى تعميق المعرفة، كى تكون مؤهلة لكشف النوعيات الجيدة،والصالحة للعمل فى حقل الدعوة، لأن معرفة النفوس والدخول إليها معرفة شاقة، وصعبة وتحتاج إلى تكريس الجهود، ومواصلة العمل.

وللنفوس طباع غريبة متعددة، فمنها: ما تحتاج فى دعوتها إلى اللين والرفق وإلاّ شردت. وأخرى تريد المواجهة والمصارحة المكشوفة، وثالثة ينفع معها العلاقة الاجتماعية العائلية، ورابعة سريعة الملل، صعبة التقبل، تحتاج إلى التنويع فى الارتباط بها. وخامسة تكفيها الإشارة فتتقبل الأمر بسهولة ويسر، وسادسة متسرعة ومتهورة تحتاج إلى كبح جماحها، وضبطها، وتعميق معانى التريث فيها وهكذا دواليك.

---

(١) النور: ٣٥.

يقول صاحب كتاب المنطلق[1]:(إن ميدان المعركة هو النفس الإنسانية بكل تعقيداتها، ومتناقضاتها فهى ليست أحجارًا صلدة، ولا أصحابها أصحاب طهر ملائكى، إنما نفس إنسانية فيها الغرائز، غرائز حب البقاء، وحب التكاثر، والثراء، وإشباع الشهوات الجنسية، وفيها النزعات، نزعات الثأر والحذر، إن النفس الإنسانية هى ميدان هذه الانقلابات الاجتماعية والسياسية الكثيرة المتواصلة التى يحدثنا عنها التاريخ القديم والحديث).

ومعرفة طبيعة كل نفس سبب كبير جدًا للتأثير عليها، وكسبها والجهل بها سبب كاف لعدم التأثير عليها، ومن ثم هروبها وتفلتها، وعدم تقبلها كل ما يقال لها.

ولا تكفى معرفة الأخ لطبيعة كل نفس من نفوس مدعويه ـ فإن هذه تعتبر الخطوة الأولى فقط، وتليها خطوات أشق مكملة لها، وإلاّ كانت المعرفة هامشية واهية ـ كما أنه لابد من معرفة طرق التعامل معها، ووسائل ترغيبها والطريق النافعة لعلاجها، ويجدر بالأخ أن يلاحظ أنه لابد من مشاورة من سبقوه فى هذا الميدان وخاصة فى مثل هذه الأزمات، فعندها يجد الأخ معارف جديدة لدى إخوانه، وتجارب مثمرة يستطيع عندئذ اختيار المناسب منها.

ومن ثم فهو قد ازداد معرفة وعلمًا بأساليب وفنون جديدة تعينه فى التربية الصحيحة المثمرة مع نفوس جديدة أخرى.

٤ ــ معرفة الدعوة وتنمية الثقافة العامة:

وهذه الصفة ينبغى أن يعرفها الداعية حق المعرفة؛ لأنها دعوة الله فهى عظيمة لنسبتها إلى الله.

فلابد من دعاة يتناسبون مع عظمتها وشمولها، فمعرفتها والإحاطة بها أمر ضرورى لكل داعية، حتى يستطيع أن يواجه المنكرين لها والواقفين ضدها، لابد إذًا من التسلح بسلاح الثقافة والمعرفة، كى يدافع ويهاجم فى نفس الوقت أعداء الله.

---

(١) ص ٢٦٨، ٢٦٩.

فينبغى على الداعية أن يكون على علم وبصيرة بما يدعو إليه وشرعية ما يفعله ويتركه من أعمال وإلا وقع فى الجهل والتخبط والخلط وعرض نفسه للحرج .

وتُلزم الجماعة نفسها على تربية أفرادها، على هذا الأساس لتخرج دعاة يقومون بمهمة نشر الفكرة من أساسها، وكل فى مجال تخصصه، وميدان عمله.

فمعرفة الداعية لدعوته أمر ضرورى،وضابط مسلكى وأخلاقى،ودافع للعمل، محقق لأهداف الفكر الإسلامى، وجعله واقعيًا، وليس مجرد نظريات، ومثاليات مجردة فعقل الداعية ينمو نموًا طبيعيًا،مادام يتناول من الأبحاث والثقافات ما يكفل له غذاءً وفيرًا ومتنوعًا، ويتباطأ عن النمو والإنتاج بل ربما قد يتأخر عن التفكير، إذا أهمل أو قدم له القليل من القراءات والمطالعات[1].

ومن الجدير بالذكر، أن الفهم الصحيح والوعى السليم والثقافة الواسعة تحقق الثبات والبقاء فى المسيرة الإِسلامية، وأكثر الذين تساقطوا على الطريق، وتركوا المسيرة أغلبهم ممن أخذ هذه الدعوة بعفوية،واندفعوا بعاطفية جياشة تحت ظرف من الظروف، ولم يدركوا أبعاد الطريق، ولم ينظروا إلى مغبة الاستعجال وعدم التريث، ودراسة ما حولهم دراسة واعية وشاملة، ولم يدركوا معالم ومميزات الدعوة الإِسلامية.

فهذه الدعوة لها مميزات ومعالم، لا تشترك مع باقى دعوات أهل الباطل، كما أنها لها ميزان دقيق لا يمكن التحرك بغيره، ولا يمكن للدعاة أن يزنوا أعمال دعوتهم، بغير هذا الميزان، وهناك أسئلة ينبغى على الدعاة أن يحيطوا علمًا بإجابتها،حتى تكتمل جوانب معرفتهم بها،من هذه الأسئلة:لماذا ندعو؟ من ندعو؟ ما هى مميزات الدعوة الناجحة؟ وما صفات الداعية المطلوبة؟ ومن هم أعداؤنا؟ وما الدعوات المناهضة لدعوتنا؟

هذه الأسئلة وما شابهها تستوجب على الدعاة معرفتها تمام المعرفة، مع دراستها عن كثب، ثم يخرج بقناعة بأن دعوتنا هى أسمى الدعوات وأصوبها، ثم لابد من الوعى الذى

(١) بتصرف من كتاب مشكلات الدعوة والداعية ص ١٠٩ .

يقود إلى مزيد من الدراسة لواقع المدعوين ليختار الطريقة المناسبة، ثم يربطها بواقع الفكرة.

ومما لا شك فيه أن الفهم الصحيح، والوعى الكامل، والمعرفة الكاملة الواعية كل هذه تجعل الداعية فى حصن منيع من الانحراف والتذبذب، كما تكون سببًا مهمًا لسلامة فكره وصفاء رأيه، من الوقوع فى الشك والزيغ.

والمعرفة المطلوبة من الأخ الداعية فرعان:

١ ـ **معرفة الأصول العامة لفكرته**: والمقاصد الأساسية التى جاء بها الإسلام، ليحققها ومعرفة الكليات الكبرى التى تنظم كثيرًا من الأحكام التى يحتاجها كل مسلم، وهذه إشارة إلى بعض الدراسات التى يتعين معرفتها، وهى:

قراءة القرآن كله، مع تفسير مبسط وبشكل موجز بحيث يوضح المعانى، كذلك دراسة الأحاديث الصحيحة، وحفظ بعض منها مع فهم معناها ومقاصدها وما يؤخذ من الحديث، من أحكام فقهية وإرشادات دينية ودنيوية، ودراسة أحكام الدين كالعبادات والمعاملات التى يحتاج إليها، والإحاطة بأصول العقيدة، والاطلاع على السيرة النبوية، ودراسة منهج الدعوة، وطرق الاستفادة من أخطاء الدعوات، وكذلك ينبغى معرفة الأفكار المناوئة لفكرته ومعرفة عيوبها، وما يؤخذ عليها، وما تتبناه من آراء.

٢ ـ التعرف على الفروع والجزئيات والشروع فى ذلك حتى تكتمل شخصيته، ويكون موضع ثقة الناس،عندما يتوجه إليه بأى سؤال، فتكون عنده الإجابة الشافية، والرد المقنع.

الصفات الحـركية

١ ــ الشعور بالمسؤولية:

ينبغى على الداعية، أن يعد نفسه إعدادًا يكون على مستوى المعركة التى تواجه الإسلام، فى الداخل والخارج، وأن يكون فى إيمانه أثبت من الرواسى، وأن يكون فى صبره، أقوى من الشدائد، وأجلد من المصاعب والأهوال.

كذلك ينبغى أن يتولد عنده شعور ذاتى بالمسؤولية الملقاة على عاتقه ـ مسؤولية العمل للإسلام ـ وأن يكون عنده استعداد كامل لتلبية ما تتطلبه هذه المسؤولية، من حاجات ومهام، فإذا لم يكن ذا نفس طويل، وتحمل جلد، ومناعة قوية، فإنه لا يستطيع أن يقوم بتحمل هذه المسؤولية.

فلابد للداعية أن يتواجد فيه شعور ذاتى يحركه للعمل، ولا ينتظر التكليف الحركى لينهض بأعباء المسؤولية، بل لابد أن يتولد فى أعماقه هذا الشعور ويجرى فى عروقه كجريان الدم فيحس بإحساس ربانى بعظمة التكليف وأعباء المسؤولية فيقوم بأدائها خير أداء، طالما يجرى فى دمه هذا الإحساس وهذا الشعور فحرى بالداعية أن يشعر أنه مسؤول عن هذا الإسلام، حتى ولو لم يكن عضوًا فى جماعة، فحسبه أن يكون مسلمًا غيورًا على دينه وعقيدته، ومبادئه الإسلامية التى ينتسب إليها.

والحركة الإسلامية فى هذه الأيام بمسيس الحاجة إلى العناصر التى تتحرك ذاتيًا نحو مسؤوليتها، بحاجة إلى عناصر تتقد نفوسها شعورًا وإحساسًا بواجباتها الإسلامية، بحاجة إلى عناصر يغلى فيها الشعور بالمسؤولية غليانًا، وهى تريد عناصر لا يهدأ تفكيرها للعمل لهذا الدين ساعة من ليل أو نهار. ومرجعنا وقدوتنا فى الشعور بالمسؤولية، هو رسولنا الكريم ﷺ، فهو خير من مثل هذا الشعور بمسؤولية العمل للإسلام، فقد قام خير قيام للعمل للإسلام، ضحى كثيرًا من أجل هذا الدين، بل قدم التضحيات تلو التضحيات، خرج من بلده ـ مكة ـ وهى أحب بلاد الله إليه ـ وعانى مشقة الطريق، وصبر على أذى

قريش، واتهامهم له بالجنون، وقد كان يلقب عندهم بالصادق الأمين واتهموه بالكذب، والشعوذة وسلطوا عليه الغلمان والصبيان، فضربوه بالحجارة حتى أدمت قدميه، وهو صابر؛ لأنه يشعر بالتبعة وعظم المسؤولية، ولو انحرف قليلاً لهلك، ولكن الله حماه من أن ينحرف أو يركن شيئًا إلى الكفار قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾[1].

ولما وصل إلى المدينة، لم يهدأ تفكيره لحظة واحدة عن العمل للإسلام بل هجرته للمدينة من صميم العمل للإسلام فقد أخذ يبنى الدولة الإسلامية بمعونة أصحابه من الأنصار والمهاجرين، وهو فى هذه الأثناء يعلمهم أمور دينهم، ويشرع لهم ما ينزل عليه من السماء ويجاهد معهم ويقود الغزوات بنفسه، ومرة يبعث السرايا، وكان بوده ﷺ ألا تفوته أى سرية فى سبيل الله، ولقد أوضح ذلك بقوله: «والذى نفسى بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنى ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغدو فى سبيل الله، والذى نفسى بيده لوددت أنى أقتل فى سبيل الله ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل»[2].

نعم، لقد قام بواجب المسؤولية تجاه الإسلام خير قيام، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاهد فى الله حق جهاده، وانتقل إلى الرفيق الأعلى والإسلام قد كملت شرائعه وأحكامه قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾[3].

وأخذ الصحابة من بعده ﷺ، هذه المسؤولية والشعور بالتبعة العظيمة، وأحسنوا أداءها، والقيام بها على أحسن وجه.

كان شعورهم بالمسؤولية، شغلهم الشاغل فى جميع الظروف والأحوال، كان محور حياتهم وتفكيرهم ساعة العسر واليسر، قال زيد بن ثابت: «بعثنى رسول الله ﷺ - يوم

(١) الإسراء: ٧٤، ٧٥.
(٢) أخرجه البخارى (٢٧٩٧)، والنسائى (٦/ ٨)، وأحمد (٢/ ٥٠٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه.
(٣) المائدة: ٣.

أُحد ـ أطلب سعد بن الربيع، فقال لى:«إن رأيته فأقرئه منى السلام، وقل له: يقول لك رسول الله كيف تجدك؟» قال: فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته وهو بآخر رمق وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة رمح وضربة سيف، ورمية سهم، فقلت: يا سعد،إن رسول الله يقرأ عليك السلام ويقول لك: أخبرنى كيف تجدك؟ فقال سعد: على رسول الله ﷺ السلام، قل له يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومى الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله، وفيكم عين تطرف وفاضت نفسه من وقته»(١). شعور عظيم بل قمة فى الشعور بالمسؤولية، رجل فى آخر رمق فى حياته، لم يتخل عن المسؤولية، بل نراه يوصى بها قومه ويحملهم إياها.

هكذا كان شعور الرعيل الأول من الصحابة بمسؤوليتهم تجاه الإِسلام ونبى الإِسلام. والداعية على ثغر من ثغور الإِسلام. فهو أمام مسؤولية كبرى، فلا ينبغى أن يؤتى من قبله، بل عليه أن يصمد فى ثغره ذاك حتى يلقى الله، وهو على حاله، فينال بذلك ثواب المرابطين وأجر المجاهدين الصابرين.

هؤلاء هم الذين يعقد الأمل عليهم، أما غيرهم من الذين لا تلتهب نفوسهم حماسة للإسلام، ولا تتمعر وجوههم، لنكبة الإِسلام، ولا تهتز مشاعرهم للذين يطعنون فيه، ويتطاولون عليهم، هؤلاء الذين لا يهتمون بأمر المسلمين لا ينعقد الرجاء عليهم ولا يتحقق على أيديهم أى انتصار للإِسلام.

فالشعور بالمسؤولية أمر لابد منه لكل داعية نذر نفسه لله ولرسوله ولدينه وعليه أن يتحرك فى هذه الحياة بمقدار ما يحمله من مسؤولية؛ لأن حياة الداعية هى التحرك للإِسلام لا القعود ولا الهمود، وقد أحسن د. يوسف القرضاوى بقوله:

---

(١)أخرجه ابن إسحاق كما فى السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٤٣، ٤٤) ، وابن جرير الطبرى فى تاريخه (٢/ ٧٢) عن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة المازنى أخو بنى النجار مرسلاً. وقال الحافظ ابن حجر فى لسان الميزان (٥/ ١٧٥) : « وهو مرسل ، قاله البخارى » ، وقال فى الإصابة (٣/ ٥٩) : « قال أبو عمر فى التمهيد لا أعرفه مسندًا وهو محفوظ عند أهل السير .. قلت ـ أى الحافظ ابن حجر : وفى الصحيح من حديث أنس ما يشهد لبعضه ».

قلت: الحياة هي التحرك لا السكون ولا الهمود
وهي الجهاد وهل يجاهد من تعلق بالقعود
وهي التلذذ بالمتاعب لا التلذذ بالرقود
هي أن تذود عن الحياض وأي حر لا يذود
هي أن تحس بأن كأس الذل من ماء صديد
هي أن تعيش خليفة في الأرض شأنك أن تسود

هكذا حياة الداعية الذى تحمل المسؤولية من أول وهلة ففتح لها قلبه، وشمرت لها نفسه، وألقى الراحة جانبًا وترك عهد النوم.

فيجدر بالعاملين فى الحركة الإسلامية فى جميع أقطار المسلمين أن يتمسكوا بالدعوة والعمل من أجلها وتحمل أعباء المسؤولية ويجاهدوا أنفسهم، ويجودوا بها رخيصة للإسلام وإلا لفظتهم الحياة واستبدل الله تعالى بهم قومًا آخرين.

٢ ـ النظام والدقة:

الدقة والنظام والتخطيط كلها وسائل تعين على استخدام الجهود، وتوجيهها توجيهًا مثمرًا فى مجال الدعوة وبالتالى تزيد فرص النجاح فى تقدم الدعوة إلى الأمام، وبلوغ الداعى هدفه.

وبدون النظام والدقة، قد تتبعثر الجهود، وتتثاقل الخطا ويتعثر السير ويكون على غير هدى، وعندئذ تكون النتيجة فى خطر؛ لأن الحسابات غير دقيقة وبعيدة عن الصواب،فينبغى على الداعية أن يجعل الدقة والنظام رأس ماله فلا يضع قدمًا ويرفع أخرى إلا وهو قد نظم لها ورسم خطاها،فيجب على الداعية أن ينظم وقته لأن (الوقت هو الحياة) كما قال الإمام البنا ـ رحمه الله.

وإن القليل من العمل والدوام عليه، خير من العمل الكثير مع الفوضى والانقطاع والتسيب.

ولقد حث الإِسلام على النظام فى كل شىء، ومن التطبيقات العملية على ذلك، نأخذ مثال السفر، حيث أمر الإِسلام الركب إذا كانوا ثلاثة أن يؤمروا عليهم أميرًا، حتى لا يختلفوا فى الطريق، وتتبعثر جهودهم، وخصوصًا أن السفر ـ كما قال الرسول ﷺ ـ قطعة من العذاب. فعملية التنظيم واختيار الأمير، لا شك أنها عملية تريح المسافرين من أعباء كثيرة وربما تحدث لهم أثناء سفرهم، قال الرسولﷺ: «**إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم**»[1].

فلابد إذًا من تعويد النفس، وضبطها على النظام، فالمسلم لا يتربى تربية منظمة، إلاّ إذا كان فى جماعة، لأن الإِسلام لا يتصور قيامه إلاّ فى محيط جماعة منظمة ذات ارتباط ونظام ودقة فى كل شىء وفى كل أمر، كما أن هذه الجماعة لها هدف جماعى، يتحقق بتعاون الفرد وانصهاره فى بوتقة الطاعة والنظام.

وبالنظام تتوحد الصفوف،وتكون كالبناء المرصوص الذى تتعاون لبناته، وتتماسك فيما بينها، بحيث تؤدى كل لبنة دورها وإلاّ انهار البنيان، وتساقطت اللبنات.

فتماسك الأفراد ووقوفهم صفًا واحدًا أمام التحديات شأنه أن يبلغ بالدعوة شأوًا بعيدًا إلى الأمام. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾[2].

٣ ــ الاستعداد للبذل والتضحية بكل شىء:

الصفة الثالثة من الصفات الحركية التى ينبغى على العاملين فى الحركة الإِسلامية، الاتصاف بها، هى صفة البذل والتضحية بالغالى والنفيس، وحتى يكمل إيمان الداعية يجدر به أن يتحلى بهذه الصفة الرفيعة، صفة أهل الجهاد، والمنفقين فى سبيل الله، وذلك لأن الإِسلام دين حث على البذل والتضحية بالمال والنفس وكل غال ونفيس، قال تعالى: ﴿إِنَّ

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٠٨، ٢٦٠٩) عن أبى سعيد وأبى هريرة رضي الله عنهما، وقال الألبانى : «حسن صحيح » .
(٢) الصف: ٤.

ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾[1].

ويقول البنا ـ رحمه الله ـ في رسالة التعاليم: (أريد بالتضحية، بذل النفس، والمال والوقت والجهد، وكل شيء في سبيل الغاية، وليس في الدنيا جهاد لا تضحية معه، إنما هو الأجر الجزيل والثواب الجميل، ومن قعد عن التضحية معنا فهو آثم)، وينبغي أن يعلم بأنه لا يستوي عند الله القاعد، والباذل المضحي في سبيل الله، والفرق بينهما أيضًا أجر عظيم لا يعلمه إلاّ الله تعالى قال الله في كتابه العزيز: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾[2].

كما بشر الله ـ تعالى ـ الباذلين أنفسهم وأموالهم في سبيله بإعطائهم أعظم درجة، الفوز والخلود والنعيم المقيم بالجنة وأعظم من ذلك إحلال رضوانه تعالى عليهم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾[3].

إذًا يتضح لنا من معاني الآيات بأن من أراد الدرجات العلى والفوز برضوان الله والخلود في نعيم الجنة، لابد أن يعطي ويبذل ويضحي بنفسه وماله وكل ما هو غال من أجل ذلك الوعد العظيم من الرب العظيم.

أما الذين لا يطلبون في هذه الدنيا إلاّ الراحة والسهولة ورغد العيش فأولئك هم أصحاب العقول المستريحة كما وصفهم الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله.

(١) التوبة: ١١١.
(٢) النساء: ٩٥، ٩٦.
(٣) التوبة: ٢٠، ٢١.

فليحذر الأخ الداعية أن ينضم إلى صف هؤلاء الضعفاء وأصحاب النفوس المستريحة، وعليه أن ينضم إلى صفوف النخبة الخيرة من المجاهدين المضحين والمنفقين فى سبيل الله بأموالهم وأوقاتهم وأنفسهم، حتى ينال الأجر العظيم والدرجات العلى عند رب العرش العظيم.

والذين ضحوا وبذلوا وجاهدوا، استطاعوا أن يغيروا مجرى التاريخ، ويبدلوا أفكار ومبادئ البشر الأرضية بمبادئ سامية إلهية.

هؤلاء هم الذين دفعوا بقطرات دمهم، وأعز ما يملكون من أجل الدعوة، وهم الذين صدقوا الله بالقول والعمل وكما عبر د. القرضاوى عن هؤلاء بقوله:

أعطوا ضريبتهم للدين من دمهم والناس تزعم نصر الدين مجانًا

فلابد إذن من بذل أسباب النصر، وفى مقدمتها التضحية والبذل وتقديم النفس والمال والوقت، بطيبة نفس واستبشار لنيل إحدى الحسنيين.

وليست التضحية قاصرة على المال والنفس، ولكن هناك صورًا أخرى للتضحية تتناسب مع عصر الدعوة الذى نعيش فيه وتناسب المرحلة الحالية التى تعيشها الجماعة.

فمن هذه الصور نجد تضحية بالجهود، وتضحية بالكفاءات الفكرية، وتضحية بالمستقبل اللامع، وتضحية بالأمانى والآمال وتضحية بالوقت الثمين.

ولإيجاد هذه الصفة فى صف العاملين فى الدعوة،يتعين التركيز القوى على معانى الإيمان فكلما قوى داعى الإيمان فى النفس،كلما زاد زهدها فى الدنيا، وعملت جاهدة للتخلص من الأثقال التى تعيق سعيها لتحقيق غايتها؛ لأنها علمت أن ما عند الله خير وأبقى.

فينبغى على العاملين فى حقل الدعوة، أن يجردوا أنفسهم من الهوى، وينفضوا أنفسهم من كل بهرج وزينة، وأن يبذلوا المال برضاء وسخاء، ويبذلوا العافية والصحة والسهر والتعب، والمسير المضنى لرفع دعوة الله، وإذا دعت الحاجة إلى بذل الروح، فلا يبخلوا بها،

بل يقدموها رخيصة بجانب رضاء الله، ونيل مغفرته وجنته.

٤ ــ القدرة على التعامل مع الناس:

ومن الصفات الحركية اللازمة لكل داعية، القدرة على التعامل مع الناس؛ لأن من يتصدى لدعوة الناس، سوف يواجه أصنافًا من البشر تختلف عن بعضها بالتفكير والأسلوب والفهم والذكاء والغباء، فإذا لم يكن الداعية متمتعًا بالمقدرة على التعامل مع كل صنف من هؤلاء الناس، فقد يتعرض فى أثناء دعوته للإحراج والفشل،فحرى به أن يكون كما قال حسن البنا ـ رحمه الله:(دقيق الحس، دقيق الشعور، ثائر العاطفة، يقظ القلب، بعيد الآمال، كبير المطامح فى الإصلاح، طموحًا إلى المجد كل همه أن يكون نافعًا لغيره، أو أن يدفع الضر عن سواه) [١].

ثم لابد له إن أراد أن ينجح فى تعامله مع الناس، عليه أن يختلط بهم، ويدرس أخلاقهم وطبيعتهم عن كثب ويعيش مجتمعاتهم، وأن يجمعهم إليه بلباقته، وحسن حديثه، وسماحة وجهه.

كما ينبغى منه أن يحدث الناس حسب عقولهم، وحسب مفاهيمهم، ومستوى ثقافتهم، وأن يبتعد عن التجريح والإساءة، حتى يكسب حبهم وثقتهم؛ لأن الدعوة فى هذا الزمن بحاجة إلى دعاة، يحسنون طريقة عرضها على المجتمعات، بأسلوب شيق وجذاب ومحبب إلى النفوس، ويوضحون به مبادئ الإسلام الراقية التى تواكب كل عصر، فى كل زمان.

من هنا كانت وظيفة الدعاة دقيقة، وحساسة، وتتطلب كثيرًا من اللباقة والحكمة، وحسن اختيار الأسلوب الجذاب، الذى يسحر السامعين ويجذب المدعوين كما قال الرسول ﷺ:«**وإن من البيان لسحرا**»[٢].

ولقد حث القرآن الدعاة إلى الله، أن يدعوا بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة

---

(١) حسن البنا يتحدث إلى شباب العالم الإسلامى، ص ٣٧.

(٢) أخرجه البخارى (٥٧٦٧)، وأبو داود (٥٠٠٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

والأسلوب اللين الرفيق قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ (١). وفسرها ابن كثير بقوله: «أى من احتاج إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن، وبرفق ولين وحسن خطاب».

ويقول الله ـ عزّ وجلّ ـ مخاطبًا نبيه الكريم صاحب الخلق العظيم، ويربيه على الصفات الحركية الحسنة الجذابة التى تلم الناس ليجتمعوا حواليه ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ (٢).

وقد وصفه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: (إنه ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزئ بالسيئة السيئة) (٣). فليقتد الداعى المسلم برسول الله ﷺ وليكن هذا شأنه وديدنه لمن يدعوهم، ويتحمل صدور أى أذى منهم.

والداعى المحروم من الرحمة غليظ القلب، سيئ الأسلوب لا يجيد حسن التحدث، ولا يستعمل الموعظة الحسنة والحكمة البليغة، لا ينجح فى عمله، ولا يدنو الناس منه، بل يبتعدون عنه ولا يقربونه وإن كان ما يقوله حقًا وصدقًا.

فعلى الداعية الواعى، أن يسلك طريق من سبقه فى هذا المجال، وأن يذلل نفسه للمدعوين، ويسلك معهم طريق الحكمة والموعظة الحسنة، حتى يستطيع أن يغير من أخلاقهم ويجعلهم يتجمعون حوله، ويأخذون تجارته ويتداولونها بينهم، عندئذ يكون قد فاز بحمر النعم.

وبانتهاء هذه الصفة، نكون قد استعرضنا الصفات الأساسية والمهمة التى ينبغى على العاملين فى الحركة الإسلامية الاتصاف والتحلى بها.

---

(١) النحل: ١٢٥.
(٢) آل عمران: ١٥٩.
(٣) أخرجه البخارى (٢١٢٥) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

صفـات المؤمـنين
فى سورة المائدة

ونختم هـذه الرسـالة بـصفات أخـرى أربـع ذكرهـا الله تعـالى فى سـورة المائـدة، هـذه الصفات شاملة وموجزة:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) ﴾ [١].

ذكر الله فى هذه الآية أربع صفات رئيسية تشمل هذا المبحث، وهـى الـصفات التـى مـن اتصف بها نال بركة الله ونصره وهذه الصفات هى:

١ ـ حب الله:

المؤمنون لا يحبون أحدًا أكثر من حبهم لله ورسـوله،فحب الله مقـدم عـلى جميـع الأشـياء قال تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ ﴾ [٢]وحب رسوله ﷺ من حبهم لله.

إن محبة العبد لربه شىء فطرى؛ لأنه خالقه ومنعم عليه فيلازمه هذا الـشعور دائـمًا، وأن محبة الله تقتـضى منـا أن نحـب مـن أحبـه الله ونـبغض مـن أبغـضه الله، فالحـب والـبغض لله وبالله، وإن أسعد الناس وأحسنهم حالاً فى الآخرة أكثرهم حبًا لله تعالى.

وحـب الله مجـرد مـن العمـل حـب كـاذب، لأن الله يقـول: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [٣].

وما أحسن قول الشاعر:

تعصى الإله وأنت تزعم حبه   هذا لعمرك فى القياس شنيع

---

(١) المائدة: ٥٤.
(٢) البقرة: ١٦٥ .
(٣) آل عمران: ٣١.

لو كان حبك صادقًا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيــع

فمحبة الله تستوجب طاعته وطاعـة رسوله ﷺ فى السر والعلـن. وقـال مالـك فى هـذه الآية: من أحب طاعة الله أحبه الله وحببه إلى خلقه، وقد كان دعاء الرسول ﷺ: «وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربنى إلى حبك» (١).

٢ ـ التواضـــع:

والتواضع من صفات العبد المؤمن لإخوانه المؤمنين ـ أذلة على المؤمنين هـو ذل المؤمن لأخيه المؤمن، وكان الرسولﷺ سيد المتواضعين، حيث رباه الله عزّ وجلّ على هذه الـصفة الحـسنة، التـى تجمـع حولـه النـاس قـال تعـالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ ﴾(٢). ولقد حث الرسول ﷺ على هذا التواضع بقوله: «تواضعوا حتـى لا يفخـر أحـد على أحد، ولا يبغى أحد عـلى أحـد»(٣). فالتواضـع بـين الإخـوة المؤمنين مطلـوب، ويجب عليهم أن يتعاطوه بينهم، وإلاّ فهـم آثمـون والـشيطان لا يريـد لهـم هـذا التعـاون المتناسـق الجميل المتين بينهم، فيريد دائمًا أن يشعل بيـنهم نـار الفتنـة والبغـضاء، ويـشيع بيـنهم فـساد ذات البين، وهى الحالقة التى تحلق الدين.

فمطلوب من الإخوة الدعاة أن يتصفوا بهـذه الـصفة الرفيعـة لأن مـن تواضـع لله رفعـه الله،لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، ولا فرق بين فرد أو مسؤول أو أكبر من ذلك.

فليقتـد الـدعاة بـسيدهم ورسـولهم الكـريم، الـذى أجمـع مـن عـاصره، ورآه أنـه كـان متواضعًا، يبدأ أصحابه بالسلام وينصرف بكليته إلى محدثـه صـغيرًا كـان أو كبـيرًا، وإذا مـر على الصبية الصغار سلم عليهم، كما يسلم عـلى كبـيرهم ويكـون آخـر مـن يـسحب يـده إذا صافح،وإذا أقبل جلس حيث ينتهى بأصحابه المجلس، وكان يـذهب إلى الـسوق، ويحمـل

---

(١) أخرجه الترمذى (٣٢٣٥)، والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٢١) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال الترمذى: «هـذا حديث حسن صحيح سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح».

(٢) الشعراء: ٢١٥.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٦٥)، وأبو داود (٤٨٩٥) عن عياض بن حمار رضي الله عنه.

بضاعته ويقول: أنا أولى بحملها. ولم يتكبر عن عمل الأجير والصانع، سواء كان فى بناء مسجد المدينة، أو الخندق، وكان ﷺ يجيب دعوة الحر والعبد، والأمة، ويقبل عذر المعتذر، وكان يرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويقوم فى خدمة أهله، وكان يعقل بعيره، ويأكل مع الخادم، ويقضى حاجة الفقير، والضعيف والبائس، ويجلس على الأرض وينام على الحصير، وقد يؤثر فى جنبه الكريم.

هذه الصفات للداعى الأول للإسلام، وصاحب الرسالة الخالدة ونبى هذه الأمة ونبى الرحمة، محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

فحرى بالمؤمنين الدعاة أن يتخلقوا بأخلاقه ويسيروا على هديه.

والداعى الناجح فى دعوته، هو الذى يصل إلى قلوب الناس، ويؤثر فيها بأسلوبه الخلاب وبأخلاقه المتواضعة، ومعاملته الحسنة، حتى يحبه الناس ويلتفوا حول دعوته، ويتأثروا بها.

مطلوب إذًا دعاة متواضعون للمسلمين، أعزة على الكافرين لا يخافون فى الله لومة لائم، كل همهم توصيل الدعوة للناس بأسلوب متواضع، تهوى إليه القلوب، وترنو إليه الأبصار.

٣ ـ الاستعلاء والعزة:

ينبغى على المؤمن أن يكون عزيزًا، يستعلى بإيمانه على كل متكبر مستخف، يستعلى بإيمانه على سفاسف الأمور، يستعلى بإيمانه على جميع التصورات الجاهلية، هكذا ينبغى على كل داعية، أن يتصف بصفة العزة، التى كرمه الله بها وأعزه الله بها، لأن الانتساب إلى الله هو أعلى معانى العزة والكرامة، والاستعلاء على المبادئ الأرضية الهابطة.

وإن أول ثمرات العزة الإيمانية التى يشعر بها المؤمن هو إدراكه بأن الإسلام هو القوة الحقيقية، من تمسك بها انتصر واعتز؛ لأنه من عند الله العزيز الحكيم ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [1].

---

(١) النساء: ١٣٩.

ومن إيجابيات العزة، أن فطرة الناس لا تجتمع على الذليل، الحقير، لكننا نراها تجتمع نحو عزيز القوم، وتلتف حوله.

ولقد كتب الله العزة له ولرسوله، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[(١)].
إذن العزة الحقيقية التى ينبغى على كل مؤمن أن يعتز بها عزة الإيمان عزة الإسلام، عزة الدين والعقيدة.

أما اعتزاز البشر بأجناسهم وألوانهم ولغاتهم وأنسابهم وأموالهم، فهى عزة منتنة، جاهلية هابطة، تقوم على احتقار الغير؛ لأنها قائمة على أساس تصورات خاطئة وقيم زائلة.

والعزة الإيمانية، تجعل من حاملها شعلة من نور تضىء الطريق للحائرين وتنشلهم من ظلمات الطاغوت، وعزة المؤمن تدعوه ليجهر بالحق، ويعلنه على الملأ بأسلوب جميل وقول حسن، وعمل صالح ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[(٢)]. وهذه العزة تجعله قائدًا لركب الإنسانية وإمامًا يهتدى به، ويقتدى بأعماله وأفعاله، تجعله فى مرتبة متقدمة يحمل الراية، ويشق بها الصفوف.

هذه العزة تجعله لا يخجل من انتمائه إلى الإسلام والدفاع عنه وعن عقيدته وشريعته، ولا يخجل أن يتحدث بلغة القرآن، ولا يخجل من لباسه الذى يخالف به الكفر وأهله.

هذه العزة ضرورية للداعية المسلم وبدونها لا يستطيع أن يقدم شيئًا للدعوة، وسيبقى منزويًا معزولاً عن الحياة.

واستعلاء المؤمن ينبغى ألا يتهاوى أمام أى مخلوق وأى قوة فى الأرض؛ لأن الله ناصره، ومخذل أعداءه،أخرج الطبرى فى تاريخه عن أبى عثمان النهدى قال:(لما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس،أجلسوه واستأذنوا رستم فى إجازته،ولم يغيروا شيئًا من

---

(١) المنافقون: ٨.
(٢) فصلت: ٣٣.

شارتهم تقوية لتهاونهم،فأقبل المغيرة بن شعبة، والقوم فى زيهم عليهم التيجان،والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة ـ والغلوة مسافة رمية سهم وتقدر بثلاثمائة أو أربعمائة خطوة ـ لا يصل إلى صاحبهم حتى يمشى عليها غلوة، وأقبل المغيرة، وله أربع ضفائر حتى جلس على سريره ووسادته،فوثبوا عليه، وأنزلوه ومقتوه ـ أى صرعوه ـ فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أدرى قومًا أسفه منكم، إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضا إلاّ أن يكون محاربًا لصاحبه، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم،فلا نصنعه،ولم آتكم ولكن دعوتمونى،اليوم علمت أن أمركم مضمحل،وأنكم مغلوبون،وأن ملكًا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول).

نستخرج من هذه القصة، قوة إيمان المغيرة بن شعبة واستعلائه بهذا الإيمان على أولئك القوم الأعاجم وهو عندهم وتحت وطأتهم، فلم يخف سطوتهم، بل فتح فاه عليهم وسلط عليهم لسانًا أخرج كلمات ملؤها العزة والكرامة والصدق، وحقرهم وهو فى دارهم وسفه أحلامهم، وطعن فى ملكهم ـ (وإن ملكًا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول).هكذا يجب أن يكون شعور المسلم بإيمانه، وعزته واستعلائه بإسلامه وعقيدته ودينه.

٤ ــ الجهـــاد:

إن الجهاد فى سبيل الله ماض إلى أن تقوم الساعة ولابد للجهاد من عصابة مؤمنة ترفع رايته عالية وتشق بها صفوف الأعداء، ليتحقق الخير والصلاح للبشرية جميعًا.

وهذه العصابة هى التى يختارها الله، ويصطفى أفرادها من بين البشر، فهى إذًا اختيار إلهى ربانى؛ ليصنع بها فى هذه الأرض ما يريد.

ولقد عبر الإمام البنا ـ رحمه الله ـ عن الجهاد بقوله: (وأريد بالجهاد الفريضة الماضية إلى يوم القيامة وأول مراتبه انكسار القلب، وأعلاها القتل فى سبيل الله وبين ذلك جهاد

اللسان والقلم واليد، وكلمة الحق عند السلطان الجائر، ولا تحيا الدعوة إلاّ بالجهاد،وبقدر سمو الدعوة،وسعة أفقها تكون عظمة الجهاد فى سبيلها وضخامة الثمن الذى يتطلب لتأييدها وجزالة الثواب للعاملين ـ وجاهدوا فى الله حق جهاده)[١].

ولقد حث الإسلام على الجهاد فى سبيل الله، وجعله ذروة سنامه ولقد أمر الله بالجهاد فى كتابه العزيز فى عدة مواضع، وفى آيات متفرقة قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ﴾ الآية[٣] وآيات كثيرة، وقد حث عليه الرسول ﷺ بأحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: «**لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها**»[٤]. وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلاّ جهاد فى سبيلى وإيمان بى وتصديق برسلى فهو على ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه، نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة، والذى نفس محمد بيده، ما من كلم يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم، لونه لون دم وريحه ريح مسك، والذى نفس محمد بيده، لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدًا، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى، والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل**»[٥].

والأحاديث فى الحث على الجهاد كثيرة جئنا ببعضها على سبيل المثال. وينبغى على الداعية، أن يكون فى صفوف المجاهدين. والجهاد فى مجال الدعوة أنواع، فهناك جهاد

---

(١) رسالة التعاليم ص ١٢.

(٢) البقرة: ٢١٦.

(٣) التوبة: ١١١.

(٤) أخرجه البخارى (٢٧٩٣)، ومسلم (١٨٨٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه، ولفظ البخارى: « ... خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب».

(٥) أخرجه مسلم (١٨٧٦) عن أبى هريرة رضي الله عنه.

بالقلم، وجهاد بالكلمة، وجهاد ببذل المال والوقت، وإن تطلب الأمر، جهاد بالنفس فى سبيل نشر الدعوة، وتحقيق أهدافها ومقاصدها.

والله نسأل أن يجعلنا من عباده الذين اصطفاهم لدعوته وأن يثبتنا على الحق ويرزقنا الصبر من أول الطريق إلى نهايته إنه سميع مجيب.

الخاتمة

إن دعوة الله تعالى عظيمة، وإنها أمانة فى أعناقنا ولأنها أمانة،فإنها ثقيلة ، وثقلها يجعلنا نختار لها رجالاً تحويهم صفات تؤهلهم لحمل هذه الأمانة ، والواجب الدينى ، يحتم علينا، أن نشترط هذه الصفات لتكوين الرجل العادى ، إلى داعية يدعو إلى الإسلام بصدق ، وإخلاص وأمانة وقوة .

وحتى يتقبل الله منا أعمالنا وتكون دعوتنا موافقة لشرعه علينا أن نتخلق بالصفات التى بينها لنا وإلا فإننا نسعى وراء السراب .

وحتى لا نكون من الذين قال الله فيهم : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ (١)، علينا إذًا أن نختار ما اختاره الله تعالى . فالمطلوب دعاة متصفون بصفات خاصة فى مقدمتها حب الله وحب رسوله وحب المؤمنين وعلى أيديهم وبإخلاصهم وأمانتهم يتحقق للدعوة كيانها وتعود للإسلام عزته كما كانت فى الصدر الأول .

ومن الأسباب التى جعلت القائمين على أمر الدعوة يختارون هذه الصفات لتكوين شخصية الداعية ، ما طرأ على الشخصية الإسلامية من تشويه ومسخ ، عبر القرون الماضية وذلك بسبب عوامل الضعف التى طرأت على الأمة الإسلامية ، إما بفعل أعدائنا الذين حرصوا على تحطيم شخصية المسلم ، فهذه الصفات التى اشترطناها إذا اتصف بها الداعية جديرة بأن تحميه من المنزلقات والمنعطفات ، وتحميه من مكائد الشيطان ومصائده بعد حفظ الله له.

فالمسلم حتى ينجح فى هذا العالم ويكون فى عداد الفائزين ، لابد له من توافر الصفات الناجحة الماضية فى العزم والإقدام والصبر والثبات .

فمهمة الداعية الأولى ، هى اكتشاف هذه الصفات ، فى الذين يدعوهم ، كما يحرص على

---

(١) الكهف : ١٠٣، ١٠٤.

تنميتها ، ويغرس فيها حب العمل والتفانى فيه .

وهذه الصفات ليست ضربًا من الاجتهاد ، وإنما هى بتوجيه من البارئ - عز وجل - الذى يعلم دخائل النفوس، وخفايا القلوب . ولن تصلح حال الأمة الإسلامية ، إلا بصلاح رجالها ، الذين هم حملة النور ومشعل الحضارة الإنسانية.

ومن هنا ينبغى ألا يتساهل الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية فى اختيارهم لمن يصلح أن يكون فى مركبهم .

وختامًا نضرع إلى الله تعالى ، أن يجعلنا من أهل الصفات التى يحبها ويرضاها للعمل فى سبيله ، وأن يثبتنا فى العمل فى دعوته ، ويرزقنا الشهادة الخالصة فى سبيله وأن يبلغنا منازل الشهداء آمين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .



الرسالة الثالثة

الأهداف الرئيسية للدعاة إلى الله

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

أما بعد، فقد أصبح لا مفر أمام العالم الإسلامي من ضرورة وجود التجمع العضوى العامل فى جميع المنحنيات، التجمع النخبوى المعنى بالصفوة، والتجمع الإسلامى العام والتجمع الإسلامى العلمى الثقافى والتجمع الإسلامى الخيرى المؤسسى، وغير ذلك من الصور التى تتيح لكل صاحب خير فرصة للمساهمة فى إعادة سلطان الله فى الأرض من خلال تكوين رأى جماهيرى موجه، يكون رأيا عاما ضاغطا يساهم فى إيجاد مجتمع الخير فى هذه الأرض، وهذه التجمعات التعددية فى ظاهرها، الواحدة فى حقيقتها تحتاج فى مسيرتها إلى تهديف واضح ليسير الجميع على نور وهدى. فأمر التنظيم ليس فئويا بل ليس بشريا، فالكون وإعماره قائم على الدقة والتنظيم، ومن ثم كان لا بد لمن أراد أن يتسق معه ولا يصطدم بنواميسه أن يرتب تنظيمه معه فى نسق واحد متعبدا لله ـ سبحانه ـ الواحد الأحد، ولذلك كان لا بد عند وضع الأهداف الرئيسية للعاملين لنصرة هذا الدين، وأن تكون منضبطة بقواعد الإسلام وحدوده، وبهذا جاءت هذه الأوراق لتأصيل ضرورة العمل الإسلامى البعيد عن الارتجال والتواكلية، المرسوم الخطوات الواضح الغايات، وهذا أمر لا يجوز أن نختلف عليه بل أصبح بدهيا ضروريا فى معظم تحركات الإنسان الدنيوية والأخروية، فإن كان الحصول على رغيف الخبز يحتاج إلى ترتيب وتنظيم للجهود فإيجاد مجتمع الأمن والإيمان يكون من باب أولى، فإن تم الاتفاق على هذه القاعدة فمن الممكن بعد ذلك أن يسعنا الخلاف فى كيفية هذا التحرك المنظم إن كان شعبيا أو حكوميا، عاما أو خاصا، إقليميا أو عالميا، فهذه أمور من الممكن أن يتم فيها الحوار وفق قواعد مصلحة هذا الدين المنضبطة بالكتاب والسنة، والله يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

ثم يكون بعد ذلك إما اللقاء الوحدوى القاعدى أو التنسيق القيادى الهرمى أو النشاط

الوسطى الضاغط وفى كل هذه الحالات ستظهر روح الاعتصام الشرعى بحبل الله المتين، ثم لم تغفل الرسالة ذكر صفات العاملين لنصرة دين الله، وطبيعة العلاقة بينهم وأنها قائمة على الولاء والمحبة، وبعد التطواف فى هذه المعانى التى تعتبر القاعدة للأهداف جاءت الضوابط والقواعد لهذه الأهداف فى نسق واحد مع منطلقات الدراسة التى قامت عليها أسطر الرسالة وكلماتها فى بنائها على الكتاب والسنة مع عدم الغفلة عن العوائق المعطلة لتنفيذ هذه الدراسة فى واقع العمل، وأنها فى نهاية الأمر لا تعتبر شيئا فى طبيعة التيسير الخاصة بهذا الدين العظيم .

ثم إن هذه الأهداف التى جاءت هذه الرسالة من أجلها تبقى أهدافا ثقيلة فى تبعتها، كبيرة فى صياغتها ومضمونها، عظيمة فى حملها، ولكن هذا هو الطريق فمن نذر نفسه ليعيش لهذا الدين العظيم فسيعيش متعبا، ولكنه سيحيا كبيرا ويموت كبيرا .

تمهيد

١ ـ كان الناس أمة واحدة:

التعددية والانقسام والتحزب ظاهرة إنسانية أبدية مع أن الأصل أن الإنسانية أمة واحدة لكنها انقسمت بعد التيه والضلال إلى أقسام متعددة وشتى، منها واحدة فقط هى مركز الحق وما عداها باطل وفى ذلك يقول الشهرستانى: (إن أهل العالم انقسموا من حيث المذاهب إلى أهل الديانات وإلى أهل الأهواء) [١].

والعمل الحزبى هو ثمرة تجارب مرت بها الإنسانية فى شتى حالاتها وصورها، فغايات الإنسان متعددة ومختلفة وهو يسعى للوصول إلى أهدافه عن طريق التجمع وتنظيم قواه، وهذه الأهداف تختلف نتيجة لانقسام الناس بحسب معتقداتهم وأفكارهم.

٢ ـ التجمع المنظم صفة إنسانية:

ولا شك أنه ما من شىء أقوى فى تحقيق الأهداف من قوة التجمع وتنظيم الطاقات؛ لتتكون الجماعات التى هى صفة إنسانية ابتداء.

ولذلك فإنه (لما كان نوع الإنسان محتاجًا إلى اجتماع مع آخر من بنى جنسه فى إقامة معاشه والاستعداد لمعاده، وجب أن يكون الاجتماع على شكل يحصل به التمانع والتعاون، حتى يحفظ بالتمانع ما هو أهله وبالتعاون ما ليس له، فصورة الاجتماع على هذه الهيئة هى الملة، والطريق الخاص الذى يوصل إلى هذه الهيئة هو المنهاج، والشرعة والسنة والاتفاق على تلك السنة هى الجماعة) [٢].

قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [٣].

٣ ـ اختلاف التجمعات المنظمة وفق المناهج:

وهذا الصراع والاختلاف ليس محض صدفة إنما هو ناتج عن وعى وإدراك لطبيعة

---

(١) الملل والنحل: (١/ ٣٧). ط ٢ دار المعرفة.
(٢) المرجع السابق (١/ ٣٨).
(٣) المائدة: ٤٧.

الأفكار والغايات التى يعتنقها كل إنسان ولعل من الطبيعى أن يتضمن الحق طائفة أو حزبًا بعينه دون غيره؛ إذ إن من المحال أن يتنافر الأشباه ويتجمع الأضداد،(فأهل الأهواء ليست تنضبط مقالاتهم فى عدد معلوم، وأهل الديانات انحصرت مذاهبهم بحكم الخبر الوارد فيها، فافترقت المجوس على سبعين فرقة واليهود على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة، والمسلمون على ثلاث وسبعين فرقة والناجية أبدًا من الفرق واحدة) [(١)].

ولا شك أن تسلسل الحق وانتقاله من فئة إلى فئة قائم على أن تلك الفئات ذات اتصال بالله ـ سبحانه وتعالى ـ فبين الله أنه خلق من خلقه أمة يهدون إلى طريقه سبحانه ويقيمون العدل، قال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾ [(٢)] إلى أن استلم راية الحق محمد ﷺ وأتباعه ثم انتقلت بحكم التبعية والمنهجية إلى من بعده من السلف الصالح حتى يرث الله الأرض ومن عليها فقال ﷺ: «**لا تزالُ طائفةٌ من أمتى يقاتلون على الحقِّ ظاهرِينَ إلى يوم القيامة**»[(٣)].

٤ ـ التحزب صورة من صور التجمع المنظم:

وتطور معنى التجمع إلى نظرية ذات أسس وقواعد وذات تقنين بديع وجيد وسمى ذلك التجمع بالحزب، وكلمة الحزب ليست جديدة كما يفهمها البعض إنما هى قديمة قدم الإنسانية وقدم الصراع بين الحق والباطل. وأما من جهة المنهجية والقواعد فإن المعانى متشابهة بين القديم والجديد، أما من جهة اللفظ فإن كلمة الحزب وردت فى آيات عديدة وأحاديث كثيرة لا سبيل لحصرها فى هذا البحث.

يقول الله تعالى: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [(٤)].

---

(١) الملل والنحل (١/ ٣٧).
(٢) الأعراف: ١٨١.
(٣) أخرجه مسلم (١٩٢٣)، وأحمد (٣/ ٣٤٥) عن جابر رضي الله عنه.
(٤) المؤمنون: ٥٣.

ومن جهة أخرى فالتجمع الحزبى قديم باختلاف أفكاره ومناهجه. وفى تفسير قوله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ (١)، ولكى يتضح ذلك تبين ما ورد فى تفسيرها (فالأحزاب الجند، كما يقال: جند من قبائل شتى، وقيل: أراد بالأحزاب القرون الماضية من الكفار أى هؤلاء جند على طريقة أولئك) (٢)، وعلى هذا فمن الواضح أن التجمع الحزبى قديم.

وفى قصة مؤمن آل فرعون وحواره مع فرعون وقومه دليل على هذا التجمع البعيد العميق فى التاريخ البشرى.

ويفسر الإمام القرطبى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾﴾ (٣) بقوله : (يعنى أيام العذاب التى عذب فيها المتحزبون على الأنبياء المذكورين فيما بعد) (٤).

بل إن الله سبحانه وتعالى أراد التخفيف عن رسوله ﷺ مما يجده من تأثير التجمع الحزبى للمشركين ضده فيهون عليه ويذكر له قصص تجمع الأحزاب السابقين على الرسل الكرام بنفس المنهجية والطريقة،فالله سبحانه يذكر فى كتابه:﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ (٥)ويتابع الإمام القرطبى تفسير الآية فيقول:﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ «ذكرها تفريجا للنبى ﷺ وتسلية له، أى هؤلاء من قومك يا محمد جند من الأحزاب المتقدمين الذين تحزبوا على أنبيائهم وقد كانوا أقوى من هؤلاء فأهلكوا..﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أى هم الموصوفون بالقوة والكثرة) (٦).

---

(١) ص: ١١.
(٢)تفسير القرطبى (٧/ ١٥٣).
(٣)غافر: ٣٠.
(٤) تفسير القرطبى (٧/ ٣١٠).
(٥) ص: ١٢، ١٣.
(٦) تفسير القرطبى (٧/ ١٥٤).

٥ ـ الصراع الحزبى صراع قديم:

أما عن الأصالة والعمق فى العداوة بين الأحزاب، فإن التاريخ يذكر الشىء الكثير فالصراع أصبح أزليًا بين راية الحق وراية الباطل، صراع بالقول والفكر والجدل،وصراع باليد والبطش والقتل، وصراع بالحيلة والمكر والإشاعات، والكيد أنماط متعددة تبين عمق الصراع الحزبى. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يبين ذلك فى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾ [1].

(فقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أى: كذبت الرسل ﴿وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ﴾ أى والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب نحو عاد وثمود ومن بعدهم ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ﴾ أى: ليحبسوه ويعذبوه. قال قتادة والسدى: ليقتلوه والأخذ يرد بمعنى الإهلاك، قال يحيى بن سلام: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ﴾ (أى بالعذاب) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أى: عاقبة الأمم المكذبة، أى: أليس أخذه حقًا) [2].

ويتابع سيد قطب هذا الصراع وعمقه فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٧﴾ [3].

فيقول: (إن هذه الطلائع تتصدى لمثل ما كان يتصدى له ذلك الرهط من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا ـ وتجد من هذه الجاهلية مثلما كانوا يجدون ـ لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء رسول الله ﷺ إلى البشرية كلها بهذا الدين فواجهته بجاهليتها التى

(١) غافر: ٥.
(٢) القرطبى (٧/ ٢٩٣).
(٣) هود: ١٧.

صارت إليها بعد الإِسلام الذى جاءها به من قبل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان ويحيى وعيسى وسائر النبيين. ثم بعد هذه المعركة القاسية بين الشرك والتوحيد وبين الجاهلية والإسلام وبين طلائع البعث الإسلامى وهذه الطواغيت فى أرجاء الأرض) [١].

٦ ـ الانتماء نحو الحق فى التجمع الحزبى:

قد تتجاذب الإنسان فى حياته جواذب عديدة نحو الانتماء إلى هذه الأحزاب دونما أن يفهم غاية وجوده فى الدنيا وتصور طبيعة حياته التى خلق فيها والانجراف نحو الباطل. والحق يصنف الإنسان فى اتجاهين لا ثالث لهما إما انتماء لحزب الله وإما انتماء لحزب الشيطان، والحق والنجاة هو فى حزب الله وهذا أمر لا مماراة فيه ولا جدال بل إن لزوم جماعة الحق ضرورى فى عهد طغت الجاهلية بأحزابها المتعددة على مسار الحياة الإنسانية.

(قال ابن القيم ـ رحمه الله: وما أحسن ما قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن المعروف بأبى شامة فى كتاب الحوادث والبدع: حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد لزوم الحق وأتباعه وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف له كثيرًا. إن الحق هو الذى كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبى ﷺ وأصحابه ولا تنظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم. قال عمرو بن ميمون الأودى: صحبت معاذًا فما فارقته حتى واريته التراب بالشام ثم صحبت بعده أفقه الناس عبد الله بن مسعود فسمعته يقول: عليكم بالجماعة فإن يد الله مع الجماعة، ثم سمعته يومًا من الأيام وهو يقول: سيلى عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها فصلوا الصلاة لمواقيتها فهى الفريضة وصلوا معهم فإنها لكم نافلة. قال: قلت يا أصحاب محمد ما أدرى ما تحدثون. قال: وماذا؟ قلت: تأمرنى بالجماعة وتحضنى عليها، ثم تقول: صل الصلاة وحدك، وهى الفريضة وصل مع الجماعة وهى النافلة. قال: يا عمرو بن ميمون قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية. أتدرى ما الجماعة؟ قلت: لا، قال: إن جمهور الناس قد

---

(١) فى ظلال القرآن (٤/ ١٨٦٦).

فارقوا الجماعة، والجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك) [١]، وإن ما وافق الحق هو ما وافق عليه طريق الجماعة المؤمنة وسارت عليه واتخذته منهجًا وشرعة وطريقًا، فالجماعة المؤمنة هى حزب الله.

(١)الانتصار لحزب الله الموحدين: الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البابطين ص ٣٦، ٣٧.

الدعاة إلى الله
والحل المطلوب

١ ـ الدعاة إلى الله وواقع المسلمين:

سقوط الخلافة العثمانية بتخطيط دقيق من أحزاب الباطل بشتى مشاربها وصنوفها واتجاهاتها جعل الساحة ميدانًا نشطًا لأحزاب الباطل لتتصدر قضايا المسلمين وتلبس عليهم دينهم، فمزقت الأمة وسيطرت على مقومات حياتها وتنوعت الأحزاب الباطلة والحكومات الفاسدة فى مناهجها، كل يعمل لإسقاط دولة الإسلام حيث إن (أغلب المنظمات السياسية فى العالم الإسلامى ليس عندهم استعداد للاحتكام إلى كتاب الله) [١] بل إن فى الدولة الواحدة مشارب باطلة شتى وأحزابًا عميلة وملحدة تسيطر على أنفاس المسلمين وتسير حياتهم (ثم تأتيك من كل قطر التنظيمات الشيوعية وكلها أجهزة عميلة للشيوعية العالمية) [٢].

وفقد الناس الصورة الناصعة للقيادة الحكيمة والفئة الرشيدة من الدعاة إلى الله. فهم إما بعيدون عن الواقع السياسى والمعترك العملى للناس أو هم تحت أقبية السجون وفى زنازين المعتقلات وتحت أسواط الجلادين والطغاة،حتى أصبح المزج بين السياسة والإسلام إجرامًا فى تصور أهل الباطل وأصبح ذلك تصورًا عامًا عند عامة المسلمين. وإيجاد تجمع حركى باسم حزب الله أصبح خيانة عظمى فهاب الناس التجمع حول راية الإسلام (ونتيجة لذلك فقد تم انحسار مفهوم الحزبية الربانية لتحل محلها الحزبية الجاهلية...) [٣] وجارت الأحزاب الفاسدة وضل الناس وعمت الجاهلية ولابد من عودة النور.

٢ ـ التجمع الإسلامى هو الحل المطلوب:

ولهذا فإن عملية إنقاذ الناس من الضلال ومن سيطرة أحزاب الباطل تتم بإيجاد قوة

---

(١) جند الله :سعيد حوى ص٧ .
(٢) المرجع السابق ص ١٢.
(٣) المرجع السابق ص ٩.

منظمة لها نفس البناء التكوينى الشكلى للأحزاب ولها الخط المميز المنهجى للحركة والعمل والإنقاذ،(فالحل أن يقوم الدعاة إلى الله فى كل قطر بنظام ربانى دقيق وبمنهاج ثقافى وتربوى سليم، يسير بعد ذلك بتخطيط حكيم نحو تحقيق الأهداف الإسلامية) [(١)].

وهذا العمل ليس بدعًا من الأمر بل هو ضرورة حتمية لعلاج الأمة وإبعاد سيطرة الباطل،ويجب أن تلتئم جميع القوى الإسلامية الفردية المبعثرة أو الجماعية المختلفة وأن تعمل تلك القوى على إيجاد تجمع واحد يسير نحو الغاية القويمة لكى يعيد للإسلام نصابه، وللمسلمين منهجهم ونمط حياتهم الإسلامى، فإن (الجماعة التى تتولى الدعوة يجب أن تعمل على أن يقوم تكوينها على الأقاليم الإسلامية وقد أهمل المسلمون فى الماضى تكوين تلك الجماعة التى تقوم بهذا الغرض الكفائى الذى يكون واجبًا على الخصوص وعلى العموم كما يقول الإمام الشافعى - رضى الله تبارك وتعالى عنه - فى رسالته فى علم الأصول. ووجوبه على الخصوص أن يكون فرضًا عينيًا بالنسبة للجماعة التى تكونت وحملت عبء الدعوة ووجوبها على العموم من حيث إن جميع المؤمنين عليهم أن يكونوا هذه الجماعة) [(٢)].

بل إنه يجب أن تتضافر الطاقات والكفاءات فى تحمل عبء الدعوة: إذ إن مواجهة أحزاب الشيطان والباطل لا تكون ناجعة إلا بإعداد القوة المنظمة المنافسة لها. ولذلك فإنه (يجب على الأمة الإسلامية مجتمعة أن تهيئ جماعة من بينها تكون عندها القدرة على الدعوة الإسلامية، لها مؤهلات علمية بحيث تكون على علم كامل بالإسلام فى كلياته ولها علم بالبيان ومقدرة عليه ولها علم بالنفوس الجماعية والآحادية، ولها قدرة جسمية وعقلية ودراية على الاتصال بالجماعات والمشاركة الوجدانية معهم والتغلغل فى نفوسهم) [(٣)].

---

(١) المرجع السابق: ص ٢٥ .

(٢) الدعوة إلى الإسلام : أبو زهرة ص ١٢٧

(٣) المرجع السابق ص١٢٥.

٣ ــ تجمع الدعاة فى عمل واحد:

ومما لاشك فيه أن إيجاد العمل الإسلامى سيكون أمرًا صعبًا على النفوس؛ لذلك لا تجتمع على إيجاده إلا النفوس القوية، وتقوم الجهود الصغيرة بتأسيسه؛ إذ إن معظم الأمة تخلى عن ذلك الواجب. تقوم تلك الجهود المؤمنة بتأسيس أنصار الله ثم بعد ذلك تتكامل داخليًا بتلك الكفاءات والقدرات وتتطور وتتنامى لتنافس أحزاب الشيطان.

وقد تكون جماعات الحق التى تندرج تحت الدعاة إلى الله قد قامت بداية بجهود فردية وجهود صغيرة ثم نمت تلك البذرة لتتسع فتملأ الأرض من مشرقها إلى مغربها، إنها بركة الانتماء لدعوة الله.

والإمام البنا ـ رحمه الله ـ يروى لنا قصة تكوين جماعة الإخوان فيقول: (وقفت نفسى منذ نشأت على غاية واحدة هى إرشاد الناس إلى الإسلام حقيقة وعملاً ،ولهذا كانت فكرة الإخوان المسلمين إسلامية بحتة فى غايتها ووسيلتها .. ولقد أخذت أفاتح كثيرًا من كبار القوم فى وجوب النهوض والعمل وسلوك طريق الجد والتكوين، فكنت أجد التثبيط أحيانًا والتشجيع أحيانًا، والتريث أحيانًا ولكن لم أجد ما أريد من الاهتمام بتنظيم الجهود العملية .. وليت وجهى شطر الأصدقاء والإخوان ممن جمعنى وإياهم عهد الطلب وصدق الود والشعور بالواجب فوجدت استعدادًا حسنًا وكان أسرعهم مبادرة إلى مشاركتى عبء التفكير الأستاذ أحمد أفندى السكرى والأخ المرحوم الشيخ حامد عسكرية والأخ الشيخ أحمد عبد الحميد وكثير غيرهم وكان عهد وكان موثق أن يعمل كل منا لهذه الغاية.. وفى الإسماعيلية أيها الإخوان وضعت أول نواة تكوينية للفكرة وظهرت أول هيئة متواضعة تعمل ونحمل لواءها ونعاهد الله على الجندية المقامة فى سبيلها تحت اسم الإخوان المسلمين وكان ذلك فى ذى القعدة سنة ١٣٤٧هـ) [1].

(١) مجموعة الرسائل: حسن البنا ـ بتصرف ص ٢٢٣ ـ ٢٢٩ ، ط. مؤسسة الرسالة.

القواعد الحركية للعاملين فى الدعوة إلى الله

إن التجمع الدعوى حقيقة معنوية وبالتالى فهو تشكيل عضوى حركى يقوم على أسس وقواعد تضبط مسيرته وتحكم ديمومته، ومن هذه القواعد:

١ ـ التجمع الحركى:

الخطوات الأولى لإعداد أنصار الله هى تكوين التجمع الحركى الذى يتكون من القلة المؤمنة ممن آمن بالفكرة التى يتبناها هؤلاء الأنصار وهذا أمر قد فعله رسول الله ﷺ حيث (إن الخطوات الأولى كانت اتصالاً بأناس مخصوصين ومن توسم النبى ﷺ فيهم القبول والحجى وتلاوة لهذه السور عليهم ودعوتهم) (١).

(ولما دعا رسول الله ﷺ إلى الله استجاب له عباد الله من كل قبيلة) (٢) ثم بدأ بالتجمع ليهدى الأفراد بصورة توسع قاعدة الدعوة، ففى الصحيحين من رواية عبد الله ابن عباس عندما ذهب أبو سفيان إلى هرقل وسأله هرقل (قال: أيزيدون أم يَنْقُصُون؟ قال: قلت: بل يَزيدون) (٣).

و(روى الإمام أحمد عن جابر قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم عكاظ والمجنة وفى المواسم يقول: «من يؤوينى؟ من ينصرنى حتى أبلغ رسالة ربى وله الجنة؟» فلا يجد أحدًا يؤويه ولا ينصره حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر فيأتيه قومه وذوو رحمه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك. ويمضى بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيه رهط من المسلمين يظهرون الإسلام) (٤).

---

(١) سيرة الرسول ﷺ محمد عزة دروزة (١/ ١٥٩) طبعة الحلبى.

(٢) مختصر سيرة الرسول ﷺ: محمد بن عبد الوهاب ص ٨٣.

(٣) أخرجه البخارى (٧)، ومسلم (١٧٧٣) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٣، ٣٣٩، ٣٤٠) والحاكم (٢/ ٦٢٤، ٦٢٥) والبزار (كشف ١٧٥٦) والبيهقى (٩/ ٩)

لا شك أن وجود التجمع هو الركيزة الأولى لبناء أنصار الله وهذا التجمع فى تشكيله التنظيمى عبارة عن قاعدة تتجه نحو رأس هرمى هو القائد وهذا التجمع يجب أن يحوى عنصرين القائد أو القيادة والأتباع أو القاعدة الصلبة أو الجنود.

فالقيادة هى التى توجه التجمع إلى الأهداف المرجوة، والغاية من هذا التجمع (ولادة المجتمع الإسلامى) إذ لا تتم باكتفاء جماعة من المسلمين مهما كان عددهم بأن يعيشوا وفى ضمائرهم العقيدة الإسلامية دون أن يتجاوزوا ذلك إلى مرحلة التجمع الفعلى والحركى إنه يتوجب عليهم أن ينتظموا فى جماعة منسقة موحدة متحركة يرتبط كل منهم بالآخر كما يرتبط أعضاء الجسم الواحد) [١].

والأهداف العظيمة لا يمكن تحقيقها دون وجود تجمع قوى منظم ذى طبيعة وخصيصة ربانية، وبلوغ الأهداف ليس بالأمر الهين، والدعاة لا يملكون عصا سحرية يستخدمونها فيما يريدون، بل إن الرجال هم العصا السحرية (فالدولة الإسلامية لا تظهر بطريقة خارقة للعادة بل لابد لإيجادها من أن تظهر أولاً حركة شاملة مبنية على نظرية الحياة الإسلامية وفكرتها يقوم بأمرها رجال) [٢].

ويقرر سيد قطب ازدياد التوسع للتجمع الحركى فيقول: (والثلاثة يصبحون عشرة والعشرة يصبحون مائة والمائة يصبحون ألفًا والألف يصبحون اثنى عشر ألفًا ويبرز ويتقرر وجود المجتمع الإسلامى) [٣].

كما أن الواقع الإسلامى لا يظهر إلا بتجميع الرجال تحت راية الحق وتحت قيادة واعية سليمة (وإذا كان إنشاء الواقع الصحيح هو الخطوة الأولى فى تحقيق معنى الحكمة وكانت

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال الحاكم: «صحيح الإسناد». ووافقه الذهبى، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/ ٤٦): «رواه أحمد والبزار وقال فى حديثه: فو الله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها، ورجال أحمد رجال الصحيح».

(١) مع سيد قطب فى فكره السياسى والدينى: د. مهدى فضل الله ص ١٣٦.

(٢) نظرية الإسلام وهديه (منهاج الانقلاب الإسلامى): المودودى ص ٨٢، مؤسسة الرسالة.

(٣) معالم فى الطريق: سيد قطب ص ١١٨ ـ طبعة ١٩٦٨م.

الجماعة هى التحقيق العملى لمفهوم الواقع الصحيح فإن قيام هذه الجماعة يكون بداية البدايات فى تحقيق هذا المعنى)[١].

(والرسول ﷺ لم يعتمد أسلوب العمل الفردى وإنما حرص من أول يوم على إقامة تنظيم حركى كان يختار عناصره اختيارًا وينتقى أفراده انتقاء)[٢].

والقيادة عنصر أساسى فى هذا التجمع فهو رأس الحزب وقوته الدافعة وعقله المفكر، فأى تجمع لا توجد فيه قيادة حكيمة رشيدة قادرة على إحداث الترابط بين أفراد هذا التجمع فهذه القيادة فاشلة والتجمع يكون مهلهلاً لا قيمة له، فالقيادة هى التى تنسق وتنظم الجهود وتخطط للحركة والدعوة، وأنصار الله يعتمدون اعتمادًا كليًا على إيجاد قاعدة صلبة تعلوها قيادة حكيمة واعية.

وعليه فإن للدعوة منهاجًا وجنودًا وقائدًا، ولابد للمنهاج من الوضوح والشمول والتأثير، ولابد للجندى من الإيمان والحب والبذل، ولابد للقائد من الإخلاص والكفاية والحزم، هذه هى الخطوط الرئيسة لدعوة تريد النجاح .. والقيادة الإسلامية التى تمثلت فى رسول الله ﷺ لم يسع الناس أن يروا فى عصور التاريخ قيادة أعظم إخلاصًا أو أكثر كفاية أو أشد حزمًا من قيادته ﷺ[٣].

والقيادة هى التى تعطى للحركة مساراتها الواقعية المنضبطة إذ إنها تخطط لتحطيم الجاهلية والأحزاب الباطلة (لأن وجود المجتمع المسلم لا يتحقق بمجرد قيام القاعدة النظرية فى قلوب أفراد مهما تبلغ كثرتهم لا يتمثلون فى تجمع عضوى متناسق متعاون ويعملون تحت قيادة مستقلة عن قيادة المجتمع الجاهلى تنظم تحركهم وتنسق بينهم وتوجههم؛ لترسيخ وتعميق وتوسيع وجودهم الإسلامى).

وهكذا يتشكل البناء التنظيمى للمؤمنين أنصار الله من قيادة حكيمة واعية ومن جنود

---

(١) حكمة الدعوة: رفاعى سرور ص ١١ ـ الناشر مكتبة وهبة.

(٢) كيف ندعو للإسلام: فتحى يكن ص ١٦٥ ـ مؤسسة الرسالة.

(٣) حسن البنا يتحدث إلى شباب العالم الإسلامى ص ٦١، ٦٣ ط أولى، دار القلم.

ورجال ينضوون تحت هذه القيادة.

٢ ـ المنهج والرسالة:

والقاعدة الثانية هى القاعدة التى ربطت وجمعت بين القيادة والجنود فباعوا أنفسهم رخيصة من أجلها بل هذه القاعدة هى التى دفعتهم للتجميع والعمل والحركة.
فالمنهج هو مصدر التلقى والعمل للدعوة لن يستقيم إلا بالانضباط التام للمنهج فى كل شىء من أول خطوة.

(روى الإمام أحمد رحمه الله عن عبد الله بن ثابت رضي الله عنه قال: جاء عمر إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى مررت بأخ يهودى من بنى قريظة فكتب لى جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ ـ قال عبد الله بن ثابت: قلت له ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً. قال فسرى عن النبى ﷺ وقال: «**والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم، إنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين**»[1].

فالمنهج هو الذى يحدد التصور والاعتقاد والسلوك وطرائق العمل.

فإذا نظرنا فى منهاج الدعوة إلى الله وجدنا أن المنهاج هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ثم من بعد طريق السلف الصالح رضوان الله عليهم ، وليس فى الدنيا منهاج أكثر عظمة وقوة وشمولاً وتكاملاً ،ولا أشد تأثيرًا من هذا المنهاج قال تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾[2]. ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾[3]. كما أن انبثاق الوسائل والأهداف التى

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧١) من طريق جابر الجعفى عن الشعبى عن عبد الله بن ثابت به، قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/ ٧٣): «رواه أحمد والطبرانى ورجاله رجال الصحيح إلا أن فيه جابر الجعفى وهو ضعيف».
(٢) النحل: ٨٩.
(٣) الزمر: ٢٣.

يتبناها الدعاة إلى الله رهينة بهذا المنهاج.

والقاعدة الأخرى بالنسبة للمنهاج هى قاعدة التوحيد فالتجمع الحزبى بصيغته الإسلامية المنهجية هو مضاد للتجمع الجاهلى فمنهجية الدعاة إلى الله ذات صبغة توحيدية فى خط سيرها والذى يقرر ذلك هو المنهج.

«والقاعدة النظرية التى يقوم عليها الإسلام هى قاعدة شهادة أن لا إله إلا الله»[١].

وعلى هذا «فإن توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد القوامة وتوحيد الحاكمية وتوحيد مصدر الشريعة وتوحيد منهج الحياة وتوحيد الجهة التى يدين لها الناس الدينونة الشاملة ـ إن هذا التوحيد هو الذى يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل وتبذل فى سبيله كل هذه الجهود»[٢].

والفكرة التى يعتنقها المؤمنون أنصار الله ويدافعون عنها مستمدة من ذلك المنهج، والمنهج مصدره الكتاب والسنة،كما أن الأهداف والوسائل تقنن وفق ذلك المنهج فكذلك مواجهة الظروف والأحداث ووزن الأشخاص والأشياء تستمد كلها من ذلك المنهاج.

ولذا فإن أى تفريط فى منهج الدعوة والرسالة يعتبر خطراً عظيماً، والقبول بأنصاف الحلول والمداهنة والترقيع على حساب المنهج والرسالة ليس من مصلحة الدعوة، وهو تفريط من قيادة أنصار الله.

«ومن هنا لا ينبغى لصاحب الدعوة إلى هذا الدين أن يستجيب لاقتراحات المقترحين ممن يوجه إليهم الدعوة فى تحوير منهج دعوته عن طبيعته الربانية، ولا أن يحاول تزيين هذا الدين وفق رغباتهم وأهوائهم وشهواتهم.

والتوجيه القرآنى نهى رسول الله ﷺ والمؤمنين أن يرغبوا فى إتيانهم بآية مما يطلبون وقيل للرسول ﷺ: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي

(١) طريق الدعوة فى ظلال القرآن (١/ ١٣٩).

(٢) المرجع السابق (١/ ١٥٦).

ﭐلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾»[(١)].

وعلى ذلك يجب الاستقامة على منهاج الدعوة والحركة دون انحراف. وثبات المؤمنين من أنصار الله في مواجهة حزب الشيطان مرهون بقوة استمساكه بالمنهج والفكر والرسالة.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[(٢)].

٣ ـ النظام والترتيب:

بعيداً عن العشوائية والارتجال وحفظاً للطاقات والجهود من أجل استقامة عمل الدعاة إلى الله دون تداخل في المهمات أو تجاوزات في مراحل الطريق كان لابد من نظام يحدد العلاقات وخطوط السير بين القيادة والجنود ويحمي الدعوة ليتم الربط بين أجزاء الحركة بعضها ببعض.

فهناك ما يضبط طبيعة العلاقات بين القيادة والجنود كالسمع والطاعة للقيادة، فقد ورد في الحديث الصحيح «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني»[(٣)].

«ومن الوجهة الدينية الخالصة، فإن طاعة عامة أفراد الجماعة لأميرهم في المعروف جزء لطاعتهم لله ورسوله، وإذا كان الإنسان لم يقم بأمر هذه الدعوة إلا مع الاعتقاد بأنه إنما يقوم بأمر الله ورسوله، وهو لم يرض بأحد أميراً على نفسه إلا ابتغاء لوجه الله وتقرباً إليه، فهو بطاعته له في أوامره المشروعة إنما يطيع الله ورسوله في حقيقة الأمر ويكون مبادرًا إلى السمع والطاعة لأميره على قدر ما يكون على اتصال بالله، ويكون مقصراً في السمع

---

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن ص ١٦٨. والآية من سورة الأنعام: ٣٥.

(٢) المائدة: ٦٧.

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٥٧، ٧١٣٧) ومسلم (١٨٣٥) والنسائي (٧/ ١٥٤) وابن ماجه (٣/ ٢٨٥٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والطاعة لأميره على قدر ما يكون مقصراً فى اتصاله بالله ورسوله»[١].

كذلك تحديد المسؤوليات وتوزيع الأعمال لتنضبط الأمور ويتحاسب كل على طبيعة عمله، قال رسول الله ﷺ: «أخرجوا إليَّ منكم اثنى عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم» فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس[٢].

ومن ذلك أيضاً العهد وهو صورة من صور الضبط وتقييد الطاقات فى مسار العمل الجدى بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة. «**تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل والنفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأن تقولوا فى الله لا تخافون فى الله لومة لائم وعلى أن تنصرونى فتمنعونى....**»[٣].

٤ ـ تكوين الأتبـــاع:

إن الدعاة إلى الله يسعون حثيثاً لصياغة أتباعهم صياغة ربانية وهذا أمر طبيعى بل هو أمر لازم لقيادة البشرية فيما بعد، وتزكية الأفراد وتكوينهم كان أمراً من الله قبل كل شىء.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾[٤].

وتبعات أنصار الله تبعات ثقيلة لا يتحملها إلا المؤمنون الصادقون، وهذا يتطلب الإعداد التربوى والفكرى والبدنى الإعداد الجيد لمواجهة أتباع الجاهلية وأحزاب الشيطان. بإيجاد الصفات اللازمة للأتباع ومن أهمها الصبر.

---

(١) تذكرة دعاة الإسلام، ص ٩٤ للمودودى.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٥٩ ـ ٤٦٢) مطولاً، والطبرانى فى الكبير (١٩/ ٨٧ ـ ٩١) (١٧٥) عن كعب ابن مالك رضي الله عنه، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/ ٤٥): «رواه أحمد والطبرانى بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع».

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٢، ٣٢٣)، والحاكم (٢/ ٦٢٤، ٦٢٥)، وابن حبان (٦٢٧٤) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد جامع لبيعة العقبة ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبى، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/ ٤٦): «رواه أحمد والبزار»، ورجال أحمد رجال الصحيح».

(٤) الجمعة: ٢.

(والدعوة إلى الصبر والتوجيه إليه صاحبت كل دعوة تكررت لكل رسول ولكل مؤمن يتبع الرسول هى ضرورية لثقل العبء ومشقة الطريق) [١].

وتكوين الإرادة والعزم: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [٢].

ويصاحب ذلك الإعداد العبادى بالتزام الصلاة وسائر العبادات وتكوين خصيصة التقوى والخشية والعبادات القلبية، وكذلك إضفاء الخصائص الحركية لتقوية ارتباط جنود الحركة بالمؤمنين أنصار الله كحماية الولاء والارتباط بالغاية.

ومن أسس الانتقال المرحلى للدعوة أساس حماية الولاء؛ لأن الولاء سمع وطاعة حيث إن دخول الجماعة المسلمة فى مرحلة يعجز الفرد عن تحمل مشقاتها سيجعله يعيد التفكير فى ولائه فيضطرب وضع الولاء فى الجماعة.

ومما ورد ذكره فى مسألة حماية الولاء من سيرة الرسول ﷺ ما ذكره ابن هشام (فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال: يا معشر الخزرج - وكانت العرب تسمى هذا الحى من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها - إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه فى عز ومنعة فى بلده، فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك وربك ما أحببت) [٣].

وصياغة الأفراد صياغة تربوية فى علاقاتهم بتركيز الأخلاق من أسس الانتقال المرحلى للدعوة، ولا غرو فى ذلك فقد «كان خلقه القرآن» وتكوين الوسط الإيمانى الأخوى يحمى الأفراد من ركامات المحيط الخارجى بعزلهم عن الجاهلية بالعزلة الشعورية والعزة الإيمانية

---

(١) طريق الدعوة فى ظلال القرآن (١/ ٢٠٦).

(٢) حكمة الدعوة - رفاعى سرور ص ٨٧. والآية من سورة الأحقاف: ٣٥.

(٣) جزء من الحديث قبل السابق.

والاستعلاء والمفاصلة والغربة، يُكَوِّن البعد عن الجاهلية ولا يتم كل ذلك إلا عن طريق: التربية، والعلم، والجهاد، والحركة ،والتوجيه ،والعمل وقبضة الوسط الجماعى للإخوان بإيجاب معيشة جماعية ربانية، هذه ست خطوط عامة للإعداد يتبناها الدعاة إلى الله فى إعداد أفرادهم.

٥ ـ تأصيل العمل الحركى:

وهنا يجب أن يتحرك الدعاة ويمارسوا الصيغ الحركية الحزبية المختلفة للوصول إلى الأهداف.

وذلك بتقنين الأهداف وتحديدها وربطها بمراحل متدرجة وأهداف صغيرة وأهداف كبيرة على حسب السير وطبيعة الظروف، فالرسول ﷺ بعثه الله ليقيم شرعه وهديه، وقد بدأ فى وضع هدف أولى وهو إقرار التوحيد فى النفوس ونزع الشرك وتبليغ عشيرته الأقربين وهكذا حتى كون دولته.

ومن ذلك أيضًا تقنين المراحل، فهناك المرحلة السرية، وهناك المرحلة العلنية، وهناك مرحلة الإنذار، وهناك مرحلة المقاطعة، وهناك مرحلة الهجرة ،وهناك مرحلة الجهاد ،وهكذا مراحل متطورة متنامية، وتقنين هذه المراحل هو من القيادة وفق ما تراه من طبيعة الظروف الداخلية والخارجية. (عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: بعث رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين فأقام بمكة خمسًا مختفيًا، وعشرًا معلنًا ،وبالمدينة عشرا) [(١)].

(ومرحلة الإنذار: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [(٢)] ومرحلة أخرى هى المقاطعة فقد تمت تلك المرحلة بعدما جعل الإسلام يفشو فى القبائل فاجتمعت قريش وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة ثم

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق د. أكرم ضياء العمرى ـ ص ٥٣ .ط . ثانية، دار القلم.

(٢) السيرة النبوية للندوى ص ١٠٣، ١٠٤. الشعراء:٢١٤ .

تعاهدوا وتواثقوا على ذلك وعلقوا صحيفة فى جوف الكعبة تأكيدا على أنفسهم .. ومكثوا على ذلك ثلاث سنوات ورسول الله ﷺ على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهارًا، وسرًا وجهارًا)[١]. وتبع ذلك مرحلة الهجرة (فأمرهم النبى ﷺ بالهجرة إلى المدينة فهاجروا متخفين)[٢].

ومن صور التأصيل الحركى العملى للدعاة التخطيط السليم، (وإلى جانب هذا وذاك كان الرسول ﷺ ينفخ فى أصحابه روح الثبات والمقاومة ويرسم لهم بذكائه الثاقب، وبالهدى الإلهى، الطرق والأساليب التى تقربهم يومًا بعد يوم من الهدف الذى كان الرسول ﷺ قد وعد أصحابه ببلوغه مهما طال الطريق وعظمت المصائب، ولم يكن التخطيط للهجرة الموقوتة إلى الحبشة والاتصال المستمر بالقبائل والوفود القادمة إلى مكة والذهاب إلى الطائف ولقاءات العقبة الثلاث إلا خطوات على الطريق)[٣].

ومن ذلك اجتماعات العمل والحركة.

(واجتمع أصحاب الرسول ﷺ يومًا فقالوا: والله ما سمعت قريش بهذا القرآن يجهر به قط فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا، فقالوا: إنا نخشاهم عليك إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه ـ فقال: دونى فإن الله سيمنعنى)[٤]، ومن ذلك التجمع الموجه والهادف والمقنن. (قال موسى بن عقبة عن الزهرى فكان رسول الله ﷺ فى تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب فى كل موسم ويكلم كل شريف قوم لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤووه ويمنعوه)[٥]، وكذلك تقنين السياسات: أى وضع قواعد

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٣، ١٠٤.

(٢) السيرة النبوية دروس وعبر لمصطفى السباعى ص ٥٩.

(٣) دراسات فى السيرة لعماد الدين خليل، ص ١٠٩.

(٤) أخرجه ابن إسحاق كما فى السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٥٦)، وابن جرير الطبرى فى تاريخه (١/ ٥٤٩) عن عروة بن الزبير مرسلاً، وانظر السابق ص (٧٥).

(٥) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٤١٤) عن الزهرى مرسلاً، وكذا ذكره الذهبى فى تاريخ الإسلام (١/ ٢٨٢)، والحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/ ١٤٠)، والحافظ ابن حجر فى الفتح (٧/ ٢٢٠).

تضبط العمل مع مؤثرات الواقع على فترات زمنية وفق المنهج العام للدعاة إلى الله.

فكانت سياسة رسول الله ﷺ مع قادة أحزاب الشيطان فى عهده هى الكف عن الإيذاء والدعوة بالحسنى والمجادلة بالتى هى أحسن.

وكذلك اتخاذ المواقف حيث إن الموقف هو عمل إجرائى لحدث حدث آنيًا تجاه قضية أو مؤتمر أو شخصية وعادة ما ينبثق الموقف من السياسات العامة للدعاة إلى الله، كموقف الرسولﷺ من إيذاء قومه ومقاطعتهم إياه والإيذاء الشخصى وغيره، وكاتخاذ موقف الهجرة إلى الحبشة، وهناك مواقف داخلية منها ما كان سببا فى نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[1]، وقوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ ﴾[2]، لا شك أن الممارسات الحركية متعددة ولا سبيل لحصرها، إذ إنها خاضعة لطبيعة الظروف، وموقف قيادة الدعاة إلى الله من الأحداث.

---

(١) الأنعام: ١٠٨.
(٢) الكافرون: ١، ٢.

أهل السنة والجماعة هم أنصار الله

إن دائرة أنصار الله واسعة، وإن التجمع على المبدأ الاعتقادى وهو عقيدة الإسلام هو مركز ذلك التجمع، وأنصار الله لا يخرجون عن نطاق أنهم المؤمنون المتقون الملتزمون بأوامر الله ونواهيه، والتجمعات الإسلامية التى تنتهج الإسلام فكرة وعقيدة ومنهاجًا هى دوائر صغيرة فى محيط الدائرة الكبيرة لأنصار الله وإن اختلفت الوسائل والأساليب ما دامت منضبطة بمنهاج العقيدة الإسلامية والتصور الإسلامى الصحيح.

وقد ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ فى تفسير قوله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1]، قال: «أى لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم أى بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض كاليهود والنصارى، والمجوس وعبدة الأوثان، وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ الآية[2]، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على نِحَلٍ كلها ضلالة (إلا واحدة وهم أهل السنة والجماعة)، وكل فرقة منهم تزعم أنها على شىء، وهذه الأمة أيضًا اختلفوا فيما بينهم على نِحَلٍ كلها ضلالة، إلا واحدة وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين من قديم الدهر وحديثه، كما رواه الترمذى والحاكم فى مستدركه سئل رسول الله ﷺ عن الفرقة الناجية منهم قال: «من كان على ما أنا عليه وأصحابى»[3] [4].

والمؤمنون أنصار الله هم أهل القرآن وحاملو رايته والخاضعون له والمتذللون له الذين

(١) الروم:٣٢.
(٢) الأنعام:١٥٩.
(٣) أخرجه الترمذى (٢٦٤١)، والحاكم (١/ ١٢٨، ١٢٩) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، قال الترمذى : « غريب » ، وحسنه الألبانى.
(٤) مختصر تفسير ابن كثير ـ محمد على الصابونى (٣/ ٥٥)، ط دار القرآن الكريم.

يسيرون (بالقرآن) أينما سار ويهتفون دائمًا: القرآن دستورنا، «وأما المؤمنون بالله ورسوله، عوامهم وخواصهم فهم أهل القرآن كما قال النبى ﷺ:«**إن لله أهلين من الناس**». قيل:من هم يا رسول الله؟ قال:«**أهل القرآن هم أهل الله وخاصته**»[1].

والجامعة التى تجمع المؤمنين أينما كانوا هى العقيدة الإيمانية التى مصدرها كتاب الله وسنة رسوله، لا ابتداع ولا أهواء ولا ضلال. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ﴾ [2] فهم جماعته المتجمعة تحت لوائه المتحركة بقيادته، المهتدية بهديه المحققة لنهجه الفاعلة فى الأرض ما قدره وقضاه فهى قدر من قدر الله، ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [3] «ومن يفلح إذن إذا لم يفلح أنصار الله؟»[4].

صفات أولياء الله الداعين إليه:

وقبل أن نشرع فى الدخول فى الدوائر المتعددة من التجمعات الإسلامية التى تقع فى دائرة أنصار الله، سنتكلم عن صفات أولياء الله الذين هم جنود دعوة الله، وإن وجود تلك الصفات لازم لكل مؤمن مسلم ليكون لبنة فى بناء الدعوة «فمن انحاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق فهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية إخوة فى الله، تختلف ألوانهم وتختلف أوطانهم وتختلف عشائرهم وتختلف أسرهم لكنهم يلتقون فى الرابطة التى تؤلف بين الدعاة فتذوب الفوارق كلها تحت الراية الواحدة»[5] وهذه الصفات هى:

١ ـ المحبة الخالصة لله:

إن بذل الحب ديدن جنود الله، وإن القلوب المؤمنة التى انطوت على حب الله سبحانه

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٥) ، والنسائى فى الكبرى (٨٠٣١) ، وأحمد (٣/ ١٢٧) عن أنس بن مالك ﷺ، وفى زوائد ابن ماجه : « إسناده صحيح » ، وحسن إسناده الحافظ العراقى فى المغنى عن حمل الأسفار (١/ ٢٢٢) .

(٢) المجادلة: ٢٢.

(٣) المجادلة: ٢٢.

(٤) الظلال (٦/ ٣٥١٥).

(٥) الظلال (٦/ ٣٥١٥).

فسارعت تنضوى تحت كتائب الرحمن تهفو قلوبها بالمحبة فى كل حركة وعمل وسكنة من سكناتهم؛ لتجد فيض محبتهم لله متمثلاً فى كل شىء حتى فى أنفاسهم التى تتصاعد عند منامهم، وإن للمحبة جهات ومناحٍ كلها لله سبحانه وفى الله سبحانه، من ذلك «محبة ما يحبه الله وهذه هى التى تدخله فى الإسلام وتخرجه من الكفر،وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها.. والحب لله وفيه، من لوازم محبة ما يحب الله ولا تستقيم محبة ما يحب الله إلا بالحب فيه وله»(١).

والمشركون ما ثبتوا على باطلهم إلا بمحبة معبوداتهم، وكان ذلك سببًا لاندراجهم تحت الأحزاب الشيطانية، فى حين أن أهل الحق اندرجوا تحت أنصار الله بمحبتهم إياه؛ حيث إن أخص صفات «أهل الشرك فى المشركين ـ الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا ـ إنما هو اتخاذهم أندادًا يحبونهم كحب الله كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾ (٢)،ومن كان حبه لله وبغضه لله، لا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يعطى إلا لله، ولا يمنع إلا لله، فهو من أولياء الله، كما روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «**يقول الله: من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلىَّ بمثل ما أنا افترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه**»(٣). فهؤلاء الذين أحبوا الله محبة كاملة حتى بلغوا ما بلغوه وصار أحدهم يدرك بالله ويتحرك بالله، بحيث إن الله يجيب مسألته ويعيذه مما استعاذ منه»(٤).

وإن المحبة توجب الحب المتبادل بين الطرفين، وتلك ميزة لا تكون إلا عند أولياء الله الذين هم فى بحبوحة أنصار الله ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ (٥)، فالحب والرضى

---

(١) الجواب الكافى ـ ص ١٣٤ ابن القيم ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
(٢) البقرة: ١٦٥.
(٣) أخرجه البخارى (٦٥٠٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه .
(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٥٤، ٧٥٥).
(٥) المائدة: ٥٤.

المتبادل هو الصلة بينهم وبين ربهم.. الحب هذا الروح السارى اللطيف الشفاف المشرق الرائق البشوش هو الذى يربط القوم بربهم الودود) [(١)].

٢ ـ جــهة الولاء:

يقول ابن تيمية: (والولاية: ضد العداوة، وأصل الولاية: المحبة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد، وقد قيل: إن الولى سمى وليًا من موالاته للطاعات أى متابعته لها، والأول أصح، والولى: القريب، يقال: هذا يلى هذا أى يقرب منه .. فإذا كان ولى الله هو الموافق التابع له فيما يحبه ويرضاه ويبغضه ويسخطه ويأمر به وينهى عنه، كان المعادى لوليه معاديًا له، كما قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [(٢)]، فمن عادى أولياء الله فقد عاداه الله ،ومن عاداه فقد حاربه، فلهذا قال: « من عادى لى وليًا فقد بارزنى بالمحاربة» [(٣)] [(٤)].

إن أولياء الله لهم جهة محددة يتابعون أعمالهم وقلوبهم وجوارحهم، وأى جهة تلك، إنها جهة عظيمة، تلك القوة العظيمة التى يمتص منها أصحاب الحق وأنصار الله قوتهم ونصرتهم، كما أن الولاء ينتشر تجاه من ينطلق من مركز تلك القوة العظيمة، وهى عظمة الله سبحانه، فأى شىء كائنًا من كان ينبثق ولاؤه تجاه تلك القوة فإن ولاء أهل الحق يتفق لذلك الشىء أيضًا لأنهما اتفقا على مركز واحد يوالونه ويتابعونه، لأجل ذلك يحدد الله للذين آمنوا جهة الولاء الوحيدة التى تتفق مع صفة الإيمان ويبين لهم من يتولون ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [(٥)]، وليكون الولاء لله خالصًا والثقة به مطلقة وليكون الإسلام هو الدين،ولتكون للحركة الإسلامية جديتها

---

(١) الظلال (٢/ ٨١٨).

(٢) الممتحنة: ١.

(٣) أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٦٠٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٧٠): «رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه عمر بن سعيد أبو حفص الدمشقى وهو ضعيف».

(٤) الفرقان ص ٦، ٧ ابن تيمية ـ ط المكتب الإسلامى بيروت ط ٤.

(٥) المائدة:٥٥.

ونظامها فلا يكون الولاء فيها لغير قيادة واحدة وراية واحدة) قال القاسمى فى محاسن التأويل: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [١] فيعينهم وينصرهم ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [٢] فى العاقبة على أعدائه.

ولابد من ملاحظة أمرين:

الأول: إنما أفرد (الولى) ولم يجمع مع أنه متعدد، للإيذان بأن الولاية لله أصل ولغيره تبع لولايته عز وجل، فالتقدير: وكذلك رسوله والذين آمنوا.

الثانى: ثمرة هذه الآية تأكيد موالاة المؤمنين والبعد عن موالاة الكفار، ويتابع القاسمى تفسير الآية (وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ معناه فإنهم هم الغالبون وهو أنهم أنصار الله فكأنه قيل: ومن يتول هؤلاء فهم أنصار الله، وأنصار الله هم الغالبون. وتنويهًا بذكرهم وتعظيمًا لشأنهم وتشريفًا لهم بهذا الاسم وتعريضًا لمن يوالى غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان كانت موالاتهم لله رب العالمين، وأصل (الحزب) القوم يجتمعون لأمر حزبهم، وقيل: الحزب جماعة فيهم شدة فهو أخص من الجماعة والقوم، ثم أشار تعالى إلى أن موالاة غيرهم إن كانت لجر نفع فضررها أعظم،وإن كانت لدفع ضرر، فالضرر الحاصل بها لا يفى بالموقع) [٣].

وثبت فى الصحيحين عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول جهارا من غير سر: «**إن آل فلان ليسوا لى بأولياء - يعنى طائفة من أقربائه - إنما وليى الله وصالح المؤمنين**» [٤]، وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٥]، وصالح المؤمنين هو من كان صالحًا من المؤمنين وهم المؤمنون المتقون أولياء

---

(١) المائدة: ٥٦.
(٢) المائدة: ٥٦.
(٣) محاسن التأويل للقاسمى (٦/ ٢٤٤٥).
(٤) أخرجه البخارى (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥)، وأحمد (٤/ ٢٠٣) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.
(٥) التحريم: ٤.

الله) [١].

ولئن كان ذلك ثمن الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين فإنه نعم البيع ونعم الثمن، فاستمع معى لقول ابن القيم رحمه الله:

(ويوم القيامة يقول تعالى: أليس عدلاً فى أن أوْلى كل رجل منكم من كان يتولى فى دار الدنيا، فليعلمن أولياء الشيطان كيف حالهم يوم القيامة إذا ذهبوا مع أوليائهم وبقى أولياء الرحمن لم يذهبوا مع أحد، فيتجلى لهم ويقول: ألا تذهبون حيث ذهب الناس، فيقولون: فارقنا الناس أحوج ما كنا إليهم وإنما ننتظر ربنا الذى كنا نتولاه ونعبده، فيقول: هل بينكم وبينه علامة تعرفونه بها، فيقولون: نعم إنه لا مثيل له فيتجلى لهم ويكشف عن ساق فيخرون له سجدًا، فيا قرة عيون أوليائه بتلك الموالاة ويا فرحهم إذا ذهب الناس مع أوليائهم وبقوا مع مولاهم الحق، فسيعلم المشركون به الصادون عن سبيله أنهم ما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون) [٢].

وهذه الصفة وهى الولاية عنصر ضرورى فى قوة صف أنصار الله، إذ بغيرها لا تتحقق قوة الانتماء إلى دائرة أنصار الله، وجهة الولاء ضرورى لكل مؤمن أن يحددها فى مسار حياته إذ إنها فرق بين أولياء الباطل والشيطان.

٣ــ طبيعة العلاقة بين أولياء الله:

إن دائرة أنصار الله مترابطة،والعلاقة محددة فى كتاب الله سبحانه وتعالى والالتزام بتلك العلاقات أمر من الإيمان،والتفريط فى أمر من أمور تلك العلاقات سبب للفرقة والخصام، وأولياء الله قلوبهم واحدة، ومشاعرهم ملتقية على طاعة الله سبحانه، فلله حقوق فليراعوها بينهم، ولكل منهم حقوق فليتقوا الله فيها، ومن ذلك:

أ- أذلة على المؤمنين:

السمو فى العلاقات فى دائرة أنصار الله يفوق تلك التى فى أحزاب الشيطان؛ هناك

---

(١) الفرقان ص١٠ المرجع السابق.
(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٢١٣).

التطاحن والخصام وهنا الترابط والمحبة، هناك المصلحة ضابط العلاقات وهنا الإيمان يؤسس النفوس، والذلة ليست من باب الإهانة والخنوع؛ إنها الذلة فى الحق لأهل الحق ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(١)].

(وهى صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين، فالمؤمن ذلول للمؤمن، غير عصى عليه ولا صعب، هين لين، ميسر مستجيب، سمح ودود، وهذه هى الذلة للمؤمنين، وما فى الذلة للمؤمنين من مذلة ولا مهانة؛ إنما هى الأخوة ترفع الحواجز، وتزيل التكلف، وتخلط النفس بالنفس،فلا يبقى فيها ما يستعصى وما يحتجز دون الآخرين).

ولذلك فإن أهل الحق رقيقى الشعور بينهم، ولو عددنا حقوق الأخوة لما انتهى بنا المقال، تجد المؤمنين يحبسون أنفسهم خشية إيذاء إخوانهم، يحاسب كل منهم لسانه قبل أن يتكلم خشية أن يجرح قلب أخيه، إنها الرحمة والبركة فى رحاب الدعاة إلى الله.

ب ـ النصرة:

والنصرة للمؤمنين واجب فيما بينهم، وفى الحديث:«انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»[(٢)]، النصرة فى مواجهة الجاهلية أمر يقوى صف أنصار الله، ويكسبهم القوة والعمق فى التأثير، فأينما وجد مؤمن وجب نصرته وإعانته بحق كلمة لا إله إلا الله. والنصرة فى قول الحق لاستقامة أنصار الله هى من الأمور المهمة لثبات صفهم وقوته، وعلى ذلك فإنك (إذا لم تكن من أنصار الرسول فتنازل الحرب، فكن من حراس الخيام، فإن لم تفعل فكن من نظارة الحرب الذين يتمنون الظفر للمسلمين، ولا تكن الرابعة فتهلك).

جـ ـ الصبر والمصابرة والمرابطة:

إن الالتحام بين صفوف الدعاة إلى الله يكون بالصبر والمصابرة والمرابطة على طريق الحق، والارتباط يكون قويًا عندما يثبت أولياء الله أقدامهم على طريق الحق،﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ

---

(١) المائدة: ٥٤.

(٢) أخرجه البخارى (٢٤٤٣)، والترمذى (٢٢٥٥) وأحمد (٣/ ٢٠١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ ﴾[(١)]، لا شك أن جهة الحق هى التى من أجلها يعقد الصبر والمصابرة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[(٢)]، والفلاح للأولياء بصبرهم ومصابرتهم ومرابطتهم فى دعوة الله.

د ـ المجاهدة مع صف أنصار الله:

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ ﴾[(٣)]، المجاهدة مع صف أنصار الله صفة إيمانية لأولياء الله، ورفع راية الحق يكون بجهاد أهل الباطل تحت راية وقيادة أنصار الله ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[(٤)].

وكل نبى قاتل معه ربانيون من أتباعه مجاهدون تحت رايته، إنه حق الانتماء لأنصار الله، (فاتباع هذه الشريعة والقيام بالجهاد بها من أعظم الفروق بين أهل محبة الله وأوليائه الذين يحبهم ويحبونه، وبين من يدعى محبة الله ناظرًا إلى عموم ربوبيته أو متبعًا لبعض البدع المخالفة لشريعته)[(٥)].

وحيث إن المعركة بين أنصار الله وحزب الشيطان دائرة منذ الأزل وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالجهاد سمة أساسية فى منهج الدعاة إلى الله، وحمل راية الجهاد صفة من صفات أولياء الله الذين هم جند الله.

(فالجهاد فى سبيل الله لإقرار منهج الله فى الأرض وإعلان سلطانه على البشر وتحكيم شريعته فى الحياة لتحقيق الجد والصلاح والنماء للناس هى صفة العصبة المؤمنة التى يختارها الله ليصنع بها فى الأرض ما يريد ،وهم يجاهدون فى سبيل الله لا فى سبيل أنفسهم

---

(١) الكهف: ٢٨.

(٢) آل عمران: ٢٠٠.

(٣) الحج: ٧٨.

(٤) آل عمران: ١٤٦.

(٥) العبودية ص ١٣٣ ـ ابن تيمية.

ولا فى سبيل قومهم ولا فى سبيل وطنهم ولا فى سبيل جنسهم.. فى سبيل الله ؛ لتحقيق منهج الله وتقرير سلطانه وتنفيذ شريعته) [(١)].

٥ ــ من سمات أولياء الله :

وحيث إن دائرة أنصار الله هى فى مواجهة دائرة الشيطان؛ فإن تحديد العلاقات بين أولياء الله وحزب الشيطان يجب أن تكون واضحة فى طبيعتها؛ إذ لا قيام واستخلاف على هذه الأرض إلا لأنصار الله حين تتجلى فيهم بعض الصفات ومنها:

أ- المفاصلة:

إن الإسلام هو المنهج الذى ارتضاه أولياء الله؛ ليفرق ويفاصل بينهم وبين من فى دائرة حزب الشيطان، فمن لم يرتض الإسلام منهاجًا ولا النبى ﷺ قائدًا؛ فهو فى جهة حزب الشيطان، فوجبت مفاصلته والتمايز عنه، (وليكون الأمر أمر مفاصلة بين الصف المسلم وسائر الصفوف التى لا تتخذ الإسلام دينًا ولا تجعل الإسلام منهاجًا للحياة، ولتكون للحركة جديتها ونظامها) [(٢)].

وهذه المفاصلة ليست لطبيعة الجنس أو اللون أو اللغة، بل المفاصلة لطبيعة المنهاج، ولو كان فى جهة حزب الشيطان الأب والابن والصاحبة والأخ أو الأخت، كل ذلك لا يساوى شيئًا فى ميزان الله، فما أحبه الله ودناه، وما كرهه الله سبحانه فاصلناه وتميزنا عنه، (إنها المفاصلة الكاملة بين أنصار الله وحزب الشيطان، والانحياز النهائى للصف المتميز والتجرد من كل عائق وكل جاذب) [(٣)].

ولأن المفاصلة هى التى تحدد صيغة طابع أولياء الله وتميزهم؛ بل هى التى توضح الرؤية تجاه الحق والباطل، فتتميز راية الحق وراية الباطل، وينحاز كل من يريد إلى جهته، لذلك فإن المفاصلة مبدأ إيمانى قبل كل شىء، يحفظ حزب الله من الذوبان فى حزب الشيطان.

---

(١) الظلال (٢ / ٨١٩).

(٢) الظلال (٢/ ٩٢٠).

(٣) طريق الدعوة (١/ ٦٨) أحمد فايز.

ولذلك (فإن الاختصاص والتميز ضروريان للجماعة المسلمة، الاختصاص والتميز فى التصور والاعتماد، والاختصاص والتميز فى القبلة والعبادة، والجماعة المسلمة التى تتجه إلى قبلة مميزة يجب أن تدرك معنى هذا الاتجاه،فالمكان أو الجهة ليس سوى رمز، رمز للتمييز والاختصاص، تميز الشخصية وتميز الهدف وتميز الاهتمامات وتميز الكيان) [١].

ب ـ وضوح جهة الود والمعاداة:

قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [٢] يفسر القرطبى رحمه الله هذه الآية فيقول:

قوله تعالى:﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ أى: يحبون ويوالون، ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ والمحادة المعاداة والمخالفة فى الحدود.. وقيل: (يحادون الله) أى: أولياء الله كما فى الخبر:(من أهان لى وليًا فقد بارزنى بالمحاربة)، ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ ، قال السدى: نزلت فى عبد الله بن عبد الله بن أبى، جلس إلى النبى ﷺ فشرب النبى ﷺ ماء، فقال له: بالله يا رسول الله ما أبقيت من شرابك فضلة أسقيها أبى لعل الله يطهر بها قلبه؟ فأفضل له فأتاه بها، فقال له عبد الله:ما هذا؟ فقال:هى فضلة من شراب النبى ﷺ جئتك بها تشربها لعل الله يطهر قلبك بها، فقال له أبوه: فهلا جئتنى ببول أمك فإنه أطهر منها؟ فغضب وجاء إلى النبى ﷺ وقال: يا رسول الله، أما أذنت لى فى قتل أبى؟ فقال النبى ﷺ: «**بل ترفق به وتحسن إليه**» [٣]، ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ يعنى: أبا بكر، دعا ابنه عبد الله إلى البراز يوم بدر فقال النبى ﷺ: «**متعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندى بمنزلة السمع**

---

(١) طريق الدعوة (١/ ٦٦).

(٢) المجادلة: ٢٢.

(٣) الثعلبى فى تفسيره (٩/ ٢٦٤) من قول السدى .

والبصر؟»[١]، ﴿أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ﴾ يعنى: مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير يوم بدر، ﴿أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ﴾ يعنى: عمر ابن الخطاب، قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر وعليًا وحمزة قتلا عتبة وشيبة والوليد يوم بدر، وقيل:إن الآية نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة، لما كتب إلى أهل مكة بمسير النبىﷺ عام الفتح، فبين أن الإيمان يفسد بموالاة الكفار وإن كانوا أقارب)[٢].

كما أن المودة بين أولياء الله تنتج من الإيمان؛ فكذلك معاداة حزب الشيطان ومحادته أمر إيمانى، فمن الطبيعى تناقض الإيمان والباطل، فيقول ابن تيمية معقبًا على الآية السابقة :

(فأخبر أنك لا تجد مؤمنًا يواد المحادين لله ورسوله، فإن نفس الإيمان ينافى موادته كما ينفى أحد الضدين الآخر، فإذا وجد الإيمان انتفى ضده وهو موالاة أعداء الله، فإذا كان الرجل يوالى أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب)[٣]، ولذلك بين الله تعالى ذلك فى قوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[٤]، وسيد يقرر ذلك فيقول: (وما يجمع إنسان فى قلب واحد وُدَّيْنِ، ودًا لله ورسوله وودا لأعداء الله ورسوله فإما إيمان أو لا إيمان، أما هما معًا فلا يجتمعان.

﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾.

فروابط الدم والقرابة هذه تتقطع عند حد الإيمان، إنها يمكن أن تراعى إذا لم تكن هناك محادة وخصومة بين اللوائين، لواء الله ولواء الشيطان، والصحبة بالمعروف للوالدين المشركين مأمور بها حين لا تكون هناك حرب بين أنصار الله وحزب الشيطان، فأما إذا كانت المحادة والمشاقة والحرب والخصومة فقد تقطعت تلك الأواصر التى لا ترتبط

(١) الثعلبى فى تفسيره (٩/ ٢٦٤) عن عبد الله بن مسعود ، وعزاه للثعلبى الزيلعى فى تخريج الأحاديث والآثار (٣/ ٤٣٣) .
(٢) القرطبى فى تفسيره (١٧/ ٣٠٧، ٣٠٨) .
(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ١٧).
(٤) المجادلة: ٢٢.

بالعروة الواحدة وبالحبل الواحد) [(١)].

جـ ـ البراءة من حزب الشيطان:

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [(٢)].

(إن هذه القافلة الممتدة فى شعاب الزمان من المؤمنين بدين الله، الواقعين تحت راية الله قد مرت بمثل ما مرّ به إبراهيم عليه السلام وقومه، وإن هذه البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم والكفر بهم والعداوة والبغضاء لهم لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده) [(٣)].

د ـ العزة على الكافر:

الاستعلاء والعزة على الكافر صفة من صفات أولياء الله، فالمؤمن له منهاجه ووسائله وأساليبه لا يستجدى ولا يستعطف ولا يذل ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [(٤)]؛ إنه الاستعلاء بالله والترفع عن تخبطات حزب الشيطان لا ذلة ولا استعباد له، فمن صفات أتباع حزب الله أنهم ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [(٥)]، (فيهم على الكافرين شماس وإباء واستعلاء، إنها ليست العزة للذات ولا الاستعلاء للنفس؛ إنما هى العزة للعقيدة والاستعلاء للراية التى يقفون تحتها فى مواجهة الكافرين؛ إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير وأن يطوعوا الآخرين للخير الذى معهم لا أن يطوعوا الآخرين لأنفسهم، ولا أن يطوعوا أنفسهم للآخرين وما عند الآخرين، ثم هى الثقة بغلبة دين الله على دين الهوى، وبغلبة قوة الله على تلك القوى، وبغلبة حزب الله على أحزاب الجاهلية) [(٦)].

---

(١) الظلال (٦/ ٣٥١٤، ٣٥١٥).

(٢) الممتحنة: ٤.

(٣) طريق الدعوة فى ظلال القرآن (١/ ٦٨).

(٤) آل عمران: ١٣٩.

(٥) المائدة: ٥٤.

(٦) الظلال (٢/ ٨١٩).

و ـ مجاهدتهم وقتالهم:

إثبات وثيقة الإيمان فى القلب تجاه حزب الشيطان هو عدم موالاتهم، ومفاصلتهم، ومعاداتهم، والاستعلاء عليهم، وإثبات حقيقة الإيمان فى الواقع هو جهادهم باليد واللسان والقلب والقلم والسنان،وأى مرتبة عظيمة تلك كمثل الجهاد فى سبيل الله ضد حزب الشيطان وأوليائه.

(وجهاد الكفار من أعظم الأعمال، بل هو أفضل ما تطوع به الإنسان، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾)[1].

٦ــ الاتصال الوثيق بالله:

إنها صفة بارزة وسمة ثابتة لأولياء الله، فالله هو المعين، هو القوة، هو المصدر، وهو الغاية، فأى رباط لا يمد له فذلك رباط مقطوع، وأى يد لا تمد كف الضراعة والابتهال تجاهه فتلك اليد خائبة، وأى قلب يؤمن بذلك الإله ولا يناجيه فى كل لحظة وفى كل حال، فإنه قلب ميت، فأولياء الله قلوبهم مع الله وأيديهم تجاه الله وعقولهم تسير فى الله ولله، فعبادات القلوب لله سبحانه صفة بارزة لأولياء الله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾[2].

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله، «الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر،وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «**لا يا بنت الصديق،**

---

(١)الفرقان ـ ص ٤٤، ٤٥.والآية من سورة النساء: ٩٥.

(٢) المؤمنون ٥٧ ـ ٦١.

ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل»[١].

والعبادة العملية تجاه الله سبحانه هى صفة وسمة لازمة لأولياء الله أيضاً ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۝٥٥﴾[٢]، فمن صفتهم إقامة الصلاة؛ وإقامة الصلاة تعنى أداءها أداءً كاملاً،ومن صفتهم إيتاء الزكاة ﴿وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ ذلك شأنهم كأنها الحالة الأصلية لهم ؛ إذ إنها ترسمهم للخاطر كأن هذا هو شأنهم الدائم، فأبرز سمة لهم هى هذه السمة وبها يعرفون»[٣].

ومن ثم الإنابة إلى الله فى كل شىء وعند كل طارئ وعلى كل حالة. ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٣١﴾[٤]؛ (فهى الإنابة إلى الله والعودة فى كل أمر إليه، وهى التقوى وحساسية الضمير ومراقبة الله فى السر والعلانية، والشعور به عند كل حركة وكل سكنة وهى إقامة الصلاة للعبادة الخالصة لله.. وهى التوحيد الخالص الذى يميز المؤمنين من المشركين)[٥].

ثم بعد ذلك كله لا يخافون فى الله لومة لائم، كيف يخافون وهم يتصلون بالله فى كل لحظة،وتلك الصلة هى مصدر قوتهم فى جهادهم ضد حزب الشيطان وأوليائه لا يخافون لومة لائم.

(وهم يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، وفيم الخوف من لوم الناس وهم قد ضمنوا حب رب الناس.. فهذه سمة المؤمنين المختارين)[٦].

تلك هى صفات أولياء الله وأنصاره، ومن أراد أن يلتزم بحبوحة الدعاة إلى الله وينضم

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٠٥) والترمذى (٣١٧٥) والحاكم (٢/ ٣٩٣، ٣٩٤) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وقال:«صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبى.

(٢) المائدة: ٥٥.

(٣) الظلال (٢/ ٩٢٠، ٩٢١).

(٤) الروم: ٣١.

(٥) الظلال (٥/ ٢٧٦٧، ٢٧٦٨).

(٦) الظلال (٢/ ٩١٩).

تحت لوائهم يجب أن يلتزم بتلك الصفات؛ إذ إنها الصفة والسمة البارزة والشارة المرفوعة لأولياء الله الذين هم جنود فى دعوة الله.

الجماعات الإسلامية
في دائرة الدعاة إلى الله

قد بينا أمرين لكى يكون أى تجمع فى نطاق الداعين إلى الله، وهما:

١ـ الالتزام بالمنهج الاعتقادى للإسلام، ومتابعة أهل السنة والجماعة.

٢ـ الالتزام بصفات أولياء الله، الذين هم جنود فى دعوة الله.

والجماعات الإسلامية، هى تجمعات التزمت بهذين الشرطين بقدر جهدها وتفكيرها، وإن تنوعت طرقها فى العمل، أو اتجاهاتها فى مواجهة حزب الشيطان، فهناك الجماعات الإرشادية والإصلاحية، ووظيفتها اجتماعية تنصب على إصلاح المجتمع من الفساد والمظاهر غير الإسلامية.

وهناك الجماعات الفكرية التى كل همها الاعتناء بالفكر الإسلامى وجعله نظرية عملية فى مواجهة حزب الشيطان.

وهناك الجماعات الشرعية التى التزمت بالاعتناء بالمصادر الشرعية، وذب عنها كل مكائد حزب الشيطان.

وهناك جماعات الجهاد، التى اتخذت الجهاد سبيلاً وحيداً لتطهير المجتمع من حزب الشيطان.

وهناك الجماعات الشاملة التى اعتمدت كل تلك الأمور بقدر ووجهت عملها فى كل تلك المنافذ،وهنا نبين أمرين:

١ـ أن الخلاف بين تلك الجماعات ما دام فى إطار الشرطين السابقين طبيعى، وذلك لاختلاف طبيعة الإدراك وفهم النصوص والقدرة على مواجهة حزب الشيطان،يقول الشهرستانى (الأصول: معرفة البارى تعالى بوحدانيته وصفاته، ومعرفة الرسل بآياتهم وبيناتهم، فمن تكلم فى المعرفة والتوحيد كان أصولياً ،ومن تكلم فى الطاعة والشرعية كان فروعياً، فالأصول هو موضوع علم الكلام، والفروع هو موضوع علم الفقه) [1].

---

(١) الملل والنحل (١/ ٤١).

من ذلك ندرك أن الجماعات اتفقت فى الأصول لأنها قائمة على التوحيد، واختلفت فى طريق العمل وجهات المواجهة .

ويذكر الشهرستانى أيضاً أن (الاختلافات فى مرضه عليه الصلاة والسلام وبعد وفاته بين الصحابة ﷺ اختلافات اجتهادية كما قيل، كان الهدف منها إقامة مراسم الشرع وإدامة مناهج الدين) [(١)].

وهكذا ما دامت الغاية إرضاء الله سبحانه وتعالى بإقامة منهجه على الأرض، فالاختلاف فى هذه الدائرة لا بأس به ما دام لن يؤدى إلى الحزبية المتعصبة البغيضة.

٢ ـ أن هناك تفاضلاً فى الأعمال والإيمان، وكذلك هناك تفاضل بين الجماعات فى دائرة أنصار الله، بقدر التزام كل منها بالشرطين السابقين وشمولية العمل إلى الله سبحانه وتعالى، بحيث يعين ذلك على إقامة مناهج الدين.

يقول ابن تيمية: (وإذا كان أولياء الله هم المؤمنين المتقين، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى، كان أكمل ولاية لله، فالناس يتفاضلون فى ولاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم فى الإيمان والتقوى، وكذلك يتفاضلون فى عداوة الله بحسب تفاضلهم فى الكفر والنفاق) [(٢)].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [(٣)]، وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» [(٤)].

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**» [(٥)]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً

(١) الملل والنحل (١/ ٢٢).
(٢) الفرقان ص ٢١.
(٣) البقرة: ٢٥٣.
(٤) أخرجه مسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٧٩، ٤١٦٨)، وأحمد (٢/ ٣٦٦) عن أبى هريرة رضي الله عنه .
(٥) أخرجه البخارى (٧٣٥٢) ومسلم (١٧١٦) وأبو داود (٣٥٧٤) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه .

مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَـٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَـٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَـٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَـٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَـٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٩٥﴾ دَرَجَـٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾[2].

لا شك أن التفاضل فى العمل فى دائرة أنصار الله وارد بين الجماعات الإسلامية، فشتان بين من يدعو لإزالة مفاسد فقط، أو يدعو لكتابة علم فقط، أو يدعو لنشر الفكر الإسلامى فقط، أو يدعو لإصلاح المجتمع فقط، أو يقاتل فقط حزب الشيطان، فشتان بين ذلك وبين من يوسع دائرة عمله ليشمل كل ذلك ويلتزم بالكتاب والسنة مصدراً، ويحمل النفس على العمل بهما، ويطهر نفسه وينقى قلبه، ويطالب بإصلاح الحكم فى الداخل وتعديل النظر إلى صلة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم فى الخارج، وتربية الشعب على العزة والكرامة، والاعتناء بالجسم وقوة البدن لمواجهة حزب الباطل، ويجعل طلب العلم فريضة يمارسها، ويعتنى بتدبير المال والحسبة ،ويدعو للالتزام بالاقتصاد الإسلامى، ويعتنى بأدواء المجتمع الإسلامى ويحاول الوصول إلى طرق علاجها وشفاء الأمة منها. وشتان أيضاً بين: من يجلس فى زوايا المسجد أو على كرسى فى المكتبة أو جلسات المناظرة، وبين ذلك الذى يمارس هواية جمع الغبار ويقضى الساعات والأوقات يدعو الناس ويصارع أهل الباطل فيناله أذاهم، فيصبر راضياً محتسباً.

وإذا فلا شك أن انتهاج الشمولية فى العمل فيه تفاضل فى دائرة حزب الله.

الالتزام بالنظرية الحركية:

إننا فى عصر تعقدت فيه الوسائل والأساليب، ونظمت الجاهلية نفسها، وتأسست أحزاب الشيطان بطريقة منظمة فى مواجهة أنصار الله.

---

(١) الحديد: ١٠.

(٢) النساء: ٩٥، ٩٦.

فمما لا شك فيه أن العمل العشوائى أو التجمع الكتلى فقط ليس من الحكمة أو من التقوى، فمن الحكمة أن يواجه حزب الشيطان بقوة منظمة، وهذا لا يكون إلا بالتزام مبادئ النظرية الحركية، فهى تنسق الطاقات، وتوجه العمل، وتربط القلوب، وتوحد الغايات.

ومن التقوى أن نتقى الله فى المسلمين اليوم، وأن نجهد أنفسنا فى تخليصهم من أحزاب الشيطان، لا أن نهمل عمل التنظيم الحركى، أو نتكاسل فى الإبداع العملى لمواجهة حزب الشيطان،فمن التقوى أن نلتزم بالنظرية الحركية للدعاة إلى الله؛ لأنها طريقة مأمونة تبقى للإسلام جذوته وقوته وحيويته فى مواجهة حزب الشيطان.

وختاماً ،فإن دائرة أنصار الله كبيرة تحتوى الجميع وتصهر تحت رايتها من التزم بشروطها وطور نفسه لكى يكون الأفضل فى ولايته لله سبحانه وتعالى.

«فلا يكون ولياً لله إلا من آمن به وبما جاء به رسوله ﷺ واتبعه باطناً وظاهرًا، ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء الله، ومن خالفه كان من أعداء الله وأولياء الشيطان»[1] وبعد كل ذلك تبقى التقوى هى أساس المواجهة لأعداء الله أولياء الشيطان.

(١) الفرقان ص٨، ٩.

الأهداف الرئيسية للدعاة إلى الله

إن الله سبحانه وتعالى كما حدد الوسائل وحدد الصفات لأولياء الله فى كتابه، كذلك سبحانه حدد الأهداف والغايات لأنصار الله، ونحن نجد أن الله سبحانه وتعالى فى محكم تنزيله يبين الكثير من الغايات ومن الأوامر وما يجب على المؤمن أن يلتزم به كغايات وأهداف، والدعاة إلى الله مأمورون تباعًا بانتهاج نفس المبدأ فى الانقياد والطاعة لتلك الأوامر.

والله يبين رسالة المؤمن ومهمته فى آيات عديدة وفى جهات متعددة منها قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [(١)].

فالعبادة العملية مهمة من مهمات المسلم، وعمل الخير مهمة أخرى، وكل ذلك لا يكفى بل لابد من الجهاد فى الله حق الجهاد، وذلك لإقرار دين الله الذى اختاره لنا، وبالتالى يكون المؤمن فى صف الداعين إلى الله الذى ينتهج الإسلام الذى سمانا به أبونا إبراهيم، وهو عهد علينا إلى يوم القيامة بقيادة رسولنا محمد ﷺ،ففى هذه الآية وضح الحق سبحانه المنهاج، ووضح طبيعة أنصار الله، ووضح الهدف أمام الدعاة، ووضح أيضاً القيادة التى يعمل الدعاة إلى الله تحت رايتها، وكذلك الوسائل والأساليب المعينة على بلوغ الغاية، كما بَيَّن سبحانه فى سورة النور أن المؤمن يسعى لإقامة دين الله ومنهجه فى صورة جماعية تحت راية أنصار الله، ومن ثم فإن المنهاج الباقى للدعاة هو عبادته حق العبادة دون الإشراك به؛ قال تعالى :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن

---

(١) الحج: ٧٧، ٧٨.

قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (١).

وبين سبحانه أن غاية المسلم الحكم بالحق: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢).

كما بيّن سبحانه فى آيات أخرى الغاية من خلق الإنسان: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (٣)، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (٤).

ويبين سبحانه أن من خَلْقِهِ أمة واجبها وغايتها بذل الهداية بالحق: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾ (٥).

تقنين الأهداف وتطويرها:

لا شك أن وجود تلك الغايات والأهداف فى كتاب الله سبحانه يوجب على أنصار الله أن يرسموا خططهم وخطوط غاياتهم وأهدافهم، وأن يباشروا دراسة كتاب الله سبحانه مع النظر فى سيرة الرسول ﷺ وفى وضع أهدافهم المستمدة من كتاب الله بحيث تكون واضحة متكاملة.

فالغاية العلوية والهدف الأسمى هو إرضاء الله سبحانه وتعالى وتحقيق ما أمر والانتهاء عما نهى عنه وزجر.

والعمل على تحقيق تلك الغاية أمر نسبى بين جهود فرد أو جهود جماعة، ولعل أنصار

---

(١) النور: ٥٥.
(٢) ص: ٢٦
(٣) الذاريات: ٥٦.
(٤) البقرة: ٢١.
(٥) الأعراف: ١٨١.

الله واجبهم من تلك الغاية أعظم وأهم فى سبيل تنفيذها وتحقيقها هذا أمر، والأمر الآخر هو أن إرضاء الله سبحانه وتعالى يحدث بالجزيئات والأصول وبالقليل والكثير، ومن ثم وجب على الدعاة أن يتوجهوا أولاً إلى الأصول وإلى الأهم فى كل الأمور «فإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»[(١)]، وكذلك فإن من الغايات ما لا يتحقق إلا بالقوة المنظمة وتلك هى أكبر الغايات وأعظمها، وبعد أن يرسم أنصار الله أهدافهم عليهم أن يحددوا الوسائل والأساليب لتنفيذها وتحقيقها.

من الذى يقنن الأهداف ويحددها؟:

قيادة أنصار الله هى المؤهلة لتقنين الأهداف وتحديدها باستمدادها من مصادرها الشرعية، والقيادة عليها العبء الأكبر فى تحديد تلك الأهداف،وهذا لا يعنى ألا يشارك الجنود فى تحديد تلك الأهداف، ولكن بالطريقة التى يحددها نظام الدعاة إلى الله، كما أن فهم الواقع والظروف وتقدير المواقف العامة لا يستطيعه إلا قيادة أنصار الله، ولذلك كانت الطاعة أمراً ضرورياً؛ إذ إن أى إخلال فى مبادئ الطاعة سيقلل الحركة تجاه الأهداف ويعيق يسر الوصول إلى الغاية،ومن ثم كان للقيادة فى حزب الله دور عظيم فى تحمل المسؤولية فى الدنيا والحساب العظيم فى الآخرة أجراً ومثوبة أو وزراً، نسأل الله العفو والعافية.

قواعد تقنين الأهداف:

للأهداف قواعد وأصول لصياغتها وتقنينها؛ إذ إن تلك الأصول والقواعد تصبح أهدافاً يسعى الدعاة إلى الله إلى السير نحوها، فمن تلك القواعد:

١ـ الشرعية:

المراد بها:أن يكون مصدر أهداف الدعاة إلى الله هو مصادر الشرع وهما: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قولاً وفعلاً وتقريراً.

---

(١) قول مأثور لعثمان بن عفان رضي الله عنه انظر : البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٢/ ١٠).

قال تعالى : ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (١)، وقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢).

ويبين الإمام البنا ذلك فيقول: «تلك هى الرسالة التى يريد الإخوان المسلمون أن يبلغوها للناس، لم يبتدعها الإخوان المسلمون ابتداعا ولم يختلقوها من أنفسهم، وإنما هى الرسالة التى تتجلى فى كل آية من آيات القرآن الكريم، وتبدو فى غاية الجلاء والوضوح فى كل حديث من أحاديث الرسول ﷺ، وتظهر فى كل عمل من أعمال الصدر الأول الذين هم المثل الأعلى لفهم الإسلام وإنفاذ وتنفيذ تعاليم الإسلام» (٣).

٢ـ منضبطة:

ونعنى بها:أن تكون الأهداف دقيقة فى تحديدها لا انسيابية فى فهمها، أو تنفيذها متقيدة بوسائل وأساليب شرعية لا تخليط ولا ترقيع.

٣ـ واقعية التنفيذ:

فالأهداف المثالية صعبة التحقيق شاقة المنال،ولذلك كلما كانت الأهداف واقعية التنفيذ وكان بالاستطاعة بذل الوسائل والأساليب لتنفيذها؛ كلما كان النجاح حليف أنصار الله، كما أنه يسهل تجزئتها إلى مراحل وخطوات.

٤ـ أصيلة وواضحة:

كما أن اللبس والغموض فى الأهداف يؤدى بالتالى إلى نتائج سلبية وإيجاد فهم متفاوت ومتناقض بين الدعاة إلى الله ـ ومن ثم وجب أن تكون الأهداف واضحة أصيلة لا خلل فيها؛ «ولذلك لما كانت الغاية هى التى تدفع إلى الطريق وكانت الغاية فى أمتنا غامضة

---

(١) الزخرف: ٤٣.
(٢) الجاثية: ١٨.
(٣) مجموعة رسائل البنا ـ ص١٤٣.

مضطربة؛ كان لا بد أن نوضح ونحدد، وأظننا وصلنا إلى كثير من التوضيح واتفقنا على أن مهمتنا سيادة الدنيا وإرشاد الإنسانية كلها إلى النظم الإسلامية الصالحة وتعاليمه التى لا يمكن بغيرها أن يسعد الناس»(١) والإمام البنا يتابع فيقول:«يجب أن نصارح الناس بغايتنا وأن نجلى أمامهم منهاجنا ،وأن نوجه إليهم دعوتنا فى غير لبس ولا غموض أضوأ من الشمس وأوضح من فلق الصبح وأبين من غرة النهار»(٢).

٥ـ فعالة:

أى تستطيع هذه الأهداف أن تنجح فى علاج ما وضعت له، وتستطيع تلك الأهداف أن تؤثر وتنقذ ما وقعت فيه الأمة من أدواء وعلل،وأن تنتشل تلك الأهداف الأمة من عللها وأمراضها فى أقصر وقت ممكن،وأن يكون أثرها واسعاً متسعاً وليس وقتياً كما أنه لو كانت هذه الأهداف مرحلية لقادت إلى الأهداف الكبرى بسرعة ويسر.

ولتبيان هذا المفهوم يقول الإمام البنا:«لو كانت لنا حكومة إسلامية صحيحة الإسلام صادقة الإيمان مستقلة التفكير والتنفيذ تعلم من العلم عظمة الكنز الذى بين يديها وجلالة النظام الإسلامى الذى ورثته وتؤمن بأن فيه شفاء شعبها وهداية الناس جميعاً، لكان لنا أن نطلب إليها أن تدعم الدنيا باسم الإسلام، وأن نطالب غيرها من الدول بالبحث والنظر فيه، وأن نسوقها سوقاً إليها بالدعوات المتكررة، والإقناع والدليل، والبعثات المتتالية، وبغير ذلك من وسائل الدعوة والإبلاغ ولاكتسبت مركزًا روحياً وسياسياً وعملياً بين غيرها من الحكومات، ولاستطاعت أن تجدد حيوية الشعب وتدفع به نحو المجد والنور وتثير فى نفسه الحماسة والجد والعمل»(٣).

الأهداف المرحلية:

لا شك أن الأهداف العامة قد تقنن ولكن سبيل الوصول إليها يحتاج إلى وقت وعمل

(١) مجموعة رسائل البنا ـ ص١٤٣.
(٢) مجموعة رسائل البنا ـ ص١٠٤.
(٣)مجموعة رسائل البنا ـ ص٣٤٧.

طويل، ولذلك كان من الأجدر أن يسير العمل تجاه الأهداف وفق مراحل وأن يكون لتلك الأهداف تفصيلات متفرعة يمكن تنفيذها خلال السير فى تلك المراحل، ثم بعد مضى الوقت وتهيؤ الظروف وتحسن الأوضاع تحقق تلك الأهداف تحقيقاً شاملاً، كما أن عظم تلك الأهداف يحتاج من الطاقات والاستعداد ما يبرر تفصيل تلك الأهداف إلى مراحل زمنية، وهذا بالتالى يستدعى أن يعد لكل مرحلة وسائلها أو أساليبها التى تتناسب مع تلك المرحلة.

فإن تنفيذ هدف إقامة الدولة الإسلامية يقتضى السير فى مراحل من الأهداف المتفرعة، كإقامة الجماعة المسلمة المتكاملة، ونشر الوعى الإسلامى بين الناس، وتكوين القاعدة الصلبة، وإنشاء بعض المؤسسات الإسلامية التى تسهل الوصول إلى تلك الغايات، وهذه الأهداف الفرعية يحتاج فى دراستها والتخطيط لها أيضاً إلى معرفة الوسائل والأساليب.

فهناك مرحلة التعريف، وفيها يكون الهدف نشر الفكرة العامة بين الناس وذلك لجذبهم إلى صفوف الدعاة إلى الله وفى هذه المرحلة نظام العمل يختلف وطريقة وأسلوب الدعوة أيضاً يختلف؛ لأن «نظام الدعوة فى هذا الطور نظام الجمعيات الإدارية ومهمتها العمل للخير العام، ووسيلتها الوعظ والإرشاد تارة وإقامة المنشآت النافعة تارة أخرى إلى غير ذلك من الوسائل العملية، وكل شعب الإخوان القائمة الآن تمثل هذا الطور من حياة الدعوة وينظمها القانون الأساسى، وتشرحها رسائل الإخوان وصحفهم والدعوة فى هذا الطور عامة»[1].

ثم هناك مرحلة التكوين، وذلك «باستخلاص العناصر الصالحة لتحمل أعباء الجهاد وضم بعضها إلى بعض،ونظام الدعوة فى هذا الطور صوفى بحت من الناحية الروحية وعسكرى بحت من الناحية العملية، وشعار هاتين الناحيتين دائماً (أمر وطاعة) من غير تردد ولا مراجعة ولا شك ولا حرج، وتمثل الكتائب الإخوانية هذا الطور من حياة الدعوة وتنظمها رسالة المنهج سابقاً وهذه الرسالة الآن ـ يعنى التعاليم ـ والدعوة فيها

(١)مجموعة رسائل الإمام البنا ص٢٠.

خاصة لا يتصل بها إلا من استعد استعداداً حقيقياً لتحمل أعباء جهاد طويل المدى كثير التبعات وأول بوادر هذا الاستعداد كمال الطاعة»[1].

ثم هناك مرحلة ثالثة وهى مرحلة التنفيذ، ومعالمها أن «الدعوة فى هذا الطور جهاد لا هوادة معه، وعمل متواصل فى سبيل الوصول إلى الغاية، وامتحان وابتلاء لا يصبر عليهما إلا الصادقون ولا يكفل النجاح فى هذا الطور إلا كمال الطاعة كذلك»[2].

فانظر يا أخى: كيف حدد الإمام البنا المراحل، وحدد خلالها هدف كل مرحلة مع نظام العمل فى تلك المرحلة والأساليب والوسائل،وذلك حتى يصل بكل ذلك لمرحلة تنفيذ وتحقيق الغاية العليا.

وقد تكون بين تلك المراحل مرحلة أخرى كل ذلك تحدده قيادة أنصار الله ضماناً للنجاح فى العمل وتأسيس الطاقات وقوة التأثير وسرعة الوصول فى اتجاه الغايات الكبيرة.

الأهداف عند الدعاة إلى الله صعبة التحقيق:

وهذا قد يصيب باليأس بعض الدعاة والحركيين لطول المدة وبعد الغاية، فالتجارب أثبتت وجود عوائق كثيرة وعظيمة أمام الدعاة لتحقيق أهدافهم، فى حين أن غيرهم من الأحزاب الأرضية يسهل عليه تحقيق أهدافه،بل إن الكثير من تلك الأحزاب نجح فى إيجاد دول تتكلم بمنهجه، ونحن لا ندعو إلى قنوط الدعاة من سيرهم تجاه الأهداف، ولكن نريد أن نوضح لهم بعض الحقائق حتى يعلموا عظم هذه الدعوة ومسؤولية الانتماء إلى الدعوة .

١ـ الجاهلية منظمة:

جاهلية اليوم منظمة تختلف عن جاهلية الأمس،الجاهلية اليوم منسقة ومنظمة ومتكاملة ومتعاونة،وكلها وإن اختلفت مشاربها وغاياتها إلا أنها تتجه نحو غاية واحدة

(١) المرجع السابق ص٢٠، ٢١.
(٢) المرجع السابق ص١٢.

هى إقامة الجاهلية وهدم الإسلام،وهذه الجاهلية تعتمد على النظرية الحركية للحرب لا العشوائية الارتجالية، فكان ذلك أن جعلها قوة مؤهلة لمزاحمة الداعين إلى الله والصراع معهم وغلبتهم أحياناً.

٢ـ الوسائل والأساليب:

ووسائل اليوم وأساليبه لم تقتصر على مجال واحد، بل إن أحزاب الباطل وتسلط الجاهلية قنن تلك الوسائل وابتكرها وابتدعها واستخدمها كأسلحة موجهة ضد أنصار الله، وهناك من الوسائل والأساليب ما يكون تأثيره قوياً وذا مدى زمنى بعيد وبالأخص وسائل الإعلام التى يسيطر عليها حزب الشيطان بمختلف مشاربه «ووسائل الدعاية الآن غيرها بالأمس فقد كانت دعاية الأمس كلمة تلقى فى خطبة أو اجتماع أو كلمة تكتب فى رسالة، أو خطاب، أما الآن فنشرات ومجلات وجرائد ورسالات ومسارح (وخيالات) وحاك ومذياع؛ وقد ذلل كل ذلك سبل الوصول إلى قلوب الناس جميعهم نساء ورجالاً فى بيوتهم ومتاجرهم ومصايفهم ومزارعهم»[١].

٣ـ طبيعة المنتمين للأحزاب:

اليوم تجتمع العقليات كلها فى الأحزاب الباطلة ضد الداعين إلى الله، عقليات مملوءة بالذكاء والفطنة تخطط وتبتكر وتواجه،وتنفذ وبالأخص بعد احتواء أحزاب الباطل على الطبقات المثقفة والطبقات العلوية فى المجتمع، «والدعاة اليوم غيرهم بالأمس فهم مثقفون مجهزون مدربون أخصائيون (ولا سيما فى البلاد الغربية) حيث تختص بكل فكرة كتيبة مدربة توضح غامضها وتكشف عن محاسنها وتبتكر لها وسائل النشر وطرق الدعاية وتتلمس لها فى الناس أيسر السبل وأهونها وأقربها إلى الإقناع والاتباع»[٢].

كل ذلك يجعل المواجهة العقلية بين أنصار الله وحزب الشيطان عقبة أخرى واستغلال قدرات تلك العقليات من حيث العلم والأدب والشعر وعلوم السياسة والقانون وغيره

---

(١) مجموعة رسائل حسن البنا ـ ص١١٢.

(٢)مجموعة رسائل الإمام البنا ـ ص١١٢.

لتتجه نحو أهداف حزب الشيطان.

٤ـ الجاهلية تقدم للناس المنافع الظاهرة:

وجد الناس فى العصر الحديث أن الجاهلية ـ بما تملك من الوسائل ـ تيسر لهم ما يحقق شهواتهم ولذَّاتِهم، وبيدها من السلطة ما تحقق أمنياتهم،ووجدوا طريق الحق صعبة ليس فيها كل ذلك فسارعوا مغترين لينضموا إلى أحزاب الشيطان وراء منفعة أو مصلحة أو مركز أو جاه،كيف لا والناس ينظرون إلى كل شىء حولهم فيجدون للجاهلية يداً فيه وسطوة وَصَوْلَةٌ وقوة؛ فارتكنوا إلى الجاهلية لذة وشهوة ومصلحة، وكانت عملية إرجاعهم إلى الإسلام وتبيان حقيقة دعوة الله لهم أمراً صعباً مما يعيق سرعة السير نحو الأهداف .

٥ـ التنسيق لضرب الدعاة من أحزاب الشيطان:

لا شك أن توحيد غاية أحزاب الباطل ضد حزب الإسلام جعلهم يخططون لانتزاع قيادة البشرية من أنصار الله،وهذا جعل بينهم التعاون والتنسيق والتدخل فى الوقت المناسب لضرب الدعاة إلى الله أو شل فاعليتهم،فأجهزة مخابراتهم وعيونهم ومقدراتهم منسقة ومنظمة، ويوجد فى كل بلد من بلاد المسلمين أحزاب باطلة تعينهم على ذلك؛ بل من جلدتنا من جعل مهمة أنصار الله والعمل تجاه الأهداف صعباً ومعيقاً؛ لهذا بين الإمام البنا ذلك لأتباعه فقال: «سيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوو الجاه والسلطان،وستقف فى وجهكم كل الحكومات على السواء،وستحاول كل حكومة أن تحد من نشاطكم وأن تضع العراقيل فى طريقكم،وسيتذرع الغاصبون بكل طريقة لمناهضتكم وإطفاء نور دعوتكم ويستعينون فى ذلك بالحكومات الضعيفة والأخلاق الرذيلة والأيدى الممتدة إليهم بالسؤال وإليكم بالإساءة والعدوان، وسيثير الجميع حول دعوتكم غبار الشبهات وظلم الاتهامات، وسيحاولون أن يلصقوا بها كل نقيصة وأن يظهروها للناس فى أبشع صورة معتمدين على قوتهم وسلطانهم ومعتدين بأموالهم ونفوذهم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا

نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1].

٦ـ طبيعة الالتزام فى الدعوة إلى الله:

والناس نفوسهم صعبة الالتزام؛ إذ إن الدعاة إلى الله لهم ضوابطهم وشروطهم والتزامهم الكامل بمناهج الإسلام، وهذا صعب على من يريد الالتزام فى دعوة الله، فقد ألف الناس الدعة والراحة والفوضى والانسيابية التى توجد فى حزب الباطل أو فى الجاهلية؛ لأن ذلك فيه راحة النفس، وطريق الدعاة إلى الله شائك وصعب، فيه التنكيل والقتل والسجن والابتلاء؛ وكل ذلك يقلل الانتماء لدعوة الله من قبل الناس مما يقلل الطاقات واكتمالها لتحقيق الأهداف.

٧ـ تركة جاهلية أمام الدعاة إلى الله:

لقد استملت الجاهلية قيادة البشرية؛ ولكنها بالتنظيم والتخطيط وبذل الوسائل تركت مجتمعاتنا الإسلامية مجتمعات بائسة ضعيفة «روح الشعب المعنوية محطمة أشد تحطيم.. الانشقاق والخلاف تملك نفوس القادة والزعماء حاكمين ومحكومين.. الجهاز الإدارى أفسدته المطامع الشخصية والغايات الحزبية وسوء التصرفات وضعف الأخلاق والمركزية القاتلة والإجراءات المعقدة والهرب من تحمل التبعات،والقانون قد ضعف سلطانه على النفوس والأوضاع لكثرة ما اقتحم عليه من تحايل واستثناءات، وشدة الغلاء وكثرة المتعطلين لقلة الأعمال،ونضوب الرحمة من القلوب واستيلاء القسوة وروح الجبروت والظلم على النفوس.. والأخلاق قد انتهى أمرها وعصف بها الجهل والفقر والحاجة والفاقة وانتشرت الرذائل ومظاهر الانحلال الخلقى فى كل مكان والأفكار مبلبلة والنفوس قلقة لا تكاد تستقر فى شىء على حال»[2].

والأفكار الإسلامية إما مستغلة أو مستعمرة أو تحكمها أحزاب الشيطان وكل ذلك عقبة هائلة وتركة ثقيلة أمام أنصار الله، هذه التركة عائق صعب أمام أهداف الدعوة،

---

(١)مجموعة رسائل الإمام البنا ـ ص ٢٥٤، والآية من سورة التوبة :٣٢ .

(٢) مجموعة رسائل الإمام البنا ـ ص٣٥٧، ٣٥٨.

يمنعها من أن تتحقق بسهولة.

أهداف الدعاة إلى الله محققة لا محالة:

ومع كل ذلك فإن الله سبحانه وتعالى سيمهد الطريق أمام الدعاة، وسيعينهم على بلوغ أهدافهم آجلاً أم عاجلاً، وحتى لا يدخل فى قلوب جنود الله اليأس والقنوط نبين أموراً :

١ـ أنه بمجرد أن يحدث التغير النفسى للمؤمن تجاه غايته التى هى إرضاء الله عز وجل تبدأ الخطوات الأولى فى الطريق وتسير القافلة؛ ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ ﴾[1].

وإن بداية التغير العمل تحت قيادة أنصار الله الذين يتجهون نحو غاية إرضاء الله سبحانه وتعالى.

٢ـ أن تلك العقبات تتكسر أمام الجهود المبذولة المستديمة المتوالية للدعاة؛ فكلما قويت همتهم وتسارعت أعمالهم؛ كلما قربوا إلى الغاية، وأى تفريط فى ذلك يؤخر الوصول إلى الغاية؛ لهذا يقول الإمام البنا لأتباعه: «قد تستطيعون أنتم معشر الإخوان أن تقصروا هذا الأجل إذا بذلتم همتكم وضاعفتم جهودكم، قد تهملون فيخطئ هذا الحساب وتختلف النتائج المترتبة عليه فأشعروا أنفسكم العبء وألفوا الكتائب وكونوا الفرق وأقبلوا على الدروس وسارعوا إلى التدريب وانشروا دعوتكم فى الجهات التى لم تصل إليها بعد ولا تضيعوا دقيقة بغير عمل»[2].

٣ـ وأهل الحق قلة، وطبيعة طريق الدعوة إلى الله تجعل الأكثرية تبتعد عنه، فلا تبقى فيه إلا القلة المؤمنة بنصر الله وإن كانت ضعيفة. ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾[3]، فالطاقات المتجهة لتحقيق أهداف الدعوة متمثلة فى

(١) الرعد: ١١ .
(٢) مجموعة الرسائل ص ٢٨٤.
(٣)البقرة: ٢٤٩.

الحصيلة الإيمانية لا الحصيلة العددية.

٤ـ الوصول إلى الأهداف مع وجود تلك العوائق والعقبات ليس أمراً مستحيلاً، فالتجارب والواقع أثبتا عكس ذلك، وها هو محمد ﷺ قد كون دولته على أنقاض حطام الجاهلية المتمكنة وبين قوتين عظيمتين هما الفرس والروم، ومن قبل كان لموسى \ مع فرعون شأن آخر انتصرت فيه القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة وحققت الأهداف بالرغم من التسلط.

وليست العوائق الظاهرة بمانعة من تحقق الأهداف. «فإن نهضات الأمم جميعها إنما بدأت على حال من الضعف لا يتصور معه أن تصل إلى ما تبتغى، ومع هذا حدثنا التاريخ أن الصبر والثبات والحكمة والأناة وصلت بهذه النهضات الضعيفة النشأة القليلة الوسائل إلى ذروة ما يرجو القائمون بها من توفيق ونجاح»[١]. ولنا فى نشأة دولة الإسلام وسيرة الرسول ﷺ خير قدوة.

٥ـ وأن السبب فى جعل تحقيق أهداف الدعاة إلى الله صعبة هو تمسكهم بالمنهج الإسلامى المنافى لمناهج الجاهلية فى كل أمر، ولو كان منهاجاً غير الإسلام لجاء الناس الجهلاء من كل حدب وصوب ورحبت أحزاب الباطل وأحزاب الجاهلية بذلك، ولكن لإيماننا أن الإسلام هو المنهج المنقذ الوحيد لا غيره مهما طال الطريق، وأنه هو الحل الوحيد لأدواء الأمم؛ فإننا نصبر على الصعوبات حتى يأتينا نصر الله والفتح، مدركين أمرين بالغى الأهمية: أولهما: «أن هذه الطريق مهما طالت فليس هناك غيرها فى بناء النهضات بناء صحيحاً وقد أثبتت التجربة صحة ذلك»[٢].

ثانيهما: أنه لا بديل غير هذا الحل؛ فليصبر جنود الله وأولياؤه على هذا الطريق مع وجود تلك العقبات فإنها زائلة لا محالة، إن شاء الله بحوله وقوته.

---

(١) مجموعة الرسائل ـ ص١٧٤.

(٢) مجموعة الرسائل ص١٧٥.

٦ـ تحقيق أهداف الدعاة إلى الله أمانة ومسؤولية على كل المسلمين، وجنود الله هم الطليعة العاملة لتحقيق هذه الأهداف، ومهما عظمت العقبات فإن ذلك لا يبرر تقاعد وتقاعس جنود الله عن أن يؤدوا واجبهم الذى سيسألون عنه، (إن العامل يعمل لأداء الواجب أولاً، ثم للأجر الأخروى ثانياً، ثم للإفادة ثالثاً، وهو إن عمل فقد أدى الواجب وفاز بثواب الله ما فى ذلك من شك متى توفرت شروطه وبقيت الإفادة وأمرها إلى الله، فقد تأتى فرصة لم تكن فى حسابه تجعل عمله يأتى بأطيب الثمرات على حين أنه إذا قعد لزمه إثم التقصير، وضاع منه أجر الجهاد وحرم الإفادة قطعاً، فأى الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى صراحة ووضوح فى الآية الكريمة ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾)[١].

٧ـ وبعد ذلك فمن طبيعة طريق الدعوة الابتلاء، ولهذا يقول الإمام البنا: «أحب أن أصارحكم أن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس، ويوم يعرفونها ويدركون مراميها وأهدافها ستلقى منهم خصومة شديدة وعداوة قاسية، وستجدون أمامكم كثيراً من المشقات وسيعترضكم كثير من العقبات، وفى هذا الوقت وحده تكونون قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات وستدخلون بذلك ولا شك دور التجربة والامتحان فتسجنون وتعتقلون وتقتلون وتشردون وتصادر مصالحكم وتعطل أعمالكم وتفتش بيوتكم، وقد يطول بكم مدى هذا الامتحان ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾[٢].

٨ـ والعقبات لا تساوى شيئًا ولا تقف حائلاً أمام نصر الله وتأييده ومعيته،﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ

(١) مجموعة رسائل البنا ـ ص١٧٦، الآيتان من سورة الأعراف:١٦٤، ١٦٥.
(٢) مجموعة الرسائل ٢٥٣ـ ٢٥٤، والآية من سورة العنكبوت:٢.

ﭐلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [(١)] ﴿وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤﴾ [(٢)] ﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾ [(٣)] ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [(٤)] ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [(٥)] ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣﴾ [(٦)] ولكن ذلك كله بشرط أن يبذل المؤمنون البذل الحسن والبلاء العظيم فى سبيل تحقيق أهداف الدعوة إلى الله، ويسعون دون خشية أحد ولا يأس من أى عائق فى طريقهم، وبعد إنهاء هذا الشرط يعطيهم الله الوعد ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾ [(٧)].

فالمؤمن يجاهد ويبذل لله سبحانه وفى الله، فأى عقبة تقف فى طريقه بعد ذلك؟ (ولكن الله وعدكم من بعد ذلك نصرة المجاهدين ومثوبة العاملين المحسنين) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾ [(٨)] فهل أنتم مصرون على أن تكونوا أنصار الله؟ [(٩)].

٩ ـ وأخيرًا، فإن بشائر رسول الله ﷺ بظهور هذا الدين كثيرة وعديدة على أيدينا أم على أيدى غيرنا فما علينا، إلا أن نرفع الراية ونبذر البذرة دون بحث عن الحاصدين، فالحصاد فضل الله يؤتيه من يشاء، حسبنا أنا وضعنا اللبنة وبذلنا الجهد وكنا أنصار الله.

---

(١) الأنبياء: ٨٨.
(٢) التوبة: ١٤.
(٣) الأنفال: ١٧ .
(٤) النساء: ١٤١.
(٥) الروم: ٤٧.
(٦) الصف: ١٣.
(٧) محمد: ٧.
(٨) الصف: ١٠، ١٤.
(٩) مجموعة الرسائل ص٢٥٥.

«ولا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحقِّ لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمرُ الله»[١].

فالله سبحانه ضمن حفظ حججه وبنيانه، وأخبر رسول الله ﷺ أنه لا تزال طائفة من أمته على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة،فلا يزال غرس الله من الدعاة إلى دينه يغرسون العلم فى قلوب من أهَّلهم لذلك وارتضاهم فيكونون ورثة لهم كما كانوا هم ورثة لمن قبلهم فلا تنقطع حجج الله القائمة من الأرض[٢].

وفى الحديث: «**لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام يعز عزيزًا ويذل ذليلاً، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، وإما يذلهم فيدينون لها**»[٣].

(١) أخرجه البخارى (٧١) عن معاوية رضي الله عنه، ومسلم (١٩٢٠) عن ثوبان رضي الله عنه.
(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ١٤٧، ١٤٨).
(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٤) عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/ ١٤) : «ورجال أحمد رجال الصحيح».

تحديد الأهداف الرئيسية للدعاة إلى الله

من خلال استقراء واقع العمل الإسلامى ودراسة التاريخ الإسلامى وسيرة الرسول ﷺ نستطيع أن نحدد أن الأهداف الرئيسية هى:

١ ـ صياغة الشخصية الإنسانية صياغة إسلامية.

٢ ـ إقامة الدولة الإسلامية فى كل قطر.

٣ ـ توحيد الأمة الإسلامية.

٤ ـ إحياء منصب الخلافة.

٥ ـ إقامة دولة الإسلام العالمية.

وينضوى تحت هذه الأهداف أهداف مرحلية أصغر منها، فتصبح تلك الأهداف هى الأهداف العليا وغيرها أهدافًا تابعة لها مؤدية إليها.

الأهداف بين الوسائل والفعالية:

١ ـ والأهداف نسبيًا تتفاوت فى كونها غايات أو وسائل بحسب موقعها من العمل الحركى الظرفى فى مجال الدعوة إلى الله. فمثلاً: تكوين الشخصية الإسلامية هدف ولكن هذا الهدف يعتبر وسيلة للهدف الثانى، وهو إقامة الدولة الإسلامية وهذا الهدف الثانى يعد وسيلة للهدف الثالث وهو توحيد الأمة الإسلامية، ثم ذلك الهدف الثالث يخدم الهدف الرابع وهو إحياء منصب الخلافة، فى حين أنه لا تقوم دولة الإسلام العالمية إلا بعد أن تتكون دولة الخلافة التي ستقوم هي ببناء دولة الإسلام العالمية، وهكذا تتحول الأهداف من غايات إلى وسائل، وتتحول جميع الأهداف السابقة لتكون وسيلة لإرضاء الله سبحانه وتعالى وهى غاية الغايات، وبالتالى فإن تلك القاعدة تنطبق على الأهداف المرحلية تعتبر وسائل للوصول إلى الأهداف الرئيسية.

٢ ـ كما أن الأهداف الرئيسية لا تصبح فعالة ومؤثرة إذا لم تحدث بالطريقة الطبيعية من التسلسل العملى التنفيذى، فمثلاً إذا استطاعت مجموعة من التجمعات الإسلامية أن تقيم

دولة الإسلام دون إعداد الشخصية الإسلامية فإنَّ ذلك سيجعل الهدف ليس فعالاً بالدرجة المؤثرة التى تحل مشاكل المسلمين، إذ إن الدولة تقوم أصلاً على أكتاف الرجال الذين رُبُّوا على أساس الشخصية الإسلامية، وكذلك إذا استطاعت جماعة أن تقنع السلطات فى كل دولة إسلامية لكى يتحقق الهدف الثالث وهو الوحدة فإن ذلك لا يؤثر ولا يكون فعالاً دون وجود دولة إسلامية تتبنى تلك الفكرة. وتجارب الوحدة فى الدولة العربية واضحة الفشل.

الأهداف واتجاه العمل الحركى:

١ـ لا شك أن السير الحركى تجاه الأهداف هو الذى يحدد أولوية تنفيذ تلك الأهداف تبعًا لطبيعة سير الحركة فى الدعوة وطبيعة الظروف المحيطة بها، وواقعها داخليًا من القوة والعمل، كل ذلك سيحدد مسيرة الدعاة تجاه الأهداف، ولكن هذا لا يعنى أن الدعاة سيكون عملهم الحركى متجهًا تجاه هدف واحد فقط، بل إن عملهم سيسير إلى جميع تلك الأهداف فى نفس الوقت ولكن بنسب متفاوتة مراعيًا الظروف التى أشرنا لها سابقًا، وكلما أتيحت نسبة العمل بفرصة أكبر تجاه هدف من الأهداف سعى الدعاة إلى ذلك، فعادة ما يكون الهدف الأول هو الذى يوجه إليه العمل الحركى ابتداء، مع الأخذ فى الاعتبار أنه يمكن إنشاء بعض المؤسسات التى تخدم الهدف الثانى، وهكذا بالإمكان السير تجاه الأهداف بنسبة متفاوتة، كل ذلك تقدره القيادة التى انبثقت من بين الدعاة.

٢ـ كما أن اتجاه العمل الحركى تجاه الأهداف لا يتوقف بعد تنفيذها؛ بل سيظل اتجاه العمل الحركى نحو جميع الأهداف بصور مختلفة، فإذا ما سعينا لتكوين وصياغة الشخصية الإسلامية وتكونت الدولة الإسلامية، فإن العمل الحركى سيتجه بلا شك بصورة أكبر إلى الهدف الثالث وهو توحيد الأمة الإسلامية، ولكن هذا لا يعنى ألا يكرس العمل الحركى فى اتجاه الهدف الأول والثانى، وسيتحول ذلك إلى نمط جديد وهو أن الدولة هى التى ستزاول تنمية وتكوين الشخصية الإسلامية بصورة أشمل وأعم وبطريقة تختلف عن

طريقة أنصار الله، والعمل على إدامة الدولة الإسلامية هو الصورة الجديدة لاتجاه العمل الحركى بعد إقامتها بحفظها وتكوين الأسس والأعمال التى تحافظ عليها من الضعف أو الجمود.

تكوين وصياغة الشخصية الإسلامية

هدف أصيل:

البدء فى صياغة العناصر الصالحة لتحويلها إلى صورة جديدة ونموذج أصيل هو من أسمى أهداف الدعاة إلى الله كيف لا؟ وإن كل لبنة فى صرح الأهداف التالية يعتمد أساس وضعها على هذا الهدف وإنشائه، وإن وجود نموذج الشخصية الإسلامية فى أى مجتمع يعد أمرًا حيويًا لإعطاء الصورة الصحيحة بالتالى عن نموذج المجتمع المسلم والدولة المسلمة،فالمجتمع المسلم هو صورة مكررة لمجموعات من الشخصيات التى تتبنى الإسلام حياة ومنهجًا وفكرًا وعملاً.

١ـ وصياغة الشخصية الإسلامية هدف أصيل من مناهج الدعوة إلى الله، ودليله قول البنا رحمه الله: «إن منهاج الإخوان المسلمين محدود المراحل واضح الخطوات، فنحن نعلم تمامًا ماذا نريد، ونعرف الوسيلة إلى تحقيق هذه الإرادة: «نريد أولاً الرجل المسلم فى تفكيره وعقيدته وفى خلقه وعاطفته، المسلم فى عمله وتصرفه. فهذا تكويننا الفردى»[1].

٢ـ وأن نعمم ذلك النموذج من الشخصية الإسلامية ليشمل أعدادًا متعددة من الرجال حيث يتكون جيل يتمثل نموذج الشخصية الإسلامية لهذا «فإن غاية الإخوان تنحصر فى تكوين جيل جديد من المؤمنين بتعاليم الإسلام الصحيح، يعمل على صبغ الأمة بالصبغة الإسلامية الكاملة فى كل مظاهر حياتها. ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾[2].

٣ـ بل إن ذلك عنصر أساسى لتكوين أنصار الله الساعين إلى إقامة النظام الإسلامى، وقد بين ذلك الإمام المودودى فى قوله رحمه الله: «استخراج الأفراد الصالحين، وخرطهم فى سلك نظام واحد وتربيتهم»[3].

---

(١) مجموعة الرسائل ص ٤٥٣.

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٤،والآية من سورة البقرة : ١٣٨.

(٣)نحو ثورة سلمية للمودودى ص ١٠٠.

مراتب السير فى إعداد الشخصية الإسلامية :

ونقصد بتكوين الشخصية الإسلامية إعداد إنسان له طبيعة التفكير الإسلامى، وله عقلية إسلامية ذات تصور وفق مبادئ الإسلام، وهو يتحلى بروح مؤمنة يلتزم باطنها بالإسلام كما يلتزم ظاهرها بالإسلام أيضًا، ويكون ذلك المزيج صورة إسلامية لنموذج إنسانى جديد يتحلى بالإسلام فى كل شىء فى نفسه وتصرفاته مع المحيط الخارجى.
ولتكوين تلك الشخصية مراتب تدريجية كى تستكمل تلك الشخصية صورة النموذج المطلوب.

وعادة ما يتدرج بالشخصية لتكوين عناصر الإيمان فيها وعناصر الالتزام بالإسلام فهو مؤمن ومسلم، ثم ينتقل بعد ذلك إلى مرتبة التقوى ثم إلى مرتبة الإحسان، ثم بعد ذلك إلى مرتبة العطاء والجهاد والعمل «وهذا الذى نعبر عنه بالأخلاق الإسلامية يشتمل بموجب القرآن والسنة على مراتب هى الإيمان والإسلام والتقوى والإحسان، وهى كلها مرتبة ترتيبًا فطريًا، بحيث إن كل تالية منها تتولد من سابقتها ولا تؤسس إلا عليها، فما دامت الطبقة الأولى فيها غير محكمة متقنة لا يكاد يخطر بالبال أن تبنى عليها الطبقة الثانية، فالإيمان بمنزلة الأساس فى هذا البناء، وهو الذى تقوم عليه طبقة الإسلام، ثم تشيد على طبقة الإسلام طبقة التقوى فطبقة الإحسان»[1] ولنا أسوة حسنة فى رسول الله ﷺ حيث يقول المودودى: «ثم انظروا قليلاً فيما تحرى النبى ﷺ من التدرج والترتيب للبلوغ إلى هذه الغاية فقد قام بدعوة الناس ـ أولاً وقبل كل شىء ـ إلى الإيمان وأحكمه فى قلوبهم وأتقنه على أوسع القواعد وأرحبها، ثم نشأ فى الذين آمنوا تعليمه وتربيته طبقًا لمقتضيات هذا الإيمان، تدرجًا بالطاعة العملية ـ أى الإحسان ثم شرع بسعى هؤلاء المؤمنين المخلصين المنظم المتواصل فى تحطيم النظام الفاسد للجاهلية القديمة»[2].

هذا التدرج فى تكوين الشخصية الإسلامية هو الأساس لصياغة الشخصية الإنسانية

---

(١) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية ـ المودودى ص ٤٤، مؤسسة الرسالة.
(٢) المرجع السابق ص ٧١.

وتحويلها تدريجيًا إلى مراتب عالية من صورة نموذج الشخصية الإسلامية.

أما ما يحرص عليه أنصار الله بعد ذلك من التدرج فى انتقال الشخصية الإسلامية فى المراتب فى نطاق الدعوة، فيكون داعية ثم يصبح قدوة حسنة ثم يصبح المجاهد الحكيم، فإن هذا أمر لازم، لأن العمل الإسلامى له تبعات ثقيلة وشاقة وصعبة، وكان لابد من أن تمر الشخصية الإسلامية بعد تكوين قواعد الإسلام والإيمان والتقوى والإحسان فى عدة ممارسات تربوية حتى يصبح صاحب الشخصية رجلاً مجاهدًا حكيمًا فى صفوف الدعاة إلى الله.

١ـ وإذا ما تحقق ذلك للشخص فإنه يصبح الأخ الحركى الذى تتضح فيه كثير من الأمور الهامة للشخصية الإسلامية؛ ولهذا يبين ابن القيم أهمية مرتبة الداعية فيقول: (الدعاة جمع داع، كقاض وقضاة ورام ورماة، وإضافتهم إلى الله للاختصاص أى الدعاة المخصوصين به، الذين يدعون إلى دينه وعبادته ومعرفته ومحبته، وهؤلاء هم خواص خلق الله وأفضلهم عند الله منزلة وأعلاهم قدرًا، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [١]، قال الحسن: هو المؤمن أجاب الله دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحًا فى إجابته،فهذا حبيب الله وهذا ولى الله،فمقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد» [٢].

٢ـ ثم يصبح بعد ذلك قدوة حسنة يقتدى بها فى عمل الخير ونشر الحق سواء ممن يدعوهم أو من يربيهم فى محيطه الحركى «ويخطئ من يظن أن جماعة المسلمين دعاة كسل أو إهمال، فالإخوان يعلنون فى كل أوقاتهم أن المسلم لابد أن يكون إمامًا فى كل شىء، ولا يرضون بغير القيادة والعمل والجهاد والسبق فى كل شىء» [٣].

٣ـ وبعد ذلك يصبح الأخ نموذجًا تتمثل فيه عناصر العمل والحركة بالإضافة إلى

(١) فصلت: ٣٣.
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٥٣).
(٣)مجموعة الرسائل ص ٤٦٠ .

قواعد الشخصية الإسلامية، فهو يستطيع أن يعمل فى أى موضع تريده الحركة، وفى أى مجال وأى وقت مما يجعل الأخ نموذجًا يؤثر بكلامه وعمله تأثيرًا ويحرص على الاقتراب فى طبيعة شخصيته من صور السابقين من السلف الصالح فى سمته وأخلاقه وعمله وكلامه ونفسيته وعقليته وحركته، وفى مأكله ومشربه وجميع أحواله، وكل ذلك يصب فى اتجاه أهداف العمل الحركى لأنصار الله.

٤ـ ثم بعد ذلك يصل إلى درجة عالية من صورة الشخصية الإسلامية، وهو رجل الجهاد المنتج الحكيم، يجاهد بكل شيء ولكن بحكمة وإنتاجية مبدعة فى خدمة الدعوة إلى الله،فهو لا يأبه بأن تكون كل حياته وماله وصحته ووقته فى سبيل دعوة الله وتحقيق أهداف هذه الدعوة التى ينضم هو تحت لوائها: «إن كثيرين يستطيعون أن يقولوا ولكن قليلين من هذا الكثير يثبتون عند العمل، وكثير من هذا القليل يستطيعون أن يعملوا ولكن قليلاً منهم يقدرون على حمل أعباء الجهاد الشاق والعمل العنيف، وهؤلاء المجاهدون وهم الصفوة القلائل من الأنصار قد يخطئون الطريق ولا يصيبون الهدف إن لم تتداركهم عناية الله»[١] «وإن رجل القول غير رجل العمل، ورجل العمل غير رجل الجهاد، ورجل الجهاد فقط غير رجل الجهاد المنتج الحكيم الذى يؤدى إلى أعظم الربح بأقل التضحيات»[٢].

تلك هى مراتب تكوين الشخصية الإسلامية ومن ثم الشخصية الحركية فى دعوة الله.

خطوط عامة لصياغة الشخصية الإسلامية:

هناك وسائل وأساليب متعددة لصياغة الشخصية الإسلامية وتهيئتها للتدرج التربوى والحركى، وإعدادها إعدادًا إسلاميًا حركيًا، ومن تلك الأمور ما يلى:

أ ـ التربية:

لاشك أن الممارسات التربوية لها الأثر الكبير فى نزع الشخصية الإنسانية من طبيعتها الجاهلية وزرع الصفة الإسلامية وصياغتها فيها صياغة سليمة، والممارسات التربوية هى

(١) مجموعة الرسائل ص ٢٨٣، ٢٨٤.

(٢) مجموعة الرسائل ص٢٨٥.

التى تعنى بأدواء الشخصية الإنسانية فتعالجها وتصفى تلك الشخصية من عيوبها ومثالبها وتسارع إلى تهذيبها تهذيبًا إسلاميًا صحيحًا.

ولأجل أن تؤدى الممارسات التربوية فاعليتها فى تغيير الشخصية الإنسانية إلى شخصية إسلامية فإنها تعمد إلى:

١ـ الانخلاع من الجاهلية: فإن تلك الممارسات التربوية تعمد إلى خلع الشخصية الجاهلية من صبغتها وإعطاء الطابع الإسلامى لهذه الشخصية، ولابد من نزع أدران الجاهلية وسوءاتها من نفسية الشخصية الإنسانية ابتداءً وتطهيرها تدريجياً من تلك الأوساخ العقيمة الدنسة. «لقد كان الرجل حين يدخل فى الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه فى الجاهلية، كان يشعر فى اللحظة التى يجىء فيها للإسلام أنه يبدأ عهداً جديداً منفصلاً كل الانفصال عن حياته التى عاشها فى الجاهلية، وكان يقف من كل ما عهده فى جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف، الذى يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام، وبهذا الإحساس كان يتلقى هدى الإسلام الجديد»[(١)].

٢ـ تحقيق العبودية: وتسعى الممارسات التربوية إلى صياغة الشخصية الإنسانية صياغة العبد الذليل إلى الله سبحانه وتعالى وأن يتحقق نموذج العبودية فى الشخصية الإسلامية، فيكون عبداً لله ذليلاً خاضعاً مطيعاً منيباً خائفاً وجلاً راغباً راهباً لله سبحانه وتعالى وأن ينزع عبودية كل شىء سوى الله سبحانه و «أن ينشأ فى الناس الشعور بعبوديتهم وولايتهم لله ومسؤوليتهم بين يديه يوم القيامة»[(٢)].

ومن ضروريات الانتماء الاعتقادى «أن أعبد الله ولا أشرك به شيئاً، استجابة لدعوة الله على مدار الرسالات والرسل التى دعاهم فيها إلى عبادته وحده وعدم الخضوع لسواه»[(٣)].

(١) معالم فى الطريق ـ سيد قطب ص١٦ ـ طبعة ١٩٦٨م.
(٢) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية للمودودى ص٧٠.
(٣)ماذا يعنى انتمائى للإسلام ـ فتحى يكن ـ ص٢١.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [1]. و«تتمثل هذه العبودية فى التصور الاعتقادى كما تتمثل فى الشعائر التعبدية، وفى الشرائع القانونية سواء»[2].

٣ـ العزلة الشعورية: وأن تسعى الممارسات التربوية بالإضافة إلى خلع الجاهلية من الشخصية الإنسانية، وهذا من ذات الشخص. تسعى الممارسات بعد ذلك أيضاً إلى عزلة التأثيرات الجاهلية الخارجية على نفسية تلك الشخصية وعقليتها، حتى لا تصبغ بصبغة جاهلية من المحيط الخارجى، ثم لا بد من التخلص من ضغط المجتمع الجاهلى والتصورات الجاهلية والتقاليد الجاهلية والقيادة الجاهلية من خاصة نفوسنا، وليس من مهمتنا أن نصطلح مع واقع هذا المجتمع الجاهلى ولا أن ندين بالولاء له، فهو بهذه الصفة صفة الجاهلية غير قابل لأن نصطلح معه»[3].

٤ـ التمايز والمفاصلة: وهى أعلى مراتب العزلة الشعورية وهى أن تتمايز الشخصية الإسلامية عن الشخصية السابقة لها، تمايزها بالفكر والتصور وبالأخلاق والسلوك وبالمشاعر والأحاسيس «لا يكن أحدكم إمعة يقول : أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت وإن أساؤوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إنْ أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساؤوا أن تجتنبوا إساءتهم»[4] «إن أولى الخطوات فى طريقنا هى أن نستعلى على هذا المجتمع الجاهلى وقيمه وتصوراته، وألا نعدل فى قيمنا وتصوراتنا قليلاً أو كثيراً لنلتقى معه فى منتصف الطريق»[5].

والتميز ضرورة شخصية وهامة للشخصية الإسلامية، لأن الشعور بالتميز هو الذى يعطى الشخصية الإسلامية دافعاً للحركة والدعوة والعمل.

---

(١) النحل: ٣٦.

(٢) معالم فى الطريق ص٨٥.

(٣) معالم في الطريق ص١٩.

(٤) أخرجه الترمذى (٢٠٠٧) ،والبزار فى مسنده (٢٨٠٢) عن حذيفة رضي الله عنه ، قال الترمذى : « حسن غريب » .

(٥) معالم في الطريق ص١٩.

٥ـ الالتزام المنضبط والموزون والثابت بالإسلام ومقتضياته: كما أن الممارسات التربوية يجب أن تسعى لتثبيت قدم الشخصية الإسلامية؛ لتمثل المنهج العملي والعقلي للإسلام وألا تحيد عنه ولا تلتفت لغيره وأن تلتزم التزاماً ثابتاً وموزوناً ومتكاملاً بمقتضيات الإسلام وأوامره والبعد عن نواهيه، «فالانتماء للإسلام ليس انتماء بالوراثة ولا انتماء بالهوية كما ليس انتماء بالمظهر الخارجي، إنما هو انتماء للإسلام والتزام للإسلام وتكيف في الإسلام في كل جوانب الحياة»[1].

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾[2].

٦ـ جعل نمو تلك الشخصية تجاه الله سبحانه وتعالى: وذلك أن الممارسات التربوية تسعى إلى خلق الربانية في نفس الشخصية الإسلامية، حتى تصبح كل خطواتها وحركاتها تجاه الله سبحانه وتعالى، ألا يتوجه بالعبادة والعمل إلى شيء غير الله، يكون الإخلاص بدل الرياء، وحب العمل الصامت بدل الشهرة والبذل لله أحب من البذل للناس «ومن المقتضيات المستلزمة لدعوة الإسلام إلى التوحيد ألا تكون الغاية الوحيدة والمقصد الجوهري من وراء جهود الإنسان ومساعيه إلا ابتغاء وجه الرب تعالى وأن يحدد أفق فكرته ونطاق عمله بحدود عينها له ربه الجليل، فمن النتائج اللازمة لهذا الإصلاح الأساسي، أن جميع الأخلاق الأساسية تتجه إلى الطريق المستقيم وأن القوى التي تتولد بوجود هذه الأخلاق لا تستعمل ولا تنفذ إلا في سبيل إعلاء كلمة الحق الناصع بالطرق المباحة، بدلاً من أن تستعمل في سبيل النفس أو الأسرة أو الأمة أو الوطن بطرق جائزة وغير جائزة»[3].

---

(١) ماذا يعني انتمائي للإسلام ص١٣.

(٢) الحج: ٧٨.

(٣) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية ص٢٥، ٢٦.

٧ـ أن تصبح صبغة الشخصية الإسلامية فاتحة للخير مغلاقة للشر: وهذه النقلة هى بداية الانطلاق الحركى تجاه أهداف الداعين إلى الله، وهى نتيجة ثانية للممارسات التربوية، فيجب أن يفيض من تلك الشخصية الإسلامية الخير تجاه العمل الإسلامى، فتبدأ بالحركة والدعوة وفتح أبواب الخير للناس، وغلق أبواب الشر، وتصبح تلك الشخصية إنتاجية بعد ذلك، ثم إن الإسلام لا يقتصر على أن يجعل الإنسان صالحاً راشداً فى ذات نفسه، بل يجعله فوق ذلك مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر، كما ورد فى الحديث النبوى، أى أن يفوض إليه وينيط به ـ على الوجه الإيجابى ـ مهمة تعميم الخير واستئصال شأفة الشر من أرض الله»[١].

تلك هى أثر الممارسات التربوية فى صياغة الشخصية الإسلامية لنزعها من أدران الجاهلية والمحيط الفاسد، وتربيتها تربية سليمة حكيمة، وعملية التربية ذات أثر إيجابى ابتداء؛ إذ إنها هى التى تكون عناصر الإيمان فى الشخصية الإسلامية قبل كل شىء، ولذلك ورد فى الحديث الصحيح عن ابن عمر قوله: «لقد عشت برهة من دهرى، وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها وما ينبغى أن نقف عنده منها... ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدرى ما آمره ولا زاجره وما ينبغى أن يقف عنده، وينثره نثر الرمل..» [٢].

ب ـ العلم:

والعلم خط من خطوط تكوين الشخصية الإسلامية، فالعلم يسعى إلى إنارة العقل بالحق وتوضيح الخطوط الشرعية والاعتقادية لصحة سير الشخصية الإسلامية إذ لا عمل بدون علم، كما يسعى العلم إلى صقل العقلية الإسلامية وضبطها ضبطاً محكماً جيداً متزناً، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [٣]، ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

---

(١) المرجع السابق ص٢٩.
(٢) مشكاة المصابيح ـ كتاب الآداب ـ باب الرقاق.
(٣) طه: ١١٤.

دَرَجَٰتٍۚ ﴾[(١)]، «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين»[(٢)].

فالشخصية الإسلامية تحتاج إلى العلم حاجة شديدة كما وضح الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله فى قوله: «حاجة الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب لأنهم يحتاجون إليهما فى اليوم مرة أو مرتين، وحاجتهم إلى العلم بعدد أنفاسهم» ولذلك كان طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

فبدون العلم بجوانب الثقافة الإسلامية والشرعية وأصولها تبقى الشخصية معرضة للانحراف أو الخطأ والزلل الفكرى والنظرى والعملى.

جـ ـ العمـــل:

والعمل خط هام من خطوط تكوين الشخصية الإسلامية، فالعمل هو المسرب الرئيس لتصريف طاقات الفرد وصقلها فى ميدان الواقع، كما أن العمل يحول ذلك الكم والكيف النظرى من العلم والفهم والتربية إلى صورة عملية، ولذلك نجد أن كتاب الله سبحانه وتعالى قد قرن العمل بالإيمان فى آيات عديدة منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ ﴾[(٣)]، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾[(٤)]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾[(٥)]، وكذلك جعله عاملاً فى قبوله التوبة وتبديل السيئات، أى عاملاً لتطهير الشخصية الإسلامية ونموها ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾[(٦)].

---

(١) المجادلة: ١١.
(٢) أخرجه البخارى (٧١) ومسلم (١٠٣٧) عن معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنهما.
(٣) البروج: ١١.
(٤) الكهف: ١١٠.
(٥) مريم: ٩٦.
(٦) الفرقان: ٧٠.

وهو ثمرة التربية والعلم ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [1]، كما أن الشخصية الإسلامية لا تصبح نموذجاً صحيحاً ما لم تمارس الصيغة العملية لمؤهلاتها التربوية والعملية عندما تصبح تلك الشخصية واقعاً صحيحاً له تأثيره الإيجابى فى الواقع المحيط.

على هذا الأساس يجب أن توضع الشخصية الإسلامية فى مسارب العمل الموزون لصقلها وتنميتها واستغلال الطاقة المخزونة، وتوجيه تلك الطاقة إلى مزيد من النماء فى طبيعة الشخصية الإسلامية بعيداً عن الانعزالية والترف الفكرى.

د ـ الجهـــاد:

خط رابع لتكوين الشخصية الإسلامية الحركية هو خط الجهاد، وهو خط أصيل يرتفع بالشخصية الإسلامية ليفكها من قيودها النفسية التى تثقلها بالارتباط بهذه الأرض، فإن التربية والعلم والعمل كل ذلك لا يستطيع أن يجعل روح الإنسان خفيفة تجاه الغاية وتعمل بسهولة ميسرة؛ كما تفعل الممارسات الجهادية التى تزيل كل بقايا كوامن النفس من الضعف والفتور والخوف والبخل ومحبة النفس وحب بقاء الصحة والجاه والمركز واللذة، فكل ذلك بالممارسات الجهادية يزول ويحل محله تلك الروح الخفيفة الصاعدة إلى السمو العلوى، وصدق الله القائل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [2].

إن أكبر عامل يجعل الإيمان يتنامى فى طبيعة الشخصية الإسلامية هو الجهاد، والممارسات الجهادية ، تكشف أصالة معدن الشخصية الإسلامية كشفاً صحيحاً، فتضع كل نوعية من تلك الشخصيات فى موضعها الصحيح ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [3].

---

(١) التوبة: ١٠٥.
(٢) البقرة: ٢١٦.
(٣)الحج: ٧٨.

والممارسات الجهادية تقتل الدنيوية فى الشخصية الإسلامية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾ [(١)] «إن المجاهد فى سبيل الله أقوى من قيود الأرض، لأنه أرفع من ثقلة الأرض، والإيمان ينتصر على الألم، والعقيدة تنتصر على الحياة،إن الجهاد فى سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن»[(٢)].

والممارسات الجهادية تكون الإيمان الصلب القوى والعزم الشديد الفتى، ويستمر ذلك ولو بعد مضى السنوات الطوال فى صياغة الشخصية الإسلامية، فالجهاد عامل هام فى إتمام بناء الشخصية الإسلامية. ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١﴾[(٣)].

قرأ أبو طلحة رضي الله عنه سورة براءة فأتى على هذه الآية فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباباً، جهزونى يا بَنِىّ، فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبى بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك فأبى فركب البحر فمات. فالجهاد طريق لمن أراد أن يسلك المسار الحركى لأنصار الله، والشخصية الإسلامية التى تريد أن تنمو فى اتجاه حركة أنصار الله يجب أن تتداخل الممارسات الجهادية فى ثناياها وحركاتها وطبيعتها، وبالتالى تحقق الصورة الحقة للشخصية الإسلامية الحركية. ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾[(٤)].

هـ ـ تأثيرات البيئة الصالحة:

من الواضح فى العمل التكوينى للشخصية الإسلامية أن توفر البيئة الصالحة ضرورى

---

(١) التوبة: ٣٨.

(٢) طريق الدعوة فى ظلال القرآن ص٣٠٤.

(٣) التوبة: ٤١.

(٤) الحجرات: ١٥.

لتهيئة الشخصية الإسلامية لحمايتها من تأثير الجاهلية المستمر والتى تحطم البناء التربوى للشخصية الإسلامية.

إن انخلاع الفرد من الجاهلية ليس كافياً ما لم يحط بسياج من البيئة، والجو الإيمانى يديم ذلك الانخلاع.

وتهيئة البيئة الصالحة يكون فى عدة أمور: تهيئة جو العمل الذى تمارس فيه الشخصية الإسلامية عملها بأن يكون إسلامياً تتوفر فيه قواعد النقاء والطهارة، وكذلك فإن للبيت المسلم تأثيره الكبير فى الشخصية الإسلامية، وكذلك عزل الشخصية الإسلامية عن البيئات السابقة من أماكن اللهو والمزاح أو أماكن الصحبة الفاسدة وغيرها، وإن أعلى شىء فى تهيئة البيئة الصالحة وإدراج تلك الشخصية الإسلامية فى جو المعايشة الجماعية لأنصار الله حين تتوفر فيها ضوابط العلاقات الإسلامية والأخوية وتنتشر فيها الآداب الإسلامية السامية وحقوق الأخوة الصادقة، مما يجعل تلك البيئة فى حد ذاتها وسيلة وأسلوباً تربوياً جيداً فى تحقيق وتنمية الشخصية الإسلامية.

وكان رسول الله ﷺ أول ما بدأ فيه هو إيجاد مركز لتجميع الصحابة فى بيت الأرقم بن أبى الأرقم لعزلهم عن المجتمع الجاهلى فى كثير من الأوقات، وكذلك اعتزل الرسول ﷺ مع صحابته فى بعض الأحيان المجتمع الجاهلى بذهابهم إلى جبال مكة وشعابها كما روى سعد بن أبى وقاص، ثم كذلك البحث المستمر من قبل الرسول ﷺ عن بيئة صالحة ليزاول عمله التربوى، فكان يعترض القبائل فى المواسم ويعرض عليهم أن يؤووه وينصروه، وذهب إلى الطائف وأمر بعض صحابته بالهجرة إلى الحبشة، إلى أن نصره الله بكتيبة الأنصار، وكانت المدينة هى البيئة السامية لنشأة الشخصية الإسلامية فيما بعد. وهكذا يسعى الدعاة إلى الله فى توفير البيئة الصالحة لتكوين الشخصية الإسلامية عن طريق مسارب العمل فى مختلف الظروف والأحوال وعن طريق المعايشة الجماعية.

ضوابط إعداد الشخصية الإسلامية

١ ـ التكامل فى تكوين الشخصية الإسلامية:

ويكون بتناول جميع جوانب الشخصية فكرياً وعقلياً ونفسياً وروحياً وحركياً وجهادياً، فلا ينمى جانب واحد دون الآخر؛ بل كل بنسبته المقدرة على حسب حال الشخصية فى مستواها للتلقى والتكوين.

٢ ـ التوازن فى طبيعة الشخصية الإسلامية:

أى أن يكون هناك استكفاء فى جزئيات أى جانب من الجوانب التى ذكرت عند تكوين الفكر وطبيعته دون تفريط أو إفراط.

٣ ـ الإعداد العملى:

ألا يقتصر فى إعداد الشخصية الإسلامية على الجانب النظرى فى التوجيه والإرشاد العام وتكوين الحقائق النفسية؛ بل يجب أن يعتمد على أسلوب وفهم تطبيقى عملى بحيث تمارس تلك الشخصية الإسلام واقعاً عملياً؛ بل وتكسب الخبرات وتنمو تدريجياً فى ظل الجو العملى الواقعى الميدانى.

٤ ـ استغلال مظاهر البروز والقدرات والمهارات فى الشخصية الإسلامية:

وذلك تمهيداً لاستثمارها فى توجيهها لخدمة أهداف الدعوة إلى الله، أى استغلال الفروق الفردية المتوافرة فى الشخصية الإسلامية تمهيداً لتنميتها واستثمارها.

الجوانب التفصيلية لتكُوين الشخصية الإسلامية

لا بـد مـن ممارسـات تربويـة مركـزة ومقننـة ومخططـة لتـشكيل وتكـوين الشخـصية الإسلامية دون الاكتفاء بالخطوط العامة،إذ إن تحديد قواعد البناء التربوى للشخصية الإسلامية أمر مهم وضرورى، وعامل مساعد فى سهولة الإعداد والتكوين ومن تلك القواعد والتفصيلات الأساسية لا الجزئية لبناء الشخصية الإسلامية ما يلى:

أولاً: تكوين ضوابط التفكير والعمل للشخصية الإسلامية:

والهدف من ذلك هو تحديد المسار العقلى والعملى للشخصية الإسلامية وضبطها ضبطاً شرعياً وعملياً أثناء ممارسة الشخصية الإسلامية فى الحياة اليومية سواء كان ذلك بالتصرفات الفردية أو الجماعية أو الحكم على الأشياء والمؤثرات فى المحيط الخارجى أو طبيعة الاستجابات لتلك المؤثرات.

ولذلك يسعى الدعاة إلى الله فى تربيتهم إلى تكوين تلك الضوابط حتى تصبح مسارات الشخصية الإسلامية صحيحة وسليمة وفعالة، دون انحراف فكرى أو شطط عملى، ويكون ذلك بتطعيم الشخصية الإسلامية بقواعد من المفاهيم والموازين والقواعد والتصورات والاعتقادات،وتلك تشكل قواعد لضبط التفكير والعمل للشخصية الإسلامية.

أ ـ تأسيس الفهم السليم:

وهنا يجب أن يؤسس الفهم السليم على أسس وقواعد تضبط طبيعة الفهم والاستبصار للشخصية الإسلامية ومن هذه الأسس:

١ ـ الفهم الشامل: وهو أن يؤسس فهم الشخصية الإسلامية على الشمول فى فهم الإسلام وطبيعته، وكذلك فهم الاتجاهات العملية الشاملة للحركة الإسلامية، فيكون ذلك الفهم الشامل واضحاً فى الاتجاه الشامل العملى للدعاة بحيث لا يكون غائماً فى ذهن الشخصية الإسلامية.

فيجب أن يفهم أن أحكام الإسلام وتعاليمه ونظمه شاملة تنظم شؤون الناس فى الدنيا والآخـــــرة ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ (١)، لذا قال الإمام البنا فى رسالة التعاليم : «الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً: فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء»(٢).

٢ـ الفهم المتكامل: وهو تأسيس فهم الشخصية الإسلامية على التكامل الموزون فلا يتطرف الفهم تجاه أمور فى الإسلام دون أمور أخرى، فالذى يظن أن التعاليم الإسلامية والفكرة الإسلامية تتناول الناحية العبادية أو الروحية دون غيرها من النواحى مخطئ فى هذا الظن، وكذلك التطرف فى الجانب السياسى أو الجانب الفكرى دون التكامل والالتئام فإن ذلك يُكَوِّن لدينا فهماً وعقليات روحية أو سياسية أو فكرية، وهذا بالتالى ينسحب على طبيعة التفكير والفهم بين صفوف جند الله، فالشخصية الإسلامية يجب أن يؤسس الفهم فيها على التكامل دون التجزؤ، «فهم بعض الناس خطأ أن الإسلام مقصور على ضروب من العبادات أو أوضاع من الروحانية وحصروا أنفسهم وأفهامهم فى هذه الدوائر الضيقة من دوائر الفهم المحصور»(٣).

٣ـ الفهم الدقيق: ومن الأسس التى يصاغ حولها الفهم للشخصية الإسلامية تأصيل الفهم الدقيق، فالشخصية الحزبية تحتاج فى أداء مهمتها ووظيفتها الحركية تجاه أهدافها إلى عدة قوية من الفهم الدقيق الذى تكون دعائمه وأركانه كثيرة «أهمها نظرتان اثنتان. الأولى: فهم الداعى غايته فى الحياة ومركزه بين البشر. والثانية: تجافيه عن دار الغرور

---

(١) القصص: ٧٧.

(٢) مجموعة الرسائل ص١١.

(٣) مجموعة الرسائل ص١١٤.

وتعلقه بالآخرة»[١] يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٢]، فالفهم الدقيق يقتضى من ذلك أن الغاية عبادة الله وحده ومنها الجهاد فى سبيله والدعوة إليه وعمارة الأرض بفعل الخير وهداية الحيارى إلى الحق ووراء كل ذلك الغاية العظمى وهى ابتغاء الله وحده جل جلاله.

ومع هاتين النظرتين يكون التيقن من زوال الدنيا ومفارقتها والتيقن من لقاء الآخرة وبقائها، ثم يقارن الأمرين فيؤثر الآخرة على الدنيا ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[٣]، واستحضار هذه الغاية فى الذهن فقط غير مُجْدٍ؛ بل على المسلم أن يقطع التسويف وطول الأمل حتى يحس بالغربة فى هذه الدنيا وأنه قد يرحل عنها فى أية ساعة.

وبالتالى فالفهم الدقيق يجب أن تصاغ حوله الشخصية الإسلامية؛ حتى تتعرف تعريفاً صحيحاً على غاية المسالك التى تسلكها فى الحياة اليومية.

٤ ـ **الفهم مقيد بالكتاب والسنة:** وحتى لا تنحرف الشخصية الإسلامية فى المسار العملى وطبيعة التفكير؛ فإن الفهم يجب أن يقيد بالكتاب والسنة، وأن يصبح طبيعة ما يفهمه الفرد مقروناً بها فى آيات الله سبحانه وتعالى من ضوابط وتصور، وسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وأن يكون مصدر الفهم والاستجلاب للمعرفة وحدود التبصر والتفهم فى نطاق كتاب الله سبحانه وتعالى والسنة الكريمة.

وقد قال الإمام البنا: «فافهم ما شئت بعد ذلك وأنت فى فهمك هذا مقيد بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرة السلف الصالحين من المسلمين، فأما كتاب الله فهو أساس الإسلام ودعامته، وأما سنة رسوله فهى مبينة للكتاب وشارحة له، وأما سيرة السلف الصالح فهم رضوان الله عليهم منفذو أوامره والآخذون بتعاليمه»[٤].

---

(١) أصول الدعوة ـ عبد الكريم زيدان ص٣١٧.

(٢) الذاريات: ٥٦.

(٣) النحل: ٩٦.

(٤) مجموعة الرسائل ص١١٤.

ب ـ تكوين التصور والاعتقاد:

ويكون هذا من خلال عدة نقاط أهمها:

١ـ تكوين التصور الأصيل: وهنا يجب أن تؤسس الشخصية الإسلامية تأسيساً صحيحاً وحقيقياً فى تصورها حول حقيقة الألوهية وعلاقتها بالخلق وعلاقة الخلق بها وكذلك باستيضاح ومعرفة طبيعة الخصائص والصفات الإلهية المتعلقة بالخلق والإرادة والهيمنة والتدبير، ثم معرفة حقيقة الصلة بين الله والإنسان وكسر جميع التصورات الباطلة والفاسدة التى أسستها الحضارة الغربية المادية.

وتكوين هذا التصور مهم للشخصية الإسلامية لأن الشخصية الإسلامية؛ تواجه مشكلات الحياة وما فيها من تأثيرات فكرية وحزبية ومؤثرات شخصية ونفسية، فهى ضرورية؛ لأن الشخصية الإسلامية تحتاج إلى تفسير شامل للوجود يتعامل المسلم على أساسه مع هذا الوجود ولمعرفة حقيقة مركز الإنسان فى هذا الوجود الكونى وغاية وجوده؛ وبالتالى سيتحدد من ذلك منهجية تلك الشخصية فى الحياة ونظام سيرها وانضباطها وعلاقتها.

٢ـ تكوين الاعتقاد السليم: وهذه النقطة ربما تكون تابعة لسابقتها، ولكن لا بد من دراسة إيمانية وعقائدية لتفصيلات وقواعد العقيدة الإسلامية؛ لمعرفة حقيقة التوحيد والشرك وصفات الله سبحانه وأسمائه، والرسل أو النبوات، وكذلك قضايا الإيمان وهى الأركان الستة بما فيها الملائكة والكتب واليوم الآخر والقضاء والقدر، وأن تكون تلك وفق دراسة منهجية سليمة حتى يصبح اعتقاده سليماً يطابق اعتقاد أهل السنة والجماعة والسلف الصالح رضوان الله عليهم.

٣ـ تصور أثر القدر: وهذا أمر ضرورى إذ إن من مظاهر انحرافات الشخصية الإسلامية التذبذب فى تصور أثر القدر على النفس والعقل والأعمال؛ ولذلك يجب أن تبنى الشخصية الإسلامية على الوضوح التام فى أمور القضاء والقدر، فهذا يجعل تلك

الشخصية ثابتة غير مترددة لديها العزم لا تندم على ما فات إلا عن ذنب تستغفر منه، شجاعة جريئة أمام الموت والجهاد، شخصية متفائلة راضية لا تتشاءم وبالتالى تتحرر الطاقة العملية فى الشخصية الإسلامية من القيود الفكرية والتصورات غير السليمة.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ (١)، وقال سبحانه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ (٢).

٤ـ التصور القرآنى: ألا تعتمد الشخصية الإسلامية على الأسلوب العقلى أو التجريبى أو الظن فى تكوين التصور؛ بل تعتمد اعتماداً كلياً فى ذلك على القرآن الكريم، وليست هناك مقررات سابقة نحاكم إليها كتاب الله إنما نحن نستمد مقرراتنا من هذا الكتاب ابتداء، ونقيم على هذه المقررات تصوراتنا، وهذا وحده هو المنهج الصحيح فى مواجهة القرآن الكريم ففى استلهامه خصائص التصور الإسلامى ومقوماته» (٣).

٥ـ التأثير العملى للاعتقاد السليم والتصور الأصيل: هذا التصور والاعتقاد لا بد من خروجه إلى حيز الواقع فى صور عملية وواقعية وهذا ما يجب أن تتربى وتتكون حوله الشخصية الإسلامية للحركة والعمل والدعوة، فبالإضافة إلى أن عقيدة التوحيد تنظم الحياة النفسية للفرد وتوحد نوازعه وتفكيره وأهدافه فإنها تجعل كل عواطفه وسلوكه وعاداته وأعماله قوى متضافرة متعاونة ترمى كلها إلى هدف واحد هو الخضوع لله وحده والشعور بألوهيته وحاكميته وقدرته، فالمؤمن الموحد يمتاز بعزة النفس لا يستعبده جاه ولا مال ولا حزب ولا يذل لأحد من الطواغيت، تربى عقيدة التوحيد فيه التواضع وعدم التطرف أو الغرور، وكذلك تربى عقيدة التوحيد الانتماء إلى الله والاعتزاز به وموالاته والانضواء تحت لوائه، فالمؤمنون هم أنصار الله وهو وليهم وأى شىء أعظم من الانتماء

(١) آل عمران: ١٤٥.
(٢) يس: ١٨، ١٩.
(٣) خصائص التصور الإسلامى ـ سيد قطب ص١٥.

إلى خالق الكون وقاصم الجبابرة ومالك الموت والحياة ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[1]، وهذا الولاء يربى النفس دائماً على أن تكون فى حرب مع الشر والشيطان وأتباعه، قال عز من قائل: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[2].

ولكى يتم الاعتزاز بالله والانتماء إلى الله وموالاته لابد من محاربة حزب الشيطان فإن الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين من تمام توحيده وعبادته.

جـ ـ إحكام الفكر الإسلامى من أخطر الأمور فى حياة الدعاة لذا فهو يحتاج إلى جملة عناصر أهمها :

١ـ تنظيم عملية الفكر والتفكير: حتى لا تختلط المفاهيم فى أولوياتها أو طبيعتها التنفيذية والعملية فإنه يجب إحكام الفكر للشخصية الإسلامية بحيث تنتظم العلاقات بين حقائق الفكر الإسلامى «إذ إن لكل حقيقة فى الإسلام حداً لا ينبغى تجاوزه»[3].

فالرسول ﷺ حرص ألا يطغى مفهوم على مفهوم تحقيقاً للإحكام بين المفاهيم مثال قولهﷺ:«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» ثم قرأ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[4]، وذلك حتى لا تطغى مهمة القتال على مهمة التذكير فى فهم الناس ولذلك يجب تنسيق وتنظيم الفكر للشخصية الإسلامية حتى لا تصبح طريقة الممارسة الفكرية للشخصية الإسلامية متفاوتة فى النظر والحكم على الأمور والأشياء واتخاذ القرارات (وأساس الإحكام الفكرى فى الإسلام هو أن تكون كل الحقائق متجهة نحو غاية واحدة ولتحقيق ذلك يجب قياس كل حقيقة إلى غايتها فمثلاً حقيقة الإيمان

---

(١) المائدة: ٥٦.

(٢) المجادلة: ١٩.

(٣) حكمة الدعوة ـ رفاعى سرور ـ ص٢٠ مكتبة وهبة.

(٤) رواه البخارى (١٣٩٩)، ومسلم (٢٠) عن أبى هريرة رضي الله عنه. الغاشية :٢٠، ٢١ .

تقاس بقول لا إله إلا الله بدليل قول الرسول ﷺ: «**الإيمان بضع وستون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق... والحياء شعبة من الإيمان**»[١]، وهذا الإحكام الفكرى هو الذى سيجعل الشخصية الإسلامية تحدد مواقفها وطريقة عملها مع الواقع وعندما يحدث التسيب لطبيعة الفكر فى الشخصية الإسلامية فإن حقائق الفكر لن تنتظم فى الشخصية الإسلامية مما يؤدى بعد ذلك إلى نتائج مدمرة فى الواقع، ومثال ذلك المجموعة الشمسية وما بينها من تجاذب فإن أى خلل يحدث لأى كوكب فإن المجموعة الشمسية ستتدمر طبيعياً ،وهكذا فإن الشخصية المسلمة نتيجة لعدم الإحكام الفكرى قد تكون الفتيل الذى يفجر خط الحركة فى الدعوة إلى الله والتاريخ يشهد على ذلك.

٢ـ الفكر وقدر الله[٢]: يجب أن تؤسس جوانب الفكر فى الشخصية الإسلامية على تحديد العلاقة بين الفكر ذاته وبين القدر الإلهى وذلك :

أ ـ أن التفكير البشرى مجرد سبب قد يحدث القدر بدونه، وقد يحدث بما يخالفه فهذا يونس عليه السلام يفكر فى الخلاص من قومه بالسفينة فتكون هذه السفينة بقدر الله سبب هلاك؛ إذ يلقى منها فى البحر فيلتقمه الحوت، وهو بتفكير البشر سبب هلاك ليكون بقدر الله سبب نجاة؛ إذ النتيجة أن القدر الإلهى مطلق والتفكير البشرى محدود ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾[٣].

ب ـ كذلك فإن التكاليف الشرعية هى التى تتضمن الأسباب القدرية لتحقيق الواقع، وهذا رسول الله ﷺ تسأله اليهود عن الروح فيقول: سأخبركم غداً ولا يقول إن شاء الله فلا ينزل الوحى إلا بعد فترة. الرسول ﷺ يحزن فيها حزناً شديداً ويقول فيها اليهود: ذهب عنه شيطانه، ولما نزل الوحى بالإجابة نزل ومعه تصحيح وتحديد السبب الذى من أجله تأخر النزول.

---

(١) حكمة الدعوة ص٢١، والحديث أخرجه البخارى (٩)، ومسلم (٣٥) عن أبى هريرة رضي الله عنه .
(٢) راجع حكمة الدعوة « سابق ».
(٣) المائدة: ٥٢.

جـ - تحديد السنن القدرية الثابتة، وذلك بنصوص الكتاب والسنة لتحقيق التوافق معها فى مجال الحركة الإسلامية، فقد كان الأسلوب القتالى مرتبطاً بسنن إهلاك الكفار لتحقيق المعنى القدرى للقتال وهو أنه عذاب للكفار بأيدى المسلمين ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾[(١)].

د - وكذلك رفض التفكير البشرى الذى لا يقوم على أصل شرعى أو سنة قدرية ثابتة فهذا سيتحول بالشخصية الإسلامية إلى طبيعة مادية ويفقدها صفة الربانية، وقد رفض رسول الله ﷺ رجلاً مشركاً يريد القتال مع المسلمين وهم بحاجة إلى العدد فقال له: «ارجع فإنى لا أستعين بمشرك»[(٢)] وبالتفكير المادى فى الموقف كان يمكن مشاركة هذا الرجل؛ إذ يجب أن تحدد صيغة التفكير للشخصية الإسلامية بحيث يحدث التوازن بين الفكر والقدر الإلهى.

٣- تكوين الفرد المفكر: وهنا يجب أن تؤسس الشخصية الإسلامية على النمط الإسلامى والطبيعى الصحيح للتفكير وتكون لديه القدرة على الفهم استنباط الغايات من النصوص عند قراءتها أو سماعها أو مدارستها، فالرسول ﷺ يبين فى الحديث العلاقة بين المسلم وبين ما يقرأ أو يسمع أو يتدارس من القرآن، وعندما سمع بلالاً يقرأ قال: «إن مثل بلال كالنحلة تأكل طيباً وتضع طيباً ثم هو حلو كله»[(٣)]. وهذا التصوير يحدد لنا مهمة وأسلوب وطبيعة تفكير الشخصية الإسلامية فى فهم النص على أنها استخراج من رحيق القرآن، وأى محاولة للفهم دون التدبر والاستخلاص والمعاينة وانتقاء الغايات من بين ثنايا النصوص ستكون غير مجدية وهذا ما عاب به رسول الله ﷺ قوماً حين قال: «يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم»[(٤)] ومن الواجب أن تؤسس الشخصية الإسلامية بطبيعتها

(١) التوبة: ١٤.

(٢) رواه مسلم (١٨١٧)، وأبو داود (٢٧٣٢)، والترمذى (١٥٥٨)، وابن ماجه (٢٨٣٢) عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه الطبرانى فى الأوسط (١٧٩) عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٩/ ٣٠٠): «رواه الطبرانى فى الأوسط وإسناده حسن».

(٤) أخرجه البخارى (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤)، وأبو داود (٤٧٦٤) عن أبى سعيد الخدرى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

التفكيرية السليمة على استخلاص الفهم الواضح النقى الطيب.

٤ـ تنمية الأسس التفكيرية: ويجب أن تُتَبَنَّى مجموعة من الأسس التفكيرية للشخصية الإسلامية منها:

١ــ المرونة الفكرية أو التفكير المنطقى: أى تكوين القدرة على حسن المحاكمة والاستدلال، فالآيات والأحاديث التى تحفظ وتفهم عندما يفكر فى تطبيقها على الواقع، فإن كانت قاعدة عامة حصل القياس {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}[1] فيستنتج من هذه القاعدة أنه يلاقى نفس المصير.

٢ ـ التفكير قبل العمل: وهذا يجعل الشخصية الإسلامية تتقن دراسة جزئيات الأمور دراسة جيدة وهادفة ومنتجة، فتكون لديها المنهجية والوعى السليم والتقييم قبل التنفيذ.

٣ـ الاتساع فى التفكير: وهذا يجعل القدرة التفكيرية لدى الشخصية الإسلامية غير محددة، فيكون عطاؤها للدعوة أعظم والأمل فى إنتاجها الفكرى أوسع وأعمق.

٤ـ الاستيعاب الكافى: فإن استجلاب المفاهيم والتصورات إذا كان ناقصاً ومبتوراً أو مشوهاً أو غير مقنع فإن ذلك يحدث الضعف والتفريط فى صيغة التفكير ويؤدى إلى ضعف فى إصدار القرارات والأحكام.

د ـ صياغة جيدة للعقلية الإسلامية: أن العقلية الإسلامية إحدى مقومات الشخصية الإسلامية ، وهى قاعدة هامة للفرد المسلم تعكس مفاهيم الإسلام وأحكامه، وينبغى صياغتها على أن تكون:

١ـ عقلية واقعية: وهى العقلية التى تواجه الناس بالواقع لا المثاليات أو الفلسفات النظرية، ولذلك يجب أن نؤسس العقلية الإسلامية بحيث تكون واقعية، فنخاطب القلوب بعرض الحقائق عليها عرضاً عملياً واقعياً محسوساً لا نظرياً، (فمن حق الداعية أن يواجه الواقع العملى ويصلح بسنة الله ما شذ عن سنة الله فى بساطة لا تعقيد فيها ولا

(١) العنكبوت: ٥٧.

تكلف، ألا ترى أن الله عز شأنه حين عرض علينا الحقائق والمعانى والفلسفات عرضها عرضاً عملياً محسوساً ولم يعرضها عرضاً نظرياً، فقدرته مثلاً لم يحدثنا عن كنهها وكيفها وعن أسرارها الخفية ومعانيها التجريدية بل عرضها عرضاً سافراً فى مخلوقاته فأنت تراها فى البحر والجبل والزهر والشجر والشمس والقمر..) [1]. فالعقلية الواقعية هى التى تؤثر وتتأثر بالواقع إيجابياً.

٢ـ عقلية غيبية علمية: ويجب أن تؤسس العقلية الإسلامية على الاتزان بين العقلية الغيبية والعقلية العلمية بما وزنه الإسلام، فالعقلية الإسلامية لا تؤمن بالخرافة لتفسير الغيبيات ولا المنهج التجريبى العلمى المادى، فالإسلام وضح الغيب بما يلائم عقلية المسلم وأمره بالعلم والعمل تجاه ذلك الغيب (هذا الموقف من الإسلام الحنيف ألزم العقل البشرى لوناً من ألوان التفكير هو أكملها وأتمها وأكثرها انطباقاً على واقع الحياة ومنطق الكون، وأعظمها نفعاً لبنى الإنسان، ذلك هو الجمع بين الإيمان بالغيب والانتفاع بالعقل.. وإلى هذا اللون من التفكير الذى يجمع بين العقليتين الغيبية والعملية ندعو الناس أن يمزجوا المادة بالروح وأن يؤمنوا بالغيب والشهادة وأن يتعرفوا من جديد على الله ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ ﴾ [2].

٣ـ عقلية استقلالية: العقلية الإسلامية للشخصية الإسلامية يجب أن تكون متميزة وفريدة من نوعها، لها نمط الاستعلاء والطبيعة الذاتية لا التقليدية الجاهلة، نريد أن نفكر تفكيراً استقلالياً يعتمد على أساس الإسلام لا على أساس الفكرة التقليدية التى جعلتنا نتقيد بنظريات الغرب واتجاهاته فى كل شىء (نريد أن نتميز بشخصيات حياتنا كأمة عظيمة مجيدة) [3].

وإن الاستقلالية لتعطى العقلية الإسلامية مدى فى ممارسة الواقع الصحيح فلا تصطبغ الحياة

---

(١) تذكرة الدعاة للبهى الخولى ـ ص٤٣.

(٢) مجموعة الرسائل ص٧٧، ٧٨، والآية من سورة الذاريات: ٥٠.

(٣) المرجع السابق ص٩٣.

بأنماط الحياة الغربية، بل بأنماط الحياة الإسلامية، فالعقلية الإسلامية تدفع إلى إطلاق التعبيرات والأسماء على مظاهر الحياة بالنمط الإسلامى، فالتقليد الجاهل يطفئ نور الاستقلالية.

٤ـ عقلية متفكرة معتبرة: العقلية الإسلامية عقلية تتفكر فيما تسمعه وفيما تقرؤه من نصوص فى كتاب الله عز وجل، وتعتبر اعتباراً يحيى القلب ويدفع للعمل، بل إنها تتأثر من ذلك فتجدها باكية مما عرفت من الحق، فالشخصية الإسلامية يجب أن تملك عقلية متدبرة تدبر المؤمنين وتتعظ موعظة المتقين، (وأما القائمون لله بحجة خلفاء نبيه فى أمته فإنهم لكمال علمهم وقوته نفذ بهم إلى حقيقة الأمر وهجم بهم عليه فعاينوا ببصائرهم ما غشيت عنهم بصائر الجاهلين، فاطمأنت قلوبهم به، وعملوا على الوصول إليه لما باشرها من روح اليقين ودلهم إلى الله، واستيقنت أنفسهم ما وعدهم به ربهم فزهدوا فيما سواه ورغبوا فيما لديه، علموا أن الدنيا دار ممر لا دار مقر، ومنزل عقوق لا مقعد حبور وأنها خيال طيف أو سحابة صيف) [١]، (ويقوم الفهم الدقيق على تدبر معانى القرآن وإطالة النظر فيها وترديدها والوقوف عندها والتغلغل فى مراميها ومقاصدها فإن الله أنزل كتابه ليتدبر الناس آياته لا مجرد أن يتلوه بلا فهم ولا تدبر، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [٢] إن تلاوة القرآن بتدبر وإمعان تعرف المسلم بالرب الذى يدعو إليه) [٣].

ومن خصائص هذه العقلية الالتفات إلى الآثار والأطلال والذكريات والمغلفات والشخصيات والصراعات للوقوف الحى المنتبه فيناجيها ويستخبرها ما فعل الليل والنهار فيتحرك القلب وتتحرك الجوارح ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [٤].

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ١٤٨ .
(٢) ص: ٢٩.
(٣) أصول الدعوة « سابق» ص٣١٧.
(٤) ق: ٣٧.

٥ـ عقلية حركية عملية: إن جمود العقلية الإسلامية وأسرها فى نطاق النظرية والترف العقلى البارد دون أن تنطلق تلك العقلية من جمودها لتكون طاقة فياضة بالعمل والحركة والدعوة والجهاد يعوق الشخصية الإسلامية عن الحركة الصحيحة. ولذلك يقول الإمام البنا رحمه الله: (ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول، وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف، وألزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع) [١].

(قال أحمد بن داود أبو سعيد الواسطى: دخلت على أحمد بن حنبل الحبس قبل الضرب فقلت له فى بعض كلامى: يا أبا عبد الله.. عليك عيال ولك صبيان وأنت معذور ـ كأنى أسهل عليه الإجابة ـ فقال لى أحمد بن حنبل: إن كان هذا عقلك يا أبا سعيد فقد استرحت» وما أكثر ما يقال مثل هذا للدعاة اليوم»[٢].

فانظر إلى علم أحمد ـ رحمه الله ـ وثقافته وفهمه، كل ذلك جعل الإمام أحمد يطلق عقليته من وضع الاستراحة إلى وضع البلاء والشدة والصبر والدعوة، وهكذا يجب أن تتحول العقلية للشخصية الإسلامية نحو الاتجاه الحركى لتحقيق أهداف أنصار الله دون الجلوس للحوقلة وتجميع الفكر والعلم البارد.

خلاصة ضوابط التفكير واتجاهات العمل:

وبعد ذلك السرد لضوابط التفكير واتجاهات العمل الإسلامى نقرر بأنه يجب أن يتبع حزب الله مقررات ومناهج وممارسات تربوية تحوى مفاهيم وقواعد وتصورات لتشكيل ضوابط التفكير واتجاهات العمل للشخصية الإسلامية حتى تسير سيراً محكماً سديداً فى مواجهة حزب الشيطان وطرقه وأساليبه.

وقد وضع الإمام البنا ـ رحمه الله ـ عشرين أصلاً تحكم فهم وتصور الأخ الحركى، وذلك فى رسالة التعاليم الموضوعة فمن (مجموعة الرسائل من ص١١ ـ ٦١) يضبط فيها

---

(١) مجموعة الرسائل ،ص٢٨٢.

(٢) المنطلق ص٢٣٢، محمد أحمد الراشد.

فهم جندى الدعوة وتصوره تجاه مختلف القضايا والمؤثرات، كما أن الإمام البنا ـ رحمه الله ـ سعى إلى توضيح طبيعة العقلية الإسلامية فى مباحث عدة من رسائله، ووضع رسالة العقائد لتكون منهجاً لتكوين الاعتقاد السليم للإخوان.

ثانياً: تكون الثقافة والعلم الشرعى:

ولصياغة الشخصية الإسلامية ينهج أنصار الله إلى تكوين الثقافة والعلم الشرعى، وذلك لتكوين العلم الدافع إلى العمل على بصيرة ويقين.

قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [1] فالعلم قبل العمل؛ لأن العمل لا يكون صحيحاً إلا بانطباقه مع العلم، وسبق العلم ضرورى حتى يعرف المسلم مقصد ما يريد عمله؛ إذ إن كل ما تقوم به الشخصية من عمل منسوب إلى المنهج والرسالة وبالتالى منسوب إلى الله سبحانه وتعالى، فيجب أن يكون ذلك العمل على بصيرة، فهنا يجب أن يعلم شرع الله حلاله وحرامه، وما يجوز وما لا يجوز وما يسوغ فيه الاجتهاد وما لا يسوغ ولتطعيم الثقافة والعلم الشرعى فى الشخصية الإسلامية، تراعى أمور عديدة منها:

أ ــ تكوين أخلاق العلم وآدابه وقواعده وذلك من خلال:

١ ـ العلم والأدب: يجب أن تطبع الشخصية الإسلامية بالأدب أثناء تلقى العلم، وأن يكون ذلك العلم، سبباً إلى تأديب النفس، فالأدب ومكارم الأخلاق غاية مهمة فى اكتساب العلم (إن أهم ما يبادر به اللبيب نفسه فى تحصيله واكتسابه، حسن الأدب الذى شهد الشرع والعقل بفضله، وإن أحق الناس بهذه الخصلة الجميلة وأولاهم بحيازة هذه المرتبة الجليلة أهل العلم) [2]، (قال ابن سيرين ـ رحمه الله: كانوا يتعلمون الهدى كما يتعلمون العمل، وقال الحسن ـ رحمه الله ـ إن كان الرجل ليخرج فى أدب نفسه السنتين ثم

---

(١) محمد: ١٩.

(٢) تذكرة السامع والمتكلم ص١، ٢ لابن جماعة الكنانى ـ دار الكتب العلمية.

السنتين، وقال حبيب بن الشهيد لابنه: يا بنى اصحب الفقهاء والعلماء وتعلم منهم وخذ من أدبهم فإن ذلك أحب إلىّ من كثير الحديث) [١].

لهذا كان لا بد من تأديب النفس مع طلب العلم عند صياغة الشخصية الإسلامية فيكون العلم للتأديب.

٢ ـ العلم للخشية: قال تعالى:﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [٢] وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۞﴾ إلى قوله:﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۞﴾ [٣] فاقتضت الآيتان أن العلماء الذين يخشون الله تعالى هم خير البرية، فينتج أن العلماء هم خير البرية[٤].

إن الشخصية الإسلامية عندما تكتسب العلم، يجب أن يصبغها ذلك العلم بالخشية والخوف، فتصبح الشخصية الإسلامية شخصية علمية حية تتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وتراعى حدوده وأوامره، وتكون الخيرية الإيمانية لتلك الشخصية.

٣ ـ العلم للعمل: العلم الذى تستجلبه الشخصية الإسلامية لا بد أن يكون دافعاً للعمل. قال تعالى :﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٥].

والخطيب البغدادى ـ رحمه الله ـ فى وصيته لطالب العلم يقول: (ثم إنى موصيك يا طالب العلم بإخلاص النية فى طلبه، وإجهاد النفس على العمل بموجبه فإن العلم شجرة والعمل ثمرة، وليس يعد عالماً من لم يكن بعلمه عاملاً) [٦]، وقال سهل بن مزاحم: (العالم أشد عذاباً إذا ترك ما علم فلم يعمل به) [٧].

وفى الحديث الموقوف بسند حسن، قال ابن مسعود:(تعلموا تعلموا فإذا علمتم

---

(١) المرجع السابق نفسه.
(٢) فاطر:٢٨ .
(٣) البينة:٧، ٨.
(٤) المرجع السابق ص٦.
(٥) الزمر: ٩.
(٦) اقتضاء العلم العمل ـ ص١٤.
(٧) المرجع السابق ص١٥.

فاعملوا) [١]، وقال رسول الله ﷺ:«**إن أناساً من أهل الجنة يتطلعون إلى أناس من أهل النار، فيقولون بم دخلتم النار فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمناه منكم؟ فيقولون: إنا كنا نقول ولا نفعل**» [٢].

وهكذا تتحول الشخصية الإسلامية إلى شخصية حركية لا يقعدها طلب العلم عن الحركة والانتشار ولا يثقلها وزن العلم عن العمل.

٤ ـ **العلم للفقه**: أشد ما تحتاجه الشخصية من العمل هو فقه هذا العلم والتبصر به وحسن الاستنباط، وهذا يجعل الشخصية الإسلامية تستفيد بالعلم فقهاً فى الحركة والعمل لا تعلماً لتكوين المعلومات وإكثارها دون فقه ذلك العلم ومعرفة أبعاد جزئياته وأثره التطبيقى فى الواقع.

قال رسول الله ﷺ:«**من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين**» [٣]، (وعن ابن عمر: مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة. وعن الزهرى ـ رحمه الله:ما عبد الله بمثل الفقه) [٤].

٥ـ **العلم للعبادة**: لا شك أن العلم يدفع العالم للعبادة والتقرب إلى الله بالطاعات؛ لأنه يعرف أبعاد تلك العبادة وأجرها، بما يعلمه من نصوص. وهكذا نريد من الشخصية الإسلامية أن تتعلم وتطلب العلم لتسارع بالطاعات والعبادات إلى الله وتحس بلذة العبادة من خلال العلم.

٦ـ **العلم لله سبحانه وتعالى**: وتعلم العلم يجب أن يكون خالصاً لله سبحانه وتعالى لا للمماراة والجدال والمغنم الدنيوى والمركز، وهذا يجعل الشخصية الإسلامية ـ مهما تطاولت

---

(١) المرجع السابق ص٢٣، والموقوف أخرجه الدارمى فى سننه (٣٦٦) ، وابن أبى شيبة فى المصنف (٣٤٥٤٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٢٢/ ١٥٠) (٤٠٥) ، والطبرانى فى الأوسط (٩٩) عن الوليد بن عقبة رضي الله عنه، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/ ١٨٥) : «رواه الطبرانى فى الكبير ومنه أبو بكر عبد الله ابن حكيم الداهرى وهو ضعيف جَدًا».

(٣) سبق تخريجه .

(٤) تذكرة السامع والمتكلم للكنانى ـ ص١٢.

فى العلم ـ شخصية حركية فليس علمها على حساب حركتها؛ لأن العلم ـ وإن علت درجته ـ لا يعتبر مانعاً من الانقياد لما يريده الدعاة،فالعلم لله يوظفه صاحبه حيث وضع له.فقد روى عن النبى ﷺ قوله:«**من طلب العلم ليمارى به السفهاء أو يكاثر به العلماء أو يصرف به وجوه الناس إليه، أدخله الله النار**»[(١)].

(وعن حماد بن سلمة: من طلب الحديث لغير الله تعالى مكر به) [(٢)]، (واعلم أن جميع ما ذكر من فضل العلم والعلماء إنما هو فى حق العلماء العاملين الأبرار المتقين الذين قصدوا وجه الله الكريم والزلفى لديه فى جنات النعيم، لا من طلبه بسوء أو خبث طوية أو لأغراض دنيوية من جاه أو مال أو مكاثرة فى الأتباع) [(٣)]. نسأل الله أن يهدينا سواء السبيل إنه ولى ذلك والقادر عليه.

٧ـ العلم لكى يكون قدوة: والشخصية الإسلامية يجب أن تكون ظاهرة للعيان بسمتها وأدبها وتكون قدوة لغيرها، فالعلم يكسب الشخصية ذلك المظهر (كتب مالك إلى الرشيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إذا علمت علماً فلير عليك علمه وسكينته وسمته ووقاره وحلمه لقوله ﷺ: «**العلماء ورثة الأنبياء**»[(٤)] وعن السلف: حق للعالم أن يتواضع لله فى سره وعلانيته ويحترس من نفسه ويقف على ما أشهر عليه) [(٥)] (فإن العلماء هم القدوة وإليهم المرجع فى الأحكام وهم حجة الله تعالى على العوام،وقد يراقبهم للأخذ عنهم من لا ينظرون،ويقتدى بهديهم من لا يعلمون) [(٦)].

٨ ـ طلب العلم للحركة، وإعادة إحياء الإسلام ودعوته: قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ

(١) أخرجه الترمذى (٢٦٥٤) عن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الترمذى: « غريب »، وحسنه الألبانى.
(٢) تذكرة السامع والمتكلم ص١٤.
(٣) المرجع السابق ص١٣.
(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذى (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) عن أبى الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال ابن الملقن فى البدر المنير (٧/ ٥٨٩): « روى هذا الحديث بأسانيد صالحة ».
(٥) تذكرة السامع والمتكلم ص ١٥، ١٦.
(٦) المرجع السابق ص ٢١.

وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ﴾ (١) قال ابن القيم: (فمن طلب العلم ليحيى به الإسلام فهو من الصديقين ودرجته بعد درجة النبوة)، ويقول ابن جماعة الكنانى فى وصف العالم وأدبه: (أن يحافظ على القيام بشعائر الإسلام وظواهر الأحكام كإقامة الصلاة فى المساجد للجماعات، وإفشاء السلام للخواص والعوام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على الأذى بسبب ذلك، صادعًا بالحق عند السلاطين باذلاً نفسه لله لا يخاف فيه لومة لائم، ذاكرًا قوله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢)، وما كان سيدنا رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء عليه من الصبر على الأذى، وما كانوا يتحملون فى الله تعالى حتى كانت لهم العقبى، وكذلك القيام بإظهار السنن وإخماد البدع والقيام لله فى أمور الدين وما فيه مصالح المسلمين) (٣).

٩ـ العلم للتزود للآخرة: والشخصية الإسلامية بالعلم تتزود للآخرة للنجاة من النار، وهذا العلم الذى تعلمته يجب أن تستخدمه للتزود، (ومن العلم العزيز علم طريق الآخرة الذى يهيج القلب ويزعجه ويدفعه إلى سلوكه ويشعر صاحبه بغربته فى الدنيا وقرب رحيله عنها إلى سفر بعيد لا يرجع بعده إلى دنيا ولا ينفع فيه زاد إلا التقوى، ولذلك فهو دائمًا مشغول بإعداد هذا الزاد متطلع إلى مصيره إلى نار جهنم أم فى دار النعيم؟ويكون دائمًا بين الخوف والرجاء خوف العالم المعارف) (٤).

١٠ـ العلم للقيادة والاستمكان: فإن الشخصية الإسلامية هى التى ستقود مسيرة الدعوة، وستصارع بعلمها وفكرها جميع النظريات الحزبية الأخرى، أو ستستخدم ذلك العلم للإقناع وجلب الأنصار أو تستخدم ذلك العلم لقيادة أنصار الله إلى الطريق السليم

---

(١) النساء: ٦٩.

(٢) لقمان: ١٧.

(٣) تذكرة السامع والمتكلم ص٢٠، ٢١.

(٤) أصول الدعوة ص ٣١٦ « سابق ».

والاستمكان فى المواطن القيادية يكون بالعلم، (ونظير هذا ما فعله الله بنبيه يوسف \ لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم، أظهر للملك وأهل مصر كلهم من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير، فعندئذ قدمه ومكنه وسلم إليه خزائن الأرض وأطلقه من الحبس ومكنه فى الأرض) [١].

بهذه الآداب والأخلاق والأسس يمكن تطعيم الشخصية الإسلامية بعد ذلك بشتى أنواع الثقافة الإسلامية والعلم الشرعى بعد تحديد الخطوط الرئيسة لاكتساب العلم حتى تصبح الشخصية الإسلامية شخصية ربانية فى تلقيها للعلم لا شخصية علمية مادية ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾ [٢].

ب ـ التطعيم بالعلم الشرعى:

يجب أن تتعلم الشخصية الإسلامية أنواع العلم الشرعى وبالأخص العلم السلفى، ومن أهم ما يجب أن تتلقاه من العلوم الشرعية:

١ـ يبتدئ بالقرآن وحفظه وينظر فى تفسيره نظرًا متوسطًا لا يخفى عليه بذلك منه شىءٍ.

٢ـ أصول الحديث من حيث النقل كالصحاح والمسانيد والسنن، ومن حيث علم الحديث كمعرفة الضعفاء والأسماء فينظر فى أصول ذلك.

٣ـ التواريخ ليعرف ما لا يستغنى عنه كنسب الرسولﷺ وأقاربه وأزواجه وما جرى له.

٤ـ الفقه فلينظر فى المذاهب وأدلتها والأسس التى قامت عليها أصول الفقه والفرائض.

٥ـ ويكفيه من النظر فى الأصول (أى العقيدة) ما يستدل به على وجود الصانع فإذا أثبته وعرف ما يجوز عليه مما لا يجوز وأثبت إرسال الرسل وعلم وجوب القبول منهم فقد أتى على المقصود من علم الأصول) [٣].

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/ ٥٣.
(٢) آل عمران: ٧٩.
(٣) صيد الخاطر: ابن الجوزى ص١٦١.

وهكذا يجب أن يكتسب المسلم علمًا نافعًا من العلم السلفى وهو علم العقيدة وعلوم القرآن وعلم الحديث، وكذلك دراسة اللغة العربية لأنها لغة القرآن، ثم يتشاغل بالعلوم الشرعية الأخرى كالفقه وأصوله والقراءات والسيرة.

جـ ـ الثقافة الإسلامية:

ولابد للشخصية الإسلامية أن تسعى للحصول على قدر من الثقافة الإسلامية، وهذه الثقافة ضرورية لحاجة الداعى لها، وهذه الثقافة مكملة للعلم الشرعى وللعمل الحركى، فمن أنواع هذه الثقافة:

١ـ دراسة أنظمة الإسلام بشتى فروعها.

٢ـ دراسة التاريخ الإسلامى والحوادث والسير.

٣ـ التراجم والشخصيات الإسلامية منذ الصدر الأول للصحابة إلى اليوم.

٤ـ الثقافة التخصصية. هى الثقافة التى يحتاجها الداعى فى تخصصه الإسلامى أو غيره.

٥ـ علم الأخلاق والرقائق وكتب الجهاد والشعر والأدب.

٦ـ علوم اللغة العربية.

د ـ دراسات الفكر الإسلامى:

ولابد من تأسيس الفكر الإسلامى وقضاياه للشخصية الإسلامية، فالفكر الإسلامى ضرورى للداعية المسلم، فالصراع إضافة إلى أنه عقائدى فإنه أيضًا صراع فكرى، فيجب على الداعى معرفة فكرته بوضوح ودراسة وسائلها وأهدافها وغاياتها، فلابد من دراسته:

١ـ فقه الدعوة والحركة.

٢ـ الوعى بالحركات الإسلامية وغير الإسلامية.

٣ـ حاضر العالم الإسلامى.

٤ـ الدراسات الفكرية الإسلامية الحديثة.

٥ـ الثقافة المعاصرة: السياسية، والاقتصادية، والقانونية، والإنسانية.

٦ـ التخصصات المتصلة بشؤون الحياة، كالطب والهندسة والزراعة والتجارة كل حسب تخصصه العلمى والعملى.

هـ ـ تأسيس المهارات والعادات الفكرية والثقافية:

ولابد من أجل تكوين ذلك العلم والثقافة أن تؤسس فى الشخصية الإسلامية مجموعة من المهارات والعادات الفكرية والثقافية وذلك لتكوين أسلوب ووسيلة لجلب العلم والثقافة واكتساب المعلومات ، ومن ذلك:

١ ـ القراءة وحب الاطلاع.

٢ ـ السعى لطلب العلم من العلماء.

٣ ـ تدوين العلم والنسخ.

٤ ـ سماع العلم.

٥ ـ الحفظ.

٦ ـ التصنيف والتأليف.

٧ ـ جمع العلم والترتيب والتبويب.

٨ ـ الهمة فى طلب العلم والسهر عليه.

٩ ـ الصبر لطلب العلم.

يقول ابن الجوزى ـ رحمه الله: (أذكر نفسى ولى همة عالية وأنا فى المكتب ابن ست سنين وأنا قرين الصبيان الكبار قد رزقت عقلاً وافرًا فى الصغر يزيد على عقل الشيوخ، فما أذكر أنى لعبت فى طريق مع الصبيان قط، ولا ضحكت ضحكًا عاليًا، حتى أنى ولى سبع سنين أو نحوها أحضر رحبة الجامع فأطلب المحدث يتحدث فأحفظ جميع ما أسمعه، وأذهب إلى البيت أكتبه .. ولقد كان الصبيان ينزلون إلى دجلة ويتفرجون على الجسر وأنا فى زمن الصغر آخذ جزءا وأقعد عجزة من الناس فأتشاغل بالعلم، ولم أقنع بفن واحد بل كنت أسمع الفقه والحديث وأتبع الزهاد، ثم قرأت اللغة ولم أترك أحدًا ممن يعظ ويروى ولا

غريبًا يقدم إلا وأحضره وأتخير الفضائل، ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع نفسى من العدو لئلا أسبق، وكنت أصبح وليس لى مأكل وأمسى وليس لى مأكل ما أذلنى الله لمخلوق قط، ولو شرحت أحوالى لطال الشرح) (١).

بهذه الأمور تصاغ الشخصية الإسلامية وبالعلم الشرعى، يسعى أنصار الله إلى تأسيس ذلك فى شخصية أفراده إما بالتوجيه الفردى وإما بالبرامج الجماعية. وفى هذا يقول الإمام البنا ـ رحمه الله: (أن تحسن تلاوة القرآن والاستماع إليه والتدبر فى معانيه، وأن تدرس السيرة المطهرة وتاريخ السلف بقدر ما يتسع له وقتك، وأقل ما يكفى فى ذلك كتاب «حماة الإسلام» وأن تكثر من القراءة فى حديث الرسول ﷺ، وأن تحفظ أربعين حديثا على الأقل ولتكن الأربعين النووية، وأن تدرس رسالة فى أصول العقائد ورسالة فى فروع الفقه) (٢)، و(أن تجيد القراءة والكتابة وأن تكون لنفسك مكتبة خاصة مهما كانت صغيرة ،وأن تتبحر فى علمك وفنك إن كنت من أهل الاختصاص، وأن تلم بالشؤون الإسلامية العامة إلمامًا يمكنك من تصورها والحكم عليها حكمًا يتفق مع مقتضيات الفكرة) (٣).

ثالثًا: الإعداد الروحانى والإيمانى:

إصلاح النفس وتكوين الروح المؤمنة واجب فى صياغة الشخصية الإسلامية، وتحويل النفس من نفس أمارة بالسوء إلى نفس مؤمنة أمر لازم لصياغة الشخصية الإسلامية، والارتقاء بهذه النفس إلى مراتب عالية من التقوى والإصلاح والإيمان أمر مهم فى الدعوة إلى الله؛ لأن المؤمن يمارس بهذه الروح العمل الواقعى فيؤثر ويتأثر، ومن ثم كان واجبًا أن تصاغ صياغة تؤهله لكى يكون من أولياء الله العاملين، ومن أجل ذلك يتبع أنصار الله ما يلى:

أ ـ تأصيل العبادات العملية:

السعى إلى إلزام الشخصية الإسلامية بالعبادات العملية.

---

(١) صيد الخاطر: ابن الجوزى ص ٢٠.
(٢) مجموعة الرسائل ص ٢٥.
(٣) المرجع السابق ص ٢٦.

١ ـ الالتزام بالواجبات: ليس أحب إلى الله من أن يلتزم المؤمن بالفرائض والواجبات فقد قال الرسول ﷺ «يقول الله تعالى: «**من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه**»[(١)].

وتأصيل تلك الالتزامات واجب ضرورى لطبيعة الشخصية الإسلامية إذ إن هذه الواجبات سيحاسب عليها أمام الله يوم القيامة».

٢ـ الأوراد: أن تخصص للأخ أوراد دائمة ثابتة بالنصوص الشرعية يلتزم بأدائها لأن تلك الأوراد تصبغ النفس صبغة إيمانية وروحانية كورد القرآن وورد الدعاء وغيرها.

٣ـ الالتزام بالسنن الرواتب والنوافل: وهذه مما يوجب محبة الله سبحانه وتعالى: «ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها»[(٢)].

٤ـ السعى إلى الفضائل: أعمال الفضائل كثيرة ومتعددة والالتزام بأداء تلك الفضائل، والمداومة عليها وفق النصوص الشرعية يعطى الشخصية الإسلامية عمقًا إسلاميًا جيدًا سواء كانت تلك من فضائل العبادات أو الأعمال.

٥ ـ تكوين قواعد أداء العبادات والتعبد: وذلك لازم لتصبح روح المؤمن متزنة ومستقيمة، ومن هذه القواعد الإخلاص وتوجيه العبادة لله سبحانه والعبادة بالعلم لا بالجهل والبعد عن الشبهات فى العبادات والاجتهاد فى العبادة وإدامة العبادة واستمرارها من غير تفريط ولا إفراط ولا ابتداع، والإتقان السليم فى العبادة، والاهتمام بعبادة القلب وألا تكون العبادة عازلة عن العمل، وأن ترتبط العبادة بالبعد الأخلاقى والسنة الحسنة فى العمل التعبدى. وإن العبادة تتفاضل فى مراتبها والمؤمن يدرك الشمول التعبدى فى كل أمر حتى يصبح الطعام والشراب والعلم والعمل والرياضة والزواج كلها أمورًا تعبدية.

---

(١) أخرجه البخارى (٦٥٠٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه .
(٢) أخرجه البخارى (٦٥٠٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه .

ب ـ الاتصال الوثيق:

وهو قوة تعلق المؤمن بالله ـ سبحانه وتعالى ـ والتوكل عليه فى جميع أموره، لتيقنه بأن الله سبحانه المنفرد بالخلق والتدبير والضر والنفع والمنع والعطاء، وأن صلته بالله تكون كصلة الطفل مع أمه وحاجته إليها جل الله ـ سبحانه ـ عن المثل، مع استحضار أن الخلق لا ينفعون ولا يضرون، وكل الأمور بلا استثناء بيد الله القوى مع ثقته بالله بأنه ناصره وحافظه.

إن هذا الاتصال بالله ضرورى جدًا لتخفيف آلام طريق الدعوة ومشاقه على نفسية المؤمن ولانتزاع خشية الناس من قلبه. ولتدعيم ذلك الاتصال يلتزم المؤمن بما يأتى:

١ـ الذكر الدائم: ليظل المؤمن على صلة قوية بالله فى كل حال وفى أى وضع بقراءة القرآن وشتى الأذكار والأوراد، قال الإمام ابن تيمية: «ذكر الله للإنسان كالماء للسمك فانظر كيف يعيش السمك بعيدًا عن الماء».

ومن الذكر الإكثار من مطالعة كتاب الله ـ عز وجل ـ بتدبر وخشوع والدعاء بهذا الدعاء أو غيره: «اللهم إنى أسألك بكل اسم هو لك أسميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى وغمى»[1]،وقوله ﷺ: « **إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد» قيل: وما جلاؤها؟ قال:« تلاوة القرآن وذكر الموت»**[2].

والذكر مجالاته عديدة وصوره متعددة وقدوتنا فى ذلك رسول الله ﷺ إذا تناول طعامًا

---

(١)أخرجه أحمد (١/ ٣٩١) ، وأبو يعلى فى مسنده (٥٢٩٧)، والبزار (١٩٩٤)، وابن حبان فى صحيحه (٢٥٣) ، والحاكم (١/ ٥٠٩ ـ ٥١٠) عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه، فإنه مختلف فى سماعه عن أبيه»، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٦): «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ... ورجال أحمد وأبى يعلى رجال الصحيح غير أبى سلمة الجهنى وقد وثقه ابن حبان » .

(٢) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٢٠١٤)، وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٨/ ١٩٧)، والقضاعى فى مسند الشهاب (١١٧٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وضعف الحافظ العراقى سنده فى المغنى عن حمل الأسفار (١/ ٢٢٢).

أو قام عنه أو شرب كان على ذكر، إذا خلع ثوبه أو لبسه أو خرج من بيته أو دخله، إذا أوى للنوم، إذا قام من النوم، إذا ركب دابته، إذا هاجت الريح، إذا رأى الهلال .. كان على ذكر.

وليحفظ المؤمن من أدعية اليوم والليلة ما شاء يذكر بها الله سبحانه.

٢ ـ المناجاة: قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١] التذلل لله بالدعاء فى أى موطن وعند كل حال ولأى حاجة صغيرة أو كبيرة دنيوية أو أخروية كل ذلك يربط المؤمن ويقوى اتصاله بالله ـ عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[٢]، والاستغفار من الذنب والدوام عليه من صلب المناجاة ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾[٣].

(ولعل أطيب أوقات المناجاة أن تخلو بربك والناس نيام والخليون هجع وقد سكن الكون كله وأرخى سدوله وغابت نجومه، فتستحضر قلبك وتتذكر ربك، وتتمثل ضعفك وعظمة مولاك فتأنس بحضرته ويطمئن قلبك بذكره، وتفرح بفضله ورحمته، وتبكى من خشيته، وتشعر بمراقبته، وتلح فى الدعاء، وتجتهد فى الاستغفار، وتسأله لدنياك وآخرتك وجهادك ودعوتك وآمالك وأمانيك ووطنك وعشيرتك ونفسك وإخوتك)[٤].

٣ـ التهجد وقيام الليل: شعار الصالحين المؤمنين وصفة أساسية للشخصية الإسلامية، قال عز من قائل: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟

---

(١) غافر: ٦٠.
(٢) السجدة: ١٥ ـ ١٧.
(٣) آل عمران: ١٧.
(٤) مجموعة الرسائل ص ٥٣٩.

سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾[1] ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾[2] وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل»[3]، وهكذا يجب أن تطبع الشخصية الإسلامية بهذا الشعار.

٤ ـ الاستسلام لقدر الله: أمر مهم يجب أن تطبع به الشخصية الإسلامية لتحقيق قوة الاتصال بالله ـ سبحانه ـ «يجب على المسلم أن يستسلم لله استسلامًا مطلقًا مع إحسان العمل والسلوك،والاستسلام بكل معناه والطمأنينة لقدر الله والانصياع لأوامر الله وتكاليفه وتوجيهاته، مع الشعور بالثقة والاطمئنان للرحمة والاسترواح للرعاية والرضا الوجدانى»[4].

٥ـ تحقيق معنى العلاقة بالله: (المراد بعلاقة الإنسان بالله أن تكون حياته ومماته وصلاته ونسكه لله تعالى وحده ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾[5]، وأن يعبده مخلصًا له الدين حنيفًا، وقد شرح النبى ﷺ هذه العلاقة بقوله:«**خشية الله فى السر والعلانية**»[6]، و«**أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يديك**»[7]، «**وأن تلتمس رضا الله بسخط الناس**»[8]. حتى يكون حب الإنسان وعداوته ومنعه وعطاؤه كله لله وحده دون

(١) الفرقان: ٦٣، ٦٤

(٢) الزمر: ٩.

(٣) أخرجه مسلم (١١٦٣)، وأبو داود (٢٤٢٩)، والترمذى (٤٣٨)، والنسائى (٣/ ٢٠٦، ٢٠٧)، وأحمد (٢/ ٣٤٤) عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) طريق الدعوة فى ظلال القرآن ص ٢٨٣.

(٥) الأنعام: ١٦٢.

(٦) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٢/ ٣٤٣) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٨٠٢).

(٧) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٧٠)، وابن أبى حاتم فى تفسيره (١٠/ ٣٢٥٢) برقم (١٨٣٩٦)، وابن أبى الدنيا فى مكارم الأخلاق (٥) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وقال محمد بن طاهر المقدسى فى ذخيرة الحفاظ (٥٠٤٨): «رواه عيسى بن ميمون الجرشى عن محمد بن كعب عن ابن عباس، وعيسى متروك الحديث».

(٨) أخرجه الترمذى (٣٤١٤)، وابن حبان فى صحيحه (٢٧٦، ٢٧٧) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصححه الألبانى.

أن تـشوبه شـائبة حتـى رغبتـه أو عزتـه النفـسانية «**مـن أحـب لله وأعطـى لله ومنـع لله فقـد استكمل الإيمان**»(١).

وإبرام العلاقة مع الله: «اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونثنى عليك الخير كله، نشكرك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إياك نعبد، ولـك نصلى ونسجد، وإليك نـسعى ونحفـد، نرجـو رحمتـك ونخـشى عـذابك، إن عـذابك الجـد بالكفار ملحق»، «اللهم لك أسلمت،وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت».

وأما تقوية هذه العلاقـة فتنحـصر فى طـريقين: طريـق العـزم والهمـة والتفكـير، بدراسـة القرآن الكريم والأحاديث النبوية بتدبر لتستعينوا بهما فى معرفـة مـا يوجـد بيـنكم وبـين الله تعالى. والطريق العملى: وهو الطاعة المخلصة للأحكام الإلهية وبذل النفوس والنفـائس فى كل طريق يوصل إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى»(٢).

جـ ـ إحياء القلب وتكوين القلب السليم:

القلب هو مدار عمل الجوارح، ولتكوين الروحانية فى الشخصية الإسلامية يجب إزالـة ركام الجاهلية عن ذلك القلب وإحياؤه بعد أن كان مريضًا أو ميتًا،ويتبع فى ذلك:

١ـ تطهير البـاطن للنفسية الإسـلامية: يقـول الإمـام المـودودى ـ رحمـه الله: «أعتقـد مـن نفسى أن الدين يريد أن يهذب ظاهر العبد كما يريد أن يهذب باطنـه، ولكـن الـذى أريـد أن أرسخه فى أذهانكم وألقيه فى روعكم بوجه خاص فى هذا المقام أن باطن العبـد وإصـلاحه وتهذيبه أرجح وأقدم من ظاهر العبد وإصلاحه وتهذيبه»(٣).

---

(١) أخرجـه أبـو داود (٤٦٨١)، والحـاكم (٢/ ١٦٤)، والطبرانـى فى «الكبـير» (٧٧٣٧، ٧٧٣٨) وابـن عـدى (٦/ ٢٣١٥) والبغوى فى شرح السنة (٣٤٦٩) عـن أبـى أمامـة رضي الله عنه، وقـال الحـاكم : « صـحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

(٢) تذكرة دعاة الإسلام للمودودى ص ٦٥ ـ ٦٩ بتصرف.

(٣) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية للمودودى ص ٧٥، ٧٦.

٢ـ تكوين العبادات القلبية: كالإخلاص والخشية والخوف والتقوى والإنابة والتوكل والمحبة والرجاء وتأسيس هذه العبادات أمر ضرورى؛ إذ إن ذلك يحقق نظافة الباطن من التوجه فى العبادة والعمل لغير الله فيحدث الإقرار بالألوهية ونفى الشرك.

٣ـ التحصن من مداخل الشيطان: فإن للشيطان مداخل عديدة يعكر فيها صفو الباطن، ولذلك يجب مواجهة التحديات الشيطانية وإلقاءاته الإبليسية وسد تلك الأبواب حتى لا يفسد الباطن كحب الحياة ،وطول الأمل، وطلب الراحة، وطلب النعمة، والحرص والعجب، والرياء والكبر والطمع ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ۝٢٠١﴾ [(١)].

٤ ـ **الانتصار على النفس وتأصيل ظاهرة التغيير**: ويكون ذلك بمصارعة النفس ومخالفتها والصراع معها حتى تلين وتنقاد، ويكون ذلك بالمشارطة والمخالفة والمراقبة، وكذلك تأصيل ظاهرة تغيير النفس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [(٢)]، والحرص على طلب الأفضل والسمو فى المراتب العالية حتى تصبح النفس ذليلة للمؤمن تنقاد حيث تشاء أن يوجهها.

٥ـ **إبعاد المؤثرات الدنيوية عن القلب**: وذلك بالزهد والتجرد والمجاهدة والإرادة.

فالزاهد كما قال ابن السماك: هو الذى إذا أصاب الدنيا لم يفرح وإذا أصابته لم يحزن. يضحك فى الملا ويبكى فى الخلا. والتجرد من كل هوى نفسى للذات وإلحاق كل ذلك بالله سبحانه، وهذه المبادئ القلبية هى التى تحدد مسار القلب باتجاه الحياة وتحفظه من السقوط وتفرز له الإرادة للعمل والهمة.

٦ـ **عيش الآخرة**: والقلب يحيا دائمًا بتذكر دار المآل الجنة والنار، يتذكر الموت وآلامه، والقبر وعذابه، والبعث والحشر والحساب والعرض ،ويتذكر الموقف ورهبته، والميزان

---

(١) الأعراف: ٢٠١.

(٢) الرعد: ١١.

والكتب إذا تطايرت، والصراط الممدود على نار جهنم والجنة، كل ذلك دورة يومية ذهنية تدور فى الذهن فتسقط فى القلب فإذا هو فزع خائف راهب، ثم هو أيضًا مطمئن واثق بالله راع راج عفوه وكرمه والعيش فى أضواء الآخرة سمة لإحياء قلب المؤمن ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأَخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٦٤﴾[1].

٧ـ تبديد الفتن من القلب بأنوار الفطنة: القلب تمر عليه الفتن وتعرض كالحصير عودًا عودًا، وهذا القلب هو الذى يؤثر على الجوارح فوجب المحافظة عليه من الفتن، وذلك «أن تلجأ دومًا إلى تربية تسلك بنا فى مسارين دائمين وخطين متكاملين، مسار التجرد الإيمانى ونيل الرضا الربانى؛ باطراح شهوة النفس والتخلص من نزغات الشيطان بعلاج ما هنالك من عيب طرأ بعد قمة أو نقص فضح المنظر بعد كمال من خلاف أو تخليط أو سير بلا تحديد تخطيط، وأنوار الفطنة التى أضاء منها أول ما أضاء نور الاستعاذة بالله من الفتن، هى أنوار أوقدت لتنير مراحل كل من هذين المسارين فهى تؤنس المؤسس الرائد كما تهدى العاثر المنيب»[2].

د ـ تكوين السمت الإيمانى:

فإن السمت هو طبيعة المظهر الإيمانى للشخصية الإسلامية ولذا وجب تأسيس وتكوين ذلك السمت على:

١ـ الورع والبعد عن الشبهات: والإقلال من الكلام ودوام الذكر وانكسار القلب والهدوء والسكينة والوقار.

٢ ـ نقاء النفس وتأثير تلك النفس على الواقع: فمن سمت المؤمن أنه ذو نفس صافية غير معقدة، من يراه يتأثر به ويؤثر فيمن يجلس دون أن يتكلم أو يتكلم بكلمات بسيطة تؤثر فى النفوس «فإنه يرى نفسه وكأنه يقرأ فى وجه كل مؤمن كلامًا ربانيًا.. وبهذا تطّرد

---

(١) العنكبوت: ٦٤.

(٢) العوائق: محمد أحمد الراشد ـ ص ١٢٠، ١٢١.

الحياة فى القلب والحركة فى الصدر واليقظة فى الملكات فيكون الإنسان حيًا فى الظاهر وحيًا فى الباطن تتصل الحياة الخارجية بحياته الروحية، وتتصل حياته الروحية بالحياة الخارجية ولكل منهما أثر فى الأخرى وصدى يتردد فى آفاقها فتلبس دنيا الشخص حلة من السماحة والبشاشة والسهولة وتمحى تعقيدات النفوس الشحيحة»[(١)].

٣ ـ **الإيمان الفعال الحار**: فمن سمت المؤمن أن إيمانه حار قوى ليس إيمانًا باردًا، «والفرق بيننا وبين قومنا أنه عندهم إيمان مخدر فى نفوسهم على حين أنه إيمان ملتهب مشتعل قوى فى نفوس الإخوان المسلمين».

٤ـ الروحانية الحركية: السمت الإيمانى للمؤمن يدفعه إلى العمل والحركة لا الاعتزال والجلوس فى الزوايا والتكايا والأربطة، فمن سمت المؤمن أنه ذو حركة نشيطة دائبة مستمرة، فيجب أن تؤسس الروحانية فى الشخصية الإسلامية على السعى والحركة.

«لهذا جاء فى أوصاف أصحاب محمد ﷺ وهم صفوة الله فى خلقه والسلف الصالح من عباده «رهبان بالليل فرسان بالنهار» ترى أحدهم فى ليله مائلاً فى محرابه قابضًا على لحيته يتململ تململ السليم ويبكى بكاء الحزين ويقول: «يا دنيا غرى غيرى»، فإذا انفلق الصباح ودوى النفير يدعو المجاهدين، رأيته رئبالاً على صهوة جواده يزأر الزأرة فتدوى لها جنبات الميدان، بالله ما هذا التناسق العجيب والتزاوج الغريب والمزج الفريد بين عمل الدنيا ومهامها وشؤون الآخرة وروحانيتها، ولكنه الإسلام الذى جمع من كل شىء أحسنه»[(٢)].

وعلى تلك الأسس تصاغ وتؤسس الروحانية، وذلك من أهم ما يقوم به الدعاة إلى الله فى إعداد جنودهم، ولهذا نجد أن الإمام البنا ـ رحمه الله ـ قد بين ذلك فى مجموعة من التوجيهات: «أن تديم مراقبة الله تبارك وتعالى وتخلص النية له فى كل عمل وتذكر الآخرة وتستعد لها وتتقرب إليه ـ سبحانه ـ بنوافل العبادة، وتكثر من الذكر على كل حال وتتحرى

(١) تذكرة الدعاة: ص٢٠١ « سابق ».
(٢) الرسائل للإمام البنا ـ ص ١٥٥.

الدعاء المأثور عن النبى ﷺ فى كل شأن، وأن تحسن الصلاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، وأن تجدد التوبة والاستغفار وأن تجاهد نفسك جهادًا عنيفًا حتى يسلس لك قيادها وتغض طرفك وتضبط عاطفتك وتقاوم نوازع الغريزة فى نفسك وتسمو بها دائمًا إلى الحلال الطيب، وأن تستصحب دائمًا نية الجهاد»[1].

رابعًا: التكوين الأخلاقى:

وحيث إن الشخصية الإسلامية لها طبيعة جماعية وبشرية فلابد من أن ينمى فيها ويؤسس لها الصفات الأخلاقية التى تمتد بطبيعة النفس أو بطبيعة العلاقة على من حوله،ولتأسيس الأخلاق أو التكوين الأخلاقى للشخصية الإسلامية يراعى عدة أمور:

١ـ أنه لابد من استيعاب ما فى كتاب الله ـ تعالى ـ للتخلق به: لأن رسول الله ﷺ كان خلقه القرآن ولأن كتاب الله ملىء بالأخلاق الكريمة والوصايا العظيمة، ومنها:﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾[2]، فيجب أن تطبع الشخصية الإسلامية بالمعانى الأخلاقية لكتاب الله ـ عز وجل.

٢ـ أن الأخلاق الإسلامية ميزان توزن به شخصية المسلم الداعية: وما عليه إلا أن يعرض نفسه عليها ليعلم ماله من تلك الأخلاق كالصدق والصبر والرحمة والتواضع والمخالطة بالحسنى. وما عليه من غيرها ليتخلص منه.

٣ـ أن تهذيب النفس لا يتم حتى تتحلى بالفضائل والأخلاق: فالنفس مجبولة على

(١)حسن البنا الداعية ـ أنور الجندى ـ ص ١٠١.
(٢) الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٢.

أخلاق مهملة وأخلاق مرسلة فالمحمود فيها يؤدب وغير المحمود يهذب، والآداب زينة للشخصية الإسلامية يسمو بها مقادير كبيرة على الناس فيتعلم آداب المعاملة وآداب المخالطة وآداب العزلة وآداب المجالس وآداب الأكل والشرب وآداب النوم وآداب المعاشرة وآداب عديدة كثيرة.

٤ـ **أن تهذيب الأخلاق الباطنية واجب**: حتى يستقيم الجانب الأخلاقي في الشخصية الإسلامية فالداعية يجب أن يطهر باطنه وظاهره من الأخلاق الرديئة ويعمره بالأخلاق المرضية فمن الأخلاق الرديئة الغل والحسد والبغى والغضب لغير الله ـ تعالى ـ والغش والكبر والرياء والعجب والسمعة والبخل والخبث والبطر والطمع والفخر والخيلاء، والتنافس في الدنيا والمباهاة بها والمداهنة والتزين للناس، وحب المدح بما لم يفعل والعمى عن عيوب النفس والانشغال بعيوب الخلق والحمية والعصبية لغير الله والرغبة والرهبة لغير الله»[1].

٥ـ أن الداعية وهو يتقرب للناس بالدعوة والعمل يجب أن يتحلى بالشمائل الكريمة ومكارم الأخلاق «من طلاقة الوجه وإفشاء السلام وإطعام الطعام وكظم الغيظ وكف الأذى عن الناس واحتماله منهم والإيثار وترك الاستئثار وترك الاستنصاف وشكر الفضل وإيجاد الراحة والسعى في قضاء الحاجات وبذل الجاه في الشفاعات والتلطف بالفقراء والتحبب إلى الجيران والأقرباء»[2].

ومكارم الأخلاق هذه يحتاجها الداعى لكسب القلوب واجتذاب الناس إلى صفوف الدعوة.

٦ـ **أن العادات الجاهلية أمر مذموم في نصاب الخلق الإسلامي**: والالتزام بالعادات الإسلامية أمر مفروض ولا توافق بين الخلقين ويجب أن يطغى في طبيعة العلاقات الاجتماعية للشخصية الإسلامية ما يتوافق مع العادات الإسلامية والأعراف الإسلامية،

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم ص ٢٤ « سابق ».

(٢) المصدر السابق ص ٢٣.

«وأن تعمل ما استطعت على إحياء العادات الإسلامية وإماتة العادات الأعجمية فى كل مظاهر الحياة، ومن ذلك التحية واللغة والتاريخ والزى والأثاث ومواعيد العمل والراحة والطعام والشراب.. وأن تتحرى السنة المطهرة»[1].

٧- **أن السمت الأخلاقى يجب أن يكون طبعًا أصيلاً فى الشخصية الإسلامية**: حتى يصبح هذا السمت أمرًا واقعيًا فى حركة المؤمن، ومن ذلك التورع عن الشبهات وغض البصر وصون اللسان والآذان والحلم واجتناب الظن والغيبة وتتبع عورات المسلمين، وكذلك الجود وحسن المعاملة والحياء.

٨ - **أن أداء الحقوق من صلب الأساس الأخلاقى للشخصية الإسلامية**: فهناك حقوق الوالدين والأقربين والزوجة والولد والأصحاب وأداء الأمانات والحكم بالعدل والقسط.

وبتلك الأسس والقواعد يشكل الهيكل الأخلاقى للشخصية الإسلامية، ويركز الدعاة إلى الله تركيزا هامًا على هذا الجانب إذ إنه من صلب العملية الحركية، «أن تكون حييًا دقيق الشعور سريع التأثر بالحسن وضده من الأقوال والأفعال وأن تكون متواضعًا فى غير ذلة ولا خضوع، وأن تكون صادقًا فلا تكذب أبدًا قوى الإرادة فلا تتردد أبدًا وفيًا لا تخلف وعدك مهما كانت الظروف، وأن تكون شجاعًا عظيم الاحتمال وأفضل الشجاعة الصراحة فى الحق وكتمان السر والاعتراف بالخطأ والإنصاف من النفس وضبطها عند الغضب، وأن تكون وقورًا تؤثر الجد والرزانة ولا يمنعك الوقار من المزاح الصادق والضحك فى تبسم وفى غير تبذل... أن تكون عادلاً صحيح الحكم فى جميع الأحوال لا تنسى الحسنات للغضب ولا تتغاضى عن السيئات للرضا ولا تحملك الخصومة على نسيان الجميل، وتقول الحق ولو على نفسك أو أقرب الناس إليك وأن تكون عظيم النشاط، مدربًا على الخدمات العامة وأن تكون رحيم القلب سمحًا تعفو وتصفح وترفق حتى

---

(١) مجموعة الرسائل ص ٢٨.

بالحيوان، جميل المعاملة حسن السلوك مع الناس محافظًا على الآداب التى طبع بها الإسلام المجتمع»[١].

ويقول الإمام البنا رحمه الله: «وتخلقوا بالفضائل وتمسكوا بالكمالات وكونوا أقوياء بأخلاقكم أعزاء بما وهب الله لكم من عزة المؤمنين وكرامة الأتقياء الصالحين»[٢].

خامسًا: الإعداد الحركى والجهادى:

وحتى يتكامل نموذج الشخصية الإسلامية فإنه لابد من إعدادها إعدادًا حركيًا جهاديًا وفى هذه المرحلة تصقل الشخصية الإسلامية لتتناسب مع طبيعة الحركة والعمل فى مجال الدعوة، لذلك يجب أن يتبع عدة أمور:

١ـ تكوين الثقافة الحركية: وهى الثقافة التى تبحث فى العمل الحركى طبيعته وأساليبه وأهدافه وكذلك الوسائل الحركية بالإضافة إلى الدراسات التى تختص بمنهج الدعاة إلى الله وطبيعته مع دراسة الواقع الحركى للدعوة والحركة.

٢ـ تنمية الوعى وقضاياه: فالشاب العامل يتعامل مع أحداث وشخصيات ومؤثرات فى محيطه، فيجب أن يكون لديه إحاطة بكل ما يدور حوله من متغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية، ويعرف أبعاد هذه المتغيرات فيدرس الواقع الحركى الجاهلى والبيئة والمجتمع ودراسة المنطلقات الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية التى تمثل آمال الجماهير.

٣ـ إتقان الفنون الحركية: والفنون الحركية فنون عملية متعددة يجب إتقانها ودراستها ومعرفة أساليبها وطرق أدائها كإتقان أساليب الدعوة المختلفة وأساليب التجميع وأساليب التربية والإدارة وأساليب القيادة وطرق نشر الوعى والعمل النقابى والعمل العام وغيرها من الفنون الحركية التى تكون من صلب العمل الحركى، والتدريب العملى على التنظيم والتخطيط والإدارة والقيادة وسائر المسؤوليات.

---

(١) حسن البنا الداعية ص ٩٩، ١٠٠« سابق ».
(٢) مجموعة الرسائل ص ٢٥٧.

٤ـ إيثار الناحية العملية: وتصاغ الشخصية الإسلامية بحيث يكون العمل أحب إليها من الكلام والجلوس، والعمل الخفى أحب من العمل الجلى بعيدًا عن الضجيج والإعلام، وكذلك البذل والسعى لإذاعة الخير والمسارعة به ليتعدى غيره، والعمل المتواصل المستمر أحب وأفضل إليها من الانقطاع.

ولذلك يجب تدريب الشخصية الإسلامية على مختلف الأعمال والمسؤوليات وبذلك تتأسس الحركية العملية للشخصية الإسلامية.

٥ ـ تكوين الطبيعة التنفيذية: ويجب أن تؤسس فى الشخصية الإسلامية الطبيعة التنفيذية حيث تتحول الروحانية الجياشة فى قلبه إلى صور عملية واقعية تبعث صاحبها على العمل، حيث إن الحماسة الإيمانية تشع فى قلب المؤمن فيشعر الداعى بالغيرة على دعوته ويكون لديه دافع قوى على العمل وتكون لديه قوة تدفعه إلى التنفيذ فتحرك أعضاءه للعمل فيشعر بالسعادة والراحة، فى حين أنه لو لم يتحرك لشعر بالضيق فى نفسه، ودراسة سيرة الرسولﷺ وصحابته والسلف الصالح ورجال الحركة الإسلامية على مدار العصور ينمى لدى الشخصية الإسلامية الطبيعة التنفيذية.

٦ـ تكوين صفات أولياء الله الذين هم جنود الدعوة: وهذه الصفات لابد أن تطعم بها الشخصية الإسلامية لتصبح شخصية حركية مجاهدة من جنود الدعوة، بأن تكون المحبة لله والولاء لله، وتحديد طبيعة العلاقة مع أولياء الله فى مجال الدعوة من الذلة للمؤمنين والنصرة والصبر والمصابرة والمرابطة والمجاهدة معهم، وكذلك تحديد علاقة الشخصية الحركية بأولياء الشيطان وحزبه من حيث المفاصلة وجهة الود والمعاداة والبراءة والعزة على الكفار ومجاهدتهم وقتالهم.

٧ـ الإعداد البدنى: والإعداد البدنى ـ بحيث يصبح قويًا ـ واجب مهم يجب أن يراعى فى تكوين الشخصية الإسلامية من عدة أمور:

* **المؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف:** «فهم يعلمون أن أول درجة من

درجات القوة قوة العقيدة والإيمان، ويلى ذلك قوة الوحدة والارتباط، ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح»[١].

* **الاهتمام بأسباب القوة**: كالتدريب البدنى بالرياضة وتقوية الجسم، (وجماعة رياضية لأنهم يعنون بأجسامهم ويعلمون أن المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف، وأن النبى ﷺ يقول: «**إن لجسدك عليك حقًا**»[٢]. وأن تكاليف الإسلام كلها لا يمكن أن تؤدى كاملة صحيحة إلا بالجسم القوى» [٣].

* **الاعتناء بصحة الجسم**: وذلك بالكشف الصحى المستمر والاعتناء بالصحة والنظافة الجسمية والبعد عن كل ما يضر الجسم من مشرب أو مأكل، (أن تهتم بأسباب القوة البدنية والوقاية الصحية وتبتعد عن أسباب الضعف وأن تتجنب الإسراف فى المشروبات المنبهة وتمتنع عن التدخين وتعنى بالنظافة وتزاول نوعًا من الرياضة وأن تتجنب الخمر والمسكر والمفتر) [٤].

* **اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم**: وتعويد النفس على حياة الخشونة والرجولة والصلابة يهيئ الجسم والبدن لملاقاة أشد أنواع الظروف والمؤثرات.

٨ ـ **إحياء الجهادية**: والجهاد طريق الحركة الإسلامية وطبيعة طريق السير فى الدعوة يقتضيه، والابتلاء أمر لا مفر منه، وبالأخص من الأحزاب الأرضية، ولذلك يجب إحياء الجهادية فى الشخصية الإسلامية وتطبيعها بالخصائص النفسية الجهادية.

* **الموت فى سبيل الله أسمى أمانينا**: شعار يجب أن يطبع فى نفس الشخصية الإسلامية، فحب الشهادة وفضل الشهادة وأجر الشهيد كل ذلك أمر عظيم يجب أن تهفو له النفس

---

(١) مجموعة الرسائل ـ البنا ص ٢٩٦.

(٢) أخرجه البخارى (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩)، والنسائى (٤/ ٢١٠ ـ ١١٢)، وأحمد (٢/ ١٩٨) عن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) مجموعة الرسائل ص ٢٧٤.

(٤) حسن البنا الداعية. أنور الجندى ص ٩٩.

وأن يعلم الداعية أنه فى طريق الدعوة سيسقط شهداء ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ (١).

* **تأصيل المعانى الجهادية**: كالصبر والمرابطة والمصابرة والتضحية والإيثار وبذل النفس والتوكل، وتحليل دراسة الغزوات والمعارك والأصول الجهادية وقصص الجهاد والمجاهدين، فتأصيل هذه المعانى يكون سدًا منيعًا للتخلف من الجهاد.

* **الممارسات الجهادية**: ولإحياء الجهادية فى تكوين الشخصية الإسلامية يجب أن تمارس شتى أنواع الجهاد فالجهاد؛ اللسانى والجهاد التعليمى والجهاد باليد والنفس والجهاد الحركى والجهاد السياسى والجهاد المالى.

«وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» (٢).

﴿ ۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (٣)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ (٤).

«سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله» (٥).

﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ﴾ (٦).

وبذلك نحدد الصفة الحركية والجهادية للشخصية الإسلامية، وبهذه الصفات تصبح الشخصية الإسلامية شخصية حركية واعية وقد اهتم الدعاة إلى الله بذلك اهتمامًا كبيرًا؛ إذ

---

(١) آل عمران: ١٤٠.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٤٤)، والترمذى (٢١٧٤)، وابن ماجه (٤٠١١) عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه، قال الترمذى: «حسن غريب»، وصححه الألبانى.

(٣) التوبة: ١٢٢.

(٤) التوبة: ٧٣.

(٥) أخرجه الحاكم (٣/ ١٩٥) عن جابر رضي الله عنه وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٦) التوبة: ١١١.

إن طبيعة دعوة الله الحركة والعمل والتنظيم.

خلاصة الإعداد:

بهذا المزيج من الإعداد الفكرى والثقافى والعلمى والأخلاقى والإيمانى والحركى والجهادى تتكامل جوانب الشخصية الإسلامية وتصبح نموذجًا معدًا لخدمة الإسلام والدعوة فى سبيل الله بل مع استمرار نمو تلك الشخصية بهذا المزيج تصبح قدوة حسنة ثم نموذجًا حركيًا ثم تبدأ مسيرة الجهاد والصبر والعمل والمرابطة حتى تلقى الله سبحانه وتعالى.

الشخصية الإسلامية واتجاه العمل الحركى

بعد تأسيس الشخصية تأسيسًا سليمًا وإعدادها إعدادًا متكاملاً موزونًا يجب أن تسعى تلك الشخصية تجاه أهداف الدعوة حركيًا لإكمال مسيرتها وتسهيل عملها وحركتها ، بالتالى تنتقل الشخصية الإسلامية من مرحلة الإعداد إلى مرحلة الإنتاج.

(ما كان لأهل الحركة الإسلامية ومن حولهم من ناشئة الابتداء أن يتخلفوا عن السير نحو أفراح الآخرة، ولا يرغبوا بأنفسهم عن حاجات الدعوة، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب، ولا غبار فى سبيل الله،ولا يتكلمون كلمة تغيظ الأحزاب الأرضية ولا ينالون من ملحد نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح، إن الله لا يضيع أجر المحسنين، ولا ينفقون نفقة التعب صغيرة، أو من الهول كبيرة ولا يجوبون محلة أو مدرسة أو جامعة أو مصنعًا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) [1].

أ ـ واجب الشخصية الإسلامية فى تكوين البيت المسلم:

إعداد البيت المسلم واجب أساسى على الشخصية الإسلامية أن تقوم به ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [2]، ومن هنا كانت من مهمات الشخصية الإسلامية البذل الحركى تجاه إعداد البيت المسلم، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

وإعداد البيت المسلم يكون بأمور منها:

١ـ **تأسيس البيت الصالح**: حيث يكون الزواج لله لإنجاب ذرية صالحة تتحمل بعد ذلك حمل الإسلام والدعوة له ﴿ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [3]، وأن يكون

(١) الرقائق ـ محمد أحمد الراشد، ص ١٦٣.
(٢) الشعراء: ٢١٥.
(٣) آل عمران: ٣٤.

الزواج لحفظ النفس وعفافها وغض البصر وحفظ الفرج من إحسان تخير الزوجة الصالحة المؤمنة ذات الخلق والدين، وأن يتحمل الداعى مسؤولية الزواج من حسن العلاقة مع الزوجة الصالحة بتحقيق العلاقة الربانية ـ لا علاقة الفراش ـ مع حسن المعاملة والثقة المتبادلة وأن تكون العلاقة من أجل المضى والتعاون فى طريق الإسلام والدعوة.

٢ـ تربية الأولاد: السعى لتنشئة الذرية تنشئة إسلامية عقائديًا وإيمانيًا وخلقيًا، ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [(١)]، وتوفير الجو الإسلامى والمناخ المناسب للتربية أمر واجب، (إن أولادكم وأزواجكم الذين تتفكرون دائمًا فى مأكلهم ومشربهم وملبسهم ومسكنهم عليكم أن تتفكروا قبل كل شىء فى إنقاذهم من النار، وأن تبذلوا ما استطعتم من الجهد والسعى لإصلاح عاقبتهم) [(٢)].

٣ـ البيت مجتمع إسلامى صغير: وأن يسعى الداعية أن يكون بيته نموذجًا مصغرًا للمجتمع المسلم وذلك:

* بأن تحل كل مشكلة فيه حلاً إسلاميًا.

* وبنشر الوعى الإسلامى فيه والاعتزاز بتاريخ الإسلام وشخصياته .

* وبالتزام الشخصية الإسلامية فى المنزل.

* ونشر العادات والآداب والأعراف الإسلامية فى البيت.

* والتزام الحلال والبعد عن الحرام فى المأكل والمشرب والملبس والمسكن وفى طلب الرزق.

٤ـ وضع طاقات منزله لخدمة الدعوة: وهنا يسعى الداعية إلى خدمة دعوة الله بأن يجعل بيته فى خدمة الحركة بأن يكون ملجأ ومركزًا للدعوة وأن يربط أولاده، وزوجته بمصير الدعوة والحركة.

---

(١) الفرقان : ٧٤ .

(٢) تذكرة دعاة الإسلام ـ المودودى، ص ٨٤.

٥ـ تأثير البيت المسلم على ما حوله: وذلك أن يحسن الجوار مع الجيران ونشر الوعى الإسلامى بينهم وأداء حقوق الجار، وكذلك بنشر الوعى بين الأقارب وصلة الأرحام وبالتالى تتسع دائرة تأثير البيت المسلم على ما حوله.

وعلى هذه الأسس تقوم الشخصية الإسلامية بالعمل الحركى لتكوين البيت المسلم، وهذا من صلب عمل الداعى المسلم، (وتكوين بيت مسلم بأن يحمل أهله على احترام فكرته والمحافظة على آداب الإسلام فى كل مظاهر الحياة المنزلية وحسن اختيار الزوجة وتوقيفها على واجبها، وحسن تربية الأولاد والخدم وتنشئتهم على مبادئ الإسلام وذلك واجب كل أخ على حدة) [(١)].

ب ـ بذل الشخصية الإسلامية لتكوين الشعب المسلم والمجتمع المسلم: وحيث إن الشخصية الإسلامية عامل مؤثر بخصائصه الذاتية الإسلامية للتأثير بالإسلام فى المجتمع ويكون ذلك بالعوامل الآتية:

١ـ نشر الوعى الإسلامى: بتحرى القضايا الإسلامية والتحدث فيها والسعى لنشرها فى أوساط الشعب (أن تعمل على نشر دعوتك فى كل مكان وأن تحيط القيادة علمًا بكل ظروفك) [(٢)].

٢ ـ محاربة المنكر ونشر المعروف: المنكرات فى المجتمع الذى تأثر بالجاهلية عديدة ومختلفة، فيجب محاربة المنكر على القواعد الصحيحة بمحاربة المنكر ونشر المعروف والأمر باتباعه، و(أن تحارب أماكن اللهو فضلاً من أن تقربها) [(٣)].

٣ ـ تبيين حدود الإسلام: يجب على المؤمن أن يوضح حدود الإسلام فى الكثير من الأمور بين الحلال والحرام للناس ويدفعهم للالتزام بالإسلام فى أى مجال، (فأول واجباتنا نحن الإخوان أن نبين للناس حدود هذا الإسلام واضحة كاملة بينة لا زيادة فيها ولا

(١) مجموعة الرسائل ص ١٧.
(٢) المرجع السابق ص ٣٠.
(٣) المرجع السابق ص ٣٠.

نقص بها ولا لبس معها، وذلك هو الجزء النظرى من فكرتنا وأن نطالبهم بتحقيقها ونحملهم على إنفاذها ونأخذهم بالعمل بها وذلك هو الجزء العملى فى هذه الفكرة) [١].

٤ ـ **نشر العادات الإسلامية وقتل العادات الجاهلية:** فإن المجتمع قد انتشرت فيه عادات جاهلية بغيضة غزت البيوت ومجالات الحياة للمسلمين فيجب إماتتها وإحياء العادات الإسلامية (أن تعمل ما استطعت على إحياء العادات الإسلامية وإماتة العادات الأعجمية فى كل مظاهر الحياة؛ ومن ذلك التحية واللغة والتاريخ والزى والأثاث ومواعيد العمل والراحة والطعام والشراب والقدوم والانصراف والحزن والسرور) [٢].

٥ ـ **السعى لانتقاء اللبنات الصالحة وضمها إلى رحاب الدعوة:** وليمارس الداعى بالإضافة إلى ذلك اختيار أصلح الناس وأذكاهم إلى صفوف دعوته فى سبيل الله ونصرة دينه (شخص آمن بدعوتنا وصدق بقولنا وأعجب بمبادئنا ورأى فيها خيرًا اطمأنت إليه نفسه وسكن له فؤاده. فهذا ندعوه أن يبادر بالانضمام إلينا والعمل معنا حتى يكثر به عدد المجاهدين ويعلو بصوته صوت الداعين) [٣].

ومن هذا تصبح الشخصية الإسلامية عاملاً مساعدًا للدعاة فى علاج المجتمع وتطهيره من أدوائه وإعانة الدعاة على إقامة المجتمع المسلم، وقد بين الإمام البنا أن من واجبات الشخصية الإسلامية (إرشاد المجتمع بنشر دعوة الخير فيه ومحاربة الرذائل والمنكرات وتشجيع الفضائل والأمر بالمعروف والمبادرة إلى فعل الخير وكسب الرأى العام، إلى جانب الفكرة الإسلامية وصبغ مظاهر الحياة العامة بها دائمًا، وذلك واجب كل أخ على حدة وواجب الجماعة كهيئة عاملة) [٤].

الشخصية الإسلامية هدف ثابت:

وتكوين الشخصية الإسلامية هدف ثابت أمام الدعاة لا يتغير مهما تغيرت أنماط أو

---

(١) مجموعة الرسائل ص ٤٥١

(٢) المرجع السابق ص ٢٨.

(٣) مجموعة الرسائل ص ١٠٧.

(٤) المرجع السابق ص ١٧.

مرحلة أهدافه، بـل حتـى وإن تحققـت أهـداف الـدعاة بوجـود الـسلطة المسلمة، فـإن هـذه السلطة هى التى ستقوم بتنشئة الناس وتهيئة نموذج الشخصية الإسلامية، ووجود السلطة المسلمة سيخفف العمل بعد ذلك عن الدعاة فيتحولون إلى الهدف الثانى وهو إيجاد الدولة الإسلامية وإدامتها.

الخاتمة

هذه هى الأهداف الرئيسية للدعاة إلى الله ، والتى لا تتحقق إلا بتجريد الإخلاص له سبحانه والتوكل عليه والنظر دائمًا إلى نهاية الطريق التى يقول الله عنها: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾[1].

والسير فى تحقيقها يحتاج إلى حماس متزن يقول عنه الشاعر:

من لى بمثل مشيك المدلل اسم   تمشى الهوينا وتجى فى الأول

والحذر كل الحذر من الحماس المتهور الذى يعرقل المسيرة ويجهض العمل، ويجعل الداعية كَالْـمُنْبَتّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى.

قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[2].

والله الموفق

---

(١) الأعراف: ١٢٨.

(٢) الروم: ٦٠.



الرسالة الرابعة

للدعاة فقط

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد الأمين ﷺ.

وبعد: فمن المسلّم به لكل طالب علم أن مرتبة الدعوة إلى الله من أعلى وأرفع المراتب وأفضل القربات، ولم لا؟ وهى مهمة الأنبياء، وطريق الرسل والأولياء، وبها تنتشر الرحمات وتزال الضلالات.

ولذلك كثرت الآيات البينات، وتوجيهات الأحاديث الصحاح الواضحات قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ﴾[2].

وقال ﷺ موضحًا: «**والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**»[3].

فهم كما قال الإمام أحمد ـ رحمه الله: « يدعون من ضل إلى الهدى. ويصبرون منهم على الأذى.. يُحْيُونَ بكتاب الله الموتى، ويُبَصِّرُون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أَحْيوه وكم من ضال تائه قد هدوه»[4]،ولذلك استحقوا أن تصلى عليهم النملة فى جحرها والحيتان فى البحر...

فهم فى الأرض بمنزلة النجوم فى السماء، بهم يهتدى الحيران فى الظلماء، ولم لا؟ وهم القائمون بالتبليغ عن الله الآخذون بمهمة الأنبياء بعد طَىِّ سجل الرسل بمحمد ﷺ

---

(١) آل عمران: ١٠٤.

(٢) آل عمران: ١١٠.

(٣) أخرجه الترمذى (٩٦١٢)، وأحمد (٥/ ٨٨٣) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وقال الترمذى: « هذا حديث حسن » .

(٤) إعلام الموقعين (١/ ٩).

وانقطاع الوحى من السماء وصدق فيهم قول الله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١).

ومن هذا المنطلق كانت هذه الرسالة، مساهمة فى تخصيص الدعاة ببعض الأطروحات والكتابات لتكون نوعًا من التكريم لهم، وبيانًا ونبراسًا لمن أراد المسير فى طريق الأنبياء، أسأل الله العلى القدير أن ينفع بها الحيارى من الدعاة والباحثين عن الحق فى أوساط الجماعات، وأن يغفر لى الزلات، ويقينى شر الملامات.

وتحتوى هذه الرسالة على حقيقة بعنوان: «لماذا دعوة الإخوان المسلمين»؟

وينقسم البحث فيها إلى ثلاثة أقسام على النحو التالى:

القسم الأول: حقيقة دعوة الإخوان المسلمين:

واجتهدت فيه ببيان أمور لا لبس فيها، تبين جلاء هذه الدعوة، مقتصرًا بقدر الإمكان على كلام مؤسس الحركة الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله.

القسم الثانى: شبهات وردود:

ودار الحديث فيه حول ذكر بعض الشبهات التى تطلقها بعض الأبواق المهتمة بنهش لحوم البشر، وبعض الأصول العامة والخاصة المستعملة فى الرد عليهم؛ وحقيقة ما كان الإنسان يود أن يضع دعوة الإخوان فى قفص الاتهام ويقوم بالرد والدفاع عنها، ولكن قصور اطلاع جمهور المسلمين وسرعة تأثرهم بالشبه هى التى دعت لذلك.

القسم الثالث: تمنيات فى العمل الإسلامى:

وهى تمنيات فى النفس نتوجه إلى الله ببعضها، ونسأله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يؤصل ما هو موجود، ويُنمى ما هو فى بداياته، وما هو جديد إن كان خيرًا أُخذ به، وإن لم يكن كذلك ضُرب به عرض الحائط.

---

(١) البقرة: ١٤٣.

ولعلك أخى القارئ تدرك من خلال قراءتك لهذه الرسالة فى أنى عمدت إلى بيان ما يتعلق بالحركة من خصائص ومميزات هيأتها لتكون دعوة عالمية تستقطب الشباب، وتكتسح الأفكار والأطروحات الموجودة.

ثم ذكرت قواعد عامة فى الرد على الشبهات التى تحاك وتقال عن الإخوان المسلمين، وتعرضت لبعض الصور من الشبهات والرد عليها.

وعرجت بعد ذلك على بعض التمنيات التى أرجو أن تتأصل فى حركة الإِخوان عند وجودها، وأن تبحث من حيث موافقتها للمنهج أو عدمه عند عدم وجودها فى برنامج الحركة، فإن كانت موافقة للمنهج أُخذ بها، وإلا فيُسدل عليها الستار،والخير أردت وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

المبحث الأول
حقيقة دعوة الإخوان المسلمين

أمامنا عدة تساؤلات تطرح فى صفوف أهل الدعوة ..

لماذا دعوة الإِخوان المسلمين؟

لماذا دعوة الإِخوان المسلمين هى التى يتآمر عليها الشرق والغرب؟!

لماذا دعوة الإِخوان المسلمين هى التى لا تنطفئ شمعتها؟!

لماذا دعوة الإِخوان المسلمين هى الدعوة التى يدخل فيها الشباب رغم ما يعرفون عن صعوبة طريقها؟!

لماذا هى التى يغتاظ منها أصحاب البحث عن الذات؟!

لماذا هى الدعوة الوحيدة التى تتحرك الدول الكبرى لضربها حيث إِنه فى المؤتمر الذى عقد فى فايد فى نوفمبر سنة ٨٤٩١م بين قناصل بعض الدول الغربية (إنجلترا - وفرنسا - وأمريكا) طلبوا من السفير البريطانى أن يطلب من النقراشى إصدار قرار بحل جماعة الإخوان، وأن المأجور: ج أوبريان السكرتير السياسى للقائد العام للقوات البرية البريطانية فى الشرق الأوسط ومقره «فايد» أرسل خطابا إلى إدارة المخابرات التابعة للقيادة العامة للقوات البريطانية فى مصر وشرقى البحر المتوسط يخطرها فيها بما دار فى اجتماع السفراء والنتيجة التى انتهى إليها، وأخطرهم أنه ستتخذ الإِجراءات اللازمة بواسطة السفارة البريطانية فى القاهرة لحل جمعية الإِخوان.

لهذه التساؤلات وغيرها، ولأن هناك أناسا يجهلون دعوة الإِخوان، وأناسا عواطفهم متضاربة مع اتجاههم، فهم مشفقون عليهم، وغير واثقين بقدرتهم، مشفقون أن يفعلوا، ويائسون من أن يفعلوا خائفون ومشفقون أن تتعثر الدعوة ثم تنحسر، ومن ثم يأخذ هؤلاء دورهم كمثبطين ومعوقين بحجة الإِشفاق.

لهذا كله، ولأن هناك أعدادا كبيرة من الشباب تنتظر من يبين لهم الطريق الذى يعملون

فيه ومن خلاله على بينة ووضوح.

لهؤلاء جميعا، ولمن أراد أن يضع قدمه على الطريق كان هذا الموضوع الذى يزيل الإِبهام عما ورد على ألسنة الأنام.

*** أهداف وخصائص دعوة الإِخوان:**

أولا: قوة الرباط الإِيمانى فى الدعوة المبنى على الأخوة:

وهذا الأمر يذكره الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله ـ فى الركن التاسع فيقول متحدثا عن رباط الأخوة:

والمراد من الأخوة: أن ترتبط القلوب والأرواح برباط العقيدة، والعقيدة أوثق الروابط وأعلاها، والأخوة: أخوة الإِيمان، والتفرق: أخو الكفر.

وأول القوة قوة الوحدة، ولا وحدة بغير حب، وأقل الحب سلامة الصدر، وأعلاه مرتبة الإيثار. ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [1].

والأخ الصادق يرى إخوانه أولى بنفسه من نفسه لأنه إن لم يكن بهم فلن يكون بغيرهم، وهم إن لم يكونوا به كانوا بغيره «وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»[2] و«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[3] ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [4].

ثم عمد الإِخوان إلى الأخذ بأسباب بقاء الإِخاء ودوامه وهى طاعة الله عز وجل، فلا شيء يديم الإِخاء مثل طاعة الله والبعد عن معصيته، فالإِخاء القائم على التقوى يستمر فى الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [5]، كما

---

(١) الحشر: ٩.

(٢) أخرجه أبو داود (٧٤٥)، والنسائى (٧٤٨)، وأحمد (٦/ ٦٤٤)، والحاكم (٢/ ٢٨٢ ـ ٣٨٤) عن أبى الدرداء رضي الله عنه. قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبى، وحسنه الألبانى.

(٣) أخرجه البخارى (١٨٤)، ومسلم(٥٨٥٢) عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه.

(٤) التوبة: ٧١.

(٥)الزخرف: ٦٧.

أنه لا شيء يمنع تصدع الإخاء مثل الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ (١)، لذلك ترى أن عدو الله إبليس يغيظه الحب والأخوة بين الداعين إلى الله ويحاول أن ينزغ بينهم، فعلى الإخوان أن يقولوا التى هى أحسن وألا يفسد الخلاف فى الرأى بينهم الود والمحبة.

ثانيًا: قوة الرباط التنظيمى المبنى على الثقة:

وهذا الرباط يبينه الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ فى الركن العاشر فيقول:

المراد من الثقة: اطمئنان الجندى إلى القائد فى كفاءته وإخلاصه اطمئنانا عميقا ينتج الحب والتقدير والاحترام والطاعة ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ (٢).

والقائد جزء من الدعوة، ولا دعوة بغير قيادة، وعلى قدر الثقة المتبادلة بين القائد والجنود تكون قوة النظام للجماعة، وإحكام خططها، ونجاحها فى الوصول إلى غاياتها، وتغلبها على ما يعترضها من عقبات وصعاب.

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ (٣).

وفى مجال الحديث عن الثقة لابد من ذكر:

(أ) الأخطاء فى بناء الثقة:

١ـ مطالبة القيادات لأفرادها بالثقة دون أن تؤدى مهرها، فالثقة بالقيادة لا تأتى من خلال المطالبة بقدر ما تأتى من خلال شعور الجندى بكفاءة قيادته وجدارتها وحكمتها، بل من خلال الاحتكاك والممارسة والمواقف اليومية.

٢ـ ومن أخطاء بعض القيادات كذلك أنها لاتستطيع تنمية الثقة،ومن ثم كلما زاد

---

(١) ص: ٢٤.

(٢) النساء: ٥٦.

(٣) محمد: ٢٠، ١٢.

الاحتكاك بها تقلصت الثقة،وذلك يعود إما لجهلها بالتعامل مع النفس البشرية،أو لقصورها فى نفسها،أوعجزها عن تربية الذين يحيطون بها ويحتكون بها.

(ب) أمور تعين على بناء الثقة:

١ ـ ألا تُعطى صفة لأحد داخل الجماعة دون أن يستحقها.

٢ـ شعور كل فرد فى الحركة بصحة القرارات وسلامة السير ودقته، وهذا يقتضى تعليل القرارات من القيادة إلا لضرورة أمنية.

ثالثا: التكامل فى البناء:

تتميز دعوة الإِخوان بطبيعة خاصة يعبر عنها الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله ـ فيقول:

(لسنا حزبا سياسيا، وإن كانت السياسة على قواعد الإِسلام من صميم فكرتنا، ولسنا جمعية خيرية إصلاحية، وإن كان عمل الخير والإِصلاح من أعظم مقاصدنا، ولسنا فرقة رياضية، وإن كانت الرياضة البدنية والروحية من أهم وسائلنا. ولسنا شيئا من هذه التشكيلات، فإنها جميعا تبررها غاية موضعية محدودة لمدة معدودة، وقد لا يوحى بتأليفها إلا مجرد الرغبة فى تأليف هيئة والتحلى بالألقاب الإِدارية فيها.

ولكننا أيها الناس: فكرة وعقيدة، ونظام ومنهاج لا يحدده موضع، ولا يقيده جنس، ولا يقف دونه حاجز جغرافى، ولا ينتهى بأمر حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ذلك لأنه نظام رب العالمين، ومنهاج رسوله الأمين[(١)].

وعلى ذلك فهى دعوة فى طبيعتها تكامل، وفى أهدافها شمول، فهى لا تقتصر من الإِسلام على جانب دون جانب، ولا تضخم جانبا على حساب آخر وكذلك فهى ليست محدودة الأهداف، فهدفها يبدأ من تربية الفرد، وينتهى بإقامة الحكم، ثم الاِنطلاق فى الأرض لإِعلاء دين الله، وكذلك يتمثل شمول دعوة الإِخوان فى اتصالها بالناس ودعوتهم، فهى تخاطب عقولهم بالحجة والفكر، كما تخاطب قلوبهم بنفض ما ران عليها

---

(١) رسالة (الإخوان المسلمون تحت راية القرآن) .

من ركام، وبتذكيرها بربها وصفاته، وتعميق إحساسها بالآخرة، كما تخاطب فطرتهم من إيمان فطرى، وصلة فطرية بالإسلام.

رابعا: البعد عن مواطن الخلاف:

فأما البعد عن مواطن الخلاف الفقهى فلأن الإخوان يعتقدون أن الخلاف فى الفرعيات أمر ضرورى لابد منه؛ إذ إن أصول الإسلام من آياتٍ وأحاديثَ، وأعمال تختلف فى فهمها وتصورها العقول والأفهام. لهذا كان الخلاف واقعًا بين الصحابة أنفسهم، وما زال كذلك وسيظل إلى يوم القيامة، وما أحكم الإمام مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال لأبى جعفر وقد أراد أن يحمل الناس على الموطأ: (إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا فى الأمصار، وعند كل قوم علم فإذا حملتهم على رأى واحد تكون فتنة) ، وليس العيب فى الخلاف ولكن العيب فى التعصب للرأى والحجر على عقول الناس وآرائهم. هذه النظرة إلى الأمور الخلافية جمعت القلوب المتفرقة على الفكرة الواحدة، وحسب الناس أن يجتمعوا على ما يصير به المسلم مسلما، كما قال زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكانت هذه النظرة ضرورية لجماعة يريدون أن ينشروا فكرة فى بلد لم تهدأ بعد فيه ثائرة الخلاف على أمور لا معنى للجدل ولا للخلاف فيها.

خامسا: البعد عن هيمنة الكبراء والأعيان:

وأما البعد عن هيمنة الكبراء والأعيان فلانصرافهم عن هذه الدعوات الناشئة المجردة من الغايات والأهواء إلى الدعوات القائمة التى تستتبع المغانم وتجر المنافع، ولو فى ظن الناس لا فى حقيقة الحال، ولأننا معشر القائمين بدعوة الإخوان تعمدنا هذا لأول عهد الدعوة بالظهور حتى لا يطمس لونها الصافى لون آخر من ألوان الدعوات التى يروج لها هؤلاء الكبراء، وحتى لا يحاول أحد منهم أن يستغلها أو يوجهها فى غير الغاية التى تقصد إليها، وذلك أن كثيرًا من العظماء ينقصه الكمال الإسلامى الذى يجب أن يتصف به المسلم العادى فضلا عن المسلم العظيم الذى يحمل اسم دعوة إسلامية لإرشاد الناس، وعلى هذا فقد ظل هذا الصنف بعيدا عن الإخوان اللهم إلا قليلا من الأكرمين الفضلاء يفهم عنهم فكرتهم ويعطف على غايتهم ويشارك فى أعمالهم ويتمنى لهم التوفيق والنجاح.

سادسا: البعد عن الهيئات والأحزاب:

وأما البعد عن الاتصال بالأحزاب والهيئات فلما كان ولا يزال بين هذه الهيئات من التنافر والتناحر الذى لا يتفق مع أخوة الإسلام، ودعوة الإسلام عامة تجمع ولا تفرق، ولا ينهض بها ويعمل لها إلا من تجرد من كل ألوانه وصار لله خالصا، وكان هذا المعنى من قبل عسيرا على النفوس الطامحة التى تريد أن تصل عن طريق حزبيتها أو جماعتها إلى ما تريده من جاه ومال،لهذا آثرنا أن نتجنب الجميع وأن نصبر على الحرمان من كثير من العناصر الصالحة حتى ينكشف الغطاء،ويدرك الناس بعض الحقائق المستورة عنهم فيعودوا إلى الخطة المثلى بعد التجربة وقد امتلأت قلوبهم باليقين والإيمان.

ونحن الآن ـ وقد اشتد ساعد الدعوة ـ وصلب عودها وأصبحت تستطيع أن توجِّه ولا توجه، وأن تُؤثر ولا تَتَأَثر، نهيب بالكبراء والأعيان والهيئات والأحزاب أن ينضموا إلينا، وأن يسلكوا سبيلنا وأن يعملوا معنا وأن يتركوا هذه المظاهر الفارغة التى لا غناء فيها ويتوحدوا تحت لواء القرآن العظيم، ويستظلوا براية النبى الكريم ﷺ ومنهاج الإسلام القويم، فإن أجابوا فهو خيرهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة، وتستطيع الدعوة بهم أن تختصر الوقت والجهود، وإن أَبَوْا فلا بأس علينا أن ننتظر قليلا، وأن نلتمس المعونة من الله وحده حتى يحاط بهم، ويسقط فى أيديهم، ويضطرون إلى العمل للدعوة أذنابا وقد كانوا يستطيعون أن يكونوا رؤساء، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

سابعا: التدرج فى الخطوات:

التدرج والاعتماد على التربية ووضوح الخطوات منهج واضح فى طريق الإخوان المسلمين ـ وذلك لأنهم اعتقدوا أن كل دعوة لابد لها من مراحل ثلاث:

مرحلة الدعاية والتعريف والتبشير بالفكرة وإيصالها إلى الجماهير من طبقات الشعب، ثم مرحلة التكوين وتخير الأنصار وإعداد الجنود وتعبئة الصفوف من بين هؤلاء المدعوين، ثم بعد ذلك كله مرحلة التنفيذ والعمل والإنتاج. ويلاحظ فى المسيرة الربانية أنه كثيرًا ما تسير هذه المراحل الثلاث جنبًا إلى جنب نظرا لوحدة الدعوة وقوة الارتباط بينها

جميعا، فالداعى يدعو، وهو فى الوقت نفسه يتخير ويربى وهو فى الوقت عينه يعمل وينفذ كذلك.

ولكن لاشك أن الغاية الأخيرة أو النتيجة الكاملة لا تظهر إلا بعد عموم الدعاية وكثرة الأنصار ومتانة التكوين. وفى حدود هذه المراحل سارت دعوة الإخوان ولا تزال تسير، فقد بدأت الدعوة فى توجيه الأمة من خلال دروس متتالية فى رحلات متلاحقة وفى مطبوعات كثيرة وفى حفلات عامة وخاصة، وفى جريدة الإخوان المسلمين الأولى وفى مجلة النذير الأسبوعية، ولا زالوا يدعون وسيظلون كذلك حتى لا يكون هناك فرد واحد لم تصله دعوة الإخوان المسلمين على حقيقتها الناصعة وعلى وجهها الصحيح، ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

ثم بعد ذلك يخطون الخطوة الثانية: خطوة الاختيار والتكوين والتعبئة، وهذه الخطوة تعرض فى صور ثلاث:

(الكتائب) ويراد بها تقوية الصف بالتعارف وتمازج النفوس والأرواح ومقاومة العادات والمألوفات والمران على حسن الصلة بالله تبارك وتعالى واستمداد النصر منه، وهذا هو معهد التربية الروحية للإخوان المسلمين - ثم (الفرق) للكشافة والجوالة والألعاب الرياضية.

ويراد بها تقوية الصف بتنمية أجسام الإخوان وتعويدهم الطاعة والنظام والأخلاق الرياضية الفاضلة وإعدادهم للجندية الصحيحة التى يفرضها الإسلام على كل مسلم، وهذا هو معهد التربية الجسمية للإخوان المسلمين - ثم (درس التعاليم) فى الكتائب أو فى أندية الإخوان - ويراد به تقوية الصف بتنمية أفكار الإخوان وعقولهم بدراسة جامعة لأهم ما يلزم الأخ المسلم لمعرفة دينه ودنياه وهذا هو معهد التربية العلمية والفكرية للإخوان المسلمين.

ذلك إلى مختلف نواحى النشاط الأخرى التى يُدرَّب عليها الإخوان استعدادًا للواجب الذى ينتظرهم كجماعة تعد نفسها لقيادة أمة بل لهداية العالمين، ثم بعد أن تطمئن على

موقفها من هذه الخطوة تخطو بمشيئة الله الخطوة الثالثة، وهى الخطوة العملية التى تظهر بعدها الثمار الكاملة لدعوة الإخوان المسلمين[١].

ثامنا: أنها دعوة ربانية:

لأن أهداف الجماعة تدور حول إرجاع الناس إلى ربهم ـ سبحانه وتعالى ـ محققين بذلك هتافهم (الله غايتنا).

تاسعا: أنها دعوة عالمية:

لأنها تدعو الناس جميعا فى المشرق والمغرب للرجوع إلى منهج الله كما خاطب النبى ﷺ الجميع فى قوله: «**أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**»[٢].

هذه بعض خصائص دعوة الإخوان التى تواكبها أهداف الحركة التى نذكر منها:

هدف الإخوان فى العموم:

يقول الأستاذ البنا: نحن نريد الفرد المسلم، والبيت المسلم، والشعب المسلم، والحكومة المسلمة، والدولة التى تقود الدول الإسلامية وتضم شتات المسلمين، وتستعيد مجدهم وترد عليهم أرضهم المفقودة، وأوطانهم المسلوبة، وبلادهم المغصوبة، ثم تحمل علم الجهاد ولواء الدعوة إلى الله حتى تسعد العالم بتعاليم الإسلام، ثم يقول الأستاذ ـ رحمه الله: اذكروا دائما أن لكم هدفين أساسيين:

١ ـ أن يتحرر الوطن الإسلامى من كل سلطان أجنبى، وذلك حق طبيعى لكل إنسان لا ينكره إلا ظالم جائر أو مستبد.

٢ ـ أن يقوم فى هذا الوطن الحر دولة إسلامية حرة تعمل بأحكام الإسلام وتطبق نظامه الاجتماعى وتعلن مبادئه القويمة وتبلغ دعوته الحكيمة إلى الناس. وما لم تقم هذه الدولة

---

(١) مجموعة الرسائل ص ١٥٢ بتصرف.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٤)، والحاكم (١/ ٥١) عن ربيعة الديلى رضي الله عنه، وأخرجه ابن خزيمة فى صحيحه (٩٥١)، والحاكم (٢/ ١١٦، ٢١٦) عن طارق بن عبد الله المحاربى رضي الله عنه، قال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبى.

فإن المسلمين جميعا آثمون مسؤولون بين يدى الله العلى الكبير عن تقصيرهم فى إقامتهم وقعودهم عن إيجادها.

هذا فى العموم أما على التفصيل فإليك البيان:

١ - تصحيح فهم المسلمين لدينهم، وشرح دعوة القرآن الكريم شرحا واضحا، وعرضها عرضا كريما يوافق روح العصر، ويكشف عما فيها من روعة وجمال ويرد عنها الأباطيل والشبهات.

٢ - جمع المسلمين عمليا على مبادئ كتابهم الكريم بتجديد أثره البالغ القوى فى النفوس.

٣ - خدمة المجتمعات وتنقيتها بمحاربة الجهل والمرض والفقر والرذيلة، وتشجيع البر والنفع العام فى أية صورة.

٤ - الاهتمام بالأسرة وذلك عن طريق الإلزامات الآتية:

أ - لابد لكل أخ من أن يعطى اهتماما خاصًا لبيته سواء أكان زوجا أو أخا أو ابنا.

ب - لابد للجماعة من أن تعطى العمل النسائى حقه من خلال نشر الكتاب، ومن خلال إقامة الحفلات والحلقات النسائية العامة والخاصة، ومن خلال التكوين العالى للأخوات المسلمات.

جـ - لابد لكل أخ أن يتخذ الزوجة الصالحة.

د - يقوم كل أخ بربط أبنائه وبناته وإخوانه وأخواته بأجهزة الجماعة.

هـ - قيام الجماعة بإنشاء أجهزة لازمة لتغطية كل هذه الشؤون، من جهاز لرعاية شؤون الأبناء فى كل شعبة، إلى جهاز لتغطية العمل النسائى فى كل شعبة، إلى جهاز خاص لتكوين الأخوات المسلمات فى كل مركز، إلى جهاز خاص فى المركز يتلقى الأبناء إذا تجاوزوا مرحلة معينة.

و - حرص أفراد الجماعة على تحرير بيوتهم من كل مخالفة، وعلى منع التنافس الدنيوى

بين نساء الإِخوان وتشجيع مظاهر الزهد.

ز ـ تقوم الجماعة بإنشاء الحلقات المسجدية النسائية، وتؤمن لها مدرسات نشيطات صالحات ومدرسين صالحين.

ح ـ تقوم الجماعة بالعناية بالكتب النسائية فتختار ما هو صالح وتكلف بالتأليف وتطبع وتضع أنواعا من الكتب النسائية تحت تصرف المرأة والبنت المسلمة، وتحرص على إيجاد المكتبة الإِسلامية، فالبيت المسلم لن يوجد فقط من خلال توجيه الزوج أو الأب أو الابن بل يوجد من خلال هذا ومن خلال إيجاد البيئات المناسبة والرعاية المتكاملة.

ط ـ تقوم الجماعة بقدر المستطاع على تشجيع الزواج المبكر والعمل على الإِصلاح الفردى الذى سيكون له أثره الطيب فى الأسرة، فما الأسرة إلا مجموعة أفراد فإذا صلح الرجل وصلحت المرأة، وهما عماد الأسرة استطاعا أن يكوِّنا بيتا نموذجيا على القواعد التى وضعها الإِسلام.

وقد وضع الإِسلام قواعد البيت فأحكم وضعها حيث إنه:

ـ أرشد إلى حسن الاختيار للزوجة.

ـ وبين أفضل الطرائق للارتباط.

ـ وحدد الحقوق والواجبات.

ـ وأوجب على الطرفين رعاية ثمرات هذا الزواج حتى تنبع وتنضج فى غير عبث ولا إهمال.

ـ وعالج ما يعترض هذه الحياة الزوجية من المشكلات أدق علاج.

ـ واختط فى كل نظرية للأسرة طريقًا وسطا لا تفريط فيه ولا إفراط.

فالإِخوان يريدون البيت المسلم فى تفكيره وعقيدته وفى خلقه وعاطفته وفى عمله وتصرفه، ولهذا يعنون بالمرأة عنايتهم بالرجل، ويعنون بالطفولة عنايتهم بالشباب، وهذا هو هدفهم فى تكوينهم الأسرى المنشود.

٥- الاهتمام بتكوين الأمة المسلمة:

ليس من شك أنه إذا صلحت الأسرة فقد صلحت الأمة فما الأمة إلا مجموعة أسر، وإنما الأسرة أمة مصغرة، والأمة أسرة كبيرة، وقد وضع الإسلام للأمة قواعد الحياة الاجتماعية السعيدة.

لذلك فالإخوان يريدون الشعب المسلم، فالأمة المسلمة، ويعملون على توصيل هذه الدعوة إلى كل بيت، وأن يسمع صوتهم فى كل مكان، وأن تنتشر الفكرة وتتغلغل فى القرى والمراكز والأمصار، وهم بذلك لا يألون جهدا ولا يتركون وسيلة يرضى عنها الله ورسوله.

ولهذه الأهداف يجمل الشيخ المربى حسن البنا ـ رحمه الله ـ ذلك فيقول:

مهمتنا نحن الإخوان المسلمين! أما إجمالا فهى: أن نقف فى وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة وحضارة المتع والشهوات ـ حتى تنحسر عن أرضنا ويبرأ من بلائها قومنا، ولسنا واقفين عند هذا الحد، بل سنلاحقها فى أرضها، وسنغزوها فى عقر دارها حتى يهتف العالم كله باسم النبى ﷺ، وتوقن الدنيا كلها بتعاليم القرآن، وينشر ظلال الإسلام الوارف على الأرض، وحينئذ يتحقق للمسلم ما ينشده، فلا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، ثم يقول:وأول واجباتنا نحن الإخوان أن نبين للناس حدود هذا الإسلام واضحة كاملة بينة؛ لا زيادة فيها ولا نقص بها ولا لبس معها، وذلك هو الجزء النظرى من فكرتنا، وأن نطالبهم بتحقيقها ونحملهم على إنفاذها، ونأخذهم بالعمل بها، وذلك هو الجزء العملى من هذه الفكرة.. وسيكون شعارنا الدائم: الله غايتنا، والرسول قدوتنا، والقرآن دستورنا، والجهاد سبيلنا، والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا.. إن منهاج الإخوان المسلمين محدود المراحل واضح الخطوات، فنحن نعلم تماما ماذا نريد، ونعرف الوسيلة إلى تحقيق هذه الإرادة: نريد أولا الرجل المسلم .. ونريد بعد ذلك البيت المسلم .. ونريد بعد ذلك الشعب المسلم .. ونريد بعد ذلك الحكومة المسلمة.

ونحن لهذا لا نعترف بأى نظام حكومى، لا يرتكز على أساس الإسلام، ولا يستمد منه، وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامى بكل مظاهره وتكوين الحكومة الإسلامية على هذا النظام .. ونريد بعد ذلك أن نضم إلينا كل جزء من وطننا الإسلامى الذى فرقته السياسة الغربية.. ونريد بعد ذلك أن تعود راية الله خفاقة عالية على تلك البقاع التى سعدت بالإسلام حينا من الدهر.

نريد بعد ذلك ومعه أن نعلن دعوتنا على العالم،وأن نبلغ الناس جميعا،وأن نعم بها آفاق الأرض،وأن نخضع لها كل جبار،حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، ولكل مرحلة من هذه المراحل خطواتها وفروعها ووسائلها.وإنما نجمل القول دون إطالة ولا تفصيل وهذا الذى ذكرناه يمثل غيضا من فيض من خصائص الحركة وأهدافها.

وسائل إيجاد الخصائص وتحقيق الأهداف:

إن وسائل تحقيق هذه الأهداف التى ذكرناها يقول فيها الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله: (الوسيلة فى تركيز كل دعوة وثباتها معروفة معلومة مقروءة لكل من له إلمام بتاريخ الجماعات، وخلاصة ذلك جملتان: (إيمان وعمل، ومحبة وإخاء).

(ماذا فعل رسول الله ﷺ أكثر من أنه دعاهم إلى الإيمان والعمل، ثم جمع قلوبهم على الحب والإخاء، فاجتمعت قوة العقيدة إلى قوة الوحدة).

وفى مكان آخر يقول: والوسائل العامة للدعوات لا تتغير ولا تتبدل ولا تعدو هذه الأمور:

(١) الإيمان العميق. (٢) التكوين الدقيق.

(٣) العمل المتواصل.

وفى مكان آخر يتحدث عن أركان الوسيلة فيذكر منها ثلاثة:

(١) المنهاج الصحيح. (٢) المؤمنون العاملون.

(٣) القيادة الحازمة الموثوق بها.

ومن خلال استعراضنا لهذه النقاط السريعة ندرك المهمة الكبرى الأولى وهى عملية التجديد فى الأمة الإسلامية. كما ندرك واحدا من أهم ما تحتاجه هذه العملية وهى فى تعبير الأستاذ البنا (القيادة الحازمة الموثوق بها) فإن كل عمل ينطلق من غير هذه البداية هو عمل يفقد القابلية للبقاء والاستمرار، فضلا عن القيادة القادرة على التجديد والتحقيق والنقل والقيام بالواجبات كلها بحيث تسع احتياجات الجماعة والأمة؛ لذا فإن البحث عن العناصر القيادية الإسلامية وتأهيلها وإعطاءها دورها شىء أساسى وهام فى العمل الإسلامى ويجب أن يتقن الطريق إليه إتقانًا كاملا.

وهذه القيادة عليها أن تحقق الإيمان العميق وأن تتولى عملية التكوين الدقيق، وأن تعتاد العمل المتواصل على ضوء المنهاج الصحيح وبالتعاون مع المؤمنين العاملين.

هذه هى الوسائل فى عمومها، أما على التفصيل فهى:

(١) الإقناع ونشر الدعوة بكل وسائل النشر حتى يفقهها الرأى العام ويناصرها عن عقيدة وإيمان.

(٢) استخلاص العناصر الطيبة لتكون هى الدعائم الثابتة لفكرة الإصلاح.

(٣) النضال الدستورى حتى يرتفع صوت هذه الدعوة فى الأندية الرسمية وتناصرها وتنحاز إليها القوة التنفيذية، وعلى هذا الأساس سيتقدم مرشحو الإخوان المسلمين حين يجىء الوقت المناسب إلى الأمة ليمثلوها فى الهيئات النيابية، ونحن واثقون بعون الله من النجاح ما دمنا نبتغى بذلك وجه الله ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[1].

(٤) المنهاج الصحيح - وقد وجده الإخوان فى كتاب الله وسنة رسوله، وأحكام الإسلام حين يفهمها المسلمون على وجهها غضة نقية بعيدة عن الدخائل والمفتريات فيعكفون على دراسة الإسلام على هذا الأساس دراسة سهلة واسعة مستوعبة.

---

(١) الحج: ٤٠.

(٥) العاملون المؤمنون ـ ولهذا أخذ الإِخوان أنفسهم بتطبيق ما فهموه من دين الله تطبيقا لا هوادة فيه ولا لين، وهم بحمد الله يؤمنون بفكرتهم مطمئنون إلى غايتهم واثقون بتأييد الله إياهم ما داموا له وعلى هدى رسول الله ﷺ يسيرون.

(٦) القيادة الحازمة الموثوق بها، وقد وجدها الإِخوان المسلمون كذلك فهم لها مطيعون، وتحت لوائها يعملون.

وهنا لابد من ذكر حقيقة وهى أنه:قد تكون إلى جانب هذه الوسائل العامة وسائل إضافية أخذوا بها،منها السلبى،ومنها الإِيجابى،ومنها ما يتفق مع عرف الناس،ومنها ما يخرج على هذا العرف ويخالفه ويناقضه، ومنها ما فيه لين، ومنها ما فيه شدة وذلك كله يضمن النجاح بمشيئة الله،لذلك قد يُطلب من الإِخوان أن يخالفوا عادات ومألوفات، وأن يخرجوا على نظم وأوضاع ألفها الناس وتعارفوا عليها، فالدعوة فى حقيقة أمرها ليست إلا خروجا على المألوف وتغييرا للعادات والأوضاع.

وخلاصة الأمر تبين أن:

غاية الإِخوان الأساسية .. وهدف الإخوان الأسمى.. والإِصلاح الذى يريده الإِخوان ويهيئون له أنفسهم: إصلاح شامل كامل تتعاون عليه قوى الأمة جميعا وتتجه نحوه الأمة جميعا ويتناول كل الأوضاع القائمة بالتغيير والتبديل.

فالإِخوان المسلمون يهتفون بدعوة، ويؤمنون بمنهاج، وينصرون عقيدة، ويعملون فى سبيل إرشاد الناس إلى نظام اجتماعى يتناول شؤون الحياة جميعا اسمه (الإِسلام).. نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين ليكون به من المنذرين بلسان عربى مبين.. ويريدون بعث الأمة الإِسلامية النموذجية التى تدين بالإِسلام الحق فيكون لها هاديًا وإماما، وتعرف فيه الناس بأنها دولة القرآن التى تصطبغ به، والتى تذود عنه، والتى تدعو إليه، والتى تجاهد فى سبيله، وتضحى فى هذا السبيل بالنفوس والأموال.

ثم إن هذه الوسائل تحتاج إلى صبر ومصابرة وفى ذلك يقول الأستاذ حسن البنا ـ رحمه

الله: «إن طريقكم هذا مرسومة خطواته، موضوعة حدوده. ولست مخالفا هذه الحدود التى اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول. أجل قد تكون طريقا طويلة ولكن ليس هناك غيرها.

إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها، أو يقطف زهرة قبل أوانها فلست معه فى ذلك بحال، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات، ومن صبر معى حتى تنمو البذرة، وتنبت الشجرة، وتصلح الثمرة، ويحين القطاف فأجره فى ذلك على الله ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين فإما النصر والسيادة، وإما الشهادة والسعادة».

وهذا الصبر يجب ألا ينتهى إلى اليأس، لذلك قال الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله:

أيها الإخوان المسلمون:

لا تيأسوا، فليس اليأس من أخلاق المسلمين، وحقائق اليوم أحلام الأمس، وأحلام اليوم حقائق الغد،ولازال فى الوقت متسع، ولا زالت عناصر السلامة قوية عظيمة فى نفوس شعوبكم المؤمنة رغم طغيان مظاهر الفساد، والضعيف لا يظل ضعيفًا طول حياته، والقوى لا تدوم قوته أبد الآبدين: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [(١)].

إن الزمان سيتمخض عن كثير من الحوادث الجسام،وإن الفرص ستسنح للأعمال العظيمة،وإن العالم ينتظر دعوتكم دعوة الهداية والنور والسلامة لتخلصه مما هو فيه من آلام،وإن الدور عليكم فى قيادة الأمم وسيادة الشعوب،وتلك الأيام نداولها بين الناس، وترجون من الله ما لايرجون،فاستعدوا واعملوا اليوم فقد تعجزون عن العمل غدا.

لقد خاطبت المتحمسين منكم أن يتريثوا وينتظروا دورة الزمان، وإنى لأخاطب المتقاعدين أن ينهضوا ويعملوا فليس مع الجهاد راحة:

---

(١) القصص: ٥.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[١].

وإلى الأمام دائما، والله أكبر ولله الحمد.

وفى هذا يقول الشيخ سعيد حوى ـ رحمه الله: «لقد وضع الإمام البنا قواعد للفهم وقواعد للتربية وقواعد فى التنظيم وقواعد فى الإستراتيجية والحركة.

وأبقى الباب مفتوحا بعد ذلك لأنواع من الاختلافات فى وجهات النظر لا تضر وحدة الجماعة ما دام هناك التزام بتلك القواعد، وما دام الاختلاف منضبطا فيها.. وبهذا وأمثاله استطاع البنا ـ رحمه الله ـ أن يقيم بناء يتوسع على الزمان، لقد استطاع البنا ـ رحمه الله ـ أن يوحد الإطار الكلى الذى يضم المسلمين جميعا فكرة وتنظيما، واستطاع أن يجمع بين الأفكار الصالحة كلها وينفى الأفكار الخاطئة كلها فجمع فى دعوته ما تفرق عند غيره من خير، وأبعد عنها ما يوجد فى غيرها من شر أو دخن»[٢].

ولذلك كان إعجاب سيد قطب ـ رحمه الله ـ متركزا بصورة خاصة على عبقرية البناء عند الشيخ المربى حسن البنا ـ رحمه الله ـ وبصورة أشد فى ناحيتين مهمتين:

(١) فى البناء النفسى المتوازن لأعضاء الحركة بإيجاد النسب المتكافئة بين العلم والروح والحركة من جهة، وبين المدارس الإسلامية المتخصصة من جهة ثانية .

(٢) وفى البناء التنظيمى للجماعة، وقد كان هذا البناء هو الأول من نوعه فى العالم بالنسبة للعمل الجماعى المتجسد بصورة (حزب إسلامى).

*** المنهج العقدى والفقهى عند الإخوان:**

هو منهج سلفى صرف لا غبار عليه، ويتبين ذلك من قول الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله ـ فى الأصول العشرين، ففى الأصل السادس يقول ـ رحمه الله:

«وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ، وكل ما جاء عن السلف ـ

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) جولات فى الفقهين الكبير، والأكبر سعيد حوى ص٠٨، الطبعة الأولى، دار الأرقم.

رضوان الله عليهم ـ موافقا للكتاب والسنة قبلناه، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع، ولكنا لا نعرض للأشخاص فيما اختلف فيه ـ بطعن أو تجريح ـ ونكلهم إلى نياتهم وقد أفضوا إلى ما قدموا».

وعلى ذلك علق الشيخ سعيد حوى فقال :

لا عصمة عند أهل الحق إلا للكتاب والسنة، ولذلك فإن الخطأ فيما سوى ذلك ممكن، وبالتالى فكل أحد بعد الله ورسوله يؤخذ من كلامه ويرد، ومن ذلك كلام السلف وكلام الأئمة، فحيثما تبين لنا أن هناك كلامًا يخالف الكتاب والسنة رددناه كائنا من كان قائله.

وكذلك يقول الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ فى الأصل التاسع: (وكل مسألة لا ينبنى عليها عمل، فالخوض فيها من التكلف الذى نهينا عنه شرعا، ومن ذلك كثرة التفريعات للأحكام التى لم تقع).

فعلق الشيخ سعيد حوى قائلا[1] :

كان أدب الصحابة أنهم لا يسألون عن شىء لم يقع، فإذا وقعت واقعة بحثوا عن حكم الله فيها، حتى أن عمر كان يلعن من سأل عن شىء لم يقع كما ذكره الدارمى، وهناك مسائل ليست من باب العقائد التى كلفنا بها، وليست من باب الفقهيات التى نحتاجها أو يحتاجها المسلمون، وليست من باب السلوكيات ولا يتوقف عليها فهم نصوص الكتاب والسنة، وليست لازمة فى أمر الدنيا والدين، مثل هذه المسائل لا ينبغى أن نشغل فيها وقتًا لأنها لا تخرج عن كونها إتعابًا للأنفس والعقول وإضاعة للوقت فى غير طائل، بل لعلها داخلة فى أخلاقيات المتفاصحين والمتقعرين المتفيهقين، وكل ذلك من التكلف المنهى عنه شرعا، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾[2].

ولتوضيح أمر المنهج لابد من ذكر بعض الأمور التفصيلية فى المنهج الفقهى، والمنهج العقدى:

---

(١) فى آفاق التعاليم للشيخ سعيد حوى.

(٢) ص: ٨٦.

*** المنهج الفقهى:**

سنختار منه قضية المذهبية[١].

قبل البدء فى تقرير ما يتعلق بهذا الموضوع سأذكر مقالا عن الاجتهاد والتقليد بنصه نشر فى مجلة الأخوة الإسلامية[٢] فى السنة الأولى تحت عنوان:(فى صياغة الأخ الداعية).

يقول الكاتب: إننى أحاول أن أزيل بعض الشبهات التى تكتنف بعض المفاهيم فى معنى التقليد والاجتهاد:

التقليـــد:

تعريفه: (قبول قول الغير من دون مطالبة بحجة) من كتاب أو سنة، فإن سأل السائل عنهما فليس بمقلد. وهذا التعريف يسلمه كل مقلد ولا ينكره.

وللمقلدة أدلة فيما يعتقدون. منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾[٣].

إنا نسألهم،لأننا لا نعلم فيفتوننا، أى أن تقليدنا للمذاهب إنما هو استفتاء للعالم.

الجواب: الذكر هو القرآن والحديث، ويجب السؤال عن (الدليل) من (أهل الدليل). ولقد أفتى جماعة جريحا ليغتسل من جنابة، فاغتسل فمات، فقال ﷺ: «**ألا يكفيه أن يضرب فى التراب يده كذا**» .. مشيرا إلى التيمم، ثم قال: «**قتلوه، قتلهم الله! ألا سألوا إذا لم يعلموا! إنما شفاء العىِّ السؤال**»[٤].

فأخذ الرأى من دون دليل قتل للمفتى، وإساءة إليه وإلى المستفتى، بنص الحديث، وبما سيأتى...

---

(١)وقد أشبعنا هذا بحثًا فى تحقيقنا لرسالة «القول السديد» فارجع إليها ففيها نفع كثير فى هذه المسألة.

(٢)تعتبر الصوت الناطق عن الإخوان فى ذلك الوقت فى العراق، وقد قمنا بتوضيح هذه المسألة عند إخراج وتحقيق رسالة «القول السديد فى بعض مسائل الاجتهاد والتقليد» وكتاب المذَّهب فى تدريس المذهب.

(٣) سورة الأنبياء : ٧.

(٤) أخرجه أبو داود (٦٣٣)، وابن ماجه (٢٧٥)، والبيهقى فى السنن الكبرى (١/ ٧٢٢، ٨٢٢) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، وحسنه الألباني.

٢ـ «**عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى**»[١]، وحديث «**اقتدوا باللّذين من بعدى أبى بكر وعمر**»[٢] حديث معروف مشهور فى السنن وغيرها. فقالوا: إننا نقلد الأئمة الأفاضل، كما نقلد الخلفاء الراشدين.

٣ـ «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[٣] فنحن نقتدى بالأئمة كما نقتدى بالصحابة.

٤ـ ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٤]. فأولو الأمر العلماء وطاعتهم تقليدهم فيما يفتون.

الجواب: **أولو الأمر**: الأمراء أو العلماء أو كلاهما، وطاعة العلماء غير تقليدهم؛ لأنهم قد نهوا عن التقليد أشد النهى كما سيأتى، فطاعتهم ترك تقليدهم.

٥ـ إن أجزنا الاجتهاد لكل فرد،فقد كلفنا الإنسان مالا يطيقه،فتتعطل الحياة العملية.

الجواب: إنما تقرر لكل إنسان السؤال عن الحكم الشرعى الثابت فى الكتاب والسنة كى يأخذ دينه من معينه، بمعرفة النص لفظا أو معنى وهذا أخف من تفهم دقائق علم الرأى وهذا هو الذى درجت عليه القرون الثلاثة، وهى خير القرون:«خير القرون قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[٥]. والمذاهب الأربعة كانت فى القرون الثلاثة المشار إليها، ولم تعرف عصورها التقليد قط، فقد خالفهم تلاميذهم فى كثير من المسائل، وإن

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٠٦٤)، والترمذى (٦٧٦٢)، وابن ماجه (٢٤ ـ ٤٤) وأحمد (٤/ ٦٢١)، والحاكم (١/ ٥٩ ـ ٦٩) عن العرباض بن سارية رضي الله عنه . قال الترمذى: «حسن صحيح» وصححه الحاكم ووافقه الذهبى، وصححه الألبانى.

(٢) أخرجه الترمذى (٣٦٦٣، ٢٦٦٣، ٩٩٧٣)، وابن ماجه (٧٩)، وأحمد (٥/ ٢٨٣)، والحاكم (٣/ ٥٧) عن حذيفة رضي الله عنه ، قال الترمذى: «حسن»، وقال الحاكم: «هذا حديث من أجل ما روى فى فضائل الشيخين».

(٣) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق (٢٢/ ٩٥٣)، والديلمى فى الفردوس (٧٩٤٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال الألبانى فى الضعيفة (٩٥): « موضوع » .

(٤) النساء :٥٩.

(٥) أخرجه البخارى (٨٢٤٦)،ومسلم (٥٣٥٢) عن عمران بن حصين رضي الله عنه .

المرء لا يسأل يوم القيامة: لم لم تستجب لقول فلان أو رأيه بل يسأله: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾!![1].

٦ـ إن باب الاجتهاد قد أغلق لعدم وجود من يفهم الكتاب.

الجواب: هل الله عجز عن أن يصوغ النفوس صياغة تفهم القرآن! أو هل عجز عن أن يصوغ القرآن صياغة تفهم! وهو القائل سبحانه: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾[2]. و﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾[3]. ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾[4]، و﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[5].

فكيف يهدي إذا كان لا يفهم!! وقد قال اليهود: إن التوراة لا تفهم، فأجابهم الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[6].

والله يأمرنا أن نفهم قرآننا كفهمنا لأبنائنا ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ ﴾[7].

من هذا يتبين لك أن الإسلام يستند إلى الحجة والدليل دائما ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾[8]. ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ ﴾[9]، ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ ﴾[10].

---

(١) القصص: ٦٥.
(٢) الشعراء: ١٩٥.
(٣) الزمر: ٢٨.
(٤) القمر: ١٧.
(٥) الإسراء: ٩.
(٦) البقرة: ٨٨.
(٧) البقرة: ١٤٦.
(٨) البقرة: ١١١.
(٩) النساء: ١٠٥.
(١٠) الإسراء: ٣٦.

وتعريف التقليد أنه من دون حجة أو دليل، فليس بعلم إذن... ومتى سأل المسلم عن الدليل من كتاب أو سنة،فقد خرج من حيز التقليد، على رأى المقلدة.

*** رأى أئمة المذاهب الأجلاء فى التقليد:**

حكى الشعرانى فى الميزان أن الأئمة الأربعة كلهم قالوا: (إذا صح الحديث فهو مذهبنا). وقال الإمام الأعظم أبو حنيفة (رضي الله عنه): (لا يحل لأحد أن يقول بقولنا، حتى يعلم من أين قلنا)، وقال: (حرام على من لم يعرف دليلى أن يفتى بكلامى). وقال مالك رضي الله عنه: (إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا فى رأيى، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل مالم يوافقهما فاتركوه).

ولقد تواتر عن الشافعى رضي الله عنه أنه سأله رجل فقال: يروى عن النبى ﷺ أنه قال كذا وكذا، فقال له السائل: يا أبا عبد الله أتقول بهذا؟! فأجابه: (أرأيت فى وسطى زنارا!! أترانى خرجت من الكنيسة!!) وفى رواية:فارتعد الشافعى واصفر وحال لونه وقال: (ويحك! أى أرض تقلنى، وأى سماء تظلنى، إذا رويت عن رسول الله ﷺ شيئاً، ولم أقل له: نعم على الرأس والعين، نعم على الرأس والعين!!).

وقال أبو داود: سمعت أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول: (الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبى ﷺ).وقال لأبى داود:(لا تقلدنى ولامالكا ولا الشافعى ولا الأوزاعى ولا الثورى وخذ من حيث أخذوا)!! أى من القرآن والحديث.

يا لله.. إن القلم إذ ينقل ذلك، على وجل من الله وحياء من رسول الله ﷺ أيحتاج أن نوضح أنه يجب تقديم كلام الله والرسول على ما سواهما!! ثم أويجوز أن نرجح قول غيرهما كائنا من كان؟!

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [(١)].

ولو أن عالما من علماء الإسلام اليوم يجعل قوله كقول الله والرسول، لكان كافرا مرتدا!

(١) الأحزاب: ٣٦.

فضلاً عن أن يجعل قوله مقدما على قولها!! وهل يتصور أحد أئمة المذاهب المكرمين لو وقف بين يدى الرسول ﷺ أكان يرد عليه قوله أو يخالفه؟!

لا والله!! بل لا يقدر أن يرفع بصره إلى محياه إجلالا له وإكبارا. وكان الصحابة ينتظرون الرجل يأتى من البادية، ليسأله ﷺ كى يستفيدوا بجوابه؛ لأن الحياء منه كان يعقل لسانهم أمامه عن السؤال أحيانا، وكأن على رؤوسهم الطير!!

وفى الختام إليك أهدى أيها القارئ الكريم، موعظة غالية للرسول ﷺ، فقد ثبت فى كتب السنن ورجال الصحيح: (وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله إن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟

فقال: «قد تركتكم على البيضاء: ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا. فعليكم بما عرفتم من سنتى وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، وعليكم بالطاعة، وإن كان عبدا حبشيا، عضوا عليها بالنواجذ، إنما المؤمن كالجمل الأنف، كلما قيد انقاد، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[1].

*** قواعد مسألة الاجتهاد والتقليد كما علمتها من أفواه كثيرٍ من الإخوان:**

سأعمد لإيضاح القواعد وتقنينها إلى بعض النقولات من كتاب البوطى فى المذهبية، والتى نقلها بدوره عن العلماء المجتهدين من سلفنا ـ رحمهم الله ـ وإلى ما قال الإمام حسن البنا رحمه الله.

ما ذكره البوطى[2] :

(١) إن المقلد لأحد المذاهب، ليس ثمة ما يلزمه شرعا بالاستمرار فى تقليده وليس ثمة

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٤)، وأحمد (٤/ ٦٢١) والحاكم (١/ ٦٩١) عن العرباض بن سارية رضي الله عنه، وصححه الألبانى

(٢)مجلة الأخوة الإسلامية السنة الأولى ـ وكانت بإشراف وإدارة الشيخ الفاضل محمد محمود الصواف مسؤول الإخوان فى ذلك الوقت.

ملاحظة: مع ذكر المقال كشاهد لا يعنى أنى أوافقه فى كل استشهاداته.

ما يمنعه من التحول عنه إلى غيره. فقد أجمع المسلمون على أن للمقلد أن يقلد من شاء من المجتهدين إذا توصل إلى حقيقة مذاهبهم وآرائهم، فله مثلا أن يقلد كل يوم إمامًا من الأئمة الأربعة، ولئن ظهر فى بعض العصور المتأخرة من استهجن تحول المقلد من مذهب إلى آخر،فهو التعصب الذى أجمع المسلمون على بطلانه.

ومعلوم لكل باحث، أن هذا الذى لا خلاف فيه، هو غير دعوى أن على المقلد ألا يلتزم مذهبا بعينه، وأن عليه أن يلون ويغير. أى إن عدم وجوب الالتزام لا يستلزم حرمة الالتزام.

(٢) إن المقلد إذا ما تمرس فى فهم مسألة من المسائل وتبصر بأدلتها من الكتاب والسنة وأصول الاجتهاد، وجب عليه أن يتحرر فى الأخذ بها من مذهب إمامه، وحرم عليه التقليد فيها طالما أمكنه أن يجتهد فيها معتمدا على طاقته العلمية المتوفرة لديه، أجمع على ذلك العلماء وأئمة المذاهب أنفسهم. وبدهى أنه يحرم عليه إذاً ترجيح رأى إمامه على ما هداه إليه اجتهاده فى تلك المسألة التى توفر على دراستها والتعمق فى فهم أدلتها وأصولها.
ومعلوم لكل باحث أيضا،أن هذا الذى لا خلاف فيه،لا يستلزم بحال دعوة المقلد الجاهل بأدلة الأحكام إلى نبذ التقليد والاعتماد مباشرة على نصوص الكتاب والسنة.

(٣) متى يجب الانقطاع عن تقليد المذهب وإمامه: هنالك حالتان يجب فيهما على المقلد مهما كان شأنه، أن يمتنع عن مواصلة اتباع إمامه وتقليده.

الحالة الأولى: أن يصل فى معرفة مسألة من المسائل إلى الإحاطة بها والاطلاع على كافة أدلتها ومعرفة كيفية استنباط الحكم منها. فإن عليه أن يتبع فى تلك المسألة ما يهديه إليه اجتهاده، وليس له أن يطوى ملكته العلمية فيها ليواصل السير وراء إمامه.

فإن كانت ملكته هذه تتسع لأكثر من مسألة واحدة فالحكم فيها كذلك.

الحالة الثانية: إذا رأى حديثا يدل على عكس ما يذهب إليه إمامه الذى يقلده فى دينه، وتأكد من صحة الحديث ودلالته على الحكم، فإن عليه أن يتبع دلالة الحديث ويقلع عن

التمسك بمذهب إمامه فى الحكم؛ لأن الأئمة الأربعة جميعاً كانوا يوصون أصحابهم وتلاميذهم بالتحول إلى دلالة الحديث الصحيح إذا جاء مخالفا لاجتهاداتهم، فالتحول إلى الحديث فى الحقيقة من صميم مذاهب الأئمة الأربعة، وهو قدر مشترك يلتقون عليه ويدينون به.

ولكن لذلك شروطا لابد من معرفتها ومراعاتها،فليس كل حديث يلمحه الباحث ويرى أنه يدل على خلاف اجتهاد إمامه دالا فى الحقيقة على ما فهمه هذا الباحث.

فلترك الإمام ظاهر حديث ما أسباب اجتهادية كثيرة. أوصلها ابن تيمية ﵁ إلى عشرة أسباب، وأضاف إليها سبباً آخر هو أنه يجوز أن يكون للعالم حجة فى ترك العمل بالحديث لم نطلع عليها فإن مدارك العلم واسعة[١].

فإذا بحثنا عن أسباب ترك الإمام المجتهد لظاهر الحديث، ولم نعثر على سبب من الأسباب العشرة التى صورها ابن تيمية، فلا يجوز أن يعدل بعد ذلك عن دلالة الحديث الصحيح بحجة أنه قد يكون له عذر لم نطلع عليه، وقد تكون له حجة لم يذكرها؛ إذ إن تطرق الخطأ إلى العلماء أكثر من تطرقه إلى الأدلة الشرعية بعد معرفتها وتمحيصها وفهم المقصود منها[٢]:

ما ذكره الأستاذ حسن البنا ــ رحمه الله:

(١) القرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم فى تعرف أحكام الإسلام، ويفهم القرآن طبقا لقواعد اللغة العربية، من غير تكلف، ولا تعسف، ويرجع فى فهم السنة المطهرة إلى رجال الحديث الثقات.

(٢) كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ، وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقا للكتاب والسنة قبلناه، وإلا فكتاب الله أولى بالاتباع، ولكنا لا

---

(١)رفع الملام عن الأئمة الأعلام ص١٣.
(٢) اللامذهبية ص٥٣، ٦٨، ٧٨.

نعرض للأشخاص فيما اختلف فيه بطعن أو تجريح ونكلهم إلى نياتهم، وقد أفضوا إلى ما قدموا.

(٣) ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر فى أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماماً من أئمة الدين، ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع فى تعرف الأدلة، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صدق من أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمى إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر.

(٤) الخلاف الفقهى فى الفروع لا يكون سبباً للتفرق فى الدين، ولا يؤدى إلى خصومة ولكل مجتهد أجره، ولا مانع من التحقيق العلمى النزيه فى مسائل الخلاف فى ظل الحب فى الله، والتعاون على الوصول إلى الحقيقة من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب.

ومن غير تعليق يتضح المنهج السليم فى الاستنباط من خلال الكتاب والسنة وتتضح هذه المنهجية فى الحركة فيما لخصه محمد فتحى عثمان فى كتابه «السلفية فى المجتمعات المعاصرة» منهجية الأستاذ «حسن البنا» من خلال مذكراته.

فقال: إنه كان يحرص منذ حداثته على التزام السنة حتى فى لباسه فكان يضع على رأسه وهو طالب بمدرسة المعلمين «عمامة ذات عذبة» كما كان يلبس نعلا كنعل الإحرام فى الحج ورداء فوق الجلباب، وقد سأله عن زيه هذا مدير التعليم، فأجابه كما يروى فى مذكراته: «إنه السنة» فقال له: «وهل عملت كل السنن ولم يبق إلا سنة الزى» فقال له: «لا ونحن مقصرون كل التقصير ولكن ما نستطيع أن نفعله نفعله» وكان يطلق لحيته، وقد واجه عند استهلال دعوته فى الإسماعيلية انقساما سابقا بين «أنصار السنة» و«الطرقية»[1] فى المدينة، فهو يروى فى مذكراته أنه سئل ليلة فى أحد دروسه التى كان يلقيها بمسجد صغير عن «التوسل» وقد رأى أمارات الفرقة والتحفز بين الناس فقال للسائل: «يا أخى أظنك لا تريد أن تسألنى عن هذه المسألة وحدها، ولكنك تريد أن تسألنى كذلك فى

(١) أصحاب الطرق الصوفية.

الصلاة والسلام على الرسول ﷺ بعد الأذان، وفى قراءة سورة أهل الكهف يوم الجمعة، وفى لفظ السيادة للرسول ﷺ فى التشهد، وفى أبوى النبى ﷺ وأين مقرهما، وفى قراءة القرآن وهل يصل ثوابها إلى الميت أو لا يصل؟ وفى هذه الحلقات التى يقيمها أهل الطرق وهل هى معصية أو قربة إلى الله؟» وهكذا كان الرجل واعيا بحقيقة الموقف ومواضع الخلاف والإنكار، وقد شاء أن يواجه الأزمة والخلاف بطريقة مرنة.

يروى فى مذكراته: «.. وأخذت أسرد له (للسائل) مسائل الخلاف جميعا التى كانت مثار فتنة سابقة وخلاف شديد فيما بينهم، فاستغرب الرجل وقال: نعم أريد الجواب على هذا كله، فقلت له: يا أخى إنى لست بعالم، ولكنى مدرس أحفظ بعض الآيات وبعض الأحاديث النبوية وبعض الأحكام الدينية من المطالعة فى الكتب وأتطوع بتدريسها للناس، فإذا خرجت بى عن هذا النطاق فقد أحرجتنى ومن قال: لا أدرى فقد أفتى، فإذا أعجبك ما أقول ورأيت فيه خيرا فاسمع مشكورا، وإذا أردت التوسع فى المعرفة فسل غيرى من العلماء والفضلاء المختصين فهم يستطيعون إفتاءك فيما تريد، وأما أنا فهذا مبلغ علمى ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، فأخذ الرجل بهذا ولم يحر جوابا وأخذت عليه بهذا الأسلوب سبيل الاسترسال.

وارتاح الحاضرون أو معظمهم إلى هذا التخلص، ولكنى لم أرد أن تضيع الفرصة فالتفت إليهم، وقلت لهم: يا إخوانى أنا أعلم تماما أن هذا السائل وأن الكثير من حضراتكم ما كان يريد من وراء هذا السؤال إلا أن يعرف هذا المدرس الجديد من أى حزب هو؟ أمن حزب الشيخ موسى أو حزب الشيخ عبد السميع؟ (وهما الرجلان اللذان كانا على رأس السلفيين والطريقيين فيما يبدو)، وهذه المعرفة لا تفيدكم شيئا وقد قضيتم فى جو الفتنة ثمانى سنوات وفيها الكفاية،وهذه المسائل اختلف فيها المسلمون مئات السنين ولا زالوا مختلفين،والله ـ تبارك وتعالى ـ يرضى منا بالحب والوحدة، ويكره منا الخلاف والفرقة،فأرجو أن تعاهدوا الله على أن تدعو هذه الأمور الآن وتجتهدوا فى أن نتعلم أصول الدين وقواعده،ونعمل بأخلاقه وفضائله العامة وإرشاداته المجمع عليها، ونؤدى

الفرائض والسنن، وندع التكلف والتعمق حتى تصفو النفوس ويكون غرضنا جميعا معرفة الحق لا مجرد الانتصار للرأى، وحينئذ نتدارس هذه الشؤون كلها معا فى ظل الحب والثقة والوحدة والإخلاص، وأرجو أن تتقبلوا منى هذا الرأى ويكون عهدا فيما بيننا على ذلك، وقد كان، ولم نخرج من الدرس إلا ونحن متعاهدون على أن تكون وجهتنا التعاون وخدمة الإسلام الحنيف والعمل له يدا واحدة وطرح معانى الخلاف واحتفاظ كل برأيه فيها حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا.

واستمر درس (الزاوية) بعد ذلك بعيدا عن الجو الخلافى فعلا بتوفيق من الله..) على أن حسن البنا كان يحاول أن يصوغ فكر المستمعين إليه وأعضاء جماعته فى تدرج وبطء نحو العقيدة الصحيحة، وينزع بالناس نحو فهم السلف لحقائق الدين فى يسر، ويحرص على ألا تكون جماعته «طريقة» أخرى من طرق الصوفية، ويأخذ بأيدى الناس بعيدا عنها، وإن لم يشأ أن يصطدم مباشرة بها لتغلغلها وتأثيرها بمصر فى العامة والخاصة على السواء.

يقول فى مذكراته: «ولكن الحق أننى لم أكن متحمسا لنشر الدعوة على أنها طريق خاص لأسباب أهمها: أننى لا أريد الدخول فى خصومة مع أبناء الطرق الأخرى، وأننى لا أريد أن تكون محصورة فى نفر من المسلمين ولا فى ناحية من نواحى الإصلاح الإسلامى، ولكنى حاولت جاهدا أن تكون دعوة عامة قوامها العلم والتربية والجهاد وهى أركان الدعوة الإسلامية الجامعة». على أن حرص الرجل على ألا يتصادم هو مع الطرق أو غيرهم من الجماعات الدينية لم يمنع غيره من أن يبدأ هو النزال والصدام.. فإنه ما كان يظهر إعجاب الناس بها (بالدعوة) والْتِفَافُهُمْ حولها وتقديرهم للعاملين لها حتى أخذت عقارب الحسد والضغينة تدب فى نفوس ذوى الأغراض، وراحوا يصورون الدعوة والداعين للناس بصور شتى: فهم تارة يدعون إلى (مذهب خامس)، وهم أحيانا شباب طائش، وهم أحيانا نفعيون مختلسون يأكلون أموال الناس بالباطل وهكذا، «.. وكتبوا عريضة إلى رئيس الحكومة (وقتذاك) ضمنوها أمورا غريبة، منها أن هذا المدرس شيوعى متصل بموسكو ويستمد المال من هناك.. ومنها أن هذا المدرس وفدى (أى منتميا للحزب

المعارض للحزب الحاكم وقتذاك) ويعمل ضد النظام الحاضر.. وزعموا أن حسن البنا يعرض فى دروسه ومحاضراته سيرة أبى بكر الصديق أو سيرة عمر بن عبد العزيز ليغمز حكام مصر فى ذلك الوقت، وفشلت هذه المكائد».

وكان يبدو من الرجل الحرص على التزام السنة عملا، وتوقى الجدل القولى على الملأ، إلا إن كان هناك ما يدعو إلى النصيحة فيدعو إليها بالحكمة والموعظة الحسنة.. فقد حدث أن زار القاضى الشرعى مدينة الاسماعيلية مع غيره من كبار الموظفين والوجهاء بالمدينة فى إحدى ليالى رمضان فقال عن زيارته: «فقدَّم إلينا ـ أى القاضى ـ أكوابا من الفضة وجاء دورى فطلبت كوبا من زجاج فقط، فنظر إلى فضيلته مبتسما وقال: إن المسألة خلافية فيها كلام طويل ونحن لم نفعل كل شىء حتى نتشدد فى مثل هذا المعنى، فقلت: يا مولانا إنها خلافية إلا فى الطعام والشراب فالحديث متفق عليه والنهى شديد.. ولا مناص من الامتثال، وتدخل القاضى الأهلى فقال: «يا فضيلة القاضى ما دام هناك نص فالنص محترم، ولسنا ملزمين بالبحث عن الحكمة وإيقاف العمل بالنص حتى تظهر، فعلينا الامتثال أولا ثم إن عرفنا الحكمة فبها وإلا فذاك قصور منا، والعمل على كل حال واجب.

ثم يقول صاحب المذكرات: «فانتهزتها فرصة وشكرت له، وقلت له (القاضى الأهلى) مشيرا إلى إصبعه: ومادمت قد حكمت فاخلع هذا الخاتم فإنه من ذهب والنص يحرمه.. (وبعد حوار قصير) خلع خاتمه، وكانت جلسة لها صداها فى جمهور يرى مثل هذا الموقف العادى أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو نصيحة فى الله».

وحين فكر حسن البنا وإخوانه فى إحياء السنة بصلاة العيد بالصحراء يقول: «إذا بى أفاجأ بحملة عنيفة من المتربصين بالدعوة بأن هذا ابتداع فى الدين وتعطيل للمساجد وإفتاء بالباطل، ومن ذا الذى يقول:إن الشارع أفضل من الجامع.. وتصادف أنى كنت حينذاك معتكفا العشر الأواخر من رمضان بالمسجد العباسى، فكان الناس يتقاطرون على عقب كل صلاة ويسألوننى عن هذه «البدعة الجديدة» فأنا أستغرب هذه الحملة التى لا أساس لها وأقرر حكم الدين بكل بساطة وبراءة وأطلع الناس على النصوص الفقهية فى

هذا المعنى، وأتجنب الجدل والمراء وأوصى بجمع الكلمة والبعد عن الخصومة» .

وكان الرجل قد رسم لنفسه وجماعته خطة معينة فى هذا الأمر مراعاة لما يعلم من سرعة انقسام الآراء فى هذا البلد حول المسائل الدينية لشدة حساسيتها، ولقرب عهده بالخلافات الماضية وبذلك يقول: «اشترطت ألا نخطو خطوة حتى نستشير العلماء. ونتفق معهم على أسلوب التنفيذ، فإن وافقوا فذاك وإلا فإن اجتماع الآراء على خلاف الأولى أفضل من افتراقها وتشتيت الكلمة على ما هو أفضل، لكن جمهور المسلمين إذا بصر بالحق جند نفسه للدفاع عنه واتخذ هو المبادرة، وتجمع الجمهور للحق والسنة وأعلنوا أن الصلاة ستكون بظاهر البلد وأعدوا المصلى لذلك فعلا».

ويتوقى فى ذلك المصادمة والمهاجمة قدر طاقته «.. وخلال كل مجلس من مجالسه يطرق باب العقيدة الصحيحة فينميها ويقويها ويثبتها بما ورد من آيات الكتاب الحكيم وأحاديث الرسول العظيم ﷺ وسير الصالحين، ولا يعمد كذلك إلى نظريات فلسفية أو فقهية وإنما يلفت الأنظار إلى عظمة البارى فى كونه، وإلى جلال صفاته ويذكر بالآخرة لا يعدو جلال القرآن الكريم فى هذه المعانى كلها، ثم لا يحاول هدم عقيدة فاسدة إلا بعد بناء عقيدة صالحة وما أسهل الهدم بعد البناء وأشقه قبل ذلك.

وكلما مرت الأيام ازداد فكر الرجل تبلورا لا بشأن الحرص على التزام فهم السلف للإسلام فحسب، بل بشأن «المواجهة» الصريحة للمخالفين قولا وعملا، فهو يشير فى آخر ما نشر من مذكراته التى انتهت عند وقائع سنة ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م إلى حضور شخص إلى «الإسماعيلية» يدعو إلى الطريقة (...) ثم قال البنا ـ رحمه الله ـ عن نفسه: «أنا إنما وقفت نفسى لدعوة أرى أنها خير السبل للإصلاح الإسلامى، وأمثال هؤلاء يريدون تحويلها وتشكيلها بشكل دعواتهم وذلك ما لا أريده.

لقد آن الأوان الذى أعتزل فيه عن كل هذه الدعاوى المشتبهة، وأكشف فيه عن الغاية للإصلاح الإسلامى الذى يتلخص فى الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله وتطهير العقول

من هذه الخرافات والأوهام وإرجاع الناس إلى هدى الإسلام الحنيف»[1].

المنهج العقدى عند الإخوان:

فى مجال العقيدة نرى اهتماما عجيبا من قبل الإخوان فى البناء العقائدى للأخ، وذلك ليتحرر الناس من العبودية لغير الله، فبعد البناء العقائدى كيف يستطيع حاكم مستبد أن يحكم قوما وفى أعماق كل رجل منهم وكل امرأة وطفل مناد يهتف بهم فى كل وقت من ليل أو نهار أن لا خضوع إلا لله وأن لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق،وأن لا خوف إلا من الله،وأن لا فضل إلا من عند الله.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[2]،﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾[3].

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾[4] ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾[5]،﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾[6].

والعداء بين الطغاة من الحكام وبين العقيدة الإسلامية مستحكم من قديم، فهذا الحاكم المستبد الذى أحس خطورة هذه العقيدة على استبداده فاستدعى إبراهيم عليه السلام وهو فى غرور سلطته وأدار معه حوارًا على النحو الذى ورد فى الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى

(١)حسن البنا: مذكرات الدعوة والداعية، ط٢، بيروت سنة ٦٦٣١هـ - ٦٦٩١م، ص ٠٢، ٨٥، ٩٥، ١٦، ٤٧، ٩٧، ٠٠١ - ٢٠١، ٦٢١. نقلاً عن : السلفية فى المجتمعات المعاصرة :محمد فتحى عثمان ص٢٢١ - ٦٢١ .

(٢) الأنعام: ١٦٤.

(٣)الأنعام: ١٧.

(٤) الأنعام: ١٤.

(٥) الزمر: ٣٦.

(٦) آل عمران: ١٧٣- ١٧٥.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾[1].

وينهزم الحاكم المستبد حين يدخل مع العقيدة الإسلامية فى الحوار فيطيش صوابه ولا يجد فى جعبته إلا البطش والإرهاب فيأمر بإحراق صاحب هذه العقيدة لعلها تحترق باحتراقه وتبيد ويستريح منها، ولا يجد أمام استبداده عائقا يقف فى وجهه.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾[2].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾[3].

هذا من حيث الاهتمام بالعقيدة فى عمومها. أما المنهج فلا يتعدى الدائرة التى تحرك بها سلفنا الصالح ـ رضوان الله عليهم:

فى الأمور المتعلقة بالبدع:

يقول الشيخ ـ رحمه الله ـ فى الأصل الحادى عشر: «وكل بدعة فى دين الله لا أصل لها، استحسنها الناس بأهوائهم ـ سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه ـ ضلالة يجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التى لا تؤدى إلى ما هو شر منها».

وهذه المحاربة للبدع محدودة الأصول العامة كما يقول الأستاذ سعيد حوى: البدعة

(١) البقرة: ٢٥٨.
(٢) العنكبوت: ١٦، ١٧.
(٣) العنكبوت: ٢٤، ٢٥.

التى أجمع الفقهاء على تحريمها ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها، ولكن عندنا فى شريعتنا أصل عام يجب أن يراعى وهو؛ أن تغيير المنكر إذا أدى إلى منكر أكبر منه فعلينا أن نفتش عن طريقة أخرى للتغيير أو نسكت، ولذلك فإن ابن تيمية - رحمه الله - ينهى تلاميذه عن نهى التتار عن شرب الخمر؛ لأن التتار إذا سكروا وناموا خف شرهم عن المسلمين فى سكرهم ونومهم، ولكن إذا استيقظوا ولم يكن لهم شغل، هتكوا أعراض المسلمين أو سلبوا أموالهم أو قتلوهم.

منهج فهم الصفات والأسماء:

يؤكد الأستاذ حسن البنا - رحمه الله - منهج السلف فى ذلك فيبين:

أ - أن أسماء الله وصفاته توقيفية فيقول:

«اعلم أن جمهور المسلمين على أنه لا يصح أن نطلق على الله - تبارك وتعالى - اسما أو وصفا لم يرد به الشرع بقصد اتخاذه اسما له - تعالى - وإن كان يشعر بالكمال، فلا يصح أن نقول: مهندس الكون الأعظم، ولا أن نقول مثلا المدير العام لشؤون الخلق، على أن تكون هذه أسماء أو صفات له تعالى يصطلح عليها ويتفق على إطلاقها عليه تعالى، ولكنها إن جاءت فى عرض الكلام لبيان تصرفه تعالى من باب التقريب للأفهام فلا بأس، والأولى العدول عن ذلك تأدبا مع الحق تبارك وتعالى»[(١)].

ب - حديث البنا - رحمه الله - عن الفرق التى انقسمت فى موضوع الأسماء والصفات فيقول: انقسم الناس فى هذه المسألة على أربع فرق:

(١) فرقة أخذت بظواهرها كما هى فنسبت إلى الله وجها كوجوه الخلق ويدا كأيديهم وضحكا كضحكهم وهكذا حتى فرضوا الإله شيخا وبعضهم فرضه شابا وهؤلاء هم المجسمة والمشبهة وليسوا من الإسلام فى شىء وليس لقولهم نصيب من الصحة، ويكفى فى الرد عليهم قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ⑪﴾[(٢)].

---

(١) العقائد للأستاذ حسن البنا ص ١٢.

(٢) الشورى :١١.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾[1].

(٢) فرقة عطلت معانى هذه الألفاظ على وجه، يقصدون بذلك نفى مدلولاتها مطلقا عن الله ـ تبارك وتعالى، فالله ـ تبارك وتعالى ـ عندهم لا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر؛ لأن ذلك لا يكون إلا بجارحة، والجوارح يجب أن تنفى عنه سبحانه، فبذلك يعطلون صفات الله تبارك وتعالى، ويتظاهرون بتقديسه، وهؤلاء هم المعطلة، ويطلق عليهم بعض علماء تاريخ العقائد الإسلامية: الجهمية، ولا أظن أن أحدا عنده مسكة من عقل يستسيغ هذا القول المتهافت.

ثم يقول: هذان رأيان باطلان لاحظ لهما من النظر، وبقى أمامنا رأيان هما محل أنظار العلماء فى العقائد وهما رأى السلف، ورأى الخلف، ثم قال فى خلاصة الأمر والبحث بين الرأيين: «ونحن نعتقد أن رأى السلف من السكوت وتفويض علم[2] هذه المعانى إلى الله تبارك وتعالى أسلم وأولى بالاتباع حسما لمادة التأويل والتعطيل، فإن كنت ممن أسعده الله بطمأنينة الإيمان وأثلج صدره ببرد اليقين فلا تعدل به بديلا».

وبالإضافة إلى ما ذكرناه من أقوال للإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ نذكر نص كلام الأستاذ عمر التلمسانى ـ رحمه الله ـ فى هذا المجال حيث يقول:

---

(١) الإخلاص ١ ـ ٤.

(٢) يقصد بذلك تفويض علم الكيفية ويحمل كلامه المتشابه على المبين بدليل كونه قد تكلم عن الصفات وتحدث فيها إلى أن قال فى نهايتها: «وصفات الله ـ تبارك وتعالى ـ فى القرآن الكريم كثيرة وكمالاته تبارك وتعالى لا تنتهى ولا تدرك كنهها عقول البشر، سبحانه لا نحصى ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه» (العقائد ص٨٤).
ويقول رحمه الله: «فبينما تقرأ فى الكتب أن صفات الله ـ تعالى ـ ثلاث عشرة صفة أو عشرين صفة تجد فى كتاب الله والسنة أكثر من ذلك..» (نظرات فى النفس والمجتمع ص١٤٥)، ويقول: «فأعتقد أن من واجبنا أن نعود سريعا إلى ما كان عليه سلفنا الصالحون وأن نستقى العقيدة من هذا النبع الصافى الذى لا لبس فيه ولا غموض، وصدق رسول الله ﷺ فيما يرويه مالك عنه: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ» (الله فى العقيدة الإسلامية، حسن البنا ص ٨ ـ ٩). والكلام الواضح فى كتاب حديث الثلاثاء للإمام البنا ـ رحمه الله ـ لدليل آخر على فهمنا لكلام الإمام البنا، والحمد لله.

«الإخوان المسلمون سلفيون ملتزمون وسأسوق بعض صور وسلوك الإخوان المسلمين: إن الإخوان المسلمين يعرفون أن الله خلق الجن والإنس لعبادته، هذه العبادة المؤدية إلى معرفته جلالا وعلوا وقدرة وتمكنا، والتى تنتهى فى خاتمة المطاف إلى الإنابة إليه. ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [(١)].

لأنه الأول والآخر والظاهر والباطن، وكل شيء بإرادته، ومرد الأمر إليه، وإليه نرجع أجمعين، ونحبه فوق ما نحب أموالنا وأولادنا وأنفسنا التى بين جنوبنا مع الإخلاص كله، والوقوف فى ساحته لنكون على ذكر دائمٍ منه،لتهدأ خواطرنا، وتسعد أنفسنا...

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾..[(٢)].

بذكره عرفوه، وبالإنابة إليه دائما عبدوه. قيل لابن عباس: بم عرفت ربك؟ فقال: (من طلب دينه بالقياس، لم يزل دهره فى التباس، خارجًا عن المنهاج، وظاعنا فى الاعوجاج. عرفته بما عرف به نفسه، ووصفته بما وصف به نفسه)، وهذا هو ما يعتقده الإِخوان المسلمون، لأنه جانب من جوانب السلفية.

فسلفية الإِخوان المسلمين تظهر فى معرفتهم للحق، والتحدث عنه والعمل به والدفاع عنه والتضحية من أجله.

يجادلون كأسلافهم بالحسنى لأن هذا الأسلوب يقرب الحق إلى الأذهان ويميل بالنفس إلى الاقتراب منه ومن الطاعة لرب العالمين، هكذا كان يفعل السلف الصالح الذين كانوا يعرفون الله ـ جل وعلا، وهذا حق؛ لأن المسلم بقدر ما يعرف الله تعالى ومهابته وجلاله بقدر ما يحرص على الرهبة من هذه الهيبة وبقدر ما يرعى جانب الجلال ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [(٣)].

---

(١) الذاريات: ٦٥.

(٢) الرعد: ٨٢.

(٣) الرحمن: ٨٧.

فأعرف الناس بالله أحبهم له وأخشاهم له، ألا ترى أن الحديث الشريف الصحيح يقول فيه رسول الله ﷺ: «**وزنت بالأمة فرجحت، ثم وزن أبو بكر بالأمة فرجح، ثم وزن عمر بالأمة فرجح، ثم رفع الميزان**»[(١)]، ويقول ﷺ: «**أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له...**»[(٢)].

كسلفيين، يؤمن الإخوان المسلمون بأسماء الله الحسنى كما هى. ويؤمنون بصفاته كما هى واردة فى القرآن، بلا تعطيل كالمعطلة، ولا مشبهين كالمجسمين الذين يدعون أن يد الله جل وعلا كأيدينا،وعينه كأعيننا، حاشاه عما يقولون وتعالى علوا كبيرا... ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[(٣)].

إننا نقول: إنه استوى على العرش كما قال مالك بن أنس: «الاستواء معقول، والكيف مجهول،والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

إننا سلفيون حتى فى روحانيتنا وسلوكنا، على هذا النحو الذى جاء فى الآثار ما معناه: «يقول الله: أنا الله، لا إله إلا أنا، ملك الملوك، قلوب الملوك ونواصيها بيدى، فمن أطاعنى جعلت قلوب الملوك عليه رحمة، ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، ولكن توبوا إلى وأطيعونى أعطفهم عليكم»[(٤)] فلو أن هيئة أو حزبا ناله من

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٦٤)، والترمذى (٧٨٢٢)، وأحمد (٥/ ٤٤)، والحاكم (٣/ ٠٧، ١٧، ٤/ ٣٩٣، ٤٩٣) عن أبى بكرة رضي الله عنه، قال الترمذى: «حسن صحيح»، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه البخارى (٣٦٠٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، ومسلم (٨٠١١) عن عمر بن أبى سلمة رضي الله عنه.

(٣) الشورى: ١١.

(٤) أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٢٦٩٨)، وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٢/ ٨٨٣) عن أبى الدرداء رضي الله عنه مرفوعًا، وأخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف (٨١٢٤٣، ٠٦٢٤٣) عن مالك بن مغول أنه قال: «... فذكره» وفى إسناد المرفوع وهب بن راشد، قال ابن الجوزى فى العلل المتناهية (٢/ ١٨٢١): «قال الدارقطنى: وهب ابن راشد ضعيف جدًا متروك الحديث ولا يصح هذا الحديث مرفوعًا قال: فرواه جعفر بن سليمان عن مالك ابن دينار أنه قرأ فى الكتب هذا الكلام، وهو أشبه بالصواب»، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥/ ٩٤٢): «رواه الطبرانى فى الأوسط، وفيه وهب بن راشد وهو متروك».

عبد الناصر ما نال الإخوان المسلمين لقضوا وقتهم كله انشغالا بمن ظلمهم أو اعتدى عليهم، أما الإخوان المسلمون فقد خلفوا كل ما أصابهم .. دبر آذانهم، وأقبلوا على الله يستغفرون ويسبحون ويحمدون .. لعلمهم أن الظالم لم يظلمهم لعداء شخصى بينه وبينهم، ولكنه آذاهم لتمسكهم بدين الله.. ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [1].

فتركوا الظالم لربه، فهو الكفيل وحده بالدفاع عن دينه، ولَيُهْلكَنَّ الظالمين. هذا ما كان يفعله السلف الصالح مع من آذاهم، جاء رجل إلى أحد السلف الصالحين يقول له: إن فلانا يشتمك، فقال الصالح: لأغيظن من علمك (يريد الشيطان) اذهب غفر الله لى ولك وله.

إننا سلفيون لأننا نطيع محمدا ﷺ، لا نقول كما يقول غيرنا: «الطاعة لمحمد فى العبادات، أما فى المعاملات فللظروف حكمها، ولتغير الأزمنة والأمكنة أثرها» إننا نطيعه ﷺ فى أمور ديننا ودنيانا؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما أمر بطاعة رسوله ﷺ جعلها طاعة مطلقة غير مقيدة بأى تخصيص. وما دام اللفظ جاء فى القرآن مطلقا، فلا يصح تقييده، هذا قول أرباب الأصول، وهم أولى بالاستماع منا لهم، لا لهؤلاء المحدثين العقليين الذين لا يصلون إلى مستواهم لا علما ولا فهما ولا ذكاء ولا تخريجا ولا استنباطاً ولا تقى ولا إخلاصا، لقد أمرنا الله تعالى بطاعة الرسول ﷺ فى عشرات الآيات من كتابه الكريم، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠﴾ [2]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ﴾ [3]، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [4]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ

(١) البروج: ٨.
(٢) النساء: ٨٠.
(٣) الحشر: ٧.
(٤) الأحزاب: ٢١.

وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [(١)]. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ [(٢)]، ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [(٣)]، ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [(٤)].

وغير ذلك كثير، وحق له ذلك ﷺ؛ لأن الله جل جلاله قال عنه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ [(٥)].

هذا سلوك السلفيين؟

إن الإِخوان كسلفيين، يتعاملون ويتاجرون، ويحذرون ويتقون الأضرار والمؤذيات، ويتخذون الأسباب طاعة لأوامر الله تعالى، لا اعتقادا منهم أن الأسباب فعالة بذاتها، ولكنهم يستعينون على قضاء حوائجهم بالأسباب، وقد قال أحد السلف الصالح:

(إن الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد، وجحد الأسباب أن تكون أسباب نقص فى العقل، والإِعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع، بل العبد يجب أن يكون توكله ودعاؤه وسؤاله ورغبته إلى الله تعالى، والله يقدر له من الأسباب ومن دعاء الخلق وغيرهم ما يشاء)، وعلى هذا الأساس يسير الإِخوان المسلمون بعد ذلك سلفيين.

ثم قال رحمه الله: ينتظم العالم الإِسلامى فى فقهه ومجادلاته وعباداته، ثلاثة مذاهب، ينطوى تحت كل واحد منها العديد من الفرق من كل نوع:

١ ـ أصحاب الكلام،وتدور فهومهم حول الوجود والعدم وقضايا التصديق وعدمه، ويرمون من وراء ذلك إلى التصديق والعلم.

---

(١)الأنفال: ١.
(٢)النساء: ٥٩.
(٣)التوبة: ٢٦.
(٤) التوبة: ٢٤.
(٥) النجم: ٣.

٢ـ والصوفيون أصحاب الإشارات والمكاشفات والاستغراق والفناء وتدور أبحاثهم حول المحبة والعشق والإرادة والمشيئة، فهم يحيون فى عالم الانقياد والجرى وراء الإرادة.

٣ـ أهل الإيمان، وهم وسط بين هؤلاء وهؤلاء؛ لأنهم يجمعون بين التصديق الواقعى المتلبس بالسعى والعمل الفعلى، وبين المحبة والشوق الذى يؤثر فى الواقع العملى بروح المحبة لله ورسوله ﷺ. فهم إذا صدقوا بما جاء عن ربهم ونبيهم ﷺ؛ فإنما يصدقون عن علم ثبت لديهم صحته بالأدلة العقلية والنقلية.

ويترتب على ذلك أنهم إذا عملوا فإنهم يعملون عن علم لا عن توهم، وإذا أحبوا فإنما يحبون عن شعور صادق قام على تثبت وتبين لا عن هوى وانحراف.

وهذا الصنف الأخير هو رأى السلف الصالح ومن اتبع طريقهم حتى هذا العصر الذى نحياه، والإخوان فى هذه البوتقة التى تصفى ناصع الدين من كدورات الهوى وتخبطات العقل البشرى، هم كلهم كذلك يؤمنون بأن الله ما أودع العقل فى الرأس إلا ليحاسب عباده بمقتضاه، فهم يحكمون عقولهم عند الفصل بين النافع والضار، وتبين طريقهم الذى يسيرون خلاله فى دعوتهم هذه. وفى نفس الوقت يحبون الله ورسوله إلى الحد الذى يقدمون فيه محاب الله ورسوله ﷺ على محابهم، مهما جذبهم الهوى إليها.

إنهم لا يعرضون أوامر الله على عقولهم، ليقبلوا أو يرفضوا، ولكن كلامهم وأحكامهم وتصرفاتهم، قال الله ـ تعالى ـ وقال رسول الله ﷺ. فمن أراد أن يعتبرهم غير ذلك. فليحكم وليتحمل كل صاحب رأى فيهم تبعة رأيه أمام أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين. وأما هم فهم سلفيون، صدقهم الناس أم لم يصدقوهم، فما لذلك في موازينهم من حسبان. إنما الأمر الذى يهمهم حقًا هو رضاء الله عنهم أن هداهم إلى صراطه المستقيم..

ولو أن كل جماعة من الناس جنبت رأى الناس. وحرصت على رضاء الله وحده، لزالت كل هذه الويلات التى تحل بالعالم بسبب انتصار كل لرأيه بالحق أو بالباطل. ولكن ما العمل.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ﴾ (١).

*** موقف الإِخوان من الآخرين:**

أولا: من عموم الناس:

يقول الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله: إن الناس يختلفون فى موقفهم من الدعوة، فهناك المسلمون المجاهدون وموقفنا منهم الولاء إذا أعطونا الولاء ولو اختلفت اجتهاداتنا، وهناك مسلمون قاعدون بعذر، فهؤلاء موقفنا منهم الدعوة والنصيحة، وهناك ذميون لم ينقضوا عهدًا، فهؤلاء لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وهناك ذميون نقضوا العهود فهؤلاء أصبحوا محاربين، وهناك معاهدون دخلوا بلادنا بأماننا الحر فهؤلاء لا يعتدى عليهم.

ثانيًا: المسلمون منهم:

يقول الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله: الناس أمامنا واحد من أربعة:

الصنف الأول: شخص آمن بدعوتنا وصدق بقولنا وأعجب بمبادئنا، ورأى فيها خيراً اطمأنت إليه نفسه وسكن له فؤاده، فهذا ندعوه أن يبادر بالانضمام إلينا والعمل معنا، حتى يكثر به عدد المجاهدين ويعلو بصوته صوت الداعين، ولا معنى لإيمان لا يتبعه عمل، ولا فائدة فى عقيدة لا تدفع صاحبها إلى تحقيقها والتضحية فى سبيلها، وكذلك كان السابقون الأولون ممن شرح الله صدورهم لهدايته فاتبعوا أنبياءه، وآمنوا برسالاته وجاهدوا فيه حق جهاده، ولهؤلاء من الله أجزل الأجر، وأن يكون لهم مثل ثواب من

---

(١) سورة هود ١١٨، ١١٩ ـ انظر: بعض ما علمنى الإِخوان المسلمين لعمر التلمسانى. وهنا لابد من التنبيه على أن كثيرًا من مسائل العمل قطعية، وكثيرًا من مسائل العِلْم ليست قطعيةً. وكون المسألة قطعية أو ظنيةً هو من الأمور الإِضافية، فقد تكون المسألة عند رجل قطعية؛ لظهور الدليل القاطع له،كمن سَمع النَّص من الرسول ﷺ، وتيقَّن مراده منه، وعند رجل لا تكون ظنية فضلاً عن أن تكون قطعية، لعدم بلوغ النص إياه،أو لعدم ثبوته عنده،أو لعدم تمكُّنه من العلم بدلالته. (من كتاب شيخ الإِسلام «الرد على البكرى»؛عن كتاب الموقظة فى علم مصطلح الحديث ص ٨٥١. تحقيق الشيخ المحقق/ عبد الفتاح أبو غدة).

وعلى هذا لا يجوز أن نخرج الناس من دائرة هم يقولون إنهم فيها ويدورون مع رحاها كما قال الإِمام البنا ـ رحمه الله ـ فى الأصول العشرين.

اتبعوهم لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا.

الصنف الثانى: شخص لم يستبن له وجه الحق، ولم يتعرف فى قولنا معنى الإخلاص والفائدة فهو متوقف متردد، فهذا نتركه لتردده، ونوصيه بأن يتصل بنا عن كثب، ويقرأ عنا من بعيد أو من قريب، ويطالع كتاباتنا، ويزور أنديتنا ويتعرف إلى إخواننا فسيطمئن بعد ذلك لنا إن شاء الله، وكذلك كان شأن المترددين من أتباع الرسل من قبل.

الصنف الثالث: شخص لا يريد أن يبذل معونته إلا إذا عرف ما يعود عليه من فائدة وما يجره هذا البذل له من مغنم، فنقول له: حنانيك ليس عندنا من جزاء إلا ثواب الله إن أخلصت والجنة إن علم فيك خيرًا، أما نحن فمغمورون جاهًا، فقراء مالاً، شأننا التضحية بما معنا وبذل ما فى أيدينا، ورجاؤنا رضوان الله، وهو نعم المولى ونعم النصير، فإن كشف الله الغشاوة عن قلبه وأزاح كابوس الطمع عن فؤاده، فسيعلم أن ما عند الله خير وأبقى، وسينضم إلى كتيبة الله ليجود بما معه من عرض هذه الحياة الدنيا لينال ثواب الله فى العقبى ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[1].

وإن كانت الأخرى فالله غنى عَمَّنْ لا يرى لله الحق الأول فى نفسه وماله ودنياه وآخرته وموته وحياته، وكذلك كان شأن قوم من أشباهه حين أبوا مبايعة رسول الله ﷺ إلا أن يجعل لهم الأمر من بعده، فما كان جوابه ﷺ إلا أن أعلمهم أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

الصنف الرابع: شخص ساء فينا ظنه وأحاطت بنا شكوكه وريبه، لا يرانا إلا بالمنظار الأسود القاتم، ولا يتحدث عنا إلا بلسان المتحرج المتشكك، ويأبى إلا أن يلج فى غروره ويسدر فى شكوكه ويظل مع أوهامه، فهذا ندعو الله لنا وله أن يرينا الحق حقًا ويرزقنا اتباعه، والباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، وأن يلهمنا وإياه الرشد. ندعوه إن قبل الدعاء ونناديه إن أجاب النداء، وندعو الله فيه وهو سبحانه أهل الرجاء، ولقد أنزل الله على نبيه

---

(١) النحل: ٩٦.

الكريم فى صنف من الناس ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [١].

وهذا سنظل نحبه ونرجو فَيْأَهُ إلينا واقتناعه بدعوتنا، وإنما شعارنا معه ما أرشدنا إليه المصطفى ﷺ من قبل: «**اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون**»[٢].

ثالثًا : الموقف من الهيئات الإسلامية:

يقول الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله: وأما موقفنا من الهيئات الإسلامية جميعًا على اختلاف نزعاتها، فموقف حب وإخاء، وتعاون وولاء، نحبها ونعاونها، ونحاول جاهدين أن نقرب بين وجهات النظر، ونوفق بين مختلف الفكر توفيقًا ينتصر به الحق فى ظل التعاون والحب، ولا يباعد بيننا وبينها رأى فقهى أو خلاف مذهبى، فدين الله يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه. ولقد وفقنا الله إلى خطة مثلى؛ إذ نتحرى الحق فى أسلوب لين يستهوى القلوب وتطمئن إليه العقول، ونعتقد أنه سيأتى اليوم الذى تزول فيه الأسماء والألقاب والفوارق الشكلية والحواجز النظرية، وتحل محلها وحدة عملية تجمع صفوف الكتيبة المحمدية حيث لا يكون هناك إلا إخوان مسلمون، للدين عاملون، وفى سبيل الله مجاهدون: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [٣].

والإخوان المسلمون مع ذلك يعلمون أن الإجماع على أمر واحد فى فروع الدين مطلب مستحيل، بل هو يتنافى مع طبيعة الدين، وإنما يريد الله لهذا الدين أن يبقى ويخلد ويساير العصور ويماشى الأزمان،وهو لهذا سهل مرن هين لين لا جمود فيه ولا تشديد.

لذلك فالإخوان يتلمسون العذر لمن يخالفونهم فى بعض الفرعيات، ويرون أن هذا الخلاف لا يكون أبدًا حائلاً دون ارتباط القلوب وتبادل الحب والتعاون على الخير، وأن يشملهم وإياهم معنى الإسلام السابغ بأفضل حدوده وأوسع مشتملاته.

---

(١) القصص: ٥٦.

(٢) أخرجه البخارى (٧٧٤٣، ٩٢٩٦)، ومسلم (٢٩٧١)، وأحمد (١/ ٠٨٣) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) المائدة: ٥٦.

فهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ كان يخالف بعضهم بعضًا فى الإفتاء، فهل أوقع ذلك اختلافًا بينهم فى القلوب؟ وهل فرق وحدتهم أو فرق رابطتهم؟ اللهم لا، وما حديث صلاة العصر فى بنى قريظة ببعيد.

وإذا كان هؤلاء قد اختلفوا وهم أقرب الناس عهدًا بالنبوة وأعرفهم بقرائن الأحكام فما بالنا نتناحر فى خلافات لا خطر لها، وإذا كان الأئمة وهم أعلم الناس بكتاب الله وسنة رسوله قد اختلف بعضهم على بعض وناظر بعضهم بعضًا فلم لا يسعنا ما وسعهم؟ وإذا كان الخلاف قد وقع فى أشهر المسائل الفرعية وأوضحها كالأذان الذى ينادى به خمس مرات فى اليوم الواحد ووردت به النصوص والآثار، فما بالك فى دقائق المسائل التى مرجعها إلى الرأى والاستنباط؟

*** الإخوان وقضية المرأة:**

كان واضحًا فى ذهن حسن البنا ـ رحمه الله ـ أن دور المرأة فى الإسلام دور خطير، له أثره البعيد فى تكوين الرجال وأمهات المستقبل .. والدعائم التى ارتكزت عليها دعوة الإخوان المسلمين هى: تكوين الفرد المسلم ثم الأسرة المسلمة ثم المجتمع المسلم الذى يلد الحكومة المسلمة.

وحين أَسَّسَ الأستاذ المرشد أول دار للدعوة فى الإسماعيلية، أنشأ مسجدًا أتبع ببناء مدرستين: إحداهما للأبناء سماها «معهد حراء الإسلامى» والأخرى للبنات أطلق عليها «مدرسة أمهات المؤمنين»، وقد عنى بهذه المدرسة عناية كبيرة حيث لم تكن فكرة تعليم البنات قد وضحت بعد فى أذهان المسلمين ـ فوضع لها منهاجًا إسلاميًا عصريًا يجمع بين أدب الإسلام وتوجيهه السامى للبنات والأمهات والزوجات، وبين مقتضيات العصر ومطالبه من العلوم النظرية العملية.

ولما انتشرت الدعوة فى أوساط الفتيات والأمهات فى القاهرة والأقاليم رؤى إدخال تعديل على لائحة القسم تضمن:

أن يكون مقر شعب الأخوات المسلمات ودروسهن دور شعب الإِخوان المسلمين أو بيوتهم أو المساجد التى يشرفون عليها بشرط أن يلاحظ إخلاء الدور من الإِخوان تمامًا، كلما كان هناك اجتماع أو درس للأخوات .. وقد انتشرت شعب الأخوات فى القاهرة والأقاليم حتى زاد عددها على المائة شعبة.

وكما كانت جهود الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله ـ موجهة فى معظمها للعناية بالطليعة من الجامعيين طلبة وخريجين، فإنها كذلك وبنفس القدر من العناية والاهتمام كانت موجهة إلى الطليعة من الطالبات والخريجات والمدرسات فكان يتعهد هذه المجموعة بالدروس الأسبوعية يلقيها بنفسه، ولم يكن يتخلف عن هذه الدروس حتى فى حالة المرض.

وكانت غاية التحرك فى أوساط هذا القسم فى رأى الأستاذ ـ رحمه الله ـ هى إعداد جيل من الفتيات والنساء مزودًا بأعظم قدر من التربية الإِسلامية المستنيرة، مع قسط من المعلومات الفقهية والتاريخية، واستعدادًا لإِنشاء البيوت الإِسلامية التى قد تعتمد فى إنشائها على المرأة أكثر مما تعتمد على الرجل .. فالزوجة هى التى تعين زوجها على النهوض بأعباء الدعوة الإِسلامية، وهى التى تقعد بهمته عنها، والأم هى التى ترضع أبناءها وبناتها حب الخير وهى التى تدفعهم إلى الشر.

وإذا لم توجد فى البناء الإِخوانى الأم المسلمة الصالحة، والزوجة المسلمة الصالحة فهيهات أن يقوم هذا البناء مهما كان الرجال مثلاً عليا .. ولهذا قام بناء الدعوة حين قام على أساسين معًا، ففى الوقت الذى ينشأ فيه الرجال شيبًا وشبابًا كانت تنشأ فيه النساء أمهات وأخوات... جداران متوازيان.

ولكن لما كانت فرص الاجتماعات أمام الأخوات غير متاحة بالقدر الذى هو متاح للإِخوان فإن الأستاذ ـ رحمه الله ـ كان حريصًا على أن يجعل هذه الاجتماعات خالصة للتثقيف والتربية، دون أن يقتطع من وقتها قليلاً أو كثيرًا من الانشغال بالشؤون الإدارية،

كما كان حريصًا على أن لا يضيع جزء من جهود الأخوات فى الالتفات إلى المناصب الإدارية، والإِعداد لها والتطلع إليها، مما قد لا يتناسب مع طبيعة المجتمعات النسائية إذا أريد لها الإِنتاج دون معوقات.

وربما كان هذا الأسلوب من أهم الأسباب فى نجاح التنظيمات النسائية فى الإِخوان المسلمين بينما فشلت مثيلاتها فى جهات أخرى.

ولما كانت دعوة الإِخوان المسلمين دعوة عملية، لا تعترف بالترف العلمى، ولا تقف عند حدود التضلع من العلم الإِسلامى لمجرد التضلع، بل هى حقول تجارب يرى العضو فيها أنه مطالب بتطبيق ما تعلم أولاً بأول فى هذه الحقول ... فى البيت وفى العمل وفى الشارع وفى النادى، وفى نفسه أولاً، فإن الأخوات كن كلما تعلمن شيئًا من التعاليم الإِسلامية يجدن أمامهن حقل التجارب فى بيوتهن، يطبقن فيها هذه التعاليم على أنفسهن وعلى أزواجهن وأبنائهن وأهليهن.

ومن هنا كانت الدعوة تسير قدمًا إلى الأمام لا يعوقها عائق، فإن العربة متى كان يجرها حصانان وكلاهما يجر فى اتجاه واحد فإنها تنطلق فى طريقها آمنة مطمئنة؛ إذ كل العوائق الخارجية يمكن تفاديها، أما الذى لا يتفادى ولا يقاوم ولا أمل معه فى مواصلة السير فهو العوائق الداخلية .. الناشئة من داخل البيت ومن داخل الأسرة .. وناهيك بعربة يجرها حصانان، وكل يجرها فى اتجاه مضاد.

وقد عابت جماعة الإِخوان على غيرها معاملة المرأة من خلال تقاليد بالية سقيمة «تجعل من الرجل سجانًا للمرأة يحبسها فى بيته للمتعة والتوالد، ولا تعرف من دنياها إلا هذين الغرضين العظيمين، وتظل كذلك إلى أن تنتقل من ظلام حياتها إلى ظلام القبور»، ورأت الجماعة أن الدين لا يقر ذلك وأن من الواجب «أن نشفق على دين الله من أن تستبد به الآراء المتشائمة والأمزجة السوداوية».

وأكدت جماعة الإِخوان للمجتمع أن الدين لم ينزل للرجال فقط وأن على المرأة واجب خدمة الإسلام والمساهمة الكاملة فى كل ما يعود بالخير عليه وعلى أبنائه.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ (١).

ثم ذكرت أنه على الرغم من ذلك فلا ينبغى أن يفهم بأن الإسلام قد دعا إلى مساواة الرجل بالمرأة كلية بل نظم حقوق كلا الجنسين لما بينهما من فروق فى الخلق وتفاوت فى الاستعداد، وأن المساواة بينهما من حيث الدين والعقيدة والثواب والعقاب والحقوق الزوجية والمعاملات المالية وطلب العلم. ولهذا خصصت صحف الإخوان بابًا ثابتًا بعنوان «البيت المسلم» ركزت فيه على حقوق المرأة فى الإسلام، وكيف أن الإسلام قد حفظ هذه الحقوق وصانها ونظمها بعد أن كانت مهضومة قبله، وأن التيار الجديد الذى يحاول أتباعه مساواة المرأة بمثيلتها فى أوربا سيرجع المرأة إلى عصر الجاهلية.

*** الإخـــوان والجهـــاد:**

ينظر الإخوان للجهاد على أنه من مستلزمات الدعوة وذلك بجعله الركن الرابع من أركان البيعة، وبهذا يقول الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله ـ فى مراد الجهاد:

«المراد من الجهاد: الفريضة الماضية إلى يوم القيامة، والمقصود بقول رسول الله ﷺ: «من مات ولم يغز ولم ينوِ الغزو مات على شعبة من نفاق »(٢)، وأول مراتبه: إنكار القلب، وأعلاها: القتال فى سبيل الله، وبين ذلك جهاد اللسان، والقلم، واليد، وكلمة الحق عند السلطان الجائر، ولا تحيا الدعوة إلا بالجهاد، وبقدر سمو الدعوة وسعة أفقها تكون عظمة الجهاد فى سبيلها وضخامة الثمن الذى يطلب لتأييدها، وجزالة الثواب للعاملين.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ (٣).

وبذلك تعرف معنى هتافك الدائم: (والجهاد سبيلنا)».

ولم يكن حديث الإخوان عن الجهاد خطابات وهتافات ومقالات، بل كان واقعًا عمليًا

---

(١) آل عمران: ١٩٤.

(٢) أخرجه مسلم (١٩١٠)، وأبو داود (٢٥٠٢)، والنسائى (٦/ ٨)، وأحمد (٢/ ٣٧٤) عن أبى هريرة رضي الله عنه.

(٣) الحج: ٧٨.

جسد عندما أتيحت الفرصة فى فلسطين والقنال، وسرد تاريخهم فى هذه الحرب والحديث عن خططهم ومعاركهم أمور جديرة أن توضع فيها مجلدات، وأن تكون هذه المجلدات بين يدى كل عربى ومسلم ليستمدوا منها روحًا وقوة، ليستلهموا منها معانى الاعتزاز والفخر بالانتهاء إلى أمتهم العظيمة... ومما يؤسى له ألا يكون بين أيدينا ـ نحن العرب ـ هذه المجلدات وأن تكون هذه المجلدات عند أعدائنا الذين لا يدعون صغيرة ولا كبيرة إلا ودرسوها وتعلموا منها.

ويكفى هنا أن نذكر مسارعة الإخوان من أنحاء البلاد إلى التطوع من أول يوم فتح الأستاذ فيه باب التطوع، وكان الأستاذ يشترط فى المتطوعين من الشباب شروطًا أهمها أن يكون المتطوع قد تطوع برضا الوالدين.

*** الإخـــوان والسياسة:**

بعد اختلاط الأمور فى هذه القضية واشتغال الناس فيما بينهم يتبادلون الظنون والتنابز بالألقاب والانغماس فى الاتهامات، قال الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله ـ قاطعًا هذه الانحرافات بقوله: « يا قومنا، إننا نناديكم والقرآن فى يميننا والسنة فى شمالنا، وعمل السلف الصالحين من أبناء هذه الأمة قدوتنا، وندعوكم إلى الإسلام، وتعاليم الإسلام، وأحكام الإسلام، فإن كان هذا من السياسة عندكم فهذه سياستنا وإن كان من يدعوكم إلى هذه المبادئ سياسيًا فنحن أعرق الناس ـ والحمد لله ـ فى السياسة، وإن شئتم أن تسموا ذلك سياسة فقولوا ما شئتم فلن تضرنا الأسماء متى وضحت المسميات وانكشفت الغايات.

يا قومنا، لا تحجبكم الألفاظ عن الحقائق، ولا الأسماء عن الغايات، ولا الأعراض، عن الجوهر، وإن الإسلام لسياسة فى طيها سعادة الدنيا وصلاح الآخرة، وتلك هى سياستنا لا نبغى بها بديلاً فسوسوا بها أنفسكم، واحملوا عليها غيركم تظفروا بالعزة

الأخروية ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾[(١)].

أما السياسة الحزبية فيقول الأستاذ ـ رحمه الله ـ فيها: أما إننا سياسيون حزبيون نناصر حزبًا ونناهض آخر فلسنا كذلك ولن نكونه ولا يستطيع أحد أن يأتى على هذا بدليل أو شبه دليل.

وأما أننا سياسيون بمعنى أننا نهتم بشؤون أمتنا، ونعتقد أن القوة التنفيذية جزء من تعاليم الإسلام تدخل فى نطاقه وتندرج تحت أحكامه، وأن الحرية السياسية ركن من أركانه وفريضة من فرائضه، وأننا نعمل جاهدين لاستكمال الحرية ولإصلاح الأداة التنفيذية فنحن كذلك، ونعتقد أننا لم نأتِ فيه بشىء جديد، فهذا هو المعروف عند كل مسلم درس الإسلام دراسة صحيحة، ونحن لا نعلم دعوتنا ولا نتصور معنى لوجودنا إلا تحقيق هذه الأهداف. ولم نخرج بذلك قيد شعرة عن الدعوة إلى الإسلام، والإسلام لا يكتفى من المسلم بالوعظ والإرشاد، ولكنه يحدوه دائمًا إلى الكفاح والجهاد.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾[(٢)]، وعلى ذلك فالإسلام دين الوحدة فى كل شىء وهو دين سلامة الصدور، ونقاء القلوب والإخاء الصحيح، والتعاون الصادق بين بنى الإنسان جميعًا فضلاً عن الأمة الواحدة والشعب الواحد لا يقر نظام الحزبية ولا يرضاه، ولا يوافق عليه، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾[(٣)]، ويقول رسول الله ﷺ: «**ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصوم؟**» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين**»[(٤)].

---

(١) ص: ٨٨.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

(٣) آل عمران: ١٠٣.

(٤) أخرجه أبو داود (٩١٩٤)، والترمذى (٩٠٥٢)، وأحمد (٦/ ٤٤٤)،والبخارى فى الأدب المفرد (١٩٣)، وابن حبان (موارد ٢٨٩١) عن أبى الدرداء رضي الله عنه، وقال الترمذى: «هذا حديث صحيح»، وقال الحافظ ابن حجر فى الدراية فى تخريج أحاديث الهداية (٢/ ٠٧٢): «قال البزار: إسناده صحيح».

وكل ما يستتبعه هذا النظام الحزبى، من تنابز وتقاطع، وتدابر وبغضاء، يمقته الإِسلام أشد المقت، ويحذر منه كثير من الأحاديث والآيات، وتفصيل ذلك يطول، وكل حضراتكم به عليم.

وهنا لابد من ذكر الفرق بين الحزبية التى شعارها الخلاف والانقسام فى الرأى والوجهة العامة وفى كل ما يتفرع منها، وبين حرية الآراء التى يبيحها الإِسلام ويحض عليها، وبين تمحيص الأمور وبحث الشؤون والاختلاف فيما يعرض تحريًا للحق،حتى إذا وضح نزل على حكمه الجميع، سواء أكان ذلك اتباعًا للأغلبية أو للإِجماع، فلا تظهر الأمة إلا مجتمعة ولا يرى القادة إلا متفقين».

وعند الحديث حول السياسة لابد أن يكون واضحًا أن الحكم ليس هدفًا للإخوان لأشخاصهم بل الهدف هو أن يوجد الحكم الإِسلامى، ومتى وجد فالإخوان جند وأنصار للحكم وللحاكم المسلم وللحكومة المسلمة كائنة ما كانت وبهذا يقول البنا ـ رحمه الله: «وعلى هذا فالإِخوان المسلمون لا يطلبون الحكم لأنفسهم فإن وجد من الأمة من يستعد لحمل هذا العبء وأداء هذه الأمانة، والحكم بمنهاج إسلامى قرآنى فهم جنوده وأنصاره وأعوانه».

*** نموذج رجل الدعوة فى حركة الإِخوان:**

إن الدعوات تسمو وتظهر بظهور أفرادها وسموهم، وتعرف الحركة سلبًا وإيجابًا بمنهجها النظرى المقروء من خلال كتبها المكتوبة من أصحاب الحركة، ومن مجموعها الفردى المنظور ـ الملاحظ فى سلوكيات وحركات أصحاب الحركة ـ أما التصرفات الفردية الشاذة والتصريحات العفوية المتناثرة فهذه لا تمثل شيئًا بالنسبة للحركة ـ وذلك لطبيعتها فى النشوء وللظروف المحيطة بها، وهنا فى هذه الخاتمة لهذا المبحث سأذكر النموذج الذى يسعى الإِخوان لإِيجاده من خلال تربيتهم وتوجيههم بعد توفيق الله سبحانه.

١ ـ المجاهد الذى أخذت الدعوة جميع حواسه:

وبهذا يقول الإِمام حسن البنا ـ رحمه الله: «أستطيع أن أتصور المجاهد قد أعد عدته

وأخذ أهبته وملك عليه الفكر فيما هو فيه نواحى نفسه وجوانب قلبه، فهو دائم التفكير، عظيم الاهتمام على قدم الاستعداد أبدًا، إن دعى أجاب، أو نودى لبى. غدوه ورواحه، وكلامه وجده ولعبه، لا يتعدى الميدان الذى أعد نفسه له، ولا يتناول سوى المهمة التى وقف عليها حياته وإرادته، يجاهد فى سبيلها، تقرأ فى قسمات وجهه، وترى فى بريق عينيه، وتسمع من فلتات لسانه ما يدلك على ما يضطرم فى قلبه من ألم دفين. وما تفيض به نفسه من عزمة صادقة وهمة عالية وغاية بعيدة».

ويبعدون العنصر النفعى الخامل حيث يقول ـ رحمه الله: «أما المجاهد الذى ينام ملء جفنيه، ويأكل ملء ماضغيه، ويضحك ملء شدقيه، ويقضى وقته لاهيًا لاعبًا عابثًا ماجنًا، فهيهات أن يكون من الفائزين، أو يُكتب فى عداد المجاهدين».

٢ ـ الداعية المتحرك لله ـ سبحانه:

فهو داعية راكضًا إلى الله طالبًا الاستشهاد فى موقف خطبة ودعوة إلى الله، كاستشهاد عروة بن مسعود الثقفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين خرج يدعو قومه إلى الإسلام وكان فيهم محببًا مطاعًا لدرجة أنه أحد الاثنين العظماء اللذين عناهما المشركون فى قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾[١].

فلما أشرف لهم على غرفة له، وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه رموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم فقتله.

٣ ـ داعية عالى الهمة:

فالأخ فى حركة الإخوان عالى الهمة كهمة الأسلمى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذى يقول فيه ابن القيم: «إذا أردت أن تعرف من مراتب الهمم فانظر إلى همة ربيعة بن كعب الأسلمى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد قال له رسول الله ﷺ: «**سلنى**». فقال: أسألك مرافقتك فى الجنة[٢]. وكان غيره يسأله ما يملأ

---

(١) الزخرف: ٣١.

(٢) أخرجه مسلم (٩٨٤)، وأبو داود (٠٢٣١)، والنسائى (٨٣١١) عن ربيعة بن كعب الأسلمى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بطنه أو يوارى جلده».

٤ ـ يمتاز الإِخوان بصدقهم فى عهدهم ووعدهم:

يتربى الأخ فى الحركة على معانى الصدق التى كان يتحلى بها الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كأمثال أنس بن النضر ﷺ،حيث روى أنس بن مالك أن أنس بن النضر عمه غاب عن قتال بدر فقال: «أول مشهد شهده رسول الله ﷺ لم أشهده لئن كان لرسول الله ﷺ قتال مع قريش بعد هذا اليوم ليرين الله ـ عز وجل،ما أصنع. وهاب أن يقول غير ذلك.

فلما كان يوم أحد وانهزم الناس قال لسعد بن معاذ: يا سعد إلى أين؟ فقال: واها لريح الجنة إنى لأجد ريحها دون أحد، فتقدم فقاتل حتى قتل، وأصيب ببضع وثمانين جراحة، بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم. فما عرفته أخته إلا ببنانه.فنزل فيه قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾[1].

فكذلك يكون الوفاء بالعهد والعزم.

٥ ـ النموذج المتزن فى جميع حالاته:

فهم يربونه على شجاعة يربطها حذر، بعيدة عن التهور ورعونة الشباب، وهذا الأمر من الجمع العجيب الذى لا يستطيعه كثير من الناس، فالذى اعتاده الناظر إلى الشجعان أنهم يقطعون جميع الحبال من حولهم، وكذلك يمتازون بطاعة يحدها ويضبطها وعى شرعى دقيق واضح لا تعميه التبعية الحزبية ولا السذاجة البشرية، ويمتاز الأخ إضافة إلى ما ذكر بمحافظته على طاقته التى حباه الله إياها، فهو مستغل لجميع قواه فيما يرجع بالفائدة على دعوته، فطاقته يصرفها تخطيطًا لا جريًا هنا وهناك من غير هدف واضح أو غاية محددة.

---

(١) الأحزاب: ٢٣، والحديث أخرجه البخارى (٥٠٨٢)، ومسلم (٣٠٩١)، والترمذى (٠٠٢٣)، وأحمد (٣/ ٤٩١) عن أنس بن مالك ﷺ.

٦ ـ الداعية الملتزم بالهدى النبوى:

فهو أسير فى يد الشريعة، ديدنه السنة، فإذا هو بمنأى عن البدعة وما لم يكن عليه أمر رسول الله ﷺ. مشربه كوثر الحديث النبوى، وحوض الخبر المصطفوى، فهو يكرع من سلسبيل الإسلام الخالص، ويشرب من عين الإيمان الصرف إن سئل عن طريقه قال: الاتباع، وعن خرقته قال: لباس التقوى، وعن مقصوده ومطلوبه قال: يريدون وجه الله. وعن قضائه لوقته بالغدو والآصال قال: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ [1]، وفى ميادين الدعوة ورد الناس إلى طريق الحق، وعن نسبه قال:

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

٧ ـ العامل الصابر:

فالإخوان يتربون على الصبر حتى أن أحدهم فى أول الطريق يعلم ما قاله ابن القيم ـ رحمه الله: «إن المؤثر لرضا الله متصدٍ لمعاداة الخلق وأذاهم وسعيهم فى إتلافه ولابد. هذه سنة الله فى خلقه، وإلا فما ذنب الأنبياء والرسل الذين يأمرون بالقسط من الناس والقائمين بدين الله، الذابين عن كتابه وسنة رسوله عندهم؟».

فمن آثر رضا الله فلابد أن يعاديه رذالة العالم وسقطهم وجهالهم وأهل البدع والفجور منهم، وأهل الرياسات الباطلة، ومن كان إسلامه صلبًا كاملاً، لا تزعزعه الرجال ولا تقلقله الجبال، ولا تحله المحن والشدائد والمخاوف.

وهم بذلك يعلمون أن ملاك الصبر أمران:التربية على الزهد فى الحياة والثناء. فما ضعف من ضعف، وتأخر من تأخر إلا بحبه للحياة والبقاء وثناء الناس عليه ونفرته من ذمهم له.

فهذا الطريق بالنسبة لهم لابد فيه من التكذيب والإخراج والإيذاء كما قال ابن القيم ـ رحمه الله: «ويمر السالك إلى الله بمشهد الأسوة وهو مشهد شريف لطيف جدًا.. فإن

---

(١) النور: ٣٦.

العاقل اللبيب يرضى أن يكون له أسوة برسل الله، وأَنبيائه وأوليائه، وخاصته من خلقه، فإنهم أشد الخلق امتحانًا بالناس، وأذى الناس إليهم أسرع من السيل فى الحذور، ويكفى تدبر قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم وشأن نبينا ﷺ وأذى أعدائه له بما لم يؤذه من قبله. وقد قال له ورقة ابن نوفل: لَتُكَذَّبَنَّ وَلَتُخْرَجَنَّ ولَتُؤْذَيَنَّ. وقال له: ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودى[1]. وهذا مستمر فى ورثته كما كان فى مورثهم ﷺ. **أفلا يرضى العبد أن يكون له أسوة بخيار خلق الله وخواص عباده: الأمثل فالأمثل»**.

٨ ـ المنفق الذى لا يبخل على دعوته:

فوصفهم كما قال مرشدهم الإمام حسن البنا ـ رحمه الله:«لا يبخلون على دعوتهم يومًا من الأيام بقوت أولادهم وعصارة دمائهم وثمن ضرورياتهم، فضلاً عن كمالياتهم والفائض من نفقاتهم، وإنهم يوم حملوا هذا العبء عرفوا جيدًا أنها دعوة لا ترضى بأقل من الدم والمال، فخرجوا عن ذلك كله لله».

وخلاصة الأمر: الأخ منهم فى رحلته إلى الله ـ تعالى ـ مع كتيبة الحق وقافلة التوحيد حيث أصحاب الكفاية الثقات الربيون والدعاة الإسلاميون الذين أعدوا أنفسهم بالعلم والخبرة للنفير، فإذا استنفروا بادروا وإذا بادروا أتقنوا، وإن حمى الوطيس صبروا. لا يرضون حتى تبلغ الدعوة الغاية،وتمتص من جهدهم وفكرهم النهاية، إذا أمروا فأمرهم يخلو من الخشونة،وإذا أطاعوا فطاعتهم تخلو من المذلة. وإذا نقدوا فنقدهم يخلو من الإفساد والهدم أولئك النهاة الغاضبون والأمرة المبشرون، المنتظمون المنظمون، المربون المخططون الهادفون الملتزمون، الذين إذا نُصِّبُوا قادة نصحوا، وإذا جُنِّدوا أطاعوا، ولكل منهم قدرة على التفكير يصقلها وينميها بالمران بحمل نفسه على تحليل الواقع الذى يراه واستمداد مشاريع العمل والنشاط منه، فعليهم الإسلام يحرص وبهم يدفع، وبقلة منهم يقنع وعن أوتارهم يسمع اللحن الجميل، ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾[2].

(١) أخرجه البخارى (٣)، ومسلم (١٦٠)،وأحمد (٦/ ٢٢٣) عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.
(٢) الصف: ١٣.

فيا لله ما أعنف زئيرهم بالنهار، وما أحلى مزاميرهم التى استعاروها من آل داود بالأسحار، ثم حين يحقق لهم المنتقم الجبار نشيدهم الهدار ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٌ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝١١﴾ [(١)].

إذا انطلقوا فإلى هدف،وإن نقدوا فبالتزام للتقى. بيعتهم ناجزة،وطاعتهم واعية، ونظرتهم وازنة، وآفاقهم شاملة، كل منهم يحرص على أن يكون أوثق سهم فى كنانة القائد، وأمنية أحدهم أن يلقى ربه مضمخًا بدم الشهادة. يرون التكاليف الشرعية قرة عين، وسرور قلب، وحياة روح، قد هجروا قوانين الطواغيت ودساتير الجبت.

رجال خالفوا أهواءهم. تحن قلوبهم للتقوى، وترتاح للذكر. قد علموا أن الجهاد رهبانية الإِسلام فنصبوا رماحهم وشهروا سيوفهم ووتروا أقواسهم، وعلموا أنهم لا يحلون عن رواحلهم إلا بين أهل القبور، فنفضوا عنهم أدران الدنيا، وعلت هممهم وصح سلوكهم، أولئك جند الله حيث كانوا، وأولئك الأئمة الهداة أطباء الدين وقادة المؤمنين، أصحاب العيون الساهرة والدموع الهاطلة فهنيئًا لمن كان فى ركبهم وانتظم.

رجال تأدبوا بآداب رسول الله ﷺ باطنًا وظاهرًا، واقفون معه حيث وقف بهم، سائرون معه حيث سار بهم،غاضبون لغضبه، راضون لرضاه، مجيبون له إذا دعاهم.

أصل مذهبهم الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع والتمسك بالأئمة والاقتداء بالسلف وترك ما أحدثه الآخرون، والمقام على ما سلك الأولون من الصحابة الذين هم عصابة الإِسلام وبرك الإِيمان وخلاصة الإِحسان. فعلمهم صاف متلقى من مشكاة الوحى، مشتبك بحديث رسول الله ﷺ.

رجال أيقنوا أن تعلم العلم لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكراته تسبيح، والبحث عنه جهاد، فتعلموا حتى انكشف عن قلوبهم حجابها، وزال عنها ظلامها وطلع عليها فجر التوحيد، وبزغت فيها شمس اليقين، واستنارت لهم الطريق الغراء والمحجة البيضاء التى

---

(١) ص: ١١.

ليلها كنهارها، فنهضت قلوبهم فى طلب الحق ـ سبحانه ـ وترك ما سواه، تجردت إراداتهم فقذفت فى قلوبهم جمرة الخشية فأحرقت كل ما هنالك، وتزينت سرائرهم للحق كما تزينت علانيتهم للخلق.

وفى ختام هذا المبحث نتساءل: لماذا الإِخوان المسلمون؟

والجواب بعد هذا الاستطراد: لأنهم يجمعون جميع المعانى الإِصلاحية، وبهذا يقول الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله: «كان من نتيجة هذا الفهم العام الشامل للإِسلام عند الإِخوان المسلمين أن شملت فكرتهم كل نواحى الإصلاح فى الأمة، وتمثلت فيها كل عناصر غيرها من الفكر الإِصلاحية، وأصبح كل مصلح مخلص غيور يجد فيها أمنيته، والتقت عندها آمال محبى الإِصلاح الذين عرفوها وفهموا مراميها، وتستطيع أن تقول ولا حرج عليك: إن الإِخوان المسلمين:

١ ـ دعوة سلفية[1]:

لأنهم يدعون إلى العودة بالإسلام إلى معينه الصافى من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٢ ـ وطريقة سنية:

لأنهم يحملون أنفسهم على العمل بالسنة المطهرة فى كل شىء وبخاصة فى العقائد والعبادات ما وجدوا إلى ذلك سبيلا.

٣ ـ وحقيقة صوفية:

لأنهم يعلمون أن أساس الخير طهارة النفس ونقاء القلب والمواظبة على العمل والإِعراض عن الخلق والحب فى الله والارتباط على الخير.

٤ ـ وهيئة سياسية:

لأنهم يطالبون بإصلاح الحكم فى الداخل وتعديل النظر إلى صلة الأمة الإِسلامية بغيرها

(١) وقد أشبع الشيخ عصام البشير هذه المسألة بحثًا فى مقالات كتبها فى مجلة المجتمع حول الأصول العشرين مع مدخل لها، والمقالات فى الطريق للمطبعة لتصدر كتابًا أسأل الله أن ينفع به.

من الأمم فى الخارج وتربية الشعب على العزة والكرامة والحرص على وحدته إلى أبعد حد.

٥ ـ وجماعة رياضية:

لأنهم يعنون بجسومهم ويعلمون أن المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف وأن النبى ﷺ يقول: «إن لجسدك عليك حقًا»[١]، وإن تكاليف الإسلام كلها لا يمكن أن تؤدى كاملة صحيحة إلا بالجسم القوى، فالصلاة والصوم والحج والزكاة لابد لها من جسم يحتمل أعباء الكسب والعمل والكفاح فى طلب الرزق، ولأنهم تبعًا لذلك يعنون بتشكيلاتهم وفرقهم الرياضية عناية تضارع ـ وربما فاقت كثيرًا ـ الأندية المتخصصة بالرياضة البدنية وحدها.

٦ ـ ورابطة علمية ثقافية:

لأن الإسلام يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. ولأن أندية الإخوان هى فى الواقع مدارس للتعليم والتثقيف ومعاهد لتربية الجسم والعقل والروح.

٧ ـ وشركة اقتصادية:

لأن الإسلام يعنى بتدبير المال وكسبه من وجهه، وهو الذى يقول نبيه ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[٢]، ويقول: «**من أمسى كَالاً من عمل يده أمسى مغفورًا له**»[٣]، «**إن الله يحب المؤمن المحترف**»[٤].

---

(١) أخرجه البخارى (٥٧٩١) ، ومسلم (٩٥١١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢)أخرجه أحمد (٤/ ٧٩١ ، ٢٠٢)، والبخارى فى الأدب المفرد (٩٩٢) وابن حبان فى صحيحه (٠١٢٣) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٨٤٢١) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وصحح سنده الحافظ العراقى فى المغنى عن حمل الأسفار (٢/ ٢٩٨).

(٣) أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٠٢٥٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال الحافظ العراقى فى المغنى عن حمل الأسفار (١/ ٧٣٤): «وفيه ضعف»، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤/ ٣٦): «رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه جماعة لم أعرفهم» .

(٤) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٢١/ ٨٠٣) (٠٠٢٣١) والأوسط (٤٣٩٨) والبيهقى فى شعب الإيمان (٧٣٢١) ، والقضاعى فى مسند الشهاب (٢٧٠١، ٣٧٠١) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤/ ٢٦):« رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه عاصم بن عبيد الله وهو ضعيف».

٨ ـ وفكرة اجتماعية:

لأنهم يعنون بأدواء المجتمع الإسلامى ويحاولون الوصول إلى طرق علاجها وشفاء الأمة منها[(١)].

وهكذا نرى أن شمول معنى الإسلام قد أكسب فكرتنا كل مناحى الإصلاح ووجه نشاط الإخوان إلى كل هذه النواحى،وهم فى الوقت الذى يتجه فيه غيرهم إلى ناحية واحدة دون غيرها يتجهون إليها جميعًا ويعلمون أن الإسلام يطالبهم بها جميعًا.

ويوضح الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله ـ هذه القضية بقوله: «أيها الإخوان أنتم لستم جمعية خيرية ولا حزبًا سياسيًا ولا هيئة موضعية لأغراض محدودة المقاصد، ولكنكم روح جديد يسرى فى قلب هذه الأمة فيحييه بالقرآن، ونور جديد يشرق فيبدد ظلام المادة بمعرفة الله، وصوت داوٍ يعلو مرددًا دعوة الرسول ﷺ، ومن الحق الذى لا غلو فيه أن تشعروا أنكم تحملون هذا العبء بعد أن تخلى عنه الناس.

إذا قيل لكم: إلام تدعون؟ فقولوا: ندعو إلى الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ، والحكومة جزء منه، والحرية فريضة من فرائضه، فإن قيل لكم: هذه سياسة، فقولوا: هذا هو الإسلام ونحن لا نعرف هذه الأقسام، وإن قيل لكم: أنتم دعاة ثورة، فقولوا: نحن دعاة حق وسلام نعتقده ونعتز به، فإن ثرتم علينا ووقفتم فى طريق دعوتنا فقد أذن الله أن ندفع عن أنفسنا وكنتم الثائرين الظالمين، وإن قيل لكم: إنكم تستعينون بالأشخاص والهيئات فقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ۝٨٤﴾ [(٢)]، وبعد هذا سيقول الناس: ما معنى هذا وما أنتم أيها الإخوان إننا لم نفهمكم بعد فأفهمونا أنفسكم وضعوا لأنفسكم عنوانًا نعرفكم به كما تعرف الهيئات بالعناوين؟

هل أنتم طريقة صوفية؟ أم جمعية خيرية؟ أم مؤسسة اجتماعية؟ أم حزب سياسى؟

(١) مجموعة الرسائل للإمام البنا.
(٢) غافر: ٨٤.

كونوا واحدًا من هذه الأسماء والمسميات لنعرفكم بأسمائكم وصفتكم. فقولوا لهؤلاء المتسائلين: نحن دعوة القرآن الحق الشاملة الجامعة:

طريقة صوفية نقية لإِصلاح النفوس وتطهير الأرواح وجمع القلوب على الله العلى الكبير.

وجمعية خيرية نافعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتواسى المكروب وتبر بالسائل والمحروم وتصلح بين المتخاصمين.

ومؤسسة اجتماعية قائمة تحارب الجهل والفقر والمرض والرذيلة من أية صورة من الصور.

وحزب سياسى نظيف يجمع الكلمة ويبرأ من الغرض ويحدد الغاية ويحسن القيادة والتوجيه. والحمد لله رب العالمين.

المبحث الثانى
شبهات وردود

قال سعيد بن المسيب: «إنه ليس من شريف ولا عالم ولا ذى فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغى أن تُذكر عيوبه، ومن كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله» [١].

أخى الداعية..

لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليه صار ممرًا للشبهات.

واعلم أن من قواعد الشرع والحكمة أيضًا أن من كثرت حسناته وعظمت وكان له فى الإسلام تأثير ظاهر فإنه يحتمل له ما لا يحتمل لغيره ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره، فإن المعصية خبث والماء إذا بلغ قُلتين لم يحمل الخبث [٢].

أيها الداعية لعلك علمت من دعوة الإخوان الكثير منذ أن بزغ فجرها وظهر نورها فعم وشمل أنحاء المعمورة. ثم سرى هذا النور بفضل من الله فى قلوب موات فأحياها، ورسخ فى حنايا النفوس فرباها، وتأصل فى أعماق الأرواح فوحدها... ودعوة الإخوان ليست بدعاً فى الدعوات فما هى إلا صدى الدعوة الأولى يدوى فى قلوب هؤلاء المؤمنين ويتردد على ألسنتهم ليظهر عملاً فى تصرفاتهم وسلوكهم، وقد صارحت دعوة الإخوان الناس جميعاً بغايتها وجلت أمامهم مناهجها، وتوجهت إليهم بدعوتها فى غير لبس ولا غموض أضوأ من الشمس وأوضح من فلق الصبح، وأبين من غرة النهار،فمنذ عرفها الناس ما هى إلا دعوة بريئة نزيهة، قد تسامت فى نزاهتها حتى جاوزت المطامع الشخصية واحتقرت المنافع المادية، وخلفت وراءها الأموال والأغراض، ومضت قدماً فى الطريق

(١) البداية والنهاية ٩/ ١٠٠.

(٢)نصيحة ابن تيمية لتلميذه ابن القيم.

التى يرسمها الحق ـ تبارك وتعالى ـ للداعين إليه:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [(١)].

وهـذا فـضل الله علـيهم ومنتـه بـدليل قولـه: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [(٢)].

والداعية يتمنى أن تنظر الأمة إلى حركة الإخوان، هل يرون فيها إلا حب الخير لهم، والإشفاق عليهم والتفانى فى صالحهم. ومضت الدعوة بحمد الله قدماً ضاربة فى شعاب الزمن، لا يضرها من خذلها، ولا من تولى عن صفوفها، ولا من تحامل عليها، تدعو المذبذبين والمضطربين، والمترددين بين الدعوات الحائرة والمناهج الفاشلة، وهى سائحة بعون الله تعالى غير عابئة بقلة ولا بكثرة... ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [(٣)].

وحسبها فخراً ـ والمنة لله ـ أن كانت سبباً فى هداية آلاف الشباب وعصمتهم من الفجور والزيغ وإن لم يدخلوا فى صفوفها لأسباب مختلفة، وهذا فى ميزان الإسلام عظيم، وطالما كانت دعوة الإخوان كالواحة فى وسط الصحراء الموحشة المقفرة حين تأوى إليها جموع المسافرين، فينعمون بظلها ومائها ويأنسون بأهلها، وكثير عدد أولئك الشباب الذين احتضنتهم دعوة الإخوان فى مراهقتهم، واجتازت بهم فترة الشباب بسلام وتفيئوا ظلالها وأنسوا، وإن أقعدهم الترغيب والترهيب بالسوط والدينار عن مواصلة السير معها.

وكم نقلت دعوة الإخوان شاكاً إلى اليقين، ومؤمناً جاهلاً إلى العلم، وهذا فى الميزان الشرعى عظيم، وكم أوضحت دعوة الإخوان من شبهة، وردت تهمة، وأشادت بمناقب

---

(١) يوسف: ١٠٨.
(٢) الحجرات: ١٧.
(٣) الأنفال: ١٠.

مظلوم وكل ذلك فى الميزان الشرعى عظيم.

ثم جاء فى آخر المطاف من يستغرب فهمهم للإسلام وينكر عليهم الجهاد فى سبيل الله، ويثير حولهم الشبهات ويحيطهم بظلم الاتهامات، ويحاول أن يلصق بهم كل نقيصة، وأن يظهرهم لمن حولهم فى أبشع صورة.

وهذا ما نراه إلا شخصاً ساء فيهم ظنه، وأحاطت به الشكوك والريبة، فهو لا يراهم إلا بالمنظار الأسود القاتم.

وهذا الصنف ندعوه إن قبل الدعوة، ونناديه إن أجاب النداء، وندعو الله له سبحانه فهو أهل الرجاء.

ولقد أنزل الله على نبيه الكريم فى صنف من الناس: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[1].

هذا وسنظل نَجِدُّ ونرجو فيئه إلى الدعوة واقتناعه بصدق ونزاهة وعظمة هذه الحركة، والشعار فى ذلك ما روى عن المصطفى ﷺ: «**اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون**»[2].

وفى الختام نقول: إن الكثير من المناوئين لدعوة الإخوان المسلمين مطالبون بأن ينظروا إلى الدعوة نظرة إنصاف، وهى التى تتقبل أحسن ما عملوا وتتجاوز عن نقصهم، وقد أسرف البعض فى الابتعاد عن هذه النظرة فأحصى ما يظنه من أخطائهم مما صدر عن آحاد دعاة الحركة.

ومما لا شك فيه أن للدعوة من خلال انتشارها مناقب كثيرة... أقلها:

١ـ حفظ الشباب من الانحراف فى المفاسد وإمدادهم بالسكينة الإيمانية والطمأنينة القلبية.

٢ـ ولها كذلك صحف تدافع عن قضايا الأمة وترد على الملحدين، وكتب منهجية تعين

(١) القصص : ٥٦.

(٢) تقدم تخريجه.

الشباب على فهم الإسلام.

٣ـ دورها فى قتال اليهود والمستعمرين فى فلسطين والقنال.

٤ـ سعيها فى إعانة الناس فى نيل العلاج الطبى وضروريات الحياة وتوعية الأمة سياسياً.

وتقوم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر للطغاة الظالمين... وإنشاء للمكتبات والمساجد.. حتى إن الدعاة قد تجاوزوا فى ذلك فبذلوا أموالهم وأوقاتهم إلى جانب بذل أرواحهم ودمائهم فنقش الرصاص صدورهم، والتفت الحبال على أعناقهم، ولفظت أنفاس كريمة تحت السياط فى غرف التعذيب.. هذا شىء مما فعلوا.. وهذا شىء من تاريخهم وحاضرهم.. فلماذا يكون التغاضى عن هذه الصور الفاضلة والمفاخرة المشرفة..؟ ولماذا السعى إلى حصر المسألة فى جملة أخطاء ورصدها.. على فرض أنها أخطاء فعلاً وأن الدعاة ليس لهم فيها تأويل.

وقضية الشبهات وإثارتها فى وجه الدعاة إلى الله أمر قديم مضت به سنة الله فى البلاد والعباد، وفعل حكيم من رب كريم يراد به تمحيص القلوب وثباتها وازدياد يقينها كما قال الله عز وجل: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [1].

والذى قيل للرسل هو: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [2].

والدعاة سائرون إلى الله وفق منهج الله، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ومن المقرر أن الشبهات لن تتوقف ولن يستطيع هذا المبحث أن يحيط بجميع الشبهات بل سأقتصر على بعضها.. مع ذكر أصول عامة فى الرد على الشبهات الخارجية من قبل بعض من أساء الظن وتشكك فى سمو هذه الدعوة.

والله نسأل حسن المقصد فى الكلام، والعفة فى اللسان، والصدق فى الحال..

---

(١) فصلت: ٣٤.

(٢) الذاريات: ٥٢، ٥٣.

الشبهات والرد عليها

المراد بالشبهة:

هى ما يثير الشك والارتياب فى صدق الداعى، وحقيقة ما يدعو إليه، فتمنع المدعو من رؤية الحق والاستجابة له، أو تأخير هذه الاستجابة، كما أنه غالباً ما ترتبط إثارة الشبهة بعادة موروثة، أو مصلحة قائمة، أو شهوة دنيوية، أو حمية جاهلية، أو سوء ظن، أو غبش فى الرؤية فتتأثر النفوس الضعيفة المتصلة بهذه الأشياء.. وتجعلها حجة وبرهاناً تدفع به الحق.

مراد مثيرى الشبهات:

يحتج الكثير ممن يثيرون الشبهات حول الدعوة والدعاة، أن هذا من قول الحق.. وإنكار المنكر! وهم فى الغالب ليسوا كذلك؛ إذ يقترن بقولهم الحق الذى يزعمون الكثير من المفاسد التى تشير إلى أن هدفهم هو الفضيحة لا النصيحة!

أصول رد الشبهات:

إن تتبع الشبهات والرد عليها أمر يصعب على الإنسان لأمرين:

الأمر الأول: إن أصحاب الحركة ما داموا يتحركون.. فلا بد أن يصدر عنهم الخطأ، وهذا أمر يدل على الحركة والعيش فى الواقع.. والصراع مع الباطل الذى يحيط بهم، وليس فى ذلك منقصة إذا لم يصاحبه تعصب وإصرار، بل النقص أن يجلس الدعاة عن الحركة والصراع مع الباطل بحجة الحرص على عدم الانحراف عن دين الله ولا يعلم المسكين أنه بجلوسه.. يمثل الانحراف.

الأمر الثانى: إن الذى يبحث عن الشبهات ويقيم كيانه على أعراض الناس، ويقتات من لحومهم فى الليل والنهار، إنما يمثل دور الذباب فى حياة البشر الذى يحوم باحثاً عن القيح الناتج عن الأجزاء المريضة فى الجسم التى هى من خواص الجسد، وهذا الصنف من البشر ما دام هذا همه.. فسيجد ما يقتات به حقيقة أو افتعالاً.

لهذين الأمرين سيكون البحث فى بعض الشبه لبيان معدن صاحب الشبهة مع العمل على بيان المنهجية فى الرد على هؤلاء وأمثالهم وذلك بذكر أصول عامة يستعين بها أصحاب الحق فى رد كيد أولئك فى العموم.

وفى هذا المقام.. لا بد من ذكر حقيقة وهى أن الأصل هو عدم وضع الدعوة فى قفص الاتهام والدفاع عنها.. وأن المنهجية الصحيحة هى عرض الدعوة وحقيقتها مع عدم الالتفات إلى أصوات الحاقدين من أشباه البشر، وقد كان ذلك فى المبحث الأول فى صورة قواعد عامة.. والحمد لله، ولكن الذى دعانا إلى كتابة هذا الجزء هو قصور الناس فى القراءة والاطلاع فى بحثهم عن الحقيقة من مصادرها، وتأثرهم بأسماء وأشكال من تصدر منهم هذه الشبهات.

الأصـــل الأول:

الاحتكام إلى الكتاب والسنة: فالأصل الذى يجب ألا يحاد عنه هو الاحتكام إلى الله ـ عز وجل، لأن الله ـ عز وجل ـ أمرنا بذلك.. فقال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [1].

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [2].

فأمرنا ـ الله عز وجل ـ بطاعته وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام. ثم طاعة أولى الأمر.. فإن وقع الاختلاف سواء بيننا وبين أولى الأمر.. أو فيما بيننا فقط.. فلا يكون الرد إلا لله ورسوله.

ولهذا يقول الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ فى الأصل الثانى من الأصول العشرين:(والقرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم فى تعرف أحكام الإسلام، ويفهم القرآن طبقاً

---

(١) الشورى : ١٠.

(٢)النساء: ٥٩.

لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف، ويرجع فى فهم السنة المطهرة إلى رجال الحديث الثقات).

الأصـــل الثانى: كل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد.. إلا المعصوم ﷺ ـ وبهذا يقول الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ فى الأصل السادس:(وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ، وكل ما جاء عن السلف ـ رضوان الله عليهم ـ موافقاً للكتاب والسنة قبلناه.. وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع.. ولكنا لا نعرض للأشخاص فيما اختلفوا فيه بطعن أو تجريح ونكلهم إلى نياتهم وقد أفضوا إلى ما قدموا).

وبهذا يقول الأستاذ حسن الهضيبى ـ رحمه الله: «وعلى ذلك كل امرئ فيما عدا المعصوم ﷺ يؤخد من قوله ويرد.. فيؤخذ من قوله ما قام البرهان على أنه حق.. ويرد من قوله ما لم يقم عليه ذلك البرهان، ونحن حين نستشهد بأقوال السابقين من أئمة الفقه واللغة لا يدور في خلدنا أن الواجب علينا اتباعهم فى أى شىء قالوا.. ولكننا نحتج بفهمهم وهم أئمة الفقه والعاملون بمختلف أساليب الفقه»، وعلى ذلك لا يجوز الاحتجاج على الإخوان ببعض مجلات الإخوان، أو ببعض الكتب التى ألفها أشخاص الإخوان، لأنه لو جاز ذلك لاستطاع كل إنسان أن يهدم أى دعوة موجودة فى معترك الدعوة والحركة.

الأصـــل الثالث: لم يكن حسن البنا ـ رحمه الله ـ مجرد عالم يلقى دروس العلم على طلبة العلم، ويحقق المسائل العلمية، ولكنه كان ذلك الرجل الذى أبصر تضعضع الأمة الإسلامية وتأخرها وبعدها عن دينها، وجهلها بهذا الدين، وتسلط الأعداء عليها، فأراد ـ رحمه الله تعالى ـ أن يعيد بناء الأمة من جديد، ببناء الشخصية الإسلامية، والجماعة الإسلامية التى تعيد للأمة أصالتها وحيويتها وخيريتها.

والبانى فى هذا المجال (ليس كالعالم) الذى يقول كلمة الحق ثم يذهب ولا يهمه الأثر الذى تتركه هذه الكلمة، البانى يلاحظ أمورا كثيرة، فهو يسير خطوة خطوة، وهو يضع المراحل للعمل، كل مرحلة تقيم البناء على مستوى معين، ثم تتبعها مرحلة أخرى، وهو فى كل ذلك يتعامل مع واقع مر، فالأعوان على الحق قلة، والقادرون منهم على إحسان البناء

أقل من القليل، وبهذا القليل عليه أن يشق الطريق وسط العواصف الهوج، وسط الخرافة والابتداع والاختلاف، إنه يبنى بناء، والبناء لا يكتمل فى يوم وليلة ولا فى شهور، ومواجهة الواقع والباطل لا يمكن أن تتم مرة واحدة.

إن النقاد الذين جلسوا فى بروجهم العاجية يحاكمون دعوة الشيخ حسن البنا يخطئون كثيراً إذا لم يعلموا الهدف الذى كان يرمى إليه الشيخ ـ رحمه الله، بعضهم يحاسب دعوته فى مرحلة من مراحلها، وآخرون لا يستطيعون تصور الحركة فيظنون أن الشيخ متناقض ودعوته متناقضة؛ لأنهم لا يستوعبون حركته فى مراحلها.

وآخرون ينظرون إلى الجموع التى تضمها الجماعة، الجموع التى تتربى فى محاضن الدعوة فيحاسبون دعوة الإخوان ظانين أن كل هؤلاء من أعضاء الإخوان، وآخرون يحاسبون الحركة بناء على سلوك أفرادها وعقيدتهم وتصوراتهم، كما يحاسبنا الكفار على سلوكنا نحن المسلمين لا على المبادئ التى نعتنقها.

والناقدون أصحاب مناهج مختلفة، ومشارب متعددة، وكل يرى الصواب فى صفه، ويحاكم دعوة الإخوان وفق ما يظنه الصواب، وقد يكون الصواب فى جانب الآخرين وقد يكون الصواب معه، ولكن نقده منصب على قضية جزئية.

إن الشيخ حسن البنا أراد أن يحدث فى الأمة تياراً إيمانياً إسلامياً بعد أن خبا الإيمان فى النفوس، وأخذ يربط بين الذين تابعوه برباط الأخوة الإسلامية، وأخذ المد الإسلامى يمتد هنا وهناك، وتغلغل فى أوساط الجامعات والجيش والوزارات فكان يوجه الناس إلى الإسلام وفق مفهومات بسيطة واضحة، كان يصوغها أحياناً ببراعة ليواجه تمزق الأمة وضياعها.

ولم يكن الذين يعملون على خطى «البنا» فى كل مكان على نفس المستوى الذى كان عليه الإمام، لقد تفاوت أتباعه على الفقه عنه، ولكنه استطاع أن يحدث هذا التيار العام وأصبح المتفاعلون مع التيار قابلين للنماء.

هذا هو الإطار الذى يجب أن ينظر فيه إلى حركة الإخوان، والنظرة الجزئية هنا وهناك لن تكون سديدة ما لم يفهم صاحبها الإطار الذى نمت فيه هذه الدعوة.

لم يكن الشيخ حسن البنا مدرس عقيدة ولا مدرس فقه ولكنه كان يدعو للإسلام ويربى عليه ويوجه إليه ويجمع الناس عليه. كان لديه فهم جيد للإسلام، ولكنه كان يضع المعالم والحدود ولا يعنى بالتفاصيل والجزئيات، وفى ضوء هذا يمكننا أن نناقش الكتابات التى ينقدون فيها جماعة الإخوان.. وعلى ذلك فمن المسلمات فى البناء الحركى للحركة الإسلامية أن:

١ـ السلفية ليست جماعة بالمفهوم الذى وصفناه عندما تحدثنا عن الإخوان، فالسلفية تمثل فهماً للإسلام فى مقابل الفهوم الأخرى للإسلام من قبل الفرق التى انحرفت فى فهمها، وهذا الفهم كان موجوداً فى حال وجود الدولة الإسلامية، فالأصل أن يكون جميع الدعاة على منهج السلف ـ رضوان الله عليهم ـ يتحركون به فهماً واستنباطاً،عملاً واعتقاداً،لا أنه جماعة من الجماعات وحزب خاص من الأحزاب.

٢ـ دعوى أن الإخوان لا يملكون تصوراً عقائدياً واضحاً، دعوى تفتقر إلى الأدلة وما ذكر الناقدون لا ينهض على الاستدلال، فالشيخ حسن البنا وضع فى رسائله كثيراً من الأسس العقائدية الواضحة، وهو فى هذا يوجه إلى القرآن والسنة ففيهما حياة القلوب وشفاؤها.

والشيخ حسن البنا يدرك الفارق بين مذهب السلف والخلف جيداً، ولكنه بحس الداعية الذى يريد أن يقارب بين وجهات النظر يحاول أن يبين أن الفارق بين السلف والخلف ليس كبيراً، ثم هذه وجهة نظر لا يطعن بسببها فى عقيدة الرجل، أما كونهم يسعون إلى التعاون بين الطوائف الإسلامية والمذاهب الإسلامية فإن السعى لتحقيق ذلك لا يضير ما دام المسلم عارفاً للمنهج الحق ولا يتنازل عنه،وحسبك أن الشيخ حسن البنا حدد معالم الفهم عنده فى الأصول العشرين.

كما أنه لم ينفرد الشيخ حسن البنا وحده بذكر التصوف الذى يعنى بتربية النفس وتقويم السلوك بعيداً عن الخرافات والبدع بل مدحه كثيرون[1]، وقد نفى الشيخ حسن البنا أن يكون الكشف.. سبيلاً لمعرفة الحق ولا يؤخذ به إذا صادم النص.

الأصل الرابع: نحن لا ننكر أن الشيخ حسن البنا والأستاذ سيد قطب ـ رحمهما الله ـ ترقيا فى الفقه والفهم وهذه طبيعة كل عالم مخلص يتبع الحق كلما تبدى له، وحسبنا أن نعلم أن الشافعى له مذهبان: القديم، والجديد، والجديد كان لما علمه من الحق وتبين له، وبسبب نضجه فى آخر عمره ـ رحمه الله.

---

(١) انظر: المجلد العاشر من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، وانظر: مقالات فقه الدعوة فى مجلة المجتمع بعنوان غنيمة لنا فيها سهم.

تفصيل الشبهات والرد عليها

قالوا: (إن حركة الإخوان المسلمين لا تملك تصوراً عقائدياً واضحاً).

الرد:

لقد أوضحنا فى الفصل الأول عند الحديث عن منهج العقيدة عند الإخوان ما يبين سلفية العقيدة الإخوانية وأهميتها، وبذلك نرى تركيز الإمام البنا رحمه الله على أهمية العقيدة حيث يقول: «وأريد بالأخوة أن ترتبط القلوب والأرواح برباط العقيدة أوثق الروابط وأقواها»[١].

وركز على دعوة الناس إلى هذه العقيدة وأن الإخوان يدعون إلى ذلك وهذا فى قوله: «ولب دعوتهم فكرة وعقيدة يقذفون بها نفوس الناس ليتربى عليها الرأى العام وتؤمن بها القلوب وتجتمع من حولها الأرواح»[٢]، كما أننا عندما ننظر إلى الأصول العشرين ونرى نسبة وجود قضايا العقيدة نُلاحظ أن هناك تركيزًا عجيبًا يدل على وضوح القضية ووضوح أهميتها.. فعلى سبيل المثال: «موضوع العقيدة» نراه فى الأصول الآتية:

١ ـ جزء من الأصل الأول: تعريف العقيدة وارتباطها بالعمل «كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة».

٢ ـ الأصل الثالث: أثر الإيمان على المسلم ـ الجزء الأول.

٣ ـ الأصل الرابع: عن التمائم..

٤ ـ الجزء الأخير من الأصل التاسع: عن الصحابة وما يتعلق بهم ـ رضوان الله عليهم.

٥ ـ الأصل العاشر: توحيد الألوهية والربوبية.

٦ ـ الأصل الحادى عشر: فى البدع فى دين الله ومحاربتها.

٧ ـ الأصل الثالث عشر: فى الصالحين والكرامات.

---

(١) مجموعة الرسائل ص٢٢.

(٢) المرجع السابق ص٨٩.

٨ ـ الأصل الرابع عشر: القبور وما يتعلق بها.

٩ ـ الأصل الخامس عشر: الدعاء والتوسل.

١٠ ـ الأصل السابع عشر: العقيدة وارتباطها بالعمل.

١١ ـ الأصل الثامن عشر: العقل والنقل فى العقيدة.

١٢ـ الأصل التاسع عشر: العقل والنقل فى العقيدة.

١٣ـ الأصل العشرين: التكفير وما يتعلق به.

أما بقية مواضيع الأصول فهى كالآتى:

*** الموضوع الثانى: الدعوة:**

١ـ الأصل الأول: الشمولية فى الفهم الإسلامى.

*** الموضوع الثالث: المنهج:**

١ ـ **الأصل الثانى**: الأصل فى فهم المسلم ومرجعه فى ذلك «الكتاب والسنة».

٢ ـ **الأصل السادس**: أن العصمة لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وكذلك الموقف من الاختلاف.

٣ ـ **الجزء الأول**: من الأصل التاسع: عدم الخوض فى مسائل العمل وترك التشقيقات.

٤ ـ **السادس عشر**: العُرف وأثره فى الفهم.

*** الموضوع الرابع : الفقه:**

١ ـ **الأصل السابع**: فى الاجتهاد والتقليد.

٢ ـ **الأصل الثامن**: الخلاف فى الفروع والنزاع فيها.

٣ ـ **الأصل الثانى عشر**: فى العبادات والزيادة فيها وفهم العلماء لذلك.

أما سيد قطب ـ رحمه الله ـ فله دور كبير فى توضيح إحدى نواحى الألوهية المهمة والتى درس عليها الزمان، ألا وهى قضية الحاكمية لله ـ سبحانه وتعالى.

وأصحاب هذه الشبهة يذكرون أموراً يدللون بها على قولهم:

أ ـ التفويض عند الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله:

وهذه من الشبه التى تثار حول عقيدة الأستاذ البنا ـ رحمه الله،وعلى ذلك لا بد من بيانها والرد عليها.

ـ إن التفويض الذى عناه الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله ـ لم يكن بالمعنى المذموم.. وإنما هو تفويض الكيفية، كما قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ عندما سئل عن كيفية الاستواء قال: «الاستواء معلوم والكيف مجهول» أى نرجع كيفية الاستواء إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ فهو سبحانه أدرى بكيفية الاستواء الذى يليق بجلاله.. فأى غلط فى ذلك.

والذى يثبت أن مراد الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ هو تفويض الكيفية:

١ ـ أنه فصل فى آيات الصفات فى أكثر من مكان، فلو كان يقصد تفويض المعنى لما تكلم عن تفصيل آيات الصفات والأسماء كما فى رسالة «العقائد» مثلاً، أما كونه رحمه الله قد جعل آيات الأسماء والصفات من المتشابه فى قوله: «ومعرفة الله ـ تبارك وتعالى ـ وتوحيده وتنزيهه من أسمى عقائد الإسلام، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما لحق بذلك من المتشابه نؤمن به كما جاء من غير تأويل ولا تعطيل ولا نتعرض لما جاء فيه من خلاف بين العلماء، ويسعنا ما وسع رسول الله ﷺ وأصحابه[١]: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾[٢]، فلفظة المتشابه أطلقت على كيفية الاتصاف وهذا يتبين من خلال تتبع نصوص الإمام البنا ـ رحمه الله ـ ولم يكن يعنى «المعنى قطعاً».

وبجواز إطلاق المتشابه على الكيفية يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطى: «واعلموا أن آيات الصفات كثير من الناس يطلق عليها اسم المتشابه، وهذا من جهة غلط، ومن جهة

---

(١) الأصل العاشر من الأصول العشرين. وأكد هذا فى قوله ـ رحمه الله: «ولست مطالباً بمعرفة كنهها، وإنما حسبك أن تعلم آثارها فى الكون، ولوازمها فى حقك، والله نسأل العصمة من الزلل وحسن التوفيق». (مجموعة الرسائل «العقائد» ص٧١٣).

(٢)آل عمران: ٧.

قد يسوغ كما بينه مالك بن أنس بقوله: «الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب»، فكون الاستواء غير مجهول يدل على أن معناه غير متشابه بل هو معروف عند العرب[١]، وقوله:«والكيف غير معقول» يدل على عجز البشر عن إدراكه، وما استأثر الله بعلمه يسمى متشابهاً بناء على الوقف فى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [٢]، فهو بالنسبة إلى المعنى غير متشابه وبالنسبة إلى كيفية الاتصاف به متشابه بناء على أن المتشابه ما استأثر الله بعلمه»[٣]. أما أنه ـ رحمه الله ـ يرى من خلال النص

---

(١)ومعنى الاستواء عند أهل اللغة والتفسير وحقيقته هو العلو والارتفاع، (انظر:الصواعق ٢/ ٥٤١)،وعلو الله بأنواعه الثلاثة ثابتة له سبحانه ـ علو الذات،علو القدر،علو القهر، وبهذه قال ابن القيم رحمه الله في النونية:

والفوق أنواع ثلاث كلها ... لله ثابتة بلا نُكرانِ

وتفاسير السلف رضوان الله عليهم فى الاستواء تدور حول أربعة معان: «استقر ـ علا ـ ارتفع ـ صعد».

وبهذا قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ فى نونيته:

فلهم عبارات أربع ... قد حصلت للفارس الطعان

وهي استقر وقد علا وكذا ار ... تفع الذى ما فيه من نكران

وكذاك قد صعد الذي هو رابع ... وأبو عبيدة صاحب الشيباني

يختار هذا القول في تفسيره ... أدرى من الجهمى بالقرآني

(٢) آل عمران: ٧.

(٣)منهج ودراسات الأسماء والصفات للشيخ محمد الأمين الشنقيطى ص٢٣، والذى يجعلنا نفهم كلام الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله ـ بهذه الصورة معرفتنا بجهاده ودعوته وحرصه على إحياء السنة وإماتة البدعة، وهو نفس السبب الذى يجعلنا نصرف بعض عبارات ابن قدامة فى ـ لمعة الاعتقاد ـ إلى أن مراده تفويض الكيفية لا المعنى ولتوضيح هذا الأمر ننظر فى «لمعة الاعتقاد» فى هذه المسألة فنرى هذه النقول:

«وكل ما جاء فى القرآن، أو صح عن المصطفى عليه السلام من صفات الرحمن، وجب الإيمان به، وتلقيه بالتسليم والقبول، وترك التعرض له بالرد والتأويل، والتشبيه والتمثيل وما أشكل من ذلك وجب إثباته لفظاً وترك التعرض لمعناه، ونرد علمه إلى قائله»، (ص٤)، وغير ذلك من النقول التى قد تشكل على الطالب فيوضحها العلماء المجتهدين كما بين الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ فقال ـ رحمه الله ـ فى شرحه للمعة الاعتقاد ص٢٠:

«إنه لا كيف ولا معنى أى لا نكيف هذه الصفات لأن تكييفها ممتنع لما سبق، وليس مراده أن لا كيفية لصفاته لأن صفاته ثابتة حقاً، وكل شيء ثابت فلا بد له من كيفية لكن كيفية صفات الله غير معلومة لنا. وقوله: ولا معنى أى لا نثبت لها معنى يخالف ظاهرها كما فعله أهل التأويل وليس مراده نفى المعنى الصحيح الموافق لظاهرها الذى فسرها به السلف فإن هذا ثابت» ا.هـ.

وهذا الذى عمد إليه الشيخ إنما هو منهج الجمع بين نصوص العلماء ـ رحمه الله ـ وعدم ضرب بعض كلامهم= = ببعض تأدباً معهم،فالإمام ابن قدامة ـ رحمه الله ـ كما ذكر النص السابق، ذكر معه نص الإمام مالك فى المسألة بعد ذكره لآيات الصفات.(انظر التفصيل من لمعة الاعتقاد ص٣١ـ ٥١)، ومن نصوص الإمام حسن البنا التى تجمع فى هذه المسألة قوله ـ رحمه الله ـ فى رسالة «العقائد» عن المعطلة:«فرقة عطلت معانى هذه الألفاظ على أى وجه، يقصدون بذلك نفى مدلولها مطلقاً عن الله تبارك وتعالى»، (العقائد ص ٥٦) ،وكذلك قوله:

(أما السلف ـ رضوان الله عليهم ـ فقالوا:نؤمن بهذه الآيات والأحاديث كما وردت ونترك المقصود منها لله ـ تبارك وتعالى ـ فهم يثبتون اليد والعين والاستواء والضحك والتعجب إلى آخره، وكل ذلك لا ندركها ونترك لله تبارك وتعالى الإحاطة بعلمها»، (مجموعة الرسائل ص٢١٤).

وقوله رحمه الله:«قدمت لك أن السلف ـ رضوان الله عليهم ـ يؤمنون بآيات الصفات وأحاديثها كما وردت ويتركون بيان المقصود منها لله ـ تبارك وتعالى ـ مع اعتقادهم بتنزيه الله ـ تبارك وتعالى ـ عن المشابهة لخلقه» (المرجع السابق ص٤١٤).

وممن ذكرهم الإمام حسن البنا كأمثلة لرجال السلف الذين يتبنى معتقدهم بالتفويض:«أبو القاسم اللالكائى فى كتاب أصول السنة، وذكر الخلال فى كتابه السنة، وذكر أبو بكر الأثرم وأبو عمرو الطلمنكى أحد أئمة المالكية وهو شيخ أبى عمر بن عبد البر صاحب كتاب «الوصول إلى معرفة الأصول»، انظر:مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم ٢/ ٣٣١، وغيرهم رحمهم الله، وهؤلاء لا يقول قائل: إنهم كانوا يفوضون المعنى بل هم على مذهب الإمام مالك ـ رحمه الله ـ وانظر زيادة فيهم ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (٦/ ٢٥، ٥/ ٤٢ من الفتاوى) وقد ذكر من مثل قول الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ الدكتور محمد جميل غازى عند كلامه على توحيد الصفات عند الإمام محمد بن عبد الوهاب فقال: ومحمد بن عبد الوهاب ـ ونحن معه ـ لا يؤمن إلا برأى السلف الذى يقول: «إننا نؤمن بهذه الصفات على ظاهرها ولا نؤول فيها، ونفوض علمه إلى الله ـ عز وجل». انظر (مجدد القرن الثانى عشر الهجرى شيخ الإسلام: محمد بن عبد الوهاب»، د. جميل غازى ص٦٥ مكتبة المدنى). فالواضح أن المراد هو تفويض الكيفية، ولذلك يقول الإمام محمد الأمين الشنقيطى:

(فكون الاستواء غير مجهول يدل على أن معناه غير متشابه بل هو معروف عند العرب وإن معناه الارتفاع فى الاعتدال والكيف غير معقول يدل على عجز البشر عن إدراكه وما استأثر الله بعلمه يسمى متشابهاً بناء على الوقف فى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فهو بالنسبة إلى الصفة غير متشابه وبالنسبة إلى كيفية الاتصاف به متشابه بناء على أن المتشابه ما استأثر الله بعلمه. ا.هـ.(منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات طبعة الدار السلفية ص٥٣).

وحول الفهم الصحيح لمراد العلماء من ألفاظهم وعباراتهم قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ فى رسالته فتح رب البرية بتلخيص الحموية فى الباب السابع ص٣٦ ما نصه: «اشتهر عن السلف كلمات عامة وأخرى خاصة فى آيات الصفات وأحاديثها فمن الكلمات العامة قولهم: (أمروها كما جاءت بلا كيف)، روى هذا عن مكحول والزهرى ومالك بن أنس وسفيان الثورى والليث بن سعد والأوزاعى.

وفى هذه العبارة رد على المعطلة والمشبهة ففى قولهم: (أمروها كما جاءت)، رد على المعطلة وفى قولهم (بلا كيف) رد على المشبهة. =

السابق عدم الخوض فى مسائل العقيدة المختلف فيها وترك التعرض لأحد، فهذا يعنى أن الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ يرى أن يكون ترسيخ العقيدة فى قلوب الناس بطريقة المصطفى ﷺ، وهى بناء العقيدة بواقع سلوكى حى متحرك بعيد عن التعقيدات الفلسفية، ممتزج بالروح الإيمانية الطاهرة، فالداعية يشرح قضية الإيمان والعقيدة وفق المنهج الصحيح، وذكر الأمر الذى يجب أن يتحلى به المسلم فى عقيدته حتى يكون مؤمناً فهذا هو الرسول ﷺ يقول للجارية: «**أين الله؟**»،فتقول:فى السماء، فيقول لسيدها: «**أعتقها فإنها مؤمنة**»[1].

نرى أن النبى ﷺ لم يدخل مع الجارية فى غياهب الاصطلاحات وضلال الفلسفات.. فهذا هو المنهج التربوى للصحابة[2]لا نرى فيه خوضاً فى مسائل علم الكلام مع أنها كانت

= وفيها أيضاً دليل على أن السلف كانوا يثبتون لنصوص الصفات المعانى الصحيحة التى تليق بالله تدل على ذلك من وجهين:

الأول: قولهم (أمروها كما جاءت)، فإن معناها إبقاء دلالتها على ما جاءت به من المعانى، ولا ريب أنها جاءت لإثبات المعانى اللائقة بالله ـ تعالى ـ ولو كانوا لايعتقدون لها معنى لقالوا: (أمروا لفظها ولا تتعرضوا لمعناها) ونحو ذلك.

الثانى: قولهم: (بلا كيف)، فإنه ظاهر فى إثبات حقيقة المعنى لأنهم لو كانوا لا يعتقدون ثبوته ما احتاجوا ـ إلى نفى كيفيته فإن غير الثابت لا وجود له فى نفسه فنفى كيفيته من لغو القول.

فإن قيل: ما الجواب عما قاله الإمام أحمد فى حديث النزول وشبهه (نؤمن بها ونصدق لا كيف ولا معنى)، قلنا: الجواب على ذلك أن المعنى الذى نفاه الإمام أحمد فى كلامه هو المعنى الذى ابتكره المعطلة من الجهمية وغيرهم وحرفوا به نصوص الكتاب والسنة عن ظاهرها إلى معانى تخالفه.

ويدل على ما ذكرنا أنه نفى المعنى ونفى الكيفية ليتضمن كلامه الرد على كلتا الطائفتين المبتدعتين طائفة المعطلة وطائفة المشبهة».

(١) أخرجه مسلم (٧٣٥) عن معاوية بن الحكم السلمى رضي الله عنه .

(٢)أخرج الإمام أحمد فى «مسنده» عن أبى رزين قال: قال رسول الله ﷺ : «ضَحِكَ رَبُّنا مِنْ قُنوطِ عِبَاده، وقُرْب غَيره»، قال: قُلت: يا رسول الله أَوَ يَضحَكُ الرَّبُّ ـ عز وجل، «قال: نعم»، قلت: لَنْ نَعدِمُ من ربٍّ يَضحَكُ خيراً،(مسند الإمام أحمد (٤/ ١١) ،سنن ابن ماجه (١٨٢) عن أبى رزين رضي الله عنه . وضعفه الشيخ ناصر، وصفة الضحك ثابتة بأحاديث كثيرة انظر:البخارى رقم (٨٩٧٣)).

ومعنى هذا الحديث: أن الله تعالى يضحك من أن العبد يصير مأيوساً من الخير بأدنى شر وقع عليه، مع قرب تغييره تعالى الحال من شر إلى خير، ومن مرض إلى عافية، ومن بلاء ومحنة إلى سرور وفرحة.

والشاهد من سياق هذا الحديث هنا هو بيان كيفية تعامل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مع النصوص الثابتة لصفات الله تبارك وتعالى، فهو تعامل عملى مُترابط مع مجموعة صفات ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بعيدٌ عن =

على قوتها عند اليونان والإغريق،فهل ساعد هذا المنهج على انتشار الآراء المخالفة فى العقيدة بين الصحابة؟ نستغفرك اللهم ونتوب إليك.

جاء عن بعض السلف أنهم قالوا فى الصفات: «أمروها كما جاءت بلا تفسير»، وعن بعضهم أن «القاعدة فى الصفات الإقرار والإمرار»[1]، فلمّا جاء من بعدهم من أهل العلم والإيمان والعدل والإنصاف بينوا المراد من ذلك وأن مرادهم بالإقرار والإمرار «الكيفية» لا المعانى،ودليلهم فى هذا ما ورد عنهم فى مواضع أخرى كقولهم «أمروها بلا كيف»[2]، وما فى معناه[3].

ألا ترى أنهم حملوا اللفظ المجمل وهو الإقرار والإمرار على اللفظ المبين وهو «أمروها بلا كيف» ولو جُعلت طريقة المتعسف مسلكاً للأحكام لما سلم أحد من علماء الأمة ونبلائها. فكيف لو قرأ كلام الإمام الذهبى بعد أن ذكر بعض أحاديث الصفات وعقب على الإمام مالك قال: «فقولنا فى هذا وبابه: الإقرار والإمرار وتفويض معناه إلى قائله الصادق المعصوم»[4].

إن هذا القول كقول المفوضة، لكنه ليس من العدل إغفالُ أقواله الأخرى فى هذا الموضوع كقوله: «.. وإنما الصفة تابعة للموصوف فإذا كان الموصوف ـ عز وجل ـ لم نره ولا أخبرنا أحدٌ أنه عاينه مع قوله لنا فى تنزيله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فكيف بقى لأذهاننا

= السفسطة الجدلية والمحاقة القولية، فلم يتعب الصحابى نفسه بغير ما كلفه الله، وأثبت ما أثبته النبى ﷺ لربه ـ تبارك وتعالى ـ فقال: (لن نفقد الخير من رب يضحك)، وقال الآخر ـ عوف بن الحارث ابن عفراء ـ فى غزوة بدر: يا رسول الله ما يُضحك الرب من عبده؟ قال: «غمسه يده فى العدو حاسراً» فنزع درعاً كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل رحمه الله، هكذا كان يتربى الجيل القرآنى مع صفات الله ـ تبارك وتعالى ـ بعيداً عن التأويل والتعطيل والتشبيه.

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٥٠١، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للعلامة اللالكائى ٣/ ٦٢٥ تحقيق د. أحمد سعد حمدان.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للعلامة اللالكائى ٣/ ٣٠٥، ٧٢٥.

(٣) انظر السنة لعبد الله بن أحمد ١/ ٧٦٢، وسنن الترمذى ٣/ ٠٥ عقب حديث (٢٦٦).

(٤) سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٩.

مجال فى إثبات كيفية البارى تعالى الله عن ذلك وكذلك صفاته المقدسة نقرُّ بها ونعتقد أنها حق ولا نمثلها أصلاً ولا نشكلها»[١].

فكذلك ما قاله حسن البنا ـ رحمه الله ـ يندرج فى هذا السياق وينظر فيه بهذا المنظار، فها هو فى مواطن كثيرة من كتبه يتحدث عن معانى صفات الله ـ سبحانه ـ ويبينها ويشرحها، وهذا على عكس ما يُرمى به، إذ التفويض البدعى كما مرَّ، مداره على نفى معانى الصفات، وعدم الالتفات إلى ما تضمنته من معانى، قال ـ رحمه الله: «.. صور لنفسك القدرة الإلهية العالية التى لا يعجزها شىءٌ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾[٢]، صور لنفسك العلم الواسع المحيط الذى لا يغيب عنه شىءٌ فهو علم الله، صور لنفسك الحياة الكاملة التى لا يتطرق إليها فناء ولا يلحقها بِلَى فهى حياة الله تبارك وتعالى.. الله العليم الذى يحيط علمه بكل شىء ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾[٣]، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾[٤].

فى هذا القول كما هو واضح شرح لمعانى الصفات التى أوردها وهى القدرة، العلم، الحياة، وهذا مضاد لقول مفوضة المعانى.

ويقول ـ رحمه الله ـ عند شرحه لسورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾[٥]، هذه الكمالات التى تشرق على النفس المؤمنة فترى القدرة التى لا يعجزها شىءٌ، فالله وحده تفرد بالوحدانية فلا يشاركه فى اسمه ولا فى أوصافه مشارك ـ إلى أن قال ـ «الله» المتفرد بكمال الألوهية «الصمد» السيد المقصود لقضاء الحاجات جميعاً»[٦].

ويقول عليه رحمه الله فى سياق شرحه لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٦١٠).
(٢) آل عمران: ١٦٥.
(٣) لقمان: ١٦.
(٤) حديث الثلاثاء، ص٢٩، والآية من سورة غافر: ١٩.
(٥) الإخلاص: ١.
(٦) المصدر السابق ص٣٩.

﴿مَّا بَعُوضَةً﴾[١]، ويقول بعضهم: كيف يُنسب الحياء إلى الله؟ ونجيب على ذلك بأنّ كل صفة تنسب إلى الله ـ تعالى ـ ليست على سبيل التشبيه بصفات الخلق ـ تعالى ـ الله عن ذلك ـ إلى أن قال ـ وكل ما خطر ببالك يا أخى فالله تعالى يخالفه والعجز عن الإدراك إدراك «سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً»[٢].

فبعد أن أثبت صفة الحياء لله ـ سبحانه وتعالى ـ وبَيَّنَ أنها لا تشابه صفات المخلوقين ونفى أن يدرك الإنسان حقيقة صفات الله ـ سبحانه، وهذا هو تفويض الكيفية الواجب اعتقاده ودليله قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾[٤]، ففى كلامه هذا تقرير لقاعدة أهل السنة فى الصفات والتى **تتكون من أركان ثلاثة هى:**

١ـ إثبات الصفات.

٢ـ نفى التشبيه.

٣ـ قطع الكيف.

وفى موضع آخر يبين ـ رحمه الله ـ معانى صفة القرب اللائقة بالله وصفة الرحمة، ثم يستدل بالحديث القدسى المتضمن صفة النفس لله سبحانه، وصفة اليد له تعالى فيقول: «ما أقرب ربك إليك وأنت لا تدرك قربه، وما أحبك إلى مولاك وأنت لا تقدر حبه، وما أعظم رحمته بك وأنت مع ذلك من الغافلين»، إنه سبحانه يقول سبحانه فى حديثه القدسى عَنَ أَبِى هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ: «قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنى. وَالله! لله أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلاَةِ. وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَىَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْه ذِرَاعاً. وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَىَّ ذِرَاعاً تَقَرَبْتُ إِلَيْه بَاعاً. وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَىَّ يَمْشى، أَقْبَلْتُ

---

(١) البقرة:٢٦.

(٢) المصدر السابق ص٨٧١.

(٣) الأنعام: ١٠٣.

(٤) طه: ١١٠.

إِلَيْهِ أُهَرْوِل»[١].

عَنْ أبى مُوسى عَبْدِ الله بنِ قَيس الأشعْرِيِّ ﵁ عن النَّبىِّ ﷺ قال: «**إن الله تعالى يَبْسُطُ يَدَهُ باللَّيْلِ لِيتُوبَ مُسيءُ النَّهار، وَيَبْسُط يَدَهُ بالنَّهارِ لِيتُوبَ مُسيءُ اللَّيْل حَتَّى تَطْلُع الشَّمْسُ مِنَ مَغْرِبها**»[٢]، وإنه لأعظم رحمة من الأم الرؤوم بواحدها الحبيب[٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٣﴾[٤]، ويقول ـ رحمه الله: «وكلنا والحمد لله يتفق على أن القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يستطيع مسلم أن ينكر منه شيئاً وكذا ما صحَّ من حديث رسول الله ﷺ فمثل قوله تعالى جل شأنه فى كتابه العزيز: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ٥﴾[٥]، ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[٦]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ٢٢﴾[٧]، وقوله ﷺ: «قلب المؤمن معلق بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء»[٨]، وقوله ﷺ: «**ينزل ربنا إلى سماء الدنيا**»[٩]، لا نقدر على نكرانها بل هى ألفاظ صحيحة على العين والرأس يقصد بها فى حق الله تعالى غير ما يقصد بها فى حق المخلوق ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾»[١٠].

وكلامه الذى من هذا القبيل كثير، ولم أقصد هنا الحصر، وإنّما أردت أن أورد بعض الشواهد، وأختم الفقرة هذه بنقل أخير من كلام الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ فيه عدة

(١) أخرجه مسلم (٥٧٦٢)، وأحمد (٢/ ٤٣٥ ـ ٥٣٥) عن أبى هريرة ﵁ .
(٢) أخرجه مسلم (٩٥٧٢) ، وأحمد (٤/ ٥٩٣) عن أبى موسى ﵁ .
(٣) وميض من وراء السديم، ص٧٣.
(٤) البقرة: ١٣٤.
(٥) طه: ٥.
(٦) الفتح: ١٠.
(٧) الفجر: ٢٢.
(٨) أخرجه مسلم (٤٥٦٢) وأحمد (٤/ ٨٦١)، عن عبد الله بن عمرو ﵄ ،لفظه : « إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء ... » .
(٩) أخرجه البخارى (٥٤١١) ، ومسلم (٨٥٧) ، وأبو داود (٥١٣١) ، والترمذى (٨٩٤٣) ، وابن ماجه (٦٦٣١) وأحمد (٢/ ٤٦٢) عن أبى هريرة ﵁ .
(١٠) حديث الثلاثاء، ص٦٣٤. الشورى : ١١ .

فوائد حيث قال: «وحديثنا الليلة يتناول موضوعاً فى صلب الدين وهو الألوهية فى الإسلام وهذا هو لب الدين وصميمه حارت الإنسانيةُ فى هذه الحقيقة واختلفت الأمم فيها، وكانت مهمَّة الأديان أن تصل الناس بالله صلة صحيحة من غير لبس ولا مغالاة ـ إلى أن قال ـ حتى جاء الإسلام مظهراً لتلك العقائد كلها على أفضل وأكمل وأتم ما يعرفه الناس من خير وسعادة، جاء ليقذف فى قلوب الناس أشياء تحرك فيهم المشاعر والوجدان جاء يخاطب القلوب فى مشاعرها وعقائدها.

والكتب الآن وما درج عليه الناس قديماً وحديثاً لا تفيد ما يفيده كتابُ الله وسنةُ رسوله ﷺ فعلى المؤمن أن يقرأ فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حتى يصل إلى الطريق السوى من غير فلسفة ومن غير تعقيد، يجد فيهما صفات الله تعالى بينة واضحة لا لبس فيها ولا إشكال،فبينما نقرأ فى الكتب أن صفات الله ـ تعالى ـ ثلاث عشرة صفة أو عشرون صفة، تجد فى كتاب الله والسنة أكثر من هذا فى القرآن: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾(1)، « ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ ، ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ﴾ ، ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ﴾ »(2)، وهذه الآيات تدل على أنه تعالى متصف بالصفات الكاملة وأن أوامر الكون كلها بيده يصرفها كيف يشاء، وأنه لا تتناهى كمالاته ـ إلى أن قال ـ فحين تؤمن أنه واحدٌ طالبك بنتيجتها وهى الإخلاص له والاتجاه إليه والاستعانة به دون سواه، وإذا آمنت بأنه بكل شىء عليم وبكل شىء محيط ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور فهو سبحانه يطالب بنتيجتها وهى حسن المراقبة والخشية منه، وإذا علمت أنه على كل شىء قدير، وأن إدراكه شامل فأنت مطالب بالاعتماد عليه، وهكذا كل صفة من صفاته تعالى قد آمنت بها فأنت مطالب بالعمل بنتيجتها، أمّا إذا لم نعمل فهو علم عقيم لا ثمرة له ولا خير فيه فالعلم والإيمان مربوطان بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ

---

(1) البقرة:٢٥٥.
(2) الحشر:٢٢ـ ٢٤ .

﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [(١)]، فالإيمان بكل صفة من صفات الله ـ تبارك وتعالى ـ تنتزع من النفوس كل نقيصةٍ من النقائص الإنسانية»[(٢)].

ونحن بعد هذا لا يسعنا إلا نحت القوافى من أطرافها ولا علينا أن يفهمنا الناس أو لا يفهمُونا.

ب ـ الاعتزال عند سيد قطب:

يقول الباحثون عن ذواتهم من خلال طعنهم فى الآخرين بأن سيد ـ رحمه الله ـ ينكر الرؤية بدليل تفسيره لقوله تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [(٣)]، فيقول: زيادة من فضل الله غير محدودة، وبهذه العبارة استدل هؤلاء العباقرة على اعتزال سيد ـ رحمه الله، فالله المستعان، وما علموا أن ابن كثير يقول فى قوله تعالى «وزيادة»، «هى تضعيف ثواب الأعمال ويشمل ما يعطيهم الله فى الجنة من القصور والحور والرضى عنهم، وما أخفاه من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجه الله الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته»[(٤)]، ثم ذكر الأحاديث الدالة على ذلك وهنا نرى ابن كثير ذكر العام والمفصل.

أما سيد ـ رحمه الله ـ فذكر العام بقوله: «زيادة من فضل الله غير محدودة»، ثم فصل القول عندما أثبت الرؤية وذم رأى المعتزلة فى تفسيره للآيات ٢٢، ٣٢ من سورة القيامة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ فقال: «فكيف، كيف بها وهى تنظر لا إلى جمال صنع الله ولكن إلى جمال ذات الله»[(٥)]، فلنتطلع إلى فيض السعادة الغامرة الهادى وفيض الفرح المقدس الطهور الذى ينطلق من مجرد تصورنا لحقيقة الموقف على قدر ما نملك ولنشغل

---

(١) الأنفال: ٢.

(٢) حديث الثلاثاء ص٣٣٤ـ ٥٣٤ باختصار وتصرف يسير.

(٣) يونس: ٣٦.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير للصابونى (٢/ ١٩١).

(٥) الظلال (٤/ ٧٨٣٢).

أرواحنا بالتطلع إلى هذا الفيض فهذا التطلع ذاته نعمة لا تفوقها إلا نعمة النظر إلى وجهه الكريم.

وحقيقة اختلافه مع المعتزلة تتضح خلال ردوده على الزمخشري وهو رأس الاعتزال وذلك في عرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ (١).

جـ - أشعرية سيد قطب - رحمه الله:

قبل البدء في هذه القضية لا بد من ذكر بعض الحقائق:

الحقيقة الأولى: أن الأشاعرة هم أقرب الفرق إلى رأى أهل السنة والجماعة فيما يتعلق بإثبات الأسماء والصفات.

الحقيقة الثانية: أن معظم فقهاء الأمة من بعد الأئمة الأربعة نجد عندهم تأويلات كالتي عند المنتسبين إلى أبي الحسن الأشعري، وذلك راجع إلى انتشار هذا المذهب وتبنيه من قبل الشيوخ الذين كانوا يعلمونه لتلاميذهم، وهكذا في الجامعات ومناهجها.

الحقيقة الثالثة: أن العالم قد يقع في الخطأ، وهذا أمر بشرى مقرر لا خلاف فيه، ولكنه قد يرجع عن هذا الخطأ، ويتخلى عما كتب وقال في هذا المجال، هذا إن أسعفه الوقت.

الحقيقة الرابعة: إن الخطأ إذا جاء من العلماء العاملين المجاهدين لا يبرر كونه خطأ، ولكن لا يقال فيهم أكثر من أنهم بذلوا جهدهم للوصول إلى الصواب فوصلوا إلى هذا الأمر فقط(٢).

الحقيقة الخامسة: ما ذكره الشيخ محمد بن صالح العثيمين: أن حكم التأويل على ثلاثة

---

(١) الأنبياء: ٦٩، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الظلال في هذه الآية، وكذلك في خصائص التصور.

(٢) وفي هذا الأمر كلام لطيف لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في جوابه على سؤال: ما الذي يجب على المكلف اعتقاده؟ وما الذي يجب عليه علمه؟

فأجاب - رحمه الله - على وجه التفصيل: «على كل مكلف أن يُقر بما ثبت عنده؛ من أن الرسول ﷺ أخبر به وأمر به، وأما ما أخبر به الرسول ولم يبلغه أنه أخبر به؛ ولم يمكنه العلم بذلك؛ فهو لا يُعاقب على ترك الإقرار به مفصلاً، وهو داخل في إقراره بالمجمل العام، ثم إن قال خلاف ذلك متأولاً كان مخطئًا يغفر له خطأه، إذا لم يحصل منه تفريط ولا عدوان»، «الفتاوى ٣/ ٣٢٨، ٣٢٩».

أقسام:

الأول: أن يكون صادرًا عن اجتهاد وحسن نية بحيث إذا تبين له الحق رجع عن تأويله فهذا معفو عنه لأن هذا منتهى وسعه، وقد قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [(١)] الآية.

الثانى: أن يكون صادرًا عن هوى وتعصب له وجه فى اللغة العربية فهو فسق وليس بكفر إلا أن يتضمن نقصًا أو عيبًا فى حق الله فيكون كفراً.

الثالث: أن يكون صادرًا عن هوى وتعصب وليس له وجه فى اللغة العربية فهذا كفر لأن حقيقته التكذيب حيث لا وجه له»[(٢)].

الحقيقة السادسة: أن سيد ـ رحمه الله ـ عندما بدأ بالحركة والعمل الجهادى ما كان يخرج من محنة حتى يدخل فى الأخرى إلى أن قال كلمة الحق عن رئيس ظالم فقتله ـ رحمه الله.

هذه قواعد يجب فهمها عند الحديث عن النقد لأى فكر مطروح .. ولإكمال الصورة نذكر نموذجين لكلام سيد ـ رحمه الله ـ الذى أخذ فيه تبنيه لمذهب التأويل:

النموذج الأول : تفسيره لقوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾[(٣)].

فيقول: «لا مجال للخوض فى معنى الإستواء إلا أنه رمز السيطرة والقصد بإرادة الخلق والتكوين»، هذه هى العبارة التى ذكرها سيد قطب ـ رحمه الله ـ وبمثلها فى هذا الموقع قال ابن كثير تلميذ ابن القيم ـ رحمهما الله ـ فى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾،أى قصده إلى السماء. والاستواء هنا متضمن معنى القصد

---

(١) البقرة: ٢٨٦.

(٢) شرح لمعة الاعتقاد، ص ١٩.

(٣) البقرة: ٢٩. و «إلى» فى هذه الآية غائية مكانية أو زمانية ولا إشكال فيها وذكرنا لها لورودها فى سياق كلام المنتقدين.

والإقبال[١].

النموذج الثانى: تفسيره لقوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[٢].

يقول ـ رحمه الله: إن عقيدة التوحيد الإسلامية لا تدع مجالاً لأى تصور بشرى عن ذات الله ـ سبحانه ـ ولا عن كيفيات أفعاله، فالله سبحانه ليس كمثله شىء. ومن ثم لا مجال للتصور البشرى لينشئ صورة عن ذات الله، فكل التصورات البشرية إنما تنشأ فى حدود المحيط الذى يستخلصه العقل البشرى مما حوله من أشياء، فإذا كان الله ـ سبحانه ـ ليس كمثله شىء توقف التصور البشرى إطلاقًا عن إنشاء صورة معينة لذاته تعالى، ومتى توقف عن إنشاء صورة معينة لذاته العلية فإنه يتوقف تبعًا لذلك عن تصور كيفيات أفعاله جميعًا ولم يبقَ أمامه إلا مجال تدبر آثار هذه الأفعال فى الوجود من حوله وهذا هو مجاله. ومن ثم تصبح أسئلة كهذه، كيف خلق الله السموات والأرض؟ كيف استوى على العرش؟ كيف هذا العرش الذى استوى عليه سبحانه؟ تصبح هذه الأسئلة وأمثالها لغوًا يخالف قاعدة الاعتقاد الإسلامى[٣].

هذا فى تفسيره للآية (٤٥) من سورة الأعراف، أما ما ورد فى السجدة آية (٤) والفرقان

---

(١) مختصر ابن كثير للصابونى الطبعة الثانية ـ دار القرآن ١/ ٨٤ . كما أن منهج التأويل هذا قد وقع فيه من قبل علماء فحول كتبهم مرجع فى فهم أحاديث النبى ﷺ ، والذين منهم أحمد بن على بن حجر العسقلانى صاحب الفتح حيث قال على صفة الضحك «ونسبة الضحك والتعجب إلى الله مجازية والمراد بهما الرضا بصنيعهما»، فقال الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ بمنهج العالم العارف لحقوق العلماء: «ليت المصنف نزه كتابه عن بيان غير بيان رسول الله ﷺ ؛ واكتفى بأن قال: ضحك وعجب يليق بجلاله عز وجل، والكلام فى الصفات كالكلام فى الذات: إثبات بلا تمثيل ، وتنزيه بلا تعطيل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى] ، وهذا هو مذهب الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين. (أ. هـ الفتح/ السلفية ٧/ ٠٢١). منهج معتدل يؤكده حفظه الله حتى لا يتجرأ طالب متحمس أو مدفوع أهوج إلى تتبع نسخ الفتح فى المكتبات ويقوم بتشطيب الكلام الذى لا يعجبه والذى لا يفهمه، ويكتب عبارات لا تصدر إلا من جاهل، وهذا الذى نقول إنما هو من واقع مرأى فى مكتبات المساجد، والله الهادى إلى الصواب.

(٢) الأعراف: ٥٤.

(٣) الظلال (٣/ ٦٩٢١).

آية (٩٥) وطه آية (٥) والرعد آية (٢) ويونس آية (٣) والحديد آية (٤)، فهى تمثل المرحلة ما قبل رجوعه وتبينه للقضية، فمن المعروف أن سيد ـ رحمه الله ـ بدأ بإعادة النظر فيما كتب فى الظلال، فأضاف وحذف ولكن أجله جعله يقف عند الجزء الرابع عشر كما يقول بعض من لهم صلة به.

وهذا الرجوع فى المنهج بين آية الأعراف، فهى تبين منهج سيد ـ رحمه الله ـ فى رجوعه للصواب إذا تبين له. ورجوع الكاتب عما كتبه يحتاج إلى نفسية يندر أن تجدها عند أصحاب الفكر. وعلى ذلك تحمل الآيات التى ذكرناها على منهج سيد ـ رحمه الله ـ فى الرجوع كما فى سورة الأعراف.

ويتضح المنهج فى موضوع التعامل مع أسماء الله وصفاته عند حديثه عن ظلال آية ١٧٢ من سورة الأعراف فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، فقال ـ رحمه الله: «أخرج ابن جرير وغيره ـ بإسناده ـ عن ابن عباس قال: «مسح ربك ظهر آدم، فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة .. فأخذ مواثيقهم،وأشهدهم على أنفسهم:«ألست بربكم؟ قالوا: بلى».روى مرفوعًا وموقوفًا على ابن عباس. وقال ابن كثير: إن الموقوف أكثر وأثبت...

فأما كيف كان المشهد؟ وكيف أخذ الله من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم؟ وكيف خاطبهم:«ألست بربكم» وكيف أجابوا: «بلى شهدنا»؟.. فالجواب عليه: أن كيفيات فعل الله ـ سبحانه ـ غيب كذاته، ولا يملك الإدراك البشرى أن يدرك كيفيات أفعال الله ما دام أنه لا يملك أن يدرك ذات الله. إذ أن تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية. وكل فعل ينسب لله سبحانه مثل الذى يحكيه قوله هذا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [1] .. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [2] . ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [3].. ﴿مَا

(١) فصلت:١١ .

(٢)السجدة: ٤.

(٣)الرعد: ٩٣.

يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ ﴾[١] .. إلى آخر ما تحكيه النصوص الصحيحة عن فعل الله سبحانه، لا مناص من التسليم بوقوعه، دون محاولة إدراك كيفيته .. إذ إن تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية كما قلنا .. والله ليس كمثله شىء: فلا سبيل إلى إدراك ذاته ولا إلى إدراك كيفيات أفعاله. إذ أنه لا سبيل إلى تشبيه فعله بفعل أى شىء، ما دام أن ليس كمثله شيء ..وكل محاولة لتصور كيفيات أفعاله على مثال كيفيات أفعال خلقه، هى محاولة مضللة، لاختلاف ماهيته ـ سبحانه ـ عن ماهيات خلقه. وما يترتب على هذا من اختلاف كيفيات أفعاله عن كيفيات أفعال خلقه.. وكذلك جهل وضل كل من حاولوا ـ من الفلاسفة والمتكلمين ـ وصف كيفيات أفعال الله وخلطوا خلطًا شديدًا.

د ـ سيد قطب ـ رحمه الله ـ ووحدة الوجود[٢]:

دار الحديث فى هذا الموضوع حول قوله ـ رحمه الله ـ فى تفسير قوله تعالى فى سورة الإخلاص: {قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ}، حيث قال: «ومتى استقر هذا التصور الذى لا يرى فى الوجود إلا حقيقة الله فستصحبه رؤية هذه الحقيقة فى كل وجود آخر انبثق عنها، وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله فى كل شىء يراه. ووراءها الدرجة التى لا يرى فيها شيئًا فى الكون إلا الله؛ لأنه لا حقيقة هناك إلا حقيقة الله»[٣].

وهذه العبارة على ما فيها من خفاء فى المعنى وبعض الإبهام، فهى تتضمن فى ذاتها الفرق بين الخالق والمخلوق وذلك فى قوله: «فستصحبه رؤية هذه الحقيقة فى كل وجود آخر انبثق من إرادة الله».

ثم إن سيد قطب ـ رحمه الله ـ هاجم وحدة الوجود بنصوص واضحة وصريحة، فهو يقول: «والنظرية الإسلامية: أن الخلق غير الخالق وأن الخالق ليس كمثله شىء ومن هنا

---

(١) المجادلة: ٧.
(٢) انظر أقسام الفناء فيما يأتى.
(٣) الظلال (٦/ ٣٠٠٤).

ينتفى من التصور فكرة وحدة الوجود»[١] [*].

أما قول سيد ـ رحمه الله: «ومتى استقر هذا التصور الذى لا يرى فى الوجود إلا حقيقة الله» فيعنى أن الموجودات كلها إنما هى من خلق الله وتنادى بأعلى صوتها على وجود الله ووحدانيته وألوهيته، حيث إنه يعقب هذه الفقرة قوله ـ رحمه الله: «فستصحبه رؤية هذه الحقيقة فى كل وجود انبثق عنها، وهذه درجة يرى القلب فيها يد الله فى كل شىء».

وخلاصة الأمر أن من لم يترب من خلال القرآن، لا يستطيع أن يعيش مع كتابات سيد قطب ـ رحمه الله؛ لذلك عليه أن ينظر فى هذه القواعد التى تحميه من الزلل :

١ ـ أن يجمع بين النصوص لسيد قطب ـ رحمه الله ـ فيحمل المجمل على المفصل والمبهم على الواضح .

٢ـ أن يلجأ إلى النسخ: فتفسير سورة البقرة الذى كتبه سيد قطب ـ رحمه الله ـ فى الطبعة الثانية المحققة بعد سورة الحديد والإِخلاص؛ لأنه لم يصل إليهما فى الطبعة الثانية المحققة بل وصل إلى الجزء الرابع عشر فى الطبعة الثانية.

---

(١)انظر مثل هذه العبارات فى الظلال (١/ ٦٠١)، (٣/ ٥٠٨١)، وانظر: خصائص التصور طبعة الإِتحاد ص ٣٠٨.

(*) وهنا فى الهامش أود الاستطراد فى أقسام الفناء الصوفى لأن وحدة الوجود جزء منه، وكذلك لأن كثيرًا من المتعجلين يجعلونه قسمًا واحدًا، وهذا خطأ فى التصنيف يتبعه خطأ فى تعميم الحكم.

أقسام الفناء:

(١) الفناء عن وجود السوى ـ أى عن سوى الله ـ وهذا هو فناء الملاحدة من أصحاب وحدة الوجود فهو الفناء فى الوحدة المطلقة، ونفى التكاثر فالرب عين العبد، والعبد هو عين الرب، بل لا وجود إلا واحد والتعدد وهم.

(٢) الفناء عن شهود السوى ـ أى لا يشاهد سوى الله ـ وهى الدرجة المتوسطة، وهى التى بنى عليها الهروى كتابه منازل السائرين وحقيقتها: «غيبة أحدهم عن سوى مشهوده، بل غيبة مشهوده بنفسه فهو يثبت الوجود والموجودات، ولكنه ينساها فى الشهود لأنها تلهيه عن إلهه، فهو يفنى بالمشهود عن الشهود، وبالمعبود عن العباد ويسمى ذلك سكرًا أو محوًا أو جمعًا».

(٣) الفناء عن مراد السوى شائمًا برق الفناء، سالكًا سبيل الجمع على ما يحبه الله ويرضى، بمعنى أنه يقدم مراد الله على مراده.

٣ ـ أن يرجح بين النصوص المتعارضة عند سيد قطب فى كتبه فيرجح عبارة النص (فى سورة البقرة) مثلاً، على إشارة النص فى سورتى «الإخلاص والحديد» ويرجح المنطوق الصريح (فى مهاجمة وحدة الوجود) على المنطوق غير الصريح فى السورتين السالفتين، ومثال المنطوق الصريح فى سورتى البقرة والنساء قوله ـ رحمه الله: (إن مقام العبودية غير مقام الألوهية وإنهما متمايزان بلا امتزاج) [١].

وفى ختام الحديث فى هذه الفقرة نذكر ما قاله الدكتور عمر الأشقر فى مقابلة له مع المجتمع عن سيد قطب ـ رحمه الله ـ فقال: إن سيد قطب ـ رحمه الله ـ عندما اتجه فى دراسة الإسلام كان على درجة كبيرة من الإخلاص، ولذلك وصل إلى قضايا رئيسة فى المنهج السلفى مثل الفصل بين منهج القرآن والمنهج الفلسفى، وعدم خلط منابع الإسلام بغيره والاقتصار على الكتاب والسنة والتحاكم إلى الكتاب والسنة، لا إلى الأشخاص والرجال فهو لا يرد الآية والحديث بقول رجل أو عالم.

وسيد قطب ـ رحمه الله ـ اتخذ أسلوب استنباط المنهج السلفى من النصوص، ولكنه لم تتح الفرصة أن يتدارس المنهج كما أتيحت لنا، لذلك قد تكون هناك بعض النقاط الغامضة التى اشتبهت عليه ولو وصلت له بها دراسة واضحة، لتخلص منها ولاشك لأنه لم يكن متبعًا للهوى»[٢] [٣].

هـ ـ الدعاء وقرنه بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه:

أنكر على الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله ـ قوله فى الأصل الخامس عشر:

«والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعى فى كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة».

فقالوا بأن دعوة الإخوان تأثرت بالفكر الصوفى من خلال هذا الأمر، والتوسل بدعة

(١) يمكن الرجوع لمقال للدكتور عبد الله عزام في المجتمع العدد ٦٢٥، ٧٢٥، ٨٢٥ للمزيد من البيان.
(٢) سيد قطب ومنهجه ـ لقاء مع الشيخ عمر الأشقر فى المجتمع العدد (١١٤).
(٣) هذه ردود سريعة ونماذج واضحة، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الكتب التى ذكرت ذلك.

عقائدية كبيرة، وأن الخلاف فيه جوهرى وليس فرعيًا.

وبيان هذه الدعوى يتضح بالآتى:

١ ـ قول المرشد ـ رحمه الله ـ إنه خلاف فرعى فى كيفية الدعاء:

هذا القول ليس خاصًا به ـ رحمه الله ـ بل يمكن استخلاصه من كلام الشيخ الألبانى عندما قال: «فيما سبق نعلم أن التوسل المشروع الذى دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وجرى عليه عمل السلف الصالح وأجمع عليه المسلمون هو:

١ ـ التوسل باسم من أسماء الله تبارك وتعالى أو صفة من صفاته.

٢ ـ التوسل بعمل صالح قام به الداعى.

٣ ـ التوسل بدعاء رجل صالح «بأن يدعو ويؤمن على دعائه».

وأما ما عدا هذه الأنواع من التوسلات (ففيه خلاف) والذى نعتقده ونـدين لله بـه أنـه غير جائز ولا مشروع؛ لأنه لم يرد فيه دليل تقوم به الحجة، وقد أنكره العلماء المحققون فى العصور الإسلامية المتعاقبة، مع أنه قال ببعضه بعض الأئمة، فأجاز الإمام أحمد التوسل بالرسول ﷺ وحده وأجاز غيره كالإمام الشوكانى التوسل به وبغيره من الأنبياء والصالحين»[١].

وذكر الشيخ ناصر فى تحقيقه لأحاديث شرح الطحاوية [٢] ما نصه: «فهذه سبع مسائل هامة كلها فى العقيدة إلاّ الأخيرة منها، وهى كراهة التوسل بحق الأنبياء وجاههم». ا.هـ.

وقد تقرر عند أهل السنة والجماعة أن العقيدة أصولٌ وفروعٌ كما أن الفقه أصول وفروع، وقد بيّن هذا الأمرَ شيخُ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فى مجموع الفتاوى بما نصه: «أن المسائل الخبرية قد تكون بمنزلة المسائل العملية، وإن سميت تلك «مسائل أصول»، وهذه «مسائل فروع»...

---

(١) التوسل أنواعه وأحكامه ص ١٤.

(٢) ص ٥٥ ط٤.

فإن هـذه تـسمية محدثـة، قـسمها طائفـة مـن الفقهـاء، والمتكلمـين، وهـو عـلى المتكلمـين والأصوليين أغلب لا سيما إذا تكلموا فى مسائل التصويب والتخطئة.

ثـم قـال رحمـه الله: فـالعلم بوجـوب الواجبـات كمبـانى الإِسـلام الخمـس، وتحـريم المحرمات الظاهرة المتواترة: كالعلم بأن الله على كل شىء قدير، وبكـل شـىء علـيم، وأنـه سميع بصير،وأن القرآن كـلام الله. ونحـو ذلـك مـن القـضايا الظـاهرة المتـواترة، ولهـذا مـن جحد تلك الأحكام العملية المجمع عليها كفر كما أن من جحد هذه كفر»[(١)].

ثم يقول الشيخ الألبـانى:«فمـن رأى أن توسـل الأعمـى[(٢)] كـان بذاتـه ﷺ فعليـه يقـف

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع ابن قاسم ٦/ ٧٥، ٨٥.

(٢)أخرجه أحمد (٤/ ٨٣١)، والترمذى (٨٧٥٣)، والحاكم (١/ ٣١٣) عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه قال الترمـذى: «حسن صحيح غريب»، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه ولفظه: أن رجلاً ضرير البصر أتى النبى ﷺ ، فقال: ادع الله أن يعافينى. قال: إن شئت دعوت لـك، وإن شـئت أخـرت ذاك، فهـو خـير، (وفى روايـة: وإن شئت صبرت فهو خير لك)، فقال: ادعه. فـأمره أن يتوضـأ، فيحسن وضـوءه، فـيصلى ركعتـين، ويـدعو بهذا الدعاء: الله م إنى أسألك، وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة، يـا محمـد إنـى توجهـت بـك إلى ربـى فى حاجتى هذه، فتقضى لى، الله م فشفعه فى(وشفعنى فيه)، قال ففعل الرجل فبرأ.

وسند الحديث وروايتـه كـما يـذكر الـشيخ نـاصر الـدين الألبـانى. أخرجـه أحمـد فى المسند (٤/ ٨٣١)، ورواه الترمـذى (٤/ ١٨٢ـ ٢٨٢ بـشرح التحفـة)، وابـن ماجـه (١/ ٨١٤)، والطبرانـى فى الكبـير (٣/ ٢/ ٢)، والحاكم (١/ ٣١٣)، كلهم من طريق عثمان بن عمر (شيخ أحمد فيه) عن شعبة ابـن أبـى جعفـر المدنى، قـال: سمعت عمارة بن خزيمة يحدث عن عثمان به، وقال الترمذى: «حسن صـحيح غريـب» وفى ابـن ماجـه عقبـه: «قال أبو إسحاق: حديث صحيح» ثم رواه أحمد: ثنا شعبة به، وفيه الرواية الأخرى، وتابعه محمد بـن جعفـر، ثنا شعبة به، رواه الحاكم (١/ ٩١٥)، وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبى، وقد أعله بعضهم كـصاحب (صيانة الإِنسان)، وصاحب (تطهير الجنان ص ٧٣)، وغيرهما بأن فى إسـناده أبـا جعفـر، قـال الترمـذى: (لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حـديث أبـى جعفـر، ولـيس الخطمـى)، فقـالوا: هـو إذن الـرازى، وهـو صـدوق ولكنه سىء الحفظ.

قلت: ولكن هذا مدفوع بأن الصواب أنه الخطمى نفسه. وهكـذا نـسبه أحمد فى روايـة لـه، وسـماه فى أخـرى: (أبا جعفر المدنى)، وكذلك سماه الحاكم. والخطمى هـذا لا الـرازى هـو المـدنى. وقـد ورد هكـذا فى (المعجـم الصغير) للطبرانى، وفى طبعة بولاق من سنن الترمذى أيضًا. ويؤكد ذلك بشكل قـاطع أن الخطمـى هـذا هـو الذى يروى عن عمارة بن خزيمة، ويروى عنه شعبة، كـما فى إسـناده هنـا،وهو صـدوق، وعـلى هـذا فالإسـناد جيد لا شبهة فيه. (٩٦، ٠٧)،(التوسل وأنواعه للألبانى)، وانظر ما قاله ابن تيمية فى القاعدة ص ٣٩.

التوسل بالنبى ﷺ أمر مختلف فيه.

وهنا فى الهامش نود الاستطراد قليلاً فى هذا البحث لبيانه وإزالة اللبس فيه: =

= ١ ـ يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فى هذا الموضوع:
(وفى الجملة فقد نقل عن بعض السلف والعلماء السؤال به، بخلاف دعاء الموتى من الأنبياء والملائكة والصالحين، والاستغاثة لهم والشكوى إليهم، فهذا مما لم يفعله أحد من السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا رخص فيه أحد من أئمة المسلمين (قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ص ٢٩)، ويذكر كذلك فى الفتاوى ـ فى معرض جوابه على سائل يسأله عن التوسل والاستغاثة، وقول عز الدين بن عبد السلام فى مسألة التوسل فقال فى بيان الفرق بين التوسل والاستغاثة:
(لم يقل أحد: إن التوسل بنبى هو استغاثة به، بل العامة الذين يتوسلون فى أدعيتهم بأمور، كقول أحدهم: أتوسل إليك بحق الشيخ فلان، أو بحرمته، أو أتوسل إليك باللوح والقلم، أو بالكعبة، أو غير ذلك، مما يقولونه فى أدعيتهم، يعلمون أنهم لا يستغيثون بهذه الأمور،فإن المستغيث بالنبى ﷺ طالب منه وسائل له، والمتوسل به لا يدعى ولا يطلب منه ولا يسأل، وإنما يطلب به، وكل أحد يفرق بين المدعو والمدعو به). الفتاوى ١/ ٣٠١.
ثم يستطرد فى موضوع الاستغاثة، ويرد على من قال بأن التوسل هو الاستغاثة فيقول: «وقول القائل: إن من توسل إلى الله بنبى. فقال: أتوسل إليك برسولك فقد استغاث برسوله حقيقة، فى لغة العرب وجميع الأمم قد كذب عليهم. فما يعرف هذا فى لغة أحد من بنى آدم، بل الجميع يعلمون أن المستغاث مسؤول به مدعو، ويفرقون بين المسؤول والمسؤول به، سواء استغاث بالخالق أو بالمخلوق، فإنه يجوز أن يستغاث بالمخلوق فيما يقدر على النصر فيه. والنبى ﷺ أفضل مخلوق يستغاث به فى مثل ذلك». الفتاوى ١/ ٤٠١، ٥٠١.
ويذكر رحمه الله الفرق بين التوسل بالنبى ﷺ وغيره من المخلوقين:
والتوسل إلى الله بغير نبينا ﷺ ـ سواء سمى استغاثة أو لم يسم ـ لا نعلم أحدًا من السلف فعله ولا روى فيه أثرًا، ولا نعلم فيه إلا ما أفتى به الشيخ من المنع، وأما التوسل بالنبى ﷺ، ففيه حديث فى السنن، رواه النسائى والترمذى وغيرهما: أن أعرابيًا أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إنى أصبت فى بصرى فادع الله لى فقال له النبى ﷺ: «توضأ وصَلِّ ركعتين، ثم قل: الله م إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد، يا محمد إنى أتشفع بك فى رد بصرى. الله م شفع نبيك فى»، وقال: فإن كانت حاجة فمثل ذلك» فرد الله بصره ـ تقدم تخريجه ـ فلأجل هذا الحديث استثنى الشيخ التوسل به (يقصد العز بن عبد السلام)، ثم ينهى الإجابة على سؤال السائل فى مسألة التكفير أو عدم التكفير فيما يتعلق بالتوسل فيقول ـ رحمه الله:
«وأما من قال: إن من نفى التوسل الذى سماه استغاثة بغيره كفر، وتكفير من قال بقول الشيخ عز الدين وأمثاله، فأظهر من أن يحتاج إلى جواب، بل المكفر بمثل هذه الأمور يستحق من غليظ العقوبة والتعزير ما يستحقه أمثاله، من المفترين على الدين، لا سيما مع قول النبى ﷺ: «من قال لأخيه:كافر فقد باء بها أحدهما».(أخرجه البخارى (٦٠١٦) ، ومسلم (٦٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما). وأما من قال: ما لا يقدر عليه إلا الله لا يستغاث فيه إلا به، فقد قال الحق بل لو قال كما قال أبو يزيد: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق، وكما قال الشيخ أبو عبد الله القرشى: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون لكان قد أحسن. فإن مطلق هذا الكلام يفهم الاستغاثة المطلقة، كما قال النبى ﷺ لابن عباس: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»،(أخرجه الترمذى (٢١٥٦)، وأحمد (١/ ٣٠٣) عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال الترمذى: «حسن صحيح») .
وإذا نفى الرسول ﷺ عن نفسه أمرًا كان هو الصادق المصدوق فى ذلك، كما هو الصادق المصدوق فى كل ما=

= يخبر به من نفى، وإثبات، وعلينا أن نصدقه فى كل ما أخبر به، من نفى، وإثبات، ومن رد خبره تعظيمًا له، أشبه النصارى، الذين كذبوا المسيح فى إخباره عن نفسه بالعبودية، تعظيمًا له، ويجوز لنا أن ننفى ما نفاه، وليس لأحد أن يقابل نفيه بنقيض ذلك البتة. والله أعلم. (الفتاوى ١/ ٦٠١). ويقول رحمه الله :

«وأما القول القائل: الله م إنى أتوسل إليك به. فللعلماء فيه قولان: كما لهم فى الحلف به قولان: وجمهور الأمة كمالك، والشافعى، وأبى حنيفة، على ألا يسوغ الحلف بغيره من الأنبياء، والملائكة، ولا تنعقد اليمين بذلك باتفاق العلماء، وهذه إحدى الروايتين عن أحمد والرواية الأخرى تنعقد اليمين به خاصة دون غيره، ولذلك قال أحمد فى منسكه الذى كتبه للمروذى صاحبه: إنه يتوسل بالنبى ﷺ فى دعائه، ولكن غير أحمد قال: إن هذا إقسام على الله به، ولا يقسم على الله بمخلوق وأحمد فى إحدى الروايتين قد جوز القسم به، فلذلك جوز التوسل به.

ولكن الرواية الأخرى عنه: هى قول جمهور العلماء، أنه لا يقسم به، فلا يقسم على الله به كسائر الملائكة، والأنبياء، فإنا لا نعلم أحدًا من السلف والأئمة قال إنه يقسم به على الله، كما لم يقولوا إنه يقسم به مطلقا، ولهذا أفتى أبو محمد بن عبد السلام: أنه لا يقسم على الله بأحد من الملائكة والأنبياء وغيرهم، لكن ذكر له أنه روى عن النبى ﷺ حديث فى الإقسام به فقال: إن صح الحديث كان خاصًا به والحديث المذكور لا يدل على الإقسام به، وقد قال النبى ﷺ : «من كان حالفًا فليحلف بالله وإلا فليصمت»، (أخرجه البخارى (٩٧٦٢)، ومسلم (٦٤٦١) عن ابن عمر رضي الله عنهما). وقال: «من حلف بغير الله فقد أشرك» (أخرجه أبو داود (١٥٢٣)، والترمذى (٥٣٥١) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال الترمذى : « هذا حديث حسن »)، والدعاء عبادة، والعبادة مبناها مع التوقيف والاتباع، لا على الهوى والإبتداع، والله أعلم.

ويقول الشيخ ناصر الدين الألبانى: لو صح أن الأعمى إنما توسل بذاته ﷺ ، فيكون حكمًا خاصًا به ﷺ ، لا يشاركه فيه غيره من الأنبياء والصالحين، وإلحاقهم به لا يقبله النظر الصحيح؛ لأنه ﷺ سيدهم وأفضلهم جميعًا، فيمكن أن يكون هذا مما خصه الله به عليهم ككثير مما صح به الخبر، وباب الخصوصيات لا تدخل فيه القياسات، فمن رأى أن توسل الأعمى كان بذاته ﷺ ، فعليه أن يقف عنده ولا يزيد عليه،كما نقل عن الإمام أحمد والشيخ العز بن عبد السلام رحمهما الله تعالى.

ويقول فى ص١٧ فى التعليق على حديث الأعمى:«أما نحن فنرى أن هذا الحديث لاحجة لهم فيه على التوسل المختلف فيه وهو التوسل بالذات».

حكم التوسل بالنبى ﷺ :

حرام، من الأمور المبتدعة على الصحيح، قال شارح الطحاوية عند حديثه عن التوسل بالنبى ﷺ : «هذا ونحوه من الأدعية المبتدعة»، (شرح العقيدة الطحاوية طبعة المكتب الإسلامى ص ٢٦٢)، وقد استعرض العلماء أدلة المجيزين وردوا عليها ـ (انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٦٢ وما بعدها، وانظر: التوصل إلى حقيقة التوسل للشيخ محمد نسيب الرفاعى ص ٥٨١ وما بعدها، والتوسل وأنواعه للشيخ ناصر الدين الألبانى، وانظر كذلك قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية). وللاختصار لن أذكر إلا ما ذكر حول حديث الأعمى لوجود الإشكال فيه، أما غيره من أدلة المانعين فهى ما بين الضعف والوضع، وما هو صحيح منها فمراد الدعاء منها واضح وأنها ليست فى محل الخلاف.

بيان أن المراد فى حديث الأعمى الدعاء:

١ ـ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية بعد تدليله أن المراد الدعاء من النبى ﷺ : =

=وذلك أن قبول دعاء النبى ﷺ فى مثل هذا هو من كرامة الرسول ﷺ على ربه، ولهذا عد هذا من آياته ودلائل نبوته، فهو كشفاعته يوم القيامة فى الخلق، ولهذا أمر طالب الدعاء أن يقول: «فشفعه فىَّ وشفعنى فيه» (قاعدة جليلة صفحة ٢٠١).

٢ ـ ويقول الشيخ ناصر فى إثبات أن المراد من حديث الأعمى الدعاء:

أ ـ أن الأعمى إنما جاء إلى النبى ﷺ ليدعو له، وذلك فى قوله: «ادع الله أن يعافينى» فهو قد توسل إلى الله تعالى بدعائه ﷺ ، لأنه يعلم أن دعاءه ﷺ أرجى للقبول عند الله بخلاف دعاء غيره، ولو كان قصد الأعمى التوسل بذات النبى ﷺ أو جاهه أو حقه لما كان ثمة حاجة به إلى أن يأتى النبى ﷺ ، ويطلب منه الدعاء له، بل كان يقعد فى بيته، ويدعو ربه بأن يقول مثلاً: «الله م إنى أسألك بجاه نبيك ومنزلته عندك أن تشفينى، وتجعلنى بصيرًا». ولكنه لم يفعل، لماذا لأنه عربى يفهم معنى التوسل فى لغة العرب حق الفهم، ويعرف أنه ليس كلمة يقولها صاحب الحاجة، يذكر فيها اسم المتوسل، بل لابد أن يشمل على المجىء إلى من يعتقد فيه الصلاح والعلم بالكتاب والسنة، وطلب الدعاء منه له.

ب ـ إن النبى ﷺ وعده بالدعاء مع نصحه له ببيان ما هو الأفضل له، وهو قوله ﷺ : «إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك». وهذا الأمر الثانى هو ما أشار إليه ﷺ فى الحديث الذى رواه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه ـ أى عينيه ـ فصبر، عوضته منهما الجنة». (التوسل وأنواعه صفحة ٧٠ وما بعدها) الحديث (أخرجه البخارى (٥٦٥٣) عن أنس ابن مالك رضي الله عنه .

جـ ـ إصرار الأعمى على الدعاء وهو قوله: «فادع» فهذا يقتضى أن الرسول ﷺ دعا له، لأنه عليه الصلاة والسلام خير من وفى بما وعد، وقد وعده بالدعاء له إن شاء كما سبق،فقد شاء الدعاء= = وأصر عليه، فإذن لابد أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ دعا له، فثبت المراد، وقد وجه النبى ﷺ الأعمى بدافع من رحمته وبحرص منه على أن يستجيب الله تعالى دعاءه فيه، وجهه إلى النوع الثانى من التوسل المشروع، وهو التوسل بالعمل الصالح، ليجمع له الخير من أطرافه، فأمره أن يتوضأ ويصلى ركعتين ثم يدعو لنفسه، وهذه الأعمال طاعة لله ـ سبحانه وتعالى ـ يقدمها بين يدى دعاء النبى ﷺ له، وهى تدخل فى قوله تعالى: {أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ} (المائدة: ٣٥) وهكذا لم يكتف الرسول ﷺ بدعائه للأعمى الذى وعده به، بل شغله بأعمال فيها طاعة الله سبحانه وتعالى وقربه إليه، ليكون الأمر مكتملاً من جميع نواحيه، وأقرب إلى القبول والرضا من الله سبحانه وتعالى، وعلى هذا فالحادثة كلها تدور حول الدعاء ـ كما هو ظاهر ـ وليس فيها ذكر شىء مما يزعمون.

د ـ إن الدعاء الذى علمه رسول الله ﷺ إياه أن يقول: «الله م فشفعه فى» وهذا يستحيل حمله على التوسل بذاته ﷺ ، أو جاهه،أو حقه، إذ إن المعنى: الله م اقبل شفاعته ﷺ فى، أى اقبل دعاءه فى أن تردَّ علىّ بصرى، والشفاعة لغة: الدعاء، وهو المراد بالشفاعة الثابتة له ﷺ ولغيره من الأنبياء والصالحين يوم القيامة، وهذا يبين أن الشفاعة أخص من الدعاء، إذ لا تكون إلا إذا كان هناك اثنان يطلبان أمرًا، فيكون أحدهما شفيعًا للآخر، بخلاف الطالب الواحد الذى يشفع غيره، قال فى «لسان العرب»: «الشفاعة كلام الشفيع للملك فى حاجة يسألها لغيره، والشافع الطالب لغيره، يشفع به إلى المطلوب، يقال: تشفعت بفلان إلى فلان، فشفعنى فيه».

فثبت بهذا الوجه أيضًا أن توسل الأعمى إنما كان بدعائه ﷺ لا بذاته. (التوسل أنواعه وأحكامه للألبانى ص ١٧ ـ ٤٧).

ويقول محمد نسيب الرفاعى كذلك فى كتابه التوصل إلى حقيقة التوسل المشروع والممنوع. =

عنده ولا يزيد عليه كما نقل عن الإمام أحمد والعز بن عبد السلام»[(١)].

كما أن التعبير بأن التوسل من مسائل الفقه قد نصّ عليه الشيخ المجدد إمام عصره الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فى المسألة العاشرة حيث قال: «قولهم فى الاستسقاء

= أ ـ إن قول الأعمى فى آخر الدعاء الذى علمه إياه رسول الله ﷺ «الله م شفعه فى» دليل على الدعاء؛ لأن الشفاعة من رسول الله ﷺ لا تسمى شفاعة ولا تكون إلا بدعاء الشافع للمشفوع له، فدعاء الأعمى أن يقبل الله شفاعة رسول الله ﷺ فيه يدل على أن رسول الله ﷺ قد دعا له فعلاً، والأعمى يطلب من الله قبول دعاء رسول الله ﷺ.

ب ـ وقوله: «وشفعنى فيه» أى اقبل دعائى فى قبول دعائه من أجل أن ترد إلىَّ بصرى، فهذا يثبت أن رسول الله ﷺ دعا من أجل أن يرد الله بصر الأعمى.

جـ ـ إن معنى التوسل المتبادر إلى أذهان الصحابة ﷺفى ذلك الوقت كان محصورًا فقط فى طلب الدعاء من المتوسل به، وليس له المعنى المتعارف عليه عند البعض فى وقتنا الحاضر ـ أى التوسل بذات المتوسل»، (التوصل إلى حقيقة التوسل، الرفاعى، ص ٨٣٢ ـ ٩٣٢).

وأما من رأى أن توسل الأعمى كان بذاته ﷺ فعليه أن يقف عنده ولا يزيد عليه، كما نقل عن الإمام أحمد والعز بن عبد السلام ـ ذكر ذلك الشيخ ناصر الألبانى فى التوسل وأنواعه وأحكامه ص٧٧».

وعلى هذا فالأمر لم يتفرد به الشيخ البنا ـ رحمه الله، فقد ذكره الشيخ ناصر الألبانى عندما قال فى= = مقدمة العقيدة الطحاوية (فهذه سبع مسائل هامة كلها فى العقيدة إلا الأخيرة منها، وهى كراهة التوسل بحق الأنبياء وجاههم). شرح الطحاوية للألبانى ص ٥٥، ط٤.

وحسن البنا مع ذلك يقول فى الأصل الثالث عشر الآتى بيانه فيما بعد :

ومحبة الصالحين والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة إلى الله تبارك وتعالى، والأولياء هم المذكورون فى قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [يونس]، والكرامة ثابتة بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم ـ رضوان الله عليهم ـ لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا فى حياتهم أو بعد مماتهم فضلا عن أن يهبوا شيئًا من ذلك لغيرهم.

فهذه هى عقيدة الإخوان فى الأولياء فأى خدش فيها؟! وفى الأصل الرابع عشر يقول: «وزيارة القبور أيًا كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة، ولكن الاستعانة بالمقبورين أيًا كانوا ونداؤهم لذلك، وطلب قضاء الحاجات منهم من قرب أو بعد، والنذر لهم، وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها، والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها ولا نتأول لهذه الأعمال، سدًا للذريعة».

وانظر إلى هذه المسألة كذلك فى بعض كتب علماء الأمة؛ الأذكار للإمام النووى ص ٥٧١، المجموع للإمام النووى ٨/ ٤٧٢ ط المنيرية ويبقى هؤلاء ـ رحمهم الله ورضى الله عنهم ـ بشر مجتهدون. وانظر إلى كلام علماء الحنابلة: المبدع ٢/ ٤٠٢ ط المكتب الإسلامى، وانظر أقوال العلماء فى جلاء العينين ص ٦٩٤ ـ ٩٩٤، وانظر فى فيض القدير ٢/ ٥٣١، والدر النضيد فى إخلاص كلمة التوحيد ص ٥ للإمام الشوكانى، فهذه كتب قد استفاضت فيها أقوال العلماء القائلين بجواز التوسل ولم يضرَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أحدٌ وإن خطأهم من قال بعدم الجواز.

(١) التوسل أنواعه وأحكامه ص ٤٧.

لا بأس بالتوسل بالصالحين، وقول الإمام أحمد: يُتوسل بالنبى ﷺ خاصّة مع قولهم إنه لا يستغاث بمخلوق فالفرق ظاهر جدًا، وليس الكلام فيما نحن فيه، فكون البعض يرفض التوسل بالصالحين وبعضهم يخصّه بالنبى ﷺ، وأكثر العلماء ينهى عن ذلك ويكرهه، فهذه المسائل من مسائل الفقه ولو كان الصواب عندنا قول الجمهور إنه مكروه فلا ننكر على من فعله.

ولا إنكار فى مسائل الاجتهاد، لكن إنكارنا على من دعا لمخلوق أعظم مما يدعو الله تعالى، ويقصد القبر يتضرع عند ضريح الشيخ عبد القادر أو غيره يطلب فيه تفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإعطاء الرغبات فأين هذا ممن يدعو الله مخلصًا له الدين لا يدعو مع الله أحدًا، ولكن يقول فى دعائه: أسألك بنبيك أو بالمرسلين، أو بعبادك الصالحين، أو بقصده قبرًا معروفًا أو غيره يدعو عنده، لكن لا يدعو إلا الله مخلصًا له الدين، فأين هذا مما نحن فيه؟[1].

*** الادعاء بأن الإخوان يمجدون التصوف ويدعون إلى إقامة الدين عليه:**

وأولئك يبنون هذه الدعوى على فهم معكوس، ولنستبين ذلك نذكر أشد العبارات فى كتب الأستاذ البنا ـ رحمه الله، والتى يمكن أن يشم منها الباحث عن العورات شيئًا يكون عنده سلاح يضرب به أعراض المسلمين ويقطع به لحومهم:

١ـ قول الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله ـ عند الحديث عن مراحل الدعوة ومرحلة التكوين:

«إنها استخلاص العناصر الصالحة لحمل أعباء الجهاد، وضم بعضها إلى بعض، ونظام الدعوة فى هذا الطور صوفى بحت من الناحية الروحية، وعسكرى بحت من الناحية العملية»[2].

---

(١) إجابة الشيخ على السؤال العاشر فى المسألة الرابعة عشرة فى قسم الفتاوى والمسائل للإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، قام بجمعها الشيخ صالح عبد الرحمن الأطرم، والشيخ محمد عبد الرازق الدويش وهو ملحق بالقسم الثالث من مؤلفات الشيخ،ص ٨٦ ط جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية.

(٢) مجموعة الرسائل ص٢٠.

٢ـ قول الأستاذ سعيد حوى فى كتابه جولات فى الفقهين الكبير والأكبر:

«ومن أجل تذوق العقائد الإسلامية وإقامة الأحكام الفقهية قام علم التصوف فى الأصل، ثم بعد ذلك خرج من أصل الوضع، فبدلاً من أن يكون تابعًا لعلمى العقائد والفقه صار متبوعًا فحدث نتيجة ذلك شر كبير»[١].

هذان هما أكثر ما يذكره الناقدون.

وللبيان والرد نذكر قاعدتين من هذين النصين:

القاعدة الأولى: يجب أن يفهم اللفظ بحسب المسميات لا الأسماء، كما أورد الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله ـ فى الأصل السادس عشر: «والعرف الخاطئ لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية بل يجب التأكد من حدود المعانى المقصود بها والوقوف عندها، كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظى فى كل نواحى الدنيا والدين، فالعبرة بالمسميات لا الأسماء».

وبهذا يقول الشيخ الصابونى[٢]: «ويجوز للمسلمين أن يستعملوا لفظ غلب عليه الذم فى معنى حسن كما قال ﷺ: «**رهبانية أمتى الجهاد فى سبيل الله**»[٣]. مع أن معنى الرهبانية قد ذم فى القرآن كما قال الله عز وجل: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[٤].

والرهبانية كما يقول أبو حيان: «رفض النساء وشهوات الدنيا واتخاذ الصوامع، ومعنى ابتدعوها أى أحدثوها من عند أنفسهم».

القاعدة الثانية: أن الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله ـ كان لا يقر الطرق الصوفية فى عهده

---

(١) جولات فى الفقهين الكبير والأكبر وأصولهما ـ سعيد حوى جـ١، ص ٣٩.

(٢) صفوة التفاسير للصابونى.

(٣) أخرجه ابن حبان (١٦٣)، والطبرانى فى الكبير (٢/ ٧٥١) (١٥٦١) عن أبى ذر رضي الله عنه، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤/ ٦١٢): «رواه الطبرانى وفيه إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسانى وثقه ابن حبان وضعفه أبو حاتم وأبو زرعة»، وأخرجه أحمد (٣/ ٢٨) عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه، وصحح رواية أحمد الألبانى كما فى الصحيحة (٥٥٥).

(٤) الحديد: ٢٧.

على ما هى عليه، ولذلك تكلم عن بعض القضايا الصوفية، التى يتحدث بها أهل الطرق الصوفية ووضع لها ضوابط شرعية مثل:

(الأصل الثالث)، و«للإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله فى قلب من يشاء من عباده، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه».

(الأصل الثالث عشر): «ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة إلى الله ـ تبارك وتعالى، والأولياء هم المذكورون فى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[١].

والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية، مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا فى حياتهم أو بعد مماتهم، فضلاً عن أن يهبوا شيئًا من ذلك لغيرهم».

وقد أخذ المرشد من الطرق الصوفية المعانى الإسلامية المعروفة، مثل: طهارة النفس، وتزكية القلب، والمواظبة على العمل، والحب فى الله، والارتباط فى الخير، وهذه كلها معانٍ دعا إليها الإسلام وحث عليها الرسول ﷺ. ولكن أئمة الصوفية ألفوا وكتبوا فيها وصارت علمًا عليهم، فجاء الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله ـ فجعل له من كل غنيمة سهمًا.

والمتتبع لما كتب الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله ـ يجده قد ذم الصوفية عندما تكلم عن اسم الله الأعظم الذى هام به الصوفية فقال معلقًا: «وخلاصة البحث أن بعض الناس ولعوا بالمعميات وادعاء الخصوصيات والزيادة فى المأثورات، فقالوا ما لم يرد فى كتاب ولا سنة،وقد نهينا عن ذلك نهياً شديداً فلنقف مع المأثور»[٢].

وما ذكره الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ فى المذكرات عن الصوفية يوضحه قوله فى نفس

---

(١) يونس: ٦٣.

(٢) مجموعة الرسائل للإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ ص ٨٤٤، رسالة العقائد، مذكرات الإمام البنا ص٥١.

مذكراته عن رأيه بالتصوف حيث يقول: «وسوف لا أحاول الاستقصاء العلمى أو التعميق فى المعانى الاصطلاحية، فإنما هى مذكرات تكتب عفو الخاطر فتسجل ما يتردد فى الذهن وما تتحرك به المشاعر، فإن تكن صوابًا فمن الله ولله الحمد، وإن تكن غير ذلك فالخير أردت، ولله الأمر من قبل ومن بعد».

وقد بين فى مذكراته ـ رحمه الله ـ ما طرأ على فكرة التصوف من تجاوز وغلو ودخول المتزندقة والكفرة باسم التصوف، ثم دعا المصلحين أن يشمروا لإصلاح أولئك الناس فقال ما نصه: «ولكن فكرة الدعوة الصوفية لم تقف عند حد علوم السلوك والتربية، ولو وقفت عند هذا الحد لكان خيرًا لها وللناس، ولكنها جاوزت ذلك بعد العصور الأولى إلى تحليل الأذواق ومزج ذلك بعلوم الفلسفة والمنطق مواريث الأمم الماضية وأفكارها، فخلطت بذلك الدين بما ليس فيه وفتحت الثغرات الواسعة لكل زنديق أو ملحد أو فاسد الرأى والعقيدة، ليدخل من هذا الباب باسم التصوف والدعوة إلى الزهد والتقشف والرغبة فى الحصول على هذه النتائج الروحية الباهرة، وأصبح كل ما يكتب أو يقال فى هذه الناحية يجب أن يكون محل نظر دقيق من الناظرين فى دين الله والحريصين على صفائه ونقائه»[1].

أما ما قد يقوله البعض أن نشأته الصوفية قد أثرت عليه وجعلته ينهل من نبع غير صافٍ، فالرد بعد حمد الله ـ أن الإمام البنا كان متشربًا بالفكر السلفى لا يتعصب للآراء بل يرتاح للحديث الصحيح، ويسعى إلى ربط الناس بكتاب الله وسنة رسوله بأسلوب بعيد عن الفلسفة واصطلاحات أهل الكلام، وهذه كلها من أصول الدعوة السلفية.

وقد كان والده من المحدثين فقد رتب مسند الإمام أحمد بن حنبل على أبواب الفقه بتأليف أسماه الفتح الربانى، وكان يوجه ولده دائمًا إلى اتباع الرسول ﷺ والاقتداء به. كما أن نشأة الإنسان على أمر لا يعنى أن يتشربه فقد كان بعض شيوخ أهل الحديث نشأتهم

---

(١) مذكرات الدعوة والداعية ص ٤٢.

مبتدعة، ولكنهم خرجوا عن الابتداع وأصبحوا من أشد الناس عداوة للبدعة.

* يثيرون حول الإخوان أنهم يعتبرون الخلافات الفقهية أمرًا يسعه الإسلام، وإن كانت هذه الاختلافات تخالف النصوص، وأنهم يدعون إلى التعصب المذهبى!!

هذا الادعاء يبطله ما ننقله من قول البنا ـ رحمه الله ـ فى رسالة المؤتمر الخامس[1]، حيث يقول: «فأما بعدنا عن مواطن الخلاف الفقهى فلأن الإخوان يعتقدون أن الخلاف فى الفرعيات أمر لابد منه ـ إذ إن أصول الإسلام آيات وأحاديث وأعمال تختلف فى فهمها وتصورها العقول والأفهام، لهذا كان الخلاف واقعًا بين الصحابة أنفسهم وما زال كذلك وسيظل كذلك إلى يوم القيامة.

وما أحكم الإمام مالك رضي الله عنه حيث قال لأبى جعفر وقد أراد أن يحمل الناس على الموطأ: «إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا فى الأمصار وعند كل قوم علم، فإذا حملتهم على رأى واحد تكون فتنة».

كما أنه ليس من العيب الخلاف، ولكن العيب فى التعصب للرأى والحجر على عقول الناس وآرائهم «وبفضل الله هذه النظرة إلى الأمور الخلافية (فى الفروع) جمعت القلوب المتفرقة على الفكرة الواحدة».

ثم يقول رحمه الله فى الأصل السادس:

«وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ».

«وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقًا للكتاب والسنة قبلناه وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع، ولكن لا نعرض للأشخاص فيما اختلفوا فيه بطعن أو تجريح ونكلهم إلى نياتهم وقد أفضوا إلى ما قدموا».

هذا أحد الأصول وفيه بيان لمنهج الإخوان. أما ما ذكره الأستاذ سعيد حوى فيما يتعلق حول هذا الموضوع فهو لا يتعدى صفحات معدودة من كتاب حزب الله، وهى

(١) ص٧١.

الصفحات الواقعة من ص٧١ ـ ٩٣١ من كتاب تعداد ورقه ٩١٤ صفحة والتى يدندن حولها المخالفون، فليس فيها من التعصب نصيب.

يقول الشيخ سعيد حوى[1]: المسلمون قسمان:

قسم لا يستطيع أن يتعرف على حكم الله مباشرة من الكتاب والسنة، وإن تعرف على بعض فقد لا يستطيع الكل وقسم يستطيع، وقد أوجب الله على الأول أن يسأل ويأخذ عن الثانى، وأوجب على الثانى أن يبين.

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾[2].

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾[3].

وبهذا يقول الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ فى الأصل السابع: «ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر فى أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إمامًا من أئمة الدين[4]، ويحسن به مع هذا الإتباع أن يجتهد ما استطاع فى تعرف أدلة إمامه، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صدق من أرشده وكفايته وأن يستكمل نقصه العلمى إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر».

---

(١) فى كتابه «جولات فى الفقهين الكبير والأكبر» وهو مُتأخر على كتابه «حزب الله» ص ١٦ يقول: «والناس فى الأحكام العملية التى هى مدار علم الفقه ثلاثة أقسام:

(أ) إنسان وصل إلى الاجتهاد.

(ب) وإنسان عالم بمصادر القول وموارده ولم يصل إلى رتبة الاجتهاد.

(جـ) وإنسان عامى عادى.

أما الأول فمكلف فى السير على ما يوصله إليه اجتهاده، وأما الثانى فمكلف أن يسير على رأى من اقتنع أن معه الحق من الأئمة، وأما الثالث فله أن يتابع أى إمام من الأئمة ممن سأله فأفتاه فله أن يعمل بفتواه إن كان من أهل الفتوى والهدى، ومن ثم قال العلماء: العامى لا مذهب له، وقالوا: العامى مذهبه مذهب مفتيه».

(٢) الأنبياء: ٧.

(٣) النساء: ٨٣.

(٤) يقول ولى الله الدهلوى فى رسالته «الإنصاف فى بيان الاختلاف»: «إن هذه المذاهب الأربعة المدونة قد اجتمعت الأمة أو من يعتد به منها على جواز تقليدها إلى يومنا هذا، وفى ذلك من المصالح ما لا يخفى».

وهذا مجمل كلام السلف ـ رضوان الله عليهم ـ حول هذه المسألة، فهم يجيزون للعامى التقليد ولا يجيزونه للعالم،وقد أوضحنا ذلك فى القسم الأول.

*** قالوا: إن الإخوان يرون التجمع العددى مع وجود الاختلاف الفكرى:**

فالرد وبالله التوفيق: كان ولا يزال فكر الإخوان موحدًا، وذلك لأنهم يرون أن وحدة الفكر والمنهج تؤدى إلى وحدة المواقف، سياسة أو غيرها. وخطأ أن نقول: إن الإخوان يرون التجمع القطيعى لرجل الشارع أو غيره وتضخيم العدد على حساب النوع والمستوى، بل دعوة الإخوان ترفض أن يكون فى صفوفها أى شخص ينفر من التقيد بخططهم ونظامهم ولو كان أروع الدعاة فهمًا للإسلام وعقيدته وأنظمته، وأكثرهم قراءة للكتب، ومن أشد المسلمين حماسة، وأخشعهم فى الصلاة. والإخوان لا يبالون بهم ـ وهم بهذه المزايا ـ إلا أن يقبلوا التقيد بخطط الجماعة والسعى لإقامة أهدافها، وهى إقامة دولة الإسلام، وذلك فضلاً عن المنحرفين والغافلين وغيرهم.

وهذا الأستاذ ـ رحمه الله ـ يعلنها داوية مجلجلة «إن أبيتم إلا التذبذب والاضطراب والتردد بين الدعوات الحائرة والمناهج الفاشلة، فإن كتيبة الله ستسير غير عابئة بقلة ولا بكثرة، وما النصر إلا من عند الله»، فبين ـ رحمه الله ـ مفاصلة الأسلوب ومنهج العمل مع الواهمين والمتذبذبين، وعلى هذا ـ فالإيمان وفقه الدعوة، وشدة الانغماس فى العمل التجميعى والتربوى ووضوح الطاعة ـ هى المحكمات التى تتحكم فى عملية الانتقاء، لا شروط الوظائف الحكومية والشهادات العالية وأعراف المجامع الأدبية. ثم بعد الإنتقاء الجيد تكون التربية الصلبة التى تنتج الثقات من رجال الدعوة الذين يتحملون ثقل العودة إلى حكم الإسلام وسيثبتون على الحوادث الهازة الخاضة المقدرة عند الله التى لا يثبت فيها إلا الصادقون[1].

*** المواقف السياسية التى تتخذها الجماعة:**

وهذه من الأمور التى يكثر فيها صيد الباحثين عن صديد المسلمين، فالقول فيها وبالله التوفيق:

---

(١) من كلام الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله ـ فى رسالة ـ إلى القلب.

إن الأمور السياسية التى تتخذها القيادات فى حقيقتها: تفضيل بين المصالح، واتباع لقاعدة الفقهاء فى الحرص على أكبر المعروفين عند تعارضهما ولو بتفويت أدناهما، واحتمال أيسر المفسدتين المتعارضتين لإبعاد أعظمهما وأكبرهما.

ولقد أطال الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فى بيان هذه القاعدة وتصويبها والأمر بالعمل بها، حتى إنه أفتى فى هذا الباب بإفتاءات يظنها من لا يعرف السياسة غريبة معيبة، وأغلب هذه المواقف المنتقدة على هذه الحركة مخرجة على هذه القاعدة فى الموازنة بين مراتب المعروف والمنكر ودرجات المصالح والمفاسد، فما من تعاون مع حزب معيب أو تصريح بثناء على فعلة حسنة من حاكم لم يتم إسلامه أو ما شابه ذلك إلا وللقيادات فيها تأويل مستخرج وفق هذا الإفتاء.

ولا يدعى الإخوان أن كل هذه التصرفات المعتمدة على هذه القاعدة كانت صوابًا دومًا فى نتائجها فإن ذلك ليس ركنًا فى توثيق المسلم إنما يجتهد فى باب السياسة كما فى غيرها فيصيب ويخطئ تبعًا لمدى فراسته وطول تجربته، إنما الركن المهم هو أن التأويل والاجتهاد يستند إلى أقوال فى مذاهب أعيان الفقهاء القدماء.

كما أنه لا يمكن للقيادات على طول الخط أن تكشف حوارها حين تقرير مثل هذه الخطوات القائمة على الموازنة بين المصالح والمفاسد، وذلك لأنها قد تعتمد على أسرار لا يسوغ كشفها أو تبريرات مضمرة لا تريد أن يتسرب علمها إلى أعداء الإسلام فيحورون خطتهم العدائية تبعًا لذلك[1].

---

(١) العوائق، محمد أحمد الراشد، ص ٣٢٣ ، كما أنه يراعى عادة فى اتخاذ المواقف السياسية أمورًا كثيرة منها على سبيل المثال:

أ ـ مراعاة الظروف السياسية والاجتماعية والحركية ودراستها قبل إصدار أى موقف يتعلق بأمر الواقع

ب ـ إدراك أن الأنظمة متفاوتة فى تصرفاتها وآرائها ومعتقداتها، وقربها أو بعدها عن الإسلام، ومن ثم فالحكم عليها واتخاذ المواقف تجاهها لابد أن يختلف من نظام لآخر.

جـ ـ أن قدرة الجماعة وقدراتها كمًا ونوعًا تراعى قبل اتخاذ أى موقف تجاه أى أمر.

د ـ أن المواقف السياسية عبارة عن اجتهاد قد تصيب فيه الجماعة وقد تخطئ وهى مأجورة على ذلك إن شاء الله، ومن ثم لا تنتقد الجماعة إن اجتهدت وأخطأت بعد بذل الوسع والجهد، كما أن الفقيه إن اجتهد وأخطأ فله أجر على اجتهاده.

*** هل جماعة الإخوان المسلمين هى جماعة المسلمين:**

من المطاعن التى يتبجح بها أصحاب الكيد والتفريق بين المسلمين أنهم ينسبون إلى الإخوان قولهم بأنهم جماعة المسلمين ويقولون: بأن ذلك مبثوث فى كتبهم (مشكلات الدعوة والداعية، والدعوة الإسلامية فريضة شرعية وضرورة بشرية، المدخل، الجولات... إلخ)، وحول هذه القضية لن أطيل الرد بل سأورد أشد العبارات فى هذا الموضوع وهو قول الأستاذ سعيد حوى ـ رحمه الله:

«إن الإخوان جماعة كاملة للمسلمين»، وهذه العبارة عند قراءتها القراءة الصحيحة نجدها تبين أن الإخوان جماعة كاملة من حيث الشمول، حيث إن هناك فرقًا بين التعريف والتنكير[1]، فالجملة نكرة أى إن الإخوان جماعة كاملة وهذا لا ينفى أنه قد تكون هناك جماعة كاملة غيرها، وهذه النظرة ينظرها كل صاحب حركة لحركته وإلا لما انضم فيها؛ لأن العاقل قبل انضمامه يبحث عن الأقرب للحق والصواب ثم ينضم، وهو فى هذه العبارة لا يكفر ما عداه من العاملين فى الحركة الإسلامية ولا يصفهم بالهلاك ولا يتهم من لم يأتِ معه بالخروج والمروق عن جماعة المسلمين، كما يقول البعض فى تعيين جماعته بأنهم هم الفرقة الناجية.

ولذلك قال الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله ـ فى التعامل مع الآخرين من أصحاب الحركات الإسلامية: «ونلتمس العذر كل العذر لمن يخالفوننا فى بعض الفرعيات، ونرى أن هذا الخلاف لا يكون أبدًا حائلاً دون ارتباط القلوب وتبادل الحب والتعاون على الخير، وأن يشملنا وإياهم معنى الإسلام السابغ بأفضل حدوده وأوسع مشتملاته».

ثم قال عن المتحاملين على أصحاب الحركة: «وإما شخص ساء فينا ظنه وأحاطت بنا شكوكه وريبه فهو لا يرانا إلا بالمنظار الأسود القاتم، ولا يتحدث عنا إلا بلسان المتحرج

---

(١) فالجماعة التى ورد ذكرها فى «أحاديث جماعة المسلمين» وقد وردت معرفة بأل العهدية والعلمية، كما أن من الملاحظ أنه قد تم فصل وكيل الجماعة فى وقت الإمام البنا ـ رحمه الله ـ وكذلك بعض أعضاء مجلس الشورى، ولم يكن أحدهم قد ارتكب ما يُخرجه من الملة فهل بفصلهما يخرجان من الملة؟! هذا ما لا يقوله أحد.

المتشكك، ويأبى إلا أن يلج فى غروره ويسدر فى شكوكه ويظل مع أوهامه فهذا ندعو الله لنا وله أن يرينا الحق حقًا ويرزقنا اتباعه، والباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه وأن يهدينا وإياه الرشد. ندعوه إن قبل الدعاء ونناديه إن أجاب النداء وندعو الله فيه وهو أهل الرجاء فالإخوان يقرون أن الإجماع على أمر فرعى متعذر.

فيقولون: إن الخلاف فى فروع الدين أمر لا مفر منه لذلك لا يمكن أن نتحد فى هذه الفروع والآراء والمذاهب لأسباب عديدة منها:

١ - اختلاف العقول فى قوة الاستنباط أو ضعفه، وإدراك الدلائل، أو الجهل بها وارتباط الحقائق بعضها ببعض.

٢ - سعة العلم وضيقه ووصول الأدلة لإنسان دون الآخر.

٣ - اختلاف البيئات حتى أن التطبيق يختلف باختلاف كل بيئة.

٤ - اختلاف الاطمئنان القلبى إلى الرواية فهذا الراوى ثقة عند فلان ومجروح عند آخر.

والداعى إلى الله يلتمس العذر لمن يخالفه فى بعض الفرعيات، ويرى أن هذا الخلاف لا يكون أبدًا حائلاً دون ارتباط القلوب وتبادل الحب والتعاون على الخير وأن يشمله معنى الإسلام بأفضل حدوده وأوسع مشتملاته.

فهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ كان يخالف بعضهم بعضًا فى الإفتاء فهل أوقع ذلك اختلافًا فيما بينهم فى القلوب؟ وهل فرق وحدتهم أو فرق رابطتهم؟ اللهم لا وما حديث صلاة العصر فى بنى قريظة ببعيد!!» [(١)].

وفى الختام أقولها متألما ما كان الداعية ليُمسك بالقلم إلا ليقوم بإمتاع الأذهان ويطرب الأسماع بما لذ وطاب من ثمار الأطهار الأطياب الذين جاهدوا وقالوا وعملوا ولم يهتموا بالسراب .. ولكن ما كان لى من حيلة بعد أن توالت الطعنات لتحدث من الآلام والويلات فى طريق وحدة الجماعات، إلا أن أكتب هذه الصفحات التى لم يكن قصدى

(١) مجموعة الرسائل ص ١٢٨.

فيها أن أستقصى جميع الطعنات والشبهات، بل أن أقوم بتسطير مجموعة من القواعد تكـون أصولا لمن أراد أن يدفع عن خاطره أوهام الأنام، وتلبيس أهل الدس من النـاس ... لعـلى بذلك أكون قد نصرت الحق فيما أعتقد، والله يهدى إلى الصراط المستقيم.

أمنيات على طريق الدعوة الإسلامية

المُنى: بضم الميم جمع المُنية، وهو ما يَتَمنّى الرجل، والأُمنيّة أُفعولة وجمعها الأمانى، وهو حديث النفس بما يكون وبما لا يكون، كما أنه تشهى حُصُولِ الأمر المرغوبِ فيه مع السؤال للرب فى الحوائج[1].

وعلى ذلك ما أذكره فى هذه الورقات هو سؤال الله ـ تعالى ـ القدير، وتذلل ببابه أن تتحقق أمانى الأمس كما قال الإمام حسن البنا ـ رحمه الله: «أمانىُ الأمس حقائق اليوم»، وذكرى لهذه الأمور لا يعنى أنها غير متحققة بل قد تكون موجودة فأدعو الله أن تتأصل، وقد تكون فى بداياتها فأدعو الله الاستمرار فيها، كما أن هذه الوقفات هى تعبير عن دخول دار الخلوة ساعة ومُشاورة نصيح الفكر، وتلميح تفريط الكسل فى بضاعة القمر، وعدم احتقار يسير الخير، فالذود إلى الذود إبل ضلت، والذى يتلمح حلاوة العواقب ينسى مرارة الصبر.

الأمني الأولى: حسن البنا[2] منهج فى دعوة الإسلام:

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالكرام فلاح

---

(١) لسان العرب مادة «منى».

(٢) أ ـ نبذة عن تأسيس الجماعة:

فى ذى القعدة من عام ٧٤٣١هـ وفى مدينة الإسماعيلية تأسست جماعة الإخوان المسلمين، بعد اجتماع فى منزل مؤسس الجماعة ومرشدها الأول الإمام حسن البنا ـ رحمة الله تعالى عليه ـ ضم هذا الاجتماع ستة من الذين سمعوا خطب الشيخ وتأثروا به، وفى هذا الاجتماع تبايع السبعة على أن يحيوا إخواناً عاملين للإسلام ومجاهدين فى سبيله.

ب ـ نبذة عن حياة مؤسس الجماعة:

ومؤسس جماعة الإخوان المسلمين: هو الشيخ حسن بن أحمد بن عبد الرحمن البنا.

ولد عام ٦٠٩١م فى المحمودية بمصر فى بيئة إسلامية حيث كان على رأس أسرته والده وهو أحد العلماء المشهورين فى عصره.

درس حسن البنا دراسته الابتدائية فى قريته، وفيها حفظ أكثر القرآن الكريم، ثم انتقل إلى مدرسة المعلمين بدمنهور، ثم تخرج من دار العلوم بالقاهرة معلما عام ٧٢٩١م.

وبعد عمر حافل بالعمل للإسلام، والدعوة إليه لقى الإمام حسن البنا ربه شهيدًا فى ٢١ فبراير سنة ٩٤٩١م. (نقلا عن:الطريق إلى جماعة المسلمين ص ٧٣٣، ٨٣٣).

يقول الإِمام أبو محمد التميمى: يَقْبُحُ بكم أن تستفيدوا منا ثم تذكرونا ولا تترحموا علينا ا. هـ[١].

هذا هو الأدب مع أصحاب الدعوة قادة الأمة، وما ذاك إلا لأنهم منارات خير استضاء بها خلق كثير. ودعوة الإِمام حسن البنا من هذه المنارات، وبهذا يقول الأستاذ حسن الهضيبى ـ رحمه الله ـ عن هذه الحركة المباركة:

«إن دعوة الإخوان المسلمين لم تعد دعوة محلية فى حدود وطن صغير، وإنما غدت دعوة عالمية تشمل العالم الإِسلامى بأسره، وتوقظ فى المسلمين روح العزة والكرامة والتقوى، فهى اليوم عنوان انبعاث لا نوم بعده، وتحرر لا عبودية معه، وعلم لا جهل وراءه. ولم يعد من السهل على أية طاغية أن يحول دون انتشار هذه الروح أو امتدادها وما ذلك إلا لأنها تعبير صادق عن شعور عميق يملأ نفوس المسلمين جميعا، ويستولى على مشاعرهم وعقولهم، وهو أنهم لا يستطيعون اليوم نهضة بدون الإِسلام، فالإسلام فى حقيقته ضرورة وطنية واجتماعية وإنسانية»[٢].

فهذه المسيرة وهذه الحركة العجيبة لم يتبق أحد اليوم إلا واستفاد منها، فعلى سبيل المثال نذكر هذه المقابلة التى أجراها أحمد محمد عبد الرحمن مع الشيخ طه السماوى[٣] حيث سأله عن الشخصية التى تأثر بها، وأجاب بأنه تأثر بالإمام حسن البنا فقال: «عندما سمعت بأحاديث الناس عنه وما حُكى لى عنه وعن جهاده فى سبيل نشر دعوة الإِسلام فى كل قرية من قُرى مصر، وما تحمله فى سبيل ذلك من مشقة وجهد، وما تحلى به فى سبيل ذلك من صبر وحلم حتى انتشرت الدعوة فى كل شبر وبقعة فى جميع أنحاء مصر»[٤].وبعد هذه

---

(١) رسالة المسترشدين للحارث المحاسبى تحقيق: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ص ٤.

(٢) حسن البنا مواقف فى الدعوة والتربية ص ٩ ،١٠.

(٣) أحد زعماء الجماعات الإسلامية فى مصر.

(٤) منار الإسلام مجلة إسلامية شهرية تصدر عن وزارة الأوقاف بدولة الإمارات،العدد السادس السنة الحادية عشرة جمادى الثانية سنة ١٤٠٦هـ

الاستطرادة نقول تمنياتنا على الحركة أن تتبنى بخطى جدية منهجية هذا الرجل والتى أذكر منها على سبيل المثال:

١ ـ التتبع الدقيق لأمور الشرع والتورع عن ورود الشبهات:

وبهذا يُحدثنا الأستاذ عباس السيسى فيقول[١]: «عصر ذات يوم، فوجئنا بحضور فضيلة المرشد إلى الإسكندرية، وقال:إنه جاء تلبية لدعوة على باشا ماهر لحضور حفل زفاف ابنه، وكلف فضيلته أحد الإخوة الذين رافقوه ليذهب إلى الحفل، فإذا لم يجد فيه أى مخالفة شرعية اتصل بالأستاذ تليفونيا حتى يحضر، وإذا وجد ما يسبب أى حرج قام هو بالواجب، وانتظر فضيلته فترة من الوقت فلما لم يتم الاتصال التليفونى قال: ألا يوجد أحد من إخواننا عنده أى مناسبة؟ قلت له:إن الأخ محمد خليل شرف الدين سيعقد قرانه الآن فى منزل أصهاره بشارع الميناء الشرقية. فقال: هيا بنا، وكلفنى بشراء هدية،وركبنا إلى المنزل وأدركنا الحفل واستقبلنا استقبالا حارا مفرحا حيث كانت مفاجأة أضفت على الحفل وقارًا وسرورا.. وتحدث الأستاذ حديثا خفيفا وهنأ الأسرتين ودعا للعروسين».

٢ ـ البساطة فى المظهر والثقة بالنفس:

يقول الكاتب الأمريكى «روبير جاكسون» عن الإِمام حسن البنا: «.. لفت نظرى إلى هذا الرجل سمته البسيط ومظهره العادى، وثقته التى لا حد لها بنفسه، وإيمانه العجيب بفكرته»[٢].

ولثقته بنفسه كان يهتم ببناء الرجال فيقول جاكسون فى هذه القضية: «وقد أتيح لى أن ألتقى بوالده الوقور، الشيخ عبد الرحمن البنا، وسمعته يتحدث مع بعض الإخوان، أنه كان يتمنى لو أن ابنه وضع الكتب فى أمر الإِسلام واكتفى بذلك، وقد رَدَّ الأستاذ بأنه منشرح الصدر لمعالجة الإِسلام عن طريق تآلف الرجال»[٣]، وهذا الحرص على بناء

(١) حسن البنا مواقف فى الدعوة والتربية ص ١٦١.
(٢) حسن البنا الرجل القرآنى ص٧ بقلم:روبير جاكسون، ترجمة:أنور الجندى.
(٣) الرجل القرآنى ص ٩، ١٠.

الرجال جعل من قلبه مرجلا يغلى ولهيبا يضطرم، وإن كان حين تلقاه يبدو هادئًا غاية الهدوء، ومع هذا الحرص على تجميع الرجال لم يتخل عَنْ أخلاقه، يقول جاكسون: كان مذهبه السياسى أن يرد مادة الأخلاق إلى صميم السياسة بعد أن نزعت منها، وبعد أن قيل: إن السياسة والأخلاق لا يجتمعان.

وكان يريد أن يكذب قول تاليران: «إن اللغة لا تستخدم إلا لإخفاء آرائنا الحقيقية» فقد كان ينكر أن يضلل السياسى سامعيه أو أتباعه، أو أمته. وكان يعمل على أن يسمو بالجماهير، ورجل الشارع، فوق خداع السياسة، وتضليل رجال الأحزاب[(١)].

ومع الظلام السياسى والجهل الدينى الذى كان فى زمانه إلا أنه كان على ثقة بنصر الله ولنستمع إليه وهو يحدث جاكسون عن عودة الإسلام إلى الحكم:

«وحدثنى الرجل القرآنى عندما أخذت أراجعه رأيه فى صبغة الإِسلام للشرق.

قال: أضرب لك مثلاً بتركيا: أنها ستعود إلى الإسلام وأن عوامل ذلك العود قد تبدت منذ الآن.

كان هذا الحديث بينى وبينه عام ٦٤٩١م وقد لاحظت فى السنوات التالية ما تحقق من قول حسن البنا فى مايو ٠٥٩١م بعد أن مضى الرجل إلى ربه حيث هزم حزب مصطفى كمال وانتصر الحزب الذى كان يقال عنه: إنه رجعى»[(٢)].

٣ ـ الجد بالحركة وعدم المساومة فى الدين والفكرة:

يقول جاكسون: وحاول الإنجليز أن يقدموا عروضا سخية.. فرفضها الرجل فى إباء.. ونامت الأحزاب فى انتظار الهدنة، وظل الرجل الحديدى الأعصاب يعمل أكثر من عشرين ساعة ولا يجهد، كأنما صبغت أعصابه من فولاذ.

لقد كان يحب فكرته حبا يفوق الوصف، ولم يكن فى صدره شىء يزحم هذه الدعوة.

(١) المرجع السابق: ص ٢١.
(٢) المرجع السابق ص ٨٢.

كان يعشق فكرته كأنما هى حسناء! لا يجهده السهر، ولا يتعبه السفر وقد أوتى ذلك العقل العجيب، الذى يصرف الأمور فى يسر، ويقضى فى المشاكل بسرعة ويفضها فى بساطة، ويذهب عنها التعقيد»[1].

٤ ـ التميز بالشخصية القيادية:

يقول جاكسون: «لقد كانت شخصية حسن البنا جديدة على الناس.. عجب لها كل من رآها واتصل بها .. كان فيه من الساسة دهاؤهم، ومن القادة قولهم، ومن العلماء حججهم، ومن الصوفية إيمانهم، ومن الرياضيين حماسهم، ومن الفلاسفة مقاييسهم، ومن الخطباء لباقتهم ومن الكتاب رصانتهم.

ولم يكن الغرب ليقف مكتوف اليدين، أمام مثل هذا الرجل.. الذى أعلى كلمة الإسلام على نحو جديد وكشف لرجل الشارع حقيقة وجوده ومصيره وجمع الناس على كلمة الله .. وخفت بدعوته ريح التغريب والجنس ونزعات القومية الضيقة .. واعتدلت لهجات الكتاب،وبدأ بعضهم يجرى فى ركب «الريح الإسلامية»[2].

كان الناس يرونه غريبا فى محيط الزعماء، بطابعه وطبيعته، فلما مات كان غريبا غاية الغرابة فى موته ودفنه، فلم يصل عليه فى المسجد غير والده وحملت جثمانه النساء ولم يمش خلف موكبه أحد من هؤلاء الذين كانوا يملؤون الدنيا لسبب بسيط هو أنهم كانوا وراء الأسوار.

لقد نقل الرجل بعد أن أسلم الروح إلى بيته فى جوف الليل ومنع أهل البيت من إعلان الفاجعة، وغسله والده، وخيم على القاهرة تلك الليلة كابوس مزعج كئيب، ولقد كان خليقا بمن سلك مسلك أبى حنيفة ومالك وابن حنبل وابن تيمية مواجهة للظلم ومعارضة للباطل أن تختتم حياته على هذه الصورة الفريدة المروعة التى من أى جانب

(١) حسن البنا الرجل القرآنى ص ٧٢.
(٢) المرجع السابق ص ٩١.

ذهبت تستعرضها وجدتها عجيبة مدهشة»[١].

٥ ـ حبه لدعـــــوته [٢]:

كان رحمه الله يتميز بشغفه بدعوته، وإيمانه واقتناعه بها، وتفانيه فيها، وانقطاعه إليها بجميع مواهبه، وطاقاته ووسائله.

وهذه السمة بلا شك من السمات الرئيسة للدعاة والقادة الذين يجرى الله على أيديهم الخير الكثير، ولذلك نرى تأثيره العجيب ـ رحمه الله ـ فى نفوس أصحابه وتلاميذه وعمقه التربوى فى الجيل الذى أنشأه وبهذا يقول الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله: «حينما سلط الطغاة الأقزام الحديد والنار على الإخوان كان الوقت قد فات، وكان البناء الذى أسسه حسن البنا قد استطال على الهدم، وتعمق على الاجتثاث، كان قد استحال فكرة، لا يهدمها الحديد والنار..، واستعلت عبقرية البنا على الطغاة الأقزام، فذهب الطغيان وبقى الإخوان»، ونختم أمنيتنا لنقول:

هذه بعض الملامح فى شخصية رجل الدعوة، ومثلها كثير، ولكن عجز الكثير عنها مع طول الأمد، وقلة اليقين؛ لذلك نتمنى ونؤكد على أُمنيتنا أنه لابد من دراسة سيرة رجل الدعوة الحركية للاستفادة، فمن الخطأ أن ينتسب الإنسان إلى شىء، يُسىء إليه بإعطاء صورة تخالف الصورة الحقيقية لرجل الدعوة المنتسب إلى هذه الحركة، وذكرنا لهذه الأمنية ناتج من رؤيتنا لعناصر متعددة ومن جنسيات مختلفة تنتسب لهذه الحركة اسما وتخالفها فهمًا وسلوكًا وتربية وحركة.

الأمنية الثانية: تأصيل أعمق لعمل أدوم:

نؤكد على أن تجعل الجماعة كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وعمل السلف الصالح مرجعها، وإليه تحتكم فى كل خطواتها، أمر أقامت به الحجة على كل مسلم بأنه لا يحق أن

---

(١) المرجع السابق ص ٦٣، ٧٣.

(٢) دراسات إسلامية، لسيد قطب، ص ٧٩.

يتحرك فى دعوته إلى الله فى غير إطارها؛ لأن كل مسلم مطالب بأن يحتكم فى كل حركة وسكنة فى حياته إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعلى ذلك لابد أن تكون لكل حركة من حركاتها منظور شرعى تلتزم فيه، فالقيادة التنفيذية لا تتخذ قرارًا أو خطوة إلا بعد معرفة رأى القيادة الشرعية ـ إن صح التعبير .

الأمنية الثالثة: خطوات ثابتة فى طريق طويل:

على الحركة ألا تعتسف الطريق وتتعجل الخطوات وتدخل فى صراعات ومواجهة مع الباطل قبل أن تتميز ويكون لها كيان حقيقى، فتعمد إلى التركيز فى التحرك والابتعاد عن التشعب المهدر للطاقات المكثر للأعداء، فتعسف الخُطى من الأسباب التى أخرت النصر عن كثير من العاملين فى حقل الدعوة الإِسلامية.

الأمنية الرابعة: اعتصام دائم نصرٌ واضح:

على الحركة الإِسلامية أن تستيقن أن النصر لا يمكن أن يتحقق من خلال جماعة معينة بذاتها، بل لابد للنصر من التحام مزدوج للجماعات الإِسلامية العاملة تتوحد فيما بينها ثم تلتحم هذه مع قطاعات الشعب المختلفة فيكون بعد ذلك النصر ـ إن شاء الله.

الأمنية الخامسة: دقة فى التقييم صحة فى النتائج:

الجماعة الإسلامية تحتاج فى مسيرتها إلى تقييم الحركات الإِسلامية التى تعمل معها حتى تستطيع التأكد من أن خطواتها فى مكان آمن؛ ولذلك لابد لها من مرتكزات تقيم عليها عملية التقييم، وسأذكر منها على سبيل المثال:

١ ـ إن الجماعة توزن بالإسلام من حيث أهدافها وأفكارها.

٢ ـ أنه لا يحكم على الجماعات الإسلامية من خلال تصرف من تصرفات بعض أفرادها، أو خطأ وقع فيه بعض أفراد تلك الجماعات، ولكن من خلال دراسة مستوعبة لغايات ووسائل وأفكار نفس الجماعة، وذلك لأن الفرد بطبيعة حاله لا يكمل فى يوم من الأيام فهو قاصر بطبيعة خلقه، بل إن مجتمع النبى ﷺ وهو قرن الخيرية كانت فيه الطبيعة

البشرية الخاطئة واضحة.

٣ ـ إن التعميم فى أكثر أحواله يؤدى إلى الخطأ.

الأمنية السادسة: دراسة لعوائق الطريق من خلال الواقع:

ليس من شك أن السائر فى الطريق سيجد عوائق من مستلزمات الطريق أو من طبيعة السائر والسالك، وهذا لا إشكال فيه، ولكن الإِشكال أن يأتى من يسير على نفس الطريق ثم لا يتقى هذه العوائق، والأصل بالمؤمن أن لا يلدغ من جحر واحد مرتين، وعلى ذلك كان لابد لحركة الإِخوان من دراسة تقييمية لمسيرتها تؤكد على الصواب وتتجنب الخطأ، وعلى سبيل المثال لابد للحركة من دراسة لعائق الانشقاق الذى حصل للحركة فى زمن الإِمام البنا، ومعرفة أسبابه ونتائجه لتلافيه فى بقية الطريق ونذكر للدراسة على سبيل المثال:

١ ـ انشقاق فى الإسماعيلية عندما انتقل المرشد للقاهرة (انتخاب خليفة له) الشيخ على الجداوى.

٢ ـ انفصال مندوب شعبة الإِخوان بالقليوبية محمد أفندى ومعه آخرون (فصلوا بقرار).

٣ ـ انشقاق سنة ٩٣٩١م (تكوين جماعة شباب محمد).

٤ـ انشقاق أوائل ٧٤٩١م (نائب الجماعة أحمد السكرى) ومن سقطوا معه.

الأمنية السابعة: وضوح أكثر اختلاف أقل:

من الواضح جدًا أن الحركة فى أول أمرها واتصالها بمؤسسها مباشرة أقل اختلافًا عنها بعد تشعُبها وكثرة أنصارها واختلاف مدارسهم وطول المدة واختفاء جيل التأسيس، ولذلك كان لابد للحركة بعد مضى خمسين عاما على تأسيسها أن تنظر فى أصولها وموازينها وأعرافها وتحددها أكثر، وتوضحها وتبينها حتى لا تجتمع المُتناقضات وتلتقى اللامعقولات فتختلف وتنفجر فى أوقات الفتن والعواصف والملمات، فعلى سبيل المثال

لابد من توضيح الحركة لرأيها فى الأمور التى تأصل الاختلاف فيها وأصبح لا يكفى للحسم فيها ما ذُكر فى الأصول العشرين من تأصيل علمى عام كان يكفى للحسم فى وقت جيل التأسيس، أما الآن «فكل يدعى وصلا بليلى»، وكل أخ يأخذ من الأصول ما يُدعِم رأيه وينسبه إلى مدرسة الإمام حسن البنا، وقد يكون الأصل الواحد يدعى كل من المختلفين أنه يُدعم رأيه، ولست بحاجة لذكر الأمثلة، ولكنى سأعمد إلى ذكر بعض المسائل التى طفحت على السطح وأصبح الاختلاف فيها واضحا، فلزم على قيادة الحركة أن تحسم فى الأمر بعد دراسة علمية ومشورة إسلامية:

١ ـ النظرة للحكومات القائمة وكيفية التعامل معها على التحديد والتعيين بعيدا عن الهلامية والتعميم.

٢ ـ مسألة المذهبية والتقليد والاجتهاد والاتباع وغيرها من الفرعيات التابعة لهذه المسألة.

٣ ـ مسائل العقيدة التى تشغل الشباب اليوم كمبحث الأسماء والصفات، ومبحث التوسل وما يتعلق به،وحقيقة الفرق المنتسبة للإسلام وكيفية التعامل معها.

٤ ـ مباحث التجديد وما هو مقبول منها وما هو مردود، وما هى الأصول التى لا مجال للتجديد والبحث فيها وما هى الفروع التى يسع المجدد أن يتحرك فيها.

٥ـ حقيقة الانتماء إلى الحركة، ومن هو الذى فى صف الجماعة له حقوق وعليه واجبات وله النصرة والولاء، ومن هو مع الجماعة فكريا وروحيا فقط وهل لهذا حقوق وعليه واجبات. وغير هذا الذى ذكرنا مما تستطيع الجماعة أن تصل إليه من خلال دراستها لواقعها.

الأمنية الثامنة: مؤسسات أقوى إنتاج أفضل:

إن الاتساع العددى للأفراد والكمى للمساحة لحركة الإِخوان يجعل تحت أيديها طاقات مُتميزة فى جميع المجالات والتخصصات مما يُتيح لها أن تنتقى من العناصر كما يُنتقى

أطايب الثمر من الشجر، ثم إن الاحتياج العام وصعوبة المعركة التى تخوضها الحركة تستلزم بناءً مؤسسا متماسكا يشد بعضه بعضا كالبنيان يُعجب الزراع ليغيظ الحاسدين للعاملين مع الشباب والنشء، ولقوة المواجهة أصبح ما من بُد من تغيير أهل الثغور، فبدل أن يكون البطل فردا تكون المؤسسة، التى بمجموع أفرادها تصنع سدا منيعًا، فالإعانة بالقوة أوجدت سدًا منع يأجوج ومأجوج وهكذا العصى إذا اجتمعن أبين تكسرا. وهنا على سبيل المثال نتمنى ونسأل الله أن يعين من بيده توجيه الطاقات أن يؤكد تأكيدًا عمليًا على المؤسسات التالية:

١ ـ المؤسسة التربوية التكوينية. ٢ ـ المؤسسة الثقافية العلمية.

٣ ـ المؤسسة السياسية الاجتماعية. ٤ ـ المؤسسة الاقتصادية المالية.

٥ ـ المؤسسة القضائية الدستورية.

وغير ذلك من الأعمال التى يقوم بها الآن أفراد منتشرون هنا وهناك على أن تكون لهذه المؤسسات الدور الإيجابى العملى من حيث رصد الميزانيات وتحديد إستراتيجية العمل ورسم سلم الأوليات مع إعطاء نتاجها العملى النسبة الكبيرة من حيث التنفيذ وعدم استهجانه واستصغاره، فإن كان فى البداية بسيطا ساذجا فسيكون فى النهاية عميقا ظاهرا، فالرجل الكبير لابد أن يكون صغيرًا حتى يكبر، ثم إن ذلك يستدعى أن يكون اختيار عناصر هذه المؤسسات مراعى فيهم جميع الشروط القيادية.

الأمنية التاسعة: رصدٌ جيد مفاجآت أقل:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [1].

الدعوة الإسلامية كالشامة البيضاء فى الثور الأسود يُلاحظها الجميع فينقسمون بعد ذلك بين ناصر ومعجب وحاسد، وما أكثر الحاسدين فى زماننا هذا، لهم قلوب شتى، وصور مختلفة، يتقاتلون فيما بينهم، ويجتمعون على عداوة ديننا، فيرموننا من صعيد واحد،

---

(١) الأنعام: ٥٥.

يبحثون عن مقتلنا، هدفهم القضاء على الإسلام، دينهم تعبيد الناس لأمثالهم من الناس، أشكالهم مختلفة، أثوابهم متلونة، طرقهم ملتوية، أسماء شتى، أهداف واحدة ـ ماسونية ماكرة، شيوعية باطشة، رأسمالية ماجنة، باطنية خافية ـ العالم يئط من كثرة الأحزاب كل قد أخذ أهبته، وأخرج سيفه من غمده، لسان حاله يصرخ ويقول: «امنعوا دولة الإسلام ولو فى أقصى الشمال أو أطراف الجنوب»، هذا هو الواقع الذى تعيش فيه الدعوة الإسلامية، وعلى ذلك فأمنيتنا أن تقوم أجهزة فى الدعوة الإسلامية ليس لها من العمل إلا رصد أولئك الحاسدين الماكرين، ودراسة أدواتهم التدميرية التى يستخدمونها من خارج الدعوة أو من داخلها، فيعرفون مواطن الخطر، وأقدام الماكرين قبل وقوعها فيصيحوا بإخوانهم محذرين: «لا يُحطِّمنّكم الماكرون بخططهم» فيطيروا بأجنحة الحذر، فيصلوا إلى قمم النجاة.

وما أشق السفر فى الأرض المُسبعة،هذا هو طريق السالكين فى جادة المرسلين، وإلا فطويل رقاد، ونوم أهل كهف فى سبات لا يُزعجهم صوت العادى، ولا يؤلمهم سوط الماكر، فتتكرر الملمات وترجع الظلمات،ويُعض أصبع الندم ولا ندم.

لهفى على غفلات أيامٍ مضتْ عنى وما لهفى براجع ما مضى

ولذلك نؤكد ونقول: إنه ما انتقمت الدعوة من الحاسد بأعظم من تقويمها ورصدها، وما انتقم منها بأكثر من تفريطها.

الخـــاتمة

وفى الختام نقول: يا قائمًا فى سوق الأرباح ماذا حصَّلْتَ من رسالتنا، يا منقطعًا فى طريق الوصال هلا توصلت، فإن الدعوة لوصلك باحتياج، ولا ندرى أخى القارئ، وأنت فى قراءتك لرسالتنا أتراك اشتغلت بنا أو عنّا، هل ماء توحيدك وعلمك فى قلبك قبلك بلغ القلتين، وهل فكرت وأنت فى رحيلك فى الرسالة أن تتشاغل بالتزود منها لمسيرتك مع إخوانك فى ركاب الدعوة.

واحذر أخيرًا أن تكون أرض قلبك مشحونة بشوك الذنوب فلو قد سلمتها إلى الزارع[1] لرأيتها قد تغيرت.

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾[2]، وإياك والعجز والتوانى فإن منهما نتجت الفاقة، وكان السلف - رضوان الله عليهم - إذا سمعوا موعظة غرست لهم نخلة العزائم.

فإلى عمل جاد بعيدا عن الترهات والعوائق عماده الإخلاص، فالعمل صورة والإخلاص روح. واعلم أنه غلب على المُخلصين الخشوع فجاء المرائى يبهرج فقيل: مهلا فالناقد بصير، لما أخذ دود القز ينسج جاءت العنكبوت تتشبه، فنادى لسان الحال الفارق:

إذا اشتبكت دموع فى خدود ... تبيَّن من بكى ممّن تباكى[3]

---

(١) الدعاة المخلصين .

(٢) إبراهيم : ٤٨ .

(٣) اللطف فى الوعظ ص٨٢ .



الرسالة الخامسة

طريق الأمناء لتحقيق الوفاء

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وإمام النبيين محمد ﷺ.

وبعد:

فالأخلاق من الثوابت المقررة فى دين الإِسلام إلى جانب العقيدة والعبادة بمعناها المعروف عند الناس (الصلاة والصيام والزكاة والحج)، والأخلاق لا تتغير ولا تتبدل وإن تغيرت العصور، واختلفت البيئات، وتعاقبت بعضها إثر بعض.

فالصبر والصدق والأمانة والوفاء بالعهد والإخلاص وغيرها من جوانب الأخلاق، كلها أعمدة ثابتة فى البناء الإِسلامى، تشدُّ أزر المؤمنين، وتثبِّت بنيانهم وتقوِّى دعائمهم، وتبعث الثقة والاطمئنان فى مجتمعاتهم، وتجعلهم متعاونين متراحمين، كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضًا،فلا يقوى عدوّ عندئذ أن يتوغل بينهم أو يمكر بهم، أو يُثير بينهم الضغائن والأحقاد التى هى مبعث كل شر وسلاح كل شيطان مارد.

والأخلاق فى الإِسلام لا تتجزأ،فهى عند المسلم كلها لازمة وكلها يؤدى بعضها إلى بعض ويقوى بعضها بعضًا فى نفوس المسلمين،فلا يستغنى مسلم بالصبر عن الصدق ولا بهما معًا عن غيرهما؛لأنها كلها تصبُّ فى نفس المسلم معنى القوة فيصبر عند البأساء، ويشكر عند النعماء، ويعفو عند المقدرة،ويسخو عند الفقر،ويوفى بعهده وإن احتمل التضحية فى سبيل الوفاء، الذى لا مهرب ولا منجى منه إلا بالقيام به على أحسن الوجوه وأقواها.

نقول هذا ونحن ندرك أن البشر متفاوتون فى محاسن الأخلاق،وأن النقص وارد فى بعض جوانب الأخلاق أو فى مقدارها فى نفوسهم ومدى ظهورها فى سلوكهم وعطائهم الإِنسانى، وأن على الإنسان دائمًا وأبدًا أن يأخذ نفسه بمحاسن الأخلاق، وأن يترقى فى درجاتها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ليكون كالشجرة التى يفىء الناس إلى ظلالها فيستريحون، ويكون من الذين يسرّهم الله لليسرى، مصداق قول الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾

وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ (١).

ويبدو أن هذه الأخلاق تتبدى فى النفوس المستقيمة، فهى جزء من الفطرة الصائبة ولذا عرفها الجاهليون وعرفها المشركون والملحدون وأصحاب الأديان السماوية، عرفها كل هؤلاء وزاغ عنها أكثرهم وانحرف عن هديها المستقيم لثقل تبعتها،وحاجة الملتزمين بهذه الأخلاق إلى إرادة جازمة حازمة قوية لا تلين أمام الشهوات، ولا تتردد عند التضحيات، ولئن عرف الناس أجمعون هذه الأخلاق والتزم بها الأقلون وتحلوا بها، ورأوا أنهم أوفى فى معانى الرجولة عن غيرهم، فإن الدين الإسلامى اعتبرها جزءًا منه، ينال الإنسان بها فى دنيا الناس ما يناله غيره، من أصحاب الأخلاق من حسن السيرة، وجميل التقدير والاحترام، وينال بها المسلم عند الله يوم الدين ما لا يناله غيره من البشر غير المسلمين، فللمسلم بهذه الأخلاق شرف وعزة فى الدنيا، وله بها عند الله ثواب مدخر لا يضيع: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ (٢).

ومقياس ادخار الثواب عند الله هو الذى يفرق بين المسلم الملتزم بالأخلاق وبين غير المسلم وإن التزم بهذه الأخلاق، وأنت واجد فى القرآن ما نقول. قال سبحانه حاثًا المؤمنين على الصبر فى الجهاد أكثر من عدوهم: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ (٣)، وهذه ميزة الأخلاق فى الإسلام، يتمسك بها المسلمون رجاء ما عند الله مما لا يخطر على بال غير المسلمين، ولذا فإن تمسك المسلم بالأخلاق غير خاضع لمنفعة دنيوية يحققها من وراء ذلك التمسك، بل إن مرده إلى الخوف من الله، وابتغاء مثوبته يوم يلقاه؛ لأنه يرجو من الله ما لا يرجوه غيره، ويطمع فى درجات من النعيم يضحى فى سبيلها براحته ووقته وأحيانًا بنفسه. ولن تجد ذلك عند غير المسلمين.

---

(١) الليل: ٥ ـ ٧.
(٢) الشعراء: ٨٨، ٨٩.
(٣) النساء: ١٠٤.

لا عجب إذن أن يكون الوفاء بالعهد ـ وهو جزء من الأخلاق فى الإسلام ـ قائمًا على ضروب من التضحيات، وأنواع من المغارم، ووقفات فى وجه المصلحة والهوى، ويقظة دائمة تحث النفس على الوفاء وتحذر من الغدر، وتذكر مستمر لعاقبة المؤمنين، وجزاء الغادرين، والتشهير بهم عند الله رب العالمين، حين يرفع لكل غادر لواء، فهو إعلان عن خيانتهم فى الدنيا فيفضحهم الله على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، فمن ذا يستطيع ذلك من بين المسلمين إلا أن يكون من الغافلين؟

إن جزاء الغادرين منفر مؤلم مُخْز، وإن جزاء الأوفياء عظيم، مما يدفع نحو تحمل كل الآلام فى سبيل هذا الوفاء، الذى هو سمة الأنبياء، ومن المعلوم أن كل الأنبياء يجب أن يتصفوا بصفات تلازمهم ولا تفارقهم، ومما هو واجب فى حقهم: «الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة»[1]، وما الوفاء إلا نوع من الأمانة الواجبة فى حق جميع الأنبياء،وقد خص القرآن الكريم إبراهيم أبا الأنبياء بالنص على وفائه، فجاء فى سورة النجم: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾[2]: أى أدى ما عليه تامًا كاملاً غير منقوص، وهذا ما جاء تفسيره وبيانه فى آية أخرى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .... ﴾[3]، ولأنه وفّى وأدّى ما عليه تامًا أخبره الله أنه جاعله للناس إمامًا، قال: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾[4]، وجعل الله فى ذريته النبوة والكتاب وآتاه أجره فى الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين.

كما أن القرآن ذكر إسماعيل بأنه صادق الوعد: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾[5].

وجاء رسولنا الكريم محمد ﷺ ليعلن فى الناس:«**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[6]،

(١) انظر العقيدة الإسلامية وأسسها. د. عبد الرحمن حبنكة الميدانى ص ٣٧٨ وما بعدها.
(٢) النجم: ٣٧.
(٣) البقرة: ١٢٤.
(٤) البقرة: ١٢٤
(٥) مريم: ٥٤.
(٦) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد (٢٧٣)، وأحمد فى (٢/ ٣٨١)، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه .

وشهد له القرآن الكريم فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [(١)]، ويعجز كل قلم، ويعجز كل تصور عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود وهى شهادة من الله، فى ميزان الله لعبد الله، يقولها له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ ومدلول الخلق العظيم هو ما عند الله مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين، ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد ﷺ تبرز من نواحٍ شتى: «تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال يسجلها ضمير الكون، وتثبت فى كيانه، وتتردد فى الملأ الأعلى إلى ما شاء الله، وتبرز من جانب آخر، من جانب إطاقة محمد ﷺ لتلقيها، وهو يعلم من ربه هذا، قائل هذه الكلمة ما عظمته؟ ما دلالة كلماته؟ ما مداها؟ ما صداها؟ إن إطاقة محمد ﷺ لتلقى هذه الكلمة من هذا المصدر وهو ثابت لا ينسحق تحت ضغطها الهائل - ولو أنها ثناء - ولا تتأرجح شخصيته تحت وقعها وتضطرب. تلقّيه لها فى طمأنينة وفى تماسك وفى توازن هو ذاته دليل على عظمة شخصيته فوق كل دليل، ولقد رويت عن عظمة خلقه فى السيرة وعلى لسان أصحابه روايات منوعة كثيرة، وكان واقع سيرته أعظم شهادة من كل ما روى عنه، ولكن هذه الكلمة أعظم بدلالتها من كل شىء آخر، أعظم بصدورها عن العلى الكبير، وأعظم بتلقى محمد ﷺ لها وهو يعلم مَنَ هو العلى الكبير وبقائه بعدها ثابتًا راسخًا مطمئنًا، لا يتكبر على العباد ولا ينتفخ ولا يتعاظم وهو الذى سمع ما سمع من العلى الكبير[(٢)]، ولقد أطلنا بعض الإطالة فى نقل هذه الفقرة من الظلال لنبين متانة الخلق فى الإسلام ومنها على وجه الخصوص الوفاء الذى أصبح بين الناس نادرًا فى عصرنا بحيث لا تكاد تجده، وإن وجدته وجدته معروق الجبين شاحب الوجه لا يكاد يبين، فالناس عنه فى إعراض، حتى ما عاد يحمله من بينهم إلا الأقلون، الذين ينظر إليهم على أنهم من جيل مضى عصره، وغاض نبعه وجف ماؤه وقل رواؤه، فلا يلتفت لأصحاب الوفاء، وربما لا يؤبه بوفائهم ولا يهتم بخلقهم مع أنهم فى ذلك يقتدون بالأنبياء، ويفعلون ما أمر الله وما طبقه رسوله وحثّ عليه.

(١) القلم: ٤.
(٢) فى ظلال القرآن (٨/ ٢٢٠، ٢٢١)، ط: دار الشروق.

إننا نود من هذه الرسالة الصغيرة الحجم أن تكون تذكرة للناس تعيدهم للتخلق بخلق الإسلام، وتعيد للوفاء سيرته الأولى يوم أن كان معلمًا عظيمًا من معالم دعوة الإسلام، ولو كان من أقل الناس شأنًا فالمؤمنون «يسعى بذمتهم أدناهم»، و«قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»، فكان الوفاء متحققًا من الناس جميعًا وكان الوفاء يتحقق فى كل شؤون الأمة فى الحرب والسلم، وفى كل أحوالها فى الغنى والفقر، والقوة والضعف، والسعة والضيق.

وكان الوفاء شائعًا فى حياة الأفراد، فعمت حياتهم الثقة، وصارت الكلمة عندهم قانونًا نافذ المفعول، سجلت أم لم تسجل، شهد عليها الناس أم لم يشهدوا ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [1]، ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [2].

نود للوفاء أن يكون طابع حياتنا كلها بيننا وبين الله سبحانه، وبيننا وبين دين الله، وبيننا وبين المسلمين بل وبيننا وبين غير المسلمين، نود للوفاء أن يكون رائد العاملين فى أدائهم لعملهم، ورائد أرباب المال فى دفع الأجور، ورائد الدعاة إلى الله فى دعوتهم، ورائد الجنود فى دفاعهم عن البلاد، ورائد أصحاب النفوذ فى تحرِّيهم لمصلحة العباد والبلاد، ورائد كل صلة تقوم بين الأفراد أو بين الجماعات أو بين الدول؛ ليستريح الناس من نكبات الغدر وويلات الخيانة، وظلام الظلم والبغى.

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل

---

(١) البقرة: ٢٨٣.

(٢) البقرة: ٢٨٢.

المبحث الأول
الوفاء فى الإسلام

معنى الوفاء:

الوفاء يكون بمعنى التمام يقال: وفّى الشيء بمعنى: تمَّ.

ويكون بمعنى الكثرة: يقال: وَفَى ريش الجناح بمعنى: كثر[١].

ويكون بمعنى العمل بما اتفق عليه، يقال: وفى فلان بعهده: أى عمل به[٢].

وعلى ذلك يكون الوفاء فى اللغة هو: العمل بما التزم به الإنسان واتفق عليه عملاً تامًا لا يلحقه نقص فى أى جانب من جوانبه.

والوفاء فى المفهوم الإسلامى يقتضى وجوب العمل بما عاهد الإنسان نفسه عليه ـ مما لا يخالف شرع الله ـ سواء أكان هذا العهد بينه وبين الخالق أو بينه وبين المخلوقين مؤمنين أو غير مؤمنين، فى القول والفعل، وأداء هذا العمل على النحو الأمثل الذى يحبه الله ويرضاه.

الوفاء بالعهد مشروط بموافقة الشرع:

لا وفاء فى باطل؛ لأنه فى معصية، ولا حلف على منكر؛ إذ لا يكون الوفاء إلا على ما أقره الله وارتضاه، والله لا يأمر إلا بالخير ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾[٣]، فالذين يعاهدون على ما يخالف دين الله لا يجب عليهم الوفاء، بل يجب عليهم من الأصل ألا يكون عهد على ذلك، فإن حدث عهد على باطل فالنقض أولى، والعودة إلى شرع الله أوفى مع تحمل ما يكون من جراء نقض هذا الباطل وعدم الوفاء به، فعدم الوفاء فى تلك الحالة هو ما يوافق الشرع، فمن عاهد على

---

(١) القاموس المحيط.

(٢) القاموس المحيط.

(٣) الأعراف: ٢٨، ٢٩.

شىء من المآثم فليس عليه إن هو نقض،بل عليه الملام والإثم إن هو وفّى.

والدين الإسلامى لا يقصر الوفاء على المؤمن فقط،ولا يجعله خاصًا بالصالحين من المؤمنين وحدهم بل يتعداهم لكل فرد مؤمن أو غير مؤمن،صالح أو غير صالح، مادام الوفاء لا يتجاوز الحق الذى أمر الله به، فلا وفاء فى جور، ولا وفاء فى ظلم، ولا وفاء فى تجاوز لحدود الله، ولا وفاء فى الإثم والعدوان، والكذب والزور والبهتان، وكل ما خالف شرع الله لا وفاء فيه، لقول الرسول:ﷺ «**لا نَذْر فى مَعْصية الله**»[1]، ولقوله: «**مَنْ حلف على يمين فرأى غيرَها خيرًا منهَا فليأتِ الذى هو خيرٌ وليكَفّر عن يمينه**»[2]، فإذا حلف إنسان على تركَ شىء - مثلاً - ثم رأى أن فى فعله خيرًا فله أن يكفر عن يمينه ويفعل ما هو خير، فأولى بمن عاهد على منكر ألاَّ يفى به ولا إثم عليه إن وفى بعهده فى هذه الحالة.

وكل خلق إسلامى مقيد بهذا القيد، لا يخرج عنه أبدًا، ولو خرج عنه لأصبح مرتبطًا بالأهواء، التى بها يكون الانحراف والضلال، ونعوذ بالله من أن نتبع أمرًا أو شيئًا أو خلقًا مخالفًا لتعاليم الإسلام، وهدى الرحمن.

وقد أكد هذا المعنى كل الباحثين الإسلاميين فى القديم والحديث، لم يشذ منهم أحد، لأن كل خروج عن شريعة الله ضلال مبين، فكيف نلزم أحدًا بأن يفى بالضلال، وأن يترك الحق والهدى والرشاد.

يقول الشيخ محمد الغزالى:«ومناطُ الوفاء والبر أن يتعلق بالحق والخير وإلا فلا عهد فى عصيان ولا يمين فى مأثم، ومن ثَمّ فلا تعهد إلا بمعروف، فإذا وثَّق الإنسان عهدًا بمعروف فليصْرف همته فى إمضائه، ما دامت فيه عين تطرف، وليعلم أن منطق الرجولة وهدى اليقين لا يتركان له مجالاً للتردد والانثناء»[3].

وليس يحتج هنا بعموم الوفاء بالعقود فى الآية الكريمة:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٤١) ، والنسائى (٣٨١٢).
(٢) أخرجه مسلم (١٦٥٠) ، والترمذى (١٥٣٠)، والنسائى (٣٧٨١)، وابن ماجه (٢١٠٨).
(٣) خلق المسلم: للغزالى ص ٥٤ بتصرف.

﴿بِٱلۡعُقُودِۚ﴾[1]، فيفهم بعض الناس من هذا العموم وجوب الوفاء بالعهود سواء أكانت فى حق أم فى باطل، فهذا فهم مغلوط لا يتمشى مع الأصول الشرعية القائمة على العدل والقسط: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾[2].

وتفسير ابن عباس لقول الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ يحمل هذا المعنى، قال ابن عباس: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ معناه بما أحل وبما حرّم وبما فرض وبما حدّ فى جميع الأشياء، وكذلك قال مجاهد وغيره، وقال ابن شهاب: قرأت كتاب رسول الله ﷺ الذى كتبه لعمرو بن حزم حين بعثه إلى نجران وفى صدره: «هذا بيان للناس من الله ورسوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾[3]، فكتب الآيات فيها إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩﴾[4]» وقال الزجاج: المعنى أوفوا بعقد الله عليكم وبعقدكم بعضكم على بعض. وهذا كله راجع إلى القول بالعموم وهو الصحيح فى الباب، قالﷺ: «**المؤمنون عند شرُوطِهِمْ**»[5]، وقال:«**كل شرط ليسَ فى كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط**»[6]، فبين أن الشرط أو العقد الذى يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله، أى دين الله، فإن ظهر فيها ما يخالف رُدَّ، كما قالﷺ:«**منْ عَمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**»[7].

وفى ارتباط الوفاء بالحق والخير أمثلة عديدة، تمسك فيها أصحاب العهد بالحق، وإن خالف هوى النفس، وخالف رغبة الناس، فالحق أحب إلى الأوفياء والمسلمين من إخوانهم وأصدقائهم، وذوى قرابتهم، لأن الحق هو ما ينبغى أن يتبعه الناس، وفيه يكون الوفاء، وبغيره لا عهد ولا وفاء، وهناك أمثلة عديدة على ذلك نختار لك بعضها.

---

(١) المائدة: ١

(٢) الأعراف : ٢٩.

(٣) المائدة: ١ ـ ٤.

(٤) أخرجه النسائى (٨/ ٥٩)، والبيهقى (٨/ ٨٠).آل عمران:١٩٩.

(٥) أخرجه البخارى فوق حديث (٢١٤٢)، ومسلم (١٧١٨).

(٦) أخرجه البخارى (٢١٦٨)، والنسائى (٣٣٩٧) عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا .

(٧) أخرجه البخارى (٢٦٩٧)، والنسائى (١٧١٨) عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا .

نمــوذج من السيرة:

ولقد كان من هدى رسول الله ﷺ أن يخالف المشركين وأن يخالف أهل الكتاب، وأمر بهذه المخالفة قولاً وسنَّها عملاً ولكنه حين يتصل الأمر بالحق والخير لا يبالى أخالف موقفه أهل الكتاب والمشركين أم وافق، بل إنه لَيعلنُ بعد الإسلام أنه شهد وهو فى الجاهلية قبل البعثة فى دار عبد الله بن جدعان حلفًا «**ما أحب أن لى به حمْرُ النَّعم، ولو أدعى به فى الإِسلام لأجبتُ**»[١]. لماذا؟

لأن هذا الحلف المسمى «حلف الفضول» والذى تمَّ فى دار ابن جدعان بين القبائل القرشية وشهده رسول الله ﷺ مع أعمامه قبل بعثته، إنما قام على أن تتعاقد هذه القبائل وتتعاهد على ألا تجد بمكة مظلومًا من أهلها أو من غيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على مَنْ ظلمه، حتى ترد عليه مظلمته[٢].

ولارتباط هذا الحلف بالحق والعدل قال عنه رسول الله ﷺ: «**لوْ أدْعَى به فى الإِسلام لأجبتُ**»[٣]، فأين مخالفة المشركين فى هذا، لا مخالفة إلا فيما ابتعد عن الحق، وحاد عن القصد، أما ما وافق الحق، ولم يخالف الشرع فالوفاء به هو ما ينبغى أن يكون، فعله المشركون أم لم يفعلوه، التزم به أهل الكتاب أم لم يلتزموا؛ لأن الحق القائم على الشرع هو أساس الوفاء فى كل عهد ولو كان مع المخالفين لنا فى الدين.

وهذا الحلف هو المعنى المراد فى قوله عليه السلام: «وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإِسلام إلا شدَّةً»[٤]؛ لأنه موافق للشرع إذ أمر بالانتصاف من الظالم، فأما ما كان من عهودهم الفاسدة وعقودهم الباطلة على الظلم والغارات فقد هدمه الإِسلام والحمد لله[٥].

---

(١) أخرجه البيهقى في الكبرى (٦/ ٣٦٧) (١٢٥٩)، وصححه الألبانى فى تعليقه على فقه السيرة (١/ ٦٧).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ١٤٠) بتصرف.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٣٠)، وأبو داود (٢٩٢٥)، وأحمد (٤/ ١٣).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبى (٦/ ٣٦).

الوفاء مع المخالفين لنا فى الدين:

الفضيلة لا تتجزأ، فيكون الأمر خسيسًا مع قوم كريمًا مع آخرين، والمدار على موضوع العهد، فما دام خيرًا فإقراره حتم مع كل فرد، وفى كل حين .

عن عمرو بن الحمقَ قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أيما رجل أمَّنَ رجلاً عَلَى دمه، ثم قتله، فأنا من القاتل برىءٌ، وإن كان المقتول كافرًا**»[1] .

وهذا البيان الحاسم يكشف عن روح الإسلام فى معاملة من لم يدينوا به،فبينما ترى اليهود ينكرون على غيرهم حق الوفاء، ويضنون عليهم بنبل المعاملة، ويحسبون أنهم وحدهم ﴿أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾[2]، وأن الله جعل رحمته وأمانه لشعب إسرائيل فقط، ترى الإسلام يدفع ـ بحمية بالغة ـ عمن منحهم ذمته وأدخلهم فى عقده، ويتحدث عن الكافرين إلى المسلمين حديثًا له مغزاه.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾[3] .

فانظر كيف صورت الآية وجهة نظر الكفار، وتمشت مع مزاعمهم وهم وثنيون، فاعتبرتهم طلاب فضل من الله ورضوان، وطلبت من المسلمين ـ مهما قووا ـ أن يتعاونوا على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان[4] .

وذلك أن المشركين صدّوا المؤمنين عن المسجد الحرام بحجة الحرص عليه والمحافظة على حرمته.

---

(١) أخرجه البخارى فى التاريخ الكبير (١٠٩٣)، وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٣/ ٣٢٤، ٣٢٥)، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٦١٠٣).

(٢) المائدة : ١٨.

(٣) المائدة: ٢.

(٤) خلق المسلم: للغزالى ص ٦٤.

الوفاء مقدم على رضا الأصدقاء:

الوفاء مقدم على رضا الأصدقاء، وهذا الإمام الشافعى يطبق هذه القاعدة أعظم تطبيق مع تلميذه وصاحبه محمد بن الحكم، فقد كان الشافعى آخى محمد بن الحكم، وكانت بينهما صلة حسنة حتى كان الشافعى يقول: «ما يقيمنى بمصر غيره»، فاعتل محمد مرة حتى أشرف على الهلاك فعاده الشافعى ـ رحمه الله تعالى ـ وقال:

مرض الحبيب فعـــدته فمرضت من حـــزنى عليه

فقال محمد فى جوابه:

فأتى الحبيب يعـــودنى فبرئت من نظـــرى إليه

وظن الناس لصدق مودتهما وأخوتهما أنه ـ أى الشافعى ـ يفوض أمر حلقته بعد وفاته إليه فى جامع عمرو بن العاص، ولكن الشافعى اختار أبا يعقوب البويطى لعلمه وزهده وورعه، فنظر الشافعى إلى الحق وحده، دون النظر إلى شىء آخر[1]، وهكذا يكون الوفاء بالعهد غير مخالف للشرع والحق، وإلا فإن هذا الوفاء يرد على صاحبه «منْ عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»[2].

الوفـــاء خلق نادر:

والوفاء بالعهد نوع من الأمانة، فهو فرع منها وجزء من أجزائها لابد من الالتزام به وأدائه على النحو الأمثل، الذى يُرضى الله ـ سبحانه، وإلا كان النكوص عنه والنكث فيه غدرًا وخيانة يأباها الله ـ سبحانه ـ ويأباها شرعه، ويستحق صاحبها التهديد الذى ورد فى القرآن الكريم: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[3]، ويستحق الموفى بعهده الأجر العظيم الذى وعد الله به المؤمنين: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾[4].

(١) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين (٦/ ٢٤٠) بتصرف.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) الفتح : ١٠.
(٤) الفتح : ١٠.

والناظر فى حياة المسلمين يرى فيهم صدق قول الرسول الأمين ﷺ وهو يتحدث عن رفع الأمانة كما جاء فى حديث حذيفة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكت، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجل، كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرًا وليس فيه شىء، ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله ـ فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال: إن فى بنى فلان رجلاً أمينًا، حتى يقال للرجل: ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله؟وما فى قلبه مثقال حبةٍ من خردل من إيمان...**»[1].

وإذا أصبحت الأمانة نادرة وهى أصل الوفاء، فقد أصبح الوفاء أكثر ندرة، وأقل تحققًا فى حياة الناس اليوم لغلبة الأهواء على النفوس،وضعف الهمم،وفتور الإيمان فى القلوب، وفى كثير من الأحيان يتصور ضعاف الإيمان أن الوفاء غرْمٌ يقع عليهم عبؤه،وتضحية ينالهم فى سبيلها جهد من مال أو مشقة فى نفس،فيتكاسلون ويتراخون.

وإنه لفخر وشرف أن يستمسك المسلمون بالأخلاق التى لا يتمسك بها غيرهم؛ لأنها جزء من دينهم لا يكتمل إيمانهم إن فرطوا فى هذه الأخلاق الإسلامية، ومنها الوفاء، ومن ذا الذى لا يفى إن لم يفِ المسلمون وهم يقرؤون قول الله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾[2] ؟ فإذا ما أصبح الوفاء نادرًا فى دنيا الناس فإن المؤمنين مدعُوّون أن ينشروه وأن يجعلوه شائعًا بين الناس بسلوكهم ووفائهم وقيامهم بواجباتهم فى كل أمر، حتى يرى الناس صورة بارزة لجانب لا غنى عنه من جوانب الخلق الإسلامى.

تأكيد الإسلام وتشديده على الوفاء بالعهود:

الإسلام دين الالتزام، يجعل المؤمن به ملتزمًا بتكاليفه كلها الصغير منها والكبير، متمسكًا بعروته الوثقى غير ناقض لأمر أبرمه الإسلام، وإلا أصبح مذنبًا، يحيك الإثم فى

---

(١) أخرجه البخارى (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣).

(٢) التوبة: ١١١.

صدره ويضطرب فى قلبه، فيضرّ بذلك نفسه، وقد يتعداه الضرر إلى الآخرين، إن كان بينه وبينهم عهد أو موثق، ولذا جاء الأمر إلى المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ (١)، ليشمل كل عقد، ويدخل فيه كل عهد ما دام مرتبطا بالحق والعدل والمعروف، لا جور ولا ظلم ولا منكر؛ لأن الالتزام بالعهود مسؤولية تقع على عاتق الفرد، وعلى عاتق الجماعة على السواء، يحاسب المسلم عليها أمام الله يوم الدين، فليست تبرأ ذمته إلا بالوفاء، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ﴾ (٢).

ومع هذا التشديد فى الالتزام بالعقود، نجد الإسلام يحارب الغدر أعظم الحرب، ويصم الغادرين بأشنع التهم التى يفر منها المسلم، تهمة النفاق، ويجعل الغادر مفضوحًا يوم القيامة على رؤوس الخلائق حين يرفع له لواء عند استه،ويقال:«هذه غدْرة فلان»(٣)، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ، وقد أكد الإسلام على الوفاء بالعهد وشدد؛ لأن هذا الوفاء مناط الاستقامة والثقة والنظافة فى ضمير الفرد وفى حياة الجماعة، وقد تكرر الحديث عن الوفاء بالعهد فى صور شتى فى القرآن والحديث،سواء فى ذلك عهد الله وعهد الناس وعهد الفرد وعهد الجماعة وعهد الدولة، عهد الحاكم وعهد المحكوم، وبلغ الإسلام فى واقعه التاريخى شأنًا بعيدًا فى الوفاء بالعهود لم تبلغه البشرية إلا فى ظل الإسلام(٣).

والوفاء بالعهود، والالتزام بالمواثيق، ورعاية العقود، والوقوف عند حدّ الكلمة من أبرز الصفات الإسلامية، ومن أجلى وأحلى أخلاق المؤمنين.

والمؤمنون الصادقون فى هذا المجال لهم سبق لم يُسبقوا إليه ولم يُدركوا فيه .. وتاريخهم فى الوفاء ليس له نظير، إنهم مضرب المثل فى وفائهم والتزامهم.

لقد امتلأ الكتاب الكريم بالتوجيهات السديدة،والأوامر القاطعة تحث المسلمين على

---

(١) المائدة: ١.

(٢) الإسراء: ٣٤، ٣٥.

(٣) أخرجه البخارى (٦١٧٧)، ومسلم (١٧٣٥).

احترام كلمتهم، ورعاية عهودهم،وتنفيذ عقودهم[١]،قال تعالى:﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ﴾[٢]، وقال تعالى:﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[٣].

وقد جعل القرآن الكريم الموفين بالعقود من أولى الألباب، بل جعل أول صفة من صفات أولى الألباب وفاءهم بالعهود وعدم نقضهم للميثاق، قال سبحانه: ﴿...إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾[٤]، ولا عجب أن يطلق الإسلام على الموفين بالعهود لفظة «رجال» التى تحمل معنى الهمة واليقظة وعلو العزيمة وقوة الشكيمة، وأن يجعل هؤلاء من المؤمنين الصادقين، الذين لم يبدلوا عهدًا ولم يغيروا موثقًا حتى أتاهم اليقين، قال سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[٥].

ولقد فاضت السنة المطهرة بالتربية والتسديد على أخلاق الإسلام ومنها الوفاء بالعهد واعتبار الخروج على هذه الأخلاق ضلال فى الدين، ومن علامات النفاق، كما حدث الرسول ﷺ:«... **وإذا وعدَ أخلفَ**..»[٦]، وفى رواية:«**وإذَا عاهدَ غدر**»[٧].

والمسلم مطالب إذا قال كلمة أن يقف عندها، وإذا أبرم عهدًا أن يحترمه، وإذا عقد عقدًا أن يوفى به.

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾[٨].

---

(١) خطب الشيخ: أحمد المحلاوى.
(٢) الأنعام: ١٥٢.
(٣) البقرة: ٤٠.
(٤) الرعد: ١٩، ٢٠.
(٥) الأحزاب: ٢٣.
(٦) أخرجه البخارى (٣٣)، ومسلم (٥٩) عن أبى هريرة رضي الله عنه.
(٧) أخرجه البخارى (٣٤)، ومسلم (٥٨) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٨) النحل: ٩١.

ومواقف الرسول ﷺ العملية فى وفائه بالعهود، وحفظه ورعايته للعقود عديدة سواء فيما يكون بينه وبين الأفراد، أو فيما يكون بينه وبين جماعات المشركين، وأقواله فى الوفاء وأداء الأمانات لأصحابها والنهى عن خيانة الخائنين معروفة سنقف عند بعضها ـ إن شاء الله ـ فى موضعها من هذه الرسالة، والمهم أن الوفاء بالعهد لا محيص عنه فى الإسلام، ولا مهرب منه مهما كانت الصعوبات ومهما كان الوفاء بالعهد بعيد المغانم، فادح التضحيات فلابد من المضى فيه، وأداء حقوقه، والتزام بنوده .. وليست هناك مندوحة، وليس هناك من سبيل للنكث فيه، والتراجع عنه، مهما كانت الأسباب والدواعى .. وإن اقتضى ذلك سلب الحياة ذاتها، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[1].

أى: لا تتهاونوا فى العهود، وتتجرؤوا على نقضها، لتنالوا صفقة أكثر من صفقة، فتشبهوا من تغزل الخيط ثم تعود فيه فتتلفه.

والوفاء بالعهود والعقود ليس قاصرًا على عهد دون آخر، فكل عهد التزم بالحق ولم يخرج عنه يجب الوفاء به سواء فى ذلك العهد الذى بين المؤمن وبين ربه، أو العهد الذى بين المؤمن وبين إخوانه المؤمنين، أو العهد الذى بين المؤمنين وبين المشركين فى أمر معروف.

يقول الشيخ محمد الغزالى ـ رحمه الله تعالى: «والإسلام يوصى باحترام العقود، التى تسجل فيها الالتزامات المالية وغيرها، ويأمر بإنفاذ الشروط التى تتضمنها»[2].

وفى الحديث: «**المؤمنونَ عندَ شروطِهِمْ**»[3].

ولا شك أن انتشار الثقة فى ميدان التجارة وفى شتى المعاملات الاقتصادية أساسه افتراض الوفاء فى أى تعهد.

---

(١) النحل: ٩٢.

(٢) انظر: خلق المسلم: للغزالى.

(٣) أخرجه البخارى معلقا بصيغة الجزم فوق حديث (٢٢٧٤)، وصححه الألبانى فى إرواء الغليل (١٣٦٠).

ويجب أن تكون الشروط المكتوبة متفقة مع حدود الشريعة وإلا فلا حرمة لها، ولا يُكلَّف المسلم بوفائها.

وقد منح الإِسلام عقد الزواج مزيدًا من الرعاية، فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أحقَّ ما وَفَّيْتم بهِ منَ الشروط ما استَحْلَلْتُم به الفروج**»، ومن ثم فليس يجوز لرجل بنى بامرأة، أن يغتال درهمًا من حقها، أو يستخف بالرباط الذى جمعه بها.

وفى الحديث: «**أيما رجل تزوج امرأة - على ما قلّ من المهر أو كَثُر - ليس فى نفسه أن يؤدى إليها حقها، خدعها، فمات ولم يؤدِ إليها حقها، لقى الله يوم القيامة وهو زان! وأيما رجل استدان دينًا، لا يريد أن يؤدى إلى صاحبه حقه، خدعه حتى أخذ ماله، فمات ولم يؤد إليه دينه، لقى الله وهو سارق!**»[1].

وأخيرًا فإن للوفاء بالعهد أثره البالغ على الفرد والمجتمع على السواء، وبغيره يختل النظام وتُفقَد الثقة، وتحل محلها الريبة والشكوك فى التصرفات والمعاملات، ويخوِّن الناس بعضهم بعضًا،فكيف لمجتمع أن يقوم على الشك،أو الخيانة،أو الغدر.

يقول المرحوم سيد قطب عن الوفاء بالعهد إنه سمة الإِسلام الأولى التى يحرص عليها ويكررها القرآن كثيرًا .. وهى ضرورية لإِيجاد جو من الثقة والطمأنينة فى علاقات الأفراد وعلاقات الجماعات وعلاقات الأمم والدول، تقوم ابتداء على الوفاء بالعهد مع الله، وبغير هذه السمة يعيش كل فرد مفزعًا قلقًا لا يركن إلى وعد، ولا يطمئن إلى عهد ولا يثق بإنسان، ولقد بلغ الإِسلام من الوفاء بالعهد لأصدقائه وخصومه على السواء قمة لم تصعد إليها البشرية فى تاريخها كله، ولم تصل إليها إلا على حداء الإِسلام وهدى الإِسلام»[2].

فكيف لمؤمن أن ينقض عهده بعد أن جعل الله عليه كفيلاً؟ والله يعلم منه ما يبدى وما يكتم، وقد يحاول المسلم أن يتخلص من تبعات عهده، لضعف فى عزمه، أو تغير لظروفه

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط والصغير (١/ ٤٣)، من حديث ميمون الكردى عن أبيه، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤/ ١٣٢): «رجاله ثقات»، وضعفه الألبانى في ضعيف الجامع (٢٢٣٥).

(٢) فى ظلال القرآن (١/ ١٦١).

أو غير ذلك مما يحاول الناس أن يبرروا به غدرهم، ولئن انطلت الحيلة على الناس فإنها لا تنطلي على رب الناس، فليخف المسلمون ربهم، وليوفوا بعهودهم، التي عاهدوا الله، أو عاهدوا الناس عليها، وليدركوا قول رسول الله ﷺ: «**المؤمنونَ عندَ شروطهم**»[1]. فإذا ما خالفوا هذه الشروط التي ارتضوها وتعاهدوا عليها حل عليهم سخط الله، ونزلت بهم عقوبته.

(١) سبق تخريجه.

المبحث الثانى
أنواع العهود ومقتضاها

العهود كلها مطلوب الوفاء بها ما دامت مرتبطة بالحق والخير والمعروف، أو بالأحرى ما دامت لا تخرج عن نطاق الدين الإسلامى، الذى أمر بالوفاء بالعقود أمرًا عامًا فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [(١)]، وهذه الآية هى أجمع الآيات القرآنية لأنواع الوفاء، ولذلك قال الشيخ محمد رشيد رضا: «إن أساس العقود الثابت فى الإسلام هو هذه الجملة البليغة المختصرة المفيدة: أوفوا بالعقود، لأنها تفيد أنه يجب على كل مسلم أن يفى بما عقده وارتبط به. فكل قول أو فعل يعده الناس عقدًا فهو عقد يجب أن يوفوا به كما أمر الله ـ تعالى ـ ما لم يتضمن تحريم حلال، أو تحليل حرام»[(٢)].

وإذا كانت العهود كلها مطلوبًا الوفاء بها، فإن العهود نفسها درجات ودرجة الوفاء تابعة لدرجة العهد يقول الشيخ محمد الغزالى: «والعهود التى يرتبط المسلم بها درجات، فأعلاها مكانة، وأقدسها ذمامًا، العهد الأعظم، الذى بين العبد ورب العالمين».

فإن الله خلق الإنسان بقدرته، ورباه بنعمته، وطلب منه أن يعرف هذه الحقيقة وأن يعترف بها، وألا تشرد به المغويات، فيجهلها أو يجحدها.

﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١﴾ [(٣)].

وإذا كان هناك من البشر من لم يستمع إلى المرسلين ويستهد بما جاؤوا به فإن له من فطرته سائقًا يحدوه إلى ربه، ويبصره بخالقه، مهما حفلت البيئة بصنوف الفساد، وضروب التخريف، هذا معنى الميثاق الذى أخذه الله على الناس كافة.

---

(١) المائدة: ١.

(٢) مجلة البيان العدد ٣٢ سبتمبر ١٩٩٠م، نقلاً عن كتاب: أخلاق القرآن للشرباصى.

(٣) يس: ٦٠، ٦١.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ (1).

مقتضى الوفاء بعهد الله:

هذا هو العهد الذى أخذه الله على الناس أجمعين،فما مقتضى هذا العهد وهذا الموثق؟

ندع الإجابة للدكتور يوسف القرضاوى ليجيبنا عنها فيقول: إن مقتضى عبادة الإنسان لله وحده أن يخضع أموره كلها لما يحبه ويرضاه، من الاعتقادات والأقوال والأعمال، وأن يكيّف حياته وسلوكه وفقًا لهداية الله وشرعه، فإذا أمره الله تعالى أو نهاه، أو أحل له أو حرّم عليه كان موقفه فى ذلك كله: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير.

ففرق ما بين المؤمن وغيره: إن المؤمن خرج من العبودية لنفسه وللمخلوقين إلى العبودية لربه، خرج من طاعة هواه إلى طاعة الله، ليس المؤمن «سائبًا» يفعل ما تهوى نفسه أو يهوى له غيره من الخلق، إنما هو «ملتزم» بعهد يجب أن يفى به، وميثاق يجب أن يحترمه، ومنهج يجب أن يتبعه، وهذا التزام منطقى ناشئ من طبيعة عقد الإيمان ومقتضاه.

مقتضى عقد الإيمان: أن يسلم زمام حياته إلى الله، ليقودها رسوله الصادق ، ويهديه الوحى المعصوم.

مقتضى عقد الإيمان:أن يقول الرب: أمرت ونهيت ويقول العبد: سمعت وأطعت.

مقتضى عقد الإيمان أن يخرج الإنسان من الخضوع لهواه إلى الخضوع لشرع مولاه.

وفى هذا يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ (2)، ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ (3).

---

(1) خلق المسلم: للشيخ محمد الغزالى والآيات من سورة الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٤.

(2) الأحزاب: ٣٦.

(3) النور: ٥١.

ليس بعابد لله إذن من قال: أصلى وأصوم وأحج، ولكنى حر فى أكل لحم الخنزير، أو شرب الخمر، أو أكل الربا، أو رفض ما لا يروقنى من أحكام الشريعة، فأحكم فيه بغير ما أنزل الله، ليس بعابد لله من أدى الشعائر، ولكنه لم يخضع لآداب الإسلام وتقاليده فى نفسه أو أهله، كالرجل الذى يلبس الحرير الخالص ويتحلى بالذهب ويتشبه بالنساء، والمرأة التى تلبس ما يبرز مفاتنها، ولا يغطى جسدها، ولا تضرب بخمارها على جبينها، ليس بعابد لله من ظن أن عبوديته لله لا تعدو جدران المسجد، إذا انطلق فى ميادين الحياة المتشعبة، فهو عبد نفسه فقط، وبعبارة أخرى: هو حرّ فى اتباع هواها، أو اتباع أهواء عبيد أنفسهم من المخلوقين[١].

يقول الإمام ابن العربى عند حديثه عن قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ ﴾[٢].

المسألة الثالثة: فى تمديد عهود الله، وهى كثيرة المدد، مستمرة العدد والأمد، أعظمها عهدًا، وأوجدها عقدًا ما كان فى صلب آدم على الإيمان.

الثانى: ما كان مع النبى ﷺ.

الثالث: ما ربطه المرء على نفسه عند الإقرار بالشهادتين، فإنها ألزمت عهودًا وربطت عقودًا ووظفت تكليفًا،وذلك يتعدد بتعدد الوظائف الشرعية، ويختلف باختلاف أنواعها منها الوفاء بالعرفان، والقيام بحق الإنسان أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لم تكن تره فإنه يراك، ومنها الانكفاف عن العصيان، وأقله درجة اجتناب الكبائر[٣].

وهو يشير بقوله: ما كان فى صلب آدم على الإيمان، إلى الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾[٤]، الآية.

---

(١) العبادة فى الإسلام، د. يوسف القرضاوى.
(٢) الرعد:٢٠.
(٣) أحكام القرآن، لابن العربى (٣/ ١١١١).
(٤) الأعراف:١٧٢.

مقتضى الوفاء بالعهد مع رسول ﷺ:

أما مقتضى العهد بما كان مع النبى ﷺ فإنه يتضمن اتباعه فيما جاء عن ربه والاقتداء به فى سيرته، وتعظيمه وتوقيره، وتأييد أتباعه المؤمنين ومناصرتهم، وتعزير أعدائه الكافرين ومناوأتهم، وتقديم حبه على حب غيره، وحب من أحب وبغض من أبغض، والتمسك بسنته فى كل أمر، وردّ الشبهة عن الدين، وعن الرسول الأمين والصحابة الأكرمين، وأمهات المؤمنين، اللاتى لهن من التوقير والتكريم أكثر من أمهاتنا اللائى ولدننا، والإكثار من الصلاة عليه، واعتبار ذلك كله هو منهج الحق والخير، الذى لا يشقى من تمسك به، ولا يضل من اهتدى بهديه ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾[1]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾[2]، ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾[3].

ومن مقتضى هذا العهد ألا نقدم كلام أحد من البشر على كلام رسول الله ﷺ: ﴿ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ ﴾[4].

ومن مقتضى هذا العهد أن يسمع المسلمون لرسول الله ﷺ وأن يطيعوه وأن يردوا كل أمر فى حياتهم إلى قول الله ورسوله، وبالجملة فكل ما أمر الله به ورسوله الناس فهو عهد بينهم وبين الله واجب الوفاء، ودين لا تبرأ الذمة منه بغير الأداء.

ويأتى العهد بين الإنسان وبين نفسه مما ألزمها به من الطاعات كالحج والصيام،

---

(١) طه: ١٢٣ ـ ١٢٦.
(٢) الأحزاب: ٤٥.
(٣) الفتح: ٨ ـ ١٠.
(٤) الحجرات: ١.

والاعتكاف وقيام الليل والنذر وغير ذلك من ألوان الطاعات التى يلزم الإنسان بها نفسه مما لا يخرج عن إطار الشريعة، ومقتضى الوفاء بهذا العهد ألا يخل الإنسان بشكل مباح ألزم به نفسه؛ لأنه يصبح مسؤولاً عنه أمام الله يوم القيامة لقول الرسول ﷺ: «**مَنْ نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه**» [1]، وهذا من أمارات صدق النفس، وعلو عزيمتها، لأنها إن قامت بما أوجبته هى على نفسها، فإنها من باب أولى تقوم بما أوجب الله عليها، وبما أوجب الرسول عليها من فرائض الإسلام وسننه ومستحباته؛ لأن هذه النفس تدرك ألا منجاة لها مما عاهدت الله على الالتزام به إلا بأدائه، حتى تكون بمنأى عن عذاب الله وسخطه، فلا يحلُّ عليها ما حلَّ على غيرها حين عاهدت الله فأخلفتْ موعده ونكثت فكان جزاؤها النفاق وحبوط العمل، وقد صور القرآن الكريم ذلك بقوله: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [2].

ثم يأتى الوفاء بكل عقد قطعه الإنسان على نفسه بينه وبين أحد من البشر: (من بيع وشراء وإجارة وكراء، ومناكحة وطلاق ومزارعة ومصالحة وتمليك وتخيير. وغير ذلك من الأمور ما كان ذلك غير خارج عن الشريعة) [3].

مقتضى الوفاء بالعهود عامة:

ومقتضى الوفاء بهذه العقود أن يثق الناس فى تعاملاتهم، وأن يشيع الصدق بينهم، وأن يأمنوا على أنفسهم وأموالهم وأن تنتفى الخيانة من مجتمعهم وتحل محلها الأمانة، وهل يرقى مجتمع من المجتمعات وينهض إلا بوجود الأمانة فى أفراده، وانتشارها فى مجموعه؟

والناظر فى حياة بعض المسلمين اليوم يجدهم يقولون ما لا يفعلون، وينقضون العهود

---

(١) أخرجه البخارى (٦٦٩٦).

(٢) التوبة: ٧٥ ـ ٧٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: للقرطبى (٦/ ٣٢).

التـى بـين الأفـراد وبـين الله، أو بـين الأفـراد أنفـسهم أو بـين جماعـات المـسلمين وطوائفهم،بحسب مايرونه من مصلحة قريبة قد تظهر لهم حين ينقضون عهودهم، مع أن فى هذا نكثًا يستحق صاحبه وعيد الله المفهوم من قوله سبحانه: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [1]، ويقع عليهم الخسران الوارد فى قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [2]، وتحل عليهم لعنة الله وسوء المصير الواردة فى قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [3].

وهؤلاء وأمثالهم من ناقضى العهود أيًا كان نوعها تكون فضيحتهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد لقول الرسول ﷺ: «**إذا جمع الله بين الأولين والآخرين يوم القيامة، يرفع لكل غادر لواء يُعرف به، فيقال: هذه غدْرة فلان**»[4]، وإذا كان هذا عذاب الآخرة فإن عذاب الدنيا واقع لا محالة بالغادرين، حين لا يجدون فى قلوبهم غير الخوف على العهود التى فيها مصالح لهم أن تنبذ، وحين لا يجدون فيها غير الخيانة للعهود التى لا مصلحة لهم فيها أن ينقضوها هم،وكفى بهذا الخوف مغرمًا،وكفى به عند الله مأثمًا.

ولقد وفّى رسول الله ﷺ بعقد شارك فيه قبل الإسلام، وأعلن أنه لو دعى إليه بعد الإسلام لأجاب، وقد ذكرنا قصة هذا العهد من قبل.

إنه الإسلام الذى ينظر إلى المكارم والفضائل فيقدرها قدرها ويحترم الوفاء بها ولو قام بها جاهليون قبل الإسلام ولو قام بها غير المسلمين، فالأخلاق لا تتجزأ والمكارم والفضائل لا تنقسم ولا تتفرق بحيث تكون تارة محبوبة واجبة الوفاء، وتارة مذمومة غير واجبة الوفاء،إن الإسلام لا يعرف هذه التجزئة ولا يعترف أبدًا بأن الغاية تبرر

---

(١) الفتح: ١٠.

(٢) البقرة: ٢٧.

(٣) الرعد: ٢٥.

(٤) أخرجه البخارى (٣١٨٨)، ومسلم (١٧٣٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

الوسيلة،فالغاية الشريفة لابد من الوصول إليها بوسيلة شريفة يرضاها الله ورسوله والمؤمنون،والحق هو الحق،والوفاء هو الوفاء،وإن قام به كافرون والتزم به جاهليون.

لقد ظل حلف الفضول هذا فى أذهان المسلمين علامة مضيئة على الوفاء، بصرف النظر عن مبتدعيه والظروف التى نشأ فيها، حتى إن بعض التابعين حين وقع عليه شيء من الظلم دعا إلى التمسك بحلف الفضول، وناصره وأيده بعض الذين يسوؤهم وقوع الظلم على الناس، فارتد الظالمون عن ظلمهم، وعاد الحق إلى أصحابه.

قال ابن إسحاق: تحامل الوليد بن عتبة على الحسين بن على فى مال له ـ لسلطان الوليد، فإنه كان أميرًا على المدينة ـ فقال له الحسين: أحلف بالله لتنصفنى من حقى أو لآخذن بسيفى ثم لأقومن فى مسجد رسول الله ﷺ ثم لأدعون بحلف الفضول، فقال عبد الله بن الزبير:وأنا أحلف بالله لئن دعانى لآخذن بسيفى ثم لأقومن معه حتى ينتصف من حقه أو نموت جميعًا، وبلغت المسور بن مخرمة فقال مثل ذلك، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الله التيمى فقال مثل ذلك، فلما بلغ ذلك الوليد أنصفه[1].

وهكذا كان المسلمون حريصين على الوفاء بالعهود كلها فى جميع الظروف والمناسبات والأحوال لم ينقضوا عهدًا ولم يخفروا ذمة فصانهم الله، وصارت لهم مكانة عند الأمم عرفت عنهم، بل عرفت عن أدناهم؛ لأن المؤمنين يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم.

وأولى بمسلمى اليوم أن يعودوا إلى هذا النهج كاملاً، لتقوى أنفسهم بالثقة وتقوى شوكتهم فى الناس، وتقوى كلمتهم عند الأمم فيسعى بذمتهم أدناهم ويكونوا يدًا على من سواهم.

تغير الأحوال لا يمنع من الوفاء:

ومن العهود التى ينبغى الوفاء بها ألاّ يتنكر الإنسان حين تصيبه نعمة لما كان عليه من

(١) الجامع لأحكام القرآن: للقرطبى (٦/ ٣٣).

قبل ولمن عرفهم فى الضراء قبل أن تصيبه السراء، فإن كان فقيرًا فاغتنى، فلا ينبغى أن يتنكر للفقراء ويحتقر البؤساء، ويتكبر على الناس بما آتاه الله من فضله، وإن كان مغمورًا فاشتهر بين الناس، وعرف عند ذوى السلطان فلا ينبغى أن يتكبر بمنصبه على الناس ولا أن يستعلى عن غيره بسلطانه، وإن كان ضعيفًا فقوى فلا ينبغى أن يلقى منه الضعفاء غير كل عون، وهذا باب واسع وخندق عميق قل من ينجو منه، ويفلت من الوقوع فيه، وقصة الثلاثة من بنى إسرائيل تغنينا عن الاسترسال فى الأمثلة، روى أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**إن ثلاثة من بنى إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى، أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكًا، فأتى الأبرص فقال: أى شىء أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن ويذهب عنى الذى قذرنى الناس، فمسحه فذهب عنه قذره، وأُعْطي لونًا وجلدًا حسنًا! فقال: أى المال أحب إليك؟ قال: الإبل! فأعطاه ناقة عُشراء وقال: بارك الله لك فيها.**

ثم أتى الأقرع فقال: أى شىء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عنى هذا الذى قذرنى الناس! فمسحه فذهب عنه، وأُعْطي شعرًا حسنًا، وقال: فأى المال أحب إليك؟ قال: البقر، فأعطى بقرة حاملاً وقال: بارك الله لك فيها.

ثم أتى الأعمى فقال: أى شىء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله عليَّ بصرى فمسحه، فرد الله عليه بصره. قال: فأى المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطى شاة والدًا.

فأنتج هذا، وولد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل ، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم.

ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن بعيرًا أتبلغ به فى سفرى، فقال: الحقوق كثيرة، فقال: كأنى أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيرًا فأعطاك الله؟! قال: إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر! قال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت عليه.

وأتى الأقرع فى صورته، فقال له مثل ذلك، وردّ عليه مثل ما ردّ الأول، فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت عليه.

ثم أتى الأعمى فى صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال فقال: قد كنت أعمى فرد الله عليَّ بصرى، فخذ ما شئت ودع ما شئت فو الله لا أجهدك اليوم لشىء أخذته لله! فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم .. فقد رضى عنك، وسخط على صاحبيك!» [(١)].

لقد كان تذكر الأعمى لماضيه الغابر، ومعرفته بالنعمة التى أعطاه الله إياها، ومنحه منها لإِخوانه مما منّ الله به عليه سببًا فى دوام النعمة وبقائها، أما الآخران اللذان تنكرا للنعمة، وادَّعيا زورًا وبهتانًا أنهما لم تمسسهما ضراء، وأن النعمة قد توارثاها عن آبائهما الأولين، فقد زالت عنهما النعمة، وعادت إليهما المضرة مصحوبة بالألم والحسرة والندم، وفى هؤلاء الثلاثة عبرة لكل معتبر، وعظة لكل متعظ.

ومن الوفاء ألا يتغير حال الإنسان فى التواضع مع أخيه، وإن ارتفع شأنه، واتسعت ولايته، وعظم جاهه،فالترفع على الإِخوان بما يتجدد من الأحوال وما ينقلب فيها لؤم مذموم.

وقد قال الشاعر مادحًا ثبات الكرام على مبادئهم وعدم تنكرهم لأصحابهم:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا   من كان يألفهم فى المنزل الخشن

وأوصى بعض السلف ابنه فقال: يا بنى لا تصحب من الناس إلا من إذا افتقرت إليه قرب منك وإن استغنيت عنه لم يطمع فيك، وإن علت منزلته لم يرتفع عليك، وفى وصية أخرى: لا تصحب من الناس إلا من إذا افتقرت إليه قرب منك، وإن استغنيت عنه لم يطمع فيك، وإن علت منزلته لم يرتفع عليك وإن ابتذلت إليه صانك، وإن اجتمعت معه زانك، فإن لم تجد هذا فلا تصحبن أحدًا، وكان الشافعى قد آخى رجلاً ببغداد ثم ولى الرجل السِيبين (بكسر السين) **فتغير للشافعى فأنشد الشافعى:**

(١) أخرجه البخارى (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٤٦٤) عن أبى هريرة رضي الله عنه .

اذهب فودّك من ودادى طالـقٌ — منّى وليس طـلاق ذات البيـن
فإن ارعويت فإنها تطليقـة — ويـدوم ودّك لى علـى ثنتيـن
وإن امتنعـت شفعتها بمثالهـا — فتكون تطليقتـين فى حيضيـن
فإذا الثلاث أتتك منى بتــة — لن تغنِ عنك ولاية السيبين[1]

الوفاء للناس بعد مماتهم:

فالوفاء هو الثبات على الحب والاستمساك به حتى يموت المحبوب، بل ينبغى أن يظل أثر هذا الوفاء قائمًا متمثلاً فى الاتصال بأبنائه وأقاربه وأصدقائه، لأن الحب الخالص لله إنما يراد للآخرة لا للدنيا، فحب الدنيا والوفاء فيها للمحبوب قد يقترن بغرض فينتهى بنهايته، أما الحب المراد به وجه الله فهو حب باقٍ، وإن انتقل أحد المحبين إلى الدار الآخرة، لأن ما كان لله دام واتصل وما كان لغيره انقطع وانفصل، والذين يريدون وجه الله بصلاتهم وأخوتهم يدركون أن استمرار الوفاء حتى النهاية هو الذى يجلب الثواب، ولذا جعل رسول الله ﷺ من الذين يظلهم الله فى ظله: «رجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه»[2]، فقد جمعهما الحب والوفاء فى اللقاء والفراق، فلم يغير الفراق من وفائهما ومحبتهما.

وقد قال يحيى بن معاذ: ثلاثة عزيزة فى وقتنا هذا وذكر منها حسن الإخاء مع الوفاء، يعنى بالوفاء أن يكون له فى غيبته ومن حيث لا يعلم مثل ما يكون له فى شهوده ومعاشرته، ويكون له بعد موته ولأهله من بعده كما كان له فى حياته، فهذا هو الوفاء وهو المعنى الذى شرطه النبى ﷺ للمؤاخاة فى قوله: «**اجتمعا عليه وتفرقا عليه**»، وجعل جزاءه ظلال العرش يوم القيامة[3].

لأبى طالب دفاعه عنه حتى بعد مماته، وسجلت كتب السيرة هذا الدفاع عن الرسول

---

(١) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين: للزبيدى (٦/ ٢٢٧) بتصرف.
(٢) أخرجه البخارى (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) عن أبى هريرة رضي الله عنه .
(٣) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين: للزبيدى (٦/ ٢٣٥) بتصرف.

من عمه أبى طالب الذى مات على الكفر.

وظل يذكر لزوجته خديجة موقفها منه ومن الدعوة فى وفاء نادر، بين الأزواج، فقد كان بعد مماتها يكرم أصدقاءها، فعن عائشة قالت: كانت تأتى النبى ﷺ امرأة فيكرمها فقلت: يا رسول الله من هذه؟ فقال: «هذه كانت تأتينا زمن خديجة وإن حسن العهد من الإيمان»[١].

وكان يذبح الشاة فيرسل منها إلى صواحب خديجة، وما كان يذكرها إلا بالخير حتى غارت السيدة عائشة مرة من ثنائه عليها فقالت:ما تقول فى عجوز حمراء الشدقين أبدلك الله خيرًا منها، فقال عليه الصلاة والسلام:«والله ما أبدلنى الله خيرًا منها، آمنتْ بى حين كفر الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله منها الولد، دون غيرها من النساء»[٢]. فكانت السيدة عائشة رضي الله عنها تتحاشى ذكرها بعد ذلك.

ولو ذهبنا نعدد وفاء رسول الله ﷺ للموتى من أصحابه لذكرنا الكثير والكثير، ولكننا فقط نكتفى بأنه قبل وفاته عليه الصلاة والسلام خرج إلى أحد فصلى على الشهداء[٣]، وفاء منه لهم ومحبة وتقديرًا.

وهكذا يصبح الوفاء بكل أنواع العهود القائمة على الحق لازمًا فى حق المسلمين، يتعاونون عليه إن اتصل بالجماعة،ويحث بعضهم بعضًا على الوفاء إن اتصل بالأفراد، فليس من الإسلام أن يفرط فرد أو جماعة فى عهد أبرمه، فيخون تحت أى ذريعة من الذرائع، أو عذر من الأعذار، فذلك لا يرضاه رب العالمين ولا يقره أحد من المؤمنين الصادقين، الذين يدركون أن جزاء الغدر عند الله عظيم: «يرفع للغادر لواء عند استه يوم

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٠) وقال: «صحيح الإسناد على شرط الشيخين»، والبيهقى فى الشعب (٩١٢٢)، وصححه الألبانى في الصحيحة (٢١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١١٧، ١١٨)، وصححه شعيب الأرناؤوط.

(٣) الصلاة على الميت نوع من الدعاء كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

القيامة»[١]، ويدركون أن جزاء الوفاء عظيم: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾[٢].

الوفاء مع من أسدى إليك معروفًا:

ليس للمعروف حدٌّ يقف عنده، فكل من قدم إليك نفعًا، فقد أسدى إليك معروفًا، وكل من كف عنك شرًا فقد أسدى إليك معروفًا،وفى داخل هذا الإطار يتسع المعروف ويتعدد ولا يتحدد، فللوالدين معروفهما ولذى القربى معروفه، ولأهل العلم والفضل معروفهم، ولمن ساعدك فى شىء من بناء حياتك بشكل من الأشكال معروفه كذلك.

ولسنا نقصد بالوفاء للوالدين برهما فى حياتهما، فذلك شىء غير ما نحن فيه، وإن كان غير بعيد عنه، وإنما نود أن نبيّن جزءًا من برهما يتصل بالوفاء، وهو برهما بعد وفاتهما، لأنه هو الذى يتمثل فيه الوفاء أقوى تمثيل، فقد يبرّ الإنسان والديه فى حياتهما تكريمًا لهما ورغبة فى إرضائهما، ثم يتوقف هذا البرّ بعد وفاتهما، فإذا ما استمر هذا البرّ بعد وفاتهما فقد اكتسب صفة جديدة تضاف إلى البرّ وهى الوفاء.

وقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يسأل فقال: يا رسول الله، هل بقى علىَّ من أبوى شىء أبرهما بعد موتهما؟ قال ﷺ: «**نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما**»[٣]، فالدعاء للوالدين وطلب المغفرة لهما، وصلة الأرحام من أجلهما، وإكرام صديقهما ألوان متعددة من الوفاء وإن دخلت كذلك فى باب البرّ.

ومن المعروف الذى يستحق الوفاء تيسير سبيل العلم أمامك بحيث تنتفى عنك صفة

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) الفتح: ١٠ .

(٣) حديث أبى أسيد مالك بن ربيعة رضي الله عنه : رواه أحمد (٣/ ٤٩٧)، وأبو داود (٥١٤٢)، وابن ماجه (٣٦٦٤)، وابن حبان فى صحيحه (٤١٩)، والحاكم فى المستدرك (٧٢٦٠)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى، وضعفه الألبانى.

الجهل التى هى مذمة ومسبة لمن لحقت به، والمعلم هو الذى ينير أمامك طريقة الحياة بالمعرفة، ويضيء جوانب نفسك بما يعلمك إياه من تعاليم الدين، ويجعلك تتقدم فى الحياة على بصيرة من أمرك، ورشد من شأنك، ولذا فهو أحق الناس بالوفاء، فلئن كان الوالدان هما السبب المباشر لإِيجاد المرء فى هذه الحياة فإن المعلم هو الذى ينير الطريق ويزيل العثرات ويجنبك العقبات، ومن هنا كانت خدمته واجبًا ودينًا معلقًا فى عنق المرء لا يسقط عنه بغير الوفاء.

وقد عرف ذلك الأمر الأقدمون من أدباء العربية فقال الشاعر الناقد عبد العزيز الجرجانى:

ولم أبتذل فى خدمة العلم مُهجتى لأخدم من لاقيتُ ، لكن لأُخدَما

أأشقى به غرسًا وأجنيه ذلة ؟ إذًا فاتِّباع الجهل قد كان أحزما

فخدمة العلماء لون من ألوان الوفاء لهم فى حياتهم يقل عن قدرهم، ولا يصل إلى معروفهم؛ لأن مهنة العلماء تقارب مهنة الأنبياء ولذا قال شوقى:

قم للمعلم ووَفِّهِ التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

أرأيت أعظم أو أجل من الذى يبنى وينشئ أنفسًا وعقولا

فالذى ينشئ الأنفس على الفضائل والعقول على الأفكار والعظائم خليق بأن يدوم له الاحترام والتقدير والوفاء، وقد عرف هذا المعنى الأقدمون الذين كان لهم فى المعرفة باع، هذا على بن أبى طالب رضي الله عنه يقول: «أنا عبد من علمنى حرفًا واحدًا إن شاء باع وإن شاء استرق»، وهذا القول من الإِمام علىّ فيه تعظيم وفيه تفويض للمعلم، وفيه إشعار بمكانة المتعلم أمام معلمه وأن لمعلمه الحق أن يفعل معه ما يشاء.

ولا يتوقف هذا الحق على فترة التعلم وحدها وإنما يمتد ويبقى أثره إلى نهاية العمر، ولقد قدم حق المعلم على حقوق غيره من البشر، لما له من مكانة عظيمة ومنزلة كريمة، وقد أنشد أحد الشعراء:

رأيت أحق الحق حق المعلم وأوجبه حفظًا على كل مسلم
لقد حق أن يهدى إليه كرامة لتعليم حرف واحد ألف درهم

وقد قيل: إن من علمك حرفًا واحدًا مما تحتاج إليه فى الدين فهو أبوك له عليك حق التقدير والتكريم والوفاء،ومن الأدب اللازم مع المعلم ألا يمشى أمامه،ولا يجلس مكانه، ولا يبتدئ بالكلام عنده إلا بإذنه، ولا يكثر الكلام عنده، ولا يسأله شيئًا عند ملالته، ويراعى الوقت المناسب للمعلم وهذا من أدب المتعلم مع المعلم يحمله على الوفاء الدائم لهذا الإنسان الذى شكل عقله وأحيا فكره فجعله بهذا الفكر وبهذه المعرفة ذا نظر وبصر بالأمور، فيستحق صاحبه التقدير والاحترام، والتكريم، وبذل ما يستطاع فى سبيل إرضاء المعلم. ومما يستحق الوفاء كرامة الجيران والأصحاب لك، وإعزازهم لأمرك وشأنك وكف شرهم عنك، وستر عوراتك، ونشر خيراتك، وإن رأوا منك سيئة أخفوها وتناسوها،وإن رأوا حسنة أظهروها ونشروها،ولذا فالوفاء لأمثال هؤلاء لازم، فلا تقابل حسناتهم إلا بمثلها ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾[1]، وانظر فى كثير من أمور الحياة وشؤون البشر،لترى:أين هم من الوفاء لمن أسدى إليهم معروفًا؟

إنك حين تتيح عملاً لعاطل، أو تقدم لقمة لجائع، أو تساعد فى علاج مريض، أو تغيث منكوبًا، أو مكروباً، أو تنقذ إنسانًا من جهالة، أو تخرجه من الضلالة، أو تهديه إلى الصراط المستقيم، أو تكشف أمامه زيف الظالمين، وزيغ المنحرفين، أو تبصره بسيرة السلف الصالح، أو تساعده على جمع شمله ورتق صدعه، فقد قدمت إليه معروفًا وأسديت إليه جميلاً، ينبغى أن يقابل بالوفاء لا بالجحود والنكران، وإلا كان لؤمًا فى الطبع وخسة فى النفس، كيف لا والرسول ﷺ قال:«لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[2]،والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[3]، والوفاء نوع من الشكر الجميل لمن أسدى

---

(١) الرحمن:٦٠.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٨١١)، والترمذى (١٩٥٤)، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألبانى.
(٣) إبراهيم: ٧.

إليك معروفًا، والنكران والجحود سبب فى عذاب النار، وهذا رسول الله ﷺ وهو يعظ النساء ويذكرهن ويخوفهن عذاب النار، وأنهن كثيرات فيها بين لهن سبب ذلك بقوله الذى رواه ابن عباس فى الصحيحين: «... **ورأيت النار، فلم أرَ كاليوم منظرًا قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء**»، قالوا: لم يا رسول الله؟ قال:«**لكفرهن**»، قيل:أيكفرن بالله؟ قال: «**يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئًا، قالت: ما رأيت منك خيرًا قط**» [1].

فالوفاء حثّ عليه الدين ودعا إليه رسول الله ﷺ وطبّقه، وهو الذى عرف لخديجة قدرها وأعطاها حقها من الوفاء لها حتى بعد وفاتها، فكان يقول بعد أن يذبح الشاة: «أرسلوا منها لفلانة ويعلل لذلك بأنها كانت من أصحاب خديجة»، وهو الذى قال لعائشة رضي الله عنها ـ كما ذكرنا ذلك من قبل ـ رداً عليها فى بعض ما حكته عن خديجة رضي الله عنها بدافع الغيرة النسوية التى لا تخلو منها امرأة: «**والله ما أبدلنى الله خيرًا منها، آمنت بى حين كفر الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله منها الولد، دون غيرها من النساء**»[2]،فهل بعد هذا الوفاء وفاء؟ وهل نتعلم من هذا الهدى النبوى الكريم معنى الوفاء لمن أسدى لنا معروفًا؟

والأمثلة فى هذا الجانب عديدة لسنا نستقصيها وإنما نذكر نماذج منها فقط لتدل على ما سواها، وفيما ذكرناه فى هذا الباب كفاية وغنية، ومن أراد المزيد فليراجع كتب السيرة والأخلاق الإسلامية وكتب الرجال ليستخلص منها ما يشاء.

---

(١) أخرجه البخارى (١٠٥٢)، ومسلم (٩٠٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١١٧) عن عائشة رضي الله عنها ، وصححه شعيب الأرناؤوط.

المبحث الثالث
ما يعين على الوفاء

نقرر ونكرر أن الوفاء بالعهد خلق من الأخلاق الإسلامية، وأن الله سبحانه أمر به فى كتابه، وجاءت السنة القولية والفعلية للرسول ﷺ داعية إلى الوفاء مطبقة له فى كل الأحوال ما لم تثبت خيانة الأعداء، وليس لمسلم بعد قول الله وقول رسوله وفعله خيرة من أمره فى أن يفى أو لا يفى، بل الأمر بالوفاء؛ إلزام إسلامى لا تبرأ النفس إلا بتحقيقه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (١). ولتحقيق هذا المبدأ الإسلامى نذكر بعض ما يعين على الوفاء، مستمدين ذلك من منهج الإسلام.

خشية الله والخوف منه:

وتلك الخشية تدفع المؤمن للوفاء؛ لأنه يخاف أن يكون من الخاسرين ناقضى العهود الذين حكم الله عليهم بذلك فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (٢)، ويخاف أن تصيبه اللعنة وأن يكون مطرودًا من رحمة الله، وأن يناله سوء المصير المقرر فى قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ (٣).

ففرار المؤمنين ـ جماعات أو أفرادًا ـ من أن يكونوا من الخاسرين، ومن أن يكونوا من الملعونين المطرودين من رحمة الله، ومن أن ينالهم سوء المصير يدفعهم دفعًا قويًا للوفاء بالعهود مهما تطلبت من تضحيات، واحتملوا من أجلها المغارم، فكل مغارم الحياة وتضحياتها لا تساوى شيئًا ـ عند المؤمنين ـ أمام الخسران عند رب العالمين.

---

(١) الأحزاب: ٣٦.
(٢) البقرة: ٢٧.
(٣) الرعد: ٢٥.

التحلى بالصبر أمام مغريات الحياة:

فقد تدفع مغريات الحياة وحب الشهوات فيها الناس أن ينتهزوا فرصة سانحة من الأعداء يخدعونهم فيها ويضربون بعهودهم عرض الحائط، ما دام الهدف قد تحقق بأى وسيلة على حين غفلة من الأعداء، والمؤمنون من دون الناس لا يفعلون ذلك ولو كان متاحًا لهم أن يفعلوه، ولذا ينبغى أن يتحلوا بالصبر الشديد أمام هذه الفرصة السانحة والمغريات، فلا يخونوا وإن أتيحت لهم الخيانة، ولا يغدروا وإن سهل لهم الغدر، متأسين فى ذلك برسول الله ﷺ حين بعث على بن أبى طالب ليعلن فى الموسم: «**ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته**»[1]، مع أن المشركين حينذاك كانت قد ضعفت شوكتهم وقلّ نصيرهم، وكثر عدد المسلمين وزاد بأسهم، ولو أراد الرسول ﷺ أن ينتهز الفرصة لتغلب على المشركين بأقل التكاليف البدنية والمالية، ولكن حاشاه ﷺ أن ينقض عهدًا أو يخلف موعدًا، بل يعلن فى موسم الحج: «**ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته**»، ففى أى عرف دولى أو قانون سائد يحدث هذا اليوم؟

ومن قبل ذلك فى صلح الحديبية كان المسلمون أو قل بعضهم غير راضين عن الشروط التى أبرم الصلح على أساسها وقالوا: لم نعط الدنية فى ديننا؟ وكادوا يخالفون عن أمر رسول الله ﷺ حين أمرهم بعد الصلح بالحلق وذبح الهدى، فلم يبادروا لامتثال هذا الأمر، حتى دخل رسول الله ﷺ على زوجته «أم سلمة» وهو غير راضٍ عن موقف المسلمين، فذكر لها ما لقى من الناس، فأشارت عليه أن يخرج فيذبح ويحلق فلما فعل ذلك سارع المسلمون إلى الذبح والحلق[2]. والمهم أن إحساس المسلمين بأن شروط الصلح غير متكافئة بين المسلمين والمشركين دفعهم للقول: لم نعط الدنية فى ديننا؟ ولكن الرسول ﷺ صبر عليهم، ثم هُم صبروا بعد ذلك على هذه الشروط ونفذوها بدقة تامة على الرغم من صعوبتها على نفوسهم فقد ردوا أبا جندل، ثم ردوا أبا بصير، وردوا غيرهما بغير شك،

(١) أخرجه الترمذى (٨٧١)، وأحمد (٧٩٨)، وصححه الألبانى.
(٢) أخرجه البخارى (٢٧٣١).

وأن غير هذين المسلمين حين رأى ردّ المسلمين لهما ما عاد يذهب إلى المدينة، كل هذا يحدث والمسلمون فى المدينة صابرون، والمسلمون الجدد كذلك صابرون حتى يسرّ الله الأمر فخانت قريش العهد ونقضته ونالت جزاءها على ذلك فتحًا مبينًا للمسلمين.

التثبت من الأخبار قبل اتخاذ أى قرار :

المسلمون ليس من دأبهم نقض عهد بينهم وبين غيرهم من الجماعات أو الأفراد لمجرد الشائعات التى يتناقلها الناس بنقض أولئك للعهد،بل إن مما أوجبه الدين عليهم أن يتثبتوا مما يرد إليهم من أخبار، قبل أن يتخذوا أى إجراء يؤدى إلى نقضهم ما عاهدوا عليه، وهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده، ففى غزوة الخندق والمشركون يحاولون مرة بعد أخرى أن يقتحموا الخندق على المسلمين، والمسلمون المحاصرون داخل المدينة يردونهم ولا يمكنونهم من هذا الاقتحام،وفى هذه الغزوات اشتدت الحال بالمسلمين، فإن هذا الحصار صاحبه تضييق، على فقراء المدينة، والذى زاد الشدة عليهم ما بلغهم من أن يهود بنى قريظة الذين يساكنونهم فى المدينة قد انتهزوا هذه الفرصة لنقض العهود.

وسبب ذلك أن حيى بن أخطب سيد بنى النضير الذين كانوا قد أجلوا عن المدينة من قبل توجه إلى كعب بن أسد القرظى سيد بنى قريظة وكان له كالشيطان إذ قال للإنسان: اكفر، فحسّن له نقض العهد ولم يزل به حتى أجابه لقتال المسلمين، ولما بلغت هذه الأخبار رسول الله ﷺ أرسل مسلمة بن أسلم فى مائتين وزيد بن حارثة فى ثلاثمائة لحراسة المدينة خوفًا على النساء والذرارى، وأرسل الزبير بن العوام يستجلى له الخَبر فلما وصلهم وجدهم حانقين يظهر على وجوههم الشر، ونالوا من رسول الله ﷺ والمسلمين أمامه، فرجع وأخبر الرسول بذلك وهنالك اشتد وجل المسلمين وزلزلوا زلزالاً شديدًا؛ لأن العدو جاءهم من فوقهم ومن أسفل منهم وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنونا، فالرسول ﷺ لم يعامل بنى قريظة بما بلغه من أخبارهم، بل إنه تثبت

من تلك الأخبار بإرساله الزبير بن العوام الذى عاد إليه بالخبر اليقين فى ذلك، وبناء على هذا التثبت كان التصرف الذى تمّ مع بنى قريظة بعد ذلك.

وقد فعل ذلك رسول الله ﷺ حين جاءه الخبر أن بنى المصطلق ارتدوا عن الإسلام ومنعوا الزكاة فأرسل خالد بن الوليد ليستكشف خبرهم، فتبين له أنهم مسلمون طائعون لله ورسوله، وخبر هؤلاء هو: أن رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبى معيط لأخذ صدقات بنى المصطلق، فلما علموا بقدومه خرج منهم عشرون رجلاً متقلدين سلاحهم احتفالاً بقدومه ومعهم إبل الصدقة، فلما نظر إليهم ظنهم يريدون حربه لما كان بينه وبينهم من العداوة فى الجاهلية، فرجع مسرعًا إلى المدينة وأخبر الرسول أن القوم ارتدوا ومنعوا الزكاة فأرسل لهم خالد بن الوليد لاستكشاف الخبر، فسار إليهم فى عسكره خفية حتى إذا كان بناديهم سمع مؤذنهم يؤذن بالصبح، فأتاهم خالد فلم يرَ منهم إلا طاعة، فرجع وأخبر الرسول فأرسل عليه الصلاة والسلام لهم غير الوليد لأخذ الصدقات وفى الوليد هذا وقصته نزل فى أوائل سورة الحجرات قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾ [1].

والمسلمون اليوم يقطعون الوعود ولا يوفون بالعهود بينهم وبين إخوانهم المسلمين لشائعات تدور، وأخبار لا تثبت، وأقوال تتردد هنا أو هناك، وأولى بهم أن يهتدوا بسنة الرسول ﷺ ثم بعد ذلك يتصرفون تصرف الرسول ﷺ مع بنى قريظة حين غدروا وخانوا، أو يتصرفون كما تصرف خالد بن الوليد مع بنى المصطلق حين وفوا بعهودهم، ولم تثبت أخبار ارتدادهم.

ومما يعين على الوفاء عمومًا وبين الأفراد خصوصًا ما يأتى:

كظم الغيظ: فقد يحدث من بعض الذين عاهدناهم ما يطلق عليه تصرفات استفزازية،

---

(١) نور اليقين ص ٢١٦ ـ ٢١٧، والآية من سورة الحجرات: ٦. وانظر كذلك: لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى (٢/ ١١٨) وما بعدها، وهو مطبوع على هامش تفسير الجلالين طبعة دار التراث بغير تاريخ.

لا تصل إلى درجة نقض العهد، ولكنها تثير حفيظة المتعاهدين، وقد تدفع طرفًا منهم إلى نقض العهد، وهنا يكون لكظم الغيظ موقعه فى النفوس، وبخاصة إذا كان العهد بين الأفراد، وفى هذه الحالة يكون كظم الغيظ والعفو والصفح استجلابًا للوفاء بالعهد أمرًا محبوبًا تحسن عاقبته بين الأفراد، وقد قال الأحنف بن قيس: «الإخاء جوهرة رفيعة إن لم تحرسها كانت معرضة للآفات فاحرسها بالكظم».

شدة الجزع من المفارقة بنقض العهد: فمفارقة الأحباب والخصومات التى تقع بينهم نتيجة نقضهم للعهود تهدّ أركان الإنسان، وتزلزل بنيانه النفسى، دون أن يجد سندًا يلتجئ إليه، وقد قيل:

وجدْت مصيبات الزمان جميعَها سوى فرقة الأحبَاب هينة الخطْب

وقال سفيان بن عيينة: لقد عهدت أقوامًا فارقتهم منذ ثلاثين سنة ما يخيل إلى أن حسرتهم ذهبت من قلبى[1].

والأمر مع وجود هذه المعينات محتاج إلى نية صادقة، وعزم أكيد على الوفاء حتى لا يُغرى الإنسان بنقض العهد تحت أى ظرف من الظروف أو إغراء من الإغراءات، فيحل به جزاء ناقضى العهود، وناكثى المواثيق، وما الوفاء بالعهد إلا مظهر من مظاهر ما ينطوى عليه القلب من سلامة الطوية، وصدق النية، وما الغدر والخداع إلا مظهر من مظاهر كذب القلوب وانطوائها على الغلّ والضغائن والأمراض النفسية التى تدفع إلى كثير من الشرور والآثام بين الناس.

واتباع هذه الأسس التى ذكرناها تعين بعض الناس على الوفاء،وتساعدهم فى التمسك به، طالما ظلوا لها ذاكرين،وعلى هدى منها سائرين لأنها مستمدة من الدين القويم.

(١)إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين (٦/ ٢٣٩).

المبحث الرابع
تحمل المغارم والتضحيات فى سبيل الوفاء

إذا كان العرب فى جاهليتهم اعتبروا الوفاء خصلة حميدة، يستحق فاعلها الذكر الجميل عند الناس واعتبروا الغدر صفة ذميمة يستحل صاحبها الملامة بين الناس، فإن الإسلام اعتبر الوفاء جزءًا من الدين يحاسب عليه المرء عند الله يوم القيامة يوم توفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون. ولذا كان الوفاء لا مفر منه ولا محيص عنه مهما اشتدت التضحيات، وعظمت الشدائد، وكثرت المغارم وضاعت على المسلمين بسبب الوفاء المغانم، فلا ينبغى نقض عهد لمصلحة فرد أو لمصلحة جماعة أو لمصلحة دولة «فالإسلام لا يقر مثل هذا المبرر، ويجزم بالوفاء بالعهد، وعلى هذا الأساس قام بناء الجماعة الإسلامية وبناء الدولة الإسلامية، لقد دخلت فى الإسلام جماعات وشعوب بسبب ما رأوا من وفاء المسلمين بعهدهم ومن صدقهم فى وعدهم، ومن إخلاصهم فى إيمانهم، فكان الكسب أضخم بكثير من الخسارة الوقتية الظاهرة التى نشأت عن تمسكهم بعهودهم»[1].

ففى فتوح الشام فى عهد الصديق أبى بكر أخذ قادة الفتح الجزية من قرية قريبة من الروم، ثم حدثت بعض الظروف اضّطر الجيش الإسلامى إلى الانسحاب مؤقتًا من هذه المنطقة، فما كان من قادته إلا أن ردوا إلى أهل القرية الجزية التى أخذوها منهم؛ لأن أخذ هذه الجزية كان فى مقابل الدفاع عن القرية من الأعداء وتأمين أصحابها على أموالهم وأنفسهم وممتلكاتهم من هجمات الرومان، فلما لم يكن فى مقدور الجيش الإسلامى أن ينفذ ما وعد، ردّ الجزية لأصحابها الذين عجبوا أشد العجب من جيش منتصر يرد أموالاً أخذها لعجز طارئ عليه يمنعه من أن يفى بما عاهد عليه، فما هكذا كانت أخلاق الجيوش المنتصرة التى تعاقبت على الشام قبل الإسلام، فشعر أصحاب القرية أن المسلمين لهم أخلاقهم ولهم حرص على الوفاء بعهودهم فإن لم يستطيعوا المحافظة على العهود لأمر

---

(١) فى ظلال القرآن (٤/ ٢١٩١، ٢١٩٢).

طارئ ردوا ما ترتب على هذه العهود وكانت هذه الأخلاق سببًا فى إسلام أهل هذه القرية.

لم ينظر قادة الجيش إلى دماء سالت من قبل فى سبيل التغلب على هذه البلاد، ولم ينظروا إلى أن هذه الأموال المأخوذة أموال كافرين لا بأس بأخذها، وعدم الوفاء لهم بحمايتهم، ولم ينظروا إلى العذر الطارئ الذى جعل الجيش ينسحب، وإنما نظروا فقط إلى الوفاء بالشروط، فإن لم يستطيعوا ردوا ما أخذوا من الناس، فكان ذلك سببًا فى دخولهم فى الدين أفواجًا.

ولو ذهبنا نعدد تضحيات الأجيال من المسلمين ما وصلنا إلى مثل تضحية الأنصار الذين وفّوا بما عاهدوا عليه الرسول ﷺ ليلة العقبة، فماذا تضمنت هذه المعاهدة من بنود وماذا كانت التضحيات؟ أما بنودها وما حوته فإنا نتركه لكعب بن مالك يصفه لنا، قال رضي الله عنه: «نمنا تلك الليلة ـ مع قومنا فى رحالنا ـ حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو ابن عدى، فلما اجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله ﷺ جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له، فلما جلس كان أول متكلم قال: يا معشر الخزرج إن محمدًا منا حيث علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عزّة من قومه ومنعة فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك .. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه فإنه فى عزّة ومنعة فى قومه وبلده...

قال كعب: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك وربك ما أحببت، فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب فى الإِسلام ثم قال: أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، قال كعب: فأخذ البراء ابن معرور بيده

وقال: نعم، فو الذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن ـ والله ـ أبناء الحروب، ورثناها كابرًا عن كابر، فاعترض هذا القول ـ والبراء يكلم رسول الله ﷺ ـ أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال ـ يعنى اليهود ـ حبالاً، وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «**بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم**»، **وأمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا منهم اثنى عشر نقيبًا يكونون على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم النقباء، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس**»[1].

تلك هى البيعة التى اقتضت من الأنصار تضحيات عظيمة فى نفوسهم وأموالهم وديارهم وأرضهم، التى وسعت المؤمنين المهاجرين، ووفرت لهم المأوى والمطعم فى غير منٍّ ولا أذى وتحمل الأنصار فى سبيل ذلك أذى العرب سنوات وسنوات، وعضتهم سيوف الكافرين،ونالتهم رماحهم وحاربوا من قبل الفتح ومن بعده مع رسول الله ﷺ، متجردين فى مقصدهم، باذلين من أنفسهم وأموالهم فى بدر وأحد والخندق، وخيبر والحديبية وغزوة الفتح ومؤتة وحنين وتبوك وغيرها مع رسول الله ﷺ فى حياته ومع خلفائه بعد مماته، فكانت تضحياتهم مضرب الأمثال ولسوف تبقى نموذجًا للتجرد والبذل والوفاء ما بقى الملوان، وتعاقب الجديدان.

ولسنا نكتفى بأن نسوق هذا الكلام بغير دليل من السيرة، ودليلنا الذى نقدمه على هذه التضحية هو موقف الأنصار من غنائم حنين التى بلغت أربعة وعشرين ألفًا من الإبل، وأكثر من أربعين ألفًا من الغنم وأربعة آلاف أوقية من الفضة، هذا إلى جانب ستة آلاف من السبى، وكره رسول الله ﷺ أن يقسم على الناس هذه الغنائم، وتأنى يبتغى أن يرجع القوم إليه تائبين فيحرزوا ما فقدوا، ومكث ينتظرهم بضع عشرة ليلة لم يجئه أحد فشرع

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٨٣) وما بعدها بتصرف، وفقه السيرة للغزالى بتخريج الألبانى.

يسكت المتطلعين من رؤساء القبائل وأشراف مكة، وبدأ بقسمة المال فكان المؤلفة قلوبهم أول من يعطى، بل أول من حظى بالأنصبة الجزلة، أخذ أبو سفيان مائة من الإبل، وأربعين أوقية من الفضة فقال: وابنى معاوية؟ فمنح مثلها لابنه معاوية، فقال: وابنى يزيد؟ فمنح مثلها لابنه يزيد، وأقبل رؤساء القبائل وأولو النهمة، يتسابقون إلى أخذ ما يمكن أخذه.

وشاع فى الناس أن محمدًا يعطى عطاء من لا يخشى الفقر، فازدحموا عليه يبغون المزيد من المال، وانكب عليه الأعراب يقولون: يا رسول الله، اقسم علينا فيأنا، حتى اضطروه إلى شجرة فانتزعت رداءه.. فقال: «**يا أيها الناس، ردُّوا علىَّ ردائى فوالذى نفسى بيده لو كانَ لكم عندى عدد شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتمونى بخيلاً ولا جبانًا ولا كذابًا**»، **ثم قام إلى جنب بعير فأخذ من سنامه وبرة، فجعلها بين أصبعيه، ثم رفعها فقال:**«**أيها الناس والله ما لى فى فيئكم ولا هذه الوبرة، إلا الخمس، والخمس مردود عليكم**»[(١)]، إن أعين القوم تكاد تخرج من المحاجر تطلعًا إلى الدنيا، وهؤلاء الأعراب والطلقاء والرؤساء، وما أغنوا عن الإِسلام شيئًا فى مآزقه الأولى بل كانوا هم العقبة الصلبة التى اعترضت مسيرته حتى تحطمت تحت معاول المؤمنين الراغبين فى ثواب الآخرة، المؤثرين ما عند الله.

ولكنهم اليوم ـ بعد ما أعلنوا إسلامهم ـ يبغون من الرسول أن يفتح عليهم خزائن الدنيا، فحلف لهم أنه ما يستبقى منها شيئًا لشخصه، ولو امتلك ملء هذه الأودية مالاً لوزعه عليهم، والحق أن الرسول وسع بحلمه وكرمه مسالك بينة للطيش والجشع فى سبيل تآلف هؤلاء الناس وتحبيبهم فى الإسلام، ولو عاقبهم على جبنهم فى حنين لنال منهم أى منال»[(٢)].

روى الإِمام أحمد أن أبا طلحة وهو من فرسان المسلمين المعدودين لقى (أم سليم)

(١) أخرجه النسائى (٣٦٩٠)، وأحمد (٢/ ١٨٤)، وحسنه الألبانى.
(٢) فقه السيرة: للغزالى.

ومعها خنجر، فقال لها: ما هذا؟ قالت: إن دنا منى بعض المشركين أبعج بطنه ـ وذلك فى معركة حنين ـ فقال أبو طلحة لرسول الله: أما تسمع ما تقول أم سليم؟ فضحك النبى ﷺ. فقالت أم سليم: يا رسول الله أقتل من بعدها الطلقاء الذين انهزموا بك؟ فقال: «**إن الله قد كفى وأحسن يا أم سليم**»[(١)].

والعجب أن هؤلاء الذين فرّوا عند الفزع هم الذين كثروا عند الطمع وشاء النبى ﷺ أن يلطف معهم، وينسى ماضيهم تكرمًا وتأليفا.

وماذا يصنع؟ إن فى الدنيا أقوامًا كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم، لا من عقولهم، عن أنس بن مالك قال: كنت أمشى مع رسول الله ﷺ وعليه بردٌ نجرانىٌ غليظُ الحاشية، فأدركه أعرابىٌ فجذبه جذبةً شديدةً،حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله، أثَّرت به حاشية الرداء من شدة جذبته، فقال: مُرْ لى من مال الله الذى عندك، فالتفت إليه فضحك: ثم أمر له بعطاء[(٢)]، إن هذا الأعرابى لا يعجبه المنطق الدقيق، ولا الطابع الرقيق، قدر ما يعجبه عطاء يملأ جيوبه، ويسكن مطامعه.

ومن هنا قال صفوان بن أمية: ما زال رسول الله ﷺ يعطينى من غنائم حنين وهو أبغض الخلقِ إلىَّ، حتى ما خلق الله شيئًا أحب إلىَّ منه[(٣)].

حكمة هذا التقسيم:

وهذه السياسة البعيدة لم تفهم أول الأمر، بل أطلقت ألسنة شتى الاعتراض، فهناك مؤمنون ظنوا هذا الحرمان ضربًا من الإِعراض عنهم والإهمال لأسرهم.

روى البخارى عن عمرو بن تغلب قال: أعطى رسول الله قومًا ومنع آخرين، فكأنهم عتبوا عليه فقال: «إنى أعطى قومًا أخاف ظلعهم وجزعهم وأكل أقوامًا إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الخير والغنى منهم «عمرو بن تغلب»، قال عمرو: فما أحب أن لى بكلمة رسول

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٧١٨)، وأحمد (٣/ ٢٧٩) واللفظ له، وصححه الألبانى.

(٢) أخرجه البخارى (٣١٤٩)، ومسلم (١٠٥٧) عن أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذى (٦٦٦)، وأحمد (٦/ ٤٦٥) عن صفوان رضي الله عنه، وصححه الألبانى.

الله حمر النعم[١].. فكانت هذه التزكية تطييبًا لخاطر الرجل، أرجح لديه من أثمن الأموال، وكان الأنصار ممن وقعت عليهم مغارم هذه السياسة، لقد حرموا جميعًا أعطية حنين، وهم الذين نودوا وقت الشدة فطاروا يقاتلون مع رسول الله ﷺ حتى تبدل الفرار انتصارًا، وها هم أولاء، يرون يدى الفارين تعود ملأى، أما هم فلم يمنحوا شيئًا قط..

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه: لما أصاب رسول الله ﷺ الغنائم يوم حنين، وقسم للمتآلفين من قريش وسائر العرب ما قسم، ولم يكن فى الأنصار شيء منها، قليل ولا كثير، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم حتى قال قائلهم: لقى والله رسول الله قومه، فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله فقال: يا رسول الله، إن هذا الحى من الأنصار وجدوا عليك فى أنفسهم؟ قال: «**فيم؟**» قال:فيم كان من قسمك هذه الغنائم فى قومك وفى سائر العرب، ولم يكن فيهم من ذلك شيء، قال رسول الله ﷺ: «**فأين أنت من ذلك يا سعد؟**» قال: ما أنا إلا امرؤ من قومى،فقال رسول الله ﷺ: «**اجمع لى قومك فى هذه الحظيرة فإن اجتمعوا فأعلمنى**»، فخرج سعد فصرخ فيهم فجمعهم في تلك الحظيرة،حتى إذا لم يبقَ من الأنصار أحد إلا اجتمع له أتاه، فقال: يا رسول الله اجتمع لك هذا الحى من الأنصار حيث أمرتنى أن أجمعهم، فخرج رسول الله، فقام فيهم خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «**يا معشر الأنصار، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم**»؟ قالوا: بلى. قال رسول الله: «**ألا تجيبون يا معشر الأنصار**»؟ قالوا: وما نقول يا رسول الله وبماذا نجيبك؟ المن لله ورسوله، قال ﷺ: «**والله لو شئتم لقلتم فَصَدقتُم وصُدِقتُم: جئتنا طريدًا فآويناك، وعائلاً فآسيناك وخائفًا فأمنّاك، ومخذولا فنصرناك**»، فقالوا: المن لله ورسوله، فقال: «**أوجدتم فى نفوسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة من الدنيا، تألفت بها قومًا أسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإِسلام، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن ذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟ فو الذى نفسى بيده، لو أن الناس سلكوا شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا**

---

(١)أخرجه البخارى (٣١٤٥).

لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار»، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا بالله ربًا، ورسوله قسمًا، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا[١].

والأنصار ـ في تاريخ الدعوات ـ مثل فريدة للرجال الذين تقوم بهم الرسالات العظمى فرغم كثرة ما بذلوه من مال وأنفس،لم يطلبوا لذلك أجرًا إلا من الله وحين استشرفت نفوسهم إلى بعض الغنائم،التى حظى بالكثير منها بعض مسلمة الفتح كانت كلمات الرسول لهم أقوى من كل غنيمة،وكان بقاؤه معهم ودعاؤه لهم أعظم من أى مال، فطابت بذلك نفوسهم،وفاضت بالدمع عيونهم شكرًا لله أن منَّ عليهم بالإيمان وهداهم لصحبة ونصرة رسول الإسلام ﷺ واعترفوا بذلك بصدق وشجاعة وهم يقولون:المنّ لله ورسوله.

وقد كان تأكيد الرسول ﷺ للأنصار بأنه باقٍ معهم وفاء منه لعهده معهم ليلة العقبة الكبرى قبل تسع سنوات حين قاطع أبو الهيثم بن التيهان كلام المتبايعين وقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال ـ يعنى اليهود ـ حبالاً وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «**بل الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم**»[٢]، هذا الوعد والعهد الذى قطعه الرسولﷺ على نفسه منذ تسع سنوات ظل ذاكرًا له محافظًا عليه، بل وأعلن تجديده فى عزم وقوة، بعد أن جمع سعد بن عبادة له الأنصار، وقد شاعت بينهم مقولة (لقى رسول اللهﷺ قومه)، فأعلن لهم الرسول رغم حبه لمكة، وهو الذى قال فيها عندما أخرج منها: «والله إنى لأعلم أنك أحبُّ أرض الله إلى الله ولولا أن أهلك

---

(١)سيرة ابن هشام ٤/ ١٤١، والحديث أخرجه البخارى (٤٣٣٧)، ومسلم (١٠٥٩) مختصرًا عن أنس رضي الله عنه، وأحمد (٣/ ٧٦) عن أبى سعيد الخدري رضي الله عنه واللفظ له.

(٢) أخرجه ابن هشام فى السيرة (١/ ٤٣٩ ـ ٤٤٣، ٤٤٧ ـ ٤٤٨) بإسناد حسن، وقد صححه ابن حبان كما نص ابن حجر فى الفتح (٧/ ٣٢١).

أخرجونى منك ما خرجت»[(١)]، ومع حبه الشديد لمكة إلا أنه يعلن فى الأنصار تمسكه بالعهد «لو أن الناس سلكوا شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا، لسلكت شعب الأنصار»، فلم يكن الوفاء بهذه العهود طلبًا لمصلحة ذاتية ولا مأثرة قومية ولا عادة جاهلية، وإنما كان تضحية عظيمة يتطلب الوفاء بها الصبر الجميل وإدراك أن ما عند الله خير للمتقين الأوفياء.

ومن نماذج الوفاء، ومن التزام الأوفياء ما صنعه أنس بن النضر فى معركة أحد، فقد حدثوا أنه قال: «يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين .. لئن أشهدنى الله قتال المشركين مع النبىﷺ ليرينّ ما أصنع»، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال أنس: «اللهم أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المسلمين - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المشركين - ثم تقدم يقاتل لا يدير ظهره، مقبلاً غير مدبر لا يلوى على شىء، يهتف: الجنة ورب النضر .. إنى لأشم ريحها دون أحد، فلما عثر عليه بعد المعركة وجد قتيلاً وبه بضع وثمانون ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح، وقد مثل به المشركون فما تعرّف عليه أحد إلا أخته»[(٢)]، وهذا أمر مفترض فى المسلمين، مطالبون به إلزامًا لا تطوعًا... قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[(٣)].

فهل هناك تضحية فى سبيل الوفاء أعظم من هذه التضحية التى جاد فيها هذا المسلم بنفسه لله؟ والجود بالنفس أقصى غاية الجود، لقد تمزق جسده ووجدت به جراحات شتى ولم يعرفه أحد غير أخته التى عرفته من بنانه، ولكن المسلمين لا يعرفون غير الوفاء حتى فى الأمور التى قد تبدو للعقول غير مقبولة، ذلك لأن المسلمين يتبعون كتاب الله الذى لا

(١) أخرجه الترمذى (٣٩٢١)، وابن ماجه (٣١٠٨)،والحاكم (٣/ ١٨٠)، وابن عبد البر فى التمهيد (٦/ ٣٢)، وقال: «وهذا أصلح الآثار عن النبى ﷺ».
(٢) أخرجه البخارى (٢٨٠٥)، وابن المبارك فى كتاب الجهاد (٦٣).
(٣) الأحزاب: ٢٣.

يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يتبعون أهواءهم ورغبات نفوسهم.

إن كتاب الله يقرر أخوة المؤمنين ويؤكدها فى قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾[١]، وهذه الأخوة الإيمانية تستوجب النصرة فى كل حين؛ لأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، ومع هذا فإن النصرة للمؤمنين لا تتم إذا كان بيننا وبين هؤلاء الكافرين عهد وموثق يقول سبحانه: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ﴾[٢]، فأى تضحية وكظم للغيظ تتحملها نفوس الصادقين من المؤمنين، وهم يجدون أن وفاءهم بالعهد يمنعهم من نصر إخوان لهم مؤمنين يستنصرون بهم فلا ينصرون، ويستغيثون فلا يغاثون، أتعرف المواثيق الدولية والأعراف العالمية شيئًا يقارب هذا أو يدانيه؟ وقد شاء الله أن يقف المسلمون الأولون من صحابة رسول الله ﷺ موقفًا عمليًا أثناء صلح الحديبية الذى كان من شروطه أن من أتى من قريش إلى المدينة ردّه الرسول ﷺ، ومن أتى قريشًا من المدينة لا يرده المشركون.

وكانت الشروط ما تزال تُسجل فى الوقت الذى جاء أبو جندل يحجل فى قيوده فارًا إلى المسلمين من تعذيب قريش يستغيث بهم، فقال المفاوض سهيل بن عمرو: يا محمد لقد تعاهدنا فلا تأخذوا هذا الصابئ، ويستغيث المسلم المقيد بالمسلمين أهل النخوة والنجدة، ويريد المسلمون أن يغيثوا من استغاث بهم، ولكن الرسول ﷺ يسلم المسلم إلى أبيه؛ لأن المعاهدة ملزمة، ورغم صياح المستغيث ودموعه ورغم عواطف المسلمين المهتاجة لنجدة أخيهم فإن الوفاء فوق كل عاطفة، وأكبر من أى ميل... ورغم ذلك فإن قريشًا لم تقبل الصلح إلا مكرهة بعدما كان من البيعة على الموت تحت الشجرة كما جاء فى سورة الفتح.

وتكرر هذا الموقف حين جاء أبو بصير مسلمًا إلى رسول الله ﷺ بعد صلح الحديبية فيرده الرسول ﷺ من حيث جاء مع حارسين جاءا من مكة يطلبانه، وكان الموقف فى هذه المرة لا

---

(١) الحجرات: ١٠.

(٢) الأنفال: ٧٢.

يقل فى صعوبته عن موقف المسلمين يوم رد الرسول أبا جندل،ولكن الإسلام الذى يعرف الوفاء لا يعرف الغدر، فهل وفّت قريش بعهدها، كلا إنها غدرت وخانت ونالت جزاءها على الغدر والخيانة، فأحلّها الله لرسوله ساعة من نهار فتحت فيها مكة وحطمت الأصنام وارتفع من فوق بيت الله الحرام الأذان.

حقًا لقد عرف للمسلمين وفاء لم يُعرف لغيرهم، وعهد منهم برّ لم يعهد فى سواهم، وكانت لهم دقة فى التنفيذ تستعصى على النظير إلا أن يكون منهم، فهذا واحد من الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك لما نجاه الله بالصدق عاهد رسول الله ﷺ على هذا الصدق فوفّى بما عاهد عليه أحسن الوفاء، ولقد تعرض من أجل هذا الوفاء إلى ضروب قاسية من البلاء، فلم يعدل عما عاهد عليه الله.

وهذه مجموعة من المسلمين عاهدهم رسول الله ﷺ على عبادة الله ثم أسر إليهم معاهدة خاصة ألا يسألوا الناس شيئًا فكانوا فى الوفاء بالعهد مضرب المثل.

إن الرسول ﷺ يعنى ألا يسألوا الناس شيئًا من أموالهم، ولكن هؤلاء بالغوا فى الوفاء، حتى كان الواحد منهم إذا سقط سوطه وهو راكب نزل عن دابته فتناول سوطه دون أن يسأل أحدًا أن يناوله إياه.

فانظر إلى الوفاء بالبيعة ودقة تنفيذها، وليس هذا إلا نصحًا لكل طائفة بما تعتبر أحوج إليه، فالحاكم ينصح ألا يظلم، والتاجر ألا يغش، والموظف ألا يرتشى... إلخ، وإلا فكل مسلم مكلف بالدين كله، وقد ظهرت فى بلاد الإسلام فرق تعطى عهودًا خاصة لا ينبغى الاكتراث بها، فهم كأدعياء الطب الذين يصفون الأدوية المزورة فلا تزيد المرضى إلا سقامًا[1].

ونختم هذا الفصل بنموذج قد يعتبر ـ الآن فى عصرنا ـ غريبًا فى وفائه، لأنه نموذج لم يتعوده الناس إنه النموذج الذى ذكره الإمام ابن العربى فى كتابه أحكام القرآن قال: «ومن

(١) خلق المسلم: للغزالى.

أعظم المواثيق فى الذكر ألا تسأل سواه، فقد كان أبو حمزة الخراسانى من كبار العباد سمع أن أناسًا بايعوا رسول الله ألا يسألوا أحدًا شيئًا فكان أحدهم إذا وقع سوطه لا يسأل أحدًا رفعه إليه، فقال أبو حمزة: رب إن هؤلاء عاهدوا نبيك إذ رأوه، وأنا أعاهدك ألا أسأل أحدًا شيئًا أبدًا،فقال: فخرج حاجًا من الشام يريد مكة، فبينما يمشى فى الطريق بالليل إذ بقى عند أصحابه لعذر، ثم اتبعهم، فبينما هو يمشى إليهم إذ سقط فى بئر على حاشية الطريق، فلما حصل فى قعره قال: أستغيث، لعل أحدًا يسمعنى فيخرجنى، ثم قال: إن الذى عاهدته يرانى ويسمعنى، والله لا تكلمت بحرف لبشر، ثم لم يلبث إلا يسيرًا إذ مر بتلك البئر نفر، فلما رأوه على حاشية الطريق قالوا: إنه لينبغى سد هذه البئر، ثم قطعوا خشبًا، ونصبوها على فم البئر وغطوها بالتراب، فلما رأى ذلك أبو حمزة قال: هذه مهلكة، فأراد أن يستغيث بهم، ثم قال: والله لا أخرج منها أبدًا، ثم رجع إلى نفسه فقال: أليس الذى عاهدت يرى ذلك كله، فسكت وتوكل، ثم استند فى قعر البئر مفكرًا فى أمره، فإذا بالتراب يقع عليه والخشب يرفع عنه، وسمع فى أثناء ذلك من يقول: هات يدك، قال فأعطيته يدى، فأقلنى فى مرة واحدة إلى فم البئر، فخرجت ولم أرَ أحدًا ثم سمعت هاتفًا يقول: كيف رأيت ثمرة التوكل؟ وأنشد:

نهانى حيائى منك أن أكتم الهوى ... وأغنيتنى بالعلم منك عن الكشف

تلطفت فى أمرى فأبديتَ شاهدى ... إلى غائبى واللطفُ يدركَ باللطف

تراءيتَ لى بالعلم حتى كأنما ... تخبرنى بالغيب أنك فى كفى

أرانى وبى ومن هيبتى لك وحشةٌ ... فتؤنسنى باللطف منك وبالعطف

وتحى محبا أنت فى الحب حتفُهُ ... وذا عجبٌ كون الحياة من الحتف

فهذا الرجل عاهد الله، فوجد الوفاء على التمام والكمال، فبه فاقتدوا تهتدوا[1].

وهكذا يكون الوفاء، فالوفاء المبنى على تحقيق مصلحة، إنما هو وفاء منقوص أو

(١) أحكام القرآن: لابن العربى (٣/ ١١١١ ـ ١١١٢).

منقوض إذ لولا المصلحة ما تحقق، ووفاء المسلمين فى جميع الحوادث الفردية والجماعية التى اطلعنا عليها إنما كان مبناه ومحتواه التضحية الكاملة من أجل أن يتحقق، فهل عرفت دولة غير إسلامية فى الشرق أو فى الغرب وفاء التضحيات؟ كلا بل إن دورها اقتصر على وفاء المصالح والمنافع لا المبادئ والمغارم، فلماذا تحمل المسلمون كل هذه التضحيات فى سبيل الوفاء؟ لأن الوفاء جزء من الدين، والغدر والخيانة حرمهما الدين فمن تمسك بدينه ضحّى فى سبيله، ومن لم يتمسك فسوف يلقى جزاءه عند الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [(١)]، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [(٢)]، لقد ارتبط نقض العهد بالفسوق، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، وبالفساد فى الأرض، مما يدل على أن الذين ينقضون العهد تتمزق مجتمعاتهم وتتقطع أواصرهم، وينتشر بينهم الفساد، ويشيع فيهم العصيان قال سبحانه: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [(٣)]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [(٤)]، إن أى تضحية مهما علا قدرها فى سبيل الوفاء بالعهد هى أهون وأقل من أن يوصم المسلمون بالخسران وأن تحل عليهم اللعنة، وأن ينالوا سوء الدار أو سوء المصير، ومن ثم التزم المسلمون بالوفاء بالعهود، امتثالا للأمر الإلهى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ﴾ [(٥)]، ضحّوا فى سبيل الوفاء أم لم يضحّوا نالوا من الغنم أو وقع عليهم الغرم، فالهدف الأساسى هو الوفاء طاعة لله أولاً ثم هروباً من الخيانة والغدر ثانياً، ثم إحلالاً للثقة بين المسلمين بعضهم بعضاً أو بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب أو من الأمم الأخرى، فى أقوالهم وأفعالهم، حتى تظل للقيم رفعتها، وللمبادئ سموها ونضارتها.

---

(١) الأنفال: ٥٨.
(٢)الفتح: ١٠.
(٣) البقرة: ٢٦، ٢٧.
(٤) الرعد: ٢٥.
(٥) المائدة: ١.

المبحث الخامس
الحث على الوفاء والتحذير من الغدر

المسلمون يعلمون أن الوفاء خلق من أخلاق الإسلام يحقق للإنسان المتخلق به كرامته،ويرفع به عند الله وعند الناس درجته،وأن الغدر خسَّةٌ ومأثم يأباهما الإسلام، فكيف لمسلم أن يلوث نفسه بالغدر وأن يجمع فى حصيلة عمله عند الله إثمًا بعدم وفائه بعهده، فيكون بذلك من الناكثين، الذين أخذوا صفة المنافقين «وإذا عاهد غدر»(١)؟ ولا يجتمع الوفاء والغدر فى مسلم فى آن واحد إلا إذا اجتمع الإيمان والنفاق فى قلب واحد، ولا غرو،فقد تتابعت آيات القرآن،تحض على الوفاء وتخوف من الغدر: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾(٣).

وقد بيَّن الله ـ عز وجل ـ أن الغدر ينزع الثقة، ويثير الفوضى، ويمزق الأواصر، ويرد الأقوياء ضعافًا واهنين، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾(٤).

المغنم بالغدر مذموم:

والدين يكره أن تداس الفضائل فى سوق المنفعة العاجلة، ويكره أن تنطوى دخائل الناس على هذه النيات المغشوشة، ويوجب الشرف على الفرد والجماعة حتى تصان العقود على الفقر والغنى، وعلى النصر والهزيمة

---

(١) أخرجه البخارى (٣٤) ومسلم (٥٨) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٢) الإسراء: ٣٤.
(٣) النحل: ٩١.
(٤) النحل: ٩٢.

ولذلك يقول الله ـ بعد الأمر الجازم باحترام العهود: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾[1].

والوفاء بالحق واجب مع المؤمن بالإسلام والكافر به، وواجب حتى مع الخائنين؛ لأن تعامل المسلمين بالوفاء ليس ثمنًا لوفاء الآخرين، فالوفاء بالعهد فى الإسلام كصلة الرحم سواء بسواء، والرسول ﷺ يقول فى صلة الأرحام: «**ليس الواصل بالمكافئ، وإنما الواصل مَنْ إذا قطعت رحمه وصلها**»[2]، فبين أن صلة الأرحام لا تقوم على مكافأة الآخرين على صلتهم، بل إنها لازمة على المرء سواء وصله الآخرون أم قطعوه، وكذلك العهد ليس بلازم الوفاء به لمن يوفون بعهودهم معك ولا يغدرون، بل يلزم الوفاء به لمن وفّى بعهده، وحتى لمن خان من قبل فى عهد آخر ولذا قال رسول الله ﷺ: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»[3]، وقد التزم المسلمون فى عهودهم الوفاء دائمًا لم يتهاونوا بعهد، ولم ينكثوا به بل كان حرصهم على الوفاء يقتضى التحوط فى الأمر، بحيث يقيمون بينهم وبين الغدر سدودًا وحواجز، ويجعلون بينهم وبين الوفاء روابط وأواصر.

وهذا معاوية بن أبى سفيان كان بينه وبين الروم عهد قارب الانتهاء، وأراد معاوية أن يسيِّر جيوشه قرب حدود الروم حتى إذا ما انتهى أمد العهد،حرك جيوشه نحوهم، ولكنه يجد من بين الصحابة عمرو بن عبسة ينهاه عن ذلك، ويبين له قول رسول الله ﷺ فى هذا الأمر، ويفهم من هذا القول أن المدة الزمنية القائمة فى تقدير الروم للسير إليهم بالجيوش نحوهم ينبغى أن تلحق بالعهد الذى يجب الوفاء به، وهذا تحرز من المسلمين فى ألاّ يشوب وفاءهم أى شائبة من غدر أو تنقص منه أو أى بادرة يشتم منها عدم الوفاء.

---

(١) النحل: ٩٤، ٩٥.

(٢) أخرجه البخارى (٥٩٩١).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٧٥٩)، والترمذى (١٥٨٠)، وأحمد (٤/ ١١١ ـ ١١٣) عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه، وصححه الألبانى.

عن سليم بن عامر ـ رحمه الله ـ قال: «كان بين معاوية وبين الروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم ليقرب، حتى إذا انقضى العهد غزاهم، فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدر، فإذا هو عمرو بن عبسة، فأرسل إليه معاوية فسأله، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:«**من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدّ عقدة ولا يحلّها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء**»[(١)]، فرجع معاوية، وجاء فى شرح الحديث:

ومعنى وفاء لا غدر أى: بعيد من المؤمنين وأمة محمد ﷺ عليها ارتكاب الغدر، وإنما كره عمرو بن عبسة ذلك، لأنه إذا هادنهم إلى مدة وهو مقيم فى وطنه، فقد صارت مدة مسيره بعد انقضاء المدة الضرورية كالمشروط مع المدة فى أن يغزوهم فيها، فإذا سار إليهم فى أيام الهدنة كان إيقاعه قبل الوقت الذى يتوقعونه، فعدّ عمرو ذلك غدرًا.

وإن نقض أهل الهدنة أو ظهر منهم خيانة فله أن يسير إليهم على غفلة[(٢)].

وهذه الحساسية فى التحوط فى الوفاء بالعهد من المؤمنين، بحيث يبتعدون عن كل سبيل قد يؤدى إلى الغدر والخيانة ظلت ملازمة لهم، طالما تمكّن الإيمان من قلوبهم، وكان الدين هو الموجه لحياتهم والمهيمن على تصرفاتهم لأنهم يخافون عاقبة الغدر والخيانة، التى تجلب عليهم سخط الله وغضبه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾[(٣)]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾[(٤)]، ومع سخط الله وغضبه يكون الشك فى التصرفات هو الغالب على حياة الناس، وتنزع الثقة من بينهم، وتعمّ الفوضى بينهم، وتتعقد الحياة وتتعسر شؤونها ويصيبهم الضعف، بحيث يتجرأ عليهم الآخرون، وهذا ما أخبر به رسول الله ﷺ فيما ذكره أبو هريرة رضي الله عنه وهو يقول للناس: «كيف أنتم إذا لم تجتبوا درهمًا ولا دينارًا؟ فقيل له: وكيف ترى ذلك كائنًا يا أبا هريرة؟»، قال: «إى والذى نفس أبى هريرة بيده عن الصادق

(١)انظر: جامع الأصول ٢/ ٦٤٧، ٦٤٨.
(٢)أخرجه البخارى (٣١٨)، وأحمد (٢/ ٣٣٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه .
(٣) الأنفال: ٥٨.
(٤) الحج: ٣٨.

المصدوق»، قالوا: عم ذلك؟ قال: «تنتهك ذمة الله وذمة رسوله، فيشد الله قلوب أهل الذمة فيمنعون ما فى أيديهم»(١)، وأهل الذمة اليوم لا يمنعون ما فى أيديهم فقط، بل تجاوز الأمر كل احتمال، وبلغ السيل الزبى كما يقولون، لأن غير المسلمين يحاربون اليوم المسلمين، ويكيدون لهم وينتزعون الأرض من تحت أقدامهم فى بعض الأحوال، فما مرد ذلك وما مرجعه؟ لا مرجع ولا مرد إلا ما أخبر به رسول الله ﷺ انتهك المسلمون ذمة الله وذمة رسوله فشد الله قلوب الأعداء ففعلوا من غير أن يجدوا نكيرًا فأى عقوبة دنيوية أعظم من ذلك؟

والمسلمون لم ينتهكوا ذمة الله وذمة الرسول فيما بينهم وبين الأعداء فقط، بل فيما بينهم وبين أنفسهم وفيما بينهم وبين الله ورسوله، وأولى بهم أن يعودوا للوفاء بالعهود والعقود بينهم وبين الله أولاً ثم بينهم وبين غيرهم من الناس مسلمين وغير مسلمين، حتى لا تلحقهم اللعنة التى لحقت بنى إسرائيل حين نكثوا المواثيق ونقضوا العهود فكتب الله عليهم الذلة، وأصابتهم اللعنة، فقست قلوبهم بعد أن طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً.

قال سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾(٢).

يقول المرحوم سيد قطب عن بنى إسرائيل الذين ورد الحديث عنهم فى هذه الآية: لقد نقضوا ميثاقهم مع الله، قتلوا أنبياءهم بغير حق، وبيتوا القتل والصلب لعيسى عليه السلام وهو آخر أنبيائهم، وحرّفوا كتابهم وهو التوراة ونسوا شرائعها فلم ينفذوها،ووقفوا من خاتم الأنبياء ﷺ موقفًا لئيمًا ماكرًا عنيدًا، وخانوه وخانوا مواثيقهم معه، فباءوا بالطرد من هدى الله،وقست قلوبهم، فلم تعد صالحة لاستقبال هذا الهدى، ثم يقول:وطابعهم الأصيل هو

---

(١) أخرجه البخارى (٣١٨)، وأحمد (٢/ ٣٣٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه .
(٢) المائدة: ١٣.

تحريف الكلم عن مواضعه تحريف كتابهم أولاً عن صورته التى أنزلها الله على موسى ـ عليه السلام ـ إما بإضافة الكثير إليه مما يتضمن أهدافهم الملتوية وتبريرها بنصوص من الكتاب مزورة على الله، وإما بتفسير النصوص الأصلية الباقية وفق الهوى والمصلحة والهدف الخبيث، ونسيان وإهمال لأوامر دينهم وشريعتهم وعدم تنفيذها فى حياتهم ومجتمعهم، لأن تنفيذها يكلفهم الاستقامة على منهج الله الطاهر النظيف القويم، ثم يضيف عند حديثه عن قول الله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[1] يضيف: وهو خطاب للرسولﷺ يصور حال يهود فى المجتمع المسلم فى المدينة، فهم لا يكفّون عن محاولة خيانة رسول الله ﷺ، وقد كانت لهم مواقف خيانة متواترة، بل كانت هذه هى حالهم طوال إقامتهم فى المدينة ـ ثم فى الجزيرة كلها ـ وما تزال هذه حالهم فى المجتمع الإسلامى على مدى التاريخ، على الرغم من أن المجتمع الإسلامى هو المجتمع الوحيد الذى آواهم، ورفع عنهم الاضطهاد، وعاملهم بالحسنى ومكّن له من الحياة الرغيدة فيه، ولكنهم كانوا دائمًا ـ كما كانوا على عهد الرسول ـ عقارب وحيات وثعالب وذئابًا تضمر المكر والخيانة، ولا تنى تمكر وتغدر، إن أعوزتهم القدرة على التنكيل الظاهر بالمسلمين، نصبوا لهم الشباك وأقاموا لهم المصائد وتآمروا مع كل عدو لهم، حتى تحين الفرصة فينقضّوا عليهم. قساة جفاة لا يرحمونهم ولا يرعون فيهم إلا ولا ذمة، أكثرهم كذلك كما وصفهم الله ـ سبحانه ـ فى كتابه، وكما أنبأنا عن جبلتهم التى أورثها إياهم نقضهم لميثاق الله من قديم.

ثم يردف الشيخ سيد قطب ـ رحمه الله ـ قوله: «والتعبير القرآنى الخاص عن واقع حال اليهود مع رسول اللهﷺ فى المدينة تعبير ظريف: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، الفعلة الخائنة، والنية الخائنة، والكلمة الخائنة،والنظرة الخائنة،يجملها النص بحذف الموصوف وإثبات الصفة «خائنة» لتبقى الخيانة وحدها مجردة،تملأ الجو،وتلقى ظلالها وحدها على القوم، فهذا هو جوهر جبلتهم، وهذا هو جوهر موقفهم، مع الرسول

(١) المائدة: ١٣.

ﷺ ومع الجماعة المسلمة.

إن هذا القرآن هو معلم هذه الأمة ومرشدها ورائدها، وحادى طريقها على طول الطريق، وهو يكشف لها عن حال أعدائها معها، وعن جبلتهم وعن تاريخهم مع هدى الله كله، ولو ظلت هذه الأمة تستشير قرآنها، وتسمع توجيهاته، وتقيم قواعده وتشريعاته فى حياتها ما استطاع أعداؤها أن ينالوا منها فى يوم من الأيام.. ولكنها حين نقضت ميثاقها مع ربها، وحين اتخذت القرآن مهجورًا، وإن كانت ما تزال تتخذ منه ترانيم مطربة وتعاويذ ورقى وأدعية، أصابها ما أصابها، ولقد كان الله ـ سبحانه ـ يقص علينا ما وقع لبنى إسرائيل من اللعن والطرد وقسوة القلب، وتحريف الكلم عن مواضعه، حين نقضوا ميثاقهم مع الله، لتحذر أن تنقض هى ميثاقها مع الله، فيصيبها ما يصيب كل ناكث للعهد، ناقض للعقد، فلما غفلت عن هذا التحذير، وسارت فى طريق غير الطريق نزع الله منها قيادة البشرية، وتركها هكذا ذيلاً فى القافلة، حتى تثوب إلى ربها، وحتى تستمسك بعهدها، وحتى توفّى بعهدها، فيفى لها الله بوعده من التمكين فى الأرض، ومن القيادة للبشر، والشهادة على الناس،وإلا بقيت هكذا ذيلاً للقافلة، وعد الله لا يخلف الله وعده» [1].

منافذ الغدر وأسبابه:

الغفلة والنسيان، وضعف الهمة وتراخى العزيمة مع الحسد والهوى، هى أهم الأسباب المؤدية إلى الغدر ونقض العهد، وهى كلها ضروب من الوهن الذى يصيب الأفراد ثم الجماعات نتيجة سوء التربية، فيتساوى لديها التقدم والتقهقر، والحركة والسكون، لا تبالى أنهضت من عثرتها أو سقطت فى قرار سحيق، ولذا فقد جاء التحذير منها وتنبيه المسلمين إلى خطورة الركون إليها أو الانغماس فيها.

فالله ـ سبحانه ـ حذّر نبيه من الغفلة بقوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [2]، والنهى هنا

---

(١) فى ظلال القرآن (٢/ ٦٧٧ ـ ٦٧٩) ط الخامسة، دار إحياء التراث.

(٢) الأعراف: ٢٠٥.

مسوق لكل مسلم أن يتوخى اليقظة فى حركته وفى سلوكه فى الحياة، وفى عهوده ومواثيقه وأن يبتعد عن الغفلة والنسيان؛ إذ هما سبيل كل مضرة قد تنزل بصاحبها فتهلكه، ولذا قال الله عن قوم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [1]، وجاء على لسان موسى عليه السلام وهو يخاطب فرعون ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [2].

فالنسيان مذمة وصفة نقص لا تليق بذات الله المتصف بكل كمال، والإنسان مطلوب منه أن يتخلق بصفات الله ـ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ـ ولذا فمحاولة التذكر الدائم من الإنسان تجعله يفى بعهده،وإذا نسى أو غفل فقد أضاع العهد وباء بالغدر والإثم.

وهذا آدم ـ أبو البشر ـ أصابه النسيان والضعف فأكل من الشجرة التى نهاه الله عنها فوقع فيما سجله عليه القرآن الكريم فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [3].فالذكر الدائم والهمة العالية هما دافعان قويان لتحقيق العهد والوفاء به.

والذكر المطّرد اليقظ، ضرورة لازمة الوفاء،فمن أين لناسى العهد أن يفى به؟ لذلك ختمت آية العهد بعنصر التذكير ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [4].

فإذا ذكر المرء الموثق المأخوذ عليه، يجب أن ينضم إلى هذا الذكر عزم مشدد على إنفاذه، عزم يذلل الأهواء الجامحة، ويهون الصعاب العارضة، عزم يمضى فى سبيل الوفاء مهما تجشم من مشاق، وغرم من تضحيات.

وأقدار الرجال تتفاوت تفاوتًا شاسعًا فى هذا المضمار، فإن ثمن الوفاء قد يكون فادحًا، قد يكلف المال أو الحياة أو الأحبة، بيد أن هذه هى تكاليف المجد المنشود فى الدنيا والآخرة:

---

(١)الأنعام: ٤٤، ٤٥.
(٢) طه: ٥٤.
(٣)طه: ١١٥.
(٤)الأنعام: ١٥٢

لولا المشقة ساد الناس كلهم　　　الجود يفقر والإقدام قتال

ولقد استنكر القرآن الكريم على بعض الأفهام أن تطلب العلا بالراحة، وأن ترقب الخير الكثير بالجهاد اليسير. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[1].

وعندما يستجمع الإنسان الذهن الواعى، والقلب الكبير، فهو أهل الوفاء[2] وإذا غفل المرء عما هو مطلوب منه،ونسى ما هو موكول إليه وقع فى الغدر، ووصم بالخيانة.

والهمة العالية والعزيمة الماضية قوة فى الإنسان تجعله يتحمل التضحيات، ولا يبالى بالمغارم، ويترفع عن الدنايا والماديات ولا ينظر إلى مصلحة قريبة يفر بها من تبعات الوفاء، بل إن الوفاء عنده يعدل، بل يفوق كل هذه المصالح لأنه دليل على قوة معنوية عالية ترفع الإنسان عن عالم الحيوان؛ ليصير ذا إرادة يتمتع بها ويتصرف فى سلوكه تبعًا لها، وليس صاحب شهوة أو لذة فى مطعم أو مشرب أو غيرهما، متى أتيحت له فلا عهد ولا موثق، فينحط كما تنحط الحيوانات ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾[3].

وليس المؤمن الوفى كذلك، فإرادته القوية، وعزيمته الماضية، وهمته العالية التى يبعثها الإيمان ويمدها بالتوهج الدائم تجعله من الأوفياء،لا من الخائنين الغادرين فإذا ضعفت الهمة وخارت العزيمة، وكثرت المغريات، وتراقصت أمام الإنسان الشهوات فلا وفاء يرجى،ولا ميثاق يوفّى به، وكيف يكون وفاء يتطلب التضحيات والنفوس قد ضعفت؛ لأن نبع الإيمان فى القلوب غير دفاق ولا رقراق، حينئذ يتسرب الغدر إلى العهود فيمحقها، كما تتسرب كثير من مفاهيم الدين من قلوب أصحاب الغفلة والنسيان أو

(١)البقرة: ٢١٤.

(٢)خلق المسلم، للغزالى.

(٣)محمد: ١٢.

أصحاب الهمة الفاترة الذين يصيبهم الخسران.

فاعمل أخى المؤمن على أن تشتعل فيك جذوة الهمة، فتنير لك سبيل الوفاء وكل سبيل فى الحياة قويم، وتدفع عنك ظلمة الغدر، وكل ظلمة سلوك بهيم.

ونأتى إلى الحسد، الذى يجعل الحاسد لا همّ له إلا ذهاب النعمة عن المحسود، فإذا بقيت النعمة ولم تزل عن المحسود، ظل قلبه يشتعل نارًا، فلا يهدأ له بال، ولا يستقر به قرار، فهل يستطيع حاسد أن يفى بعهد لمحسود؟ ولأنه أمر خطير أمرنا الله سبحانه أن نستعيذ به من شرور كثيرة منها شر الحسد فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾[1].

وغالبًا ما يتم ذلك بين أصحاب المهنة الواحدة، فترى القادة العسكريين مثلاً يحسد بعضهم بعضًا ويشغب بعضهم بعضًا على بعض ونادرًا ما يفى أحدهم للآخر، وترى ذلك فى كل أصحاب الشأن الذين يعملون فى مجال واحد، ويعرف بعضهم بعضًا، ولقد أصاب هذا الداء داء الحسد بعض الدعاة فتراه ينفس على فلان الداعية شهرته أو علمه أو قبوله لدى الناس، كلمته المسموعة عند أصحاب النفوذ أو غير ذلك مما يجعل هذا التنافس مدعاة للغدر والخيانة عند أول بادرة تلوح فى الأفق، ولا يكاد يسلم من هذا الداء إلا من عصمه الله بقوة الإيمان وسلامة الصدر والخشية من الله وحده، ودفع الهوى بعيدًا عن مطالب النفس، والخضوع لأحكام الله وطلب الاحتكام إليها فى كل حين، وبذلك قد ينجو الإنسان من أن يكون من الغادرين الآثمين.

(١) الفلق: ١ ـ ٥.

المبحث السادس
جزاء الغادرين

القرآن يقص علينا جزاء الذين غدروا بعهدهم، حين طلبوا من الله أن يؤتيهم من فضله على أن يتصدقوا منه، ويكونوا من المنفقين، واستجاب الله سبحانه لهم، وهو عليم بما يفعلون، فلم يوفّوا ـ بعد أن حقق الله لهم مطلبهم ـ بعهدهم، فأعقبهم الله نفاقًا فى قلوبهم لا يتحولون عنه إلا أن يموتوا وهم فى نفاقهم، فينالوا عذاب المنافقين، وجزاء الغادرين قال سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾(1).

اليهود ونقض العهود:

حين هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وضع بينه وبين اليهود فى المدينة صحيفة تبين معالم العلاقة بين المسلمين واليهود، وتبين التزامات كل طرف نحو الآخر، وصارت هذه الصحيفة بمثابة العقد المكتوب الذى ينبغى الوفاء به من كلا الطرفين، ولكن طبيعة الغدر عند اليهود لازمتهم فلم يوفّوا بعهدهم، وخانوا أمانتهم على الرغم من وفاء الرسول ﷺ، وصدق فيهم قول الله: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾(2).

خان بنو قينقاع عهدهم مع الرسول فكشفوا سوأة امرأة مسلمة ذهبت لتبيع ذهبها فى السوق، وساوموها على كشف وجهها فأبت، فخاط شقى من أشقيائهم طرف ثوبها بأعلاه وهى جالسة مشغولة بالبيع فلما قامت انكشفت سوأتها فصاحت متألمة لذلك وهم يضحكون منها، وكان بالقرب منها رجل مسلم أدرك صيحتها، فانقض على اليهودى

---

(١) التوبة: ٧٥ ـ ٧٧.

(٢) البقرة: ١٠٠.

فقتله، وتكالب عليه اليهود فقتلوه، وحاصرهم الرسول ﷺ ثم أجلاهم عن المدينة[١].

وحاول بنو النضير أن يقتلوا رسول الله ﷺ حين ذهب إلى ديارهم ليطلب منهم - حسب الاتفاق معهم - أن يشتركوا مع المسلمين فى دفع ديتين لرجلين قتلهما المسلمون خطأ، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، فاجلس هاهنا حتى نجمع لك ما تريد، وائتمروا بينهم على أن يصعد رجل منهم إلى سطح المنزل فيلقى على الرسول حجرًا، فيقضى عليه، وهمّوا بتنفيذ مؤامرتهم، التى لم تنجح لأن الله - سبحانه - أخبر رسوله بتدبيرهم فقام منصرفًا عنهم إلى المدينة، ولحق به المسلمون الذين كانوا فى صحبته بعد ذلك، وكان هذا منهم نقضًا لعهدهم مع رسول الله ﷺ، وانتهى أمرهم بأن حاربهم رسول الله ﷺ وأجلاهم عن المدينة.

وجاءت غزوة الأحزاب تحمل للمسلمين عبئًا كبيرًا، وهمًا ثقيلاً زاد من ثقله وألمه أن المسلمين علموا أن بنى قريظة نقضوا العهد مع المسلمين وظاهروا وناصروا الأحزاب فزلزلوا لذلك زلزالاً شديدًا سجله القرآن الكريم ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾[٢]، وثبت المسلمون أمام الكارثة، حتى انقلب الأحزاب منهزمين إلى ديارهم، وحاصر المسلمون بنى قريظة زمنًا، فنزلوا على أن يحكم فيهم سعد بن معاذ، فحكم بقتل رجالهم وسبى ذراريهم ونسائهم.

وكان هذا جزاء غدرهم وخيانتهم: ﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾[٣].

وهكذا هم اليهود لا يعرفون عهدًا ولا موثقًا، لقد قتلوا أنبياء الله من قبل، ونقضوا

(١) راجع سيرة ابن هشام، وفقه السيرة: للغزالى، ودراسات فى السيرة: للدكتور عماد الدين خليل.
(٢) الأحزاب: ١٠، ١١.
(٣) الأنفال: ٥٦.

عهودهم مع رسول الله ﷺ حينما لاحت لهم أول بادرة من فرصة ظنوها مواتية لنقض العهد، ولم يرقبوا ذمة فى عهد قطعوه، ولا فى ميثاق وافقوا عليه وأعلنوه، فكان جزاؤهم ما حدثناك به من قبل، واليوم يعاودون الكرة، ويحاولون أن يقتنصوا المصلحة الظاهرة لهم فى صلحهم ـ المزعوم ـ مع العرب عن طريق معاهدات السلام، التى تعقد بين الإسرائيليين والدول الإسلامية، وما هى فى الواقع بمعاهدات سلام، ولكنها صكوك اعتراف من الدول الإسلامية باغتصاب أرض فلسطين، وتشريد المسلمين فيها، والتوغل فى البلاد الإسلامية لامتصاص الخيرات، والتهديد عند اللزوم باستخدام السلاح النووى المرعب لمن لم يرتضِ طريق الاستسلام، ويعلن عن انبهاره بمعاهدات السلام التى تضمن لليهود كل شىء ولا تضمن للعرب والمسلمين أى شىء، وعلى الرغم من ذلك كله فإن اليهود لن يوفوا بعهودهم وستثبت الأيام ـ عما قريب ـ صدق ما نقول؛ لأننا نستند فى حكمنا إلى قول الله فى كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٠﴾[1]، وقد ظهرت بوادر نقضهم للعهود، فلقد أعلن رئيس وزراء إسرائيل أن المواعيد المتفق عليها فى «أوسلو» ليست مقدسة، وهذا منه أول الغيث، وسوف يتتابع هذا النقض للعهود حتى تفرغ معاهدات السلام من مضمونها وتبقى حبرًا على ورق، لا يتمسك بها غير الواهمين.

نقض قريش العهد:

وقريش كذلك حين نقضت صلح الحديبية بعد عامين فقط من توقيعه حين أيدت وناصرت حليفتها قبيلة بكر ضد خزاعة التى حظيت بتأييد المسلمين لها لأنها انضمت إليهم بعد صلح الحديبية ماذا كان جزاؤها؟ سيّر لها الرسول ﷺ عشرة آلاف مقاتل دخلوها فى ساعة من نهار، فكان نقض العهد فى غير صالح قريش، التى كان صلح الحديبية قد قرر مدة الهدنة بين الفريقين عشر سنين.

---

(١) البقرة: ١٠٠.

فجزاء الغدر خسران فى الدنيا والآخرة سواء أكان على مستوى الأفراد أو الجماعات أو الأمم والدول على السواء، إن الأشخاص والجماعات والأمم التى لا عهد لها تفقد الثقة بين الناس، وتعم فيها الخيانة، ويسودها اضطراب فى القيم، وتبلد فى الأخلاق،وفساد فى الإدارات، وربما شاعت فيها الرشوة والكذب والزور والبهتان وغير ذلك مما يضر بالأمة فى عاجلها وآجلها.

والمسلمون مأمورون أن يحافظوا على العهود مهما كانت المغارم ومهما كثرت التضحيات، فإن هم خافوا الخيانة من الآخرين فعليهم أن يعلنوهم بذلك تحقيقًا لقول الله: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[١].

فلماذا تنكَّب المسلمون جادة الطريق، فصار الكثيرون منهم لا يتمسكون بالوفاء ولا يحرصون على أن يضحوا فى سبيله؟ لقد بعد الوفاء عن الحياة العملية للمسلمين فى كثير من الشؤون والمصالح فضعف إنتاجهم وتأخّر ركبهم وسبقهم غيرهم.

إن الشكوى باتت مريرة فى هذه الأيام بسبب انتشار ظاهرة الغدر، وما تجره من فقدان الثقة فى العلاقات الاجتماعية عامة، وقلما تنجو منها مؤسسة فى عالم التجارة والاقتصاد،حيث لا يراعى كثير من الشركاء فيمن ائتمنوهم إلاّ ولا ذمة،فتمحق البركة وتكثر الخسائر،حتى المؤسسات التربوية، تلك التى كان يتوقع منها أن تغرس الفضيلة ونور العلم والتوجيه، بات بعضها يضرب أمثلة سيئة من الغدر والكيد وانعدام الوفاء.

إن ترجمة أخلاق الإسلام إلى شباب هذه الأمة، ليست نظريات تلقى فى فراغ، ولا محاضرات وادعاءات،إنما قدوة حسنة وسلوك واقعى فذّ فى عالم الناس والشباب خاصة.

إنها واجب دينى تفرضه علينا تعاليم ديننا ومصلحة أمتنا وأمانة البلاغ، إن تصورات العقيدة إذا لم تتحول إلى سلوك عملى ينسجم مع هذه التصورات، سوف يوقع الأجيال الناشئة فى إحباط شديد، وتمزق مرير، وتساؤل عجيب بسبب الانفصام بين النظرية

---

(١)الأنفال: ٥٨.

والتطبيق.

إنها لأمانة ضخمة في أعناق دعاة هذا الدين، فليصدقوا الله في أداء هذه الأمانة، وليضربوا النماذج الحية في الوفاء ومكارم الأخلاق، والأمل كبير في الأجيال المؤمنة الجادة لتعود بهذه الأمة إلى سابق مجدها ونظافة أخلاقها، وصفاء عقيدتها، والله ولي التوفيق[1].

(١) مجلة البيان العربي العدد (٣٢) سبتمبر ١٩٩٠م من مقال الأستاذ/ محمد ناصر.

الخـــاتمة

لقد عشت معنا ـ أخى القارئ ـ لحظات ليست طويلة فى ظل هذه الرسالة رأينا معًا فيها الوفاء فى أجلى صوره، والرسول ﷺ يثبّت دعائمه فى حياة المسلمين، كما يثبّت كل معنى كريم، ورأينا نماذج لوفاء الصحابة من الأنصار والمهاجرين، وعلمنا بعض تضحياتهم فى هذا السبيل، من غير أن يقصدوا من الدنيا مغنمًا بل قصدوا بذلك أن يكون لهم فى الآخرة نصيب من الأجر والثواب لا يضيع عند رب العالمين، وهؤلاء هم قدوتنا التى بها نقتدى، وعلى خطاها نسير، وفى ضوء منهجها نحيا، لأنهم خير من اتبع رسول الله ﷺ وهو المبلغ عن رب العالمين.

إن لنا فى كتاب ربنا ذكرى وعبرة وعظة، ولنا فى حياة رسولنا قدوة صالحة وأسوة حسنة ولنا فى حياة الصحابة بيانًا عمليًا سلوكيًا، استعلى فيه الإيمان برسالة السماء على التثاقل للأرض، والتشاغل بمتاع الحياة القليل.

لقد تجاوبت فى نفوس المؤمنين جوانب الدين، وامتزجت عناصر الإيمان كلها فى قلوبهم فأحيت فى نفوسهم ما كان ميتًا، وحركت ما كان ساكنًا، وألهبت ما كان خامدًا، فهل يعود مسلمو اليوم إلى سيرة أسلافهم العظام، يعلونها من جديد بين العالمين، بكل جوانبها العقدية والعبادية والأخلاقية، بعد امتزاجها فى القلوب فتثمر الثمار الأولى، وتحيى موات القلوب، وتبعث همم الرجال فى الصدور؟

هل يعود المسلمون للأخلاق الإسلامية فيعود لهم (الضبط) المسيطر على النفس فلا تزيغ ولا تميل وإن تغيرت الظروف وتبدلت الأحوال؟ لقد أرسل رسول الله ﷺ سرية تستطلع أخبار العدو، وقد تتعرض للقتال والقتل، وما معهم من الزاد غير تمرات أعطاها لقائدهم فكان يعطى فى كل يوم تمرة لكل مجاهد. أى نفوس تلك؟ وأى رجال يستطيعون أن يتحملوا ما تحملوا؟ وأى (ضبط) أو نظام سيطر على هذه النفوس فلم تضعف أمام الأعداء ولا أمام متع الحياة؟

إنه الإيمان بكل جوانبه وعناصره هو السبب وراء صبرهم ووراء عزمهم ووراء وفائهم، ووراء كل معنى جميل تركوه من خلفهم، وكل أثر حسن أبقوا ذكره من بعدهم، نورًا يضيء وشمسًا تشرق فتبدد ظلم الضعف والهلع والغدر والجبن والخيانة.
فهل يعود المسلمون إلى تلك السيرة، وإلى ذلك السلوك العملى الذى يكون فيه للأخلاق مكان، وللوفاء نصيب بين المؤمنين؟

إن وفاء الصدر الأول لهذه الأمة لم يكن فقط وفاء بالعقود، بل كان قبل ذلك وبعده وفاء قلبيًا لكل معانى الخير ولكل دعاته فى جميع العصور، ومن الأمور التى يوجبها الدين الإسلامى على المسلم الإيمان بجميع الرسل السابقين، وكل الكتب التى أنزلها الله عليهم، ولو لم نعرف عنها إلا القليل، وأن نؤمن بالأنبياء المكرمين، وهل نزلت الكتب جميعها إلا بالحق، وهل كان الأنبياء والمرسلون إلا دعاة خير وهدى ورحمة للناس، فلمن الوفاء إلا أن يكون لهؤلاء؟

والسالكون سبيل المرسلين من الأئمة والأعلام، هداة الأنام، وحملة الخير والنور والعرفان هم أولى الناس بالوفاء وأحقهم بالتقدير.

والوفاء القلبى يمتد ويمتد ليشمل الأقارب والأباعد والأصاغر والأكابر من المسلمين، ولو لم نرهم فى حياتنا؛ لأن رابطة الدين تجمعنا، وآصرة الأخوة عقدت بيننا عهدًا وموثقًا.

والوفاء القلبى للأحياء والموتى سمة للمؤمنين يبعثها إيمانهم فى نفوسهم، ثم يأتى الوفاء بالعقود ليوثّق هذه المعانى، التى لا تحتاج فى كثير من الحالات لمواثيق أو عقود، هل هناك عقد بين المعلم وتلميذه؟ وهل هناك عقد بين الوالد وأبنائه؟ وهل هناك عقد بين الفرد ومجتمعه؟ نعم هناك عقود غير مكتوبة بين هؤلاء أجمعين عقود قلبية ومواثيق إيمانية بيّنها الدين وتمثلت فى الآداب والأخلاق الإسلامية عامة تلك التى تتشرّبُها القلوب وتتصرف الجوارح على هدى منها وبصيرة، فلا تظهر خيانة ولا غدرًا، بل تظهر الأمانة

والوفاء فيستريح البشر ويأمنون.

أسأل الله أن يهدينا جميعًا إلى الحق والخير، وأن يجعلنا من الأوفياء الصادقين، إنه نعم المولى ونعم النصير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



الرسالة السادسة

إنسانية الرسول ﷺ

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ـ سبحانه ـ ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ .

وبعد:

فإلى الذين يؤذيهم لفح الهجير، وشواظ السعير فى هذه الحياة، بعدما غلبت فيها الماديات الروحانيات ، وطغت فيها على البشر الحروب والصراعات، وذابت فيها القيم والأخلاق، فلا يؤبه لفقير، ولا ينظر لضعيف، ولا يحترم عهد، ولا يوثق بوعد، ولا يكرم كبير، ولا يرحم صغير ، ولا تصان حقوق جار ، ولا يبرّ والد ، ولا يوفى بذمة إلاّ لمن كان شريكًا فى وطن أو جنس أو لون أو مذهب.

إلى الذين أشعلوا نار العنصرية المنتنة، وآثروا أنفسهم بكل أمر، وحرموا غيرهم من كل حق، واتبعوا نزغات الشيطان، فاستكبروا فى الأرض بغير الحق، وظنّوا أنهم خير خلق الله كلهم ، وأن غيرهم من البشر أقل منهم كرامة، وأدنى منزلة، وأصغر قيمة، فاعتدوا وبغوا وعاثوا فى الأرض فسادًا، ونشروا الشر فى أرجائها ، والمنكر فى أقطارها ، ثم قالوا:لا كرامة لغيرنا من بني الإنسان، ونحن ـ والله ـ الفرسان، وغيرنا بُغاث وهوام وحطام.

إلى الذين يعلنون بألسنتهم حقوق الإنسان، وهم فى كل يوم يطؤون غيرهم بالنعال، ويصيبونهم بالنكال ، ويعلنون أن الله فضّلهم على الخلق، هكذا قال اليونان والرومان،وقاله الجرمان حديثًا، وقالته اليهود فى كل حين، وهم فى دعواهم هذه كاذبون، وفى غيِّهم يعمهون، وعلى ضلالهم ثابتون، فكم ذاقت البشرية من ورائهم، وكم اكتوت بنارهم، وكم خُربت ديار، وبُعثرت أشلاء، ومُزِّقت بطون، وقتل رُضَّع، وهتكت أعراض من وراء أمثال هذه الدعاوى العنصرية البغيضة إلى هؤلاء وأولئك، وإلى البشرية المعذبة، والإنسانية المنتهكة حتى لم تعد ترى فى الحياة غير الرماد، ولم تعد تلقى فى أحلامها غير

السهاد، ولم تعد تجد فى حياتها غير الأمراض والأسقام ..إلى هؤلاء وأؤلئك أقدم كأس الشفاء، وترياق الداء فى عذوبة الماء وصفاء السماء.

أقدم شيئًا من سيرة رسول الإنسانية،ومعلم البشرية الذى يرفع عن كاهلها إصرها والأغلال التى كانت عليها يوم أعلن فى البشرية: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [(١)]، ويوم أزاح عن القلوب الحسد والأحقاد،وغرس فيها الحب حتى للجماد، قال عن جبل أحد: «**أحد جبل يحبنا ونحبُّه**»[(٢)] يوم أعلن التسامح مع الكائدين، والعفو وهو من القادرين، فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[(٣)]، يوم علمّ البشر أن الرفق شيء من الدين حتى مع الحيوان البهيم، فذكر «أن امرأة دخلت النار فى هرة حبستها لا هى أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض»[(٤)]، يوم علم النّاس أن أمر الخلق موكول لرب العالمين، لا يختار فيه أحد بنات أو بنين، فلا يبالى والد البنات بشيء وهو يسمع: «من عال جاريتين دخلت أنا وهو الجنة كهاتين»[(٥)]إلى غير ذلك من المعانى التى بثّها رسول الله ﷺ بين النّاس فكانت سراجًا للسالكين، خففت من أعبائهم، وحطّمت من أغلالهم.

فلننظر معًا هذه المعانى السامية، فهيّا بنا نعش بينها ونتمثلها فى حياتنا .

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٨١)، ومسلم (١٣٩٢) عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه .

(٣) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام (٥/ ٧٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١١٨)، وضعفه الألباني في الضعيفة (١١٦٣).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٥) أخرجه مسلم (٢٦٣١)، والترمذي (١٩١٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

إنسانية الرسول ﷺ

قال المولى عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾(١).

لقد أرسل الله محمدًا ﷺ بدينه؛ لينير بهدايته حياة الإنسانية الحالكة الظلام، ويعلم النّاس به أرقى نظم الاجتماع، وأعظم قوانين العدالة وأسمى مبادئ القضاء، وأوفى مناهج المساواة، التى كانت الإنسانية فى أمس الحاجة إليها، ترعرع بين قوم جاهلين وهو ينكر جهالتهم، ونشأ بين قوم مشركين وهو يستقبح إشراكهم، رآهم فى طغيان وانحلال، فنفر من طغيانهم وانحلالهم، ضاعت فيهم مفاهيم الإنسانية الحقة، فكان ﷺ الأستاذ الأول للعالم يعلِّمه معنى الإنسانية الحقّة بمفهومها الصحيح، حتى قال فيه مولاه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾(٢).

جعله الله بحكمته فى أعلى مستوى الإنسانية، فأشرقت من آفاق نفسه أنوار العزة والإباء، وأضواء العزم والضياء، فما لبث أن تكشّف عن قوّة خارقة تدفعه لإنقاذ الإنسانية جمعاء من أنياب الجهالة والضلالة، ومخالب الشقاء والتعاسة، وبنى على تعاليم القرآن الكريم جامعة الإسلام العالمية، فخرّجت العلماء والمصلحين والمرشدين، والقادة المتفوقين، والحكّام العادلين، والقضاة الزاهدين.

كان العالم كالمريض الذى اصطلحت عليه الأمراض،فهو يشكو من كل شيء، يشكو من جفاف الروح؛ فعاطفته الدينية لم تجد بللاً فى عبادة النّار، والعكوف على الأصنام عند الوثنيين .. ولم تجد ريّها كذلك عند أهل الكتاب، فقد حرفوا الكلم عن مواضعه ، واشتروا بآيات الله ثمنًا قليلاً، واستباحوا حقوق الناس وأموالهم، و﴿قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾(٣)، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، ونسبوا لله ما يتعارض مع ما يستحقه من التنزيه

(١)الجمعة: ٢.
(٢)القلم: ٤.
(٣) آل عمران:٧٥.

والتقديس، فكانت رسالته ﷺ المنقذ الوحيد من هذا المصير النكد، وكان العالم يشكو من قسوة القلب، وهزال الضمير؛لأنه كان يحكم يومئذ بشريعة الغاب يأكل الكبير الصغير، ويفتك القوى بالضعيف، ويخضع لنظام الطبقات الجائر الذى يجعل من بعض الناس سادة يتصرفون فى كل شيء، ومن بعضهم عبيدًا لا يقدرون على شيء، فكانت إنسانيته ﷺ النور الذى أضاء لهم الطريق وأزال عنهم ظلام الليل الدامس الطويل، وكان العالم بعد ذلك يفتقر إلى المثل العليا، والمبادئ الشريفة، فهو لا يعلم عن مقومات الإنسانية ودعائم الحياة الطيبة إلا أمانىّ، فالحرِّية والمساواة ، والإخاء، والتعاون على البر والتقوى، والتكافل الذى يفرضه الحب وتوحى به المروءة، كل هذا كان ألفاظًا فقدت معناها من طول ما حرم النّاس من مشاهدتها ولو فى صورة جزئية، أو حالة فردية فى هذا العالم المتهالك المتداعى، فكانت إنسانيته ﷺ الوحيدة التى وجدوا فيها ضالتهم التى عنها يبحثون، وإليها يفتقرون.

يقول الفيلسوف الإنجليزى الناقد الساخر «جورج برناردشو» ما ترجمته بالنّص: «إنى أعتقد أن رجلًا كمحمد فى صدق ما ادعاه، ودعا إليه، لو تسنّى له أن يتسلم زمام الحكم المطلق فى العالم بأجمعه اليوم لتم النجاح فى حكمه، ولقاده إلى النجاح والظفر ولحقّق له السلام والسعادة المنشودة».

والآن نورد بعض المواقف لإنسانية الرسول ﷺ:

إنسانية الرسول ﷺ وحبه لأولاده:

فكان يحملهم على صدره، ويداعبهم ويقبلهم، وكان إذا سمع بكاء أحد منهم وهو يصلى أسرع فى صلاته حتى لا يطول بكاؤه.

ورأى بعض الصحابة الرسول ﷺ وهو يقبِّل الحسين ابن ابنته فاطمة رضي الله عنها فقال أحدهم: يا رسول الله،إنّ لى عشرة أولاد ما قبلت أحدًا منهم قط، فقال ﷺ: «إنّه من لا يَرحم لا يُرحم»[1] ورأى ﷺ بعض الأولاد يلعبون ويتسابقون، فجرى معهم ليدخل

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

السرور على نفوسهم، ولما علم عليه الصلاة والسلام أنّ بعض أولاد غير المسلمين قتلوا بين الصفوف فى إحدى المعارك حزن ﷺ حزنًا شديدًا.

وقد دخل «الحسن» ذات مرة على الرسول ﷺوهو يصلى، فركب الحسن على ظهره،فأطال الرسول ﷺ السجود حتى نزل الحسن .

وكان عليه الصلاة والسلام يعانق الحسن، ويقول:«**اللهم إنى أحبُّه، فأحبَّه، وأحبَّ من يحبُّه**»[1].

إنسانية الرسول ﷺوحبه لأهله:

قال ﷺ :«**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى**»[2].

وقال ﷺ:«**أُذكِّركم الله فى أهل بيتى**»[3].

فلقد كان ﷺ مثال الزوج الوفى، فإذا ذبح شاةً يهدى منها إلى صديقات زوجته خديجة رضي الله عنها .

ومن إنسانيته ﷺ حبه لأصحابه:

قال الرسول ﷺ:«**الله الله فى أصحابى، لا تتخذوهم غرضًا بعدى، فمن أحبّهم فبحبّى أحبّهم، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه**»[4].

لقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يرعى أبناءهم، ويحمل أولادهم الصغار على صدره الشريف، وكان يشترى حاجات أصحابه بنفسه.

وكان إذا جلس يجلس فى وسطهم، فلا يتخذ لنفسه مكانًا أحسن من أماكنهم، حتى إن

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٨٤)، ومسلم (٢٤٢١) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٩٥) عن عائشة رضي الله عنها ، قال الترمذي: «حسن غريب صحيح»، وصححه الألباني.

(٣)أخرجه مسلم (٢٤٠٨)، وأحمد (٤/ ٣٦٦ـ ٣٦٧) عن زيد بن أرقم رضي الله عنه .

(٤) أخرجه الترمذي (٣٨٦١)، وأحمد (٤/ ٨٧) عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه ، وقال الترمذي: «غريب»، وضعفه الألباني.

القادم لا يعرفه وهو بين أصحابه.

وكان ﷺ يخرج مع أصحابه ويعاونهم على السفر فيركب أحيانًا ويمشى أحيانًا، ويشترك معهم فى إعداد الطعام، وإحضار الماء.

ولما وصل إلى المدينة ﷺ اشترك مع أصحابه فى بناء أول مسجد فى الإسلام، وهو مسجد قباء.

واشترك معهم ﷺ فى حفر الخندق حول المدينة،وكان ﷺ يحمل التراب والحجر،وينشد مع المسلمين ويحمِّسهم .

ومن إنسانيته ﷺ حبُّه للخدم:

كان رسول الله ﷺ يحب الخدم والعمّال ، ويعاملهم معاملة طيبة، لقد بلغ من حبِّه ﷺ للخدم أنه كان يكره أن يقول أحدٌ لخادمه:عبدى، وكان ﷺ يأكل مع الخدم، ويحادثهم ويوصى المسلمين بهم، وكان يقول لهم: «**هم إخوانكم وخولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم**»[1] .

حكى أنس بن مالك وقد خدم رسول الله ﷺ عشر سنوات، قال :كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقًا ، فأرسلنى يومًا لحاجة فخرجت، حتى أمُرَّ على الصبيان وهم يلعبون فى السوق،فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاى من ورائى، فنظرت إليه، وهو يضحك، فقال: «**يا أُنيْس، اذهب حيث أمرتك**» قلت: نعم، أنا ذاهب يا رسول الله[2]، قال أنس: والله لقد خدمت النبى ﷺ عشر سنين، ما علمته قال لشيء صنعته: لم فعلت كذا وكذا؟ أو لشيءٍ تركته: هلا فعلت كذا وكذا[3].

(١) أخرجه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١) عن أبي ذر رضي الله عنه .
(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٠)، وأبو داود (٤٧٧٣) عن أنس رضي الله عنه .
(٣) أخرجه البخاري (٢٧٦٨)، ومسلم (٢٣٠٩) عن أنس رضي الله عنه .

روى أن امرأة سوداء فقيرة كانت تكنس المسجد على عهد رسول الله ﷺ، ثم غابت عن المسجد، فلما فقدها الرسول عليه الصلاة والسلام سأل عنها ، فأخبره الصحابة ﷺ بأنها قد ماتت، ولم يُعلموه بأمرها فى حينه؛ نظرًا لضعف حالها ، لكنهﷺ تأثر لهذا كثيرًا، وعاتبهم قائلًا:«**هلاّ آذنتمونى**» كأنما عز عليه أن تفارق هذه المسكينة الحياة دون أن تحظى منه بنفس ما يحظى به كل أصحابه، من وداع وتشييع وصلاةٍ، ثم طلب إليهم أن يدلّوه على قبرها فدلوه عليه، فقام عليه الصلاة والسلام، وصلّى على قبرها ، ثم قال:«**إن هذه القبور مملوءة ظلمةً على أهلها ، وإن الله ينوِّرها لهم بصلاتى عليهم**»[1].

*** ومن إنسانيته عليه الصلاة والسلام تواضعه:**

لقد كان ﷺ متواضعًا يخيط ثوبه بيده، وكان يأكل مع خادمه، وكان يحمل من السوق بضاعته.

وقد دخل ـ عليه الصلاة والسلام ـ السوق مرة؛ليشترى سراويل فوثب البائع إلى يده ليقبلها فجذب ﷺ يده،وقال:«**هذا تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك إنما أنا رجل منكم** »[2]. وكذلك كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحلب الشاة بيده ويصلح حذاءه بنفسه ويعنى بناقته فيسقيها ويطعمها.

وقال ﷺ فى التواضع: «**إن حقًّا على الله ألا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه**»[3].

*** ومن إنسانيته ـ عليه الصلاة والسلام ـ تسامحه:**

من أول يوم ظهر رسول الله ﷺ بدعوته فى ربوع مكة والبلاء يصب عليه وعلى أصحابه صبًّا، ويشتد عليهم العذاب يومًا بعد يوم حتى لقد سقط منهم شهداء راحوا

---

(١)أخرجه مسلم (٩٥٦)، وأحمد (٢/ ٣٨٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

(٢)أخرجه أبو يعلى في مسنده (٦١٦٢)، والطبراني في الأوسط (٦٥٩٤) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٢٢): «رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط، وفيه يوسف بن زياد البصري وهو ضعيف».

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٧٢)، وأبو داود (٤٨٠٢) عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

ضحية التعذيب كوالدَىْ عمار بن ياسر وغيرهما فهل يكتفى المشركون بهذا؟ كلا،فلابد أن يستريحوا من محمد ﷺ إلى الأبد وراحوا يدبرون المؤامرة لقتله، ولكن عين الله كانت ترعاه وتحرسه،فأمره الله بالهجرة وأنقذه من يد الظالمين الطغاة.

ثم شاء الله أن تنتصر الدعوة الإسلامية،وينتصر الحق على الباطل بعد معارك طاحنة مع جيوش الكفر وطواغيت البشر.

ولما أحس الرسول ﷺ أن جيشه أصبح بقوة الله لا يقهر خرج إلى أهل مكة؛ ليعلن فيها كلمة الله ويطهر المسجد الحرام من الأصنام التى كانت تعبد من دون الله.

رجع رسول الله إلى مكة يقود عشرة آلاف مقاتل، الموت فى سبيل الله أحب إليهم من الحياة.

وماذا تصنع قريش أمام هذا الجيش الضخم؟ وأين المفر وقد وقعت فى قبضة محمد ﷺ؟ إنها تقف خائرة ذليلة تفكر فى المصير الأسود الذى ينتظرها.

غير أن ثقتها بأخلاق محمد ﷺ تفتح أمامها باب الأمل فى العفو،فليس محمد عليه الصلاة والسلام بالحقود المنتقم.. إنها تعرف الكثير من أخلاقه وسماحته وقد تجلت هذه السماحة أمامهم حين قال لهم رسول الله ﷺ: «**يا معشر قريش، ما تظنون أنى فاعل بكم**» **فقالوا** :«**أخ كريم وابن أخ كريم**» **فقال لهم**:«**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[1] ألا إنه النبى العظيم الذى أثنى عليه ربه جل وعلا بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

ومن إنسانيته ﷺرحمته بالحيوان:

كان الناس فى الجاهلية يقسون على الحيوان الأعجم حتى إن البعض منهم كان إذا أراد الطعام أخذ يقطع أعضاء الحيوان وهو حى،ثم يشوى منه ويأكل.

وكان اتخاذ الدواب هدفًا للرماية عادة مألوفة عند العرب،فنادى فيهم رسول الله ﷺ:

---

(١)سبق تخريجه.

«الراحمون يرحمهم الرحمن»[١].

كذلك ما كانوا يتصورون أن الرفق بالحيوان عمل صالح،حتى ساق لهم رسول الله ﷺ الأمثلة،وأنبأهم أن رجلاً كان يمشى بطريق فاشتد عليه العطش فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ثم خرج،فوجد كلبًا يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل فى نفسه: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل ما بلغت فنزل البئر وملأ خفه ماء ثم أمسكه بفمه حتى صعد وسقى الكلب، فشكر الله ـ تعالى ـ له هذا الصنيع، وغفر له، فتعجب الصحابة من ذلك وقالوا: يا رسول الله وإن لنا فى البهائم لأجرًا؟ قال:**«فى كل ذات كبد رطبة أجر»**[٢].

وقال ﷺ :**«عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هى أطعمتها وسقتها إذ هى حبستها، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض»**[٣].

ومن إنسانيته ﷺ تلك القصة التى يحكيها لنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيقول: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر،فغاب عنا ﷺ فى شأن من شؤونه فرأينا حمّرة معها فرخان فأخذنا فرخيها،فجاءت الحمّرة تعرش،فلما حضر ﷺ وجد الحمّرة حائرة تبحث عن ولديها فى لهفة وألم، فتأثر رسول لله ﷺ وَرَقَّ قلبه العظيم لها، وقال لهم:**«من فجع هذه بولديها؟ ردّوا ولديها إليها»**[٤].

من إنسانيته فى حروبه ﷺ:

روى مسلم عن النبى ﷺ أنه قال: « **اغزوا فى سبيل الله وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الوليد، ولا أصحاب الصوامع**»[٥].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وأحمد (٢/ ١٦٠) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٦٧٥، ٥٢٦٨)، والحاكم (٤/ ٢٣٩) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي والألباني.

(٥) أخرجه مسلم (١٧٣١)، وأبو داود (٢٦١٣) عن بريدة رضي الله عنه .

كذلـك ورد عنـه ﷺ أنـه كـان يقـول : « **لا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا طفلا صغيرًا ولا امرأة**»[١] .

ولقد تأثر خلفاؤه ﷺ بتعاليمه،فهذا أبو بكر جهز جيشًا وجعل يزيد بن أبى سفيان قائده وأوصاه قائلا:«**إنى موصيك بعشر فاحفظهن، إنك ستلقى أقوامًا زعموا أنهم فرغوا أنفسهم لله فى الصوامع فذرهم وما فرغوا أنفسهم له، وستلقى أقوامًا قد حلقوا أوساط رؤوسهم، فافلقوها بالسيف، ولا تقتلن وليدًا ولا امرأة ولا شيخًا كبيرًا ولا تعقرن شجرًا بدا ثمره، ولا تحرقن نخلا ولا تقطعن كرمًا ولا تذبحن بقرة ولا شاة ولا سوى ذلك من الماشية إلا للأكل**».

ومن إنسانيته ﷺ تأمين المبعوثين والمفاوضين:

لقد جاء التوأمة وابن أثال رسولا مسيلمة الكذاب إلى النبى ﷺ فقال لهما: «**أتشهدان أنى رسول الله؟**» قالا : نشهد أن مسيلمة رسول الله فلم يقتلهما مع كذبهما.

ومن إنسانيته ﷺ وصيته بالبنات والأخوات خيرًا:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليَّ امرأة ومعها ابنتان لها تسأل،فلم تجد عندى شيئا غير تمرة واحدة فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها، ثم قامت فخرجت،فدخل النبى ﷺ علينا فأخبرته فقال:«**من ابتلى من هذه البنات بشىءٍ فأحسن إليهن كن له سترًا من النار**»[٢] . وفى لفظ: «**من ابتلى بشىء من البنات فصبر عليهن كن له حجابًا من النار**»[٣] .

وعنها قالت:جاءت مسكينة تحمل ابنتين لها،فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطت كل واحدة تمرة ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها،فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبنى شأنها،فذكرت الذى صنعت لرسول الله ﷺ فقال: «**إن الله قد**

(١) أخرجه أبو داود (٢٦١٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وضعفه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩) عن عائشة رضي الله عنها .

(٣) أخرجه الترمذي (١٩١٣) عن عائشة رضي الله عنها ، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن».

أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار»[١].

وعن أنس رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال:«**من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو**» وضم أصابعه أى معًا [٢]، وفى رواية: «**من عال جاريتين دخلت أنا وهو الجنة كهاتين**» وأشار بأصبعيه[٣]، وفى رواية قال رسول الله ﷺ: «**من عال ابنتين أو ثلاثًا أو أختين أو ثلاثا حتى يبلغن أو يموت عنهن كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين**» وأشار بأصبعيه السبابة والتى تليها[٤].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلم له ابنتان فيحسن إليهما ما صحبتاه أو صحبتهما ـ إلا أدخلتاه الجنة**»[٥].

وروى الطبرانى عن عوف بن مالك أن رسول الله ﷺ قال :«**ما من مسلم يكون له ثلاث بنات، فينفق عليهن حتى يبلغن أو يمتن إلا كن له حجابًا من النار**» **فقالت له امرأة: أو بنتان؟**» قال: «**أو بنتان**»[٦]، وعن أبى سعيد الخدرى قال:قال رسول الله ﷺ: «**من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو بنتان أو أختان، فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن فله الجنة**»[٧].

ومن إنسانيته ﷺ دعوته العالم إلى مكارم الأخلاق:

قال ﷺ :«**أحب عباد الله أحسنهم أخلاقًا**»[٨].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٣٠)، وأحمد (٦/ ٩٢) عن عائشة رضي الله عنها .

(٢)أخرجه مسلم (٢٦٣١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الترمذي (١٩١٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وقال الترمذي: «غريب» وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ١٤٧)، وابن حبان في صحيحه (٤٤٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٩٦).

(٥) أخرجه ابن ماجه (٣٦٧٠)، وأحمد (١/ ٣٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وحسنه الألباني.

(٦) أخرجه أحمد (٦/ ٢٩)، والطبراني في الكبير (٥٦١٨) (١٠٢) عن عوف بن مالك رضي الله عنه ، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٩٧٢): «حسن لغيره».

(٧) أخرجه الترمذي (١٩١٦)، وابن حبان في صحيحه (٤٤٦) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وقال الترمذي: «غريب»، وصححه لغيره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٩٧٣).

(٨) أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ١٨١) (٤٧١) عن أسامة بن شريك رضي الله عنه ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٤): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح».

وقال ﷺ: «**إن أحبكم إلى أحسنكم أخلاقًا**»[١]،وقال ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»[٢]،وقال ﷺ: «**أتدرون من المفلس؟**» قالوا:المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «**إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح فى النار**»[٣].

وذلك يعنى أن جوهر الإسلام الحنيف ولبابه مكارم الأخلاق والسلوك القويم والعمل الطيب المثمر، فدين المرء أخلاقه وأعماله ولا دين ولا إيمان لمن لا أخلاق له.

إن المرء الذى يفتقر إلى مكارم الأخلاق من جد واجتهاد وصدق وأمانة ورحمة وصبر وعزيمة وإرادة وشجاعة ونحو ذلك يفشل ولا يفلح فى حياته ولا يؤمن جانبه، أما الإنسان الذى يتحلى بالأخلاق الكريمة والفضائل السامية،فإنه يعلو ويسمو ويبلغ أوج العلا، وكذلك المجتمع الذى تطغى عليه المفاسد والرذائل يمرض ويضعف ويهبط إلى الحضيض، أما المجتمع التى تظلله المثل العليا والقيم الأخلاقية الرفيعة،فإنه يتمتع بنعمة الصحة والقوة والحياة الطيبة الجميلة،ويعيش حُرًا عزيزًا ويرتقى فى جميع ميادين الحياة:علمية وحضارية وثقافية واقتصادية وعسكرية واجتماعية وصناعية.

قال أحمد شوقى فى ذلك:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقال أيضًا:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه ... فقوم النفس بالأخلاق تستقم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٥٩) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨١)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٤٩).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨١)، والترمذي (٢٤١٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقال أيضًا:

ولـيس بعامـر بنيــان قــوم إذا أخــلاقـهــم كانـت خرابا

ولننظر إلى البلدان التى دخلها العرب المسلمون فاتحين وهداة مصلحين أيام رسول الله ﷺ وخلفائـه الراشـدين والأمـويين والعباسـيين حيـث كانـت الرحمـة والعدالـة والرفـق والإنسانية تصحبهم أينما حلوا أو ساروا، فلم يستعبدوا غيرهم ولم ينهبـوا خـيرات بلـدهم وثرواتها ولم يسفكوا دماءهم؛لأنهم كانوا حملـة رسـالة إنـسانية أخلاقيـة وأصـحاب مبـادئ سـامية ومثـل عليـا،ولم يكونـوا اسـتعماريين مـاديين، وهـذا مـا حـدا بالفيلـسوف الفرنـسى غوستاف لوبون إلى أن يقول :«إن التاريخ لم يعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب».

أما البلاد التـى غزاهـا الاسـتعمار الغربـى قـديمًا وحـديثًا فى الحـروب الـصليبية،فقد اسـترق شعوبها وسخرها لخدمة مصالحه الاسـتعمارية ونهـب خيراتهـا وثرواتهـا وحكمهـا بالحديـد والنار وأعمل فيها حمامات الدم الغزيرة وارتكب مجازر بشرية رهيبة.

ومن إنسانيته ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه رحمة للعالمين:

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[1].

لقد أرسل الله رسوله رحمة للناس جميعًا ليأخذ بأيديهم إلى الهدى؛لأن رسالته ﷺ كانـت رحمة لقومه ورحمة للبشرية كلها من بعده.

ونادى بإنسانية واحـدة تـذوب فيهـا الفـوارق الجنسية والجغرافيـة،وتلتقى فيهـا عقيـدة واحدة ونظام اجتماعى واحد لقـد جـاءت رسـالته لتسوى بـين جميـع النـاس أمـام القـضاء والقانون فى الوقت الذى كانت فيه البشرية تفرق الناس طبقات،وتجعل لكل طبقة قانونـًا، بل تجعل إرادة السيد هى القانون فى عهدى الرق والإقطاع.

وغير ذلك كثير يـشهد بـأن رسـالتهﷺكانـت رحمـة للبـشرية جمعـاء وأن محمـدًا ﷺ إنـما أُرسل رحمة للعالمين، من آمن به ومن لم يؤمن به على السواء.

(١) الأنبياء :١٠٧.

وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة، لمن يريد أن يستظل بها ويستروح فيها نسائم السماء الرضية،ويفر من هجير الأرض المحرق، وبخاصة فى هذه الأيام، وإن البشرية اليوم لفى أشد الحاجة إلى حس هذه الإنسانية ونداها وهى قلقة حائرة، شاردة فى متاهات المادية وجحيم الحروب وجفاف الأرواح والقلوب.

ونعود لنبين نماذج من سيرته تبين المساواة فى صورة عملية سلوكية:

عن عائشة ﵂أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت فى عهد النبى ﷺ فى غزوة الفتح، فقالوا:من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ،فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ، وقال: «**أتشفع فى حد من حدود الله؟!**» فقال أسامة:استغفر لى يارسول الله، فلما كان العشى قام رسول الله ﷺ،فاختطب وأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال:«**أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإنى والذى نفسى بيده ـ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[(١)].

وما أعظم البلاء إذا لم نسو بين الناس فى إقامة الحدود ، فنفعل كما كانت تفعل الأمم السابقة، فننفذ العقوبة على الضعفاء والفقراء ومن لا شأن لهم ونترك الأقوياء والأغنياء وذوى الشأن! إننا بذلك نقيم الظلم وما أقساه، ونصنع الامتيازات وما أبشعها، ونخلق التفرقة وما أقبحها ونحرص على الفتنة والشر ونحكم على أنفسنا بالويل والثبور ونجلب عظائم الشرور.

من إنسانيته ﷺ وصيته بالجار:

كثير من الأمور فى حياتنا العصرية شوهت المدنية النظرة إليها ومن هذه الأمور (حقوق الجار على جاره).

فحين كانت النفوس مشبعة بروح الإيمان،وكان الإسلام هو الجو الذى يعيش فيه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨) عن عائشة ﵂ .

المسلمون كانت حقوق الآخرين معلومة ومرعية،وكان المسلمون يتنافسون فى الخير، ويسارعون إلى القيام بحقوق كل ذى حق.

ولكن المدنية العصرية وتلك الحضارة التى قامت على المادة لا تلوى على معنى كريم ولا تتعشق خلقًا فاضلا، بل جعلت من الإنسان آلة يدور فى فلك الحياة الصماء، ويؤدى الدور الذى رسم له خاليًا من العواطف النبيلة، والمعانى الإنسانية السامية.

ولم يفلت من ذلك إلا الذين ملأت مبادئ الدين نفوسهم، وأضاءت أنوار المعرفة بالله قلوبهم.

ومن المعانى الإنسانية التى طمست بسبب المدنية المادية حقوق الإنسان الأدبية على الإنسان، مثل حقوق الجيران وحقوق الوالدين وحقوق الأرحام.

ولقد أصابت شرقنا الإسلامى نكسات فكرية عنيفة جعلت أكثر من فيه يضطرب فكريًا ويضعف عقائديًا وينحل اجتماعيًا حتى وجدنا كلمة «حقوق الآخرين الأدبية» صارت غريبة بين المسلمين مثل كل شىء إسلامى.

ولقد اهتم القرآن والسنة بحقوق الجار اهتمامًا عظيمًا، فالقرآن وضع حقوق الجار مع حق الله وحق الوالدين والأرحام، والسنة أظهرت أن جبريل مازال يوصى النبى ﷺ بحقوق الجار حتى ظن النبى ﷺ أن الله سيجعل الجار وارثًا من شدة التأكيد على حقوقه. كما بينت السنة أن الذى يقصر فى حق جاره أو يؤذيه يعتبر مرتكبًا كبيرة من الكبائر، وأن القيام بحق الجار واجب من الواجبات الشرعية الهامة.

روى ابن عمر وعائشة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :«ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[(١)].

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم

(١)أخرجه البخاري (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

الآخر، فليقل خيرًا أو ليسكت»[١].

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول لله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»[٢].

وعن نافع بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ :«من سعادة المرء الجار الصالح والمركب الهنيء والمسكن الواسع»[٣].

---

(١)أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٢)أخرجه الترمذي (١٩٤٤)، وأحمد (٢/ ١٦٧) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وقال الترمذي: «حسن غريب»، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨) عن نافع بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٦٣): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

خاتمة

أخــى القارئ:

إن هذا الذى قدمناه لك هو غيض من فيض،وقليل من كثير، إن الـذين عرفـوا رسـول الله ﷺ وصحبوه أحبوه حبًّا فاق حبهم لأنفسهم وأبنائهم وأموالهم والناس أجمعين،لحسن خلقه وظهور إنسانيته التى شملت العالمين، وأدركها وعـاش فى رحابها الجميع، حتى إن الكفار الذين كانوا يحاربونه لكفرهم كانوا يثقون به فى أماناتهم وودائعهم.

إن الأخـلاق التى علمنـا إياهـا رسـول الله ﷺ لا تتجـزأ، فهى تـشمل الغنى والفقـير والعظيم والحقير، بل تشمل الإنسان أينما كان وحيث كـان وتتعـداه إلى الحيـوان الأعجـم، فيجد الرفق والعناية والمرحمة حيث يكون فوق أرض تستظل بظـل الإسـلام، وتتبـع مـنهج رسول الأنام «فى كل كبد رطبة أجر»[1] فهل بعد هذا البيان يتشدق متشدق بحقوق إنسان أو رفق بحيوان؟ وأين المسلمون من هذه التعاليم؟

والحمد لله رب العالمين...

---

(١) سبق تخريجه.



الرسالة السابعة

حوارات في هموم الأمة

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين ، امتن على عباده فأرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين، فلزمتهم بذلك الحجة، ولم يعد لهم من عذر يعتذرون به يوم الـدين ، والـصلاة والـسلام عـلى النبـى الأمين، المبعوث رحمة للعالمين ، محمد بن عبد الله خاتم الأنبيـاء وإمـام المرسـلين، ومـا تـرك من خير إلا دل الأمة عليه وما ترك من شر إلا وحذرها منه، دعا إلى الله على بـصيرة، فـسار من خلفه الدعاة العاملون متمسكين بنهجه فى الدعوة والبيان ، وإزاحة أسـتار الجهـل عـن العقول بالمعرفة والبيان، فصلى الله وسلم عليه وعلى أصحابه وتابعيه إلى يوم الدين.

وبعد:

فعواصف الفتن التى تحيط بأمتنا الإسلامية والتى ترد إلينا مـن كـل مكـان فى صـباح أو مساء كثيرة متعددة، يود باعثوها لو وجـدت منـا قلوبـاً لاهيـة وعقـولاً فارغـة، لتـتمكن فى النفوس فتغرس فيها الشر وتبذر فيها الأحقاد والضغائن، لتظـل الفرقـة قائمـة، والتـشرذم بارزاً، والخلل منتشراً، والوعى غائباً ، واليقين مندثراً، والقوة منعدمة، والشكوك منتـشرة، والأوهام حاضرة.

وهذه الفتن التى تأتى كقطع الليل المظلم لابد مـن أن يقـف فى وجههـا الـداعون إلى الله على بصيرة ليضيئوا مصابيح الهدى فى ظلام الفتن، فـيرى النـاس طـريقهم، ويـسلكوا ـ مـع الدعاة إلى الحق ـ سبيلهم، بعـد أن تبـدد الفتنـة وينطفـئ أمـام سـطوة الحـق بريقهـا، ويـزول لمعانهـا الزائـف ويظهـر أمـام النـاس عوارهـا ، فـلا يغـتر بهـا فـرد، ولا يقبـل زيفهـا عقـل ولايسارع لتلبية ندائها مسلم عرف ربه، وعرف نبيه وعرف منهجه، بل إنـه يبتعـد عنهـا إن لم يستطع أن يناوئها ويقضى عليها فى مهدها، فيخرج منها سالماً معافى لا تضره ولا تنال منه شيئاً؛ لأن له قلباً ينكرها كما بين ذلك رسول الله ﷺ فيما رواه عـن حذيفـة ابـن الـيمان رضي الله عنه فى قوله :«تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتـة سوداء، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا فـلا

تضره فتنة ما دامت السموات والأرض...» الحديث[١].

وليس من مقصودنا أن نتحدث فى هذه الرسالة الصغيرة الحجم عن الفتن القائمة اليوم وأنواعها وآثارها لأننا على يقين أن المستقبل لهذا الدين ، وأن موج الظلمات الذى يتلاطم فى عالمنا الإسلامى مآله إلى الزوال مهما عتا واشتد .وإنما مقصودنا أن نبين أن فى التمسك بديننا عصمة من الفتن لمن تخلى عن هواه وطلب سبيل المؤمنين، وابتعد عن الفاسقين والعصاة المذنبين، ولذا لم نتعرض للفتن إلا فى حدود هذا الحيز الصغير؛ لأننا لانريد أن نشخص داء لا ينكره أحد لظهوره وبروزه، وإنما نود أن نقدم الدواء، الذى يتمثل فى الدين القويم بعقيدته الثابتة الراسخة الصافية وأخلاقه التى تصنع سياجاً يحمى ويصون، وقيمه التى توجه نحو المعالى، وتدفع لمواجهة الشدائد وتحمل المصاعب فى سبيل مرضاة رب العالمين ،الذى تدين له السموات والأرض ؛ لذا يستمد منه المؤمن العون ويلتجئ إليه داعياً متضرعاً ، يفزع إليه عند الملمات ولا ينسى حق الله عليه عند المكرمات، بهذا وبغيره مما نستمده من الدين القيم تنكسر موجات الفتن، أو تمر بلا أثر.

وهذا ما ركزنا عليه وأردنا إبرازه فى هذه الرسالة التى اخترنا لها عنوان: (حوارات فى هموم الأمة)، ولا أود أن ينطبع فى ذهن القارئ الكريم المعنى الفنى لكلمة الحوار ، الذى يأبى السرد ويعيبه وجوده فيه؛ لأن هذا الحوار الذى أعنيه أشبه بالحديث حول قضية ما من القضايا التى عرضناها، حديث يبدى فيه أحد الأطراف رأيه كاملاً كذلك وقد يستغرق أحد الرأيين صفحات؛ إذ العبرة بعرض وجهة النظر كاملة وافية حتى تتمكن من نفس القارئ، ولو أدى ذلك إلى تجاوز المعنى الفنى للحوار، لأن الحقيقة الدينية الشرعية هى مقصدنا فإذا ما ظهرت وانتشرت ووصلت إلى عقل القارئ وتمكنت من قلبه بأى أسلوب فقد حققنا ما أردنا، وما إليه سعينا.

(١) أخرجه مسلم (١٤٤)، وأحمد (٥/ ٣٨٦) .

العقيدة منبع القوة

قال: كانت العقيدة الإسلامية ـ وسوف تبقى ـ محور القوة فى بناء الأمة وبناء الفرد المسلم، بحيث لا يقبل تسلطاً من أحد، ولاخنوعاً وذلة من أحد،فهو لايخضع لمن يعاند الله، ويعصى أوامره، بل إنه ليقاوم كل منكر فى الأرض ولم يمسسه مباشرة؛ لأنه فساد، والله لايحب المفسدين.فلماذا نرى فى دنيا الناس غير ذلك؟

قلت:جاء هذا الدين ليحرر الناس من عبادة العباد والأصنام والأوثان إلى عبادة الله الواحد الديان، جاء هذا الدين ليخرج الله به من شاء من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، جاء هذا الدين ليقيم ميزان القسط بين الناس، ولا يتم ذلك إلا إذا تشبعت القلوب بعقيدته الصافية التى تمس فطرة الناس مساً رقيقاً مباشراً فتعرف عن الله ما أبانه فى كتابه، ونطق به رسوله ﷺ فلا تضل ولا تزيغ ولا تطغى فى الأرض بغير الحق ولا تقبل من أحد ظلماً ولاترضى بمنكر بين العباد لأن الناس جميعاً عباد الله، وبهذا البناء العقدى لا يستطيع شخص ما أن يتسلط على عباد الله وكيف يحدث ذلك وفى أعماق كل رجل وكل امرأة وطفل مناد يهتف بهم فى كل وقت من ليل أونهار أن لا خضوع إلا لله وأن لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق،وأن لاخوف إلا من الله، وأن لا فضل إلا من عند الله.

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [١].

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [٢].

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ ﴾ [٣].

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ﴾ [٤].

---

(١)الأنعام: ١٦٤.
(٢)الأنعام: ١٧.
(٣)الأنعام: ١٤.
(٤)الزمر: ٣٦.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [1].

والعداء بين الطغاة الظالمين وبين العقيدة الإسلامية مستحكم من قديم، فهذا الطاغوت المستبّد الذى أحس خطورة هذه العقيدة على استبداده فاستدعى إبراهيم \ وهو فى غرور سلطته وأدار معه حواراً على النحو الذى ورد فى الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [2].

وينهزم الطاغوت المستبد حين يدخل مع العقيدة الإسلامية فى الحوار فيطيش صوابه ولا يجد فى جعبته إلا البطش والإرهاب، فيأمر بإحراق صاحب هذه العقيدة لعلها تحترق باحتراقه وتبيد ويستريح منها ولا يجد أمام استبداده عائقاً يقف فى وجهه: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [3].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [4].

---

(١) آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٥.
(٢) البقرة: ٢٥٨.
(٣) العنكبوت: ١٦، ١٧.
(٤) العنكبوت: ٢٤، ٢٥.

وحين يبتعد الناس بقلوبهم عن أن تستقبل ضياء هذه العقيدة، يظلون فى ظلام الغفلة، ويحيط بهم الخوف ويتحكم فيهم الجبّارون الجلادون، ولا تجد بينهم من يقول:

ولست أبالى حين أقتـــل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى

أثر شريعة الله فى الحياة

قال: القوانين هى التى تنظم حياة البشر، وتضع الضوابط التى يجب عليهم اتباعها حتى لا تكون الأمور فوضى يأخذ كل إنسان بحسب هواه، ويسير وفق مبتغاه فتضطرب الأمور وتتعارض المصالح ويختلف الناس، وقد يتقاتلون، ولذا فالقانون فى حياة البشر لا غنى عنه لجماعة منظمة صغرت أو كبرت، كانت فى بدو أو حاضرة. وقد يكون القانون هذا عرفاً متبعاً أو تشريعاً ملزماً أو عادة معروفة أو تقليداً من التقاليد التى تتوارث فى حياة الناس، والمهم أن الناس ترتضيه، وتحتكم إليه ولا تخرج عنه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. فأين يكون موضع الشريعة بين هذه القوانين؟

قلت: إذا كان ما قلته يمثل الخضوع لقوانين الناس وفيها الحق والباطل والقصور والضعف والميل والتعصب للقوم أو للعرق أو للجنس أو لطائفة من الطوائف أو مهنة من المهن أو عشيرة من العشائر، فكيف يكون الناس حين يخضعون لشريعة الله المنزهة عن الباطل والظلم والضعف والهوى؟ كيف حالهم وشريعة الحق والعدل والإنصاف تحكمهم، وتدفعهم إلى الحياة التى تليق بالإنسان المكرم صاحب الحرية؟ إن الأمان والخير فى شريعة الله، وبغيرها يظل الناس خائفين لا يستطيعون أن يفتحوا بابًا لطارق فى الظلام، ولا أن يلبوا نداء مستغيث تعرض للامتهان، ولا أن يحملوا من أموالهم شيئاً ؛ لأن اللصوص يتربصون بهم كما هو حال الناس فى بلاد الرقى المادى، رغم القوانين الأرضية والنظم الوضعية والأجهزة الاستخباراتية.

فهل أغنى ذلك عن الناس شيئاً؟!

وأين هذه من شريعة الله التى قال مبلغها وحامل لوائها محمد ﷺ:«والله ليتمَّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه»؟[1].

---

(١) أخرجه البخارى (٦٩٤٣)، وأبو داود (٢٦٤٩)، وأحمد (٥/ ١٠٩).

وهل ترى القوانين تزجر من اختفى وراء الأستار، أو احتجب فى الظلام، أو أظهر خلاف ما يبطن؟ إن ذلك من اختصاص شريعة الله وحدها، الكفيلة بإصلاح السرائر والضمائر قبل إصلاح المظاهر لأن الله: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾[١].

وقد يعجب الإنسان المسلم، المدرك لدينه، المطيع لتعاليمه ـ الذى وافق منهجه فى الحياة كتاب ربه، وسنة نبيه ﷺ من اللاهين والعابثين، المتمسكين بمناهج البشر والسائرين على نظمهم، لأنهم يعبثون وفى الضياع يعيشون، ويظنون أنهم على خير، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ومع عجب المسلم منهم وخشيته عليهم من عذاب الله وشفقته بهم، وطمعه فى هدايتهم إلى الصراط المستقيم يدرك المسلم أن فضل الله عليه عظيم، إذ أكمل له الدين وأتم له النعمة ورضى له الإسلام دينا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[٢].

ويا لها من نعمة، ويا له من دين لو كان له رجال عاملون مخلصون، كما كان الأولون ـ رضوان الله عليهم أجمعين، الذين ما كانوا يخافون غير الله فارتفعت كرامتهم،وتمتعوا بحريتهم؛ لأنهم اطمأنوا على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم اطمئنانًا مبعثه الدين، بحيث يكون المفرط فيه مسؤولاً أمام رب العالمين يوم الدين وهو مسؤول أمام حاكم المسلمين فى دنيا الناس، «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم»[٣]، حرمة دائمة غير موقوتة بجيل من الأجيال ولا بزمن من الأزمان «إلى أن تلقوا ربكم»، وهى حرمة عظيمة تزجر من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان أن يظلم نفسه بتعدى حدود الله وارتكاب ما حرم الله «كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا»[٤]، فإذا تمتع المسلم بحريته، ونعم باطمئنانه على نفسه وماله فإنه يدرك المسؤولية الملقاة عليه وهى التمسك بحبل الله، وألا يحيد بنفسه عن منهج ارتضاه له مولاه.

---

(١) غافر: ١٩.

(٢) المائدة: ٣.

(٣) أخرجه البخارى (١٧٤١)، ومسلم (١٦٦٧٩).

(٤) أخرجه البخارى (١٧٤١)، ومسلم (١٦٦٧٩).

«تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله»(١) الذى يسّره الله للناس أجمعين وجعله محفوظًا ـ بحفظ الله ـ إلى أن يقوم الناس لرب العالمين. ومعالم هذا الطريق لا تخفى على السالكين ووضوحه بيّن أمام السائرين «ألا كلّ شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع»(٢) فلا اختلاط بين ما هو من أمر الجاهلية وما هو من أمر الإسلام، ولا لبس ولا غموض، ولا احتيال ولا ارتياب، فلا يختلط فى الأذهان شرع الله الذى يطالب به المسلمون مع مبدأ سيادة القانون الذى يصنعه الصانعون، فشتان بين قانون يصنعه البشر ليخضعوا لسلطانهم طائفة من الناس كثرت أو قلت:دون أن يخضعوا هم لهذا القانون فهم فوق القانون مسيطرون، وعن سطوته ـ إن أخطؤوا ـ بعيدون. نقول شتان بين سيادة القانون المصنوعة بشريًا، وبين شريعة الله التى تظل الجميع حكامًا ومحكومين فقراء ومترفين، يعيش الجميع فى ظلالها إخوانا متحابين متماسكين متآلفين، فلا صراعات قومية ولا تكتلات حزبية أو وطنية ولا عصبيات طائفية أو عشائرية أو حتى إقليمية، ولكن تآلف يتماسك به المجتمع ويعيش كالبنيان المرصوص كل فرد فى موضعه يؤدى دوره، ويقوم بواجبه ويحسن عمله ويأخذ حقه وهو آمن على نفسه آمن على ولده آمن على ماله، آمن على عرضه؛ إذ لا مجال للأهواء، فالحكم لرب الأرض والسماء: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾(٣) بهذا تتماسك الجبهة الداخلية تماسكًا فعالاً يحدث أثره فى إعادة البناء والعمران، فالجميع مدرك للمسؤولية، قائم بواجبه فيها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، يؤدى كل إنسان دوره، وهو على يقين أن غيره من إخوانه يكمل هذا الدور وينميه ويتمه، لا ينقصه ولا ينقضه، فحياة الأمة ـ تحت شرع الله ـ تقوم على التآلف لا على التصارع، وعلى الحب لا على الكراهية، وعلى التراحم والتعاون لا على التباغض والشقاق.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨)، وأبو داود (١٩٠٥)، والنسائى فى الكبرى (٤٠٠١).
(٢) السابق نفسه.
(٣) يوسف: ٤٠.

والأمة الإسلامية مثخنة بالجراح، والتصارع يزيد هذه الجراح، ويؤخر شفاءها؛ لأنه يبدد الطاقات، ويلجئنا إلى الاستقطاب الدولى، فلا نتخطى نحو المستقبل ونحن آمنون مطمئنون، ولكننا فى ظل كتاب الله وشرعه، الذى يجعلنا إخوة متحابين، نستطيع أن نمد الأمة بترياق الشفاء، ونسير بها نحو المستقبل ونحن آمنون مطمئنون ولن يتم ذلك بغير استمرار البناء، وبغير الصبر على مشقات السير فى الطريق وإن تجشّمنا الصعوبات، وبذلنا فى سبيل ذلك ما نستطيعه من تضحيات، لنجنى ثمرة غرسنا أمنًا ورغدًا واطمئنانًا على الأهل والنفس والمال والولد والعرض والوطن، فمن استطال الطريق ضعف مشيه، وإنما يقطع الطريق ويصل المسافر بلزوم الجادة وسير الليل. ولنكن مدركين أن البلاء - إن تلقيناه كمسلمين - لن ينال منّا، بل إنه يمحصنا، ويجعلنا ندرك ما نحن فيه من نعم الله وقت العافية فنحرص على الشكر، ونصبر على الضرّ، ونثبت فى البأساء وعند لقاء الأعداء، فيمكّن الله لنا، وهذا ما رسمه الإمام الشافعى للسالكين حين سئل: أيهما أفضل للرجل أن يمكّن أو يبتلى؟ فقال: لا يمكّن حتى يبتلى. والمسلم الذى لا ييأس من رَوح الله ومن فضله هو صاحب همة عظيمة لا تستريح إلا بتحقيق المعالى، وعظام الأمور، لأنه يكره السفاسف ولا يشغل بها نفسه؛ إذ يعلم أن ذلك عيب ولا يليق بالمسلمين أن يكونوا متقاصرين عن بلوغ أسمى القمم فى الحياة.

ولم أر فى عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين عن التمام

والناس أمام هذه المهمة صنفان:

فمنهم من يحملون الحياة، يطوّرونها ويتقدمون بركبها، يعملون فيها بيقظة لا تعرف التغافل، وهمة لا تعرف التكاسل، وعزيمة لا يلحقها الملل. فيسعدون بعلمهم، وتعب حياتهم فى سبيل راحة غيرهم وتقديم العون للمعوزين، والمال للمحتاجين، ويسعدون غيرهم بثمرة كفاحهم، ومداومة جهدهم، لتحقيق الخير ونشر العدل والتراحم بين الآخرين، هؤلاء لا تستغنى عنهم الحياة؛ لأنهم جوهر تقدمها وقطب رقيها، الذى من حوله تتحرك ومنه تتقدم.

ومن الناس من تحملهم الحياة، فهم عبء على غيرهم، وعالة على من سواهم، وإن ملكوا المال، واشتهروا فى العالمين. فذلك لا يغطى على قصورهم ولا يقلل أو يزيل من ضعفهم أمام شهوات الحياة ولذائذها يعيشون للمتعة، لا يعنيهم كدّ، ولا يدفعهم نحو العمل النافع جدّ، فالهزل حياتهم والاستمتاع غايتهم: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾[1].

وجدّ الحياة ليس من طبعهم، ونفع الناس بالخير ليس من دأبهم، الأثرة ديدنهم، والإيثار بعيد عنهم، يأخذون ولا يعطون، هؤلاء عطب على مدار الحياة، وفساد لا ينتج غير المستبدين الطغاة، يعطلون المسيرة، فهم أول المستفيدين، وهم آخر النافعين إن كان منهم نفع يرتجى، أو عمل يبتغى؛ إذ هم كفئران السفينة يأكلون مما تحمل، فإذا غرقت السفينة تعلقت هذه الفئران بأى شىء لتصل إلى الشاطئ.

هذان الصنفان نجدهما فى ظروف الحياة المعتادة، وقت أن يعمّ الرخاء ويكون الأمان، وقد يكون الأوّلون قلة، والآخرون كثرة، ولكن الحياة تسير، والعجلة تدور، دونما كبير التفات إلى من يدفع العجلة ومن يعوق مسيرتها ويضع فى طريقها العثرات.

ويظل الأمر هكذا حتى تتغيّر الأحوال، وينزل بالناس العسر وتتتابع من حولهم المحن، وتشتد الفتن هنالك يزول اللبس وتظهر معادن الناس فتجد العنصر الأول أصلب عودًا، وأقوى بنية، وأكثر تأبيًا على الأحداث من العنصر الثانى، وقد تغيّر كبار الحوادث، وظلمات المخاوف بعضًا من العنصر الأخير فيتغير حاله، ويكون ردءًا للعنصر الأول وعونًا له فى مواجهة مدلهمات الحياة وصعوباتها، ولم يكن الشاعر العربى بغافل عن هذا المعنى حين دعا للشدائد التى تكشف عن معادن الرجال وتبيّن الغثّ من السمين والخبيث من الطيب فقال:

جزى الله الشدائد كل خير ... عرفت بها عدوى من صديقى

---

(١) محمد: ١٢.

ومع اشتداد المحن، وتغلب الفتن، تتطلب الحياة مداومة على اليقظة، وشدة فى المواجهة، وجراءة فى القلوب، ويقظة فى الأفئدة وعملاً متواصلاً لا يعرف الراحة ولا يلجأ إلى السكون، ومتطلبات الحياة هذه تتمثل أقوى ما يكون فى عمل المخلصين الصادقين.

والمعانى السابقة التى يحولها الصادقون المخلصون إلى سلوك قائم، وعمل واقع، هذه المعانى مستمدة مما توحى به الينابيع الإسلامية الصافية التى استقوها من القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ وسيرة السلف الصالح الذين حققوا فى حياتهم معانى الصلابة والثبات والقوة والشجاعة والصبر والاستعداد لملاقاة العدو، فتلك صفات لازمتهم فى حياتهم فجعلتها بذلك مخالفة لحياة عامة الناس فى الظروف المعتادة.

فهم قد حملوا أرواحهم على أكفهم، يجودون بها راضين إن استدعى الموقف، واقتضى الأمر، ليحموا من خلفهم ذرية ضعافًا، وشيوخًا كبارًا، وعجائز من النساء، فكانوا ذروة الناس؛ إذ ينشرون فيها روح التكافل الصادق والإيثار الناطق بجميل صنعهم، وكريم فعالهم.

وهم الذين بجهدهم وعملهم فى خدمة أمتهم يخشى الأعداء بأسهم، فيدب فى صفوفهم الخوف والتفرق، وفى قلوبهم الهلع والتمزق فيتخاذلون ولا يثبتون، وهذا بعض من ظلال الآية الكريمة: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[1].

فحياة السكون أشبه بالخمود والجمود، تُحدث بعد حين أثرها فى تخلفها وتقهقرها أمام حركة الحياة النافعة فإنها هى الباعثة على التقدم، الدافعة إلى الرقى، وهل تتقدم أمة بغير حركة؟ وهل يكسب فرد شيئًا بغير حركة ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [2] و﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ

(١)الأنفال: ٦٠.
(٢)الملك: ١٥.

﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [(١)] الحركة حياة نامية والسكون نوم أو موت. وماذا يملك الموتى فى حركة الحياة؟ وماذا يملك النائمون من أمر أنفسهم أو أمر غيرهم؟

فلتكن حياة المسلمين حركة وسعيًا ودأبًا على الخير والفلاح، وتحقيقًا للتقدم النافع للفرد وللجماعة، فبذلك تنهض الأمة من سباتها وتقف على قدمها وتتخذ فى الحياة خطوات تثبت بها وجودها، وتنبّه الآخرين إلى بقائها.

---

(١)التوبة: ١٠٥.

تطبيق الشريعة والمجتمع الأمثل

قال: يفتخر دعاة الإسلام بما كانت عليه الأمة قبل قرون، من اتساع فى الرقعة الأرضية بناها وأحاطها اتساع فى نفوس المسلمين، وكثيراً مايرددون قول الخليفة العباسى للسحابة المارة فوق قصره:«أمطرى حيث شئت فإن خراجك سيحمل إلينا»، ويتغنون بالعدل والمرحمة التى سادت فترات فى تاريخ الإسلام، وينسون أن المسلمين اليوم لا فاعلية لهم بين الأمم، وأنهم يعيشون عالة على غيرهم فى الكثير من أمور حياتهم، وبدلاً من أن يبحث هؤلاء الدعاة أسباب هذا التدهور والتأخر، وينظروا فى أسباب الرقى والتقدم، تراهم يريدون أن يضاعفوا عجز الأمة حينما ينادون بتطبيق الشريعة الإسلامية، حيث ترى الأيدى المقطعة، والظهور المجلودة والتدخل فى منع الناس مما يريدون، ثم بعد ذلك يقولون:إن الله خلق الناس أحرارا فكيف يستقيم الأمران، وهل للشريعة أثر بين تعلو به الأمة؟ وكيف يكون أمر الحدود عندكم، وأنتم تنادون وتسعون إلى تطبيق الشريعة؟

قلت: لسنا ندعى غير الحق، الذى أيدته حقائق التاريخ بأن الأمة الإسلامية ارتقت رقياً عظيماً يوم تمسكت بشريعة الله والتزمت منهاجه الذى جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وقد تحقق فيها العدل، وأحست الرعية به، وشاع بينها الخير والرزق الوفير، وإن كان هناك عثرات أحياناً فى مسيرة دولة الإسلام.

ولسنا ننكر أن الأمة الإسلامية اليوم فى ذيل الأمم بعد أن كانت فى طليعتها قرابة ألف عام، ولكننا كذلك لا ننكر دور الأمة الذى حققته على مدى تاريخ طويل من حياتها فقد كانت فيها تتقدم ركب البشرية، وتقود خطاه نحو الخير الذى يعم الإنسانية كلها فى مجالات الحياة كلها، من سياسة الحكم العادل إلى إصلاح الطرقات حتى للحيوانات التى يشعر الحاكم المسلم أنه مسؤول عن إصلاح الطرق لها أمام الله، هذا فضلاً عن تيسير سبل الحياة للناس، وتحقيق مطالبهم الضرورية لمعيشة آمنة، لا خوف فيها على مال أو نفس أو عرض وشرف، يجد فيها كل مسلم ما يكفيه وأحيانا ما يغنيه مع إحساس بالعدل حتى ولو كان بين أعظم الحاكمين وبين أفراد من الرعية غير معروفين، وهذا عمر بن الخطاب

الخليفة الذى هز العروش وحطم التيجان، والذى عرفته الأرض ، وما جهله أحد من حكام ذاك الزمان ـ هذا الخليفة يلقى قاتل أخيه زيد بن الخطاب ـ أبا مريم السلولى ـ ويدور بينهما حوار قصير سريع يحمل أعظم الدلالة على أن فى الإسلام ـ وحده ـ العدالة.
يقول ابن الخطاب لهذا الذى قتل أخاه: والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المسفوح.
فيرد أبو مريم السلولى مستفسراً: أتمنعنى لذلك حقاً؟

يقول ابن الخطاب على الفور: لا.

يجيب أبو مريم السلولى: إذاً إنما يأسى على الحب النساء.

فلا عدالة أعظم من عدالة الإسلام حين يحسها ويشعر بها فى دياره الأنام، فإن بحثت عن الرحمة وعن الوفاء والسخاء، وعن الصدق والتعاون والإخاء فحدّث ولا حرج فأنت في مجتمع يستظل بكتاب الله ويسير على هدى من سنة رسول الله ﷺ، وأنت في مجتمع قائده ورائده وإمامه محمد بن عبد الله ﷺ الذى ما جار يوماً ولا ظلم، ولا اعتدى أو انتقم، بل سمح لأناس من أتباعه أن يقتصوا منه إن شاؤوا وأرادوا، وصدق الله:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ ﴾[(١)].

وإننا حين نثق أعظم الثقة أن تطبيق الشريعة الإسلامية هو الطريق للمجتمع الأمثل الذى يسعد فيه الناس بالأمن والغنى، وتعلو فيه الكرامة وتنتشر بين أبنائه العزة، فلا خوف ولا ضعف ولا هوان ولا يأس ولا قنوط ، إن المجتمع القائم على أساس من الشريعة الإسلامية هو مجتمع يسير على الصراط المستقيم.

﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٢ ﴾[(٢)].

ولن يكون السير فى مجتمع من المجتمعات على الصراط المستقيم ما لم نتبع ما أنزل

---

(١) الإسراء: ٩.
(٢) الملك: ٢٢.

الله: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾[1].

وهذا حق لله ـ سبحانه ـ لا يشاركه فيه أحد أو شيء، فالله هو الخلاق الرزاق، ولا ينبغي للناس بعد أن خلقهم الله ورزقهم أن يشرعوا لأنفسهم أو يتخذوا منهجاً غير منهج الله، أوحكماً غير حكم الله. وقد استنكر الله سبحانه ـ على أناس إعراضهم عن حكمه وشرعه فقال سبحانه: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[2].

وهذا الإعراض لا يعنى غير الدمار، ولا يثمر غير الخراب والعثار، وهل الجور والبغى والظلم والقهر وإهدار كرامة الإنسان وأخذ الناس بالحديد والنيران، فى كثير من بلاد المسلمين غير أثر من آثار الإعراض عن حكم الله، والخروج عن منهجه وهداه؟

وإذا الشريعة فى البلاد تعطلت قُتّل الشبــاب وهُتّك النسوان

وإذا الرجال عن الجهاد تخاذلوا نُزع الأمان، وهُدِّم العمــران

كل الحقوق تضيع فى أوطاننا إن لم يساند حقها الرحمن

ولقد أمر الله رسوله ﷺ، وأمر الأمة كلها من ورائه باتباع الشريعة قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[3].

واتباع الشريعة لا يكون إلا إذا صارت الشريعة مظلّة تظلل المجتمع فى كل أنحائه وجميع مجالات الحركة والسلوك فيه، فلا ترى الناس يتعاملون بالربا ولا ترى الكرامة مهدرة، والحقوق مضيعة والمنكر ذائعاً والخمر شائعاً، ثم بعد ذلك تجد الناس يصلون ويصومون ، إننا إن فعلنا ذلك فقد جزأنا الشريعة نأخذ ما نشاء ثم نترك بعد ذلك ما نشاء، تبعاً للرغبات وجرياً وراء الهوى والشهوات: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾[4].

---

(١) الأعراف: ٣.

(٢) المائدة: ٥٠.

(٣) الجاثية: ١٨.

(٤) البقرة: ٨٥.

ليست هذه الشريعة ، إننا نأخذ بعضها ، ولو أضفنا إلى هذا البعض بعضاً آخر مثل قطع أيدى السارقين، وجلد ظهر القاذفين والشاربين ، لو أضفنا الحدود كلها لما كان ذلك تطبيقاً للشريعة، إن الشريعة إحقاق للحق، وإظهار للعدل، وإغناء للناس من الفقر والضنك، وإعلاء لكرامة المسلم فى مجتمعه وبين بنى البشر كافة فلا ذلة ولا هوان، ولا صغار ولا امتهان.

إن الشريعة إعلان لعلاقة الإنسان المسلم بالله وبالناس المحيطين، وبالكون كله، علاقته مع من يشاركونه دينه أو يخالفونه، علاقته مع الأقربين أو الأبعدين، علاقته مع الحاكمين أو المحكومين، وكل هذه وضعت لها الشريعة أسساً لا تختل، ومن ثم يكون الصراط المستقيم المتمثل فى شرع الله رب العالمين. وينبغى أن ننبه الأذهان إلى أمر هو من الأهمية بمكان، وقد سبقنا إليه الإمام ابن حزم حين قال: ينبغى للمسلم أن يكون له بيت يؤيه، وطعام وشراب ملائم، وكساء يكفيه صيفاً وشتاءً، ودابة يركبها فإذا سرق بعد ذلك طبق عليه الحد. ومعنى هذا القول أن الضرورات التى لابد منها لحياة الإنسان من طعام وكساء ومسكن ملائم ووسيلة للتحرك مناسبة وعمل يدر على الإنسان ما يحقق به الأشياء السابقة وما يزيد أحياناً كل هذه من الواجبات التى يلتزم بها الحاكم المسلم نحو كل فرد يعيش فى بلاد المسلمين مع تحقيق الأمان من الأعداء والأمان من كل اعتداء فى الداخل أو الخارج.

إن الإسلام رسالة هداية ، تهتدى به النفوس ، فتضع عن كاهلها إصر حياتها وأثقالها والأغلال فيستريح الناس،وليس الإسلام رسالة تهديد ولا وعيد،وما الحدود فيه والتعازير فى شريعته إلا وسيلة أمن للمجتمع من أفراد لا يجدى معهم الخير والنصح والخوف من الله، فليكن فى يد السلطان الذى يحكم بشريعة الله ما يردع الخارجين، ويقوم المعوجين ، فكانت الحدود حماية للمجتمع من الجائرين وكفى أنها حدود » فمن تعداها فقد أثم، وأصبح لزاماً على من فى يده سلطان الحكم بالشرع أن يعيد هذا الخارج على الحد

إلى مكانه المقبول فى المجتمع، إن كان خروجه يسيراً فإن اشتط فى الخروج عن الحد وإن هدد وأصبح مكمن الخطر للناس فى الأعراض أو الأموال أو الأنفس أو غيرها فليكن الحد رادعاً لغيره، وليذق جزاء ما اقترفت يداه ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [(١)].

إن الحدود جزء من الشريعة وليست هى الشريعة، ونحن لا ندعو لسن الحدود فى مجتمع الإسلام. ولكننا ندعو لتطبيق شريعة الله فى الأرض ليستريح الناس بعد عناء ويأمنوا بعد خوف ويشبعوا بعد جوع.

---

(١) آل عمران: ١١٧.

اليقين بمنهج الله طريق الخلاص من الفتن

قال: تتوارد الشبهات علينا من كل حدب وصوب، وتتعدد أشكالها ولا تختلف غايتها وإن اختلفت الوسائل، إذ إن غايتها إثارة الشكوك فى قدرة المسلمين على تخطى الصعاب التى تواجههم، وهم يحاولون أن يعيدوا صياغة الحياة بحيث لا تصطدم ولا تتعارض مع قيم الإسلام ومبادئه، وكثير من المسلمين يقع بعض الوقت أو كل الوقت فى مصيدة هذه الشكوك فلا يساعد على التقدم نحو طريق الإسلام، إن لم يكن عائقاً أمام السالكين إليه . فكيف يمكن الإفلات من براثن هذه الشكوك وعدم الوقوع فى مصايد هذه الشكوك؟

قلت: لن تتوقف إثارة الشبهات فى يوم من الأيام ولم تتوقف فيما مضى، فمنذ جهر الرسول ﷺ بالدعوة والشبهات تثار حول ما يدعو إليه بل تثار من حوله ـ لعلها تصرف عنه بعض من تبعوه، أو تمنع عنه بعض من يفكر فى الالتحاق بركب الدين: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾ [1]، ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ [2]. واتهموه تارة بالسحر وأخرى بالجنون وغير ذلك من التهم التى تلحق بالدعوة أو الداعية. وما زالت هذه الشبهات تثار لتلحق بالدعوة تارة أو بالدعاة تارة أخرى وهدفها الحديث كهدفها القديم «صد الناس عن سبيل الله». وهذا نوع من الابتلاء ليمحص الله به الصادقين أصحاب اليقين من غيرهم.

ومنهج الله ينفى عن نفسه الخبث كما ينفى الكير خبث الحديد، فلا تثبت أمامه شبهة وإن اتسعت دائرته؛ لأنه الحق وغيره باطل. والله أخبر فى كتابه بقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [3].

ودور الدعاة هو كشف وبيان منهج الله كما هو بغير لبس ولا غموض ولا تحريف ولا

---

(١)الفرقان: ٨.
(٢)الفرقان: ٥.
(٣)الأنبياء: ١٨.

تأويل ، مع اليقين الجازم بأن غيره من المناهج لا بقاء له ولا ثبات له فى الحياة.

وحين يستقر اليقين الذى لا يتزعزع فى قلوب الدعاة، ويبثونه فى عامة المسلمين من حولهم فإن الشكوك تزول ولا تبقى، وبقدر ما يكون اليقين عند الأفراد وعند الجماعات يكون الاطمئنان وتكون الاستقامة ومن ثم النجاة، واليقين نفهمه كما فهمه عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال: «اليقين ألا ترضى الناس بسخط الله، ولا تحسد أحدًا على رزق الله، ولا تلوم أحدا على ما لم يؤتك الله، فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص ولا يرده كراهة كاره فإن الله بقسطه جعل الروح والفرح فى اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط».

وهذا اليقين هو الذى جعل هودعَلَيْهِ السَّلَامُ يستقيم على المنهج ولا تحصل له حالات الاهتزاز التى تصاحب الضعف البشرى فقالها بوضوح لقومه: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾﴾ [١].

وصاحب اليقين لا يخاف الدوائر، ولذلك يصيب الحق، قال يزيد بن عبد الله بن موهوب ـ من قضاة العدل : «من أحب المال والشرف وخاف الدوائر، لم يعدل فيها». فمن تعلق قلبه بمتاع من مال ومنصب وجاه وغيره وخاف من الناس فإنه يضعف أمام واجباته وتثقل عليه التبعات وربما باعدت بينه وبين الطريق القويم لأنه يأوى إلى هوى الناس لا إلى أمر الله، والذين يأوون إلى أمر الله يدركون أنهم يأوون إلى ركن شديد فلا يخافون وهم يدلّون الناس على الحق ويرشدونهم إلى الخير، ودليلهم فى ذلك قول الله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [٢] تلك إحدى ثمرات اليقين التى يحصدها أصحابه وهم فرحون مستبشرون

---

(١)هود: ٥٥، ٥٦.

(٢)آل عمران: ١٧٣، ١٧٤.

برضوان من الله وفضل ورحمة وعفو.

فأصحاب اليقين لا يخافون إذا خاف غيرهم، ولا يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ولا يتبرمون فى الحياة لما لم ينالوه، ورضا الله هو غايتهم التى يشمرون فى سبيله عن كل وسيلة. وثقتهم فى أن الله مؤيدهم متأصلة فى قلوبهم مستمدة من هدى نبيهم أخبرت بذلك أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين كتبت إلى معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :أما بعد، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول:«من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكلَه الله إلى الناس»[1]، وحسبك شرًا بمن هو موكول إلى الناس، وحسبك خيرًا بمن هو موكول إلى الله. فأين عون السماء من عون البشر إن أعانوا.

إن اليقين ليس كلمة تقال باللسان أو بالقلم، كلا إنها سمة قلب عرف الله، وتقرب إليه بالغدو والآصال، حتى صارت التقوى زاده، والصبر غذاءه، والأمل فى الجنة أمام ناظريه، والخوف من النار بين عينيه فحاد عن طريق الفجار، وسلك طريق الأبرار، لأنهم فى نعيم: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [2].

إن اليقين يجعل المرء يعطى الدنيا قدرها ولا يعطيها أكثر مما تستحق، ويحاول أن يعطى الآخرة قدرها، لأنها «خير وأبقى» فلا تأخذ الدنيا منه غير ما به يعمرها ويوجهها الوجهة الصالحة، ويرشد فيها إخوانه إلى الصلاح والفلاح. وهذا بعينه جزء مما يعمله من أجل آخرته، فبينه وبين الدنيا عمران بغير تعلق قلبى، وبينه وبين الآخرة تطلع وشوق وعزم على المضى فى طريقها وسط صعاب الحياة التى لا تثنيه ولا تغريه لأن له غاية لا يستريح إلا عندها ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[3]، ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾[4]، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾[5]،

---

(١)أخرجه الترمذى (٢٤١٤)، وصححه الألبانى.

(٢) المطففين:٢٢، ٢٣.

(٣)غافر: ٤٣.

(٤)المائدة: ١٠٥.

(٥)النجم: ٤٢.

وهناك يحصد المؤمنون الموقنون ثمار اليقين الذى خالط قلوبهم من قبل فعاشوا به سعداء فى الدنيا، وهم يأملون أن تكون سعادتهم أكبر عند رب العالمين.

الإيمان بالقدر عزة للمسلمين

قال: يظن البعض أن ضعف الإيمان ناتج عن إيمانهم بالقضاء والقدر، فما دام قدر الله نافذًا لا محالة فيه فما قيمة حركة العبد الذى لا يملك تغييرًا، ولا يستطيع عن أمر الله تحويلاً، ولهذا فقد دبّ بين المسلمين روح الاستسلام، والكسل والخمول، فلم يبدعوا فى فن من الفنون ولا فى علم من العلوم، ووقفوا فى مداركهم العقلية عند حد معين، فسبقهم غيرهم، وجاء المسلمون فى مؤخرة الركب، ليأخذوا ما صنع غيرهم، ليعيشوا به وعليه وأظن أنا أن هذا الطابع الغالب على المسلمين سيستمر ما داموا مؤمنين بما هم مؤمنون به.

قلت: على رسلك - يا أخى - فلا تظلم أقدار الله فى تأخر المسلمين؛ لأن حركة الإنسان فى الحياة يصنعها الإنسان نفسه، الذى لم يخلق ذاته، بل خلقه الله، وأيًا كانت حركته فى الحياة فإنها لا تخرج عن منهج الله، وليست مناقضة لقدر الله، وهذه مسألة قديمة خاضت فيها الفرق الإسلامية من قديم، وبعضها ضلّ طريق الهدى، وبعضها وصل إلى طريق سوى ومرضى، ولا ينبغى أن نخوض فى بحر الخلافات حول مسألة انتهى بحثها من قرون، فإيمان الإنسان بالقدر خيره وشره، لا يلغى دور الإنسان ولا يلغى حرية اختياره لما يفعل ولما يدبر ولما يتجه إليه ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾[1]، والمؤمن الحق لا يترك ما أمر به من السعى والحركة فى الخير وإنمائه ونشره وترك الشرّ والابتعاد عنه، لا يترك ذلك وربما ارتكب عكسه من أجل أمر لا يعلمه وغيب لا يدركه، ثم يقول: هذا قدرى. لا وألف لا. إن هذا عجز يلوم الله عليه عباده ويحاسبهم على ما فرطوا فيه، وحرية المرء فى تصرفاته لا يشك فيها أحد، لأنها أمر ملموس، يشعر به كل فرد فى نفسه، ويحسن به كل أحد فى حركته.

وينبغى أن يبحث عن سبب آخر لحالة التردى التى يعيشها المسلمون اليوم، أو بالأصح ينبغى أن يبحث عن مبرر آخر لهذه الحالة التى طالت، والتى ينبغى الخروج منها بأى طريق.

---

(١) الإنسان: ٣.

ويوم أن كان المسلمون مسلمين حقًا ظهرت لديهم علوم باهرة ظل العالم كله يستمد من قبسها حتى وقت قريب، وليست جهود ابن النفيس وابن الهيثم والبيرونى وغيرهم ممن أبدعوا من علماء المسلمين بخافية على صاحب علم يقوده الحق ويرشد إلى الخير.

والإيمان بالقدر عنصر قوة للمسلم يدفعه إلى الحركة النامية فى الحياة، ويمنعه من الوهن، ويجعله غير متخاذل إن أَلَمَّ به كرب أو نزلت به نازلة، غير بطر ولا متجبر إن تحقق له ما يرجو، إن الإيمان بالقدر يا صاحبى ثبات للمؤمن يعلو به عن كل خوف مما يأتى، ويجعله يزداد ثقة فى طريقه؛ لأن دليله آيات الله، وقائده محمد بن عبد الله ﷺ، وهو إن عاش متبعًا منهج الله لا يضلّ فى الدنيا، ولا يشقى فى الآخرة، وإن عاش على غير ذلك كانت حياته ضنكًا، وهو يوم القيامة أعمى؛ لأنه عمى عن الحق فى الدنيا وظل حتى الممات كذلك.

ولكنى أزيدك بيانًا لهذا الأمر أقول: يمضى المسلم فى طريق الحياة والإيمان بقدر الله يظله، فلا يتجبر بما آتاه الله، ولا يتكبر على غيره من البشر، ولا يبطر بالنعم، وإيمان الإنسان بالقدر يحميه من أن يذل أو ينهار أمام شدائد الحياة إن لم يصل إلى الغاية المبتغاة، إن إيمان المؤمن بقدر الله ميزان عادل يجعل حياة المؤمن مستقيمة لا تميل إلى الإفراط ولا إلى التفريط فتطيش منه حينئذ إحدى كفتى الميزان فتختل حياته، ويتمنى لو وافته وفاته ليريح ويستريح، والقرآن الكريم يضع هذه الحقيقة أمامنا لنقيم عليها شؤوننا ونتمسك بها فى سيرنا بقول الله ـ سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [1].

ومن هنا يكون حسن الاعتقاد فى الله أهم العوامل التى ترطب القلوب فلا تجعلها الشدائد قاسية، فيتحمل المؤمن فى صبر وجلد ما قدر له، دون أن يتزعزع أو يتزلزل، أو

(١) الحديد: ٢٢ ـ ٢٣.

يضعف أو يهون، أو يستسلم للظالمين ويخرّ للطغاة المتجبرين، إن الثبات فى وجه الشدائد والملمات والكوارث والأزمات فريضة على المسلمين، مع أن الثبات قد يؤدى ببعض الأفراد إلى زوال الحياة حين يعتدى عليهم الطغاة البغاة، والثبات مطلوب ومفروض وإن أدى إلى تلك النتيجة فى بعض الأحيان؛ لأن مواقف الرجال تصنع الحياة والمبادئ التى يستمسكون بها هى طوق النجاة لكثير من الناس فى أجيال متعاقبة، وإن أدت هذه المواقف إلى هلاك بعض الأفراد، وموقف الإمام أحمد بن حنبل فى المحنة موقف عظيم إذ رفض أن ينجو بنفسه ويهلك ـ من ورائه ـ جموعًا كثيرة من المسلمين. فاحتمل وصبر وثبت فكان الفرج بعد الكرب، والمخرج من الضيق، ومن أين يأتى الثبات والتحمل والصبر والتجلد ما لم يكن إيمان بقدر الله؟ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾(1).

وما لم يكن التجاء إلى الله، ورضا بقضائه، وصبر على البلاء، وتماسك أمامه بقوة الإيمان المستمد من التعامل مع الله فى السراء والضراء والشدة والرخاء: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾(2).

إن مما يجب علينا ـ نحن المسلمين ـ أن نثبت وأن نصبر وأن نتقى الله فى أنفسنا وأولادنا وأموالنا وديارنا وأهلينا واثقين من نصر الله ومن تأييده وعونه، بعد أن نؤدى واجبنا فى الثبات والصبر، ولم لا يكون الأمر كذلك والله ـ سبحانه ـ هو القائل: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ﴾(3)، وهو القائل: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾(4)، وهو القائل: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾(5)، وبعد الثبات والصبر والتقوى والاستعداد ومجانبة الوهن والضعف والاستجداء، والبعد

---

(١) القمر: ٤٩.
(٢) التغابن: ١١.
(٣)آل عمران: ١٢٠.
(٤)آل عمران: ١٨٦.
(٥)يوسف: ٩٠.

عن الفشل والتنازع والتناحر والتباغض ينزل الله نصره على المؤمنين، فيفرحون ويسرون، وكما جاءهم البلاء الذى قدره الله، فصبروا وثبتوا، يأتيهم النصر الذى ينزله الله فيفرحون ويشكرون، فإيمان المؤمن بالأولى لا يقل عن إيمانه بالثانية،والغلبة فى النهاية للمؤمنين، والنصر للصادقين الصابرين: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾[1].

وقد يظن البعض أن الغلبة لله ورسوله تكون فى الآخرة: ولكنا نؤكد ما أكده الله لنا أنه ناصر رسله وأتباعهم المؤمنين فى الدنيا وفى الآخرة: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾[2].

فالنصر فى الدنيا للمؤمنين مؤكد فى القرآن الكريم لا يحتاج منا إلى تأكيد ما أكده الله - سبحانه، وفى مسيرة النصر وعلى الطريق المؤدية إليه لابد من الصبر، واستشعار معيّة الله، والإيمان بما قدره وقضاه، والثبات على الحق، وفى سبيل ذلك قد يفقد بعض الأفراد أرواحهم أو أموالهم أو ديارهم أو بعضًا من عشيرتهم، وكل هذا ليس خذلانًا ولا هزيمة ولا وهنًا، وإنما هو إحدى الحسنيين اللتين ذكرهما الله فى كتابه فى معرض ردّ المؤمنين على المنافقين: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾[3].

فالتربص والترقب من الطرفين موجود «فماذا يتربص المنافقون؟ إنها الحسنى على كل حال: النصر الذى تعلو به كلمة الله فهو جزاؤهم فى هذه الأرض، أو الشهادة فى سبيل الحق عليا الدرجات عند الله. وماذا يتربص المؤمنون من المنافقين؟ إنه عذاب الله يأخذهم كما أخذ من قبلهم من المكذبين أو ببطش المؤمنين كما وقع من قبل للمشركين، فتربصوا إنا معكم متربصون والعاقبة معروفة .. والعاقبة للمؤمنين»[4].

---

(١) المجادلة: ٢١.

(٢) غافر: ٥١.

(٣) التوبة: ٥٢.

(٤) فى ظلال القرآن (٣/ ١٦٦٤، ١٦٦٥) ط الشروق.

(والله قد كتب للمؤمنين النصر ووعدهم به فى النهاية فمهما يصبهم من شدة، ومهما يلاقوا من ابتلاء فهو إعداد للنصر الموعود، لينالـه المؤمنون عن بينة وبعد تمحيص، وبوسائله التى اقتضتها سنة الله نصرًا عزيزًا لا رخيصًا، وعزة تحميها نفوس مستعدة لكل ابتلاء صابرة على كل تضحية، والله هو الناصر وهو المعين: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾[1][2].

إنهم يتوكلون ـ لا يتواكلون ـ على العزيز الذى لا يغلب، القوى المتين: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾[3].

لقد ردّ الله سبحانه أبرهة عن الكعبة، دون أن يكون بين أهل مكة نبى مرسل ولا مؤمن مصدق، وردّ الله الأحزاب عن المدينة بعدما زلزل أهلها زلزالاً شديدًا فصبروا وثبتوا متوكلين على الله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾[4].

وقد كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه الصبر والثبات والتجلد والاحتمال؛ لأنه يعدهم إعدادًا حسنًا يظهر بهم وعلى أيديهم نور الله فى العالمين، هذا خباب بن الأرت يأتى إلى رسول الله ﷺ مثالاً من تضحية الأولين بأنفسهم فى سبيل الدين ثم يقول: «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»[5].

ما كان هذا الأمل العظيم الذى بشّر به الرسول الكريم ﷺ صاحبه ليتحقق إلا بعد صبر مرير وثبات طويل ثم يعقبه الفرج، ولتكن هذه الحقيقة ماثلة أمامنا دائما:

---

(١) فى ظلال القرآن (٣/ ١٦٦٤، ١٦٦٥) ط الشروق.
(٢)آل عمران: ١٦٠.
(٣)الحج: ٧٤.
(٤)فى ظلال القرآن (٣/ ١٦٦٤، ١٦٦٥)، والآية من سورة الأحزاب: ٢٥.
(٥) تقدم تخريجه.

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[1].

فلنعمل على نصر الله فى أنفسنا وبيوتنا وأهلينا ومجتمعنا، لينزل الله علينا نصره، ويذهب من قلوبنا الفزع من الأعداء، ويثبتنا على الصراط المستقيم، ولندرك أن علينا العمل لمواجهة الأعداء والابتلاء ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[2]، ثم بعد ذلك تجرى أقدار الله بما يشاء والخير آت لا محالة والنصر والغلبة للمتقين والهزيمة والشر للخائنين المعتدين. وعلىّ أن أسعى وليس علىّ إدراك النجاح.

(١)الحج: ٤٠.
(٢)البقرة: ٢٨٦.

القدس .. أينساها المسلمون؟

قال: تسير قضية الشرق الأوسط حسبما يخططه لها الأعداء، ينادون إلى السلام فنستجيب، ويكفّون عنه فنتوقف، وقد يطول التوقف أو يقصر، ونحن نتحدث عن السلام ولا حديث لنا عن الحرب، ونسى الجميع القدس إلا إسرائيل فإنها تعلن فى تصميم أن القدس الموحدة هى العاصمة الأبدية لها، وقد تجد لإعلانها ردّ قول لا ردّ فعل خافت فى الناحية المقابلة يقول على استحياء: إن القدس ستبقى عربية وسوف تكون عاصمة الدولة الفلسطينية، فهل تضيع القدس وسط ركام القضية وينتهى الأمر؟

قلت: قبل أن أتحدث ـ بإيجاز ـ عن قضية القدس لى ثلاث ملاحظات:

أولاً: استخدام التعبير الشائع (قضية الشرق الأوسط) إنه تعبير مختلق ملفق، ليعمى عن الحقيقة الواضحة وهى أن هذه القضية قضية المسلمين فى كل أرض، ومسؤوليتهم أمام الله يوم يلقونه عن التفريط فيها والتقاعس عن إرجاعها من أيدى مغتصبيها مسؤولية عظيمة، والأعداء ـ قبل غيرهم ـ يدركون مدى ملامسة المشاعر الدينية وأثرها فى إحقاق الحق ونصرته، وإزهاق الباطل، ولذا فلا يذكر اسم الإِسلام أو المسلمين فى هذه القضية حتى يتجنب اليهود المغتصبون المتاعب من وراء ذلك، ولذا تحول التعبير من كونها قضية إسلامية إلى قضية فلسطين، بحيث لا يهتم بها غير الفلسطينيين من المسلمين، فيضيق الاهتمام بها والالتفات إليها وفلسطين محددة معروفة، أرض عاش فيها المسلمون منذ عهد عمر بن الخطاب،فجاء اليهود بعصاباتهم إليها متسللين واغتصبوها من أصحابها، وشردوهم فى كل أرض.

وليس التذكير بمأساتها حين نقول «القضية الفلسطينية» مقبولاً، ولذا عدل عن هذا التعبير إلى «قضية الشرق الأوسط» حتى تظل فى دائرة المجهول؛ لأن الشرق الأوسط يشمل دولاً عديدة، ولكل دولة تقريبًا قضية أو أكثر، فماذا يعنى هذا التعبير عند القارئ العادى، لا شىء إنه يمر عليه مرور الكرام، فلا يتذكر مأساة الفلسطينيين ولايتذكر

اغتصاب أرض المسلمين ولا يتذكر ضياع مسرى الرسول الكريم ﷺ. وهذا ما أراده مبتكرو (قضية الشرق الأوسط) ونحن نقبله ونردده ونعلنه، فهل رأيت غفلة أكثر من هذه؟!

ثانيًا: إن عملية السلام التى يقولون بها الآن هى فى ذاتها خدعة تقل عن تعبيرهم: قضية الشرق الأوسط، لأن السلام يبنى على الحق ويقوم على العدل، ولا عدل ولا حق فى هذا السلام، فهل من العدل أن يظل الفلسطينيون مشردين، واليهود مقيمين فى أرضهم؟ وهل من الحق أن تطوق المدن والقرى فى الضفة الغربية بطوق من المستوطنات؟ وهل من الحق والعدل أن لا يدخل أحد أو يخرج من وإلى الضفة الغربية إلا بتصريح إسرائيلى؟ هل من الحق أن تغتصب دولة ويشرد أصحابها المسلمون ثم تفتح الدول العربية أبوابها للمغتصبين، وتقيم معهم العلاقات وتشاركهم فى المؤتمرات، ولا يطالب أحد بحق فى فلسطين، ثم يقولون: هذا سلام، ولو أحسنوا لقالوا: إنه استسلام.

ثالثًا: حسن منك التعبير (ردّ قول لا رد فعل) لأننا لا نفعل شيئًا مما ينبغى أن نفعله من أجل هذه القضية الإسلامية، وبينما اليهود يقولون ويفعلون، ترانا - نحن المسلمين - نقول ولا نفعل ويبدو أننا عما قريب قد نترك القول أيضًا.

هذه كانت ملاحظاتى على حديثك، أما الحديث عن قضية القدس المدينة المقدسة،التى استقبلت الخليفة عمر بن الخطاب منذ خمسة عشر قرنًا لتكون تحت مظلة الدولة الإسلامية فإنى أقول: إنها ظلت طيلة هذه القرون تحتضن المسلمين والمسيحيين من أبناء هذه البلاد العربية وغيرها بدون حجر على أحد أو رفض لأحد إلا أن يكون معتديًا باغيًا،مدينة القدس هذه تنتظر من يفك اليوم عقالها، ويدافع عن بقائها عربية مسلمة كما كانت، لا يصدّ عنها إلا من كان معتديًا باغيًا، لا يرعى لها حرمة ولا يحفظ لسكانها أمانًا ولا يرعى جوارًا.

إن مدينة القدس قد عانت من الاحتلال اليهودى الكثير تحت وطأة القوانين التى

وضعتها السلطة اليهودية بعد سيطرتها على القدس عام ٧٦٩١م؛ إذ تضاعف حجم القدس من وجهة «النظر الإسرائيلية» خمس عشر مرة بعد ٧٦٩١م على حساب القرى العربية المجاورة لها، وأدت هذه القوانين إلى خفض نسبة الأراضى العربية فى القدس من ٤٨ عام ٨٤٩١م إلى ٤١ عام ٤٩٩١م.وتأمل هذا التدرج الذى حدث فى القدس فبينما كان عدد اليهود عام ٨١٩١م لا يزيد على ٠١ آلاف شخص كان عدد العرب ٠٣ ألف عربى،وفى ٨٤٩١م زاد عدد اليهود إلى ٠٨ ألف يهودى ثم إلى ٠٨١ ألف ٧٦٩١م ثم ٠٣٤ ألف ٤٩٩١م بينما وصل عدد العرب طول هذه السنين ٠٥١ ألف عربى ليصير اليهود بذلك أغلبية فى المدينة المقدسة، وبعد بدء عملية السلام أنشأت إسرائيل ٠٢١٥١ شقة سكنية جديدة فى القدس الشرقية لاستيعاب ٦٧ ألف يهودى، وأنشأت ٠٠٤ كم من الطرق لربط هذه المستوطنات وحمايتها.

ومعنى ذلك أن اليهود يغيّرون معالم المدينة وينتزعونها من تحت أقدام العرب بالقوانين الجائرة ونزع الأرض وزيادة السكان اليهود وإقامة المستوطنات وغير ذلك من الوسائل، ثم لا يكفّون عن تصريحاتهم بأن القدس الموحدة هى العاصمة الأبدية لإسرائيل. ورغم ذلك فالأمل فى تخليص هذه المدينة من براثن اليهود لا يغيب، حتى تظل لها سمتها التى صحبتها طوال القرون، سمة التسامح والعدل، تحت السيادة العربية المسلمة والابتعاد عن الجور والعصبية.

إن هذه المدينة تحوى فى قلبها بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين ومسرى الرسول الأمين ﷺ، وللمسلمين فيها تاريخ حى على مدى الأجيال، فكيف يمكن الآن أن تكون العاصمة الأبدية لإسرائيل؟ ويبدو أن هذا الأمر يعد له بالتدريج فمنذ فترة وافق «الكونجرس» الأمريكى على نقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس.

وهذا كله يفرض على الأمة المسلمة أن تعمل ما تستطيع فى سبيل استخلاص القدس وتحريرها من هذا الرق الذى يكتم أنفاسها ويحاول أن يجعلها مكانًا للكيد والافتراء على

المسلمين، وما تستطيعه الأمة العربية ومعها الأمة الإسلامية كثير لو تآلفت القلوب وتآزرت الجهود وتكاتفت الأيدى.

إن القدس والمسجد الأقصى فى كتاب الله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ (١).

فالتفريط فيه ليس من حق أحد، كما ليس من حق أحد أن يتنازل عن قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ (٢).

فقتال اليهود قادم، وسنن الله متحققة، وحديث النبى ﷺ حق واقع: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبد الله! هذا يهودى خلفى، فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود» (٣).

فالمسجد الأقصى ليس سلعة للمزايدات السياسية والخطابات الحماسية فما ضيّعه ومكّن اليهود منه إلا الخطابات والمزايدات من الخمسينات إلى يومنا هذا فى التسعينات، ولا زالت قضيته يستفيد منها الجميع إلا أصحابها وأصحابها هم من كانوا على ما كان عليه أصحاب النبى ﷺ، ومن حين لآخر تستغل قضية القدس لأغراض ذاتية أو قومية أو وطنية، فإذا ما تحققت هذه المصلحة، وضعت قضية القدس فى التابوت لتخرج منه مرة أخرى حينما يراد ذلك لخدمة شخص أو وطن أو أوطان. يزاح التراب عن قضية القدس وتنفخ فى أبواقها الإذاعات وتظهر الصحف بخطوط عريضة للقدس الذبيحة ثم لا شىء، بعد ذلك طريق القدس يعرفه القاصى والدانى من المسلمين إنه الجهاد ولا شىء غيره: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (٤)، فهل فعل أحد ذلك؟!

---

(١) الإسراء: ١.

(٢) التوبة: ٣٦.

(٣) أخرجه البخارى (٢٩٢٦)، ومسلم (٢٩٢٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه.

(٤) البقرة: ١٩٤.

الحـــق الأبلج

قال: أليس ربنا اتخذ اسمًا من أسمائه؟ أو ليس ديننا هو الحق وكتابنا هـو الحـق ومنهجنـا هو الحق؟ أليس ما جاء به الحديث «أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حـق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق»[1] أليس هذا كله صدق؟

قلت: بلى هذا كله حق نؤمن به ونستمسك بعروتـه ولا نـماري فيـه أو نـشك لحظـة مـن اللحظات تحت أى ظرف من الظروف. فما الذى جعلك تسأل عمّا تعلم؟ وتثير بيننـا مـا لا تجهل وقد عهدناك فطناً لا تتكلف فى الكلام، ولا تختلق ما لا يقال؟

قال: يا شيخنا، رأيـت الباطـل يـزداد ويزهـو، حـين يرفـع بعـض النـاس رايتـه، وتعمـى عيونهم عن أن ترى الحق رغم وضوحه، وإن رأته عجزتْ عن اتباعه، وضعفتْ عن تحمـل تبعاته وتفلتتْ من ضوابطه، وخرجت عن حدوده، وكانـتْ كـالفراش الـذى يـتقحم النـار برغبته، ويفر من السلامة بكل قوته، فلماذا لا يتبـع النـاس الحـق؟ هـل لأن نعـم الله التـى لم يـشكروها غـرتّهم فظنـوا أنهـم مـن النـاجين؟ هـل لأنهـم لم يعرفـوا لـذة الحـق؟ هـل لأنهـم يفرحون بلذة عاجلة ـ هـى لـذة الباطـل ـ التـى تعقـب حـسرة وندامـة؟ وكيـف تـنهض أمـة يرتفع فيها الباطل وينزوى فيها الحق؟

قلت: الذين اكتووا بنار الباطل يعرفون قيمة الحق، والذين ذاقوا مرارة الظلـم يـدركون قيمة العدل، ويعلمون أن الساكت عن الحق شيطان أخرس، ويشيع فيهم القـول المـشهور: «لعـن الله قومـاً ضـاع الحـق بيـنهم»،ومادامـت كلمـة الحـق مـن الـدين فـنحن بحمـد الله ـ قائلوها، وللناس مبينوها، ليعلم الناس أن دين الله لا يكيـل بمكيـالين، ولا يـزن بميـزانين، إنما هو ميزان واحد يزن به للناس أجمعين، إنـه ميـزان الحـق والعـدل نستـسمك بـه ونعلنـه؛ لأننا نعلم أن دين الله لا يقوم به إلا مـن يحيط بـه مـن جميـع جوانبـه، ولأننـا نعلـم أن اتبـاع الهوى ضلال مبين، وخسران أكيد، وأن ضياع الأمـم إنـما يبـدأ حـين يختفـى الحـق ويتفـشى

(١)أخرجه البخارى (١١٢٠) .

الباطل أو يختلطان اختلاطاً تزول معه معالم الحق، وتبقى به آثار الباطل، والله قد نهى عن ذلك فقال: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾(١).

وعاب الله على قوم أنهم يكتمون الحق مع علمهم به فقال سبحانه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾(٢).

والحق هو ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله ليبلغه للعالمين ليعلموه ويعملوا به فيسعدوا فى الدنيا والآخرة. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾(٣).

والحق من أسمائه - سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾(٤) وبه قامت السموات والأرض: ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾(٥).

وقد قرر المولى - سبحانه - أن كثيراً من الناس يكرهون الحق، قال سبحانه: ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾(٦).

وليس صلاح الناس فى اتباع أهوائهم ورغباتهم؛ إذ فى هذه الأهواء فساد لهم أى فساد: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾(٧)، والله هو الحق المبين، وهو - سبحانه - لا يستحى من الحق، ونحن كذلك لا نستحى من الحق لأن فيه صلاحنا وفيه خيرنا وفيه نجاتنا إذ الذين جادلوا بالباطل أهلكهم الله:

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾(٨).

---

(١)البقرة: ٤٢.
(٢)آل عمران: ٧١.
(٣)النساء: ١٧٠.
(٤)الحج: ٦.
(٥)الروم: ٨.
(٦)الزخرف: ٧٨.
(٧)المؤمنون: ٧١.
(٨)غافر: ٥.

ولا جدال لنا بالباطل، بل إن كلمة الحق التى يرضاها الله هى غايتنا وهى مقصدنا، ولذلك نادينا من قبل وما زلنا ننادى برفع الظلم عن الشرفاء وتحقيق العدل بين الناس إذا كان هناك مسيئون من بينهم فلنأخذ على أيديهم ونحاسبهم على ما قدموا من إساءات، أما أن نأخذ الشريف بذنب المسيء، ونأخذ البريء بالمجرم، ونعاقب بالظّنّة والشبهة فذلك باطل لا يرضاه الله ورسوله وصالح المؤمنين، ولنذكر دائما قول الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾[1].

وهذا الكلام يسوقنا للحديث عن الأمن وضرورة ضبطه، لأنه أساس البناء والاستقرار وإذا ما ضاع الأمن وحلّ الخوف فلا استقرار ولا اطمئنان على نفس أو مال أو حتى عرض وشرف. ضبط الأمن ينظم الحياة فتختفى الفوضى ويزول العجز، ويمحى الفساد، وتحل الأمانة ويوسد الأمر لأهله الموصوفين بالقوة فى الأداء والعمل بهمة، والأمانة فى المحافظة على المكتسبات وإيصال الحقوق لأصحابها، والعمل على تقدم الأمة ورفعتها.

وبهذا تنهض الأمة من كبوتها، وتقوم من عثرتها، حين يزول من حياتها العجز والكسل وحين تنمحى الخيانة وتحل الأمانة وحين يؤدى كل إنسان واجبه تاماً كاملاً وحين لا يظلم إنسان فوق هذه الأرض، حين يستظل الناس براية الحق، وترفرف عليهم أعلام العدل، وتزول من بينهم المظالم والظلمات والضغائن والأحقاد.

---

(١) النحل: ١٢٦.

الصفح طريق المحبة

قال: كثيراً ما أشاهد القطيعة بين أناس مسلمين وحّد الإسلام وجهتهم ومنهجهم وأمر بالتواصل فتقاطعوا، وبالتعاون فتدابروا، وبالتراحم فقست قلوبهم، فلا رحمة بضعيف، ولا نصرة لمستغيث.

وكان من أثر هذه الصفات الشائنة أن ظهرت الأحقاد إلى الوجود بعد أن امتلأت بها القلوب والصدور، فشقى بهذه الأسقام أناس مخلصون ولم يتخل عنها أناس غلب عليهم الجهل والطيش، فلم تعرف السماحة باباً لقلوبهم، ولا التجاوز عن الأخطاء طريقاً إلى نفوسهم.

فكيف يتخلى المسلمون عن مثل هذه الأخطاء المدمرة؟

قلت: المحبة لا خيار لنا فيها فهى الطريق للجنة قال النبى ﷺ: «والذى نفسى بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا..» الحديث[١]. والمحبة لا تخفى فهى كما قيل: روائح نسيم المحبة تفوح من المحبين وإن كتموها، وتظهر عليهم دلائلها وإن أخفوها وتبدو عليهم وإن ستروها، ولم لا تكون بهذا الظهور والنبى ﷺ يقول: «الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[٢]؟ ومحبة كهذه هى من صنع الله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ ﴾ [٣] فهى كرم الله فى عنايته بعباده: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِىٓ ٣٩ ﴾ [٤] أوجدها فى نفوسنا ووهبنا الله إياها فجعلتنا نفكر بطريقة أهل الآخرة: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧ ﴾ [٥].

محبة جعلتنا نعيش ونحيا فى قيم ومبادئ طاهرة لا يعرفها أصحاب المصالح الدنيوية

---

(١)أخرجه مسلم (٥٤)، وأبو داود (٥١٩٣)، والترمذى (٢٥١٠)، وابن ماجه (٦٨)، وأحمد (٢/ ٣٩١).
(٢)أخرجه البخارى (٣٣٣٦)، ومسلم (٢٦٣٨).
(٣)السجدة: ٧.
(٤)طه: ٣٩.
(٥)الحجر: ٤٧.

والألاعيب السياسية، فأحيوا قيمة ضمضمية أصلها الصحابى الجليل ضمضم قيمة العفو عند المقدرة شعارها فيها «ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً»[١] حيث علم من الحال أن أثر العفو من الحلاوة والطمأنينة والسكينة وشرف النفس ما ليس فى الانتقام، فالعفو يكسر شوكة العدواة، وقد قيل: إنه من أساء إليك فهذا قد وهبك حسناته، فإن كنت من أهل الكرامة فأثبه على فعله بإحسانك لتثبت الهبة، وهذا أمر لا يستطيعه إلا العارفون بربهم كما فى قولهم: «كن مع الحق بلا خلق ، وكن مع الخلق بلا نفس». وقمة هذا الخلق وأصله الذى انبثق منه ما كان عليه ﷺ فى غزوة الفتح فى قوله لأهل مكة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[٢]، فالعفو مكرمة عظيمة لا يستطيعها إلا من امتلأ قلبه تقى وإيماناً، فاتبع أمر الله، وخالف هواه، وعاش فى دنياه ناظراً إلى آخرته مؤملاً من الله أن يغفر له ذاكراً فى كل موقف قول الله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[٣].

فالمؤمن الصادق يعفو عن المسيئين ثم ينسى إساءتهم وكأنها لم تكن، فلا يمنُّ عليهم بعفو، ولا يبخل عليهم بنصح، ولا يشعر نحوهم بحقد أو غل، بل ربما أحسن إليهم؛ لأن الله يحب المحسنين وهو يتعامل مع رب العالمين، وينسى المخلوقين فيذكره ربه ويبدله من عسره يسراً ومن خوفه أمناً ومن فقره غنى؛ لأنه يعيش فى معية الله ويتبع أمره، ويقود زمام نفسه فليس للشيطان على قلبه سلطان، فقد استبان له الأمر ووضح له الرشد، وقرأ قول الله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[٤].

والعافون عن الناس يتبعون السنة النبوية الكريمة؛ إذ ما كان رسول الله ﷺ ينتقم لنفسه قط إنما يغضب إذا انتهكت حرمات الله، أما لنفسه فلا، لأن الله أدبه وأمره بالصفح

(١)أخرجه مسلم (٢٥٨٨)، والترمذى (٢٠٢٩).
(٢)تقدم تخريجه .
(٣)النور: ٢٢.
(٤)آل عمران: ١٣٤.

فقال: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾[(١)].

وما أجملنا حينما نردد ما كان يردده أبو ضمضم رضي الله عنه الصحابى الجليل فى كل صباح: «اللهم لا مال لى أتصدق به على الناس فمن شتمنى أو قذفنى فهو فى حل» حيث نبينا ﷺ يقول عند سماعه لهذا الدعاء: «من يستطيع منكم أن يكون كأبى ضمضم»[(٢)] وهكذا كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وبهذا كانوا من أهل الجنة وهم يمشون على الأرض، كذلك الرجل الذى أخبر عنه النبى ﷺ بأنه من أهل الجنة ثلاث مرات، وسبب هذه البشارة ما قاله الرجل لعبد الله بن عمر: «ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه»[(٣)]، وبهذا الحب أحيا المرابط قيمة الرحمة بمفهومها الواسع الذى قال عنه ﷺ: «والذى نفسى بيده لا يضع الله رحمته إلا على رحيم»، قالوا: كلنا يرحم، قال: «ليس برحمة أحدكم صاحبه، يرحم الناس كافة»[(٤)].

وبعد هذا الإجمال نؤكد أننا لا نحمل فى قلوبنا على إخواننا من المسلمين أجمعين شيئاً؛ لأننا بفضل الله لم نرتبط معهم بمصلحة دنيوية أو بمكسب زائل إن أعطينا منه رضينا وإن مُنعنا سخطنا، ويكفيهم ويكفينا حديث النبى ﷺ: «ما من مسلم يخذل امرءاً مسلماً فى موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله فى موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلماً فى موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته»[(٥)]، وبمثل هذه الأخلاق يتم تآلف المسلمين وتراحمهم وتناصرهم.

---

(١) الحجر: ٨٥.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٨٦)، وقال الألبانى: « صحيح مقطوع ».

(٣) أخرجه النسائى فى الكبرى (١٠٦٩٩)، وأحمد (٣/ ١٦٦)، وقال الأرناؤوط: « إسناده صحيح على شرط الشيخين ».

(٤) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٧/ ٤٧٩) (١١٠٦٠)، وأبو يعلى فى مسنده (٧/ ٢٥٠) (٤٢٥٨)، وقال حسين سليم أسد: « إسناده ضعيف ».

(٥) أخرجه أبو داود (٤٨٨٤)، وأحمد (٤/ ٣٠)، وضعفه الألبانى.

بين المحبة النافعة والنصيحة الصادقة

قال: حدثتنى عن الصفح والعفو، وأن المحبة ثمرة من ثمارها بل هى أعظم الثمار التى نشتاق إليها فلا نجدها، ونود أن نراها فلا نبصرها، ونتأملها طيفاً هائماً فى دنيانا من غير أن نتحسسها، وضربت لنا أمثلة من حياة السابقين، الذين سلمت صدورهم، فكانوا صادقين فى محبتهم. ولقد فشت هذه الأخلاق فيهم، فلماذا فشا عكسها بيننا؟ وهل العفو وحده هو طريق المحبة؟ وهل المحبة لا تكون إلا بين المؤمنين؟وما موقع النصيحة من المحبة مع أن النصيحة لا تكون إلا حين يوجد خطأ ما؟ والناس ينفرون إن أخبرتهم بخطئهم أو قل: بعيبهم. فكيف تتفق المحبة مع النصيحة؟ وكيف نحقق هذا فى دنيانا اليوم دون أن تتفكك الروابط وتنقطع الأواصر؟

والناس إما على الحق فلا يستحق نصحاً وإن أحببته، وإما على الباطل فلا يقبل نصحاً وإن بذلته؛ إذ يرى أنه فى غنى عنه، ولا يمكن أن تقوم صلة مع أمثال هؤلاء من أى نوع كان، فكيف تكون صلة محبة؟

قلت: حقا الناس رجلان: محب للحق لا يألم إن نصحته حين يفعل ما يستوجب النصح؛ لأنه يدرك أنه غير معصوم وأن الناصح له يريد أن يرشده وأن ينبهه إلى بعض ما فيه، فيقدم له أعظم هدية، هدية النصيحة، التى بها يتخلص من عيوبه، وينجو من الهوى وظلم النفس الأمّارة، ويصبح بين الناس برّا كريماً، يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه فلا يضيق بنصيحة، بل ويقدر الناصحين ويعتبرهم أصحاب فضل عليه عميم، ولعل هذا المعنى هو ما قصده عمر ابن الخطاب ﷺ حين قال: «رحم الله امرأ أهدى إلىّ عيوبى»[(١)].

فهذا أحد الرجلين، وثانيهما رجل لا يحب الحق ولا يتبعه؛ لأن هواه أضله وأغواه، وشيطانه وسوس إليه واحتواه، وهذا لا نكره شخصه وإن أنكرنا عمله، ونحن نفتح له

---

(١) انظر : سنن الدارمى (١/ ١٦٦) (٦٤٩) .

باب قلوبنا إن عاد عن غيّه وثاب إلى رشده، وترك الضلالة، وابتعد عن كل ما يشين ويغضب رب العالمين.

وكلا الرجلين لا نتخلى عن نصحه ولا نعرض عن حبه، فلا نكون عوناً للشيطان على الشارد البعيد، ولا نضن بإظهار الفرحة والرحمة والمحبة بصاحب الحق القريب، ونحن فى ذلك بنور الإيمان نستضىء، وبهدى القرآن والسنة نهتدى، وبالسلف الصالح نقتدى، وقد قامت حياة المسلمين وتماسكت جوانبها، وترابطت لبناتها على الحب فى الله وأدنى مراتبه سلامة الصدر من كل ما يشين ويبغض المسلم لإخوانه، فإذا سلمت الصدور حسنت النوايا فى التصرفات، والتمس الناس الأعذار للمقصرين، وشاعت النصيحة الصادقة بين المؤمنين: «وأحبّ لأخيك ما تحب لنفسك تكن مؤمناً»[١] فلا يكتمل الإيمان إلا بالمحبة، ولا يقوم الإيمان الصحيح إلا بعد درجة المحبة التى يحققها الإنسان فى نفسه ثم يرتقى منها إلى درجة الإيمان يقول ﷺ: «والذى نفسى بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[٢]، ولأن هذا الحب فى الله أساس كل خير به تتواصل القلوب، ويعفى عن المسيئين، ويقدم العون للمحتاجين، ويرحم الفقراء والمساكين، وقد يصل الإنسان ـ بالحب ـ إذا رعاه ونّماه إلى درجة الإيثار فيقدم لمن يحبهم الكثير مما هو فى حاجة إليه، ولأن الحب كذلك فلا ينبغى أن يصان فى السرائر ويظل فى طى الكتمان، فالرسول ﷺ أمر بإعلان هذا الحب بين المحبين وإخبارهم به، فقال ﷺ: «إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه»[٣]، وهذا أمر بالخير، وأولى بأمور الخير النابعة من القلوب أن تتحدث بها الألسن وأن تشيع بين المؤمنين، ليعلم من لم يكن يعلم، أن الحب رباط متين وأن على المسلم أن يبادل إخوانه حباً بحب: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾[٤] فلا يخبر أخ أخاه بحبه له إلا ويجلب من قلبه

---

(١) أخرجه الترمذى (٢٣٠٥)، وابن ماجه (٤٢١٧)، وأحمد (٢/ ٣١٠)، وحسنه الألبانى.
(٢)تقدم تخريجه .
(٣)أخرجه أبو داود (٥١٢٤)، والترمذى (٢٣٩٣)، وصححه الألبانى.
(٤)النساء: ٨٦.

الرضا، ويزيل من نفسه الغضاضة، ويحيى عنده الأمل فى أهميته كعنصر بشرى فعّال فى مجتمعه يحرص عليه الآخرون، إذ هو بينهم محب محبوب إلف مألوف، فيسعد بالناس ويسعد به الناس، ويتحقق بينهم وبهم ومعهم الخير، «ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»[(١)].

وعلى المسلم أن يخلص كل عمل يعمله لله رب العالمين وخاصة أعمال القلوب، ومنها الحب فلينظر الإنسان ما دافع هذا الحب؟ ولمن؟ ولماذا ؟ إذ على إجابة هذه الأسئلة تترتب نتيجة هذا الحب، فينال المرء الثواب أو العقاب،فالذين ﴿يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾[(٢)]، والذين يحبون الشهوات، والفاحشة وما حرم من الملذات هم معذبون إن لم يتوبوا من ذنوبهم، ويعودوا إلى رشدهم، والذين يحبون الصالحين، ويقبلون على الصادقين ويميلون إلى الناصحين المخلصين هم معهم يوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، والرجل الذى جاء إلى رسول الله ﷺ يخبره قائلاً: يا رسول الله إنى إذا لم أرك اشتقتك فذكرت الآخرة، وإنك إن دخلتَ الجنة لم أرك لأنك فى درجة الأنبياء والمرسلين، وأنا بعيد عن هذه الدرجة، ويخبره الرسول بالقول المبين، الذى فيه فصل الخطاب: «المرء مع من أحب»[(٣)]، وكم فرح بها المحبون؛ لأن حبهم للأنبياء والمرسلين والشهداء والصالحين والصديقين والمتقين يجعلهم معهم فى درجاتهم فى جنات النعيم،وإن لم يبلغوا بأعمالهم مبلغ هؤلاء، فإن حبهم لهؤلاء رفع منزلتهم وأعلى فى الجنة درجتهم، ومن هنا قال أحد المحبين الصادقين: (أحب الصالحين ولست منهم) لمعرفته أن محبتهم توصل إلى درجتهم، فهيا شمّر عن ساقك أيها المسلم، واستشعر محبة الله ورسوله والصالحين، لتصل إلى الدرجات العلا، وإن قصر عملك عن أن يلحق بهؤلاء.

---

(١)أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٠)، والبيهقى فى الكبرى (١٠/ ٢٣٦)، وحسن إسناده الأرناؤوط.

(٢)النور: ١٩.

(٣)أخرجه البخارى (٦١٦٨) ومسلم (٢٦٤٠).

والمحبة ليست وقفاً على الخلق وحدهم، ولا حكراً على البشر، إن الملائكة لتحب الصالحين وإن الله ليرضى عن بعض عباده فيحبهم واقرأ قول الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [(١)] فالمحبة هنا من العبد لله ومن الله للعبد، وهى محبة يرتفع بها قدر العبد على كثير مما خلق الله، وطريق محبة الله معروف لا خفاء فيه ولا لبس، إنه الأخذ بمنهج الله، والالتزام به، وجعله سلوكاً فى الحياة: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [(٢)] واتباع الرسول ﷺ هو الموصل إلى محبة الله، وبهذا المنهج الذى يلتزمه المسلمون فى جميع تصرفاتهم، وفى كل أحوالهم وأوقاتهم، أينما وجدوا وحيثما حلّوا، بهذا المنهج يصلون إلى أن يحبهم الله، بل ونقول صادقين إن العبد لا يحقق لنفسه درجة الحب من الله فقط، ولكنه يحقق مع هذه الدرجة الرعاية من الله والتوفيق فى كل أمور الحياة إن أخذ نفسه ـ بعد الفرائض ـ بالتزام النوافل أو ليس رسول الله ﷺ هو القائل فيما يرويه عن ربه: «ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها و..»؟ [(٣)].

فمع الحب من جانب الله تكون الرعاية والحماية،ولا خوف على عبد يرعاه الله، ويوفقه فى حياته إلى السداد والخير.

وإذا أحب الله عبداً نادى جبريل إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل وينادى فى أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول فى الأرض. يقبل عليه الناس ولا ينفرون، فهو لا يخدع ولا يغش ولا يفعل شيئاً بعيداً عن الحق، متسامح فى حق نفسه، متمسك بشرع ربه، لا يحيد إن حاد الناس، ولا يضل إن شرد الناس فهو مع الكتاب حيث سار ومع الحق حيث حلّ، ومع الله فى كل حين.

والحب طريق للخير بين العباد، والبغض طريق الشر، وهل يجنى من الشوك العنب؟

---

(١)المائدة: ٥٤.

(٢)آل عمران: ٣١.

(٣)أخرجه البخارى (٦٥٠٢).

إن الفطرة السوية التى استقامت على الجادة تدرك ما نقول، وهى تصدق بغير ما دليل أو بينة لأنها تحس بذلك فى ذاتها، وتعرف هذا من طبعها والأمر لا يحتاج عندها إلى دليل، إذ هو من الوضوح بمكان عظيم، متى احتاج النهار إلى دليل؟ ولكن النفوس ليست سواء، والفطر المنكوسة موجودة بيننا وقد تحتاج فى بيان أن الحب طريق الخير إلى دليل ومرشد.

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

ودليلنا قول الرسول ﷺ: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم» [(١)].

والمحبة لا تخفى، فروائح نسيم المحبة تفوح من المحبين وإن كتموها، وتظهر عليهم دلائلها وإن أخفوها، وتبدو عليهم وإن ستروها «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تنافر منها اختلف»[(٢)].

ومع الإلف والحب والمودة لا تختفى النصيحة بسبب الحب، بل إنها لتقوى وتشتد، وتكون فى مجتمع المحبة الإسلامى شجرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر باسقة عالية يستظل بظلها المحبون، فيجازى المحسن - بينهم - بإحسانه، ويمنع المرء بينهم من أن يسيء أو يُساء إليه، وأى سعادة أقوى وأعظم من ذلك؟

فالنصيحة التى هى الدين، كما أخبر الرسول الكريم، مقياس لاستمرار الخير والسعادة فى الدنيا، وبعد عن الشقاء والضلال والعذاب، فإن تركت النصيحة وسكت عنها الناس؛ لأنهم يحبون المنصوحين كان العذاب المبين: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [(٣)].

ذهبت عنهم نعمة الله، وحلّتْ بهم نقمته، دون أن يأسى عليهم أحد أو يحزن: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [(٤)].

(١)أخرجه مسلم (١٨٥٥) وأحمد (٦/ ٢٤).
(٢)تقدم تخريجه .
(٣)الدخان: ٢٥ - ٢٨.
(٤)الدخان: ٢٩.

ومع النصيحة لا تكون الفضيحة والتشهير، بل الستر، حتى لا يتسع الخرق على الراقع وما لم يجاهر الناس بمعاصيهم ويتحدّون شرع الله، فإن النصيحة هى الطريق، والستر ثوب توارى به العورات، وتغطىّ به السوءات، ولنعلم: «أن الله حيىّ ستّير يحبّ الحياء والستر»، ولكن الستر وإن أجدى مع الأفراد، فإنه لا يجدى إن عمت البلوى وقد عمت فى ديار المسلمين، بعدم تطبيق شرع الله، وعدم الأخذ بكل ما فى كتاب الله مع أن فيه شرفنا وفيه عزنا:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١﴾ [(١)].

والآيتان فى سياقهما وترتيبهما لكأنما تخبر ثانيتهما أن الذين لا يتمسكون بالكتاب يهلكهم الله، ويزيل دولتهم، ويذهب من الحياة شوكتهم فيكونون غثاء كغثاء السيل، إن هم كتب لهم البقاء، وقد يستأصلهم الله، ويستبدل بهم غيرهم ثم لا يفرطون مثلهم بل يتمسكون بالكتاب، ويقيمون شرع الله فيجعلهم الله من الصالحين المصلحين: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝١٧٠﴾ [(٢)].

إن عبر الماضى أمامنا تخبرنا بخبر السابقين فحين تمسكوا بالقرآن، ومارسوا الإسلام خضعت لهم الأمم، وأذلّ الله لهم العظماء، وحين فرّطوا فى الكتاب كانت الهزائم تتتابع، وحين ألقى المسلمون دينهم خلفهم ظهرياً يأخذون منه ما يريدون ويتركون ما لا يحبون صاروا أكداساً من البشر فوق رقعة من الأرض، مزينة بالمال والمتاع، وحوكم الإسلام نفسه بالمسلمين، فغفلتهم وتأخرهم، وسيطرة الآخرين على مقدراتهم، ألصقت كلها بدينهم والدين منها براء، الدين قوة والمسلمون فى ضعف، الدين عزة والمسلمون فى ذلّ، الدين سيادة ورقى والمسلمون على غير ذلك فأين هم من الدين.

---

(١)الأنبياء: ١٠، ١١.

(٢)الأعراف: ١٧٠.

يا قومنا، إننا لكم من المحبين، وهـذا مـا حـدا بنـا لأن ننـصح ونبـين، ولـو لم نحـبكم مـا نصحنا لقد كان رسول الله ﷺ وهو المحب لأمته يحذرها مـن المهلكـات، دخـل فزعـاً عـلى زينب بنت جحش فقال: «ويل للعرب مـن شرٍّ قـد اقـترب». فقالـت زينـب: أنهلـك وفينـا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث»[1].

وما لم يأخذ الناس أنفسهم بشرع الله فسيكثر الخبث، وحينئذ يكون الهلاك.

فيـا مـن نحـبهم فى الله، هـذا هـو الطريـق ـ شرع الله ـ وإلا فـالهلاك والـدمار، اللهـم إنـى بلغت؟ اللهم فاشهد.

---

(١) أخرجه البخارى (٣٣٤٦) ومسلم (٢٨٨٠) .

لئن شكرتم لأزيدنكم

قال: لا تسير الحياة على وتيرة واحدة، ولا تمضى على نمط لا يتبدل ولا يتغير، فالنهار يعقبه ليل، والبرد يخلفه الحر،وهياج البحر يتلوه السكون، والإنسان تتوارد على حياته عواطف شتى من الحب والبغض والرضا والغضب، والعنف والحلم،نتيجة للأحداث من حوله، والأشخاص المحيطين به، ولن يدوم له السرور ولن تظل الأحزان له ملاصقة غير مفارقة، ولن يستطع إنسان سوىّ أن يسلم من آثار الأحزان أو الأفراح إلا بجهد جهيد فهل لذلك من تفسير أو تأويل؟

قلت: البلاء فى هذه الحياة سنة من سنن الله يختبر الله به عباده فى حالتى الصبر والشكر، فإن صبروا كانت لهم العاقبة، وإن عجزوا لم ينالوا مما يؤمّلون شيئاً. وقد بينا ذلك من قبل فى شىء من الاستفاضة.

ونود هنا أن نركز على أن المحن لا ينبغى أن تصرف الإنسان عن فعل الخير، كما أن المنح لا ينبغى أن تصرف الإنسان عن شكر النعمة، وحالة الوسط التى جعلت عليها الأمة ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (١) هى التى يجب على المرء أن يتحراها فى حالتى النعمة والنقمة على السواء؛ إذ الأيام متبدلة والدهر متقلب. وعلى المرء أن يتحمل المسؤولية فى الحالتين، فقد خلقه الله حراً، والحرية التزام وواجب ومسؤولية قبل أن تكون شيئاً آخر، والتذكير بأيام الله فى الحالين مأمور به، كى لا ينحرف الإنسان ويجرفه تيار الإفراط أو التفريط، ولذا أمر الله موسى عليه السلام أن يخرج قومه من الظلمات إلى النور، وأن يذكرهم بأيام الله؛ إذ فى هذا المأمور به علامات واضحات لكل كثير الصبر، عظيم الشكر، فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾ (٢).

---

(١)البقرة: ١٤٣.

(٢)إبراهيم: ٥.

والمقصود أن يذكرهم بالأيام التى يبدو فيها للبشر أو الجماعة منهم أمر بارز أو خارق بالنعمة أو بالنقمة، وقد ذكرهم بأيام لهم، ففى هذه الأيام ما هو بؤس فهو آية للصبر، وفيها ما هو نعمة فهو آية للشكر، والصبار الشكور هو الذى يدرك هذه الآيات، ويدرك ما وراءها، ويجد فيها عبرة له وعظة،كما يجد فيها تسرية وتذكيراً[(١)].

ونحن نتبع خطا الأنبياء والمرسلين، ونأخذ منهجهم فى الدعوة والتذكير، ونذكّر قومنا وإخواننا بأيام الله فى المحنة، التى تعتبر امتحاناً عظيماً، وابتلاء من الله كبيراً، يمحص الله به القلوب ويختبر الله به المؤمنين من عباده فى هذه البلاد وغيرها: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[(٢)].

وقد علم الله أمر الصابرين، وجهاد المجاهدين، واتخذ من بيننا بفضله ورحمته شهداء، وهذا كله مما خفف آلام المحنة، وجعل فى ثناياها منحة ونعمة، للصابرين والصادقين والشهداء، ولا ننس أن نذكّر بنعمة الله هذه، لنقوم بواجب الشكر لله نحوها، فلا نتكاسل عن خير، ولا نتقاصر عن معروف ولا نخدع أنفسنا باتباع الأهواء، فنكفّ أيدينا عن العطاء، وقد كنا نعطى للمحتاجين وللفقراء فى كثير من بقاع العالم، ولسنا فى حل لنمنع ما كنا نعطى وندخر لأنفسنا ما كنا نقدمه للمحتاجين من المسلمين فى بقاع العالم، إننا ـ إن فعلنا ـ فما شكرنا نعمة الله حق شكرها، وما قمنا بواجبنا حق قيام. ونخشى أن يكون الخير أيضاً من البلاء الذى نمتحن به والله ـ سبحانه ـ يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾[(٣)].

وحتى لا نخبط على غير هدى، ونسير بغير دليل، فإننا نقدم نماذج من سيرة السلف الصالح لنقتدى بها، وننسج على منوالها فى التقى والصلاح، والعطاء والفلاح، كان

(١) فى ظلال القرآن (٤/ ٢٠٨٨).
(٢) آل عمران: ١٤٢.
(٣) الأنبياء: ٣٥.

أحدهم تأتيه نعمة الله فلا يستأثر بها على غيره، بل يقدم للآخرين مما رزقه الله، ولربما قدّم كل ما آتاه استحياء من الله، هذا عمر بن عبيد الله بن معمر يمرّ بزنجى يأكل عند حائط ـ بستان ـ وبين يديه كلب إذا أكل لقمة طرح له لقمة. فقال له: أهذا الكلب لك؟ قال: لا. قال: فلم تطعمه مثلما تأكل؟ قال: إنى أستحى من ذى عينين ينظر إلى أن أستبدّ بمأكول دونه. قال له عمر بن عبيد الله: أحرٌّ أنت أم عبد؟ قال: عبد لبعض بنى عاصم، فأتى عمر ناديهم فاشتراه واشترى الحائط، ثم جاءه فقال: أشعرت أن الله أعتقك؟ قال: الحمد لله وحده ثم لمن أعتقنى بعده، قال: وهذا الحائط لك. قال: أشهدك أنه وقف على فقراء المدينة. قال: ويحك!! تفعل هذا مع حاجتك؟ قال: إنى أستحى من الله أن يجود على بشىء فأبخل به عليه. ونحن قد منّ الله علينا فعادت لنا بلادنا، ونعمنا بالحرية والأمن والملك، ولا ينبغى أن ننسى حق الله علينا فى شكر نعمه التى لا تحصى ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[1] وإذا كان هذا الزنجى عبد ونحن أحرار، وهو لا يملك شيئاً،ونحن نملك أشياء هو لم يبخل بكل ما آتاه الله، وأولى بنا أن ننفق بعض ما أعطانا الله، وأن نستمسك بشريعة الله، وأن نعلن بوضوح وحزم ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾[2] وأن نقول: إننا نطبق شرع الله لا شرع سواه، وفى ذلك شرفنا وفيه عزنا، وإن أصابنا فى سبيل ذلك بعض التعب، فإن لنا أسوة فى الدعاة الأولين، وفى إمام المتقين محمد ﷺ وفى سبيل ذلك نذكّر بأيام الله فى السراء والضراء، والشدّة والرخاء دون أن تلين لنا قناة فالمسلم صاحب رأى فى الحياة، ليس إمعة إن أحسن الناس أحسن، وإن أساؤوا أساء، إنه يحسن فى كل الأوقات أساء الناس أم أحسنوا.

ونحن ـ اليوم ـ لنا دور فى البناء والتعمير وهل يقوم بناء أو عمران إلا بتحقيق وتطبيق شرع الله، فلنتماسك يداً واحدة ليقوم على أيدينا شرع الله، الذى يعطى العباد الحرية والكرامة، والعدل المطلق، والتمكين القوى فى الأرض، إن الإيجابية اليوم مطلوبة أكثر من

---

(١)النحل: ٥٣.
(٢)يوسف: ٤٠.

أى وقت مضى، لأن بها وضوح اتجاه المستقبل وتظهر معالم الغد، ويتقرر مصير أبنائنا والأجيال التى من بعدنا.

والحرية مسؤولية كبرى لا يحملها إلا من كان أميناً، ليكون أميناً على نفسه وأهله فلا يضيعهم، أميناً على إخوانه فلا يفرط فى حقهم، أميناً على وطنه، فيبذل فى سبيله ما يستطيع، أميناً على دينه فيستمسك به، ويبذل فى سبيله كل غال ورخيص.

الحرية التزام ومسؤولية، وأمانة ينهض بها الأحرار، متحكمين فى زمام أنفسهم، لا يسيرون تبعاً للأهواء، ولا وراء الشهوات والرغبات، ومن قديم كان فهم الناس للحرية مبنياً على هذا الأساس، إن هنداً بنت عتبة زوج أبى سفيان، استنكرت وهى ضمن وفد من النساء يبايعن رسول الله ﷺ أن يأخذ عليهن الرسول ﷺ العهد بألا يزنين. استنكرت ذلك بقولها: أو تزنى الحرة؟ وكان فى استفهامها من الاستنكار والتعجب ما فيه؛ لأن الحرية التزام ومسؤولية وأمانة بحمل منهج الله فى العالمين إلى الناس أجمعين.

حكى الشعرانى فى الميزان أن الأئمة الأربعة كلهم قالوا: «إذا صح الحديث فهو مذهبنا». وقال الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى: «لا يحلّ لأحد أن يقول بقولنا، حتى يعلم من أين قلنا»، وقال: «حرام على من لم يعرف دليلى أن يفتى بكلامى». وقال مالك ـ رحمه الله تعالى: «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا فى رأيى، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافقهما فاتركوه».

ولقد تواتر عن الشافعى ـ رحمه الله تعالى ـ أنه سأله رجل فقال: يروى عن النبى ﷺ أنه قال كذا وكذا، فقال له السائل: يا أبا عبد الله أتقول بهذا! فأجابه: «أرأيت فى وسطى زناراً!! أترانى خرجت من الكنيسة!!» وفى رواية: فارتعد الشافعى واصفر وحال لونه وقال: «ويحك أى أرض تقلنى، وأى سماء تظلنى، إذا رويت عن رسول الله ﷺ شيئاً، ولم أقل له: نعم على الرأس والعين»!!

وقال أبو داود: سمعت أحمد بن حنبل ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: «الاتباع أن يتبع الرجل

ما جاء عن النبى ﷺ وقال لأبى داود: «لا تقلدنى ولا مالكاً ولا الشافعى ولا الأوزاعى ولا الثورى وخذ من حيث أخذوا»!! أى من القرآن والحديث.

يا لله.. إن القلم إذ ينقل ذلك، على وجل من الله وحياء من الرسول ﷺ أيحتاج أن نوضح أنه يجب تقديم كلام الله ـ عز وجل ـ والرسول ﷺ على ما سواهما، ثم أو يجوز أن نرجح قول غيرهما كائنا من كان!

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (١).

ولو أن عالماً من علماء الإسلام اليوم يجعل قوله كقول الله ـ عز وجل ـ والرسول ﷺ لكان كافراً مرتداً! فضلاً عن أن يجعل قوله مقدما على قولهما!! وهل يتصور أحد أئمة المذاهب المكرمين لو وقف بين يدى الرسول ﷺ أكان يرد عليه قوله أو يخالفه؟!

لا والله!! بل لا يقدر أن يرفع بصره إلى محياه إجلالاً له وإكباراً. وكان الصحابة ينتظرون الرجل يأتى من البادية ليسأله ﷺ كى يستفيدوا بجوابه؛ لأن الحياء منه كان يعقل لسانهم أمامه عن السؤال أحياناً، وكأن على رؤوسهم الطير!!

وإنى أهدى إليك أيها القارئ الكريم، موعظة غالية للرسول ﷺ، فقد ثبت فى كتب السنن ورجال الصحيح: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله إن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟

فقال: «تركتكم على البيضاء: ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً. فعليكم بما عرفتم من سنتى وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، عضوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة، وإن كان عبداً حبشياً، عضّوا عليها بالنواجذ، إنما المؤمن كالجمل الأنف، كلما قيد انقاد، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»(٢).

---

(١)الأحزاب: ٣٦.

(٢)أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذى (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصححه الألبانى.

من هنا وجب أن يعمل كل مسلم على أن يتمسك بالأصول، وأن يأخذ من الفروع ما استطاع بحسب علمه وفهمه واجتهاده أو تقليده إلى غير ذلك من الأمور، دون أن يكون فى نفسه على غيره من الناس كراهة أو إعراض لأنهم يخالفون فى الفروع.

إن تلك هى إحدى المشكلات البسيطة التى لو نظر إليها المسلمون بمنظار السعة فى الدين،وبميزان ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [(١)]، وميزان ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [(٢)] لو نظر إليها المسلمون فى ضوء هذه السعة لحلّ الوفاق وزال الخلاف، وتحقق فينا ـ نحن مسلمى العصر الحاضر ـ قول الله تعالى: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [(٣)]، وقوله سبحانه: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[(٤)]، وبذلك يصبح المسلمون على قلب رجل واحد. فلا يختلفون حول بعض الأمور الدينية، بل يتفقون ويلتفون حول الأصول الإسلامية التى من تمسك بها اهتدى، ومن حاد عنها ضلّ وغوى.

*****

---

(١)الحج: ٧٨.

(٢)التغابن: ١٦.

(٣)آل عمران: ١٠٣.

(٤)آل عمران: ١٠٣.

خلاف الفرعيات وتفرق الأمة

قال: من قديم تدب الخلافات فى مسائل فقهية فتحدث أثرها فى حياة الناس الواقعية فيتنافرون ولا يتّفقون، ويتفرقون ولا يتّحدون، وقد يحمل بعضهم على بعض، وقد وصل الخلاف إلى حد قراءة الفاتحة فى الصلاة، أهى فرض أم غير فرض؟ أتقرأ خلف الإمام أم لا تقرأ؟ أيسد غيرها من القرآن مكانها أم لا؟ بل وصل الخلاف إلى أمور تتصل بأمر الآخرة كما فى حديث دنو الشمس من الخلائق قدر ميل يوم القيامة. أهو ميل القياس المعروف أم هو الميل الذى يكيل به؟ ومثل ذلك أمور عديدة تحتاج إلى حسم ولربما لو لم تظهر هذه الخلافات، التى انعكست على حياة الأمة الواقعية لكانت بين المسلمين وحدة فكرية شعورية تجعلهم متحدين أقوياء.

قلت: إن فى الدين أصولاً يجتمع الناس عليها؛ لأنها مطلوبة من كل مسلم كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، التى هى أركان الإيمان، ومثلها فى وجوب الأخذ بها أركان الإسلام، وكذلك كل ما جاء به الدين فى مسائل الشريعة والقوانين التى تيسر حياة الناس وتسهل التعامل بينهم، وأعنى بهذا الجانب الأخير كل ما ورد فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة.

وإلى جانب هذه الأصول الثابتة المقررة تجد فروعاً يختلف حولها المجتهدون لعديد من الأسباب ليس هنا مجال ذكرها، إلا أنها كلها لا تخرج عن محور الأصول الدينية الثابتة ولنقرب هذه المسألة بمثل من الحياة: إن جميع العقلاء يتفقون على أن الإنسان ينبغى ألاّ يخرج على الناس بغير ثياب فى أى مكان، ومعنى ذلك وجوب لبس الثياب على الإنسان، ومع هذا الأصل الذى يتمسك به الناس أجمعون بغير خلاف تجدهم يختلفون أعظم الاختلاف فى نوعية الثياب التى يلبسونها ما بين صوف أو حرير أو كتان أو قطن، وغير ذلك من أنواع الملبوسات، ويختلفون كذلك فى ألوانها ما بين أحمر وأبيض، وأسود، وغير ذلك مما لا يحصى من الألوان، ويختلفون كذلك فى طول الثياب أو قصرها وطريقة تفصيلها وحياكتها، وطريقة لبسها والظهور بها، وكل ذلك مما تألفه الأنظار وتقبله

العقول، ولا يخطر على بالها نكير إلا إذا رأت إنسانا قد تجرد من ثيابه، لماذا؟ لأنه تخلى عن أصل لا يمكن التخلى عنه.

فلماذا لا نأخذ هذا المثل الواقعى العملى مجالاً نطبقه فى أمور الدين؟ فما دام الإنسان متمسكاً بالأصول،سالكًا فى الفروع وهى فى ظل الأصول وراجعًا إليها فلماذا نلومه أو نعيبه أو نقول: إنه يفرق بين المسلمين؟

وإن أمر الخلاف أو الاختلاف سوف يبقى تصديقًا لقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [(١)].

شاء الله ـ سبحانه ـ ألاّ يكون الناس جميعًا متفقين على ديانة واحدة وشريعة واحدة وملة واحدة، وهذا الخلاف هو فى طلب العقيدة وطريقة العبادة وفى كل ما يختلف فيه دين عن دين.

شاء الله ألاّ يكون الناس أمة واحدة، فكان من مقتضى هذا أن يكونوا مختلفين، وأن يبلغ هذا الاختلاف أن يكون فى أصول العقيدة ـ إلا الذين أدركتهم رحمة الله ـ الذين اهتدوا إلى الحق ـ والحق لا يتعدد ـ فاتفقوا عليه، وهذا لا ينفى أنهم مختلفون مع أهل الضلال[(٢)].

والخلاف مع أهل الضلال ومخالفتهم فى مناهجهم وتصوراتهم وقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم أمر محبوب ومطلوب من المسلمين، يزدادون به ثقة فى الدين، ويزدادون به عزة حين يعلون منهج رب العالمين، على أن هذا الخلاف مع هؤلاء الضالين ينبغى أن يكون تحت مظلة الدين لا يتجاوزها، فطريقة البعد عن المجادلة إلا بالتى هى أحسن، ودعوتهم إلى الشرع والدين بالحكمة والموعظة الحسنة، هو ما ينبغى أن يكون ومع اعتقادنا بفساد مناهجهم وتصوراتهم لمهمة الإنسان وعلاقته بالله والكون والحياة، فإننا لا نجعل دعوتنا

---

(١) هود: ١١٨، ١١٩.

(٢) فى ظلال القرآن (٤/ ١٩٣٣).

إياهم لديننا منصبّة على فساد تلك التصورات وبيان ما بها من أباطيل وأضاليل، إذ قد يكون ذلك - فى بداية الأمر - حاجزًا لهؤلاء عن قبول الدعوة، ودافعًا لهم ليردّوا عن باطلهم بما يستطيعون، فيصيبون المسلمين بما يكرهون، وقد بيّن الله - سبحانه - ذلك - فى قوله: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [1].

فالله - سبحانه - يمنع أتباع الحق من سب آلهة الباطل المدَّعاة، حتى لا يجترئ أتباع الباطل، فيسبوا الله، وهذا لون من أدب الدعوة أو فقه الدعوة إن شئت.

وليس هذا مجال حديثنا اليوم، إذ إننا لا نتحدث عن الخلاف بين أتباع الحق وأتباع الباطل ولكننا نتحدث عن الخلاف بين أتباع الحق وحده، الذين يجب عليهم أن يتخلقوا بأخلاق السلف الصالح ويتأدبوا بأدبهم فى الخلاف الذى لا يصل - إن شاء الله - إلى أصول الدين وإنما هو من فروع الدين أو هو إلى فروعه أقرب، والخلاف فى الرأى بين أتباع الحق له أسباب معروفة معروضة فقد يصل إلى مجموعة من العلماء من العلم، ما لم يصل غيرهم والعقول تتفاوت فى الفهم وحسن الاستنباط ودقة القياس، وغير ذلك مما يجعل الناس يتفاوتون فى الحكم على قضية واحدة، وقد أقر رسول الله ﷺ هذا التفاوت فى الفهم حين أمر الناس أن يصلوا العصر فى بنى قريظة، فصلى بعضهم فى الطريق قبل وصوله إلى بنى قريظة لأنه فهم أن رسول الله ﷺ إنما أراد الإسراع فى السير نحو بنى قريظة وقد تحقق هذا المقصود فلا ضير من الصلاة فى وقتها، وأصرَّ آخرون على ألا يصلوا العصر إلا فى بنى قريظة تنفيذًا لأمر رسول الله ﷺ، وحين علم الرسول بما فعل هؤلاء وأولئك أقر ﷺ الجميع على ما فعلوا.

والمهم فى الأمر أن هذا الاختلاف فى الرأى لم يكن مدعاة لمذمة بعضهم بعضًا ولا لاتهام بعضهم لبعض، ولا لإثارة غبار فتنة تفرق بين المسلمين ولا غير ذلك وإنما حدث ما حدث، وأقره رسول الله ﷺ حين علم به وانتهى الأمر بذلك، وظلت المودة بين المؤمنين

---

(١) الأنعام: ١٠٨.

موجودة، والأخوة قائمة بينهم غير مفقودة.

وهذا ما نعنيه بأدب الخلاف، فلم يتفق جميع المسلمين فى وقت واحد على مسألة من مسائل الفروع فهذا من العسير، واختلافهم - فى مثل هذه الأمور الفرعية - التى لا يتجاوزون فيها سياج الدين، أمر لا ضرر فيه، إن بقيت - بينهم - المحبة، واستمرت المودة، وتوثقت الأخوة، أما إن جرّ الخلاف فى الفرعيات وراءه أحقادًا لا تموت، وضغائن لا تمحى، وتراشق المسلمون بألسنة حداد، يسلب بعضهم بعضًا من الفهم والعلم والدين، ويبحث بعضهم وراء العورات ليكشفها لا ليسترها، وليفضح بها أمام الناس إخوانًا فى الدين وربما كانوا من العاملين الصادقين المخلصين، الذين يعلم ما فى قلوبهم رب العالمين، إن جرّ الخلاف مثل ذلك فماذا بقى من المودة؟ وماذا بقى من الأخوة؟

لقد حدث خلاف بين السلف الصالح فى مسائل كثيرة، ولكن نفوسهم كانت عظيمة وقلوبهم كانت عامرة بالتقوى فخافوا الله فيما يقولون وفيما يفعلون، والتمسوا للمخالفين عذرًا، وقبلوا منهم ما به يقوى شأن الجماعة، دون أن يقيموا بينهم وبين هؤلاء أستارًا موهومة، وحججًا مزعومة، ليتفرق الجميع، بحجة أنهم لنا مخالفون وعن أفكارنا بعيدون. نقول: إن الخلاف بين السلف كان موجودًا وحين يحسم الأمر يلتزم الجميع ويصبحون طاقة عاملة، ويدًا واحدة يدفعون بها أعداء الله، ويرفعون بها راية الإسلام دون خوف من رأى قيل، أو موقف حدث ذات يوم.

وهل تذكر - أخى المسلم - يوم السقيفة وما كان فيه من خلاف بين المهاجرين والأنصار حول الخلافة ومن أحق بها وأولى بالقيام بشؤونها؟

ولكن سرعان ما يزول هذا الخلاف من طريق المسلمين، ولم يبق منه إلا أحداث يرويها التاريخ لنأخذ - نحن - منها عبرة لأنفسنا، نتجاوز بها ما بيننا من خلافات فى الرأى فيتوحد طريقنا، ولا نثير فيه من حين لآخر غبار بعض الخلافات التى حدثت بيننا، ونحن لا يحدث بيننا اليوم خلاف يصل فى درجته لمرحلة الخلاف الذى دب فى سقيفة بنى ساعدة،

ولم نقرأ فى كتب التاريخ أو السير أو التراجم أو غيرها أن أحدًا من المسلمين اتخذ من موقف صاحبه فى ذلك اليوم مجالاً للتندر أو السخرية أو الازدراء، ومع أن خلافاتنا صغيرة هينة إلا أنها تبقى مثاراً دائماً للتندر أو للسخرية أو لاختلاق العيوب وإثارة القلاقل من حين لآخر، وكأن الأمر مقصود لذاته، ونحن فى هذا ننهج غير نهج السلف ونسير على غير ما ساروا عليه.

وهذا عمر رضي الله عنه يختلف مع ابن مسعود فى أكثر من مائة مسألة فقهية، ومع هذا الخلاف لم يعب أحدهما صاحبه، بل نسمع قول ابن مسعود عن عمر رضي الله عنهما حين يقول: «كان عمر للإسلام حصنًا حصينًا يدخل فيه الناس ولا يخرجون» فيأخذنا العجب من عظمة أخلاق هؤلاء الرجال، الذين ترعرعت التقوى فى قلوبهم فأثمرت وأينعت تقديرًا واحترامًا.

هكذا كانوا فى خلافاتهم لا يبحثون عن الزلات، ولا يتبعون السقطات، ولا يعدون عن اللسان العثرات، ولم يكونوا ـ رضوان الله ـ عليهم أجمعين يفتشون فى العبارات من أجل إيقاد نيران العداوة، وإثارة النفور، وإبعاد الثقة، واعتقاد كل واحد أنه ـ وحده ـ على صواب، وأن غيره على خطأ هو مصدر الخطيئة، وبداية الفتنة، فأين «قولى صواب يحتمل الخطأ، وقول غيرى خطأ يحتمل الصواب»؟ وأين: «إذا رأيتم قولى يخالف الحديث فاضربوا بقولى عرض الحائط»؟

ولنعلم أن كثيرًا من مسائل الخلاف تقوم على الرأى والرأى مشترك، يأخذ كل بما يصل إليه اجتهاده، دون ما مطعن للآخرين، أو تمزيق لوحدة المسلمين؛ لأن هذه المطاعن والتمزقات تدخل فى تحريش الشيطان بين المسلمين، الذى أخبر عنه الرسول الكريم بقوله: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ولكنه لم ييأس من التحريش بينهم»[1]، وكل سوء ينبعث عن خلاف فى الرأى هو من هذا التحريش، الذى يثير العداوة، وينشر الأحقاد، ويكشف عن حسد دفين فى القلوب، ويبعد بنا عن منهج

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٢) والترمذى (١٩٣٧) وأحمد (٣/ ٣١٣).

السلف الصالح الذين كان دينهم أعظم من أن يمس وأعلى من أن يدخل فى باب حزازات النفوس وأهوائها. وهذا سعد بن أبى وقاص يحدث بينه وبين خالد بن الوليد رضي الله عنهما شىء، ويأتيه من يحدثه عن خالد فيقول له سعد: «يا هذا إن ما بيننا لا يصل ديننا».

الخلاف فى الفرعيات أمر ضرورى لابد منه؛ إذ إن أصول الإسلام آيات وأحاديث وأعمال تختلف فى فهمها وتصورها العقول والأفهام. لهذا كان الخلاف واقعًا بين الصحابة أنفسهم، وما زال كذلك وسيظل إلى يوم القيامة، وما أحكم الإمام مالك رضي الله عنه حين قال لأبى جعفر وقد أراد أن يحمل الناس على الموطأ: «إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا فى الأمصار، وعند كل قوم علم فإذا حملتهم على رأى واحد تكون فتنة»، وليس العيب فى الخلاف ولكن العيب فى التعصب للرأى والحجر على عقول الناس وآرائهم. هذه النظرة إلى الأمور الخلافية جمعت القلوب المتفرقة على الفكرة الواحدة، وحسب الناس أن يجتمعوا على (ما يصير به المسلم مسلمًا) كما قال زيد رضي الله عنه.

ولقد كان الأئمة الفضلاء يتمسكون كل التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ لأن الله عز وجل أمرنا بذلك فقال: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [(١)]، وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ [(٢)].

فأمرنا الله ـ عز وجل ـ بطاعته وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام .. ثم طاعة أولى الأمر .. فإن وقع الاختلاف سواء بيننا وبين ولى الأمر .. أو فيما بيننا فقط.. فلا يكون الرد إلا لله ورسوله.

فهذان الأصلان هما أساس كل بناء إسلامى، فالقرآن هو المصدر الأول لكل مسلم، والسنة هى المصدر الثانى، ولا خلاف بين أحد فى ذلك.

---

(١)الشورى: ١٠.
(٢)النساء: ٥٩.

الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر

قال: تشيع بين الناس تلك المقولة: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» والذى يتبادر إلى الأذهان منها أن المؤمن مضيّق عليه فى الدنيا كمن هو فى سجن، وأن الكافر موسع عليه كمن هو فى جنة.

وهذا الذى يتبادر إلى الأذهان قد يناقضه الواقع مع آحاد الناس وبعض الجماعات فلربما وجدت فى الدنيا مؤمنين انفسحت أرزاقهم وتنوع ما آتاهم الله من فضله، وأتتهم الدنيا وهى راغمة،وربما وجدت من الناس كفارًا ضيق عليهم الرزق فهو أضيق من سم الخياط،فلا يكادون يجدون الكفاف إلا بشق الأنفس ولكنه صحيح مع ملايين المسلمين الذين غلب على حياتهم الفقر،ومع كثير من الكفار الذين غلب على حياتهم النعيم والرفاهية، ولولا عاصم من الإيمان لدى المؤمنين لكان ذلك الأمر قد أحدث فتنة، بل إنه ليحدث فتنة كل يوم لدى المنبهرين بحياة غير المسلمين، سواء أكانوا فى قمة الهرم الثقافى أم فى السفح منه.

كثير من عامة الناس يشعر بمنزلة غير المسلمين الذين يجوبون العالم الإسلامى، وربما حدثته نفسه أن لو كان مثلهم ـ على الأقل ـ فى الاحترام والتقدير وهذا مدخل كذلك لفتنة.ولا نذيع سرًا إن قلنا: إن أحد المسلمين ـ بصرف النظر عن مذهبه ـ فى بعض البلاد العربية الإسلامية قد فتن بهؤلاء فأعلن ارتداده عن الدين متأثراً ـ كما قال ـ بحياة غير المسلمين القوية المتقدمة،فكيف نسد هذا الباب ونغلق هذا المدخل،ونجعل الناس يقفون بأنفسهم مدافعين عن ذواتهم أمام هذه الفتن وأمثالها؟

قلت: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» ليس مجرد مقولة شائعة، ولكنه حديث صحيح رواه مالك ومسلم والترمذى عن أبى هريرة وقال الترمذى: حسن صحيح، وصححه المناوى كذلك فى فيض القدير، والألبانى فى صحيح الجامع الصغير[1]، والكلام

---

(١)أخرجه مسلم (٢٩٥٦)، والترمذى (٢٣٢٤)، وابن ماجه (٤١١٣)، وانظر : فيض القدير للمناوى (٣/ ٥٤٦) (٤٢٧٥) وصحيح الجامع الصغير للألبانى (٣٤٠٦) .

يدور بيننا فى فهمه لا فى نصه؛ إذ النص مسلّم به مقبول، وأما الفهم المتبادر منه سواء وافق الواقع عند الأكثرين أو خالفه وناقضه عند الأقلين، فإنه مجال حديثنا، ومحور الحوار بيننا، وخير لنا أن نسترشد بفهم الأولين لهذا الحديث، فلعل ذلك يكفى مطلبنا ويروى غلتنا. ولقد قال ابن المبارك: إن الحسن يقول: قال النبى ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» فالمؤمن يتزود، والكافر يتمتع، والله إن أصبح فيها مؤمن إلا حزينًا. وكيف لا يحزن من جاءه عن الله أنه وارد جهنم، ولم يأته أنه صادر عنها؟ هذا تفسير وبيان لمعنى الحديث. وتفسير آخر جاء على لسان الحافظ ابن حجر قاضى القضاء فى قصة لطيفة حدثت له، ذكرها الإمام المناوى فى فيض القدير قال: لما كان قاضى القضاة الحافظ ابن حجر يمر بالسوق يومًا فى موكب عظيم وهيئة جميلة، هجم عليه يهودى يبيع الزيت الحار، وأثوابه ملطخة بالزيت وهو فى غاية الرثاثة والشناعة، فقبض على لجام بغلته، وقال: يا شيخ الإسلام، تزعم أن نبيكم قال: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» فأى سجن أنت فيه؟ وأى جنة أنا فيها؟

فقال ابن حجر: أنا بالنسبة لما أعد الله لى فى الآخرة من النعيم كأنى الآن فى سجن، وأنت بالنسبة لما أعد لك فى الآخرة من العذاب الأليم كأنك فى جنة.

فالكافر لا يفكر فى آخرة، ولا يخشى عاقبة فينطلق من كل قيد، والمؤمن يفكر فى الآخرة ويخشى العاقبة فيخاف سوء المصير فلا تكون حياته إلا منضبطة بضابط الأوامر والنواهى. وهو يشعر أن هذا الانضباط طريق يصل منه إلى الجنة المرجوّة عند الله فى الآخرة، فكأنما هو فى سجن فى الدنيا بالنسبة لما أعد له هناك من جنات النعيم فى الآخرة، وأما الكافر مهما سفلت حياته فى الدنيا فإن حياة الآخرة أشق ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ﴾[1]، وفى آية أخرى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾[2]، هذا بالنسبة لما هو عليه فى الدنيا.

---

(١) القلم: ٣٣.

(٢) فصلت: ١٦.

وأزيد الأمر وضوحًا فى ضوء الفهمين السابقين للحديث فأقول: الدنيا مرتع الكافر؛ لأنه لا ضابط يحده، ولا نظام يمنعه من أن يتعدى الحدود، ويتجاوز ما لا ينبغى له تجاوزه، فما دام بعيدًا عن رقابة الناس فهو يفعل ما شاء، يريد أن يحصل لنفسه كل لذة، وكل متعة قبل أن يأتيه الموت، وهو يظن أن الموت نهاية، فلا بعث فى يقينه ولا حساب، ولا جزاء ولا عقاب، ولذا قال الله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ (1).

والدنيا سجن المؤمن بمعنى أنه يعيش وفق ضوابط وأوامر أنزلها الله سبحانه، وأمر بها وبيّنها رسوله ﷺ فهى تمنع من أن يَضل أو يُضل أو يَذل أو يُذل أو يَظلم أو يُظلم أو يَجهل على الناس أو يُجهل عليه، ضوابط تبين له واجبه نحو ربه، ونحو الخلق أجمعين، القريبين منهم والبعيدين، تبين له صلته بالخالق، وصلته بالكون من حوله، تكشف له مستقبله بعد الموت، وتوضح له الطريق الذى يسلكه فى الحياة، ليفوز عند الحساب، ويأمن العقاب وينال الأجر من الله والثواب.

وهذه الأوامر الكاشفة، والبينة الواضحة تجعل طريق الحياة نورًا، وضياء لا يضل فيه المؤمنون، ولا يبغونها عوجًا كالكافرين، وتلك هى الحياة الحقة حياة الخير والحق والجمال، حياة لا غموض فيها، ولا شك يحتويها، ولا بهتان أو زور يكتنفها ويغطيها واقرأ ـ إن شئت ــ قول الله ـ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (2).

إنها ليست سجنًا للمؤمنين بالمعنى الذى يفهمه عامة الناس بل هى مقدمة عندهم لجنات النعيم وهم فى دنياهم يسعدون فيها باتباع منهج رب العالمين، فلا يعرفون الضلال، ولا يصل إليهم الشقاء، تطمئن نفوسهم بذكر الله ويعيشون حياتهم فى رحابة الدين، تتسع

(١) محمد: ١٢.
(٢) الأنعام: ١٢٢.

أمامهم آفاق الأرض والسماء، ينظرون فيها ويقولون واثقين مطمئنين: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ (١).

يركنون فى الحياة إلى جذور عميقة فى تاريخ الإنسانية منذ دعا الأنبياء إلى عبادة الواحد القهار، فالمؤمنون من أتباع محمد ﷺ، يدركون أنهم سائرون فى طريق المرسلين والشهداء والصالحين، والأنبياء والصديقين ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ (٢)، ثم تتسع أمامهم آفاق الطريق ورحابة الحياة وهم يدركون أن الدنيا مقدمة للآخرة وأن الخلود فى النعيم، بعد الموت والبعث والحساب والجزاء ـ لا نهاية له ـ تكريمًا من الله لهم، ومنة من مننه العديدة ونعمه العظيمة عليهم، فكيف تكون الحياة لهم سجنًا.. وكيف يكونون فيها مسجونين، بحسب فهم الناس لمعنى الحديث؟! إنهم إن ضاقوا بأمر فوق طاقتهم صبروا، وإن جاءتهم النعماء لم يبطروا بل هم يشكرون، ولذا فأمرهم كله لهم خير .. فلا يأس ولا قنوط ولا فرح ولا بطر، بل صراط مستقيم فيه يسيرون، ومن نور القرآن لحياتهم يستمدون ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾ (٣).

وهل تتفق روح الحياة ونور الهداية مع السجن؟!

وإذا كان الكفار يبغونها عوجًا، ويعبّون من اللذات عبا، لا يتحرون حلالاً ولا حرامًا وإنما هى الشهوات تحركهم والأهواء ترغّبهم فيعملون ما يشتهون، ويظنون أنهم طلقاء، فسوف ينالون الجزاء: ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٤).

وهم يرون هذا الجزاء بعيدًا والله ـ سبحانه ـ يقرر أنه قريب ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا

(١)آل عمران: ١٩١.
(٢)البقرة: ٢٨٥.
(٣)الشورى: ٥٢.
(٤)الحج: ١٩ ـ ٢٢.

﴿ ﴾[1] فهم فى غيهم يعمهون وفى ضلالهم يرتعون، دون أن يعرفوا طعم الحياة الطيبة التى يعرفها المؤمنون - حتى وإن عاشوا فقراء فى المادة فهم أغنياء بالشعور والإحساس والاطمئنان لوعد الله والثقة فيما أخبر به، فيعملون الصالحات ويكونون وقافين عند حدود الله، فتطيب لهم الحياة، فيسعدون، وإن ظن الجاهلون أنهم متبعون مكدودون: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[2].

وإحساس المؤمن أنه فى غنى عما فى أيدى الناس، وأنه يتجه بالسؤال إلى الله، وشعوره بأن الله يغنيه عن الخلق وعما عندهم، فيجد فى قلبه إحساسًا وشعورًا بالرضا والسكينة؛ لأنه طهّر قلبه من الأحقاد والضغائن، وارتفع فوق السفاسف والصغائر، وعلم أن الإيمان جوهرة فى القلب تزيح عنه الهموم، وتكشف من طريقه الغيوم، فيحيا القلب بالذكر، وقوة الحق، والإرادة والهمة فى الأخذ بتعاليم هذا الدين إيجابًا بعمل الصالحات وسلبًا بترك الذنوب والسيئات، فيتطهر القلب، وتحيا النفس، ويستقر الفؤاد فلا يتزعزع ولا ينحرف ولا يعوج؛ لأن نور البصيرة غلب عليه فأزال عنه الغش، وأبعد عنه الضباب: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾[3] وقلوب المؤمنين - بفضل الله - لا تعرف العمى فهى تعيش فى نور الحق، تتقوى بضياء الإيمان ومعرفة الرحمن، فهى فى حياة طيبة دائمة،لا تعرف موت القلب،فموت القلب يحذر منه المؤمنون أشد الحذر،وقد يقبلون على موت الجسد بمحاولة الاستشهاد، ولكنهم يفرون من كل ما يؤدى إلى موت القلب فرارهم من الأسود المفترسة.

ولكن أيموت قلب شهد أن لا إله إلا الله، وعلم أن الله قاهر فوق عباده؟ أيموت قلب أدرك أن الكون والحياة ملك لله؟ أيموت قلب نقش فيه حب الله وسطرت تعاليمه فلا

---

(١)المعارج: ٦، ٧.
(٢)النحل: ٩٧.
(٣)الحج: ٤٦.

يزال صاحبه يذكر الله باللسان أو بالفعال؟ أيموت قلب أدرك أن الله هو: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ﴾ ؟[١] أيموت قلب عرف الله وأحبه فأحبه الله ووفقه: «لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها»؟[٢].

حياة القلوب بمعرفة الله وذكره، تؤدى إلى الطمأنينة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[٣]، ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾[٤].

وحين يصل المسلم إلى هذه المرحلة فإن الفتنة لا تضره، وواقع الناس لا يغرّه؛ لأن فى صدره من قوة الإيمان واليقين ما يردّ عادية الفتن، وفى عمله وسلوكه ما يجعله مطمئنًا لوعد الله؛ لأنه يدرك أن الفتنة امتحان وبلاء وسنة من سنن الله فى خلقه: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ﴾[٥]. ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾[٦].

ولسنا ننكر ـ مع هذا كله ـ القوة المادية العلمية لغير المسلمين فى عصرنا هذا.

وإنها قد تكون بالنسبة لبعض المسلمين بابًا من أبواب الفتنة وخاصة عند أرباب الأقلام المنبهرين بهذا الإنجاز عند غير المسلمين، وبدلاً من أن يدفعوا الأمة والشباب خاصة إلى فهم مفاتيح التقدم العلمى التجريبى وممارسته تراهم يهاجمون الإسلام والداعين له المتمسكين به. فيزيدون نار الفتنة اشتعالاً، ويصبون عليها من عند أنفسهم زيتًا يزيدها اضطرامًا، مع أن أغلبهم يعلمون أن الإسلام يدفع إلى كل علم نافع فى أى

---

(١) البقرة ٢٥٤.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) الرعد: ٢٨.
(٤) المطففين: ٢٦.
(٥) الأنفال: ٤٢.
(٦) العنكبوت: ٢ ـ ٣.

مجال من مجالات الحياة. وواجب المسلمين أجمعين والقادرين منهم على وجه الخصوص أن يوجهوا الأمة إلى الأخذ بالأساليب العلمية والإدارية النافعة للأمة من أى جهة شرقية أو غربية. ولو تضافرت جهود الكتاب وأرباب الأقلام على بيان أهمية هذا الأمر ونادت به فى محافلها وندواتها وكتبت به فى صحفها، وساعدت فى بث الفهم الصحيح الذى يدفع الأمة نحو الرقى، وتركت مهاجمة الإسلام والمسلمين، لعد هذا الصنيع لهم، ولكانوا ممن يسعى لسدّ باب هذه الفتنة.

وعلى العموم فإن الحديث عن جنة الكافر بالمعنى الذى ذكرناه وسجن المؤمن بالمعنى الذى ذكرناه كذلك لا يمنع المؤمنين من أخذ أبواب التقدم والرقى من أى جهة، والحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها.

معالـــم التغيير

قال: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دعوة إلى التغيير فى حركة الأحياء نحو وجهة معينة، قد نجبر الناس عليها إن حققنا ذلك قهرًا وقسرًا، دون أن نصل إلى النتيجة التى بها يكون صلاح المجتمع، مع أن التغيير قد حدث بالفعل، ولكنه تغيير شكلى وأمر مظهرى، لا يصل إلى جذور هذا الكائن الحىّ، فيعود القهقرى حين يزول مؤثر التغيير، وتكون النتيجة سيئة. ولذا فإننا نودّ أن توضح أسس التغيير التى نتبعها، حتى نرقى فى حياتنا، ويكون ذلك التغيير إيجابيًا لنا. وهل كل تغيير مقبول؟ وهل كل شىء صالح للتغيير؟ وهل يقتصر أمر التغيير على الأقربين أو يتعداهم إلى الأبعدين؟

قلت: بداية لا يملك عامة الناس أن يجبروا غيرهم قهرًا وقسرًا على التحول من المنكر إلى المعروف، وإنما حالة الإجبار هذه منوطة بآحاد من الناس فيهم مواصفات خاصة وشروط معينة، لهم صلاحية إلزام المخالفين إلى لزوم الجادة والسير على المنهج، وترك ما هم فيه من شر أو منكر، وغير هؤلاء من الناس يسعهم: «فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه»[(١)]، فالأمر بالمعروف درجات يأخذ منه كل إنسان بحسب استطاعته التى يعلمها الله منه، ولا يملك الكثيرون حين يأمرون أو ينهون إلزامًا لأحد، وهم لا يقصدون ذلك لمعرفتهم بقدرتهم وحدود طاقتهم، ومدى الصلاحية الموكولة لهم، ولكنهم لا يتقاعسون عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إظهارًا للحق، ليعلمه من لم يكن يعلم، وإعذارًا إلى الله تقوم به الحجة على المخالفين، وتتحقق به النجاة من الهلاك والعذاب للآمرين المصلحين: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[(٢)].

وأسس التغيير معروفة فلله فى كونه سنن تجرى، رضى بها بعض الناس أم أبوا، فطنوا

---

(١)أخرجه مسلم (٤٩)، وابن ماجه (٤٠١٣)، وأحمد (٣/ ١٠).
(٢)الأعراف: ١٦٤.

إليها واستعدوا لها أم غفلوا عنها ولم يعملوا من أجلها، إن المقدمات توصل إلى نتائجها ما فى ذلك من شك، فالذين يجدّون ويكدحون يحصدون ثمرة عرقهم، ونتيجة كفاحهم فيرضون بها ويفرحون، والمتواكلون المتكاسلون يحصدون ثمرة غرورهم وغفلتهم حسرة وندامة فيحزنون ويضيقون.

ومن سنن الله فى كونه ألا يغير ما بالناس حتى يغيّروا هم ما فى أنفسهم هكذا جرت إرادة الله وشاءت حكمته، فلا تتحول نعمة الله عن قوم صالحين حتى يتحولوا عن شكر النعمة إلى بطر الحق وغمط الناس والاستكبار فى الأرض بغير الحق، حينئذ تتحول عنهم نعمة الله فيبدلهم بعد اليسر عسرًا، وبعد الرضا سخطًا؛ لأنهم لم يكونوا أهلاً لشكر النعمة وزيادتها، فلم يشكروا بل كفروا والله - تعالى - يقول: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[1]. والله سبحانه وعد برفع العذاب والهلاك عن الصالحين ما داموا صالحين قائمين بواجب الصلاح والتقوى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾[2]. وكذلك لا يصلح الله عمل أناس مفسدين، ما لم يتركوا ضلالهم ويتحولوا عن غيّهم وفسقهم، ويتوبوا إلى ربهم، حينئذ يرفع الله عنهم البلاء، ويكشف البأساء والضراء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[3].

ولقد أخبر الله - سبحانه - بذلك فى كتابه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[4].

والتغيير سمة إنسانية، بل نستطيع أن نقول: إنه صفة كونية، فكل شىء يتغير إما بالزيادة وإما بالنقصان، والناس كذلك يقومون بالتغيير فى كل آونة وحين، فلا يبقى إنسان على حاله، بل يتقدم أو يتأخر، ويرقى فى الفضائل أو ينحط فى الرذائل، ويزيد الله له فى

---

(١) إبراهيم: ٧.
(٢) هود: ١١٧.
(٣) يونس: ٨١.
(٤) الرعد: ١١.

الغنى والمال والرزق أو يلحقه الفقر والضيق، هكذا الحياة وهكذا الأحياء فأى تغيير ننشده للمسلم؟

إننا ننشد هجر المنكرات وترك السيئات، والقيام بالصالحات وعمل الطيبات والترقى فى الخير، ذاكرين الحديث الصحيح: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن»(١) هذا حرص على الخير فى كل حين ويزداد هذا الخير فى بعض الأزمنة دون أن يمتنع أو يزول فى بقية الزمان، إن التغيير هنا رقى نحو الكمال وتدرج فى الفضائل، وحركة دائمة لإصلاح النفس وإصلاح المجتمع، فتزول الأثرة ويبقى الإيثار، ويتم التعاون والتكافل، ويدوم الحب والخير عند الجميع، هذا رسول الله ﷺ يدفع أصحابه ـ والمسلمين من بعدهم إلى ذلك يقول: «من أصبح منكم اليوم صائمًا؟ من اتّبع منكم اليوم جنازة؟ من تصدّق بصدقة؟ من عاد مريضًا؟» ثم يقول: «ما اجتمعت فى امرئ إلا دخل الجنة»(٢).

تغيير فى حركة الحياة يقوم بها الفرد المسلم نحو إخوانه فيصبح الجميع صفًا واحدًا وبنيانًا مرصوصًا، يعتصم بحبل الله ويسير على هداه، إننا ندعو إلى التغيير فى القيم والموازين التى كانت سائدة ندعو إلى المساواة بين الجميع فى الحقوق والواجبات، نابذين خلف ظهورنا العصبيات المقيتة التى يأباها الإسلام «يا معشر قريش، إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس بنو آدم وآدم من تراب»(٣) ندعو إلى أن يسود فوق رؤوس الجميع هذا البلاغ العظيم والبيان للناس: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(٤).

إن مقياس الحكم على الناس هو ما حدده رسول الله ﷺ: «الناس رجلان برّ تقى كريم

(١)أخرجه البخارى (٦)، ومسلم (٢٣٠٨).
(٢)أخرجه مسلم (١٠٢٨)، والنسائى فى الكبرى (٨١٠٧).
(٣)أخرجه أبو داود (٥١١٦)، والترمذى (٣٩٥٥)، وأحمد (٢/ ٣٦١)، وحسنه الألبانى.
(٤)الحجرات : ١٣.

على الله، وآخر شقى هين على الله»[١] فلينطلق الناس فى العمل مخلصين تظلهم راية الإسلام دون أن نضع فى أعناقهم أغلالاً من العصبية أو العنصرية أو الطائفية ليؤدّ الجميع واجبه، وليأخذ كل حقه فى ضوء إخلاصه وعمله، وقيامه بواجباته المحددة له ليكن الجميع حريصين على الأمانة، إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، وضياعها بأن يوسد الأمر إلى غير أهله.

إن على الضعفاء أن يتركوا المجال ليسير فيه الأقوياء، فينهضوا بالأعباء، ويحيوا الموات، ويجعلوا الأرض زاخرة بالحياة، مليئة بالنماء فليكن شعارنا هو القوى الأمين، لا الضعيف المهين، وإن على كل من يتولى أمرًا من الأمور أن يكون فيه من العاملين المجدين والمجيدين؛ لينمو هذا العمل على يديه فيحدث التغيير المنشود، ويكون التمكين والقوة فى الأرض، بعد أن نكون يدًا واحدة معتصمين بحبل الله، عاملين على رضاه. فإن تغيّر ما بنفوسنا وصلنا إلى حال نرضاه لأنفسنا، ويرضاها لنا ربنا ما دمنا مستقيمين على منهجه فيغيّر حالنا، لنصل إلى المرحلة التى قال ـ سبحانه ـ فيها: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾[٢].

وهذا حديث النبى ﷺ فيه الأمل حين قال: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًا ، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها، ثم تكون خلافة على منهج النبوة»، ثم سكت[٣].

والمتطلع إلى واقع الأمة الإسلامية وتاريخها يرى أنها تتحقق سنة الله فيها بالسقوط، ويأتى البديل من مكان لا يتوقع، فعندما بدأت إرهاصات السقوط للدولة الأموية جاء البديل

(١)انظر : تخريج الحديث السابق.

(٢)المجادلة: ٢١.

(٣)أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٣)، وقال الأرناؤوط : « إسناده حسن » .

من وسط فارس لتقوم الدولة العباسية، وعندما بدأ الانهيار فيها جاء البديل من هضبة الأناضول فكانت الدولة العثمانية، وهكذا رياح التغيير عندما تأتى بقدر الله لا يردّها أحد، فقد تأتى من الولايات الإسلامية المنفصلة عن الاتحاد السوفياتى، كما أنها قد تأتى من أمريكا، فالغيب لا يعلمه إلا الله، ونحن نعرف أن هذا الدين سينتصر وعندنا الأمل بعد توفيق الله - تعالى - ثم بالعمل،ولابد أن نعلم أن هناك أصولاً ثابتة لا مجال لأن تتغير بتغيّر الزمان والمكان،وهناك أمورًا أخرى يلحقها التغيير فقد تكون صحيحة فى وقت وغير مناسبة فى آخر، وقد تكون صائبة فى حين وغير مناسبة فى آخر، وهذا هو الإمام الشافعى ألّف الرسالة مرتين بحسب زمانه ومكانه مع التزامه بمصدر التشريع الكتاب والسنة، فيقول الفخر الرازى فى كتاب مناقب الشافعى: «اعلم أن الشافعى رضي الله عنه، صنف كتاب الرسالة ببغداد، ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيف كتاب الرسالة، وفى كل واحد منهما علم كثير».

والتعامل الدعوى الذى يعيشه المسلم يكون حرصه ابتداء على الإنجاز والتفاعل والعطاء فى دائرة الإقليم الذى يتحرك فيه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [(١)].

«يا بنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، ثم التفت إلى فاطمة فقال: يا فاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار فإنى لا أغنى عنك من الله شيئًا..» [(٢)] مع أخذ بالاعتبار لعالمية الدعوة، وكل هذا بالطريق والكيفية الموافقة للواقع والفرص المتاحة والأخطار المحيطة على هدى من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من غير تعصب للمواقف الفكرية أو السياسية المنهجية، أو التقيّد بأى شكل من هياكل العمل، ليبقى بعد ذلك الهدف والسعى لتحقيق الدين فى واقع الحياة، فالتربية الخاصة ضرورة لابد منها؛ إذ هى محضن الدعوة الأول،

---

(١) الشعراء: ٢١٤.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٤)، والترمذى (٣١٨٥)،والنسائى (٣٦٤٤)، وأحمد (٢/ ٣٣٣).

وهى ليست تربية قاصرة على بقعة بعينها ولا على قوم بعينهم، ثم يظلون مغلقين فى دائرتهم، لا صلة لهم بغيرهم ممن هم على شاكلتهم، إن هذه التربية بهذا المفهوم هى تربية جزئية عنصرية لا تؤدى فى النهاية إلى الهدف المقصود، والهدف هو تحقيق شرع الله وشرع الله للعالمين أجمعين، ولن تكون التربية تربية صحيحة مثمرة إلا إذا جعلت هذا الهدف غايتها وبغيتها، ولن يتحقق هذا الهدف إلا إذا تلاحمت المحلية بالعالمية بمعنى أن نربى الناس فى ضوء بيئتهم وزمانهم ومكانهم، ومعرفة المتغيرات من حولهم والمؤثرات التى تؤثر فيهم، على أن نضع فى اعتبارهم أنهم يكونون ـ بعد هذه التربية لبنة فى البناء الدعوى الإسلامى، كما كوّن إخوان لهم من قبل فى جهة أخرى لبنة أخرى وبتلاحم هذه اللبنات المنتقاة بعد تربيتها ـ فى ضوء بيئتها ـ تكون العالمية، التى يقوم بعبئها رجال مختارون يؤدون عملهم فى المحافظة على هذا البناء وتجديده وزيادة التلاحم بين لبناته، ورفع الخلل من الصفوف فيكون هذا البناء بنيانا مرصوصًا يشد بعضه بعضًا.

فالوسائل البشرية قد تكون فى زمن قادرة على تغيير واقع المجتمع متوافقة مع ما وضعت له من أهداف متمشية مع سياستها، وقد يتغير الزمان والمكان فيكون من المناسب تغيير الوسيلة السابقة، وإن كان التغيير لا يؤدى إلى أكثر من تخفيف الأخطاء وتقليل الانحدار، فدعوة نصوصها القرآنية والحديثية عالمية لابد أن تدار بطريقة تستغل الطاقات العالمية من خلال نسق فى العلاقات الأفقية، لتوزيع الأعباء الرأسية فى عمل شورى واسع، تتكامل فيه المساعى وتتناصر الجهود من أجل نصرة الدين، وهنا لابد أن نذكر أن صورة العالمية عبر التاريخ الإسلامى فى وقت الخلافة كانت لها صور مختلفة، ثم بعد سقوط الخلافة وتوزع الناس فى عملية الدعوة والسعى لإرجاع الحكم إلى الله فى واقع البشر فى هذه الأجواء اختلفت وتنوعت الصيغ لتظل جميعها فى دائرة الاجتهاد للخطأ والصواب، وليس هناك أمر ملزم للجميع ولكن ما يجب أن يكون هو أن تكون هناك نظرة جادة فى فهم التوازن فى الدين ليظهر هذا التوازن فى صيغة جديدة للعمل الإسلامى العالمى تجمع بين الأصالة والتجديد، والأمنية والواقع، والطموح والإمكانات من أجل

ألا نُفْرط فى جانب ونُفرِّط فى الآخر ولا يطغى التمحور المكانى على انطلاقة العالمية فيكون الخلل.

صلاح الأمة وخيريتها

قال: حدثتنا عن النصيحة وصلتها بالمحبة، وأن إحداهما لا تناقض الأخرى، لأن المحبة لا تدوم بين المؤمنين حين يعرض البعض عن الحق، فإن عاد إلينا بالنصح عدنا لـه بالحب، والنصيحة ـ بشروطها ـ توجد حين توجد مقتضياتها، فالمحبة لها الصفة الدائمة والصبغة الثابتة التى ينبغى أن تكون بين المؤمنين، فهى كالطيب لا يملُّ منه ولا يُعرض عنه فى جميع الأحوال، والنصيحة طارئة تظهر فى بعض الأحيان لمقتضيات تستدعيها فإن زالت مقتضياتها زالت معها النصيحة، فهى فى ذلك كالدواء ولا يظهر إلا حين ظهور داء فى الجسم، فإن اختفى الداء غاب معه الدواء.

ويبقى أن نعلم علاقة النصيحة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أداخلة هى فيه أو منفصلة عنه؟ ثم ألا يغنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عن النصيحة؟ ولماذا يقتصر دور الناصحين على العلماء؟ وحدهم دون غيرهم.

قلت: قد تكون النصيحة داخلة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى مرحلته الوسطى التى بيّنها الرسول ﷺ بقوله: «من رأى منكم منكرًا فليغيّره بيده، فإن لم يستطيع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1]، فالتغيير باللسان هو بغير شك نصيحة إن صدر عمن لا يملك إنزال العقوبة، فالرجل المارّ فى الشارع لا يملك لصاحب السيارة شيئًا، إن نصحه فلم يمتثل، بينما شرطى المرور يملك إنزال عقوبة مالية أو غير مالية، إن لم يمتثل صاحب السيارة لنصحه وينزل على أمره، وهذا مثال ونموذج لصلة النصيحة بالمرتبة الوسطى من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، على أنه لا يلزم أن تكون كل نصيحة داخلة فى هذه المرتبة، فقد تنصح ولدك المجتهد بالجدّ فى المذاكرة، تأكيدًا لأهمية هذا الأمر، وليس هنا أمر بمعروف ولا نهى عن منكر، فهما إذن يتداخلان أحيانًا وينفصلان أحيانًا، والأمر بالمعروف أعم من النصيحة؛ لأنه تغيير باليد أو باللسان أو بالقلب ولا غنى

---

(١) سبق تخريجه.

لمجتمع مسلم صغر أم كبر عن النصيحة ولا عن الأمر بالمعروف أو النهى عن المنكر، الذى به صلاح الحياة، وحفظ الأمن، وثبات الحقوق، والوقوف فى وجه الظالمين، ونصرة المظلومين، وردّ العدوان عن المعتدين، وصفات الصلاح للأمة هذه مسؤولية كل فرد يعيش فيها، وإن اختلفت المسؤوليات باختلاف مكانة الأفراد ومواقعهم فهى ليست خاصة بالعلماء، وإن كان العلماء فى مقدمتهم، لأنهم وارثوا النبوة ومصابيح الهدى فى سواد المحن والنكبات.

ولا نترك هذا الأمر دون مزيد من بيان معتمدين على أدلة الكتاب الكريم والسنة المشرّفة، فقد قال ﷺ: «الدين النصيحة» قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[(١)]. وبالمناصحة تكون لنا الخيرية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[(٢)].

ومن ضرورة محبتنا لكل المسلمين فى جميع بقاعهم أن نصدقهم فى عظيم ما نحن فيه، وعظيم ما نحتاج إليه، فمحن المسلمين كثيرة وواجب على كل مسلم ـ بقدر استطاعته ـ أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، امتثالاً لقول الرسول ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[(٣)] إنه نص السلامة كما قال: «من كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضى وتابع»[(٤)] هذه النصوص تلقى على المسلم تبعة كما تعطيه شيئًا من الأمل إن هو تعامل معها بصدق، فواقعنا فيه حرقة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فهناك خلف للوعد وكذلك فسق ومجون مجاهر فيه، ومواضع تنتهك فيها حرمة المسلم وينتقص فيها من عرضه، فقد أصبحنا ظالمين لأنفسنا وظالمين لقيمنا ومبادئنا وإخواننا، مما يجعلنا نخاف المقت، ونحن لا

---

(١)أخرجه البخارى معلقًا (فتح البارى ١/ ١٠٨)، ومسلم (٥٥).

(٢)آل عمران: ١١٠.

(٣)أخرجه مسلم (٤٩)، والترمذى (٢١٧٢)، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٤)أخرجه مسلم (١٨٥٤)، وأبو داود (٤٧٦٠)، والترمذى (٢٢٦٥)،وأحمد (٦/ ٢٩٥).

يسعنا إلا أن نتمسك بنص حديث نبينا السابق، فنكره ما يصنع من مخالفة لشريعة الله ودينه وننكر بكل وسائل الإنكار ما هو واقع من انحراف لعلنا بذلك ننجو برحمة الله وفضله.

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب عام يمارسه الجميع وعلى الجميع، وذلك من أجل ألا تنزل اللعنة، قال الله تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[1].

فالوقفة الجادة فى منظومة العمل واجبة من أجل تصحيح المسار لكى نحافظ على الأمة من الدمار والخراب قبل أن ينالها خزى الدنيا وعذاب الآخرة، وما زلنا نلمح فى أفق البلاد الإسلامية شعاع من ضوء ينير للسالكين، إن خرجوا من كهوف الظلام وتمسكوا بالحق، وتركوا الباطل، وأدركوا أن المعروف ينبغى أن يسود وأن المنكر ينبغى أن يبيد ويهلك أو على الأقل يتوارى ولا يتبجح بما يملك من زينة الحياة الدنيا من شهوات وملذات وأموال وغيرها والباطل - اليوم - منتعش، يصاول فى كل مكان ويجاهر أصحابه بين الناس بالعصيان لغيبة الحق عن الساحة أو لخفوت صوته وقلة رجاله المستمسكين به، الذين يعلمون أن فى غيبتهم عن الساحة خرابها، وأن فى وجودهم فيها وقيامهم - بواجبهم - عمرانها وحتى لا تتكرر المأساة ويكثر الخبث وتحقّ السنة الكونية فأمّ المؤمنين زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تسأل النبى ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ فيقول ﷺ: «نعم إذا كثر الخبث»[2]، وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسأل: أتوشك القرى أن تخرب وهى عامرة؟ فيقول: «نعم إذا علا فجارها على أبرارها»، وهكذا أمة الإسلام إذا كثر فيها الخبث السياسى والمصلحى والفكرى وأصبح من به مس من الهوى هو الذى يسمع له وتقدم له مكبرات الصوت، ويعتلى الصوت الفاجر ليختفى وينزوى صوت الحق والدليل، ويستمر هذا

(١) المائدة: ٧٨، ٧٩.

(٢) تقدم تخريجه .

الأمر، حتى يحدث الطوفان كما قال ﷺ: «فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا»[١]، والأمة مهددة بالغرق إن حادت عن منهج الله ولن يخرجها إلا الله سبحانه بالآيات الربانية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[٢].

ومن المسلَّم به لكل طالب علم أن مرتبة الدعوة إلى الله من أعلى وأرفع المراتب وأفضل القربات، ولم لا؟ وهى مهمة الأنبياء، وطريق الرسل والأولياء،وبها تنتشر الرحمات وتزال الضلالات، ويصلح حال الأمة ويعلو الحق، ويزهق الباطل، ولذلك كثرت الآيات البينات، وتوجيهات الأحاديث الصحاح الوضحات الآمرة بالدعوةإلى الله، منها: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[٣].

وقال ﷺ موضحًا: «والذى نفسى بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»[٤].

وقد اتخذ العلماء هذا المنهج سبيلهم فأناروا أمام الناس مسالكهم ودروبهم. فهم كما قال الإمام أحمد ـ رحمه الله:يدعون من ضل إلى الهدى، ويبصرون من هم على الأذى ... يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس أحيوه، وكم من ضال تائه وقد هدوه.

ولذلك استحقوا أن تُصلّى عليهم النملة فى جحرها والحيتان فى البحر .. فهم فى الأرض بمنزلة النجوم فى السماء، بهم يهتدى الحيران فى الظلماء، ولم لا؟ وهم القائمون بالتبليغ عن الله الآخذون بمهمة الأنبياء بعد طى سجل الرسل بمحمد ﷺ وانقطاع الوحى من السماء. ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ

---

(١)أخرجه البخارى (٢٤٩٣)، وأحمد (٤/ ٢٦٩).

(٢)آل عمران: ١١٠.

(٣)آل عمران: ١٠٤.

(٤)أخرجه الترمذى (٢١٦٩)، وحسنه الألبانى.

عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾[(١)].

وهذا طريق المصلحين الناصحين فهم وسيلة من وسائل تحقيق الخير فى الأمة وهم وقاية لها من الهلاك والدمار واللعنة، وبهم يستمر خط الخير فى صعود يتلقفه الأبناء عن الآباء، ويأخذه الصغار من الكبار، ويسير على هدى منه الذين ضلوا الطريق، فلا يتركون لعبة فى يد الشيطان، بل ينتزعون من يده، ويطلقون فى ساحة الحق والخير والهدى، فتستنير بصائرهم، وتزول الغشاوة عن أبصارهم.

إن الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر هم عون للمظلومين، وقوة للمستضعفين، وسيف مصلت فى وجه الظالمين،الذين يظلمون أنفسهم حين يسيرون على خط الشيطان، ويظلمون غيرهم حين يجعلون غيرهم تابعاً لهم يعمل ما يعملون، ويرضى بما يرضون.

ولسنا نجعل لهؤلاء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر سلطة فوق السلطات ولكنا نقول: إنهم نور يضىء للناس فهم تبصرة للغافلين؛ لأنهم يقومون بالتذكرة، ويأخذون بيد التائهين الشاردين، دون منٍّ ولا أذى ويقولون لغيرهم ما قاله الرسل لأقوامهم: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾[(٢)].

هل من خوف على الناصحين لقلة عددهم؟

قال الفضيل بن عياض: «لا تستوحش طريق الهدى لقلة أهلها»، الحق والتزام أهله به أمر فى غاية الصعوبة ويزداد معاناة إذا كان الأمر معلقاً بالآخرين، فالإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ تحمّل ما لم تتحمله الجبال، لاستشعاره المسؤولية فكان يقول وهو ينظر إلى أهل بغداد: «أأهلك هؤلاء وأنجو بنفسى» ويقول: «كنت أصلى بأهل السجن وأنا مقيّد»، وهكذا أهل الحق لا يستوحشون قلة السالكين معهم، كل محاسب بحسب ما يؤديه اجتهاده فى إنكار المنكر، فالناس فى دائرة النجاة ما داموا فى فلك الإنكار ـ باليد واللسان

(١)البقرة: ١٤٣.
(٢)هود:٢٩.

والقلب ـ ولكن هلك من رضى وتابع كما قال على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنما يجمع الناس الرضا والسخط، وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب».

وأصحاب الدعوات علّمتهم حياتهم دروساً منها التأنى فى اتخاذ قرارتهم، فهم ـ بفضل الله ـ يستطيعون أن يقولوا نعم أو لا، ويتحملون مسؤولية الكلمة؛ لأنها نتجت بروية ودراسة، لامن عاطفة ومصلحة وهذه الدقة التى أكرمهم الله بها إنما هى عنوان رجولة عندهم يعرفها الرجال، فهم لا يمارون ولا يجاملون فى كلمة الحق يقولون ويتحملون الكلمة بكامل تبعاتها اقتداء بسيرة أسلافهم، ومناصحة كهذه متكاملة مع أخواتها الأخريات التى ذكرها الفضيل حين قال: «لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة، إنما أدرك بسخاء الأنفس وسلامة الصدر والنصح للأمة».

وهذا المنهج فى النصح يصل بصاحبه إلى ما قاله الإمام البخارى: «المادح والذّام عندى سواء».

الحرص النافع والحرص الفاجع

قال: لعل الحرص على ملذات الدنيا وشهواتها من أكبر أسباب ترك المعروف ومقارفة المنكر، لأن المرء يحرص على تحقيق لذته من أى طريق، لا يبالى فى ذلك بحرام أو حلال، لأن دافعه هو الحرص على تحقيق اللذة وحدها.

ولو أنه تأمل الشهوات والملذات غير المنضبطة بضوابط الشريعة إنما تورد صاحبها موارد التهلكة؛ لأنه يبغى ويجور، ويظلم ويعتدى، ليحقق عرضاً من أعراض الحياة، حيناً من الدهر، ثم يبقى له بعد ذلك الندم والخسران على ما فرّط فى جنب الله، وفى حق نفسه، إلى أن يلقى الله فلا يجد غير ما قدمت يداه.

ومتاع الحياة قليل نعم، ولكن لا غنى عنه، وهو يتمثل فى أمور تميل لها الفطرة البشرية، وقد بينتها الآية القرآنية: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾[1]، فمتاع الحياة الذى بينته الآية لا يمكن الاستغناء عنه، ولو تصورنا ذلك حادثاً فكيف يمكن تصور الحياة.

قلت: السائر فى أى طريق يتبع بدقة اللوحات الإرشادية التى يضعها المشرفون على الطريق، يفعل ذلك وفى يقينه أنه ناج بهذا الاتباع، وأنه إن خالف هذه التعاليم قد يضل أو يتعرض لأخطار هو فى غنى عنها، وليس ذلك بمانع له من أن يتزود بحاجته من أى مكان يمرّ عليه ويأخذ منه ما يريد. وطريق الحياة مثل غيره، لابد فيه من لوحات وعلامات إرشادية تتبع وإلا ضاع فيها الإنسان، والله ـ سبحانه ـ واهب الحياة تفضل علينا بمنّه وكرمه، فأرسل لنا رسولاً وحفظ لنا كتاباً، وحدّ لنا حدوداً، وحرّم أشياء وأحلّ أخرى، وسكت عن أشياء رحمة بنا من غير نسيان، فإن لم نتبع أوامره، ونسر على منهجه، ونأخذ كتابه بقوة ضللنا طريقنا، وحاقت بنا الأخطار فى الدنيا والآخرة.

---

(١) آل عمران: ١٤.

ومتاع الحياة الذى ذكرته الآية ضرورى لاستكمال طريق الحياة ما فى ذلك شك، ولكن تحصيله مقيّد غير مطلق، مقيد بأن يؤخذ من الحلال وينفق فى الحلال بغير إسراف، وأن يعطى صاحبه حق الله فيه كما فى الأموال، ومقيّد فى النساء بقول الرسول ﷺ: «وإنكم استحللتم فروجهنّ بكلمات الله»[1]، ومقيّد فى الأولاد بالرعاية والتربية وضرب الأسوة لهم والقدوة الصالحة أمامهم فإذا حرص الإنسان على تحقيق متاع الحياة دون خروج عن هذه الضوابط فإنه بذلك لم يَحِدْ ولم ينحرف ولم يرتكب منكراً ولم يفارق معروفاً.

وأما الذى يحرص على تحقيق هذا المتاع بعيداً عن هذه الضوابط الشرعية، جاعلاً الدين خلف ظهره، والدنيا أكبر همه، وتحصيل ملذاتها غايته فإنه بغير شك واقع فى المخالفات، لا يلبث يسيراً على ذلك حتى يحيد وينحرف ويضل ضلالاً بعيداً.

فالدين هو العاصم وإنما يحقق المرء الشرف لنفسه باتباع تعاليم الدين، وبغير هذه التعاليم لايتم تحصيل شرف حقيقى، ولا يكون ما حققه الإنسان ـ مما يظن فيه الشرف ـ إلا فساداً كبيراً وضلالاً مبيناً، فالشرف لا يتم عن غير طريق الدين إلا بالمكر والغش والزور والبهتان والنفاق والرياء وكلها أثواب بالية سرعان ما تزول عن المتسربل بها فتظهر عوراته وتنكشف ـ أمام الناس سوآته، فيلعنه يومئذ اللاعنون، وينصرف عنه المحبون المؤيدون؛ لأن زيفه ظهر، وخداعه ما استتر، ولربما طال هذا الفساد، ولم يبد أمام الناس ولكنه حتماً سينكشف، وسيزول الزيف وتظهر الحقيقة.

ومهما تكن عند امرئ من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وسواء انكشف أمره فى الدنيا أو لم ينكشف فإن فساد أمره باق، وابتعاده عن دينه هو سبب الضلال والانحراف، ومن هنا كان قول الرسول ﷺ الذى يحمل التحذير من الوقوع فى هذا الخطر بضرب مثل تشبيهى توضيحى يقرب المعنى ويوضح ما يلحق

(١)أخرجه مسلم (١٢١٨)، وأبو داود (١٩٠٥)، والنسائى فى الكبرى (٤٠٠١)، وابن ماجه (٣٠٧٤)، وأحمد (٥/ ٧٢).

بالناس من أضرار إن هم أرادوا تحقيق مكاسب مادية أو معنوية عن غير طريق الدين، يقول ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلاً فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[1]، وما أراك تجهل مصير قطيع من الغنم ينقض عليه ذئبان جائعان، أى فساد يلحق بهذا القطيع من قتل وتمزيق وجراح وخوف وفزع وتبعثر وتشتت؟ وكذلك يكون الدين إن حرص صاحبه على تحقيق المكاسب المادية والمعنوية (المال والشرف) إن لم يلتزم فى تحقيقهما طريق الدين وسبيل المؤمنين.

فالحرص على المال ـ إن كان من طريق مباح ـ يجعل المرء منشغلاً بهذا الطريق الذى لا نهاية له فحب المال فطرة فى النفوس لا تشبع من جمعه، هكذا شاء الله وأخبر بذلك رسول ﷺ حين قال: «لو كان لابن آدم واد من مال لا بتغى ثانياً، ولو كان له ثان لا بتغى ثالثاً، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب»[2]، فالمنشغل بجمع المال منشغل بأمر لا يفرغ وعمل لا ينتهى، ولن يكون انشغاله إلا على حساب تضييع أمور أمر بها الدين، من صدقة وسماحة حتى فى البيع والشراء والاقتضاء وإنظار المعسرين، ووضع بعض الدَّين عن المدينين. إلى غير ذلك مما يلغيه حرص المرء على ماله فيضيع منه ثواب عظيم وربما ارتكب آثاماً غير قليلة، فلا ودّ له بين الناس ولا محبة، لأنه لا يألف ولا يؤلف، ومن قديم عبّر عن ذلك شاعر جاهلى بقوله:

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يُسْتغْنَ عنه ويذمم

والإنسان الذى جعل حياته كلها حرصاً على الجمع والتكديس للأموال هل ضمن أياماً ينفق فيها ماله، أم أنه يجمع وكفى، فصار جمع المال هدفه، وتكديسه غايته؟ إن سعيه ـ فى هذه الحالة ـ باطل، وجهده غير مشكور، بل هو جهد منكر وقديماً قيل لأحد الحكماء: إن فلاناً جمع مالاً. فقال: فهل جمع أياماً ينفقه فيها؟ قيل: لا. قال الحكيم: ما جمع شيئاً.

وكان عبد الواحد بن زيد يقول: الحرص حرصان: حرص فاجع وحرص نافع. فأما

(١) أخرجه الترمذى (٢٣٧٦)، وأحمد (٣/ ٤٥٦)، وصححه الألبانى.
(٢) أخرجه البخارى (٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٤٨).

الحرص النافع فهو الحرص على أمور الدين، واتباع طريق المرسلين، والسير فى سبيل الصالحين المتقين، الذين جعل الله من أولى صفاتهم إنفاقهم فى السراء والضراء فقال سبحانه: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ (١).

وجعل الله من أهل البر والخير فئة من الناس تعطى المال للأقارب والمستضعفين فقال سبحانه: ﴿ ۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (٢).

وهل يتفق الحرص مع الحث القوى على بذل المال فى نفع المسلمين وإعطاء البائسين !! إن الحرص على المال ـ فساد لدين المرء ليس لأن المال فى ذاته حرام أو مكروه، ولكن الحرص والشره للمال هو الذى يحوّل سلوك المرء إلى أمر محرم أو على الأقل مكروه ومن هنا يكون الفساد الذى ينمو بنمو الحرص ولا يقف عند حدّ محدود، ثم ما يلبث صاحبه أن يحمل إثمه على ظهره يلقى به ربه ـ ويترك من خلفه ـ ماله يضيعه الورثة بعدما نالوه غنيمة باردة من حريص ذميم.

جمعتَ مالاً ففكر هل جمعت له ... يا جـامع المال أياماً تفرقه

المال عندك مخزون لـوارثـه ... ما المال مـالك إلا يوم تنفقه

ونأتى إلى الحرص الفاجع، الذى ينكب به صاحبه جماع الأموال، حيث لا يبالى من أين جمع؟ ولا فيم أنفقه؟ فالمال محور حياته حيثما وجد هذا المال من حلال كان أم حرام لا يحقق من أين اكتسبه؟ ولا يفكر فيم ينفقه؟ والذين ينشرون بين الناس المخدرات فيجمّدون العقول، ويسمّون الأجساد، وقد ينشرون ـ مع ذلك ـ الفاحشة حيث لا شرف

---

(١) آل عمران: ١٣٣، ١٣٤.

(٢) البقرة: ١٧٧.

ولا فضيلة، ولا ابتعاد فى حياتهم عن الرذيلة، فأى طريق يأتى منه المال فهو طريقهم، وطريق الإنفاق الحلال لا يعرفونه، وطريق الإنفاق الحرام لا يجهلونه فقد يأتيهم المال من حرام ثم يكون إنفاقه - إن أنفق - فى الحرام، فيحصدون آثاماً ويجنون - يوم يجنون - علقماً وحطاماً.

وأى شرّ فى جانب المال أعظم من قول الرسول الكريم ﷺ فيما رواه عنه ابن عمر رضي الله عنهما: «اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا» [1]. ولحرصهم على المال وبخلهم به قطعوا الصلات وفجرو فى الأرض ففسد حالهم، وساء مصيرهم. هذا فساد الحرص على المال أوقل - وأنت صادق: بعض فساده، فأما فساد الدين بالحرص على الشرف والمكانة المعنوية بين الناس فأمره أوضح؛ إذ قد يتخذ الإنسان السلطان والمال والجاه وسائل لتحقيق هذه المكانة، وقد يكون فى اتخاذه لهذه الوسائل محقاً وقد يكون على الباطل.

وكلما ازداد حرصه على تحقيق الشرف والمكانة بين الناس لم يبال فى سبيل ذلك بالوسائل المشروعة، فالحرص يدفعه إلى تحقيق غايته دون النظر إلى سلامة وصحة وسيلته، فيندفع فى طريق بعيد عن الدين فيفسد ويهلك ولا يوفقه الله ليكون مع الصالحين فى جنات النعيم: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[2].

وكان يزيد بن عبد الله يقول: «من أحب المال والشرف وخاف الدوائر لم يعدل فيها» أى لم يلتزم طريق الحق دائماً فى الوصول إلى غاياته وتحقيق رغباته، فهو لا يرى غير غايته التى سيكسب من ورائها جاهاً وشهرة وفى سبيلها يضحّى بكل ما يستطيع ولو كان ذلك على حساب الدين واليقين، ولذا تكون فجيعة العاقبة خزياً وخذلانا وحسرة وندامة وهذه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٧) وأحمد (٣/ ٣٢٣).

(٢) القصص: ٨٣.

إحدى غايات الشرف التى يحرص كثير من الناس على تحقيقها وهى الإمارة فلينظر كيف بين رسول الله ﷺ عاقبة الوصول إليها. قال ﷺ: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة»(١)، فالإمارة فى الدنيا يسيل لها لعاب كثير من الناس طمعاً فى الشهرة والمجد والصيت العريض، فهم ينعمون بخيراتها فى الدنيا كما ينعم الطفل بالرضاعة من أمه، ولكن مصير هؤلاء المنعّمين حين يأتى فطامهم، ويحين حسابهم، والندم والخزى إن لم يأخذوها بحقها: «فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة».

ومثل هذه الولاية والإمارة لا تزيد فى عزّ الإنسان، وإن ازدهت مناظره، ولمعت أمام العيون مظاهره، فإن ذلّ المعصية يجعل قلبه مكبوتاً،وعضده مفتوتاً،وقد وصف الحسن البصرى أمثال هؤلاء من قديم فقال:«إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين فإن ذلّ المعصية فى رقابهم»، فأين من رقابهم يفرون؟ وكيف من ذلهم يتطهرون؟ وأشد ضرراً من هؤلاء، وأعظم ذنباً من اتخذ دينه مطية لبلوغ الشرف والرفعة فى الدنيا، ينافق به، يجعله فى خدمة هواه وخدمة أسياده من ولاة السوء، يصلح الدين عنده لكل أمر، ويوافق كل حال يرضى عنها السلطان، فإن غضب السلطان بعد الرضا فالدين - عند هؤلاء - محرم، يحلون منه ما يشاؤون ويحرّمون وقتما يريدون، فيبيعون دينهم بثمن بخس ومتاع قليل، وربما باعوا دينهم بدنيا غيرهم فخسروا فى الدنيا وفى الآخرة.

وقد لا يفعل العلماء ذلك وإنما يريدون أن يحققوا مكانة بين الناس وأن يشار إليهم بالبنان فهم العلماء والناس جهال، وهم العارفون والناس على ضلال ومثل هذا الإحساس عند العلماء قتّال يحبط الله به الأعمال، فيكون الخسران، ولذا كان الحسن البصرى يحذّر: لا يكن حظ أحدكم من علمه أن يقول الناس عنه عالم، ونصح السرّى الجنيد فقال: أخشى أن يكون حظك من الدنيا لسانك. وكل هذه أدواء وأمراض يبتلى بها

---

(١)أخرجه البخارى (٧١٤٨)، والنسائى (٤٢١١) ،وأحمد (٢/٤٤٨).

الإنسان فى الحياة: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[1].

---

(١) الأنفال: ٤٣.

الوقاية من السهام

قال: حدثتنا عن وقاية أنفسنا من فتنة التقدم المادى بالأخذ بأسباب العلم التجريبى ودفع شباب الأمة إليه حتى لا نظل ـ نحن المسلمين ـ فى السفح ننظر لغيرنا وهم فى القمة المادية العلمية، فنندب حظنا فى أماكننا دون أن نتقدم خطوة واحدة ولقد كان حديثك السابق عن الفتنة يدور على هامش الموضوع الرئيسى من أن الدنيا جنة الكافر وسجن المؤمن، ويدفع بنا هذا الحديث الجانبى عن الفتنة إلى معالجة أمر الكيد للمسلمين وتدبير الفتن التى تلاحقهم حيثما حلَّو وأينما كانوا... وهى فتن كقطع الليل المظلم يبيع فيها بعض الناس دينهم بعرض من الدنيا قليل.

وقد تجاوزت الفتنة عامة الناس فوصلت إلى المثقفين الذين يحملون الأقلام وينشرون الأفكار، ويطلون على الناس من أجهزة الإعلام كل صباح ومساء، يخاطبونهم بكل وسائل الخطاب، ويستخدمون معهم كل أجهزة التوصيل والتأثير والاتصال، حتى اتبعهم بعض الناس وساروا من ورائهم فى هذه الفتن التى تكاد تزلزل العقول، ولو استطاعت أن تحوّل كثيراً عن الناس بعيداً عن الدين لفعلت، فما المخرج من هذه الظلمات، وكيف نتقى الشبهات والضلالات؟

قلت: إن أمر الفتن وإثارة الزوابع بين المسلمين ليس جديداً، إنه قديم قدم الدين، فمنذ بعث الرسول ﷺ والمكائد تلاحقه وتلاحق الصف المسلم معه، ألم تسمع قول الله يحكى حال المشركين مع رسلهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾[1].

ألم يأتك نبأ الاضطهاد الذى وقع بالمسلمين فى مكة؟

ألم يأتك نبأ الاضطراب الذى أحدثه المنافقون فى المدينة؟

ألم يأتك نبأ الاستئصال الذى حاوله المشركون مع الدين حينا بعد حين؟

ليس إذن بجديد أمر هذه الفتن المتماوجة على عالمنا الإسلامى، ولكن الجديد فيها أن

(١)الذاريات: ٥٢.

جهاز المناعة فى أمتنا قد ضعف، فلم يعد يقوى الناس على مقاومة الفتنة بعد أن قلّ رصيدهم من الإيمان، وضعف عملهم بشريعة الإسلام، فظهرت الفتنة أكبر من حجمها، وأوسع من قدراتها.

ولسنا نقول جديداً إن أعلنا بملء أفواهنا أن الكيد للمسلمين لم يتوقف، بل يزداد خبثاً ويبتكر لنفسه فى المكر طرقاً، ولن نملَّ من إعلان طريق الحفاظ على مقومات المسلمين، وهى ـ بحمد الله ـ موجودة فى الكتاب والسنة، إن شريعة الله فيها الخلاص من الفتن التى تحيط بالمسلمين، إذا ما لجأ هؤلاء المسلمون للشريعة يطبقون أحكامها، وينفذون تعاليمها. وهم بغير تطبيق الأحكام، وبغير تنفيذ لتعاليم الإسلام مثل أولئك الذين قال الله فى حقهم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾ (١).

والآية حقاً نزلت فى شأن اليهود، لكنها ليست قاصرة عليهم، ولا خاصة بهم، إنها تشمل كل من سار على دربهم وفعل فعلهم، فحمل الكتاب ظاهراً، وتخلى عنه سلوكاً وعملاً وتطبيقاً وليس الذنب ذنب الأعداء الماكرين، فهم لن يتخلوا عن مكرهم، وهم لن يغفلوا ـ لحظة ـ عن تدبيرهم ولكنا ـ نحن الذين ـ تخلينا عن كثير من مظاهر الإسلام وفككنا من عُراه فتخلخلت حياتنا، وتمزقت أواصرنا، واختلطت علينا الأمور، وتوغل الأعداء فى حشايا مجتمعنا المسلم، وسيطروا على عقول كثيرين من المسلمين، من صفوة المثقفين أو السياسيين ووجّهوهم حسبما يريدون، وكيفما يحبون، حتى صرت تجد هؤلاء الساسة والمثقفين، يبادرون فيؤيدون الغربيين فى كل أمر وإن تناقض ذلك مع الدين ، وهذا طه حسين وهو علم من أعلام الثقافة المعاصرة يؤيد الغربيين فى كل ما ذهبوا إليه، ويقول فى كتابه مستقبل الثقافة فى مصر: إن الرقى الحضارى لن يتم لنا إلا إذا أخذنا بما أخذت به الحضارة الغربية بخيرها وشرها، وحلوها ومرها.

وإذا كان التأثر بالغربيين مسيطراً على صفوة المثقفين والسياسيين فما بالك بغيرهم، وقد

(١) الجمعة: ٥.

كان هجوم الغربيين على المسلمين ذا شقين: جذب فئة بعينها تدعو إلى التقاليد الغربية وتأخذ أنفسها بها فى سلوكها وتصرفاتها، وهؤلاء تفتح لهم الأبواب، وتعطى لهم الأموال، وتوزّع عليهم المناصب والألقاب، وشق آخر هو تحجيم المسلمين، وإيقاف دفاعهم وسدّ السبل أمامهم، وإخماد أصواتهم فلا تعلو، وكسر أقلامهم فلا تكتب، وإيقاف كل عمل يظهر الإسلام أو يدافع عنه بين جماهير الناس، ولسنا فى حاجة إلى دليل فكم من مجلة إسلامية أوقفت رغم نجاحها، أو حُجّمت رغم انطلاقها، أو منع الدعم عنها، أو فرضت عليها رقابة صارمة.

وهل أتاك ـ يا صاحبى ـ نبأ تأميم أوقاف المسلمين، وجعلها تحت سلطان الحاكمين؟ وهل يغيب عنك خبر (تطوير) الأزهر، وما جرّه ذلك من ضعف للغة والدين على السواء؟

وهل أنت غير عليم بما كان من قبل حيث ألغيت الخلافة، ومزقت الأمة بدداً؟

وهل إضعاف سلطة المحاكم الشرعية ثم إلغاؤها بعد ذلك لم تعرفه ولم يأتك خبره؟ وغير ذلك كثير، تفيض به الكتب، وتنقبض له الصدور، وتستوحش له النفوس، فكم من عالم زعم أموراً لا تتفق مع الدين وجعل الدين يرضاها ويباركها فهذا يزعم أن الله أعطى للأمة حق وضع القوانين، وذلك خطأ بين وجهل مشين ولو أردنا ـ مع حسن النية ـ إصلاح هذا القول: لكان الفهم الذى ينبغى أن يفهم هو أن من حق علماء الأمة المجتهدين أن يستنبطوا من الأحكام المستمدة من كتاب الله ومن سنة رسوله ما يستطيعون. أمَّا أن يسنوا قوانين، ويضعوا للناس شرائع وتعاليم، فذلك إفك مبين، وضلال قديم وهل يغيب عنك ما دعا به عالم أزهرى فى كتاب مطبوع حين أعلن على الناس أن الإسلام لا صلة له بالحكم، وأخرج فى ذلك كتابه المسمى «الإسلام وأصول الحكم»؟، وكم من طعنات وجهت للدين أو للمخلصين له من أجل أن يشوهوا هذا الدين. وكم من مسلم أوذى وكم من مسلم طورد وكم من بيت مسلم تهدم، وكم من عمل إسلامى توقف. ناهيك بما

يقدمه رجال الفن ونساؤه على السواء مما يشوّه صورة الدين ورجاله بين الناس، حيث يبثّون صورة مبجلة وكريمة لرجال الدين غير المسلمين، ثم إن وجهوا الصورة نحو رجال الدين المسلمين تجد الشره وحب الدنيا، وفساد المظهر وسوء الجوهر،يبدون كل ذلك للناس لينفروهم ويبعدوهم عن دينهم.

أرأيت إلى ذلك المستشار الأمريكى روبرت ماكفرلين، الذى يأتى ليطلع البابا على نتائج قمة جنيف بين أمريكا وروسيا؟

يذاع هذا فى حينه ويشاع بين الناس. ويمنع العاملون للإسلام من التعبير عن آرائهم فى كثير من الاتفاقات التى تبرم والمعاهدات التى تقام، والصفقات التى تتم بين كثير من الدول الإسلامية وغيرها.

ويفتح الباب على مصراعيه ليدخل منه البث التلفزيونى بما يحمل من شرّ أخلاقى وفساد تربوى، كل بيت ، ولا يتم ذلك إلا على مذبح الفضيلة، ومأتم الشرف وطعنات الاحترام والتوقير. وكم من أموال تنفق فى سبيل ذلك.

إننا نزرع الشر بأنفسنا ونشتريه بأموالنا، ونفتح له مكاناً يقيم فيه فى بيوتنا ليطل علينا كل حين مستهزئين بقيمنا وتقالدينا وعاداتنا فى ملبسنا ومأكلنا ومشربنا وتجمعنا وتفرقنا، وكل ما يقدمه دخيل علينا يأباه العرف عندنا والتقاليد ويأباه من قبل الدين والشريعة. فلماذا ينشر؟ ومن منه يستفيد؟ ونعود فنقول: يا قومنا، عودوا إلى كتاب ربنا حتى لا تشقوا فى الدنيا والآخرة فهل أنتم سامعون.

فبما كسبت أيديكم

قال: لا يكاد أحد يسلم من البلاء فى الدنيا، مما جعل الحياة صعبة عسيرة، يشقى بها الناس، إذ ما يكادون يستريحون من شيء ما، حتى يظهر فى حياتهم شيء آخر منغص لهم، تنقبض منه الصدور، وتضيق به النفوس، فالأمراض المختلفة، والكوارث الطبيعة من زلازل وبراكين وفيضانات أحياناً وجفاف ومجاعات أحياناً أخرى، والكوارث البشرية من منازعات وحروب تهلك الأخضر واليابس، كلها آلام وأدواء يقشعر منها جلد الإنسان كلما ذكرها؛ لأنها تسمم الحياة، وتعكر صفاءها، وتقضى على حسنها، وبهجتها وفى هذا لون من ألوان العذاب الدنيوى، مع أن الناس لم يخلقوا ليعذبوا فكيف نفسّر ما نراه أمامنا بأبصارنا ونحسه بحواسنا؟

قلت: إن دار النعيم الذى لا يكدره شيء هى الجنة، ودار الجحيم الذى لا يخففه شيء هى النار وكلتا الجنة والنار زمانهما فى الحياة الآخرة، وليست فى الحياة الدنيا التى يؤثرها البشر، وينشغلون بها عن غيرها لحبهم إياها، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾[1]، والحياة التى نؤثرها مليئة بالخير والشر لأنها دار الابتلاء الذى أخبر الله به فى قوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾[2].

ولأن الإنسان خلقه الله فيها حراً مختاراً وميّزه بالعقل وأرسل إليه الرسل مبشرين ومنذرين، وحدد له غايته و ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[3]، وكشف له وسيلته ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ﴾[4]، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ﴾[5].

---

(١)الأعلى: ١٦.
(٢)الأنبياء: ٣٥.
(٣)الذاريات: ٥٦.
(٤)آل عمران: ٣٢.
(٥)النور: ٥٤.

وحتى يتضح الأخيار من الأشرار كان لابد من هذا الابتلاء ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[١] والله سبحانه أخبرنا بذلك فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾[٢]، وليس بالضرورة أن يكون البلاء شراً فى كل حال؛ لأنه قد يمحص الإنسان أحياناً، ويخفف من آثامه أحياناً أخرى، ويردعه عن غيه مرات ويعمل على رده إلى الله، إلى غير ذلك من الحكم التى قد نعلمها وقد لا نعلمها، ولكن كثيراً من أنواع البلاء تصيب الناس بسبب معاصيهم وكسب أيديهم، وظهور فسادهم فى كل مكان يصلون إليه ويحلون فيه، ولو رجع عن غيّهم لصلح حالهم واستقام أمرهم، ولا ننكر أن من البلاء ما يقع بدون جريرة ارتكبت أو جريمة اقترفت، كما حدث مع أصحاب الأخدود الذين قال الله فى حقهم: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾[٣]، ولكن الكثير من البلاء إنما هو بذنب من الذنوب، وقد ورد: «لا يصيب عبدا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب»[٤].

والبشر تتعدد فيهم النوازع، وتتباعد الأهواء والرغائب فتجد فيهم الخيرين وتجد فيهم الفاسقين العاصين، فإن كثر الفسق وعمت المعصية وجاهر الناس بالسيئات ابتلاهم الله فى أمنهم أو فى رزقهم لعلهم يتضرعون إلى الله ويعودون إليه تائبين مما اقترفوا، نادمين على معصيتهم، فإن لم يفد ذلك فى العصاة نزل بهم العذاب، وأحاطت بهم الشدائد، واجتاحتهم المهلكات، وما قصة القرية فى سورة الأعراف عنا ببعيدة، فقد ابتلاها بفسقها فضيق عليها فى رزقها فلم ترعَوَ، ولم ترجع عن غّيها، بل استمرت فى عصيان أوامر الله متخذة الحيل والخداع، وقد جهل سكانها أن ذلك وإن انطلى على البشر، فإنه لا ينطلى على الخالق ـ سبحانه ـ لأنه يعلم ما نخفى وما نعلن، ولما قامت جماعة تنبه العاصين إلى

---

(١)الأنفال: ٤٢.

(٢)محمد: ٣١.

(٣)البروج: ٨.

(٤)أخرجه الترمذى (٣٢٥٢)، وضعفه الألبانى.

معصيتهم، وتحذرهم عذاب ربهم لم ينته العصاة،ولم يبتعد عن الخروج عن الطاعة المعتدون لحدود الله، فجاءهم بأس الله الشديد، وعذابه المهلك المديد،قال سبحانه : ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[(١)].

والله ـ سبحانه ـ يسوق الخير للناس، وهو غنى عنهم ، وهم محتاجون إليه، يتعطف عليهم بالرزق والنعمة فيقابلون نعمته بالجحود والإعراض، وليست هناك نعمة تساق للإنسان أعظم من نعمة الأنبياء والمرسلين الذين يرسلهم رب العالمين ليبلغوا الناس أوامر الله، ويعرّفوهم بصفاته وأسمائه، ليكون لهم من ذلك زاد فى طريق الحياة فلا ينحرفون ولا يبتعدون عن الحق والصراط، فإذا ما كذّب الناس المرسلين والأنبياء، وزاد منهم العتو والسفه والكبرياء أخذهم الله بالبأساء والضراء، لعلهم يرجعون: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾[(٢)].

وبعد هذا الأخذ الشديد بالبأساء والضراء قد يرجع الناس عن غيهم فيتوبون إلى ربهم فيكتب الله لهم النجاة، ويحميهم من شرور الحياة.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾[(٣)].

فكان كشف العذاب، وإبعاد الخزى عنهم والعقاب، وإمتاعهم فى حياتهم الدنيا بالطيبات من الرزق إنما هو بسبب إيمانهم:﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، والله ينجّى العاملين من الشر، ويحميهم من الزيغ، ويحفظ عليهم بذلك إيمانهم

---

(١)الأعراف: ١٦٣، ١٦٤.
(٢)الأعراف: ٩٤.
(٣)يونس: ٩٨.

فيقوى عندهم اليقين، ويتمكن فى قلوبهم النور الواضح المبين: «ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان»[١]، وإنما كان استحواذ الشيطان عليهم ونسيانهم ذكر الله، ووقوفهم فى حزب الشيطان، يكثرون أنصاره ويؤيدون أعوانه، وهم ـ بذلك ـ خاسرون كانوا كذلك لأنهم تركوا ركنا من أركان الإسلام وفريضة من فرائضه، وبقدر ما يتمسك الإنسان بتعاليم الله واتباع أوامره، والتزام فرائض الدين، والأخذ بسنته يكون ابتعاد الشيطان عنه،وبالتالى يكون محصناً ضد الفساد والفسق والفجور والعصيان.

فإن فرط فى جانب الدين من أى زاوية فقد أصبح من جنود الشيطان وحزبه من جهة هذا التفريط حتى يعود عنه بالتوبة إلى الله، أو يستمر فى تفريطه فيتسع عليه الخرق، ليظل على ما هو عليه فيكتب فى الخاسرين، ويحشر فى زمرة الفاسقين؛ لأنه أحبهم وسار على منوالهم، وأخذ فى الدنيا نهجهم، وهكذا مصير المارقين عن حدود الدين، يعذبهم الله فى الدنيا والآخرة فيبتليهم، فإن استمروا أخذهم أخذ عزيز مقتدر، قال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾[٢].

فالابتلاء هنا ليس بنزول العذاب ولكنه بالتضييق فى الرزق وعدم استتباب الأمن، ليلجأ الناس إلى ربهم بالتوبة، فإن كثر الفسق وعمّ العصيان، ولم يرجع الناس واستمروا فى جهالتهم وضلالهم أخذهم الله بالعذاب ودمّرهم تدميراً: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾[٣].

وقوم لوط حين فشت فيهم الفاحشة وجاهروا بها، واستمروا على ما هم فيه من الخبائث والفسق، ولم يرعووا أمام نبيهم، وقالوا ما قصه القرآن الكريم: ﴿مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ

(١)أخرجه أبو داود (٥٤٧)، والنسائى(٨٤٧)، وأحمد (٥/ ١٩٦)، وحسنه الألبانى.
(٢)النحل: ١١٢.
(٣)الإسراء: ١٦.

حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾[(١)].

كان مصيرهم المعروف الهلاك الشديد، والعقاب المبيد: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾[(٢)].

وقد يأتى البلاء فى صورة أمراض وأوجاع لم يعرفها الناس من قبل، لعل السادرين فى غيهم يتوقفون ويرجعون إلى الله يتضرعون، وقد بين ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم الذين مضوا»[(٣)].

وهل أتاك نبأ الإيدز؟ عافنا الله وإياك ـ إنه دليل عملى واقعى للذين يتشككون من غير الصادقين فى السنة المطهرة، أعرفه الناس من قبل؟ كلا، ولكنه ظهر واستشرى وصار وحشاً مرعباً مفزعاً ما يكاد يظهر فى مكان حتى يستنفر له الناس والأجهزة والإشاعات وغيرها من كل ما هو جديد، والعاقل من يقول:انج سعد فقد هلك سعيد.

والمرء قد يحرم الرزق بالذنب يصيبه، فالبلاء بالتضييق أو بالأمراض والأوجاع أو بالخوف والقهر والضنك، أو بالاستئصال والمحق وكله مما ارتكبه الإنسان وابتعد فيه عن منهج الرحمن: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[(٤)].

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾[(٥)].

وأخيراً نقول:﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾[(٦)].

---

(١)هود: ٧٩.

(٢)هود: ٨٣.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩)، والحاكم فى المستدرك (٤/ ٥٨٢)، وحسنه الألبانى.

(٤)الروم: ٤١.

(٥)الشورى: ٣٠.

(٦)يونس: ٤٤.

والعاقل من اتعظ بغيره، ونعوذ بالله أن نقترف معصية أو أن نجرّ على أنفسنا أو على المسلمين سوءاً، بعد أن منّ الله علينا بنعمه التى لا تحصى، وبصّرنا بطريق الذين ظلموا أنفسهم، حتى لا نقع تحت طائلة عقابه فى الدنيا ولا فى الآخرة، وحتى لا نكون من أصحاب هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ (١).

معاذ الله أن نكون من هؤلاء، وإننا لندعو أنفسنا وإخواننا أن يكونوا على الجادة سائرين بالصراط مستمسكين، وبالمعروف آمرين وعن المنكر ناهين، وتلك هى صبغة المجتمع المسلم يتشرّبها سداه ولحمته فلا تنفصل عنه، ولا تخرج منه فحيثما كان المسلمون كانت معهم صبغة مجتمعهم وسيطرت عليهم تعاليم دينهم وقاموا بواجبات ربهم، وأعانوا الطائعين وأخذوا على يد الظالمين فتستقيم لهم الأمور وتعتدل بهم، فللعدالة موازين: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ۝١٣٨﴾ (٢).

إن مجتمعنا يصطبغ بالصبغة الإسلامية على مستوى الفرد والأسرة والجماعة والدولة والمسلمين أجمعين، وذلك أمر فيه شرفنا وبه عزنا إذ تتحقق فيه الخيرية لنا التى ذكرها الله فى كتابه حين قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ﴾ (٣).

ومع هذه الخيرية للأمة الإسلامية والتى بها تتفوق على جميع الأمم الأخرى يكون لنا الفلاح والفوز العظيم فى الدنيا والآخرة إن نحن حققنا صبغة الإسلام فى كل مجال وفى مقدمتها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واقرأ قول الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤﴾ (٤).

أفلحوا لأنهم قاوموا الشرّ وحافظوا على مسيرة الخير، عاونوا الصالحين الخيرين،

---

(١) الانفطار: ٦.
(٢) البقرة: ١٣٨.
(٣) آل عمران: ١١٠.
(٤) آل عمران: ١٠٤.

وقاوموا المفسدين فتحقق الفلاح لهم ولمجتمعهم من حولهم بفعلهم وحسن سلوكهم وسلامة مقصدهم وصدق توجههم وأما الذين لا ينكرون منكرًا، ولا يأمرون بمعروف فاللعنة لهم والسخط يصيبهم والرحمة بعيدة عنهم، بل هم ملعونون، مذموم فعلهم، وهذا جزاؤهم لمخالفتهم ما أمر الله به: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾[١].

وإذا تُرك الشر فلم يقاوم حتى يفشو ويعمّ، فإن الهلاك هو المصير المحتم ولو هلك مع الهالكين صالحون قليلون، هذا ما بينه رسول الله ﷺ حين سألته أم المؤمنين زينب بنت جحش: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال عليه الصلاة والسلام: «نعم إذا كثر الخبث»[٢].

ولذا فإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نجاة لسفينة هذا المجتمع، الذى يقاوم فيه الشر ويعاون فيه على الخير فينجو من الهلاك «فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم ـ منعوهم من أن يخرقوا نصيبهم ـ نجوا ونجوا جميعًا»[٣] إن الموج من حول سفينتنا مضطرب والرياح عاتية ولا نجاة لنا إلا بالصبغة الإسلامية، والتمسك بالمناهج الربانية.

(١) المائدة: ٧٨، ٧٩.
(٢) تقدم تخريجها.
(٣) تقدم تخريجها.

الأخلاق الإسلامية سياج يحمي

قال: الأخلاق الإسلامية ليست موجودة ـ اليوم ـ إلا عند آحاد من الناس بفعل الطباع الإنسانية التى تميل إلى الخلود إلى الأرض، وتضعف عن ضوابط السمو والرقى، وبفعل وسائل الاتصال العصرية، ووسائل الإعلام المختلفة التى يرى من خلالها المشاهد ويسمع السامع ويقرأ القارئ، كل يوم عشرات من عادات وتقاليد الشعوب الغربية والشرقية، المستخلصة مما يعتقدون من عقيدة، ويدينون به من دين رضيناه أم خالفناهم الرأى فيه.
ومن المؤسف المزرى أن أخلاق الإسلام تتراجع فى النفوس لتحل محلها أخلاق أخرى، حتى احتلت أخلاق الآخرين مساحة واسعة من نفوس المسلمين، ومساحة واسعة من حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم فى الملبس والمأكل والاجتماع والأفراح والأعياد، والحروب والمآتم والأحزان.

ونحن ـ بالطبع ـ لا نتحدث هنا عن بلد بعينه ـ صغر أو كبر ـ وإنما نتحدث عن مساحة عظيمة شاسعة من الأرض يغطيها دين الإسلام ويسكن فوقها مسلمون تعددت لغاتهم وألوانهم وأجناسهم، ولكنهم يستظلون جميعًا بمظلة الإسلام، نقول هذا حتى لا يقال لنا: إن بلد كذا ليس فيها كذا وبلد كذا ليس فيها كذا، ونحن ـ كذلك ـ نتحدث عن الغالب، وليس عن العموم.

ولسنا ننكر أن مساحة الأخلاق غير الإسلامية بدأت تنحسر من هنا أو من هناك لتفسح بعض أماكنها للأخلاق الإسلامية، التى بدأت تمتد بفعل المزيد من الوعى الدينى، وظهور الصحوة الإسلامية، غير أن هذا لم يغيّر من الواقع كثيرًا.

فلماذا عمت أخلاق غير المسلمين ديار المسلمين؟ وكيف يمكن التمسك بأخلاق الإسلام؟

قلت: الأسباب التى ذكرتها من الخلود إلى الأرض وضعف الهمة، والتأثر بأخلاق الشرق والغرب التى تنقلها وسائل الاتصال والإعلام هى أعراض لمرض واحد، هو

فقدان التمسك الصحيح بالدين، الذى منه وعنه ظهرت الأخلاق الإسلامية، ولسنا نفصل الجزء عن الكل، فالأخلاق جزء من الدين، فإن جعلت الأمة ـ معظم بلاد الأمة ـ الدين وراءها ظهريًا فكيف تتمسك بجزء منه؟ وحتى إن كثيرين من المسلمين الحريصين على شعائر الدين تراهم أمام بعض أخلاق الإسلام ضعيفين لا يتورع أحدهم عن أن يغش فى بيع،أو يحلف لينفق سلعة،أو يكذب ليرضى الآخرين،أو يدلّس ليصل إلى مأرب، أو لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر حتى لا يضيق به الناس، أو غير ذلك، وأخلاق الإسلام رفعة لأصحابها وسموّ لهم وتبعة عليهم فى نفس الوقت فهى تقتضى جهدًا مضاعفًا، ويقظة دائمة، واتصالاً بالله فى كل حين، وهل يتحقق ذلك لمجموع الأمة فى كل حين وفى كل مكان وأزيدك بيانا فأقول:

يصنع الدين الصحيح سياجًا يحمى الإنسان، وحصنًا يأوى إليه المرء، فلا يجرفه التيار، تيار الانهيار السائد بين أفراد البشر، والذى يكاد يجرف أبناء المسلمين، ليكونوا كغيرهم، لا يعصمهم عاصم، ولا يحميهم من شرور أنفسهم وشرور الحياة من حولهم حام، وليس هذا السياج سورًا حول بيوتهم أو حول بلادهم، فذلك لم يعد يجدى نفعًا ولا يغنى أمام وسائل الاتصالات الحديثة فتيلاً، إن هذا السياج هو من الأفراد فى القلوب، ومن الأمم فى الوجدان والشعور، بغيره يأتى السيل الجارف الذى يقضى على الأخضر واليابس؛ لأنه يحول الأفراد من مدافعين عن الحق أمام الشرّ والباطل، والفساد إلى مفسدين فى الأرض، ينشرون الضلال، ويثيرون بين الناس الجدال، ويرتكبون فى مجتمعاتهم أسوأ الخصال والأعمال، دون أن ينال منهم قانون البشر لعجزه وضعفه وعدم جدواه أمام المتسربين من بين موادّه وطواياه.

إنه سياج لا يمكن الاستغناء عنه عند المسلمين، وحصن حصين مكين، يعمل أعداء الله على نزعه وتحطيمه وهم فى ذلك ما زالوا سائرين مستمرين، وانظر إلى هذه الثغرات فى مجتمع مسلم تفشو فيه الخيانة فلا تحمل لمسؤولية عامة؛ لأن الأمانة مفقودة، ولا يتجلد

أبناؤه أمام الشدائد لأن الصبر من نفوسهم تبخر، وشاع بينهم الكذب، فلم تعد لأحد فيه ثقة فانعدم الوفاء، وقلّ النصحاء وانتشرت الأثرة والأنانية، واختفى الإيثار وزادت الكراهية والبغضاء، وزالت روح التعاون بين الأفراد فلم يعد بنيانًا مرصوصًا يشدّ بعضه بعضًا

أتقوم لهذا المجتمع قائمة؟ أترى للناس فيه كرامة؟ أيثبت عند اللقاء ومجالدة الأعداء؟ إن سياج الأخلاق فيه تمزق، ولبنات حصنه تبعثرت وتشتت بعدما تهدمت.

إن الأخلاق المستمدة من القرآن قوة للأمة وحياة لأبنائها وحماية لأفرادها بغير ذل ورفع لراية الكرامة الإنسانية فهو فى عزة، وصلابة فى الحق بغير وهن ولا ضعف وإن فقد الإنسان روحه فى سبيل شرفه وعرضه أو ماله وأرضه، وتحمل للشدائد وتجلّد للمصائب وثبت أمام المغيرات، وصبر على الملمات حتى تنقشع سحابتها، دون أن يستخزى الإنسان أمام الأعداء.

وتجلدى للشامتين أريهم   أنى لريب الدهر لا أتضعضع

أهناك سياج يحمى الأمة أعظم من هذا السياج؟ أرأيت حصنًا فيه قوة أعظم من هذا الحصن؟

من هنا كان حرص الإسلام على تنمية الأخلاق لدى أبنائه يجعلها دينًا يحاسب عليه المرء أمام الله لينتفع المسلمون بثمارها فى الدنيا قبل أن ينتفعوا كذلك بثمارها فى الآخرة، فأما ثمارها فى الدنيا فقد حدثناك عن بعضها فى الكلمات السابقة، وأما ثمارها فى الآخرة فقد أخبرنا بها رسولنا الكريم ﷺ الذى ما ترك بابًا من أبواب الخير إلا ودلّنا عليه، وما ترك بابًا من أبواب الشر إلا وحذرنا منه قال ﷺ: «ما من شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذىء»[1]، وفى حديث أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «حسن الخلق وتقوى

(١)أخرجه الترمذى (٢٠٠٢)، وأبو داود (٤٧٩٩) دون قوله: «وإن الله ليبغض الفاحش البذىء».

الله»[١]، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ قال: «الفم والفرج»[٢].

وبالخلق تقوم الأمم وتنتهض وترقى وتتقدم، وبغيرها يتداعى النبيان، ويزيد ركام الشر والفساد حتى تزول الأمم فتصبح عند الناس أثرًا بعد عين، وقد كان أمير الشعراء محقًا حين قال:

وإنما الأمم الأخـلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وأعداء الله، أعداء دينه لا يريدون لأمة الإسلام أن تستيقظ من سباتها، ولا أن تتنبه من غفلتها، السبيل الوحيد أمامهم هو هدم الأخلاق فى بناء الأمة وإزالتها من قلب الأفراد، فيكون الفرد ـ من غير خلق ـ واهنًا ضعيفًا، وبالتالى فهو فى أمته لبنة هشة سرعان ما تتفتت أمام أهون الضربات وأقلّ العواصف والنكبات، وقد حرص المبشرون أعظم الحرص على استخدام هذا الطريق، الذى هو أقرب الطرق الموصلة إلى غايتهم فى التحطيم والهدم، يقول (زويمر) مخاطبًا المبشرين: «إن مهمتكم أن تجعلوا المسلم لا صلة له بالله، وبالتالى لا صلة له بالأخلاق التى تعتمد عليها الأمم فى حياتها ولن يتيسر ذلك إلا إذا انتشرت العلمانية بين أبناء المسلمين».

ويقول (جب) مبيناً طريق السيطرة على المسلمين المتمثل فى مسخ أخلاقهم: «وهذا يتوقف على حد بعيد على القادة فى العالم الإسلامى وعلى الشباب منهم خاصة وكل ذلك عن طريق نشر العلمانية».

وبداية هذا الطريق ـ طريق تفريغ المسلمين من أخلاقهم الإسلامية ـ الحط من قدر العاملين فى الشؤون الدينية الإسلامية حتى تسقط هيبتهم أمام الجماهير ويضعف تأثيرهم فيسهل الطريق على أعدائهم، ومن ثم حورب العاملون للإسلام أعظم محاربة، ونالهم الاستهزاء من الأقرباء قبل الأبعدين، وضيق عليهم فى أرزاقهم وأعمالهم وشوهت

---

(١)رواه الترمذى (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، وحسنه الألبانى.

(٢)رواه الترمذى (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، وحسنه الألبانى.

صورتهم فى أجهزة الإعلام، وافترى عليهم المفترون بالإفك والزور والبهتان، وفى نفس الوقت يعلى من أمر الخارجين على حدود الدين، الساقطين فى أوحال الطين، المتسترون تحت بريق الأسماء، يلبسون ثوب الفن، وينشرون من خلاله العهر والفجور، ويعلنون بين الناس الفحش وشرب الخمور، ومع ذلك فلهم التقدير، والجوائز تنتظرهم والصحف تتلقف أخبارهم، فلا تعادل بين كفتى الميزان، تطيش فيه كرامة رجال الدين، ويعلو قدر غيرهم من الهادمين للأخلاق العاملين على إشاعة الفاحشة بين المسلمين، وانتشرت أشرطة الفيديو،وزاد توزيعها، وأقيمت لها الأسواق، وانتشر الأدب الرخيص بين الشباب المسلم وهذا ما يتفق مع خطة أعداء الله وأعداء الدين، بهدم الأخلاق فى نفوس الناس فيسهل قيادهم، وتضعف أمام الأعداء مقاومتهم، يقول اليهود فى البرتوكول السابع عشر: «لقد عنينا أصدق العناية منذ أمد طويل بالحط من قيمة رجال الدين وتحطيم رسالتهم»، وهم لا يخفون وسيلتهم لذلك، إذ يقولون: « ستقوم صحافتنا دائما بتقديم تعابير محقرة تقرب من حدّ الإهانة للتعريض بالشؤون الدينية».

ولو استعرضنا ما فعله حكام المسلمين، وما نال المسلمين من استهزاء وسخرية وتحقير من رجال الإعلام فى كثير من بلادنا لعلمنا إلى أى مدى ينجح العدو فى تطبيق ما يريد بيدنا وبأموالنا وبجنود بعضنا يضرب ضربته محطمًا أخلاق الأمة وهو متوار عن الأنظار، لا يثار نحوه من الاتهامات غبار، إن اليهود فى البروتوكول الرابع عشر يقولون: «لقد خلقنا فى البلاد التى تسمى المتحضرة أدبا قذرًا لا منطق فيه»، ونحن نرى آلاف الناس فى كل يوم يضعون أنفسهم تحت تصرف أشرطة الفيديو والسينما التى غدت تحت التوجيه اليهودى وعنوانها الطيش والشهوات الجنسية والانحطاط الخلقى فغدت للأفلام والمسرحيات تأثيرات مذهلة فى الضوء والحركة من غير أن نجد أفكارًا مغايرة أو توجهًا بناءً.

والعجب فى بلادنا أن الأمور تكال بمكيالين وتوزن بميزانين، فتجار المخدرات يلاحقون من الشرطة ويطاردون قانونًا، وهم مجرمون؛ لأنهم يسممون الأبدان والأجساد،

أما الذين يسممون النفوس ويفسدون القلوب، ويغيرون الضمائر فلا غبار عليهم ولا تثريب بل إنهم مكرمون، يحتفى بهم فى كل مكان وفى كل حين.

إن الذين يروجون الخمور والعهر والفساد وأفلام الطيش والجنس، هم الذين يريدون للأمة السقوط، وهم الذين يرجعون بالشباب من هبوط إلى هبوط.

ولا مخرج إلا باتباع أخلاق القرآن ومنهج رسول الأنام وهو القائل: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» [(١)]، وقد كان «خلقه القرآن» والأخلاق الإسلامية هى منشئة الفضائل، المحافظة عليها فى السر والإعلان، والأخلاق الإسلامية هى السياج من الرذائل، وهى الحصن الذى يحفظ من الشرور والآثام. وأينما حللت وحيثما توجهت وجدت من هذه الأخلاق دستورًا يأبى الشدة من الأعداء ويأبى كذلك الغلظة أو القسوة من الأقارب والإخوة والأصدقاء.

وكفى به دستورًا، وأنعم به من منهج يجمع ولا يفرق، يؤلف ولا يمزق يكف الأقوياء عن أن يظلموا، ويقوى الضعفاء حتى لا يظلموا، يجعل الغنى لا يتكبر على الفقير ويجعل الفقير لا يتذلل أمام الغنى، تحقق به الأمة المسلمة قول الله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[(٢)].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الفتح: ٢٩.

من علائم الانكسار

قال: الخوف والجوع هما من أبرز ما يمتاز به المسلمون فى عصرنا على امتداد عقود سابقة وحتى الآن، وحيثما نظرت فى مُصوّر الكوارث الطبيعية أو البشرية وجدت للمسلمين فيهما نصيبًا أكثر من غيرهم، مما يجعل الخوف والجوع ينتشر ولا ينحسر، ويتشعب ولا ينكمش، وليس ذلك لعلة مرئية فالأموال ـ والحمد لله ـ فى بلاد المسلمين كثيرة، وأعدادهم كذلك كثيرة، ومع هذا تجدهم مغلوبين على أمرهم، حتى استطاع اليهود أن ينتزعوا منهم الأرض التى بارك الله حولها، وأن يسيطروا على القدس، وأن يجعلوا بيت المقدس تحت سلطانهم.

وبلادنا إما مشغولة بهمّ لقمة العيش لتأمن من جوع، أو بشأن قطعة سلاح لتأمن من خوف.

والأمر لا يزداد مع الأيام إلا شدة وشراسة، فلم يأمن الناس حتى بعد اتفاقات السلام مع العدو الإسرائيلى؛ إذ ما كاد يعلن فوز زعيم حزب الليكود ناتنياهو، عشية الانتخابات التى جرت يوم ٩٢ مايو ٦٩٩١م حتى امتلأت الصحف العربية وأجهزة الإعلام، بوجهات النظر للمحللين السياسيين، وكلها متخوفة من نكسة السلام، وظهرت كذلك تصريحات رسمية تعلن تخوّفها مما حدث على مستقبل المنطقة، وبدأت اتصالات بين الدول فى عالمنا العربى الإسلامى للتداول فى شأن ما جرى، وكلها علامات تدل على عدم الاطمئنان، أو إن شئت قلها بغير مواربة: إنها علامات تدل على الخوف.

البشائر التى هللت لاتفاقات السلام ابتداء من كامب ديفيد.. وحتى الآن وما بعده، وجعلتها مفتاح الرخاء فى المنطقة، ووعدت شعوب هذه المنطقة الإسلامية، التى حولوا اسمها زورًا إلى الشرق الأوسط بالمن والسلوى، هذه البشائر انتهى وقتها وجف ثمرها عن شىء لا يسمن ولا يشبع فكيف الخروج من هذه الأزمات؟ وكيف يمكننا القضاء على هاتين العلتين؟

قلت: يحرص الإنسان فى كل حين وفى كل أرض على أن يطمئن على نفسه من المخاوف والآلام والمظالم والبغى والعدوان، وأن يطمئن على رزقه، لتهدأ نفسه وتقرّ بذلك عينه، ولذا كان القرآن الكريم يطمئن أهل مكة حين أمرهم بعبادة رب البيت لأنه أزال عنهم الجوع بإطعامهم، وأزال عنهم الخوف باستتباب أمنهم، قال سبحانه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾[1].

ولقد امتن الله على المؤمنين، حين ذكرهم بنعمة الأمن التى رزقهم إياها، وهم الذين كان الفزع يأخذ بمجامع قلوبهم، كانوا ـ من قبل فى مكة ـ مهددين فى مستقرهم لا مأوى لهم، فآواهم الله، وأزال عنهم الخوف ورزقهم من الطيبات ليشكروا نعم الله قال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[2].

وبزوال الخوف،ووجود الرزق تسكن النفس ويثبت القلب عند هجوم المخاوف والابتلاءات، ويستمر على ذلك شاكرًا نعم الله، مدركًا فضله، ذاكرًا أسماءه، عارفًا صفاته، موقنًا أن فى كون الله سننًا صنعها الله، ونواميس، وراحة الخاطر والضمير، والله هو القائل: {أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[3].

تطمئن حتى تلتجئ إلى الله، تتذلل إليه، وتحتمى به من شرور الإنس والجن: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾[4].

والإنسان قد يضعف أمام الأحداث، ويجزع أمام المخاوف، ولا يثبت أمام الابتلاءات، ولكن المؤمن الصادق وإن خاف وجزع، وإن زلزلته الأحداث، حتى وإن استبعد النصر ـ

---

(١)قريش: ٣، ٤.
(٢)الأنفال: ٢٦
(٣)الرعد: ٢٨.
(٤)الناس .

أحيانًا. ﴿وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ [(١)].

فإنك تجده ثابت الجنان مستقر الفؤاد والمؤمن الصادق يظل له من إيمانه فى قلبه رصيد، يجعله يتماسك ولا يذوب، ويثبت ولا يتراجع، لأنه يطمئن إلى حكم الله، ويطمئن إلى قدر الله، ويلتجئ فى كل حين لمولاه ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [(٢)] تطمئن لحكم الله: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [(٣)].

فالحق منصور وإن انتفش الباطل، وزها الظالم، وتجبر على الناس البغاة المعتدون،

فالمؤمنون يدركون أنهم ـ وهم على حق ـ منصورون ولو بعد حين. والصادقون من المؤمنين يطمئنون كذلك إلى حكم الله القدرى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [(٤)].

بهذا يأمن المؤمنون فلا يفزعون ولا يحزنون ولو فزعوا وجزعوا سرعان ما يعودون ليدركوا أن قدر الله غالب وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشرًا بشىء لم ينفعوه إلا بشىء قد كتبه الله له وإن اجتمعوا على أن يضروه بشىء لن يضروه إلا بشىء قد كتبه الله عليه، وصدق الله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾﴾ [(٥)].

وما دام الأمر كذلك فلم الجزع، وفيم الفزع؟وإذا ما حفّت بالإنسان الأحزان، وأحاطت به الآلام والمظالم والمخاوف فتضعضع منه الصبر ولان منه العزم، فإنه لا ينهار؛ لأن الإيمان يمده باليقين، وذكر الله يرد قلبه إلى الطمأنينة، فيزداد سكونه حينما يتدبّر مثوبته أمام الله وحيثما يتذكر معية الله له: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [(٦)]، حينئذ تعود له عزة المؤمن

---

(١)البقرة: ٢١٤.
(٢)الرعد:٢٨.
(٣)الأنبياء: ١٨.
(٤)التوبة: ٥١.
(٥)القمر: ٤٩.
(٦)البقرة: ١٥٣ .

المستعلى بإيمانه على كل ما حوله فيردد:

وقل ساعدى يا نفس بالصبر ساعة   فعند اللقا ذا الكد يصبح زائلا
فما هى إلا ساعة ثم تنقضى   ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا

نعم لم لا يرضى المؤمن بما أصابه، وهو يقرأ قول الله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾[١].

إن المؤمن الصادق يعلم علم اليقين أن الأمر كله لله، وأن قدر الله غالب وأن على الإنسان ـ وهو لا يعرف ما قدر له ـ أن يأخذ بالأسباب، وأن يحاول قدرة جهده أن يتجنب البلاء، فإذا ما أصابه البلاء ثبت وصبر، واحتسب فقد أدّى ما عليه وقدر استطاعته، ثم يفعل الله ما يشاء لحكم يعلمها الله ولا نعلمها: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[٢]، وقد تخفى مصلحة الإنسان عليه فلا يدركها إلا فيما بعد فيحمد الله؛ لأن البلاء الذى أصابه كانت فيه النجاة من شر أكبر وألم أعظم، أرأيت إلى العبد الصالح الذى صحبه موسى عليه السلام، حينما قتل الغلام وهذا بلاء ظاهر ولكن، هذا البلاء فيه نجاة من شر أعظم وأكبر وهو الشرك بالله، فالبلاء بقتل الابن أخف وطأة من البلاء بالشرك، وفى هذا من فضل الله بعباده ما فيه مما لا تدركه الأبصار ولا تستبينه البصائر: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾[٣].

فالإنسان تعترضه غيوم وهموم، ومحن وفتن وابتلاءات شتى، وفيها من الحكم ما لا يعلمها إلا الله، وبها يتميز الطيّب من الخبيث والصادق من الكاذب، فالصادقون صابرون

---

(١)يونس: ١٠٧.
(٢)البقرة: ٢١٦.
(٣)الكهف: ٨٠، ٨١ .

ينتظرون من الله تفريجًا للكرب وكشفًا للحجب، لا ييأسون من الفرج: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [1]. ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [2].

الصادقون من المؤمنين يعلمون أن فى المحنة منحة، وأن من العسر يسرًا، هم ـ فقط ـ يتذللون إلى الله ـ لا لسواه ـ يرجون مثوبته ويطلبون رحمته، ويستنزلون ـ بالدعاء ـ نصره. قالوا:

أتشكو ما ليس يخفى عليه فقلت ربى يرضى ذل العبيد إليه

إن أقدار الله تجرى على الناس فى أوقات أرادها الله، وهى أليق الأوقات التى تجرى فيها الأقدار، فلا يلومن أحد عصره، ولا يندبنّ أحد حظه، ولكن ليكن الثبات والصبر والاحتساب مع الأمل فى الفرج والخروج من الضيق وتحقيق اليسر الذى يسعد به الصالحون، ويرون أنه نعمة من الله له بها يشكرون.

ومع هذا فلابدّ من أخذ الأمور بجدّ وحزم واتباع منهج الله الذى بيّنه كتابه وسار عليه رسوله ﷺ، فقد أمر الله ـ سبحانه ـ بإعداد القوة فقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [3] وقال لنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾﴾ [4]، والرسول ﷺ بين أن القوة الرمى، وقال: «ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميًا» [5].

وإعداد القوة للأعداء يشمل كل قوة فى كل مجالات الحياة المختلفة اقتصادية، واجتماعية وحربية، وغيرها، ويوم أن نفعل هذا سيصلح أمر هذه الأمة فى آخرها كما يصلح فى أولها، ولن يخاف الناس من جوع، ويأمنوا من الخوف.

---

(١) يوسف: ٨٧ .
(٢) الحجر: ٥٦.
(٣) الأنفال: ٦٠.
(٤) النساء: ٧١.
(٥) أخرجه البخارى (٢٨٩٩)، وأحمد (٤/ ٥٠) .

الظفر بعد المحنة

قال: لأحداث السيرة وقع فى نفوس المسلمين، يتلقونها بالرضا والقبول، ويحاولون أن يقتدوا بالرسول ﷺ وصحابته فى مواجهتهم للأحداث وتحمّلهم للشدائد، وصبرهم على الآلام، وعضّهم بالنواجذ على هذا الدين، ودروس السيرة وعبرها تكون بلسمًا عند البلاء، وحافزًا للهمم على تجاوز الصعاب وتضحية بكل غال أو رخيص، فى سبيل إحقاق الحق، ونشر العدل، وبث الوعى والأمن، فلا يتسلل إلى عقولهم فكر شرود، ولا إلى حياتهم ظلوم كنود.

ومع هذه الأهمية للسيرة وأحداثها فإن الدعاة إلى الله، لا يأخذون منها إلا أحداثًا قليلة ليؤيدوا بها أقوالهم أو يستشهدوا بها فى بعض المواطن دون أن يسقطوا هذه الأحداث على الواقع إلا فى القليل فتظل السيرة بعيدة بأحداثها الحيّة الراقية، الواعية عن واقع المسلمين الراكد الذى فيه غير قليل من الجهل وغير قليل من التخلف عن مسيرة الحياة.

قلت: للسيرة وقعها ـ كما قلت ـ ولست أخالفك فى عظمتها ورقيها، والمتابع لخط الحركة النامى المتصاعد فى أحداثها يجد أنها دائمًا فى تقدم ورقى، ودائمًا فى نماء نحو الأفضل ينتقل المسلمون ـ كل يوم ـ من عسر إلى يسر، ومن ضيق إلى سعة، ومن قلة إلى كثرة، ومن فقر إلى غنى، ومن خوف إلى أمن. لست لك مخالفًا فى شىء من ذلك، بل وإنى أوافقك فى ضرورة إسقاط أحداثها على واقع المسلمين طالما أن ذلك ممكن، على ألا يغيب عن بالنا أن الأحداث إذا تشابهت ـ أحيانا ـ فإن الرجال لا تتشابه مطلقًا فى الجدّ والصبر والثبات وعلو الهمة، وغير ذلك من الصفات التى لا تغيب عن ذهنك وأنت تقرأ أو تسمع من سيرة هؤلاء الرجال، ولكنك لا تجد بعض هذه الصفات اليوم إلا فى قليل ممن رحم الله.

وحرىٌّ بنا وأولى لنا أن نتأسى بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان من أن نتأسى بالشرقيين أو الغربيين أو من غيرهم من الذين يسيرون فى فلكهم ويعتنقون فكرهم.

ونحن ـ المسلمين ـ حين نقرأ السيرة لا نعدم أن نجد حلولاً كثيرة لمشاكلنا المعاصرة بوجه من الوجوه لأحداث السيرة، ونحن المستفيدون إن أسقطنا هذه الأحداث على واقعنا اليوم وعالجنا أحداثنا فى ضوء المستجدات، وفى ضوء الأحداث السابقة، وبخاصة منها ما يتصل بحياة الصدر الأول.

ولسوف أضع بين يديك نموذجًا يستفاد منه فى كل عصر وفى كل جيل، وفيه من الدروس والعبر ما لو أخذنا بعضها لاسترحنا كثيرًا، إنه درس محنة الإفك الذى كاد يحدث فتنة فى الأمة الوليدة لولا لطف الله، وقد صبر أمام هذا البلاء المسلمون الصادقون، دون أن ينال من عزمهم أو يزلزل شيئًا من يقينهم فخرجت به الأمة منتصرة سليمة فلنتابع معًا أحداث الإفك، ولنستخلص العبر والدروس، فهل تستفيد منه الأمة اليوم أولاً؟

أمّ المحن هى تلك التى حدثت فى السنة الخامسة للهجرة أنها محنة كلّفت أطهر النفوس وسيد ولد آدم محمد بن عبد الله ﷺ .. كلّفته آلامًا لا تطاق إلا بعون الله تعالى، إنها محنة حلت بعد الرجوع من غزوة بنى المصطلق كانت ضحيتها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعن أبيها حيث تقول عن نفسها: «لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم» وتقول: «بكيت حتى أظن أن البكاء فالق كبدى». إنها المحنة التى كادت تشعل نار الجاهلية بين سيد الأوس «أسيد بن الحضير» وسيد الخزرج «سعد بن عبادة» إنها المحنة التى واجهتها عائشة رضي الله عنها بصبر الكبار واستعانة الصادقين، فقالت: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [١].

إنها بعد ذلك أم الانتصارات حيث خرجت الأمة بعد ذلك منتصرة كاظمة لآلامها الكبار، محتفظة بوقارها، وجميل صبرها وهى بذلك تعبر عن حسن علاقاتها وظنها بالله: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»[٢]، وإحسان الظن هو الذى يجعلنا نستشعر معية الله نترقب التأييد ولا نترقب المقت والأخذ، ونستشعر بأنه من نعم الله سبحانه لأن الظالم لا يبقى والديان لا يموت، والصابر لا ييأس، نعم إن البلاء مضمار يتسابق فيه الخلق

(١)يوسف: ١٨، وحادث الإفك أخرجه البخارى (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).
(٢)أخرجه مسلم (٢٨٧٧) ، وأبو داود (٣١١٣) وابن ماجه (٤١٦٧)، وأحمد (٣/ ٣٣٤) .

فيسبق أقوام ويتأخر آخرون: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾[1].

إنه البلاء قد نزل وقد حلّ فما مخرج منه إلا بالصبر، والبلاء الشديد يحتاج إلي عظيم الصبر، الذى لا يستطيعه إلا صفوة المتقين على اختلاف درجاتهم فقد قال ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل..»[2]، والبلاء فى الأرض سنة من سنن الله فى هذه الحياة، يصيب الناس فى شدته أو فى لين منه، ليمتحنهم الله، وليمحص عودهم وينكشف مدى صبرهم وإيمانهم واحتسابهم إن كانوا صادقى الإيمان، واثقين من معية الرحمن: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾[3].

وليس البلاء قاصرًا على العصاة المذنبين، ولا على الكفار المجرمين، إن البلاء يصيب الكافرين والمؤمنين، ويصيب الطائعين والمذنبين، حتى إنه ليصيب الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين. فلا يدل على سخط الله وغضبه، كما لا تدل نعم الله والولد والشهرة والمناصب على رضا الله، فليس الابتلاء دليلاً على غضب الله وليست العافية دليلاً على رضا الله. إنه سنة من سنن الله يبتلى بها عباده كما قد يبتليهم بنعمه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[4].

وهل ابتلى أحد بمثل ما ابتلى به رسول الله ﷺ زورًا وإفكًا وبهتانًا حين اتهمت طائفة من الناس زوجه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بما اتهموها به من الإفك؟

إن أعظم بلاء يصيب الشرفاء أن يتهموا فى أعراضهم، وأن يلوكهم الناس بألسنتهم ويقولوا عنهم بأفواههم ما ليس لهم به علم، وأين ذلك؟ فى بيئة تحافظ على الأعراض

---

(١)يوسف: ١٨.

(٢)أخرجه الترمذى (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، والنسائى فى الكبرى (٧٤٨٢)، وأحمد (٦/ ٣٦٩)، وحسنه الألبانى.

(٣)العنكبوت: ٢، ٣.

(٤)الأنبياء: ٣٥.

وتحافظ على الشرفاء، وعار شديد، وإثم أليم أن يلصق بهم شيء قد يشين أعراضهم، فإذا انضم إلى هذا كله الطهر الشديد العظيم فى بيت رسول الله ﷺ، وما عرف عنه من التوقى الشديد مما قد يصيب بعض الناس بالشكوك، ومن الوضوح البيّن الذى يسدّ به منافذ الشيطان نحو القلوب كان وقع الإفك عليه شديدًا؛ لأنه ﷺ كان يتحرى أن يبتعد عن مواطن الشبهات، وانظر إليه ﷺ وقد قام فى المسجد مرة ليعيد إحدى زوجاته إلى بيتها ورآه رجلان فأسرعا فى سيرهما فقال لهما: «على رسلكما إنها صفية». فقالا: سبحان الله، أو نظن بك ذلك؟! قال ﷺ: «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فخشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئًا»[1]، هذا التوقى الشديد من الشبهات ومن خطوات الظنون، التى قد يقذف بها فى القلوب شيطان، كان دأب رسول الله وديدنه. كيف به إذًا وقد جاءه خبر الإفك؟ كيف بأهله حين علموا؟ وكيف بالمؤمنين الصادقين من حوله، وهم الذين يفدونه بمهجهم وأرواحهم؟

إنه بلاء عظيم عمّ الصادقين، دون أن يستطيعوا له دفعًا، ولا أن يستطيعوا عنه حولاً. وطال البلاء شهرًا كاملاً، والناس يتحدثون، والرسول ﷺ صابر محتسب، وأمّ المؤمنين الطاهرة المُبَرأة من فوق سبع سموات لا تدرى مما يقول الناس شيئًا، وحين ينقل إليها الخبر تحزن أعظم الحزن، وتبكى أحرّ البكاء، وهى - مع ذلك - تدرك أن الله سبحانه لن يتخلى عنها برحمته فكان الصبر رغم الحزن، وكان الأمل موجودًا وقت الضجر والضيق، وكذلك كان المؤمنون الصادقون، الذين هزتهم المحنة وزلزلتهم حزنًا وكمدًا على ما أصاب أطهر البيوت من سهام الشكوك، كانوا يتطلعون إلى الله يرجون رحمته أن يزيل عنهم الكرب الذى حلّ بهم والذى لم يقف عند القول باللسان بل كان يتحول بين المسلمين إلى حدّ السنان حين صعد رسول الله ﷺ على المنبر وقال: «من يعذرنى من رجل بلغنى أذاه فى أهلى، فو الله ما علمت على أهلى إلا خيرًا»[2]، فقام أسيد بن حضير سيد

---

(١) أخرجه البخارى (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥).

(٢) تقدم تخريج حادث الإفك.

الأوس فقال: أنا والله أعذرك منه. فقام سعد ابن عبادة وقال لأسيد: كذبت والله لا تقتله، فثار الحيان، ولم يزل النبى ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ونزل. ومع وضوح الأمر، وقسم الرسول ﷺ على أنه لم يعلم على أهله إلا خيرًا، فإن الأمر لم يحسم بهذا الموقف وبذاك القسم، بل كاد الأمر ينقلب إلى معركة بين المسلمين لولا أن الرسول ﷺ كبح جماح النفوس الثائرة، التى كادت تنفلت من قيد الطاعة لله وللرسول.

ولم يستطع أحد أن يقطع فى القول أمرًا من الأمور، حتى أبو بكر الذى طلبت منه ابنته أن يجيب عنها رسول الله ﷺ حين قال لها: إنه بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن ألممت بذنب فاستغفرى الله تعالى، وتتجه أم المؤمنين إلى الصديق أبى بكر، إلى أبيها قائلة: أجب عنى يا أبى، فلا يجيب.

فما بالك بغير أبى بكر من الناس، إنهم إن ظنوا بأنفسهم خيرًا وبأمهم أمّ المؤمنين لا يستطيعون أن يردّوا هذا الاتهام، ولا أن يسكتوا الناشرين له، الآخذين فى إذاعته، وقد عمَّ وشاع.

وما كان لأم المؤمنين غير الصبر ملاذًا وملجأ قالت: فو الله ما أجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [(١)].

وكان عاقبة الصبر أن أنزل الله البراءة فى سورة النور: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [(٢)].

فكانت المحنة درسًا للأمة محصت به النفوس، وامتحن به الصادقون من المؤمنين، وظل الأمل وسط المحنة يتراءى لأصحابها يعلن أن الحق آت لا ريب فيه، «فإن كنت بريئة فسيبرئك الله»، وظل الصبر هو سفينة النجاة فى بحر المحنة الذى تلاطمت أمواجه

---

(١) يوسف: ١٨.

(٢) النور: ١١.

واشتدت ظلماته.

وحين كفوا أيديهم عمن كانوا يحسنون لهم من المسيئين جاءهم التنزيل الحكيم يعلن: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ (١).

فكانت الإجابة: بلى: أحبّ أن يغفر الله لى هكذا تحدث أبو بكر وهو الذى كان قد أقسم ألا ينفق على مسطح بن أثاثة؛ إذ هو أحد الثلاثة الذين أججوا نار الإفك بين الناس، تلك التى أخمدها الله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (٢)، ويعود أبو بكر لينفق من جديد كما كان ينفق من قديم على مسطح، لأن أبا بكر لا يتبع الهوى ولكنه يتبع الحق فى كل أموره وشؤونه «إنما أنا متبع ولست بمبتدع»، وما أحوج الأمة إلى رجال يتبعون الحق فى كل حين وفى كل مكان، حتى لا تزداد الأمة فسادًا على فسادها، وضعفًا على ضعفها وفرقة جديدة تضاف إلى منازعاتها القديمة.

وما أحوجنا أن ندرك وأن نردد دائمًا فى كل محنة تنزل بالمسلمين قول الحق: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾.

إن محنة الإفك درس عظيم نضعه أمام المسلمين؛ ليدركوا أن عليهم أن يوحدوا جهودهم، ويزيلوا خلافاتهم ـ على الأقل فى وقت المحن ـ ليحموا دين الله من تقلبات الأهواء فلا يظهرون الدين بأنه يقبل الشىء وضده، يقبل الشىء وعكسه، فهو بذلك يولد عداوة بين المسلمين، ويقف حاجزًا دون خدمة هذا الدين من بعض الصادقين، وإذا جاز لنا أن نختلف فى بعض الآراء وقت الرخاء، فلا يجوز لنا أن نختلف فيها وقت الشدة والبلاء وبخاصة حين تلتاع نفوس، وتضيق صدور، وتجف حلوق، وتصمت ألسنة عجزًا عن بيان الكارثة، ثم بعد ذلك كله يكون الخلاف فى الرأى، ويقف بعض الناس يؤيدون

(١)النور: ٢٢.

(٢)النور: ١١.

الظالمين، ويناصرون الباغين، ولا ينصفون المظلومين، ولعل ذلك درس لنا أجمعين يرد بعضنا إلى بعض، ويعيننا كلنا لنتعاطف ونتعاون ونحن نردد: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[1] بلى. إنّا والله لنحب ذلك.

(١)النور: ٢٢.

معالم للرقي الروحي والمادي

قال: المسلمون ـ دون غيرهم من البشر ـ يأتون فى مؤخرة الدول التى أخذت فى التقدم والرقى من قرون أو عقود، ولا أجد مبررًا واضحًا لذلك غير جدّ الناس فى أعمالهم وتصرفاتهم وسلوكهم وعجز المسلمين عن تحمل تبعات الحياة، والركون إلى الكسل، والبعد عن طلب المعالى، وبذل الجهد والعرق والسهر فى سبيل ذلك.

ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر

فهم لا يطلبون علياء، ولا يخطبون حسناء يبذلون لها الغالى من المهور اللازمة للتفوق: الجد والتعب فى البحث والعمل والاستمرار حتى تنفتح المغاليق، وتتحقق الأهداف ويعود النفع على الناس.

قلت: لكأنك تود أن تلقى على عاتق الدين عبء تخلف المسلمين ـ الآن ـ وعدم لحاقهم بركب المتقدمين فى ميادين العلم التجريبى والحياة المادية العاصفة القاطفة؟

قال: ما أود أن أقوله هو شىء من ذلك، وإن كنت من المؤمنين بأن الدين مبعث قوة، ودافع همة، ورافع عزة لمن اعتنقه بحق وأخلص لله وكان معه بصدق ليكون الله معه. ومع هذا الإيمان فإنى أريد أن يطمئن قلبى، خاصة وأنى أرى أحوال المسلمين حولى فأعجب وأغضب.

قلت: يكفى أن الدين وضع القواعد والأسس التى بها وعليها تقوم الحياة السعيدة، التى لا يلزم ـ بالضرورة ـ أن تكثر فيها الماديات، وتتعاظم المقتنيات، فالحياة السعيدة ليست هى الحياة المادية؛ إذ الماديات جزء من الحياة لا ينبغى أن نجعله هو الحياة، ونهمل غيره من الجوانب والأجزاء التى لا غنى عنها للإنسان.

ولقد وضع أسس البناء الدينى والدنيوى على السواء، حين جعل رقابة الله لا تغيب عن عبد فى أى أرض وفى أى زمن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [1] وحين جعل المؤمن

---

(١) النساء: ١.

الذى يأخذ نفسه بالتقوى فى جميع أمره، والصبر فى كل شأنه، والإحسان فى كل عمله يحقق معية الله، فتسعد به الحياة، ويسعد هو بالحياة، وبما آتاه فيها الله من رزق.

إن الإنسان ليس وحده فى هذا الكون، إن معه خلائق آخرين، فملائكة الله مبثوثة فى كل مكان علمناه أم جهلناه، والجن ترانا دون أن نراها، وفوق الجميع إله قادر لا يخفى عليه شىء من أمر الخلائق، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السماء ولا فى الأرض، يعلم ما نخفى وما نعلن، ما نظهر وما نبطن ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [1]. ومع هذه المعية العامة التى فيها من معانى العلم والإحاطة ما فيها مما ليس لنا به إحاطة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [2]. مع هذه المعية هناك معية خاصة لطوائف من الموحدين، وفئات من المؤمنين، معية التوفيق والسداد والحفظ يتفضل الله على هؤلاء بها فتحدث أثرها فى القلوب والأرواح والنفوس. وتحيى من المسلمين العزائم ليشمروا عن ساق الجهد والاجتهاد، ليصلوا إلى الدرجات التى بها يتحقق قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [3].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [4] والله مع الصابرين، فدرجات التقوى وإحسان الأعمال والصبر على الشدائد والمشقات والابتلاءات كلها تمحيص للعبد يرفعه الله بها درجات، حينما تتحقق له معية الله، فلا تأتى هذه المعية للفاجرين الفاسقين، ولا تكون للكسالى الغافلين، ولا للجزعين الخائرين، التقوى والصبر والإحسان وسائل يرتفع بها العبد ليستحق معية خاصة من الله ـ سبحانه ـ تكريماً منه وفضلاً، وفى الحديث القدسى: «إذا تقرب إلىّ العبد شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلىّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن

---

(١) الحديد: ٤.
(٢) البقرة: ٢٥٥.
(٣) النحل: ١٢٨.
(٤) العنكبوت: ٦٩.

أتانى يمشى أتيته هرولة»[1] فسبحان الله العظيم، الغنى عن الخلق أجمعين، وهو يتودد لعباده، ويتحبب إليهم وما على العباد إلا أن يقبلوا عليه، ويطيعوا شرعه ودينه، ويحققوا فى أنفسهم هذه الصفات التى ذكرنا «التقوى والصبر والإحسان» فيقوى منهم الجنان، ويثبت على الصدق اللسان، لأن العبد يستشعر وهو فى معية الحق ـ سبحانه ـ عظمة الله وقوة الله، وضعف البشر والكائنات أمام قدرة الله المطلقة، ومشيئته غير المقيدة، فيتحمل العبد المعاناة ولا يشكو إلا إلى مولاه، ويكون صادقاً فى تعامله مع الناس؛ لأنه يدرك أن الحق يراه: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾[2].

فلا تضعفه محنة ولا تزلزل كيانه نقمة، ولا يحزن لنعمة افتقدها، ما دام إيمانه بالله لا يفارق قلبه وذكر الله لا يخاصم لسانه، فكل شىء فى الحياة يهون، وكل صعب يحتمل حتى يزول قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند موته: «اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحبّ البقاء فى الدنيا لجرى الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولا لنكح الأزواج، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر»، وهذه من علامات الطريق الموصل إلى معية الله فيدرك الإنسان نعمة الله عليه، حتى فى الشدة التى يكابدها، نعمة الله عليه أن جعله مظلوماً يترقب النصر والعزة، ولم يجعله ظالماً يترقب الأخذ والذلة، نعمة الله عليه حيث قصر ابتلاء المرء على شىء بعينه ولم يجعله عاماً مطلقاً، ولم يجعل عذابه بالابتلاء ساحقًا ماحقًا ينظر المظلوم إلى ظالمه مشفقًا، لإدراكه أن الله يمهل ولا يهمل، وأن أخذه للظالمين شديد، «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»[3]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾[4].

والظالمون لا يعجزون رب الأرض والسماء، فأين قوتهم من قوة العزيز القهار وأين

---

(١) أخرجه البخارى (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).
(٢)الأنعام: ١٠٣.
(٣)أخرجه البخارى (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).
(٤)هود: ١٠٢.

جبروتهم من كبرياء الجبار، الله رب العالمين، وهم ضعاف لا يقدرون على أتفه المخلوقات بل أحقرها: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾[(1)].

وبعدها مباشرة الآية التالية: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾[(2)].

وفى الآية مؤكدان يزيلان ما قد يتبادر إلى أذهان الشاكّين فى القدرة أو فى عظمة المقدرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ فإن أداة توكيد واللام الداخلة على خبرها كذلك تفيد التوكيد، وهذا يؤدى إلى تثبيت الحكم بقوة الله الغالب الذى لا يُغلب ونفى أى شك حول هذه القوة والغلبة. وآيات القرآن الكريم الدالة على ضعف الناس أجمعين أمام رب العالمين، مالك يوم الدين، آيات القرآن هذه كثيرة منها: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾[(3)]. ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾[(4)].

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾[(5)].

إلى غير ذلك من الآيات التى تكشف ضعف الإنسان، وتبين عجزه، ومع ذلك فهو خصيم مبين: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾[(6)].

ولكن هذا الخصم العاجز الضعيف «الإنسان» سرعان ما يذهب، وتمضى أجيال وراء أجيال تقيم فى الأرض حيناً ثم يصحبها الترحال لتلقى ربها فيجازيها على ما قدمت من

---

(١) الحج: ٧٣.
(٢) الحج: ٧٤.
(٣) الملك: ١٦، ١٧.
(٤) الأنعام: ٦٥.
(٥) النحل: ٤٥ ـ ٤٧.
(٦) يس: ٧٧.

خير أو شر، فلا شيء مضيع وإن تأخر، ولا شيء مهمل وإن كان فيه إمهال، والصابرون المتقون، المحسنون، هم الذين يصمدون أمام أحداث الحياة لا لطلب دنيا ومغنم وإنما طلباً لرضوان الله ورفع الإصر عنهم فى الدنيا والآخرة. والله المستعان وعليه التكلان.

الدعاء يدفع البلاء

قال: أشعر بوحشة الطريق وجرأة الناقمين، وفتور الناصرين، وضعف الهمة حتى ضاق صدرى، وانعقد لسانى، وتوقّفت جوارحى، وكاد الشيطان يتغلّب علىّ لأبتعد عن المسلك الذى وسع كثيراً من الناس، مسلك الدين القويم، والصراط المستقيم والمحجة الواضحة التى ترك محمد ﷺ الناس عليها، وإنما ذلك لنفرة مما أراه فى مسيرة الحياة، حيث يعلو الظلم، ويعمّ الشر ويجاهر الناس بالمنكرات، لا يفاخرون بالصالحات مع أن الأصل القويم ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾[١]، «بادروا بالأعمال سبعاً..»[٢] و ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[٣] و﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[٤]، إلى غير ذلك مما يدعو إلى المبادرة بالخير والنفور والبعد عن الشر، وكأن أمر الناس القائم اليوم لا صلة له بهذه التعاليم الربانية والأقوال المحمدية ولم أجد ما يطمئن قلبى، ويزيل الهمّ عن نفسى والغمّ من قلبى، فهل نجد دواء لهذا الداء حتى نستشعر الطمأنينة فى قلوبنا، والسلامة فى مسيرنا، والرشاد فى تصرفاتنا، والتخلص مما يكبل خطواتنا على الطريق؟

قلت: المصارحة بداية التقويم، والصدق فى إبداء ما فى النفوس علامة الثقة بين الخلان وإظهار الضيق من المنكرات بداية التغيير، والاقتداء بالمرسلين والصالحين منهجناً لبعث الطمأنينة فى القلوب، وإبعاد العنت عن الناس، لأن الله سبحانه ما أراد لأحد عنتاً ولا مشقة: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾[٥].

---

(١)البقرة: ١٤٨.

(٢)أخرجه الترمذى (٢٣٠٦)، والبيهقى فى الشعب (٧/ ٣٥٧) (١٠٥٧٢)، وضعفه الألبانى.

(٣)آل عمران: ١٣٣.

(٤)الحديد: ٢١.

(٥)البقرة: ٢٢٠.

وهذا آدم أبو البشر مع زوجه حين ساءهما ظهور سوآتهما بعدما عصيا أمر ربهما: قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [(١)] وهذا أبو الأنبياء إبراهيم حين ألقى فى النار قال: «حسبى الله ونعم الوكيل» فجاء الأمر من الله: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [(٢)]، وهذا موسى: حين استغاثه الذى من شيعته لنصرته أمام عدوه ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ﴾ [(٣)].

وهذا نوح عليه السلام اتجه إلى الله داعياً: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾ [(٤)] فجاءه نصر الله سريعاً بجنود لا قبل لأحد بها:

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ [(٥)].

وهذا أيوب عليه السلام نزل به البلاء فاتجه إلى الله أن يرفع عنه بلاءه وأن يرزقه العافية فى ضراعة ظاهرة، وثقة تامة برحمة الله وعونه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [(٦)].

وهذا يونس ضاق ذرعاً بقومه فغضب منهم وخرج من بينهم يضرب فى الأرض بعيداً، فيركب السفينة ثم يلقى فى اليم فيلتقمه الحوت، فى هذا الوقت العصيب والسجن الذى لا مثيل له على وجه الأرض والظلمات الدامسة التى يعلو بعضها بعضاً يعلو صوت ذى النون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ

---

(١) الأعراف: ٢٣.
(٢) الأنبياء: ٦٩.
(٣) القصص: ١٥، ١٦.
(٤) القمر: ١٠.
(٥) القمر: ١١ ـ ١٤.
(٦) الأنبياء: ٨٤.

﴿ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [(١)].

وهذا زكريا يدعو ربه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [(٢)]، وهكذا كانت هذه القدوات البارزة على طريق الدعوة إلى الله تلتجئ إلى الله بالدعاء والضراعة فيُنزل الله عليها السكينة فلا تشعر بإيذاء الناس؛ لأن إرضاء الله قوّى بصيرتها، وأنار الطريق أمام الناظرين، وهذا محمد ﷺ يبين ذلك بقوله: «إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى» [(٣)]، لا يبالى المؤمن مما يراه ويظل على دعوته إلى الله واستمساكه بنوره فيهتدى، ومما يقرب المؤمن إلى الله أن يطيل الضراعة والدعاء فتلك الصلة بين المؤمن وربه كفيلة أن تبعث الطمأنينة وتزيل الآلام.

فالتجئ - يا أخى - إلى الله، فإنه هو الذى يفرج الكربات، ويزيل ظلام المدلهمات، وهو الذى يثبّت القلوب، ويبعث فيها الصبر والاطمئنان، وهو الذى ينجى ركاب السفينة حين يحيط بها الموج من كل جانب، وتعلوها ظلمات فوق ظلمات، وهو المنقذ وهو الناصر المؤيد، وهو الذى يخذل الأعداء، ويلقى فى قلوبهم الرعب، وهو الذى ينصر المستضعفين، فيجعلهم الوارثين فى الأرض بالتمكين، وهو الذى يذلّ الطغاة المتجبرين ويريهم من بطشه الشديد، واستدراجه المكين، ما به يتزلزلون، وعن غطرستهم يتراجعون، إنه الله العادل الرحيم، ذو القوة المتين، الذى وعد بنصر المظلومين ولو بعد حين.

إنه الله الذى لا يسدّ سبيله أمام السالكين إن سدت السبل، ولا يغلق بابه أمام القادمين عليه إن غلقت الأبواب.

إنه الله الذى يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف عنه السوء.

إنه الله الذى لا يعزب عن علمه شىء فى الأرض ولا فى السماء، السميع العليم القائل فى

(١)الأنبياء: ٨٧، ٨٨.

(٢)الأنبياء: ٨٩،٩٠.

(٣)انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٢٠) تحقيق السقا.

الكتاب الكريم: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ (١).

لا عجب إذاً أن يتجه الناس إلى الله بالرجاء وأن يجأروا إليه بالدعاء، وأن يتضرعوا بين يديه ـ سبحانه ـ كاشفين عجزهم وذلهم، واحتياجهم إلى الله، وافتقارهم إلى عونه ورضاه، فيمنّ الله عليهم ويرفع عنهم القهر، ويزيل عنهم الظلم، ويجعلهم أعزة فى الأرض بعدما كانوا فيها أذلاء، يعتدى عليهم الأخساء.

﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ﴾ (٢).

وقد اعتاد البشر فى الأغلب الأعم ـ أن يتقربوا إلى الله فى الزّلات، وأن يدخلوا فى حماه عند الشدائد والنكبات، فإذا ما جاءتهم القوارع كان الدعاء وكانت الضراعة لله أن ينصر المظلومين، ويرفع المستضعفين ويمكن لهم فى الأرض، ثم حينما يتحقق لهم الرجاء، ويزيل الله عنهم البلاء تراهم فى غيهم يعمهون، وعلى عادتهم الأولى يسيرون.

ولكن بعضاً من الناس ليسوا على هذه الوتيرة، إنهم يعرفون الله فى الرخاء، ويخافون الله وهم فى الخفاء، ويقومون بأمره فى السراء والضراء.

ونحن نحدّث الناس أجمعين نكشف منهج الله للغافلين والمستبصرين، ونعلن أن التوبة إلى الله والأوبة يرفع الله بها العذاب، ويزيل عن الناس السوء والعقاب، وذلك قول الله:

﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ (٣).

خرج قوم يونس إلى الصحراء يعجّون إلى الله بالدعاء أن يرفع الله عنهم الكرب والبؤس والعذاب فاستجاب الله دعاءهم، وكشف عنهم عذاب الخزى فى الدنيا ومتّعهم

---

(١) غافر: ٦٠.
(٢) الأنعام: ٦٣، ٦٤.
(٣) يونس: ٩٨.

فيها؛ لأنهم جميعهم عادوا إلى ربهم وصدقوا معه، وأخلصوا له، فنجوا من الشرّ الذى كان ينتظرهم، ونحن علينا أن نسلك نفس الطريق، أن نلجأ إلى الله وأن نخلص له وحده، وأن نصدق معه فى أقوالنا وأعمالنا فى سرنا وعلانيتنا، فى كل أمر من أمورنا مدركين قول نبينا ﷺ: «ليسأل أحدكم ربه كل شىء حتى شسع نعله إذا انقطع فإنه إن لم ييسره لم يتيسر»[(١)]، ولندرك أن الإجابة محققة، وأن صاحب الدعوة لا يرد خائباً؛ لأنه دعا الله الغنى الحميد، القوى المتين، والرسول ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو الله ـ عز وجل ـ بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدّخرها له فى الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها». قالوا: إذاً نكثر. قال: «الله أكثر»[(٢)].

وكان الدعاء من نهج المرسلين، ومن أعمال الصالحين الذين يتقربون إلى الله به، ويتوجهون إليه ضارعين أن يرفع عنهم البلاء والشقاء.

نعم أيها الأحباب، كان الدعاء سلاحاً لا يضبط ولا يصادر، يقرّب العبد من الرب فيشعر بالأمان ويشعر بالاطمئنان، ويسعد وهو فى مناجاة ضارعة للرحمن.

نعم أيها الأحباب، كان الدعاء سلاحاً لا يملك الظالمون منعه، ولا يستطيعون صدّه أو رده، إن الدعاء سلاح يقاوم البلاء، ويحقق الرجاء، وينجو به الإنسان من البأساء والضراء.

ألم يقل الرسول ﷺ: «لا يغنى حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة»[(٣)]. أى يتصارعان ويتدافعان.

من هنا كان هذا التضرع، والدعاء والتذلل والخضوع له يزيل الكرب ويكشف السوء، وهاك جملة صالحة من مأثور الدعاء:

---

(١)أخرجه الترمذى (٣٦٠٤)، والطبرانى فى الأوسط (٥٥٩٥)، وضعفه الألبانى.

(٢)أخرجه الترمذى (٣٥٧٣)، وأحمد (٣/ ١٨)، وقال الألبانى: «حسن صحيح».

(٣)أخرجه الحاكم فى المستدرك (١/ ٦٦٩)، والطبرانى فى الأوسط (٣/ ٦٦) (٢٤٩٨)، وقال الحاكم : «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

ثناء على الله وتضرع وتذلل بين يديه:

«اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنبيون حق ومحمد حق والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت أنت الله لا إله أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله».

اللهم لك الحمد كله لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت ولا هادى لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرّب لما باعدت ولا مباعد لما قربت، ربنا الله الذى فى السماء، تقدس اسمك فى السماء والأرض، اللهم ارحمنا برحمتك، واغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين، وأنت رب المستضعفين وأنت رب العالمين، اللهم إنك أحق من ذكر، وأحق من عُبد، وأرأف من ملك، وأعظم من سُئل، وأكرم من أعطى، أنت الملك الذى لا شريك لك، والفرد الذى لا ندّ لك، كل شىء هالك إلا وجهك، القلوب لك مفضية والسّرّ عندك علانية، الحلال ما أحللت، والحرام ما حرمت، والدين ما شرعت».

نعم الله لا تحصى وحمده لا يحد ولا يعد:

«اللهم ربنا ولك الحمد.. حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما تشاء من شىء بعد، اللهم لك الحمد خالداً من خلودك، لا منتهى له دون علمك، ولا أجر لقائله إلا رضاك، والنظر إلى وجهك الكريم، فى جنات النعيم، ولك الحمد كما ينبغى لجلالك وجمالك وكلامك، ولك الحمد كما ينبغى لجميع أسمائك الحسنى وصفاتك العلا ما علمنا منها وما لم نعلم وكما ينبغى لوحدانيتك وإلاهيّتك وربوبيّتك ورحمانيتك ورحيميتك وملكك

وملكوتـك وأوّليّتـك وآخريتـك وظاهريتـك وباطنيتـك، ولـك الحمـد عـدد مـا أحـاط بـه علمك، وخطّ به قلمك وأحصاه كتابك، وبلغ فيه لطفك، وأدركه بصرك ووسعته رحمتك ورضيته نفسك أهل الثناء والمجد، وأحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مـانع لمـا أعطيـت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

اللهم لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا وكفيتنا وهديتنا وآويتنا ونـصرتنا وسـترتنا وفرّجـت عنا. لك الحمد بالإيمان ولك الحمد بالإسلام ولك الحمد بالقرآن، ولك الحمـد بـالإخوان والأعوان.

لك الحمد بكل نعمة أنعمت بها علينا فى قديم أو حديث أو سر أو علانيـة أو خاصـة أو عامة أو شاهد أو غائب أو حى أو ميت، لك الحمد، جمعت فرقتنا وأحسنت مكانتنـا ومـن كل ما سألناك ربنا أعطيتنا بل أعطيتنا من قبل أن نسأل.

«الحمد لله الذى يُطعم ولا يَطعَم، منّ علينا فهدانا، وأطعمنا وسقانا، وكـل بـلاء حـسن أبلانا، والحمد لله غير مودع ربى ولا مكافئ ولا مكفور ولا مستغنى عنه، الحمـد لله الـذى أطعم من الطعام وسقى من الشراب، وكسا من العرى، وهدى من الـضلالة، وبـصّر مـــن العمى، وفضّل على كثير مــن خلقه تفضيلاً، الحـــمد لله رب العالمين».

الالتجاء إلى الله والاعتصام به:

«أعوذ بعـزة الله وعظمتـه، وبعـزة الله وقدرتـه، وبعـزة الله وسـلطانه، وبعـزة جـلال الله، وبعزة الله من شر ما خلق، وذرأ وبرأ، ومن شر ما تحت الثرى، ومن شر كل دابة ربنـا آخـذ بناصيتها إن ربنا على صراط مستقيم، ولا حـول ولا قـوة إلا بـالله العـلى العظـيم، نقـى بهـا أنفسنا وديننا وأهلنا وما لنا وجميع شأننا، لا حول ولا قوة إلا بـالله العـلى العظـيم ننجـو بهـا من إبليس وخيله ورَجِلِه وشياطينه ومردته وأعوانه وجميع الإنس والجن وشرورهم».

«اللهم لا يهزم جندك ولا يخلف وعدك سبحانك وبحمدك، تحصنت بـالله الـذى لا إلـه إلا هو، إلهى وإله كل شىء، واعتصمت بربى ورب كل شىء وتوكلت على الحـى الـذى لا

يموت، واستدفعت الشر كله بلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، حسبى الله ونعم الوكيل، حسبى الرب من العباد، حسبى الخالق من المخلوقين، حسبى الرزاق من المرزوقين، حسبى الله وكفى وسمع الله لمن دعا، ليس وراء الله منتهى، لا إله إلا هو عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم».

صلوات على النبى محمد ﷺ:

«اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته، اللهم صلّ على محمد نور الهدى والقائد المصطفى، اللهم ارفع درجته، وأكرم مقامه، وثقّل ميزانه، وأبلغ حجته وأظهر ملته.

اللهم صلّ على سيدنا محمد ﷺ معلم الناس الخير.. نبى الرحمة الذى لا نبى بعده، اللهم صلّ على محمد خير البرية، صلاة ترضيك وترضيه وترضى بها عنا، اللهم أبلغه منا السلام كلما ذكر السلام عليه.

اللهم صلّ على محمد ﷺ صلاة تكون له رضا وله جزاء، ولحقه أداء، أعطه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود الذى وعدته إنك لا تخلف الميعاد، اللهم أجز نبينا عنا بما هو أهله وأجزه أفضل ما جزيت نبياً عن قومه ورسولاً عن أمته وصل يا ربنا على جميع إخوانه من النبيين والمرسلين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وعنا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم أحينا على سنته، وتوفّنا على ملته، واجعلنا من أهل شفاعته واحشرنا فى زمرته، وأوردنا حوضه واسقنا من كأسه غير خزايا ولا نادمين.

اللهم اجعل نبينا لنا فرطاً إلى الجنة، واجعل حوضه لنا موعداً لأولنا وآخرنا، بأبى أنت وأمى يا رسول الله:

آسيت أيتاماً، كفلت أراملاً ... أسعدت محروماً رحمت العانى

أنقذت مسكينا، حميت مشرداً ... أسعفت مكروباً هديت الجانى

إن كان شكرك فى لسانى ناطقاً فالحب قبل ملء جنــــانى

تنزيه لله تعالى واستنجاد به:

سبحان من تعطف بالعزّ وقال به، سبحان من لبس المجد وتكرّم به، سبحان من لا ينبغى التسبيح إلا له، سبحان ذى الفضل والنعم،سبحان ذى المجد والكرم، سبحان الذى أحصى كل شىء علمه.

اللهم أنت التواب الرحيم لا إله غيرك، الأول ليس قبلك شىء، الذى لا يموت، وخالق ما يُرى وما لا يُرى والآخر ليس بعدك شىء والحى القيوم يا إلهى، يا من بيده ناصيتى، يا عليماً بضرى ومسكنتى، ويا خبيراً بفقرى وفاقتى.

يا سميع الدعاء، يا سابغ النعم، يا دافع النقم يا نور المستوحشين فى الظلم، يا أرحم الراحمين، إليك يارب نصبت وجهى، ومددت يدى، فبرحمتك استجب دعائى وبلغنى مناى ولا تقطع رجائى، واكفنى شر أعدائى، اللهم إنى أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، أن تزيل كربنا وتكشف السوء عنا، وتأخذ الظالمين أخذ عزيز مقتدر.

لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، حسبنا الله ونعم الوكيل، إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندك أحتسب مصيبتى فآجرنى فيها وأبدلنى خيراً منها.

اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأراضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين.

اللهم إنى أسألك عيشة هنية وميتة سوية، ومرداً غير مخز ولا فاضح.

اللهم اجعلنى صبوراً، واجعلنى شكوراً واجعلنى فى عينى صغيراً وفى أعين الناس كبيراً.

اللهم إنى أسألك أن ترفع ذكرى، وتضع وزرى، وتصلح أمرى وتطهر قلبى.

وتحصّن فرجى، وتنّور قلبى، وتغفر لى ذنبى، وأسألك الدرجات العلا من الجنة.. آمين.

اللهم فارج الهمّ، وكاشف الغمّ، مجيب دعوة المضطرين، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، ارحمنى رحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك، وفرّج عنّا الهمّ، واكشف عنّا السوء والغمّ.

استسلام لأمر الله وإظهار الافتقار إليه:

اللهم لا حول ولا قوة إلا بك حين نزول ملك الموت لقبض أرواحنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله إذا أدخلنا مع أعمالنا فى قبورنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله إذا طال يوم القيامة قيامنا،ولا حول ولا قوة إلا بالله إذا اشتد فى أرض المحشر وقوفنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله إذا تطايرت صحائفنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله إذا ضرب الصراط على الجحيم وسار العبيد والنار تنادى: هل من مزيد ونادى النبيون والملائكة اللهم سلم اللهم سلم. اللهم سلم، اللهم يا من وسعت رحمتك كل شىء نسألك أن تتغمدنا بواسع رحمتك فسبحانك وبحمدك على حلمك بعد علمك وسبحانك وبحمدك على عفوك بعد مقدرتك سبحانك ما أعظمك.

اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى، وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى وتعلم ما فى نفسى فاغفر لى ذنوبى، اللهم إنى أسألك إيماناً يباشر قلبى، ويقيناً صادقاً، حتى أعلم أنه لا يصيبنى إلا ما كتبت لى، ورضاً بما قسمت لى يا أرحم الراحمين.

اللهم إنى أسألك مسألة المساكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير، خضعت لك رقبتى، وفاضت لك عيناى، نحل لك جسدى، ورغم لك أنفى، اللهم لا تجعلنى بدعائك شقياً، وكن بى رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين، ويا خير المعطين. يا أرحم الراحمين، اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى وتوفنى إذا كانت الوفاة

خيراً لى.

إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها اللهم إنى أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء.

اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى، وأصلح لى آخرتى التى إليها معادى، واجعل الحياة زيادة لى من كل خير، واجعل الموت راحة لى من كل شر.

اللهم هذا الدعاء، وعليك الإجابة وهذا الجهد وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك.

«اللهم يا إلهى خيرك على نازل وشرى إليك صاعد، فكم من ملك كريم قد صعد إليك بعمل قبيح، أنت مع غنائك تتحبب إلىّ بالنعم، وأنا مع فقرى إليك وفاقتى إليك أتمقت إليك بالمعاصى، وأنت فى ذلك تجبرنى وتسترنى وترزقنى».

«اللهم اجعلنا هادين مهديين، غير ضالين ولا مضلين، سلماً لأوليائك، حرباً على أعدائك، نحب بحبك من أحبك، ونعادى بعداوتك من خالفك».

«اللهم إنى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لى وترحمنى، وإذا أردت بعبادك فتنة فتوفنى غير مفتون».

«اللهم إنى أسألك حبك وحب من يحبك، والعمل الذى يبلغنى حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلى من نفسى ومالى وأهلى ومن الماء البارد».

«اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، اللهم إنى أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك، وأعوذ بك من شر ما عاذ بك عبدك ونبيك، اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل، وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لى خيراً».

«اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، ومتعناً بأسماعنا وأبصارنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك فينا ولا يرحمنا».

«اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر. اللهم آت نفسى تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها. اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها».

«اللهم أرنا فى اليهود وأعوانهم، والصليبيين وأنصارهم، والشيوعيين وأشياعهم، والمتآمرين على دينك وأصحابهم، والظالمين وأنصارهم أرنا فيهم عجائب قدرتك».

«اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى».

«اللهم إنى أعوذ بك من الطعن والطاعون والوباء وعظيم البلاء، فى النفس والأهل والولد».

«اللهم كما بعثت فينا نبيك محمداً ﷺ فاعمر لنا منازلنا ولا تؤاخذنا بسوء فعلنا ولا تهلكنا بخطايانا يا أرحم الراحمين».

«اللهم إنى أعوذ بك من الطعن والطاعون ومن هجوم البلاء ومن موت الفجأة، ومن سعرة الحمى، ومن سوء القضاء، وشر البلاء، ونعوذ بك من درك الشقاء وشماتة الأعداء يا حى يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام».

«اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجأة نقمتك».

«رب أعنى ولا تُعن على، وانصرنى ولا تنصر على، وامكر لى ولا تمكر على، واهدنى

ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى علي، رب اجعلني لك شكاراً، لك ذكاراً، لك رهاباً، لك مطواعاً، لك مخبتاً، إليك أواهاً منيباً، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبّت حجتي وسدد لساني، واهد قلبي، واسلل سخيمة صدري».

الخاتمة

كانت هذه الرسالة لتوضح أن فى التمسك بديننا عصمة من الفتن لمن تخلى عن هواه وطلب سبيل المؤمنين ، وابتعد عن سبيل الفاسقين، وإذا كانت الفتن مرضا يفتك بالأمة، فالعافية تتمثل فى الدين القويم بعقيدته الثابتة الراسخة الصافية، وأخلاقه وقيمه التي توجه نحو المعالي، وتدفع لمواجهة الشدائد وتحمل المصاعب فى سبيل مرضاة رب العالمين ، الذي تدين له السموات والأرض، ويلتجئ إليه المؤمن داعيا متضرعا يستمد منه العون، بهذا وبغيره مما نستمده من الدين القيم تنكسر عليه موجات الفتن أو تمر بلا أثر.

ونسأل الله ـ عز وجل ـ أن يكتب لنا التوفيق والسداد ، وأن يجعل ما كتبناه فى ميزان حسناتنا يوم نلقاه.

والله الموفق



الرسالة الثامنة

العلم بين يدي العالم والمتعلم

مقدمة

الحمد لله الذى خلق الإنسان من ماء مهين، وصوَّره فأحسن تصويره وكرَّمه بالعقل والفطرة الصافية وجعل تفاضل الناس بالعلم والبيِّنة والعمل الصالح، والصلاة والسلام على أشرف وأعلم خلقه الذى علَّمه ربه بعد أن لم يكن يعلم شيئاً فوجهه للقراءة والعلم فقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾﴾ (١).

وبعد:

فالناظر فى المحيط الإنسانى الذى يحيط بنا ونعيش فيه يرى أنَّ الناس تكاسلوا فى طلب العلم ورضوا بالكسل عنواناً لحياتهم، وازدروا العلماء فأنزلوهم فى غير ما أراد الله لهم فظلموهم وظلموا أنفسهم، فوضع الشىء فى غير مكانه ظلم. لهذا السبب أمسكت بالقلم.. لأبين ـ بعون الله تبارك وتعالى ـ منزلة العلم وأهله ـ من عالم ومتعلم ـ عسى أن نشمِّر لإيقاد هذه الشعلة من جديد فتنير لنا ولغيرنا الطريق فنسير جميعاً على نور وبصيرة.. فنصل بإذن الله ـ تعالى ـ إلى رضوان من الله وجنة عرضها كعرض السموات والأرض.

---

(١) العلق: ١ـ٥.

العلم بين يدى العالم والمتعلم

*** مكانة العلم فى الإسلام:**

إنَّ للعلم فى الإسلام مكانةً لم تكن قد أعطيت له من دين قط.. وهذا نراه واضحاً فى منهج الله.. فهو تارة يجعله فرضاً.. وتراه فى أخرى يرغِّب فيه بوضع الأجر الكبير فى طريق من يسير فى طلبه، ويوضِّح بطرق مختلفة مكانة العلم من الناحية التعبدية ومنزلته بالنسبة للنوافل إلى آخر ذلك من الدوافع المختلفة.

*** وهذا واضح فى الحديث:**

حيث يروى أنس بن مالك رَضِوَاللَّهُعَنْهُ عن رسول الله ﷺ فرضية طلب العلم فيقول: قال رسول الله ﷺ: «طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم»[1]، فالقضية إذاً ليس فيها خيار.. فَلِمَ المسارعةُ إلى الصلاة والصيام، والتكاسل عن السبب والشرط لصحة كل منهما؟ فمن لا يعرف أركان وسنن الصلاة فكيف يصلى وعلى أى طريقة يتقرب إلى الله ـ عز وجل؟ فلنبادر إذن إلى تعلم العلم وتبليغه إلى الناس، فالدالُّ على الخير كفاعله، وهذا ليس بقول بشر إنما هو ترغيب الرسول ﷺ فى تعلم العلم وتعليمه، فهذا مسلم يروى حديثاً عن أبى مسعود الأنصارى رَضِوَاللَّهُعَنْهُ حيث قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: إنى أُبدع بى فاحملنى فقال: ما عندى. فقال رجل يا رسول الله أنا أدلُّه على من يحمله فقال رسول الله ﷺ: «من دلَّ على خيرٍ فله مثل أجر فاعله»[2].

الله أكبر ما أعظم هذا الترغيب وما أعظم الأجر الذى سيعود على فاعل الخير والدال عليه وعلى من يبدأ بالتعلم ثم يقوم بتعليم غيره. فأى ترغيب بعد ذلك، وأى خسارة بعد ذلك لمن لم يكن عالماً أو متعلماً هذا ما فقهه أبو الدرداء رَضِوَاللَّهُعَنْهُ حين قال: (العالم والمتعلم فى الأجر سواء ولا خير فى سائر الناس بعدهما). نعم لا خير فيهم بإخبار الرسول ﷺ:

---

(١)أخرجه ابن ماجه (٢٢٤)، والطبرانى فى الكبير (١٠/ ١٩٥) (١٠٤٣٩)، وصححه الألبانى .
(٢)أخرجه مسلم (١٨٩٣)، وأبو داود (٥١٢٩)، والترمذى (٢٦٧١)، وأحمد (٤/ ١٢٠).

«الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله ـ تعالى ـ وما والاه أو عالماً أو متعلماً»[١].. ولهذا الخير الفيَّاض والأجر المغداق أجاز الرسول ﷺ الحسد فى العلم وهو استثناء من الأصل، حيث إنه فى الأصل لا يجوز الحسد فقال ﷺ فى الحديث الذى يرويه عبد الله بن مسعود: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلِّمها»[٢].

*** خير الدنيا والآخرة:**

ومن الأمور المتفق عليها أنَّ الإنسان يوصى بأهم الأشياء وأكثرها نفعاً، ومن المعلوم أن الوصية تتناسب مع مكان الموصى فإن علا قدره علا قدر الوصية. ومن أعلى قدراً من رسول الله ﷺ؟... فها هو يوصى معاذاً وعلياً رضي الله عنهما فيقول: «لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم »[٣]، وقد تلقى هذه الوصية السلف الصالح، رضوان الله عليهم، بالفهم والقبول فوعوها وتأثَّروا بها، فها هو عطاء رضي الله عنه يقول: (دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكى فقلت: ما يبكيك؟ قال:ليس أحد يسألنى عن شىء) يقصد طلب العلم.

الله أكبر ما أعظم هذا الحرص على تعليم الناس. الله أكبر ما أعظم هذه الدموع التى سالت من وعى صاحبها لوصية رسول الله ﷺ.

*** وقفة لسماع وصية:**

وبهذا ونتيجة لتربية الرسول ﷺ، فى هذا المجال خطَّ معاذ كلماتٍ دافعةً كشحنات كهربائية قوية تبعث الحياة فى كل جسم ولو كان مريضاً هامداً فقال: (تعلموا العلم، فإنَّ تعليمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يَعْلَم صدقة، وبَذْله لأهله قُربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام ومنار سُبُل أهل الجنة، وهو الأُنس فى

(١)أخرجه الترمذى (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، وحسنه الألبانى.
(٢)أخرجه البخارى (٧٣)، ومسلم (٨١٦)
(٣)أخرجه البخارى (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦).

الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمحدِّث فى الخلوة، والدليل على السرّاء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة وأئمة تُقْتَصُّ آثارهم، ويُقتدى بأفعالهم ويُنتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة فى خُلتهم وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل رطبٍ ويابس وحيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه؛ لأن العلم حياة القلوب من الجهل ومصابيح الأبصار من الظلم يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العُلى فى الدنيا والآخرة. التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به تُوصلُ الأرحام، وبه يُعْرَف الحلال من الحرام، هو إمامُ العمل والعمل تابعه، ويُلْهَمُهُ السعداء ويُحْرَمُهُ الأشقياء) [(١)] .

*** مهمة لابد لها من استعداد:**

وللعالم هذا مكانة يجب أن ينتبه إليها وهى التوقيع عن رب الأرض والسموات، فحقيق به أن يُعِد له عُدَّته، وأن يتأهب له أهبتهُ، وأن يعلم قدر المُقام الذى أقيم فيه ولا يكن فى صدره حرج من قول الحق والصدع به، فإنَّ الله ناصره وهاديه، وكيف وهو المنصب الذى تولاّه بنفسه رب الأرباب فقال تعالى:

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ [(٢)].

وكفى بمن تولاه الله بنفسه شرفاً وجلالة إذ يقول فى كتابه: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾ [(٣)].

*** من الأسماء والصفات نستفيد:**

وهذا العالم من العلماء الذين اتصفوا بالصفات التى ارتضاها الله ـ تعالى ـ لعباده الذين بشرهم بجنَّاته، ومن أجمل الصفات فى هذا المجال الصفات التى اشتقت من صفات الرب

(١)أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٥) عن معاذ بن جبل مرفوعًا، وقال: «حديث حسن، ولكن ليس له إسناد قوى» .
(٢)النساء : ١٢٧ .
(٣)النساء : ١٧٦ .

ـ تبارك وتعالى. وسنتعرض ـ إن شاء الله ـ لصفة نسأل الله ـ تعالى ـ أن يصفنا بها، ألا وهى صفة الربانية، ومن الربانيين الذين أمرنا الله ـ تعالى ـ أن نكون منهم.. اسمع فى هذا المجال قول ابن تيمية حين قال شارحاً معنى قوله تعالى: ﴿كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾[1]، قال مجاهد: (هم الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره فهم أهل الأمر والنهى) وذلك هو المنقول عن السلف فى الربانى ونقل عن على قال: (هم الذين يُغذّون الناس بالحكمة ويربّونهم عليها). وعن ابن عباس قال: (هم الفقهاء المعلّمون) وقال قتادة وعطاء: (هم الفقهاء العلماء الحكماء). قال ابن قتيبة: (واحدهم ربانى وهم العلماء المسلمون). ثم ختم فقال: (إنهم منسوبون إلى التربية).

وفى فضل العالم ومكانته أنشد على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال:

ما الفخرُ إلا لأهل العلـم إنهُمُ على الهُدى لمن استهـدى أدلاءُ
وقدرُ كلِّ امرئٍ ما كان يُحْسِنهُ والجاهلون لأهل العلـم أعـداء
ففُز بعلمٍ تعش حياً به أبـــداً الناسُ موتى وأهلُ العلم أحيـاء

ونعمة العلم هبةٌ من الله تعالى، مع طول الأُلفة نرى أنَّ الإنسان قد نسيها فكان تذكير الله ـ عز وجل: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾[2]. فبعد الخلق نرى الإنسان ينطق ويُعبِّرُ ويُبينُ ويتفاهم ويتجاوب مع الآخرين، وكل هذه العظمة نسيها الإنسان بطول الأُلفة فردّنا القرآن إليها ليوقظنا لتدبُّرها فى مواضع شتى.

والعلم هذا فضل من الله ـ تبارك وتعالى ـ يمنُّ به على عباده، وقد بيَّن رسول الله ﷺ ذلك فقال: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين»[3]، وبعد هذا التبيان ووضوح الصورة لصاحب البيان لا يستنكر أحد تفضيل السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ العلم على

(١)آل عمران : ٧٩.
(٢)الرحمن : ٣ ، ٤.
(٣)أخرجه البخارى (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) .

النوافل. ولم لا وقد قال ﷺ: «فضلُ العالم على العابد كفضلى على أدناكم»[(١)]. فانظر كيف جعل العلم مقارناً لدرجة النبوة وكيف حطَّ رتبة العمل المجرَّد من العلم، وإن كان العابد لا يخلو من علم بالعبادة التى يواظب عليها، ولولاه لم تكن عبادة وأهل العلم أولئك الذين استحقوا هذه المنزلة، أرحم بأمة محمد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم. قيل وكيف ذلك؟ قال: لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة. هذا ما بيَّنه يحيى بن معاذ.

وهذا قتادة يقول: إن مطرفاً يعنى (ابن الشخِّير) قال: فضل العلم أفضل من فضل العبادة ـ يعنى النوافل وخيرُ دينكُمُ الورع.. وهذا القول لم يبتدعه ابن الشخير بل فهمهُ من صحابة رسول الله ﷺ حين قال أبو هريرة رضي الله عنه: (لأن أجلس ساعةً فأفقهُ فى ديني أحبُّ إلىَّ من أن أحيى ليلة إلى الصباح) [(٢)]، كل ذلك لكون العمل بدون علم مفسدة.. وهذا ما بيَّنه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه حين قال: «من عمل فى غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»[(٣)].

*** العلم شرف الإنسان:**

وشرف العلم لا يخفى على أحدٍ إذ هو المختصُّ بالإنسانية؛ لأن جميع الخصال سوى العلم يشترك فيها الإنسان وسائر الحيوانات..كالشجاعة والجرأة والقوة،والجود، والشفقة وغيرها، سوى العلم، وبه أظهر الله ـ تعالى ـ فضل آدم \ على الملائكة وأمرهم بالسجود له.

*** مواقف الناس من العلم الدينى:**

وهذا التكريم يختلف الناس فى الاستفادة منه فهو كما أخبر النبى ﷺ فى الحديث الذى يرويه أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه: «مَثَلُ مَا بَعَثَنى الله به مِنَ الهُدى والعلمِ، كَمَثَل غيثٍ أَصَابَ أَرْضاً فكان مِنها طائفَةٌ نقيّةٌ قبلت الماء، وأنبتت الكلأ والعُشبَ الكثيرَ، وكَانَ مِنها

(١)أخرجه الترمذى (٢٦٨٥)، والطبرانى فى الكبير (٨/ ٢٣٣) (٧٩١١)، وصححه الألبانى .
(٢)أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٠٠) (٩١).
(٣)المصدر السابق (١/ ١١٦) (١٠٧) .

أجادِبُ أمسكتِ الماء فَنَفَعَ الله بها النّاس، فَشَرِبُوا منها وَسَقَوا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ منها طائفةً أخرى، إنَّما هى قِيعانٌ لا تُمْسكُ ماءً ولا تُنبتُ كلأ، فذلك مَثَلُ مَنْ فَقه فى دين الله تعالى ونفعه الله بما بعثنى به، فَعَلمَ وَعَلَّمَ، ومثلُ من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هُدى الله الذى أُرسلت به»[1].. ويا للعجب بعد هذا البيان، كيف يأبى جهال الأنام إلا أن يكونوا من القيعان، وينسون وصية لقمان لابنه الفهامة الواعى فى تبيان ما للحكمة وأثرها حين قال: «يا بنى إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك».

*** فى آيات القرآن عبرة:**

ومن الأمور التى يتبين فيها الإنسان ما للعلم من مكانة، الآيات التى تروى قصة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ فى طلبه عرش بلقيس: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[2].

وبهذا نرى أنَّ الإسلام قد خاطب فى الإنسان عقله وحواسه وجوارحه التى تنفذ به إلى المعرفة والتعلُّم، فاسترعى انتباهه إلى مفاتيحِ العلوم بالنظر والمشاهدة والتأمُّل والاعتبار وغير ذلك مما يدفع به إلى ذروة المعرفة والوقوف على الحقيقة الكبرى لهذا الكون، ومن ثم لا نستغرب اهتمام الإسلام بالعلم هذا الاهتمام الكبير،حيث كانت أول آيات بيِّنات نزلت على سيدنا محمدﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾[3]. تُنبئُهُ بالرسالة وتُحمِّلُهُ مسؤوليتها وتدع أول كلماتها بالقراءة وهى مفتاح التعلُّم وتبيِّنُ آياتها، يُبَيِّنُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لعباده ما لم يعلموا وتذكر القلم وسيلة الكتابة وحفظ العلم ونقله لذلك نرى أفضل ما اكتسبته النفوس وحصَّلته القلوب ونال به العبدُ الرِّفعة فى الدنيا والآخرة هو

---

(١)أخرجه البخارى (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).
(٢)النمل: ٣٩، ٤٠.
(٣)العلق: ١، ٢.

العلم والإيمان،ولهذا قرن بينهما ـ سبحانه ـ فى قولـه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [(١)].

وقولـــه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [(٢)]، وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولبُّه المؤهَّلُون للمراتب العالية.

والعلم دليل الحياة لذلك أنشدوا فقالوا:

وفى الجهل ـ قبل الموت ـ موتٌ لأهلِهِ ... وأجسامُهُمْ قبل القبور قبـورُ

وأرواحُهُـمْ فـى وحشةٍ من جُسومِهِم ... فليس لهُم حتى النُّشُورِ نُشورُ

حيث إن الجاهل ميِّتُ القلب والروح وإن كان حيَّ البدن، فجسده قبرٌ يمشى على وجه الأرض، قــال تعــالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [(٣)].

وبعد ذلك نتبين أن القيادة إنما هى للأحياء، فنلاحظ أن العوامل التى تـؤدى إلى الظفـر بقيادة الشعوب، وبسط السيادة على العالم، من استقراء التاريخ ـ تاريخ مصر القديم وبابـل واليونان ثم الشعوب الإسلامية ثم أوروبا بعد ذلك ـ إنما هى المعارف والعلوم، وعلى هـذا فقد شرَّف الله ـ سبحانه ـ السُّلالة البشرية بخلافتها لهذا العالم الأرضى بالمعرفة؛ ولذلك حبا الله بنى آدم بنعمة «السمع» و«البصر» و«الفؤاد» فى الوقت الذى لم يمنح مخلوقاته الأخـرى إلا القليل منها، ولهذا السبب وحدهُ استحقَّ الإنسان أن يكـون خليفـة الله فى الأرض وأن تهيأ له أسباب السيطرة على المخلوقات كافة، ومن بين النوع البشرى نفسه فـازت بالزعامـة تلك الفئة من الرجال أو الطبقـة مـن النـاس التـى استطاعت التفـوُّق علـى غيرهـا وإحـراز

(١)الروم: ٥٦.
(٢)المجادلة: ١١.
(٣)الأنعام: ١٢٢.

قصب السَّبق فى ميدان العلم؛ لأن مجموع الجنس البشرى إنما امتاز على غيره من مخلوقات الله على هذا الأساس وقبل الانتقال إلى الفقرة القادمة لابد من معرفة أمر مُهمٍّ حتى يزول الإبهام.

*** أول ما يبدأ به من العلوم:**

إنه علم الحال.. حيث لا يُفْتَرَضُ على كل مسلم طلبُ كل علم، وإنما يفترض عليه طلبُ علم الحال.. ولذلك قيل: أفضل العلم علم الحال، وأفضل العمل حفظ الحال، حيث يفترض على كل مسلم طلب علم ما يقع له فى حاله فى أى حال كان، حيث إنه لابد لكى يدخلَ الإنسانُ الإسلامَ من النطق بالشهادتين فيفترض عليه فى هذه الحالة معرفةُ الشهادتين، وكذلك لابد له من الصلاة فيفترض عليه علمُ ما يقع له فى صلاته بقدر ما يؤدى به فرض الصلاة، وكذلك فى الصوم والزكاة إن كان له مال، والحج إن وجب عليه...وكذلك فى البيع إن كان يتَّجِرُ.. وقد قيل لمحمد بن الحسن ـ رحمه الله تعالى: ألا تُصَنِّفُ كتاباً فى الزهد؟! قال: صنَّفتُ كتاباً فى البيُوع!! يعنى أن الزاهد هو من يتحرز عن الشبهات والمكروهات فى التجارات.. وكذلك فى سائر المعاملات والحرف وكل من اشتغل بشىء منها يفترض عليه علمُ التحرُّز عن الحرام فيه.. وكذلك يفترض عليه علم أحوال القلب من التوكل والإنابة والخشية والرضا.. إلخ. فإنه واقع فى جميع الأحوال ثم ها هو ابن المبارك يُوضِّح هذه المسألة بكلمات بيِّنة حين سأله الحسن بن الربيع عن قول النبى ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(١) فقال:«ليس هو الذى يطلبونه، ولكن فريضة على من وقع فى شىء من أمر دينه أن يسأل عنه حتى يعلمه)... الله أكبر ما أعظم الإسلام فى هذا التيسير والتسهيل.. فلو كان الفرض فى كل علم يتعلق بالدين فأين المفر من التقصير؟! بهذا وأمثاله ترجم رسول الله ﷺ معنى قوله: «يسِّرُوا ولا تُعسِّرُوا، وبَشِّروا ولا تُنفِّروا» الحديث(٢). فيا ربِّ أحطت بكل شىءٍ علماً، أفبعد هذا يجوز تقصير وجهل؟

---

(١)تقدم تخريجه.

(٢)أخرجه البخارى (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤).

وتجنٍّ على منهج الله بالعبادة على غير ما يريد الله رب البشر!! إذاً فالحكمة التى أعطاها الله لمن اصطفاه من خلقه فى قوله - عزوجل - فى يحيى عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢﴾ [(١)]، وقوله فى عيسى عليه السلام: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ [(٢)]، هى طاعة الله والاتباع لها، والتفقه فى دين الله والعمل به.. وهى كما أوضحها الإمام مالك حين قال: (الحكمة والعمل نور يهدى به الله من يشاء وليس بكثرة المسائل، ولكن عليه علامة ظاهرة وهو التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود) وقد كانت هذه الكلمات من الإمام مالك قبساً من نور تكلمت به شفتا ابن مسعود رضي الله عنه من قبل حين قال: (ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم خشية الله) [(٣)].

*** من أهداف الحياة:**

وبعد هذا الأمر ووضوحه فهم ابن عون معنى الحياة فأحبها لأمور فقال: (ثلاث أحبُّهنَّ لى ولإخوانى: هذا القرآن يتدبره الرجل ويتفكر فيه فيوشك أن يقع على علم لم يكن يعلمه، وهذه السُنَّة يتطلبها ويسأل عنها، ويذر الناس إلاَّ من خير).

وبذلك قال الإمام الشافعى - رحمه الله - فى تعريفه للفقه: (الفقه معرفة النفس ما لها وما عليها.. وما العلم إلا العمل به، والعمل به ترك العاجل للآجلِ).

*** فضل العلم على المال:**

بهذا الاستطراد يتضح قول على رضي الله عنه حين قال لكميل بن زياد: يا كميل، العلم خير لك من المال. العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تُنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق.

وهاك مثالاً يُبيِّن فضل العلم على الإنسان. إنه يدور فى زمن الخليفة العباسى هارون

---

(١)مريم : ١٢.

(٢)الزخرف : ٦٣.

(٣)أخرجه البيهقى فى الشعب (٢/ ٢٩٤) (١٨٢٣).

الرشيد. إنها قصة تلميذ الإمام أبى حنيفة (أبو يوسف) التى يرويها على بن الجعد فيقول: «أخبرنى أبو يوسف قال: توفى أبى إبراهيم بن حبيب، وخلَّفنى صغيراً فى حجر أمى فأسلمتنى إلى قصّار أخدمه فكنت أدع القصَّار وأمرُّ إلى حلقة أبى حنيفة فأجلس أسمع فكانت أمى تجىء خلفى إلى الحلقة فتأخذ بيدى وتذهب بى إلى القصَّار، وكان أبو حنيفة يُعنى بى لما يرى من حضورى وحرصى على التعلم. فلما كثر ذلك على أمى وطال عليها هربى قالت لأبى حنيفة: ما لهذا الصبى فسّاد غيرك!! هذا صبى يتيم لا شىء له وإنما أطعمه من مغزلى وآمل أن يكسب دانقاً يعود به على نفسه، فقال لها أبو حنيفة: قرى يا رعناء ها هوذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق. فانصرفت عنه، وقالت له: أنت يا شيخ قد خرفت وذهب عقلك !!.. فأكمل أبو يوسف فقال: ثم لزمت أبا حنيفة وكان يتعهدنى بماله فما ترك لى خلة، فنفعنى الله بالعلم ورفعنى حتى تقلدت القضاء، وكنت أجالس هارون الرشيد وآكل معه على مائدته فلما كان فى بعض الأيام قدَّم إلىَّ هارون الرشيد فالوذجًا بدهن الفستق، فضحكت، فقال لى ممَّ ضحكت؟ فقلت: خيراً، أبقى الله أمير المؤمنين. قال: لتخبرنى ـ وألحَّ على ـ فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها فعجب من ذلك وقال لعمرى: إنه العلم ليرفع وينفع ديناً ودنيا، وترحم على أبى حنيفة، وقال: كان ينظر بعين عقله ما لا يراه بعين رأسه».

وهذا عبد الله بن كثير يروى عن أبيه أنه قال: «ميراث العلم خير من ميراث الذهب والفضة، والنفس الصالحة خير من اللؤلؤ، ولا يُستطاع العلم براحة الجسم».

*** الاستفادة وكيفيتها:**

بعد معرفة مكانة العلم والفضل المترتب عليه، ينبغى أن يكون طالب العلم مستفيداً فى كل وقت، حتى يحصل له الفضل.

*** تسجيل طالب العلم للفوائد:**

بأن يكون معه فى كل وقت دفتر وقلم حتى يكتب ما يسمع من الفوائد فقد قيل: ما

حفظ فرَّ وما كتب قرَّ، وقيل: العلم ما يؤخذ من أفواه الرجال؛ لأنهم يحفظون أحسن ما يسمعون، ويقولون أحسن ما يحفظون.

*** سبل التحصيل:**

قيل: نيل العلم يكون بستة أمور:

ألا لا تنال العلـــم إلا بستة سأنبيك عن مجموعها ببيان

ذكاء وحرص واصطبار وبلغةٌ وإرشاد أستاذٍ وطــول زمان

ومن خلال السطور القادمة سنتبيَّن حقيقة هذه الأمور الستة وكيف تفاعل معها السلف ـ رضوان الله عليهم، وكيف عاشوها فى حياتهم... فستعرض من خلال نفحات القلم إلى الذكاء ومسبباته، وتوفيق الله ـ سبحانه ـ إليه، وحرص العلماء وبذلهم وتفانيهم، وسنتبين صوراً للصبر لولا ثبوتها لعددناها من الأساطير. وكيفية الاستفادة من الأستاذ والعلاقة معه وعدم الاستعجال فى تحصيل العلم...كل هذه الأمور لا نألو جهداً فى العيش معها حتى تكون لنا شعاعاً نمشى فى ضوئه إن شاء الله.

كما أن من أعظم الأسباب المعينة على الاشتغال والفهم وعدم الملل:

*** عدم البطنة:**

أى أكل القدر اليسير من الحلال... وهذا الأمر يبينه لنا أئمة سبقونا فى الهدى فاستفادوا وأفادوا.... فقال لقمان لابنه: «يا بنى إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة»، وقال سحنون: (لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشبع شبعا) ويزيد هذه القضية ثبوتاً رواية المقداد بن معدى كرب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملأ آدميٌّ وعاءَ شرًا من بطنهِ، حسبُ الآدمى لقيماتٌ يُقمن صلبه، فإن غلبت الآدميَّ نفسُهُ فثلثٌ للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس»[(١)].

ثم قال المقداد فإن زاد على ذلك فالزيادة إسراف خارج عن السنة، وقد قال تعالى: ﴿

(١)أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)،والنسائى فى الكبرى (٦٧٦٩)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وصححه الألبانى.

وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ (١).

* **اتخاذ القرين والمشاورة:**

وحتى تتحرك الهمة وتندفع فلابد من قرين جيد يساعد على التحصيل كما قيل:

لا تَصْحَبِ الكسلانَ فى حالاته كم صالح بفساد آخر يَفسدُ

عدوى البليد إلى الجليد سريعة كالجمر يوضع فى الرماد فيخمدُ

و«المرءُ على دينِ خَليلهِ»(٢) كما أخبر بذلك رسول الهدى ﷺ وفى هذا الزمان الذى أصبح فيه المنكر معروفاً والمعروف منكراً، يندر الصديق صاحب الهمة الدافع للعمل والمثابرة.... والحصول عليه لا يكون إلا بعد البحث والمشورة.. فالمشورة طريق الصواب، وتركها طريق الهلاك. فالمشورة والاستخارة كثيراً ما كان يدعو إليهما الصحابة ـ رضوان الله عليهم، ويحرصون عليهما، لذلك قال على رضي الله عنه:(ما هلك امرؤٌ عن مشورة) وقيل: الناس رجلٌ، ونصف رجلٌ ولا شىء: فالرجل من له رأى صائب ويشاور، ونصف الرجل من له رأى صائب ولكن لا يشاور أو يشاور ولكن لا رأى له. ولا شىء هو من لا رأى له ولا يشاور. فتخير أنت أى الناس تريد أن تكون... أما إن أردت معرفة من تستشير ليرشدك إلى القرين الذى يأخذ بيدك إلى طريق العلا فاسمع جعفر الصادق رضي الله عنه، يبين لسفيان الثورى من يتوجه إليه فى الاستشارة فيقول: « شاور فى أمرك الذين يخشون الله تعالى ».

* **الصبر والجد طريق التحصيل:**

وبعد معرفة طريق الاستفادة علينا بالصبر والجد والمواظبة. فبهذا السبيل نستطيع التحصيل وقد قيل: من طلب شيئاً وجدَّ وجد. ومن قرع الباب ولجَّ ولج وبقدر ما تَتَعَنَّى تنال ما تتمنى.

---

(١)الأعراف : ٣١.

(٢)أخرجه أبو داود (٤٨٣٣) ، وأحمد (٢/ ٣٠٣)، وحسنه الألبانى.

بقدر الكدِّ تُكتسبُ المعــالى ومن طلب العلا سهر الليــالى

تروم العزَّ ثم تنام ليــلاً يغوص البحر من طلــب اللآلى

ويكون ذلك بالحرص على الازدياد من طلب العلم وذلك بملازمة الجدِّ والاجتهاد... فمنهومان لا يشبعان: طالب العلم وطالب الدنيا؛ وذلك لأن درجة العلم درجة وراثة الأنبياء ولا تُنَال المعالى إلا بشق الأنفس. وفى صحيح مسلم عن يحيى بن أبى كثير (لا يُستطاعُ العلمُ براحةِ الجسمِ) (1). فالمواظبة سبيل النجاح... وقد قال أبو حنيفة لأبى يوسف ـ رحمهما الله تعالى ـ مبيناً هذه الحقيقة: كنتَ بليداً فأخرجتك المواظبة، وإياك والكسل فإنه شؤم وآفة عظيمة. وقال أحدهم مخاطباً نفسه:

دعى نفسى التكاسل والتوانى وإلا فاثبتى فى ذا الهــوان

فلم أر للكسالى الحظ يعطى سوى ندم وحرمــان الأمانى

*** استمرارية طلب العلم:**

فبالصبر تنال المعانى، فهم ذلك عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فكان يأتى عبيد الله بن عبد الله يسأله عن علم ابن عباس رضي الله عنهما. فربما أذن له وربما حجبه. وقد قيل: (من لم يحتمل ذُلَّ التعلم ساعةً بقىَ فى ذل الجهل أبداً)، وهذا يوضحه الشعبى حين قيل له: من أين لك هذا العلم كله؟ قال: بنفسى الاعتماد(2) والسير فى البلاد، وصبر كصبر الجماد، وبُكور كبكور الغراب.

والمثابرة على طول طريق التعلم عنوان الهمة ودوام العلم. فقد سأل ابن مناذر أبا عمرو بن العلاء: (حتى متى يحسن المرء أن يتعلم؟ فقال: ما دامت تحسُن به الحياة)، وسُئل سفيان بن عيينة: من أحوج الناس إلى طلب العلم؟ قال: (أعلمهم لأن الخطأ منه أقبح)، ولم لا يكون أقبح ورسول الله ﷺ يقول: «وهل يكُبُّ الناس فى النار على وجوههم إلا

---

(1) أخرجه مسلم (٦١٢).

(2) بنفسى الاعتماد: أى ليس على الغير.

حصائدُ ألسنتهم»[١]، ولم لا يكون قبيحاً، وعلى علمه ينبنى علم الآخرين من الناس... ثم هذا ابن أبى غسان يبين طول الطريق لطالب العلم فيقول: (لا تزال عالماً ما كنت متعلماً، فإذا استغنيت كنت جاهلاً) إذن فالهمة والصبر والمصابرة من أهم الوسائل للاستفادة والتحصيل والنجاح فى طلب العلم، وعكسها التكاسل والاتكال والتوانى.

*** كل متعلم له فى غنيمة العلم سهم:**

وأضر ما يضر العالم والمتعلم القول القائل:(ما ترك الأول للآخر شيئاً). ففيه تثبيط عن طلب العلم والبحث والتجديد. ولكن أنفع ما يكون للعالم وأهم ما يرفع من شأنه وهمته، قول على رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:(قيمة كل امرئ ما يُحسنُ)، ففى هذه الحروف القليلة الهمة الدافعة لتعلُّم كل شىء،فعلى قدر ما يحسن إنسان ترتفع مكانته بين الناس ويتلفَّتُ إليه فى وقت الأزمات.

*** معادلة: جهد أكثر: تحصيل أكثر:**

وللعلماء فى هجر الراحة مثال لنا نقتدى به ونسير على نهجه وهذا ما يرويه ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا حين قال:لما قُبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: (هلُمَّ فلنسأل أصحابَ رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير. فقال: يا عجباً لك يا ابن عباس: أترى الناس يفتقرون إليك وفى الناس من أصحاب رسول الله ﷺ من فيهم؟ قال ابن عباس: فتركت ذاك وأقبلت أنا أسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنه كان ليبلغنى الحديث عن الرجل فآتى بابه، وهو قائل فأتوسد ردائى على بابه يسفى الريح علىَّ من التراب، فيخرج فيرانى فيقول: يا بن عمَّ رسول الله ﷺ ما جاء بك؟ هلاَّ أرسلت إلىَّ فآتيك؟ فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك. قال: فأسأله عن الحديث. قال: فعاش هذا الرجل الأنصارى حتى رآنى وقد اجتمع حولى الناس يسألوننى فقال: هذا الفتى كان أعقل منى، تعب فأجهد نفسه وصبر فنال ما نال من

(١)أخرجه الترمذى (٢٦١٦)، والنسائى فى الكبرى (١١٣٩٤)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٥/ ٢٣١)، وصححه الألبانى.

رفعة فى الدنيا والآخرة) [١] ... بهذا الصبر وبهمة سعيد بن جبير التابعى الجليل المتوفى سنة ٥٩ هـ ـ رحمه الله تعالى ـ التى رواها الدارمى فى سننه حيث قال سعيد: (كنت أسير مع ابن عباس فى طريق مكة ليلاً وكان يحدثنى بالحديث فأكتبه فى واسطة الرحل حتى أصبح فأكتبه) [٢]، بهذه الهمة تحرك سعيد وكتب فنال ما نال. فإلى متى نحن فى كسل وتوانٍ. سهر سعيد وأمثاله فأوصلوا لنا ما إن أخذنا به فلن نضل بعده أبداً، أوصلوه بقلة النعاس وكثرة السجود وبعملهم هذا ترجموا قول القائل:

سرور الناس فى لبسِ اللباسِ　　وجمع العلم فى ترك النُّعاسِ

*** توضيح:**

وقد يكون مما يورث التفرق للعلم الفقر. ولذلك يجب الصبر عليه وهو على حالين:

١ ـ حال تتبلبل فيها الخواطر من الهمِّ والغمِّ وكثرة العيال وانكسار النفس الناشئ عن ذلك...وما إلى هذا من علل الفقر التى تأخذ بالأنفس والتلابيب ولنعبر عن هذا «بالفقر الأسود» كما يقال، وهو الذى يبدد الذهن ويقتل النبوغ، ويذوى صاحبه كما تذوى الشجرة المخضرة إذا انقطع عنها الماء (وهو مذموم).

٢ ـ وحال ثانية يكون الإنسان فيها فقيراً ولكنه خفيف المؤونة ثقيل الطمأنينة بالله، لا يوثر الفقر إلا على سطح جسده ومظهر لباسه، أمَّا خاطره فمستقر مشرق ثابت مُتجمِّع. ولنسمِّ هذا «بالفقر الأبيض» كما يقال، وهو نعمة بالنظر إلى طالب العلم فى أول حياته حتى لا تشُدُّه الدنيا إلى مشاغلها وغمراتها ومفاتنها فإن التقلُّل من الدنيا أمكنُ لحفظ العلم.

وهكذا يطلب العلم فلو اعتمد ا بن عباس كما اعتمد صاحبه على صحابة رسول الله ﷺ لما وصل إلينا فقه حبر هذه الأمة ولما نُسئ له فى أثره. ولو اعتمد كل منا على غيره من

(١)أخرجه الدارمى فى سننه (٥٧٠)، والحاكم فى المستدرك (١/ ١٨٨) (٣٦٣)، وقال: «صحيح على شرط البخارى»، ووافقه الذهبى.

(٢)أخرجه الدارمى (٤٩٩)، وقال حسين سليم أسد: «إسناده صحيح».

العلماء والدعاة فلن يصل العلم إلى الناس. وسيحاسبنا الله ـ تعالى ـ على إهمالنا نعمة القراءة والكتابة التى وفقنا إليها ولم نستغلها فى الدراسة والبحث والاطلاع والتزوُّد من العلم والمعرفة... ولولا الارتحال والسير فى البلاد لما وصلت لنا الأحاديث وجُمعت لنا فى بطون الأمهات، إنه السيرُ والارتحال الذى يخبرنا به الإمام أبو عبد الله البخارى فى صحيحه فى كتاب العلم باب الخروج فى طلب العلم (ورحل جابر بن عبد الله فى مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس فى حديث واحد) [(١)]... وهكذا كابد جابر مشقة شهر من عذاب السفر لينال حديثاً... ونتكاسل نحن أن نسير مسافة دقائق حتى نصل إلى حلقات العلم أو إلى مكتبات الحكمة والفقه.. ثم نريد أن نصل إلى ما وصلوا !! ذلك أن ما يحصله الإنسان فى الحلقات والمدارس أكثر بركة وثباتاً مما يحصله منفرداً، وللحلقات العامة والعلم فى المسجد نور خاص لا يتحسسه إلا من يقارن بين الماضى والحاضر، فالعودة إلى المسجد وإحياؤه بالعلم والذكر وربط المسلمين بحلقاته هى بداية البدايات لإحياء الإسلام، فمتى كانت فى المسجد حلقات العلم التى تستوعب كل جوانب الثقافة الإسلامية وصار المسلم ينتقل من حلقة إلى حلقة ليكمل ثقافته الإسلامية وقام هو بدوره فى تعليم ما تعلَّم عندئذ نكون قد بدأنا فى البداءة الصحيحة.

إن مسجداً واحداً فى البلد الواحد من هذا النوع إذا قامت به مثل هذه الحلقات ونظّم أهله رحلات العلم والدعوة إلى العلم داخل الحلقات يمكن أن يحيا به هذا البلد، فاصبر يا من شمّرت إلى طريق خطَّهُ رسول الله ﷺ واسمع وصية لقمان لابنه: (لا تجادل العلماء فتهون عليهم ويرفضوك، ولا تجادل السفهاء فيجهلوا عليك ويشتموك، ولكن اصبر نفسك لمن هو فوقك فى العلم ولمن هو دونك، فإنما يلحق بالعلماء من صبر لهم ولزمهم واقتبس من علمهم فى رفق)..

بهذه الوصايا كان العلماء والأتقياء يوصون أولادهم وبها كانوا ينطلقون لتحقيق ما

---

(١)فتح البارى (١/ ١٤٩).

يريد منهم ربهم الذى خلقهم وأنعم عليهم.

وبعد معرفة الاستفادة وكيفيتها. فلنقف لنعرف كيف يحصل المسلم على العلم؟ وما طرق التحصيل؟ وما العادات الموروثة للتفقه والتعلم؟ كل هذه الأسئلة سنتعرف على إجابتها ونفهم حقيقتها عندما نتكلم ونسترسل فى مسببات العلم.

مسببات العلم

* **أولا: القراءة:**

فيقـول تعـالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾﴾ (١).

* **ثانيا: السير فى الأرض والسياحة:**

فيقـول تعـالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٢).

وفى الرحلة يقول سعيد: (إن كنتُ لأسير الليـالى والأيـام فى طلـب الحـديث الواحـد).. وهذا بشر بن عبيد الحضرمى يقول: (إن كنت لأركب إلى المصر مـن الأمـصار فى الحـديث الواحد لأسمعه) نعم بهذه الروح كانوا يتحركون ويبحثون، فلا الكسل ولا النـوم يُـورث العلم، ولكـن الحركـة والجـد والاجتهـاد... وهنـاك ملاحظـة يجـب الانتبـاه إليهـا وهـى أن الرحلة ليست مقصودة لذاتها، ولكن المقصود من الرحلة أمران:

أحـدهما: تحـصيل علـو الإسـناد وقـدم الـسماع. والثـانى: لقـاء الحفـاظ والمـذاكرة لهـم والاستفادة منهم، فإذا كـان الأمـران موجـودين فى بلـده ومعـدومين فى غـيره فـلا فائـدة فى الرحلة، أو موجودين فى كل منهما.. فليُحصِّل حديثَ بلده ثم يرحل.

* **ثالثا: عدم الاستحياء:**

تحت هذا العنوان تكلم السلف كثيراً، ومما قالوا قول عمر بـن الخطـاب رضي الله عنه: (مـن رقَّ وجهُه رقَّ عملُه...) وقيل: من رق وجهه عن السؤال ظهر نقصه عنـد اجـتماع الرجـال... وقيل: لا ينال العلم مستحٍ ولا متكبر وقيل:

لا ينال العلم شخص يستحى   ولا الذى لنفسه يتكبـر

(١) العلق: ١ـ ٥.
(٢) الحج: ٤٦.

نعم: الحياء من شعب الإيمان، ولكن ليس فى مجال التعلم، فأىُّ إيمان أضخم من إيمان نساء الأنصار... اللاتى كانت إحداهن: يقتل زوجها وأولادها ولا تسأل عنهم وتسأل كيف رسول الله ﷺ،هنَّ اللائى قالت عائشة رضي الله عنها وعنهن: «نعم النِّساء نساءُ الأنصار لم يكن يمنعُهُنَّ الحياء أن يتفقَّهن فى الدِّين»[1].

وعدم الاستحياء يعنى كثرة السؤال والتملق:

*** أ ـ فأما السؤال:**

فاسمع أئمة الهدى يقولون: زيادة العلم الابتغاء، ودركُ العلم السؤال، فتعلَّم ما جهلت واعمل بما علمت.. بهذه الكلمات نطق عبد الله بن مسعود وعليها عقب وبيَّن ابن شهاب حين قال: العلم خزانة مفاتيحها المسألة.

وقيل:

إذا كنت لا تدرى ولم تكُ بالذى يُسائلُ من يدرى فكيف إذاً تدرى

*** قصة منها نستفيد:**

قدم رجلٌ على ابن المبارك وعنده أهل الحديث فاستحيى أن يسأل وجعل أهل الحديث يسألونه، فنظر ابن المبارك إليه. فكتب بطاقة وألقاها إليه فإذا فيها:

إن تلبثت عن سؤالك عبد الله ترجع غدا بخفى حنين

وإذا أغنت الشيخ بالسؤال تجده سلسا يلتقيك بالراحتين

وإذا لم تصح صياح الثكالى قمت عنه وأنت صفر اليدين

فبالسؤال إذاً تنال العز والعلم والرفعة، ولذلك عندما قيل للأصمعى: (بم نلت ما نلت؟ قال: بكثرة سؤالى وتلقِّى الحكمة الشَّرود).

هذا ما كان فى الماضى (الرحلة فى طلب الحديث). والرحلة فى كل زمان تكون لأمر

(١)أخرجه البخارى تعليقًا قبل حديث (١٣٠)، ووصله مسلم (٣٣٢).

خاص به،فالرحلة اليوم لمعاهد العلم والجامعات ولقاء أفذاذ العلماء والاستفادة من علمهم والتتلمذ على أيديهم.

*** وصيـــة:**

ثم اسمع وصية الإمام عليٍّ رضي الله عنه حين قال: «خمسٌ احفظوهنَّ ولو ركبتم الإبل: لا يخافُ العبدُ إلا ذنبه، ولا يرجو إلا ربَّه، ولا يستحى جاهل أن يسأل، ولا يستحى عالم إن لم يعلمُ أن يقول: الله أعلم. والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. ولا خير فى جسد لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له».

وعدم الاستحياء فى طلب المسألة عن طريق السؤال لا من العلماء فقط ولكن من كل الناس..لذلك عندما قيل لأبى يوسف: بم أدركت العلم؟ قال: (ما استنكفتُ من الاستفادة وما بخلتُ بالإفادة). وكان بذلك متأسياً بآل النبى صلى الله عليه وسلم، فها هو ذا ابن عباس رضي الله عنهما عندما قيل له: بم أدركت العلم؟ فقال: (بلسان سؤولٍ وقلبٍ عقول).

*** ب ـ وأما التملق:**

فمذموم إلا فى طلب العلم فإنه لا بأس أن يتملق طالب العلم أستاذه وشركاءه ليستفيد منهم. وينبغى لطالب العلم أن يستمع العلم والحكمة بالتعظيم والحرمة، وإن سمع المسألة الواحدة والكلمة الواحدة ألف مرة.

*** سبيل الحفاظ على العلم:**

أ ـ المحافظة على الالتزام بالشرع:

يقول أحد الصالحين مبيِّناً هذا الأمر:

كن للأوامر والنواهى حافظاً ... وعلى الصلاة مواظباً ومحافظاً

اطلُب علوم الشرع واجهد واستعن ... بالطيبات تصر فقيهاً حافظاً

ب ـ قراءة القرآن الكريم:

وقد قيل :(ليس أزيد للحفظ من قراءة القرآن).

*** رابعاً: اختيار الأوقات والأماكن:**

أ ـ اختيار الأوقات:

إن معرفة كل وقت وما يصلح له أمر مهم ليستطيع الإنسان أن يستفيد من جميع ساعات حياته كأحسن ما يستفيد منه الكيسُ من الناس. ولذلك قيل: أجمل الأوقات للحفظ: الأسحار، وللبحث: الإبكار، وللكتابة: النهار، وللمطالعة والمذاكرة: الليل، على أنَّ هذا ليس بقاعدة عامة لا يخرج عنها المرء وإنما هى تجارب، ولكل امرئ ظروفه وتجاربه.

ب ـ اختيار الأماكن:

أما بالنسبة للأماكن فها هو ذا الخطيب البغدادى يخبرنا فيقول: (أجود أماكن الحفظ الغُرفُ.. وموضعٌ بعيدٌ عن الملهيات.. وليس بمحمود الحفظ بحضرة النبات والخضرة والأنهار.. وقوارع الطرق.. وضجيج الأصوات لأنها تمنع من خلو القلب).. ومما يزيد ويُثبِّت الحفظ مع اتباع قانون الأوقات: التكرار فينبغى لطالب العلم أن يكرر سبق الأمس خمس مرات والذى قبله اثنتين والذى قبله مرة واحدة، فهذا أدعى للحفظ كما جربه بعض طلبة العلم فى مذاكرتهم وحفظهم. والناس فى ذلك يتفاوتون كلٌّ حسب طاقته وقدرته.

*** المخافتة:**

كما ينبغى اعتياد المخافتة فى التكرار؛ لأن الدرس والتكرار ينبغى أن يكون بقوة ونشاط، ولا يجهر جهراً بجهد نفسه كيلا ينقطع عن التكرار فخير الأمور أوسطها.

*** النشاط فى المدارسة:**

والنشاط فى المدارسة أمر مهم لطالب العلم ولشحذ الهمم وهذا كان دأب السلف ـ رضوان الله عليهم. عن أبى يوسف أنه كان يذاكر الفقه مع الفقهاء بقوة ونشاط وكان صهرُهُ عنده يتعجب من أمره. ويقول: أنا أعلم أنه جائع منذ خمسة أيام، ومع ذلك يناظر بقوة ونشاط.. وهذه القوة والنشاط فى المدارسة لابدَّ منها؛ لأنَّ الإنسان يأتى إلى هذه الحياة

مجرداً عن العلم والمعرفة.. وإن كان مزوداً بالاستعداد والقوى والأدوات التى يمكن بها أن يعلم ويعرف، وبهذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾[1].

فالسمع والبصر والعقل أدوات يكتسبُ بها الإنسان معلوماته وهى المنافذ التى يطُلُّ منها على هذا الكون الفسيح ليعرف أسراره ويدرك شؤونه وينتفع بما أودع فيه من بركات. والذين لا ينتفعون بهذه الأدوات قد انسلخوا من إنسانيتهم وانتظموا فى عداد الحيوانات.

*** خامساً: معرفة قوانين التعلم:**

وهذه المعرفة تساعد على التعلم على اعتبار أنَّ الإنسان يتحرك بنور ومعرفة بعيداً عن الارتجال والتخبُّط وهى (أى القوانين) كثيرة سنتطرق إلى بعضها.

---

(١)النحل : ٧٨.

القوانين

(١) قانون الشدة:

حيث يُقرِّر هذا القانون أن معدل التعلم يعتمد على قوة الاستجابة للموقف المثير، فكلما كان للموقف أثر في النفس متعلق بأمور يعيشها الفرد لها مساس بحياته العملية كان ذلك أدعى إلى ثبوت المسألة أو المادة في نفسه.

(٢) قانون التنظيم:

ويقرِّر أنَّ التعلم يكون أكثر سرعة عندما تكون المادة منتظمة في علاقات ذات معنى.

(٣) قانون التقارب:

وخاصة التقارب الزمني. ويقرر هذا القانون أنه لكي يحدث الارتباط فإن الأحداث يجب أن تقع في حدود فترة زمنية معينة، ففي اختراق متاهة أو أي أفعال مُتسلسلة كتذكُّر قصيدة، فإن كل جزء يُصبحُ مُتَّصلاً بالجزء الذي سبق أداؤه أي التجاور معه زمنيًا.

(٤) قانون التدريب:

وهو يقرر أنه إذا كان أداء فعل ما ممكناً هذه المرة، فإن أداءه يكون أسهل في المرات التالية، وعلى هذا يعمدُ الإنسان إلى أن يتدارس الأمور التي يتعلمها ويُجبُّها دائماً بالمراجعة والمناقشة حتى تكون بالنسبة له من الأمور المسلَّم بها.

*** سادساً: استغلال وقت الشباب:**

إن من أهم الأمور التي تُساعد الإنسان على التعلم أن يستغلَّ كل لحظة في حياته ومن أهم الأوقات أوقاتُ الشباب. وألا يغترَّ بخدع التسويف والتأجيل، فإن كل ساعة تمضي من عمره لا بدل لها ولا عوض عنها، ويقطع ما يقدر عليه من العلائق الشاغلة والعوائق المانعة عن تمام الطلب. وبذل الاجتهاد وقوة الجهد في التحصيل فإنها كقواطع الطريق، وقد قيل في استغلال وقت الشباب:

وأيام الحـــداثة فاغتنمها ألا إن الحـــداثة لا تدوم

وقال الحسن البصرى ـ رحمه الله: (طلب العلم فى الصغر كالنقش فى الحجر).. وأى زمان وأى رياح هذه التى تمحو ما نقش على الحجر. فهيا نسمع وصية الحسن بن على لبنى أخيه: (تعلَّموا العلم فإنكم إن تكونوا صغار قوم تكونوا كبارهم غداً، فمن لم يحفظ فليكتب). ولذلك أنشد سابق البربرى ـ رحمه الله ـ هذه الأبيات ليدفعنا لاقتناص فرص الشباب فى تربية أنفسنا ولغيرنا فى تعليمهم وتوجيههم.. فقال:

قد ينفع الأدب الأحداث فى مهل   وليس ينفع عند الكبر الأدب

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت   ولن يلين إذا قومته الخشبُ

وقد سبق إلى هذا المعنى أمية بن أبى الصلت حين قال:

إنَّ الغلام مطيع من يؤدبه   ولا يُطيعك كهل حين يكتهل

واستغلال وقت الحداثة يعنى استغلال أوقات ليس فيها مشاغل فعندما يكبر الإنسان وعندما يسود: يشغله من يسودهم عن تعليم نفسه وتفقيهها، وتستنكف النفس أن تأخذ بعد أن سُلِّمت إليها القيادة. لذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (تفقهوا قبل أن تسودوا)[1] . ثم أتى بعد ذلك الإمام الشافعى ـ رحمه الله ـ ليقتبس من هذه الكلمة نوراً فقال: (تفقَّه قبل أن ترأس فإذا رئست فلا سبيل إلى التفقُّه).. وهذا لا يعنى أن يطلب الإنسان العلم فى أوقات شبابه ثم يتركه بعد ذلك عند الاشتغال بالوظيفة والزوجة وغيرها من متطلبات الحياة.. بل عليه أن يداوم على ذلك ويستمر كما قال سعيد بن جبير ـ رحمه الله: (لا يزال الرجل عالماً ما تعلَّم، فإذا ترك التَّعلُّم وظنَّ أنه قد استغنى فأسوأ جهلٍ ما يكون) أى أجهل ما يكون هو فى تلك الحالة التى ظن أنه فى مرحلة ليست بحاجة إلى علم، وأنه قد استغنى عن طلب العلم.

*** سابعاً: المناظرة:**

وهى نوع من أنواع البحث العلمى وقد عرفها العرب فى أسواقهم الأدبية قبل الإسلام

(١)أخرجه البخارى تعليقًا (فتح البارى ١/ ١٤٠).

وبعده وعن طريق المناظرة يمكن أن يثبُت العلم ويبلَّغ ولذلك بيَّن الله ـ عز وجل ـ هذه القضية وذكر فيها آيات فقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [(١)].

*** آداب المناظرة:**

والمناظرة لها آداب يجب أن يتحلى بها من يريد أن يتعلم:

عدم المراء والأخذ به:

والمراد بالمراء: الجدال فيما لا طائل منه، فإن الجدال الذى لا يُراد منه الوصول إلى حق ولا يكون على سبيل البحث عن شىء واضح،وإنما يقصد منه مجرَّد الجدل، أو يقصد منه تعجيز الآخرين وإفحامهم من غير سبب شرعى أو يقصد به التشهير والإزعاج لقصد الغلبة والإفحام وإظهار الفضل والشرف والتشدق عند الناس، وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس. فهذا منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله، المحمودة عند عدو الله إبليس ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسد.. وغيرها كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنى والقذف والقتل والسرقة، وقصة من خيِّر بين الشرب والفواحش معروفة!! وفى هذا قال رسول الله ﷺ «أنا زعيمٌ ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيتٍ فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه»[(٢)].

وفهم مسلم بن يسار من رسول الله ﷺ ما فهم فقال: «إياكم والمراء فإنها ساعة جهل وبها يبتغى الشيطان زلته»[(٣)]. والمؤمن كما قال الحسن رضي الله عنه: (لا يدارى ولا يمارى ينشر حكمة الله فإن قبلت حمد الله، وإن ردَّت حمد الله). وبهذا يقول رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ

---

(١)الأنعام :٨٣.

(٢)أخرجه أبو داود (٤٨٠٠)، وحسنه الألبانى.

(٣)أخرجه الدارمى (٣٩٦)، وقال حسين سليم أسد : « إسناده صحيح».

قومٌ بعد هدىً كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»[(١)]، وفهم ذلك أصحاب مدرسة النبوة فقال أحدهم وهو مالك بن أنس: (المراء يقسِّى القلوب ويورثُ الضغائن). وكل هذا التحذير لكون المراء يوقع فى المحرمات ويقطع الصلات كما قال محمد بن الحسن ـ رحمه الله: (عند الحكماء أن المراء أكثره يُغيِّر قلوب الإخوان ويورث التفرقة بعد الألفة والوحشة بعد الأنس)، وهذا المراء لا يكون عندما نفهم أنَّ المقصود من الاجتماع ظهور الحق، وصفاء القلوب، وطلب الفائدة، وأنه لا يليق بأهل العلم تعاطى المنافسة، والشحناء؛ لأنها سبب العداوة والبغضاء، بل يجب أن يكون الاجتماع ومقصوده خالصاً لله تعالى لتتم الفائدة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة. ولنتذكر قوله تعالى: ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾[(٢)].

فإن ذلك يفهم منه أنَّ إرادة إبطال الحق أو تحقيق الباطل صفة إجراء فليحذر منه، وقد بيَّن الشافعى ـ رحمه الله ـ ما يجب أن يكون بين العلماء فقال: (العلم بين أهل الفضل والعقل رحم متَّصل).

سبيل التخلص من المراء المذموم:

وحتى يكون اجتماعك خالياً من المراء عليك باختيار الأصحاب وللأصحاب مقامات ثلاثة: (إما رجل يتعلم منه خيراً إن كان أعلم منه، أو رجل هو مثله فى العلم فيذاكره العلم لئلا ينسى ما ينبغى ألاَّ ينساه، أو رجل هو أعلم منه فيعلِّمه، يريد الله ـ عز وجلّ ـ بتعليمه إياه).. وبعد هذا الاختيار سيكون مجلسك كمجلس زيد بن أسلم الذى بينه أبو حازم الأعرج حين قال عن مجلسهم: (رأيتنا فى مجلس زيد بن أسلم أربعين فقيهاً أدنى خصلة فينا التواسى بما فى أيدينا، وما رأيت فيه ـ يعنى المجلس ـ متمارين ولا متنازعين فى حديث لا ينفعنا)؛ وذلك لأنهم تحلوا بما يتحلى به العالم فى مناظرته من خصال هى: أنه يفرح إذا

(١)أخرجه الترمذى (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨)، وأحمد (٥/ ٢٥٢)، وحسنه الألبانى.
(٢)الأنفال : ٨.

أصاب الخصم، وأن يحزن إذا أخطأ، ويحفظ نفسه ألا يجهل عليه.

وللسلف ـ رضوان الله عليهم ـ فى المجادلة لأهل الباطل صور كثيرة وقصص متنوعة نسرد منها قصة الفاروق فى نقاشه، فقد كان لعمر أرض بأعلى المدينة، فكان يأتيها وكان طريقه على موضع مدارسة اليهود، وكان كلَّما مرّ دخل إليهم فسمع منهم وأنه دخل عليهم ذات يوم فقالوا: (يا عمر ما من أصحاب محمد أحبَّ إلينا منك، إنهم يمرون بنا فيؤذوننا فتمر بنا فلا تؤذينا وإنا لنطمع فيك. فقال لهم عمر: أى يمين فيكم أعظم؟ قالوا: الرحمن. قال: فبالرحمن الذى أنزل التوراة على موسى بطور سيناء أتجدون محمداً عندكم نبياً؟ فسكتوا، قال: تكلموا ما شأنكم، والله ما سألتكم وأنا أشك فى شىء فى دينى، قالوا: نعم، إنا نجده مكتوباً عندنا، ولكن صاحبه من الملائكة الذى يأتيه بالوحى هو جبريل، وجبريل عدونا، وهو صاحب كل عذاب وقتال وخسف، ولو أنه كان وليّه ميكائيل لآمنا.. فإن ميكائيل صاحب كل رحمة وكل غيث، قال لهم: فأنشدكم بالرحمن الذى أنزل التوراة على موسى بطور سيناء، أين ميكائيل وأين جبريل من الله؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، قال عمر: فأشهد أنَّ الذى هو عدو للذى عن يمينه هو عدو للذى على يساره، والذى هو عدو للذى عن يساره هو عدو للذى عن يمينه، وأنه من كان عدواً لهما فإنه عدو لله. ثم رجع عمر ليخبر النبى ﷺ فقرأ عليه ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾[1][2].

ومجادلة ابن عباس، وعلى، وعمر بن عبد العزيز ﷺ للخوارج واضحة وبيّنة فى كتب السيرة تدل على قوة الحق التى يتكلم بها تلاميذ منهج الرسول ﷺ.

والمجادلة والمناظرة فنٌّ لا يتحلى به كل إنسان بل هى فضل من الله. كذلك قال

(١)البقرة: ٩٧، ٩٨.

(٢)أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره (١/ ٤٣٣، ٤٣٤).

بعض العلماء: (كل مجادل عالم، وليس كلُّ عالم مجادلاً) يعنى أنه ليس كل عالم تتأتى له الحجة. ويحضره الجواب ويُسرع إليه الفهم بمقطع الحجة، ومن كانت هذه خصاله فهو أرفع العلماء، وأنفعهم مجالسة ومذاكرة، والله يؤتى فضله من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

والمجادلة هنا ليست المناظرة المذمومة وإنما هى من باب قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[1]. والمذاكرة والمناظرة فى الحق محمودة، وقد كان السلف ـ رضوان الله عليهم ـ يعيشون الساعات فى المناظرة ولا يشعرون، لذلك قال على بن الحسن بن شقيق: (قمت مع ابن المبارك ليلة باردة ليخرج من المسجد فذاكرنى عند الباب بحديث فذاكرته فما زال يذاكرنى حتى جاء المؤذن وأذَّن الفجر)، وهذه المناظرة تحتاج إلى ذاكرة.. فالذاكرة قدرة مدهشة نعتمد عليها فى جميع الأنواع من الأعمال خاصة فى الأعمال العقلية، وتتكون الذاكرة من تذكرة ما قد سبق تعلمه، وقد تكون الاحتفاظ والتذكر لما سبق تعلمه، ويحدث التذكر فى صور متعددة:

*** صور التذكر:**

الصورة الأولى: وهى أبسط الصور وهى تذكُّر الشيء عندما يكون ماثلاً أمام الحواس.

الصورة الثانية: هى الاسترجاع.. فيقال: إننا استرجعنا الشيء عندما نصبح واعين لمروره بخبرتنا الماضية دون أن يكون ماثلاً أمام الحواس. مثال ذلك استرجاع اسم كتاب قد انتهيت من قراءته فى الأسبوع الماضى.

الصورة الثالثة: وهى أكثر صعوبة وهى التذكر بدقة لإعادة إنتاج المادة التى سبق تعلمها.

الصورة الأخيرة: وهى أصعب الأنواع فهى أداء العادات التى تعلمها الفرد جيداً؛ لدرجة أنه صارت آلية لحد كبير.

---

(١) النحل: ١٢٥.

*** أسباب النسيان:**

١ ـ المعاصى وكثرة الذنوب والأحزان فى أُمور الدنيا وكثرة الأشغال.

٢ـ الإكثار من العادات المحذورة فى تلقى العلم مثل الرسم بالقلم والتحسير عن الذراعين والعبث باليدين أو الرجلين أو غيرهما من الأعضاء إلى غير ذلك من الأمور التى تلهى الإنسان عن طلب العلم.

كما أنَّ هناك نظريات تزيد هذه المسألة وضوحاً سنذكر بعضها:

١ ـ نظرية مرور الزمن وعدم التدريب: حيث تقول.. بأنَّ الحكم الواضح من ظواهر الأمور أننا ننسى بسبب مرور الزمن، ومع ذلك فمن الوجهة النظرية فإنه ليس مرور الزمن فى حد ذاته هو السبب للنسيان وإنما ما يحدث فى خلال هذا الزمن. وهذا التفسير من عيوبه حقيقة أن بعض المواد تُنسى أسرع من غيرها.

٢ ـ نظرية التداخل: إن نظرية التداخل هى أكثر النظريات شيوعاً لتفسير النسيان وتبعاً لهذه النظرية، فإننا ننسى لأن الأشياء الأخرى التى تعلمناها تتداخل مع ما نحاول تذكره لدرجة أنه حتى فى حالة الحفظ الجيد لا تكون هناك ضمانة مطلقة للتذكر.

٣ ـ عدم التعلُّم: وهذا سبب آخر للنسيان وهو أننا لم نتعلم ما نريد أن نتذكره أو أننا تعلمناه بدرجة غير كافية على الإطلاق.. فإذا قلنا: إننا لا نستطيع أن نتذكر الأسماء فإنه من المحتمل أننا لم نعلمها إطلاقاً، حيث إننا لا نستطيع أن نتذكر ما لم نتعلمه، كما أن التعلم الأصلى غير الدقيق من المحتمل أن تكون نتيجته استرجاعاً غير دقيق.

٤ ـ الحرص على الفهم: وهو أمر مهم لذلك قيل: حفظ حرفين خير من سماع وقرين، وفهم حرفين خير من حفظ وقرين.. والإنسان إذا تهاون فى الفهم ولم يجتهد مرة أو مرتين يعتاد ذلك فلا يفهم الكلام اليسير فينبغى على المتعلم ألا يتهاون فى الفهم بل يجتهد ويدعو الله ـ تعالى ـ فإنه يُجيب دعاءه ـ إن شاء الله تعالى.

٥ ـ عدم التسرع: فينبغى أن يكون طالب العلم متأملاً فى جميع الأوقات فى دقائق

العلوم ويعتاد ذلك فإنما تدرك الدقائق بالتأمل.. ولهذا قيل: تأمل تُدرك.

وقال الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ لأحد تلاميذه: «أصلحك الله لا تكونن منك العجلة وتثبَّت فى الفتيا، فإن أنكرت شيئاً مما أذكره لك فسل عن تفسيره إن كنت مناصحاً فرُبَّ كلمة يسمعها الإنسان فيكرهُها فإذا أخذ بتفسيرها رضى بها، ولا تكونن كالذى يسمع الكلمة فيكرهها ثم يغتنمها إرادة الشين، فيذيعها فى الناس، ولا يقول: عسى أن يكون لهذه الكلمة تفسير ووجه عدل لا أعلمه، أفلا أسأل صاحبى عن تفسيرها؟ أو لعلها كلمة جرت على لسانه، ولم يتعمدها فينبغى لى أن أتثبت ولا أفضح صاحبى ولا أشينُه حتى أعلم وجه كلامه).

كلام منهجى نطق به إمام من أئمة المسلمين، أجدر بالمسلمين أن يتمسكوا به فى حياتهم وتعاملهم حتى تدُبَّ الأخوة وتعمَّ الصحبة وتبتعد الفرقة.

*** ثامناً: الثقة بالنفس:**

وهى أمر مهم لطالب العلم فبدونها تقصر الهمم، وتتقاعد وتتكاسل العزائم، وذلك آت من جهل حقيقة وهى: أنَّ العلم ليس شيئاً واحداً لا يتجزأ ولا يتبعض، وإنما هو بطبيعته يتجزأ ويتبعض، فمن علم مسألة وجهل أخرى فهو عالم بالأولى جاهل بالثانية. وذلك بيّن لمن درس حال الصحابة مع رسول الله ﷺ فمنهم من حمل عنه حديثاً واحداً ومنهم من حفظ عنه القرآن كله وحظاً كبيراً من السنة، ولكن مع هذا لابد من السعى من أجل الكمال والتكميل. إلا أنه لابد من تحصيل مبادئ العلوم التى لا يتم للمرء علم إلا بها.

شروط العلم وغاياته

إن غاية طلب العلم فى الإسلام مسألة لا يختلف فيها اثنان. ولكن نظراً لأهميتها سنبينها بشىء من التفصيل بعيداً عن التطويل إن شاء الله. ويسبقنا فى ذلك أبو يوسف ـ رحمه الله ـ ليبين هذه الغاية بقوله: (يا قوم أريدوا بعلمكم الله ـ تعالى ـ فإنى لم أجلس مجلساً قط أنوى فيه أن أعلو إلا لم أقم حتى أفتضح). والعلم من العبادات وقربة من القرب.. ولابد من حسن النية فى طلب العلم وذلك بأن يقصد به وجه الله تعالى والعمل له وإحياء الشريعة وتنوير القلوب. وقد أتى فى ذلك تحذيرات كثيرة، منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، حين قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أوَّل النَّاس يقضى يوم القيامة عليه، رجلٌ استشهد فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت ولكنَّك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل. ثمَّ أمر به فسحب على وجه حتى ألقى فى النَّار، ورجلٌ تعلَّم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمت العلم وعلَّمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت ولكنَّك تعلَّمت العلم ليقال: عالمٌ. وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ. فقد قيل. ثمَّ أمر به فسحب على وجهه حتَّى أُلقى فى النَّار، ورجلٌ وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كلِّه. فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها. فقال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحبُّ أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت ولكنَّك فعلت ليُقال هو جوادٌ. فقد قيل. ثمّ أمر به فسحب على وجهه. ثمَّ ألقى فى النَّار»[1].

لذلك كان على طالب العلم أن يعلم أنَّ الله ـ عز وجل، فرض عليه عبادته والعبادة لا تكون إلا بالعلم. ويعلم أن العلم فريضة عليه ويعلم أن المؤمن لا يحسن به الجهل فطلب العلم لينفى عن نفسه الجهل وليعبد الله ـ عز وجل ـ كما أمره وليس كما تهوى نفسه.. معتقداً الإخلاص فى سعيه لا يرى لنفسه الفضل فى سعيه، بل يرى لله ـ عز وجل ـ الفضل عليه إذا

(١)أخرجه مسلم (١٩٠٥)، والنسائى (٣١٣٧).

وفّقه لطلب علم ما يعبده من أداء فرائضه واجتناب محارمه. هذا كله حتى يتجنب النار.. وذلك لرواية أبى الزبير عن جابر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تعلّموا العلم لتباهوا به العلماء أو تماروا به السفهاء، ولا لتجترئوا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار»[(١)] .

والعلم الحقيقى هو العلم الذى يورث الخشية والمخافة من الله ولذلك قال مسروق فيما يروى عنه الأعمش عبد الله بن مرة: بحسب امرئٍ من العلم أن يخشى الله، وبحسب امرئٍ من الجهل أن يُعَجبَ بعلمه. لذا روى عون بن عبدالله قال عبد الله بن مسعود: (منهومان لا يشبعان: صاحب العلم وصاحب الدنيا، ولا يستويان، أما صاحب العلم فيزداد رضاً بالله، وأمَّا صاحب الدنيا فيزداد فى الطغيان) قال (أى عون ابن عبد الله): ثم قرأ عبد الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[(٢)] .

ثم قرأ للآخرة: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾[(٣)] . ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فهذا الكتاب الكونى الجميل الصفات العجيب التكوين والتلوين يفتحه القرآن ويقلب صفحاته ويقول: إن العلماء الذين يتلونه ويدركونه ويتدبرونه هم الذين يخشون الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾. وهذه الصفحات التى قبلها فى هذا الكتاب هى بعض صفحاته، والعلماء هم الذين يتدبرون هذا الكتاب العجيب ومن ثم يعرفون الله تعالى معرفة حقيقية: يعرفونه بآثار صفاته، ويدركون آثار قدرته ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه ومن ثم يخشونه حقاً ويتقونه حقاً ويعبدونه حقاً لا بالشعور الغامض الذى يحدده القلب أمام روعة الكون ولكن بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر. ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٩﴾[(٤)] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٥٤)، وحسنه الألبانى.

(٢) فاطر: ٢٨ .

(٣) العلق: ٦ ، ٧، وانظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٤٣٨)، بتحقيق سامى بن محمد السلامة.

(٤) العنكبوت: ٤٩.

فهو (أى الإيمان) دلائل واضحة فى صدور الذين وهبهم الله العلم لا لبس فيها ولا غموض ولا شبهة منها ولا ارتياب، دلائل يجدونها بينة فى صدورهم تطمئن إليها قلوبهم فلا تطلب عليها دليلاً.

لذلك كان حرص السلف عظيماً على تربية أبنائهم على تحرى الغاية والهدف من تعلم العلم، فكان أحدهم يوصى ابنه فيقول: (يا بنى لا تتعلم العلم لثلاث، ولا تدعه لثلاث.. لا تتعلمه لتمارى به، ولا للتباهى به، ولا لترائى به.. ولا تدعه زهادة فيه، ولا حياءً من الناس، ولا رضاً بالجهالة). بهذه الوصايا كان الأب يربى ابنه.. لذلك كان يخرج فاهماً واعياً لهذا المبدأ فينشد فيقول:

من طلب العلم للمعاد فاز بفضل من الرشاد

فيا لخسران طالبيه لنيل فضل من العباد

لذلك كان العلم الذى يمدح والعالم الذى يُزكى وجميع ما ذكر فى فضيلة العلم والعلماء، إنما هو فى حق العلماء العاملين الأبرار المتقين، الذين قصدوا به وجه الله الكريم والزلفى لديه فى جنات النعيم.. لا من طلب بسوء نية أو خبث طوية أو لأغراض دنيوية: من جاه أو مال أو مكاثرة فى الأتباع والطلاب.. وقد قال ﷺ: «من تعلَّم علماً مما يبتغى به وجهُ الله ـ تعالى ـ لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة»[1].

لذلك قال الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله: اعلم أنَّ العمل تبعٌ للعلم كما أنَّ الأعضاء تبعٌ للبصر، والعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير، ومثل ذلك الزاد القليل الذى لابد منه فى المفازة مع الهداية بها أنفع من الجهالة مع الزاد الكثير، ولذلك قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾[2].

وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[3]،

(١)أخرجه أبو داود (٣٦٦٤) ،وابن ماجه (٢٥٢) ،وأحمد (٢/ ٣٣٨)، وصححه الألبانى .
(٢)الزمر : ٩ .
(٣)فصلت : ٣٣.

حيث إن كلمة الدعوة هى أحسن كلمة تقال فى الأرض وتصعد فى مقدمة الكلم الطيب إلى السماء، ولكن مع العمل الصالح الذى يصدِّق الكلمة.

ومع الاستسلام لله ـ تعالى ـ الذى تتوارى معه الذات فتصبح الدعوة خالصة لله ليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ.

وهذا أمر جل أن ننتبه إليه كما انتبه إليه رسول الله ﷺ فقال: «اللهم إنى أعوذ بك من قلب لا يخشعُ، ودعاء لا يُسمعُ، ومن نفس لا تشبعُ، ومن علمٍ لا ينفعُ، أعوذ بك من هؤلاء الأربع»[1]... وانطلاقاً من هذا الحديث تكلم مكحول فقال: (اللهم انفعنا بالعلم، وزيِّنا بالحلم وجمِّلنا بالعافية).. نعم فليس شيء أنفع من علم ينفع وليس شى أضر من علم لا ينفع كما قال سفيان بن عُيينة ـ رحمه الله، وهذا الحرص من السلف ـ رضوان الله عليهم ـ على اصطحاب العمل للعلم لم يكن إلا نتيجة لخشيتهم الله ـ تبارك وتعالى، وموقفهم بين يديه، لعلمهم بالحديث الذى قال فيه ﷺ: «لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»[2].

نعم لن يكون هناك تحرك إلا بعد هذا السؤال الذى قلَّما التفتنا إليه فيا للموقف ويا للسؤال!! وكان الصحابة على علم يقين بهذا الموقف، لذلك نطق أحدهم، وهو عبد الله بن مسعود بكلمات يتم بعدها وضوح الأمر فقال: والله ما منكم من أحدٍ إلا وإن ربَّه سيخلو به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ثم يقول: (يا ابن آدم ما غرَّك بى؟ ثلاث مرات. ماذا أجبت المرسلين؟ كيف عملت فيما علمت؟).. وبعد مرور الأيام والسنين أتى الإمام الشاطبى ـ رحمه الله ـ ليذكِّر بهذا الأمر فقال فى المقدمة الثامنة: (العلم الذى هو العلم المتعبَّد به شرعاً، أعنى الذى مدح الله ورسوله أهله على الإطلاق هو العلم الباعث على العمل، الذى لا يخلّى صاحبه جارياً مع هواه كيفما كان، بل هو المقيَّد لصاحبه مقتضاه الحال له على

---

(١)أخرجه أبو داود (١٥٤٨) ، والنسائى (٥٥٣٦) ،وابن ماجه (٣٨٣٧)، وصححه الألبانى.

(٢)أخرجه الترمذى (٢٤١٧)، وصححه الألبانى .

قوانينه طوعاً أو كرهاً).

وهذا محمد بن أبى على الأصبهانى يبين لنا ضرورة العمل بالعلم فيقول:

اعمل بعلمك تغنـم أيها الرجـل ... لا ينفع العلم إن لـم يحسن العمـل

والعلم زينٌ وتقـــوى الله زينتـه ... والمتقون لهـم فـى علمهـم شغـل

وحجة الله يـا ذا العلـــم بالغـة ... لا المكر ينفع فيهــا لا ولا الحيــلُ

تعلم العلم واعمل ما استطعت به ... لا يُلهينَّك عنـــه اللهـو والجـــدلُ

وعلى هذا فالعلم لابد له من العمل وإلا فلا جدوى ولا فائدة من هذا العلـم، وبـه قـال سفيان الثورى ـ رحمه الله: (يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل)، وهـذا أبـو الـدرداء يقال:(لا تكون تقياً حتى تكون عالماً، ولا تكون بالعلم جميلاً حتى تكون به عاملاً).

ومن لم يعمل بعلمه فأرثه أن الدنيا قد لعبت به وأرحمهُ كما رحمهُ الفضيل ابن عياض مـن قبل حين قال: (إنى لأرحم ثلاثة: عزيـز قـوم قـد ذل، وغنـى قـوم افتقـر، وعالماً تلعـب بـه الدنيا)؛ لأنه مات قلبه حين طلب الدنيا بعمل الآخرة، وذلك هو ما عناه الحسن حين قال: (عقوبة العلماء موت القلب، وموت القلب طلب الدنيا بعمـل الآخـرة). وفى عقوبـة ذلـك العالم روى أسـامة بـن زيـد روايـة تقشعرُّ منهـا الجلـود حين قـال: سـمعت رسـول الله ﷺ يقول: «يُؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتنـدلقُ أقتـاب بطنـه فيـدور بهـا كـما يـدور الحمار بالرّحى، فيجتمع إليه أهلُ النـار فيقولـون: يـا فـلان مـا لـك ألم تكـن تـأمر بـالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهـى عـن المنكـر وآتيـه»[١]، وما كان لهذا الرجل وأمثاله إلا أنهم علت هممهم فى أول الأمر فحصلوا علـوم الـشرع مـن القـرآن والحـديث والفقـه والأدب، وغـير ذلـك: فأتـاهم إبلـيس بخفـى التلبـيس فـأراهم أنفسهم بعـين عظمـة، لما نـالوا وأفـادوا غـيرهم، فقـال لهـم: إلى متـى هـذا التعـب فـأريحوا جوارحكم من كلف التكليف وافسحوا لأنفسكم فى مشتهاها فـإن وقعـتم فى زلـة فـالعلم

(١)أخرجه البخارى (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

يدفع عنكم العقوبة ثم يورد عليه فضل العلماء.

وهؤلاء هم علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا، قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقًّا كانوا أول المستجيبين له، فهم فى الصورة أولياء وفى الحقيقة قطاع طرق وهؤلاء مثلهم كمثل صخرة وقعت على فم النهر لا هى تشرب الماء ولا هى تترك الماء يخلص إلى الزرع، ومثلهم كذلك مثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى. وقيل: إنه كان رجل ذا مال لم يسمع بعالم إلا أتاه حتى يقتبس منه فسمع أنَّ فى موضع كذا وكذا عالماً، فركب السفينة وفيها امرأة فقالت: ما أمرُك يا هذا؟ قال: إنى مشغوف بحب العلم، فسمعت أن فى موضع كذا عالماً آتيه، قالت: يا هذا كلما زيد فى علمك يزيد فى عملك أو تزيد فى علمك والعمل موقوف؟ ! فانتبه الرجل ورجع وأخذ فى العمل.

الله أكبر. أين مدرس اليوم وموجِّه الأجيال من هذه المحاذير والأقوال؟ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [(١)] ... وعلى هذا فما أحوجنا نحن اليوم إلى همة فى تنفيذ العلم كهمة أبى ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى تستقيم الأمور حين قال: (لو وضعتم الصمصامة ـ السيف الصارم ـ على هذه ـ وأشار إلى قفاه ـ ثم ظننت أنى أنفذ كلمة سمعتها من النبى ﷺ قبل أن تجهزوا علىَّ لأنفذتها) [(٢)]. نعم فهذا طريق تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورُمى فى النار الخليل، واضطجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس ولبث فى السجن بضع سنين، ونشر بالمنشار زكريا، وذُبح السيد الحصور يحيى، وقاسى الضر أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ـ صلى الله عليهم جميعاً وسلم تسليماً كثيراً.

*** خطر من بابين:**

إن العالم الذى لا يعمل بعلمه، والعابد الذى يعبد الله على غير علم من الله، من أكبر

---

(١) ق : ٣٧.

(٢) أخرجه البخارى معلقًا (فتح البارى ١/ ١٣٠).

المفاسد التى تقع فيها الأمة. وما ضياع الأخلاق وانتشار البدع إلا من وجود هذين الصنفين، لذلك كان سفيان الثورى ـ رحمه الله ـ يستعيذ منهما ويقول: (نعوذ بالله من فتنة العابد الجاهل، وفتنة العالم الفاجر؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون).. وفى ذلك أنشد أحدهم فقال:

فسادٌ كبير عالـم متهتـك   وأكبر منه جاهل متنسك

هما فتنة فى العالمين عظيمة   لمن بهما فى دينه يتمسك

نعم وأى ضلالة أكبر من أن يتبع الإنسان فى دينه عالماً متهتكاً يبيع دينه بدراهم معدودة.... فكم من فتوى فى إحلال حرام خرجت منه ؟! وكم كلمة تحريم يطلقها على أمور أحلها الله مقابل هوى فى نفسه أو دينار مدفوع له؟! وليس ذلك أهون من أن يتبع الإنسان فى زهده وتعبده لله، جاهلاً بأمور الإسلام، متعبداً لله فى ظنه وهو أشد المنحرفين، وعن هذا الوضع أخبر الرسول ﷺ فى حديث البخارى: عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه كان يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله لا يقبضُ العلم انتزاعاً ينتزعُهُ من الناس، ولكن يقبضُ العلم بقبض العلماء حتّى إذا لم يبق عالماً اتّخذ الناس رؤساء جُهَّالاً فأفتوا بغير علمٍ، فضلُّوا وأضلَّوا»[1].

* **الأدب مع العلم :**

للأدب مكانة فى الإسلام لا تخفى على أحد ممن سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنَّما بُعثتُ لأتمِّم مكارم الأخلاق»[2]. وامتداح الله ـ تبارك وتعالى ـ لإمام الهدى فى قوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾[3]... لذلك قال ابن سيرين مبيناً حال السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم: (كانوا يتعلمون الهدى كما يتعلمون العلم). والهدى هى السيرة والهيئة والطريقة، وهذا لا يستبعد عن أُناس كان يقول عنهم الحسن البصرى: إنه كان الرجل

(١)أخرجه البخارى (١٠٠) ،ومسلم (٢٦٧٣).

(٢)تقدم تخريجه.

(٣)القلم : ٤.

ليخرج فى أدبٍ واحدٍ السنتين والسنين. وعلى هذا كانت وصية حبيب بن الشهيد وهو من الفقهاء لابنه: (يا بُنى اصحب الفقهاء والعلماء وتعلم منهم وخذ من أدبهم فإنه أحبُّ إلى من كثير من الحديث).

وهذا ليس كلام الفقهاء وحدهم، إنما كلام أهل الحديث فاسمع مخلد بن الحسن وهو ثقة روى عنه ابن المبارك، وهو يقول لابن المبارك: (نحن إلى كثير من الأدب أحوج منا إلى كثير من حديث).. نعم إلى كثير من الأدب أحوج.. وخصوصاً فى هذه الأيام التى اشتياقنا فيها إلى الأدب لا يقل عن شوق الشافعى، حين قيل له: كيف شهوتك للأدب؟ فقال: أسمعُ بالحرف منه مما لم أسمعه، فتودّ أعضائى أنَّ لها أسماعاً فتنعم به.. وقيل له: وكيف طلبك له؟.. قال: طلب المرأة المضلة ولدها وليس لها غيره.. لهذا الأمر العظيم الخاص بالأدب كان العلماء حريصين على التحلى بالأدب وتعليم من بعدهم من العلماء. وذلك ما فعله معلم العلماء رسول الهدى ﷺحين قال فيما يرويه البخارى عن ابن عباس فى الأدب المفرد: «علِّموا ويسِّروا ولا تعسروا»[1]. والتيسير وعدم التعسير لا يكون إلا عندما يختلط الأدب مع العلم.

*** الحلم من الأدب:**

وأى أدب أفضل من الحلم... فعن عطاء بن يسار قال: «ما أوى شىء إلى شىء أزين من حلم إلى علم». ووضَّح هذا القول إبراهيم بن أدهم حين قال: «ما من شىء أشد على الشيطان من عالم حليم، إذا تكلم تكلم بعلم، وإن سكت سكت بحلم ، يقول الشيطان: انظروا إليه كلامه أشدُّ عليَّ من سكوته».

فالعلم والحلم خلقا كرم   للمرء زين إذا هما اجتمعا

فكم من وضيع سما به العلم والحلم. فنال السمو وارتفع حيث يكثر جلساؤه وتكثر الأيدى المرتفعة إلى الله تدعوه أن يغفر له ويبارك فى علمه وأدبه... نعم هذا الصنف أمر

(١)تقدم تخريجه.

الأنبياء والصالحون بمجالستهم، قال عيسى عليه السلام: «جالسوا من تذكركم بالله رؤيتهُ، ومن يزيد فى علمكم منطقهُ، ومن يُرغِّبكم فى الآخرة عملهُ».

آداب متفرقة

وهى ما بينها أبو حامد الغزالى ـ رحمه الله ـ فى صفات العالم، يقول فى كتاب (الأدب فى الدين) ما مثاله:

(يقصد الصدق ويتجنب الكذب، ويحدِّث بالمشهور ويروى عن الثِّقات، ويترك المناكير ولا يذكر ما جرى بين السلف، ويعرف الزمان، ويتحفظ من الذلل والتصحيف واللحن والتحريف ويدع المداعبة، ويُقلُّ المشاغبة، ويشكر النعمة إذ جعل فى درجة الرسول ﷺ، ويلزم التواضع ويكون معظم ما يحدِّث به نفسه ما ينتفع المسلمون به من فرائضهم وسننهم وآدابهم وفى معانى كتاب ربهم ـ عزوجل) ... الله أكبر كل هذا فى راوى حديث رسول الله ﷺ فكيف بمن يحمل دعوة الرسول ﷺ ويبلغها للناس لينقلهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد؟

هذا هو الأدب فى عمومه الذى يجب أن يتحلّى به المسلم عالماً كان أم متعلماً.

وفى السطور القادمة سنبين ـ إن شاء الله ـ تفصيل آداب العالم والمتعلم من نواحيه المختلفة، وسنبدأ بعون الله ـ تعالى ـ بآداب العالم..

آداب العالم

أولاً: آدابه مع نفسه:

(أ) مراقبة الله تعالى:

وخير أدب يجب أن يتحلى به دوام مراقبة الله تعالى فى السر والعلن والمحافظة على خوفه فى جميع حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله، فإنه أمين على ما أودع من العلوم وما منح من الحواس.. وذلك مفهوم قوله تعالى: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [1].

(ب) مراقبة النفس:

عليه أن يحترس من نفسه ويقف على ما أشكل عليه.. وذلك بأن يحافظ على القيام بشعائر الإسلام وظواهر الأحكام... كإقامة الصلاة فى المساجد جماعة، وإفشاء السلام للخواصِّ والعوامِّ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والصبر على الأذى فى سبيل ذلك، صادعاً باذلاً نفسه لله لا يخاف فيه لومة لائم، ذاكراً قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [2]. محافظاً على المندوبات الشرعية: القولية والفعلية، فيلازم تلاوة القرآن ويذكر الله تعالى بالقلب واللسان، وكذلك ما ورد من الدعوات والأذكار فى آناء الليل والنهار ومن نوافل العبادات من صلاة وصيام وحج البيت الحرام والصلاة على النبى ﷺ.

(جـ) الانتفاع بالوقت:

كما أنه لا يضيع شيئاً من أوقات عمره فى غير ما هو بصدده من العلم والعمل... إلا بقدر الضرورة من أكل أو شرب أو نوم أو استراحة من الملل أو أداء حق الزوجة أو زائر أو تحصيل قوت وغيره مما يحتاج إليه، أو لألم أو غيره مما يتعذر معه الاشتغال بالعلم. وكان

---

(١) الأنفال: ٢٧.

(٢) لقمان: ١٧.

بعض السلف لا يترك الاشتغال بالعلم لعروض مرض خفيف أو ألم يطيقه، بل كان يستشفى بالعلم ويشتغل بقدر الإمكان وفى ذلك ينشد أحدهم:

إذا مرضنا تداوينا بذكركم   ونترك الذكر إخلالاً فننتكس

(د) الإنصاف:

وهو من أجمل ما يتحلى به العالم مع نفسه، حيث إنه أقل ما ينبغى أن يوجد فى العالم كما قال الإمام مالك بن أنس:(ما فى زماننا أقل ما ينبغى من الإنصاف). ومن نهج السلف فى الإنصاف فى العلم ما رواه محمد بن كعب القرظى، قال: (سأل رجل عليًا عن مسألة فقال فيها، فقال الرجل: ليس كذلك يا أمير المؤمنين ولكن كذا وكذا.. فقال على ﵁ أصبت وأخطأت، وفوق كل ذى علم عليم). وما قاله عبد الرحمن بن مهدى: (ذاكرتُ عبد الله بن الحسين القاضى بحديث وهو يومئذٍ قاض فخالفنى فيه فدخلت عليه وعنده الناس سماطان فقال لى: ذلك الحديث كما قلت أنت وأرجع أنا هنا).

(هـ) علاقته بالدنيا:

وعليه ألا يطلب الدنيا بعلمه، والدنيا والعلم كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ بقدر ما نصب منه فى الآخر حتى يمتلئ يفرغ الآخر، لذلك قال يحيى بن معاذ:(إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلب بها الدنيا).وكتب رجل إلى أخ له:(إنك قد أوتيت علماً فلا تطفئن نور علمك بظُلمة الذنوب فتبقى فى الظلمة يوم يسعى أهل العلم فى نور علمهم)، وعلماء الدنيا يخاطبهم يحيى بن معاذ الرازى - رحمه الله - فيقول:(يا أصحاب العلم قصوركم قيصرية وبيوتكم كسروية،وأثوابكم ظاهرية،وأخفافكم جالوتية،ومراكبكم قارونية وآنيتكم فرعونية، ومآتمكم جاهلية، ومذاهبكم شيطانية فأين الشريعة المحمدية).. أعاذنا الله من ذلك ثم انظر ما أجمل رد الحسن حين حمل إليه رجل من خراسان كيساً بعد انصرافه من مجلسه فيه خمسة آلاف درهم وعشرة أثواب من رقيق البز:(يا أبا سعيد هذه نفقة وهذة كسوة) فقال الحسن: «عافاك الله تعالى ضم إليك نفقتك وكسوتك فلا حاجة لنا بذلك، إنه

من جلس مثل مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله تعالى يوم القيامة ولا خلاق له».

وهذا لا يمنع من كان موثوقاً به من العلماء أن يقبل ما أهدى إليه وينفقه في مصالح المسلمين، فقد قبل الصحابة مثل ذلك وأنفقوه وإنما كان الحسن يقصد الانتفاع به لشخصه واتخاذ هذا الأمر طريقاً للثراء.

وعلى العالم كذلك أن يترفع عن أبواب الملوك إلا ناصحاً آخذاً بحديث رسول الله ﷺ:«إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع»، قالوا: يا رسول الله ألا نقاتلهم؟ قال:« لا ما صلّوا »[1] .

ومن زهد بالعلم لأجل الدنيا فليسمع عيسى \ يقول:(يا معشر القراء والعلماء كيف تضلّون بعد علمكم أو تعمون بعد بصركم من أجل دنيا دنيَّة، وشهوة ردية، فلكم الويل منها، ولها الويل منكم).

(و) عناية العالم بمظهره الخارجي:

والعالم في مظهره يُحبَّذ له إذا عزم على مجلس التدريس التطهرُ من الحدث والخبث، والتنظيف والتطيب ولبسُ أحسن ثيابه اللائقة به بين أهل زمانه، قاصداً بذلك تعظيم العلم، وتبجيل الشريعة، وفي ذلك تطبيق حديث رسول الله ﷺ: «إن الله جميل يحبُّ الجمال»[2]، فهو يتناول جمال الثياب ويدخل فيه بطريق العموم الجمال في كل شيء. وفي الصحيح : «إنَّ الله طيِّبٌ لا يقبلُ إلاَّ طيباً»[3]. ولمحبته سبحانه للجمال، أنزل على عباده لباساً وزينة تجمَّل بواطنهم، فقال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾[4]، وقال في أهل الجنة: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ١١ وَجَزَىٰهُم

---

(١)أخرجه مسلم (١٨٥٤)، وأبو داود (٤٧٦٠) ،والترمذي (٢٢٦٥)، وأحمد (٦/ ٢٩٥).
(٢)أخرجه مسلم (٩١) والترمذي (١٩٩٩)، وأحمد (٤/ ١٣٣).
(٣)أخرجه مسلم (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩)، وأحمد (٢/ ٣٢٨).
(٤)الأعراف : ٢٦.

بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [1]. فجمَّل وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالسرور وأبدانهم بالحرير، وهو ـ سبحانه ـ كما يحب الجمال فى الأقوال والأفعال والثياب والهيئة يبغض القبح وأهله ويحب الجمال وأهله.

ثانياً: آدابه مع غيره:

(أ) استشعار ضخامة الأمر:

عليه فى بداية تشميره أن يستشعر قولة عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين استلم الخلافة من بعد ما أصابها من أمور خارجة عن الطبيعة التى كانت على سمت الخلفاء الراشدين: (إنى أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله، قد فنى عليه الكبير وكبر عليه الصغير وفصح عليه الأعجمى، وهاجر عليه الأعرابى، حتى حسبوه ديناً لا يرون الحق غيره).

(ب) التمتع بمكارم الأخلاق:

وحتى يؤلف قلوب الناس عليه أن يعاملهم بمكارم الأخلاق من طلاقة الوجه وإفشاء السلام وإطعام الطعام، وكظم الغيظ، وكفِّ الأذى واحتماله فيهم الإيثار وترك الاستئثار، وشكر التفضل وإيجاد الراحة والسعى فى قضاء الحاجات وبذل الجاه فى الشفاعات والتلطف بالفقراء والتحبُّب إلى الجيران والأقرباء والرفق بالطلبة وإعانتهم وبرِّهم ويبتعد معهم عن أسباب النزاع والشقاق، وأن يُبعدهم عن ازدراء الآخرين والعيب عليهم ويعودهم نظافة القلب ونظافة اللسان، ويزجرهم عن سوء الأخلاق بطريق التلميح أولاً، فإن لم يفد اتبع معهم أسلوب التصريح ولكن مع العطف والرحمة والمودة إن نفع، وإلا فبالشدة، وهو فى ذلك تلميذ لعبد الله بن مسعود حين قال لأصحابه: (كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سرج الليل، جدد القلوب، تعرفون فى السماء وتخفون على أهل الأرض). إلا لمصلحة تقتضيها الدعوة إلى الله.

---

(١)الإنسان: ١١، ١٢.

(جـ) الحرص على التعليم:

ألا يمتنع العالم عن تعليم أحد منهم علماً أو بحثاً إذا أنس منه الفهم... وأن يتدرج معه فى تفهيمه وأن يذكر له قواعد الفن وضوابطه التى لا تخرجهُ مطلقاً أو غالباً... مع مستثنياتها إن كانت موجودة... وأن يبدأ بعدئذ بالأمور المتفرعة عن تلك القواعد.. فيصور له المسألة ثم يوضحها بالأمثلة والشواهد ليقربها إلى ذهن الطالب، وأن يقتصر على قدر يفهمه بنفسه فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفِّره أو يختلط عليه عقله، لذلك قيل: (كل لكل عبد بمعيار عقله وزن له بميزان فهمه، حتى تسلم منه وينتفع بك، وإلاَّ وقع الإنكار، لتفاوت المعيار)؛ لذلك قال أحد العلماء لمن سأله فى مسألة ولم يجب فأنكر عليه السائل، فقال العالم معلِّلاً عدم إجابته بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ [1]، تنبيهاً على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى.

ثالثاً: آدابه فى درسه:

(أ) ذكر الله تعالى:

على العالم أن يفتتح مجلسه ويختمه بحمد الله تعالى والصلاة على النبى ﷺ: «ما من قوم يقومون من مجلسٍ لا يذكرون الله فيه إلا قاموا على مثل جيفة حمارٍ، وكان عليهم حسرةً يوم القيامة»[2].

عن النبى ﷺ أنه قال: «ما جلس قومٌ مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يُصلُّوا على نبيِّهم إلاَّ كان عليهم ترةً، فإن شاءَ عذَّبهم، وإن شاء غفر لهم به»[3].

وفى بعض الأحيان يكون هناك دعاء يليق بالحال بعد قراءة قارئ حسن الصوت شيئاً من القرآن العظيم، فقد روى الحاكم فى المستدرك عن أبى سعيد قال:(كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا تذاكروا العلم وقرأوا سورة).

---

(١)النساء :٥.

(٢)أخرجه أبو داود (٤٨٥٥) والنسائى فى الكبرى (١٠٢٣٦)، وأحمد (٢/ ٥١٥)، وصححه الألبانى .

(٣)أخرجه الترمذى (٣٣٨٠)، وأحمد (٢/ ٤٥٣)، وصححه الألبانى.

(ب) الموازنة فى الصوت:

وعلى العالم تأسِّياً برسول الله ﷺ ألا يرفع صوته زائداً على قدر الحاجة ولا يخفضه خفضاً لا يحصل معه كمال الفائدة، حيث إن الأولى ألا يجاوز صوته مجلسه ولايقصر عن إسماع الحاضرين، إلا إن احتيج إلى ذلك لسبب ما، كما روى عبد الله ابن عمرو حين قال: تخلَّف عنَّا النبيُّ ﷺ فى سفرةٍ سافرناها، فأدركنا وقد أرهقتنا الصَّلاة ونحنُ نتوضَّأ فجعلنا نمسحُ على أرجُلنا فنادى بأعلى صوته «ويلٌ للأعقاب من النَّار» مرَّتين أو ثلاثاً[(١)]. فانظر كيف احتاج الأمر إلى رفع الصوت فالأمر مستعجل، والجمع كثير منتشرون، فاحتاج المقام إلى ذلك،كما أنه إذا حضر فيهم ثقيل السمع فلا بأس أن يُعلى صوته بقدر ما يسمعه.

(جـ) الترتيل والإعادة:

وحتى تتم الفائدة عليه ألا يسرد الكلام سرداً عليه أن يرتله ويرتبه ويتمهل فيه ليفكر فيه هو وسامعه... وقد روى أن كلام رسول الله ﷺ كان فصلاً يفهمه من سمعه ـ وأنه إذا تكلم بكلمة قالها ثلاثاً لتفهم عنه.

وتحديث الناس بما عقلوا حتى لا يفتنوا كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: (ما أنت محدِّثٌ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) [(٢)]... ولم لا يكون فتنة إذا كان معلوماً أن الإنسان له حدود معينة فى الفهم، وهناك فرق فى عملية الاستيعاب، فربما أخطأ إنسان فهم الفتوى فأفتى وفق فهمه الخاطئ فضلَّ وأضلّ... لذلك أتى تحذير على رضي الله عنه: «حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبُّون أن يكذَّب الله ورسوله؟»[(٣)].

(د) اختيار الوقت المناسب لتبليغ العلم:

وذلك ما رواه البخارى عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: (حدِّث الناس كل جمعة مرة فإن أبيت فمرتين فإن أكثرت فثلاث مرات، ولا تُمِلَّ الناس هذا القرآن، ولا تأت

---

(١)أخرجه البخارى (٦٠) ،ومسلم (٢٤١).
(٢)أخرجه مسلم فى المقدمة (٥) .
(٣)أخرجه البخارى (١٢٧).

القوم وهم فى حديث فتقطع عليهم حديثهم، ولكن أنصت فإذا أمروك فحدِّثهم وهم يشتهونه) [١].

(هـ) كراهية الفتوى:

إذا علم أن غيره يكفيه، ولم لا وهى أمانة سيُسأل عنها يوم القيامة وسيتناقلها الناس ويسيرون على تبيانها، ولهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يتحرجون من الإجابة عند وجود من يكفيهم. وهذا ما قاله عبد الرحمن بن أبى ليلى وهو تابعى جليل، اتفقوا على توثيقه وإجلاله، قال: (أدركت عشرين ومائة من أصحاب النبى ﷺ من الأنصار إذا سُئل أحدهم عن الشىء أحب أن يكفيه صاحبه).

وقد روى مالك عن يحيى بن سعيد أنه قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن كل من أفتى الناس فى كل ما يسألونه عنه لمجنون)، وقال سحنون بن سعيد: (أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً، يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أن الحق كله فيه)، فيالله ما أجسر الناس فى وقتنا هذا وهم فى عصر من أقل العصور علماً ومع ذلك فهم من أكثر الناس فتياً فترى الغلام ولم يبلغ سن الرشد بعد، يفتى لهذا، ويخطِّئ هذا ويطعن فى دين ذاك نسأل الله العافية.

فليرجع مراهقوا العلم إلى ما كان عليه السلف ـ رضوان الله عليهم ـ من الورع والتثُّبت وأن يعوا الأدب التالى:

(و) عدم الاستحياء من إجابة بـ«لا أدرى»:

ذلك لأن «لا أدرى» نصف العلم. ومن قال: لا أدرى فقد أفتى. وهذا ليس بدعاً من الأمر بل من نهج الرسول ﷺ فعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله أيُّ البلدان شر؟ قال: «لا أدرى» فلما أتاه جبريل عليه السلام قال: «يا جبريل أيُّ البلدان شر؟ قال: لا أدرى حتى أسأل ربِّى عزوجل»، فانطلق جبريل عليه

---

(١)أخرجه البخارى (٦٣٣٧).

السلام ثم مكث ما شاء الله أن يمكث فقال:«يا محمد إنك سألتنى أىّ البلدان شر فقلت: لا أدرى، وإنى سألت ربى ـ عز وجل ـ أى البلدان شر فقال: أسواقُها»[(١)].

(ز) عدم التعجل بالإجابة:

فيكون فى إجابته متصفاً بصفات العلماء الذين كانوا إذا سُئل أحدهم عن المسألة فكأنما يقلع ضرسه ، وبهذا قال أبو حفص النيسابورى: العالم هو الذى يخاف عند السؤال أن يُقال له يوم القيامة: من أين أجبت؟

(حـ) ترحيب العالم بطلبته:

ينبغى للعالم أن يرفق بمن يقرأ عليه وأن يرحب به ويحسن إليه بحسب حاله فعن أبى هارون العبدى قال:(كنا نأتى أبا سعيد فيقول:مرحباً بوصية رسول الله ﷺ. إن رسول الله ﷺ قال: «إن الناس لكم تبعٌ، وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً»[(٢)].

ومن آثار الترحيب والاستفسار عن أحوال الغائبين فالعالم إذا غاب عنه بعض الطلبة أو ملازمى الحلقة غياباً زائداً عن العادة سأل عنهم وعن أحوالهم، فإن لم يُخبر عنهم بشىء أرسل إليهم أو قصد منازلهم بنفسه وذلك أفضل.. وإكرامهم كذلك، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: (أكرم الناس علىَّ جليسى الذى يتخطى رقاب الناس إلىَّ لو استطعتُ ألا يقع عليه الذباب لفعلت). وفى رواية: (إن الذباب ليقع عليه فيؤذينى).

وأن يشفق عليهم وأن يجريهم مجرى ابنه فعندما يزجر تلميذه عن خلق سيئ فعليه أن يعمد إلى أسلوب التعريض متأسياً برسول الله ﷺ حين صعد إلى المنبر معلماً للرهط الثلاثة الذى أتوا فسألوا عن عبادة الرسول ﷺ[(٣)] ويتَّبع ذلك ما أمكن وإن احتاج إلى المواجهة فلا بأس برحمة وبدون صراخ أو توبيخ، بل كما فعل الرسول ﷺ حين قال: «يا عبد الله لا تكن

---

(١)أخرجه أحمد (٤/ ٨١) وضعف إسناده الأرناؤوط .
(٢)أخرجه الترمذى (٢٦٥٠) ، وابن ماجه (٢٤٩) ،وضعفه الألبانى.
(٣)أخرجه البخارى (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) .

مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل»[١].

كما أن هناك ملاحظة للعالم وهى أن يمكث قليلاً بعد قيام الجماعة فإن ذلك فيه فوائد وآداب للعالم وطالب العلم.. ومن هذه الفوائد عدم مزاحمة الطلبة ومنها: إن كان فى نفس أحدهم بقايا سؤال سأله، كما يستحب إذا قام أن يدعو بما ورد به الحديث:«سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»[٢].

رابعاً: آدابه فى أخذ العلم:

أ ـ لا يمتنع من الأخذ من أى رتبة:

لذلك قال الحميدى وهو تلميذ الشافعى ـ رحمه الله:(صحبت الشافعى من مكة إلى مصر فكنت أستفيد منه المسائل وكان يستفيد منى الحديث، وبذلك قال الإمام أحمد بن حنبل: قال لنا الشافعى: أنتم أعلم بالحديث منى فإذا صحَّ عندكم الحديث فقولوا لنا حتى نأخذ به). كما أنه صح رواية جماعة من الصحابة عن التابعين.. وأبلغ من ذلك كله قراءة رسول الله ﷺ على أُبَىّ وقوله: «إنَّ الله أمرنى أن أقرأ عليك »[٣].

ب ـ وهو بذلك يسمع نصيحة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فى تعلمه: (تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم)؛ وبهذا قال الحسن: (الحلم وزير العلم والرفق أبوه والتواضع سرباله) ولذلك قيل:(إذا جمع العلم ثلاثاً تمت النعمة بها على المتعلم: الصبر والتواضع وحسن الخلق ما أجمعها من كلمات يتجمل العالم بها فى نفسه).

---

(١)أخرجه البخارى (١١٥٢)، والنسائى فى الكبرى (١٣٠٤) .

(٢)أخرجه أبو داود (٤٨٥٧).

(٣)أخرجه البخارى (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩).

آداب المتعلم

أولا: فى الدرس:

حيث يصون بدنه عن الزحف والتنقل عن مكانه، ويديه عن العبث والتشبيك بها، وعينيه عن تفريق النظر من غير حاجة ويتقى المزاح وكثرة الضحك، فإنه يُقلّل الهيبة ويُسقط الحشمة كما قيل (من مزح استُخفَّ به) ومَنْ أكثر من شىء عُرِفَ به..وأن يُنصت للسماع ويلزم الصمت بين يدى محدثه ولا يقول إلا أن يؤذن له؛ لأن ذلك تطفل عليه وإيذاء له، وبُعد عن الذوق السليم والأدب، ولذلك قالﷺ:«لا يحلُ لرجل أن يُفرِّق بين اثنين إلا بإذنهما»[1].

لذلك قيل: إذا جمع المتعلم ثلاثاً تمت النعمة بها على المعلم: العقل والأدب وحسن الفهم. وعليه ألا يخوض فى أى فن من فنون العلم بل يراعى الترتيب ويبتدئ بالأهم.

ثانيا: مع العلم:

مما قيل: لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس، ولكن بضيق العيش وخدمة العلماء ومن توقير العلم: عدم التعلق بالدنيا لذلك نادى حسنُ بن صالح طالبَ العلم: «إنك لا تفقه حتى لا تبالى فى يد من كانت الدنيا»، كما أنَّ طالب العلم يجب عليه ألاَّ يتعلق بزوجة ويترك العلم وليردد مع الإمام نجم الدين عمر بن محمد النسفى ما أنشد:

سلام على من تيمتنى بطرفها ... ولمعة خديها ولمحة طرفها

سبتنى وأصبتنى فتاة مليحة ... تحيرت الأوهام فى كُنه وصفها

فقلت: ذرينى واعذرينى فإننى ... شغفت بتحصيل العلوم وكشفها

ولى فى طلاب العلم والفضل والتقى ... غنى عن غناء الغانيات وعزفها

وليس المراد أن يهمل طالب العلم: الرزق والزوجة والأولاد، بل المراد ألا يشغل وقته بهذه الأمور إلا بمقدار يصرف جُلَّ اهتمامه إلى العلم والفقه.

---

(١)أخرجه أبو داود (٤٨٤٥)، والترمذى (٢٧٥٢)، وأحمد (٢/ ٢١٣)،وقال الألبانى: «حسن صحيح».

وعليه ألاَّ يتكلف فى كلامه بأن يحاول أن يكون فصيحاً وهو لا يُحسن ذلك وليس عادة له، كما يطلب منه ألا يبحث عن الأغلوطات ليجعلها مدار حديثه مع غيره، فإنَّ ذلك مما نهى عنه الشرع منعاً للمسلم من انتحال صفة ليست له، لذا قال ﷺ: «وإنَّ أبغضكم إليَّ وأبعدكم منِّى مجلساً يوم القيامة: الثَّرثارُونَ، والمتشدِّقون والمتفيهقُون»[1].

* والثرثارون: هم الذين يتكلفون كثرة الكلام.

* والمتشدقون: هم المتطاولون على الناس بكلامهم.

* والمتفيهقون: أصله من الفهق وهو الامتلاء، وهم الذين يتكلمون بملء أفواههم ويتوسعون فى الكلام، وذلك تكبيراً وارتفاعاً وإظهاراً لفضلهم على غيرهم، وقد قال ﷺ: «هلك المتنطِّعون» قالها ثلاثاً[2].

والتنطع: التكلف والمبالغة والزيادة عن الحد. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (نُهينا عن التكلف).

ثالثا: الآداب مع الشيخ:

وكما كان الشيوخ يُقدِّرون الأكفاء ممن سيحملون عنهم أماناتِ الله، كان التلاميذ ينظرون إلى شيوخهم، نظرة الصالحين فى الأمم الخالية إلى أنبيائهم، لموضع الأمانة من نفوس هؤلاء وهؤلاء، وتاريخ السلف ـ رضوان الله عليهم ـ يشهد بذلك وأكثر من ذلك، فعلى التلميذ طالب العلم الصبر على جفاء شيخه، وأن يعتنى بالمهم، ولا يضيع وقته فى الاستكثار من الشيوخ لمجرد اسم الكثر. وأن يتخذ وصية على كرم الله وجهه، حين قال: «من حق العالم عليك: أن تسلم على القوم عامة، وتخصه بالتحية وأن تجلس أمامه، ولا تشيرن عنده بيديك، ولا تعمد بعينيك غيره... وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته، ولا تشبع من طول صحبته كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شىء».

---

(١)أخرجه الترمذى (٢٠١٨)، وصححه الألبانى.

(٢)أخرجه مسلم (٢٦٧٠)، وأبو داود (٤٦٠٨)، وأحمد (١/ ٣٨٦) .

كما أنه لا ينبغى له أن يكرر سؤال ما تعلّمه ولا استفهام مافهمه فبذلك يضيع الزمان وربما يتضجر الشيخ. ومجالسة العلماء لها آداب قد غفل عنها الصغار والكبار مما دعا الحسن بن على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن يقول لابنه مؤدباً إياه: «يا بنى إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام، ولا تقطع على أحد حديثاً وإن طال حتى يُمسك».

ومن حسن الأدب مع العلماء عدم المماراة كما قال ميمون بن مهران:«لا تُمار من هو أعلم منك، فإذا فعلت ذلك خزن عنك علمه، ولا تضره شيئاً». حيث بالرفق يستطيع الإنسان أن يأخذ العلم من العلماء، وهذا ما بينه ابن جريج حين قال: «لم أستخرج الذى استخرجت من عطاء، إلا برفق به»؛ ذلك لأن المماراة مخالفة للتوقير. والتوقير من السنة كما قال طاوس، وإذا ذكر الشيخ شيئاً فلا يقل: هكذا قلت: أو خطر لى أو سمعت أو هكذا قال فلان إلا أن يعلم إيثار الشيخ ذلك.

وقد كان السلف يضعون عقاباً لطيفاً لمن ينحرف فى أدبه فيبعدونه، كما قال أحمد بن عمر بن الضحاك: «لا أحب أن يحضر مجلسى مبتدع ولا طعّان ولا لعّان ولا فاحش ولا بذىء ولا منحرف»، وطالب العلم عليه ألا يتعلل لعدم أخذ العلم من الشيخ بتقصيره وهذا ما قاله الخليل بن أحمد حين أنشد:

اعملْ بعلمى وإنْ قصَّرتُ فى عمل   ينفعك علمى ولا يضررك تقصيرى

وطالب العلم لاينال العلم ولا ينتفع به إلا بتعظيم العلم وأهله وتعظيم الأستاذ وتوقيره، فإنه كما قيل: ما وصل من وصل إلا بالحرمة،وما سقط إلا بترك الحرمة.. فطالب العلم إذا جالس العلماء جالسهم بأدب وتواضع فى نفسه وخفض صوته عن صوتهم ويكون أكثر سؤاله عن علم ما تعبَّده الله به، ويخبرهم أنه فقير إلى علم ما يسأل عنه فإذا استفاد منهم علماً أعلمهم: (إنى قد أفدتُ خيراً كثيراً)، ثم شكرهم على ذلك. وإن غضبوا عليه لم يغضب عليهم ونظر إلى السبب الذى من أجله غضبوا عليه، فرجع عنه واعتذر

إليهم ولا يُضجرهم بالسؤال، رفيق فى جميع أموره لا يناظرهم مناظرة من يريهم أنه أعلم منهم.

وإنما همته البحث لطلب الفائدة منهم مع حسن التلطف لهم.. ولا يجادل حتى يتعلم ما يزداد به عند الله فهما فى دينه.

وللعلماء والمعلمين منزلة من أرفع المنازل فى الإسلام بنصِّ قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «العلماء ورثة الأنبياء»(١)، ولم يرفعهم إلى هذه المنزلة الرفيعة إلا علمهم وعملهم به وتعليمهم وإرشادهم.

وهذا ما بينه ﷺ فقال: «مَنْ جاءَ مَسْجدى هذا لم يأته إلاَّ لخير يتعلَّمهُ أو يُعلِّمهُ فهوُ بمنزلة المُجاهد فى سبيل الله»(٢)، وقال: «ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله لهُ به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قومٌ فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونهُ بينهُم إلا نزلت عليهمُ السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عندهُ، ومن بطَّأ به عملهُ لم يُسرع به نسبهُ»(٣).

---

(١)أخرجه البخارى معلقًا (فتح البارى (١/ ١٣٠)، وأبو داود (٣٦٤١)،والترمذى (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

(٢)أخرجه ابن ماجه (٢٢٧)، وصححه الألبانى .

(٣)أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، والترمذى (٢٩٤٥)، وابن ماجه (٢٢٥)، وأحمد (٢/ ٢٥٢) .

من صور تعظيم أهل العلم والعلماء

(أ) توقير العالم وأولاده ومن يتعلق به:

وذلك بينه العلماء فى سلوكهم:

فهذا واحد من كبار أئمة بخارى يجلس مجلس الدرس يقوم فى خلال الدرس أحياناً فسألوه عن ذلك، فقال: «إن ابن أستاذى يلعب مع الصبيان فى السكة، ويجىء أحياناً إلى باب المسجد فإذا رأيته أقوم له تعظيماً لأستاذى».

(ب) الصبر على جفوة الشيخ:

على طالب العلم أن يصبر على جفوة تصدر من شيخه أو سوء خلق، ولا يصده ذلك عن ملازمته، ويتأول أفعاله التى يظهر أن الصواب خلافها على أحسن تأويل ويبدأ هو عند جفوة الشيخ بالاعتذار والتوبة مما وقع، فإن ذلك أبقى لمودة الشيخ وأحفظ لقلبه وأنفع للطالب فى دنياه وآخرته، وإلا فاسمع أحدهم إذا أنشد:

فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه   واصبر لجهلك إن جفوت مُعلِّماً

ولم لا والفائدة عند الشيخ والخير بين شفتيه، وهذا أمر كان يفقهه العلماء، وينبه الإمام الشافعى ـ رحمه الله ـ فى روايته عن سفيان بن عُيينة حين قال: «قيل لسفيان: إن قوماً يأتونك من أقطار الأرض تغضب عليهم، يوشك أن يذهبوا ويتركوك فقال للقائل: هم حمقى إذن مثلك إن تركوا ما ينفعهم لسوء خلقى».

(جـ) الهيبة للشيخ:

وذلك كان حال السلف من قبل فها هو الشافعى يبين صورة الرهبة فيقول:

«كنت أصفح الورقة بين يدى مالك صفحاً رقيقاً هيبة لئلا يسمع وقعها»، ولهذا قال الربيع: «والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعى ينظر إلىَّ هيبةً له»؛ لذلك قيل: إنما ينتفع المتعلم بكلام العالم إذا كان فى المتعلم ثلاث خصال: التواضع، والحرص على التعلم، والتعظيم للعالم، فبتواضعه ينجح فيه العلم، وبحرصه يستخرج العلم، وبتعظيمه

يستعطف العالم.

وهذا سفيان الثورى ـ رحمه الله ـ يسمع بأن عالم أهل الشام الإمام عبد الرحمن ابن عمرو الأوزاعى قادم إلى مكة فيخرج سفيان يستقبل ضيفها الأوزاعى حتى لقيه بذى طوى فحلَّ رسن بعير الإمام من القطار ووضعه على رقبته فكان إذا مر بجماعة يشغلون الطريق قال: (الطريق للشيخ).

وكان من تقدير طالب العلم لشيخه أنه إذا ذهب إلى شيخه تصدَّقَ بشىء وقال: اللهم استر عيب شيخى عنى ولا تذهب علمه منى... وكل ذلك حتى لا يؤذى شيخه؛ لأنَّ من تأذى منه أستاذه يحرم بركة العلم ولا ينتفع به إلا قليل، كما يقول الشاعر:

إن المعلم والطبيب كليهما لا ينصحان إذا هما لم يُكْرما

كل هذا للعالم...فمن هذا العالم؟... أصبح الناس الآن يظنون أنَّ العالم هو من جمع المعلومات وخزنها فى دماغه فلا ينفق منها إلا إذا نال من الدنيا ما يقابلها: «تعس عبدُ الدينار وعبدُ الخميصة، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»[(١)]، وهذا من البلاء الذى حل بأُمتنا.... وحريٌّ بنا أن نسمع قول الإمام البصرى ـ رحمه الله ـ مبيناً من هو العالم حين يقول: (إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا، الراغب فى الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع الكاف عن أعراض الناس، العفيف عن أموالهم، الناصح لهم) وهذا ما عناه الإمام على رضي الله عنه وأرضاه فى قوله: «ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقه: من لم يقنِّط الناس من رحمة الله، ولم يُرخِّص لهم فى معاصى الله، ولم يؤمنهم مكر الله، ولم يترك القرآن إلى غيره، ولا خير فى عبارة ليس فيها تفقه، ولا خير فى تفقه ليس فيه تفهم ولا خير فى قراءة ليس فيها تدبر».

هذا العلم وهذا تحصيله وهذا فضله وما سيأتيك فكيفية تدوينه وكتابته.

*** الكتب فى الميزان:**

---

(١)أخرجه البخارى (٢٨٨٧)، وابن ماجه (٤١٣٦).

إن أعلى ما يعبر به الإنسان عن فكره وأحاسيسه هو الكلام بمجموع ألفاظ، مفردات وجملاً، وهو الوسيلة الأولى للخطاب ونشر العلم وكسب المعرفة والإنسان فى خطابه وعباراته المنطوقة أقوى على التعبير عما يريد وأفصح من محاولته ذلك بأى وسيلة أخرى، ويلى العبارة المنطوقة فى الإفصاح عن الفكر: العبارة المكتوبة، ومن ثم كان للكتابة عند الأمم جميعاً أثر بعيد، وكان لها الفضل الكبير فى حفظ تراث الأمم السابقة فى دواوين العلم... لذلك كان للكتب قيمة فعلية مبينة فى كتاب الله ـ تعالى ـ وسنة رسوله ﷺ لم تصل إليها كنوز المادة بصورها المختلفة. فعن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾[1] قال: «ما كان ذهباً ولا فضة». ولم لا يكون كنزاً وهو يقرأ فى كل مكان ويظهر ما فيه على كل لسان، وموجود فى كل زمان مع تفاوت الأعصار وبعد ما بنى الأمصار. وذلك أمر مستحيل فى واضع الكتاب والمنازع بالمسألة والجواب. فقد يذهب العالم وتبقى كتبه ويفنى العقل ويبقى أثره، ولولا ما رسمت لنا الأوائل فى كتبها وخلدت من فنون حكمها ودونت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بذلك ما غاب عنا، وأدركنا به ما بعد منا وجمعنا إلى كثيرهم قليلنا، وإلى جليلهم يسيرنا، وعرفنا ما لم نكن نعرفه إلا بهم وبلغنا الأمر الأقصى بقريب رسومهم ولهذا أنشد الشاعر فقال:

أرى العلماء أطولنا حياة ... وإن أضحوا زماناً فى القبور

أناس غيبوا وهم شهود ... بما ابتدعوه من علم خطير

كأنهم حضور وهى تجرى ... محاسن ذكرهم عند الحضور

لئن ملئت قبورهم ظلاماً ... فإنَّ ضياءهم ملء الصدور

ولهذه القيمة للكتب كان العقلاء يهتمون بها، فانظر مثلاً إلى المأمون حين رأى بعض ولده وبيده دفتر فقال: ما هذا يا بنى؟ قال: بعض ما يشحذ الفطنة ويؤنس فى الوحدة، فقال المأمون: «الحمد لله الذى رزقنى أحدًا من ذريتى يرى بعين عقله أكثر مما يرى بعين

(١) الكهف: ٨٢.

جسمه»، وقد كان المأمون يفهم هذه الأمور، لذلك كان يوصيهم فيقول لأحدهم :«اكتب أحسن ما تسمع، واحفظ ما تكتب، وحدث بأحسن ما تحفظ».

وقد كان الكتاب خير جليس لكلّ ذى عقل. وقد قيل لبعض أصحاب العقل: أما تستوحش؟ فقال: يستوحش من معه الأنس كله؟! قيل: وما الأنس كله؟ قال: الكتاب. وفى أحد المجالس قال بعض الوزراء: يا غلام ائتنى بأنس الخلوة ومجمع السلوة فظنَّ جلساؤه أنه يستدعى شراباً فأتاه بسفط فيه كتاب .. الله أكبر ما أجمله من أنيس تؤدبك عجائبه وتسرك طرائفه وتضحكك ملائحه ونوادره، وهو نزهة الأديب عند لذته ومتعته عند خلوته وتحفته عند نشاطه وأنسه عند انبساطه، ومستراحه من همه ومسلاته من غمه وعوضه من جليس السوء وسخف الأمانى ومستقبح الشهوات وهو روضة وبستان يده وأنيس يتقلب معه.

*** ومن فوائد النظر فى الكتب:**

أنها تعطى صفة الحكمة لصاحبها وذلك كما يقول عمرو بن العلاء: (ما دخلت على رجل قط ولا مررت ببابه فرأيته ينظر فى دفتر وجليسه فارغ إلا حكمت عليه واعتقدت أنه أفضل منه عقلاً)، كما أنه يساعد على الحفظ وذا ما بيّنه شيخ الحفاظ عبد الله محمد بن إسماعيل حين سئل عن دواء للحفظ فقال: «إدمان النظر فى الكتاب». لهذا كان محل الكتب من العالم محل الروح من الجسد والعافية من البدن، فهذا أبو أيوب سليمان بن داود الشاذكونى من الحفاظ الكبار توفى فى أصفهان سنة ٤٣٢ رؤى بعد موته، فقيل له: «مافعل الله بك قال: غفر لى. فقيل: بماذا؟ قال: كنت فى طريق أصبهان فأخذنى المطر، وكان معى كتب ولم أكن تحت سقف ولا شىء فانكببت على كتبى حتى أصبحت وهدأ المطر فغفر الله لى بذلك فى آخرين».

نعم بهذا الحرص عاش السلف ـ رضوان الله عليهم ـ مع كتبهم وعلمهم، فكانوا مناراً وهدى للسائرين على طريق العلم والعمل فهيّا جميعاً نشمر ونسير على هديهم ومنارهم؛

لنقوم بحق هذا الدين الذى أخذنا أمانته بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلقه سيدنا محمد الأمين.

علماء من بلدى

العلماء هم ورثة الأنبياء، ورثوا عنهم علوم الدين، فالأنبياء لم يورِّثوا درهماً ولا ديناراً وإنما ورَّثوا هذا العلم.

وعلماء المسلمين من هذه الأمة كان لهم الحظ الأوفر من ذلك فقد ورثوا عن خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ علوم الكتاب والسنة ففاقوا كل أمة فى ذلك وحازوا قصب السبق، وأدوا الأمانة حق الأداء وصانوها حق الصيانة فى كل عصر وجيل فكانوا مشعلاً للهداية والنور يخرجون بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم. يذبون عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. ولما كان هذا هو دورهم وعرفاناً منا لهذا الدور العظيم رأيت أن أختم كتابى هذا بترجمة بسيطة لبعض علماء الكويت تحت عنوان «علماء من بلدى».

الشيخ: عبد الله بن خلف الدحيان

*** اسمه ونسبه ونشأته:**

هو الشيخ عبد الله بن خلف بن دحيان، ولد في ٢٢ شوال ٢٩٢١هـ وعندما صار في سن التمييز قرأ القرآن وتعلم مبادئ الخط على أبيه، ولما بلغ الثانية عشرة من عمره لازم الشيخ محمد بن فارس ـ أجلّ علماء الكويت في حينه ـ ثم سافر إلى«الزبير» عام١٣١٠ هـ فأقام بها سنتين يتلقى العلم عن علمائها كالشيخ صالح المبيض، والشيخ محمد العوجان، والشيخ عبد الله بن حمود ثم عاد فواصل القراءة بنفسه واستكمل العلوم بالمطالعة. وفي عام ١٣٢٤ هـ سافر إلى مكة المكرمة فأدى فريضة الحج، والتقى بكبار علماء الحجاز، وقد نظم قصيدة طويلة يصف فيها حجته، بلغت ٧٨١ بيتاً أوردها كلها الأستاذ خالد سعود الزيد في كتابه «أدباء الكويت في قرنين» عند ترجمته.

*** مكانته العلمية:**

كان الشيخ ـ كما قال مترجموه بعبارات مترادفة: عالم الكويت وفقيهها، أجمع أهلها على حبه، وكان منزله مدة حياته مجمعاً لطلبة العلم يستقبل من يزوره صباحاً أو مساءً للتعلم والإرشاد، كما كان مثلاً في التواضع والحلم وحسن الخلق والإيثار وتقدير الآخرين وإكرامهم في الحضور والغيبة. وكان لا يستنكف من الأخذ عمن هو دونه.

وكان له مناصرة في المشاريع الخيرية والعلمية في الكويت، ومنها المدرسة الأحمدية وهو أول الخطباء في افتتاحها. وكانت له خطبة جمعة في الحي القبلي فكان الناس يتوافدون من أماكن بعيدة لسماعها.

ولي القضاء عام ١٣٤٨ هـ بإلزام من الشيخ أحمد الجابر بعد أن اعتبر متعيناً عليه فكان مثالاً في العدل والإنصاف، والتحمل لما يحصل في مجلس الخصومة.

*** صلاته العلمية:**

كان للشيخ مراسلات علمية مع معظم علماء عصره في شتى البلاد الإسلامية منها

ماهو للمدارسة والمذاكرة فى العلم وقضاياه الشائكة، ومنها ما هو للحصول على نفائس المخطوطات، ومنها ما هو أجوبة على استفتاءات ترد إليه من الآفاق. وكانت شهرته واسعة فى المجالات العلمية خارج الكويت، بالرغم مما اتسم به من عدم حب الظهور، وبالرغم من الافتقار إلى وسائل الاتصال آنئذ.

*** مؤلفاته:**

ـ المسائل الفقهية (طبع مراراً).

ـ الفتوحات الربانية فى المجالس الوعظية.

ـ رسالة فى مناسك الحج.

ـ خطب الجمعة والعيدين.

*** وفاته ورثاؤه:**

توفى فى الثُلث الأخير من ليلة الإثنين ٨٢ رمضان ١٣٤٩هـ (١٥/ ٢/ ١٩٣١) وقد رثاه معاصروه من الشعراء والعلماء بقصائد بلغت (١٤ قصيدة) أورد عدداً منها الأستاذ خالد سعود الزيد فى «أدباء الكويت فى قرنين»، وممن رثاه: الشاعر صقر الشبيب، والشاعر المؤرخ عبد العزيز الرشيد، والشيخ عبد الله النورى وغيرهم.

*** مراجع الترجمة:**

ـ تاريخ الكويت، عبد العزيز الرشيد ص ٢٦٣.

ـ ديوان صقر الشبيب، جمع أحمد البشر الرومى، مراجعة عبد الستار فراج، ص ٤٥، ٢٩٩.

ـ أدباء الكويت فى قرنين (الجزء الأول) خالد سعود الزيد الطبعة الثالثة.

ـ علماء نجد، للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح البسام ٢/ ٣٣٥.

ـ صفحات من تاريخ الكويت، يوسف بن عيسى القناعى ص ٤٥.

ـ مقالة للشيخ عبد الله النورى فى رثاء الشيخ ابن دحيان (غير منشورة) عن كتاب العقود الياقوتية فى جيد الأسئلة الكويتية.

الشيخ: يوسف بن عيسى القناعى

يعتبر الشيخ يوسف من رجال الكويت الأجلاء، احتل منزلة كبيرة فى النفوس لا تكون إلا للعمالقة العاملين.

استغرقت حياته قرابة قرن من الزمن إذ كان مولده سنة (٦٩٢١هـ ـ ٨٧٨١م) ووفاته سنة (٣٩٣١هـ ـ ٣٧٩١م)، فكانت حياته كلها تشرق بالأعمال الجليلة.

كان والده تاجراً وكانت عنده بغلة للسفر والتجارة وفى سنة ٩٠٣١هـ غرقت فى المحيط الهندى وغرق معها أخوه الكبير محمد. وفى عام ٢٩٨١م توفى والده عندما سمع أن ابنه الصغير (يوسف) أصيب برصاصة طائشة بالبصرة.

*** دراسته:**

بدأت دراسته فى الكتاتيب الأهلية فى الكويت، درس فيها القرآن الكريم وبعض مبادئ الحساب والقراءة.

وفى عام (١٢٣١هـ ـ ٢٠٩١م) سافر إلى الأحساء لدراسة العلوم الدينية واللغة العربية ومكث بها تسعة أشهر ثم عاد فى عام ٣٠٩١ إلى وطنه حيث شده الحنين إليه وسافر عام ٤٠٩١ إلى البصرة لطلب العلم وفى نفس العام سافر إلى مكة المكرمة لنفس الغرض ومكث بها سنتين حيث تلقى العلوم الشرعية على يد كبار علمائها، وفى سنة (٥٢٣١هـ ـ ٧٠٩١م) عاد إلى الكويت.

*** أعماله:**

يمكن إجمال أعماله ـ رحمه الله ـ فى الأمور الآتية:

أولا: فى مجال العلم والتعليم:

١ ـ عمل على افتتاح مدرسة أهلية خاصة به للتعليم وكان مكانها فى المكان المعروف الآن «بالمناخ» وذلك فى عام ٧٠٩١م، وقد ضمت عدداً من أبناء البلاد ولايزال طلابها الذين كانوا فيها على قيد الحياة يثنون على الشيخ وعلى طريقته فى التدريس.

٢ـ في سنة (١٣٢٩هـ ـ ١٩١١م) سعى مع أهل الخير في تأسيس أول مدرسة نظامية في الكويت، وهي المدرسة المباركية التي فتحت أبوابها للتدريس في شهر إبريل ١٩١٢م، فإليه يعود الفضل بعد الله في تأسيسها حيث بدأ بالتبرع لها من ماله الخاص فكتب في الورقة مبلغ خمسين روبية ثم أخذ يدور على التجار لجمع التبرعات لبناء المدرسة فجمع المبالغ اللازمة لبنائها ولشراء لوازمها .

٣ـ تطوع مجاناً للعمل بالمدرسة المباركية ناظراً ومدرساً.

٤ـ كان له فضل كبير في افتتاح المكتبة الأهلية «المكتبة العامة» سنة ١٣٤١هـ ـ ١٩٢٢م.

٥ـ كان له مساهمة كبيرة في إرسال أول بعثة من الطلاب إلى العراق عام ١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٤م. حيث سافر الشيخ معهم إلى بغداد ورتب أمورهم الدراسية ثم عاد إلى الوطن.

٦ـ ساهم في إنشاء المدرسة الأحمدية عام ١٣٢٠هـ ـ ١٩٢٢م وقد تطوع مديراً لها بدون مقابل .

٧ـ يعود الفضل إليه في استقدام أول بعثة من المدرسين العرب (من فلسطين)

ثانياً: في بناء الدولة سياسيًّا واجتماعيًّا وتشريعيًّا:

١ـ في عام ١٣٣٩هـ ـ ١٩٢١م سعى الشيخ إلى إنشاء أول مجلس من الأعيان للنظر في شؤون الكويت وكان لمسعاه هذا أثره الكبير في إنشاء هذا المجلس الذي كان فيه ـ رحمه الله ـ نائباً للرئيس المرحوم حمد عبد الله الصقر .

٢ـ كانت جهوده واضحة في إنشاء بلدية الكويت في عام ١٩٢٩م حيث انتخب ـ رحمه الله ـ عضواً بعد ذلك في المجلس البلدي.

٣ـ عمل الشيخ يوسف ـ رحمه الله ـ قاضياً لمحكمة الكويت وظل قاضي التمييز الوحيد في الكويت لمدة طويلة من الزمن.

*** مؤلفاته:**

١ـ المذكرة الفقهية في الأحكام الشرعية: وهو أول كتاب يؤلفه وقد طبعه خارج الكويت.

٢ ـ صفحات من تاريخ الكويت: كتاب صغير الحجم يتحدث بإيجاز عن تاريخ الكويت[١].

٣ ـ الملتقطات: كتاب يقع في سبعة أجزاء طبع الجزء الأول عام ١٩٤٨ م وهي حصيلة اطلاعاته على الكتب الدينية والتاريخية والعملية، ولقد قامت وزارة الإرشاد والأنباء بطبع الأجزاء الستة فى مجلد واحد عام ١٩٦٥م.

* من شعره:

١ ـ أرجوزته التى نشرها تحت عنوان عقيدتى يقول:

الله ربى والحنيفة دينــى هـذا اعتقادى مذهبى ويقيـنى
لست بقومى ولا اشتراكى ولا شعــوبى ولا أفاكــــى

٢ ـ وقوله:

ومنهجى قـول النبى الأوحد لا فرق بين أبيض وأســود
إلا بتقوى الله فاحفظــوها وهــــذه التفرقة انبذوها
فالقوم سادوا باختراع وعمل ونحن فى تفـرقة وفى كسل
هذا وكنا معشر الإســـلام من خير شعب ساد بالأنام
واليوم صـرنا خبراً كان وما زلنا نسير فى الهبوط للعما

٣ ـ قوله في العدالة :

مررت على العدالة وهى تبكى فقلت: علام تنتحب الفتاة
فقالت: كيف لا أبكى وأهلى جميعاً دون خلق الله ماتوا

٤ ـ قوله في محاربة الخمر :

يا مدمن الخمـر قـل لـــى هــل فــى الجنـــون مسرة؟

---

(١) سيخرج قريباً بصورة جديدة محققة ومزادة ـ إن شاء الله.

وهــل إذا مــت منــــه	ســعـــادة أو مضـــرة؟
تبيـــع عقــلاً وجسـماً	بخزيـــة ومعــــــــرة

٥ـ فى وصف العيد:

خرج الناس يوم عيد وراحوا	رافلــين بزينــة وســرور
وأرى العيد فى رضا الله عنى	فهو عيدى وبهجتى وحبورى

٦ـ قوله فى حبه للقراءة والعلم:

ولى لذة عند القراءة لم أجد	بطول حياتى مثلها بنعيمى
وتلك لأنى أستفيد فوائداً	تريح فؤادى من شقاء همومى

٧ـ وعن علماء الأحساء قال رحمه الله :

إن سألت عن الإخوان ما فعلوا	فهم على حالة بالجد متصفة
لهم قلوب على التحصيل عاكفة	كمثل أسمائهم ليست بمنصرفة

*** وفاته:**

ظل ـ رحمه الله ـ يعمل على التوفيق بين أعماله فى التعليم والإصلاح والقضاء حتى توفاه الله يوم ٦ يوليو ١٩٧٣م، وشيعت البلاد جثمانه وخرج فى جنازته الشيوخ والأعيان وأفراد الشعب.

وهكذا تنتهى حياة كلها أعمال جليلة فى سبيل رقى أبناء بلده وتعليمهم وتهذيبهم وجهاد دائم لا يعرف الكلل على إصلاح شؤون البلاد والقيام على مصالحها وشؤونها وفق ما يُحبه ربنا ويرضى[(١)].

*****

(١) المراجع: تاريخ الكويت: عبد العزيز الرشيد. كتيب عن حياة الشيخ صدر عن مدرسة ثانوية يوسف ابن عيسى. مقال فى الهدف (١٢/ ٧/ ٧٣) بقلم المؤرخ سيف مرزوق الشملان. مجلة الكويت العدد (٣٣٥) (١/ ٥/ ١٩٧٨). مجلة الخليج الجديد (١/ ١٠/ ١٩٧٦).

السيد أحمد بن السيد عبد الجليل طباطبائى

هو رجل العلم والورع تصدى للتدريس نحو ٠٢ سنة ولم ينقطع عنه إلا بمرض موته. استفاد منه الكثير من أهل العلم منهم الشيخ خالد بن عبد الله العدسانى،ويوسف اليعقوب،وعبد الوهاب الغرير. وتوفى حوالى سنة ٥٩٢١هـ.

*****

الشيخ أحمد بن محمد الفارسى

رحل فى طلب العلم، وتعلم فى كوهج ومسقط ومصر، وعاد إلى الكويت بعد مضى سبع سنين.

كان آية فى الذكاء والحفظ، فصيح اللسان لا يتطرق لسانه اللحن، حسن الصوت متوغلاً فى علم الأدب، ويحفظ الكثير من الشعر، إذا جلس فى مجلس كثر المستمعون لما ينثر من الأدب، وإذا وعظ امتلأ المسجد من الخلق لسماع وعظه، وقد حصل له من الإقبال ما لم ينله أحد فى الكويت من طلبة العلم، وأكثر علمه فى الأدب والوعظ، ولكنه مع الأسف لم يتصدر للتدريس، ولهذا يقول فيه الشيخ عبد العزيز العلجى من قصيدة طويلة:

فالشيخ مهما رأينا من سماحته نراه للعمل مناعاً وحباساً

توفى سنة ٤٥٣١ بعد أن تجاوز التسعين .

*****

الشيخ خالد بن عبد الله العدسانى

طلب العلم فى بادئ أمره عن يد والده عبد الله، ثم واظب على التعليم عند السيد أحمد ابن السيد عبد الجليل، ثم تصدى للتعليم إلى أن كف بصره.

كان فقيهاً نحوياً، وله يد فى الشعر إذا بدت الحاجة إليه.

وعين إماماً وخطيباً فى جامع السوق واستمر به إلى أن توفى سنة ٨١٣١. وقد رثاه عبد الله الفرج بقصيدته التى مطلعها:

أراع لخطبٍ بدا فى الوجـود | وقوعاً كوقع مواضى الحـدود
وكيف وقد ضرمت فى البلا | د مصائبه النار ذات الوقـــود
على مثل خالـد فليبك مـن | يحـن عليـه حنين الرعـــود

إلى أن قال بتاريخ الوفاة:

وقد قلت لما مضى أرخـــوا | دعته جنان لأجل الخلود

*****

الشيخ عبد الرحمن[1] الفارسى

طلب العلم فى مكة ورجع إلى الكويت، وشرع فى التعليم فى النحو والفقه، وممن استفاد منه الشيخ عبد الله بـن خالـد العدسـانى، وصـار خطيباً فى جـامع الخليفـة، ثـم لم تطـب لـه الإقامة فى الكويت فسافر عنهـا خمسين سـنة متـنقلاً فى بـلاد الله الواسـعة، وأكثـر إقامتـه فى كربلاء، وكان قد تزوج فى العراق ورزق ولداً. وعاد إلى الكويت بعد نصف قـرن واسـتقام خمس سنين حتى توفاه الله سنة ١٣٦٠هـ، وله من العمر ما يقارب تسعين سنة.

كان لطيف المحـضر صـاحب نكتـة. سـمعته يقـول[2]: دخلـت عـلى الزهـاوى (والـد جميـل المشهور) فأنشدنى:

ابنُ ابننا من ابننا أحبُّ | الابن قشرٌ والحفيد لُبُّ

فأجبته حالاً:

وكل كردى وإن تنّبـأ | فهو إذا حققت فيه دُبُّ

فضحك وقال: قاتلك الله.

*****

الشيخ مساعد العازمى

(١)أخو الشيخ أحمد محمد الفارسى.
(٢)القائل: الشيخ يوسف بن عيسى.

سافر إلى مصر لطلب العلم، ومكث بها سنتين ورجع إلى الكويت وأخذ يدرس فى فقه الإمام مالك والنحو والعروض ثم اضطر لكسب المعيشة فتعلم مهنة التلقيح ضد الجدرى واستفاد منها فى توسعة معيشته وفى آخر عمره هاجر إلى البحرين وتوفى بها.

*****

الشيخ عبد الله بن خالد العدسانى

تعلم الفقه على والده خالد، والعربية على عبد الرحمن الفارسى وتصدى للتدريس بعد أن كف بصر والده واستقام نحو عشرين سنة مثابراً على التعليم، واستفاد منه خلق كثير وعين مفتياً فى زمن سالم المبارك، ولما توفى عبد العزيز العدسانى صار هو القاضى إلى أن توفاه الله سنة ١٣٤٨هـ.

*****

السيد سليمان بن السيد على

تغرب لطلب العلم إلى الأحساء. وكان بها فى محل الحفاوة لصلاحه واجتهاده فى الطلب، وأدرك فى مدة قليلة ما لا يدركه غيره فى زمن طويل، ورجع إلى الكويت وشرع فى التعليم، وحصل عليه إقبال من وجهاء الكويت، ولكن المنية عاجلته وهو فى مقتبل العمر ولم تفسح له حتى نرى ثمرة ذلك الاجتهاد والإخلاص.

وما الدهر والأيام إلا كما ترى رزية حر أو فراق حبيب

*****

ملا أحمد بن محمد القطان

هو رجل تقى كفيف البصر تغرب لطلب العلم إلى الأحساء وفارس فاستفاد من هذه الرحلة سيما فى علم الفقه، وكان لا يمل من مجالسة طلبة العلم والمذاكرة معهم، عين إماماً فى مسجد عبد العزيز المطوع وبقى فيه إلى أن توفى سنة ١٣٢٧هـ.

*****

الشيخ محمد بن فارس

هـو رجـل الكويـت الموصـوف بـالتقوى والنزاهـة والـورع، كـان فى أول عمـره يعلـم الصبيان القرآن. ثم اشتغل بالتجارة فكـان فيهـا مثـالاً صـالحاً بحسن المعاملـة على الوجـه الشرعى، وربح منها بما أغناه عن ذلك الحاجة للنـاس، وكـان عليـه الرحمـة رجـلاً مـسموع الكلمة محبباً لدى عموم الكويتيين، تعلم عنده الـشيخ عبـدالله الخلـف الفقـه فى أول طلبـه، ولا أدرى مبلغ تحصيل الشيخ محمد من العلوم، والمسموع أن علم الفقه هـو الغالـب عليه بالدراية.

توفى سنة ١٣٢٦، حميد السيرة مرضياً عنه.

*****

الشيخ محمد بن إبراهيم الغانم

رحل إلى الأحساء لطلب العلم، وساعده توقد ذكائه، حتى إنه أدرك ما لا يدركـه غـيره فى سـنين، ورجـع إلى بـلاده وشرع فى التعلـيم محتـسباً لله، وأدركتـه الوفـاة وهـو فى ريعـان الشباب، رحمه الله.

*****

الشيخ محمد بن جنيدل

طلب العلم فى الكويت على يد الشيخ عبـد الله العدسـانى، الـشيخ عبـد الله بـن خلـف، واستفاد فائدة كثيرة لكثرة ملازمته لمحل الشيخ عبد الله بن خلف، وكـان لا يفـارق مجلـسه حتى توفاه الله حوالى ١٣٤٢هـ.

*****

الشيخ يوسف بن حمود

طلب العلم فى الكويت عند الشيخ مساعد العازمى، واستفاد منه فائـدة كبـيرة فاشـتغل بالتجارة فلم يوفق فيها، وعين مدرساً بالمدرسة المباركية، وكـان ملازمـاً لمحـل الـشيخ عبـد

الله الخلف لما به من المذكرات العلمية، وبعد وفاة الشيخ عبد الله لزم بيته، وانقطع عن مخالطة الناس حتى توفى سنة ٥٦٣١هـ[١].

*****

الشيخ عبد الوهاب الفارس

هو فضيلة الشيخ عبد الوهاب الفارس المعروف بصلاحه وورعه وتقواه. فقد كان رحمه الله على جانب كبير من الورع والتقوى متخلقاً بأخلاق السلف الصالح.

فقيهاً فى مذهبه، شديد التمسك بفقهه، لا يحابى، ولا يجامل فى الدين، ولا يداهن، ولا يبيع الدين بالدنيا، ولا تأخذه فى كلمة الحق لومة لائم.

كان جواداً رحيماً بالضعفاء كريماً عليهم ينفق ما يجده يعطى لله وفى ذات الله حتى لا تعلم شماله ما أنفقته يمينه.

ولد رحمه الله فى أواخر عام ٩١٣١هـ فى الكويت من عائلتين كريمتين، فكان جده لأبيه الشيخ محمد الفارس العالم التقى الورع الحنبلى أستاذ فقهاء الكويت والزبير، وكان جده لأمه محمد السميط من العائلة المعروفة فى الكويت والزبير.

وفى سنة ٨٣٣١هـ توفى أبوه عبد الله بن عبد العزيز بن الشيخ محمد الفارس وخلفه سادس إخوته، وهم أربعة ذكور وابنتين، فرعا إخوته وهو لم يخط الثامنة عشرة من عمره ولم تقصر رعايته لهم عن طلب العلم والتفقه فيه، وكان يختلف إلى علماء ذلك اليوم وكان أكثرهم اتصالاً به المرحوم الشيخ عبد الله الخلف العالم الجليل فقيد الكويت سنة ٩٤٣١هـ.

وكان الشيخ عبد الله الخلف لم يأل جهداً فى تعليمه وكان يحبه لأنه يرى فيه الإخلاص

---

(١) الترجمات من ترجمة الشيخ أحمد بن السيد عبد الجليل إلى هنا من كتاب تاريخ الكويت للشيخ يوسف بن عيسى ـ رحمه الله، ما توسعنا فيها لأنه سيصدر ـ إن شاء الله ـ للشيخ عبد الله النورى رحمه الله ما يلبى الاحتياج من هذا البحث.

فى الطلب والتفانى فى رعاية القصر من إخوته.

وفى حوالى سنة ١٣٤٥هـ توفى المرحوم ابن مانع إمام مسجد الفهد فأجمع جماعته على ألا يؤمهم بعده إلا الشيخ عبد الوهاب الفارس فكان إماماً لهم فى مسجد الفهد حتى لقى ربه. حج المرحوم أول مرة فى سنة ١٣٥٠هـ والحج يومئذ على ظهور الجمال، والعلماء يومئذ فى مكة والمدينة كثيرون ولهم حلقات دروس ووعظ فى الحرمين الشريفين فكان يمضى نهاره متنقلاً من حلقة إلى حلقة يعى من مشايخها كل ما يسمع وكنت[1] مع الحجاج فى ذلك العام.

وبعد قفولنا من الحج فى أواخر محرم سنة ١٣٥١هـ قررت أن أعيد على الشيخ عبد الوهاب قراءة نيل المآرب فى شرح دليل الطالب للشيخ عبد القادر الشيبانى ولما عرضت عليه رغبتى رحب بها ـ رحمه الله ـ فكان منذ ذلك اليوم صديقى وأستاذى.. وكنت آنئذ معلماً فى المدرسة المباركية ومسجد الفهد فى طريقى إليها فكنت أحضر قبل صلاة العصر كل يوم مع الأخ المرحوم الشيخ محمد الشايجى الذى لم يواصل الدرس وقد وفقنا الله لإكماله قبل رمضان سنة ١٣٥١هـ فكانت مراجعة مباركة موفقة بفضل الله، فحمداً لله على ذلك.. وكان يحضر الدرس أحياناً أفراد من المستمعين ممن نعرف ومن لا نعرف.

فى سنة ١٣٦٤هـ ولا أذكر فى أى شهر عرض عليه رئيس المحاكم ـ يومئذ الشيخ عبد الله الجابر الصباح ـ القضاء وكأنى أراه الآن وقد جمع إليه ثيابه وهو يستغفر الله ويستعيذ به ويرد على الرئيس قائلاً:

ـ لا يا شيخ لا يا شيخ، أرجوك اعفنى من هذا المنصب فأنا غير لائق به لأنى سريع الغضب.

ولا أظن رفضه هذا إلا نزاهة وبعداً عن مزالق القضاء.

وفى أواخر رجب سنة ١٣٨٠هـ أول يناير سنة ١٩٦١م ذهبنا بطريق الجو سوياً إلى

(١) المتحدث: الشيخ عبد الله النورى.

القدس لزيارة المسجد الأقصى وأمضينا هناك وقتاً طيباً فى رفقة سعيدة وكان معنا صديق الجميع الحاج سليمان الحمد الرميح.

وفى صباح يوم السبت ٧١ رجب سنة ٥٩٣١ الموافق ٦٢/ ٧/ ٥٧٩١ نعت الإذاعة نبأ وفاته فكان لهذا النعى الأثر البالغ فى قلوب عارفيه.

انتقل - رحمه الله - قبيل شروق شمس ذلك اليوم على أثر وعكة خفيفة أحس بها قبيل صلاة الجمعة ولم تمنعه عن أدائها ولا أداء الفرائض بعدها، وشيع إلى مثواه الأخير ضحوة ذلك اليوم تشييعاً يليق بصلاحه وتقواه.

اللهم اغفر لشيخنا عبد الوهاب وارحمه رحمة واسعة تبلغه بها منازل الصالحين الأبرار من عبادك الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون(١).

*****

الشيخ عبد الله النورى

*** اسمه ونشأته الأولى - رحمه الله:**

هو الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد النورى. وأصل عائلة النورى من بادية الموصل حيث عاشت هناك، وبعد وفاة والد الشيخ محمد النورى غادر الموصل إلى البصرة ثم استقر به المقام فى الزبير (فى ١٣٢٠هـ - ١٩٠٢م)، وعمل الشيخ محمد فى الزبير مدرساً فأحبه أهلها ثم تزوج عام (١٢٣١هـ - ٣٠٩١) فى الزبير من أسرة نجدية، ومن هذه الأسرة أنجب الشيخ عبد الله النورى فى يوم الثلاثاء ٧١مايو عام ٥٠٩١، وفى سنة ١٤٣١هـ الموافق ١٩٢٢-١٩٢٣م وصلت الأسرة إلى الكويت.

*** تعليمه وشيوخه:**

تلقى شيخنا مبادئ القراءة والكتابة على يد والده، ثم دخل إحدى المدارس التى يشرف عليها الإنجليز حتى أنهى الابتدائية.

---

(١)عن مقال للشيخ عبد الله النورى رحمه الله فى مرآة الأمة بتاريخ ٦/ ٨/ ١٩٧٥ .

ثم فى عام (١٤٣١هـ ـ ٢٢٩١م) التحق بدار المعلمين فى بغداد.

ثم أخذ يدرس على الشيوخ الذين كان لهم أكبر الأثر فى توجيهه نحو العلوم الشرعية وهم:

أولاً: والده الشيخ محمد النورى:

درس على يده الفقه الحنبلى والنحو وشيئاً من كتاب رياض الصالحين وظل يدرس على يده حتى توفى عام (١٣٤٥ـ ١٩٢٧م) ويذكر الشيخ فى كتابه «عصران من عصر» أن والده قد أوصاه بدراسة ثلاثة كتب هى:

١ـ دليل الطالب فى فقه الإمام أحمد.

٢ـ شرح قطر الندى فى النحو.

٣ـ رياض الصالحين فى الحديث.

وأوصاه كذلك أن يدرس كتاب «دليل الطالب» على الشيخ عبد الله الخلف الدحيان.

وهكذا ترى أن والده حبب فى نفسه حب القراءة والاطلاع وحب العلوم العربية.

ثانياً: الشيخ عبد الله الخلف الدحيان:

درس عليه كتاب «دليل الطالب فى فقه الإمام أحمد» ولازمه مدة أربعين سنة حتى توفى إلى ـ رحمه الله.

ثالثاً: الشيخ محمد الشنقيطى:

كان يقرأ عليه بعد قراءته على والده كتاب «رياض الصالحين» عصر كل يوم ثم يعيد ما قرأ على الجماعة فى المسجد كحديث دينى .

رابعاً: الشيخ جمعة بن جودر:

ولا نعلم ما كان يدرس عليه إلا أنه من شيوخه.

خامساً: الشيخ عبد الوهاب بن عبد الله الفارس:

كان يدرس عليه فى مسجد الفهد بعد ظهر كل يوم واستمر فى هذه الدراسة مدة أقل

من سنة.

سادساً: الشيخ عبد العزيز حمادة:

درس على يده متن الرحبية فى الفرائض وشرحها حتى أصبح أستاذاً بها.

❊ أعماله:

أولاً: عمل مدرساً متطوعاً من عام ٢٤٩١ إلى ٥٤٩١ فى المعهد الدينى الذى وضع نواته الشيخ عبد العزيز حمادة ودرس فيه الفقه الحنبلى.

ثانياً: عين فى سنة ٥٥٣١هـ الموافق ٦٣٩١ كاتباً فى المحكمة للقضاء ثم مساعداً، وفى سنة ٥٧٣١هـ ـ ٥٥٩١م تقاعد عن العمل، ثم عمل فى عام ١٦٩١ فى المحاماة.

ثالثاً: فى عام ٥٦٩١ عين عضواً فى لجنة الفتوى التابعة لوزارة الأوقاف وعمل فى لجنة الفتوى فترة من الزمن تقرب من ثلاث سنوات وبعدها توقفت اللجنة، وفى عام ٩٦٩١ تشكلت اللجنة من جديد فكان من أعضائها .

رابعاً: عمل فى الإمامة والخطابة ما يقرب من نصف قرن فى مختلف مساجد الكويت.

خامساً: كان يتولى الإجابة على الأسئلة الدينية والاجتماعية من خلال جهاز التلفاز فى دولة الكويت.

❊ مؤلفاته ـ رحمه الله:

خلف الشيخ كتباً كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ قصة التعليم فى الكويت.

٢ ـ مذكرات عن حياة الشيخ أحمد الجابر.

٣ ـ كتاب مما سألونى.

٤ ـ البهائية سراب .

٥ ـ قطف الأزاهر: تعليقات كتبها على منظومة البيتوشى المسماة «حديقة السرائر فى نظم الكبائر».

٦ـ الأمثال الدارجة.

٧ـ من الكويت ديوان شعر.

*** وفاته**[١]:

فقدت الكويت شيخنا الفاضل إثر مرض عضال فى الأسابيع الأخيرة من حياته ألزمه الفراش حتى اللحظة الأخيرة من يوم السبت الحادى عشر من ربيع الأول ١٠٤١هـ الموافق السابع عشر من يناير ١٨٩١م .

*****

الشيخ محمد بن جراح

*** اسمه ومولده:**

هو الشيخ محمد بن سليمان بن عبد الله الجراح ولد فى الكويت عام ٢٢٣١ هجرية تقريباً وهو الآن عالم الكويت وفقيهها ونحويها وفرضيها، حنبلى المذهب له معرفة تامة فى علم الفرائض، أما معرفته بمذهب الإمام أحمد فهى معرفة الخبير فى المذهب وله مشاركة فى بقية العلوم كعلم الأصول وغيره.

*** شيوخه:**

قرأ القرآن على ملا أحمد الحرمى حيث وصل إلى سورة {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} ثم أكمله على ملا محمد المهنى والد صالح المهينى.

ثم أخذ العلم فى أول شبابه على علامة الكويت فى وقته المرحوم الشيخ عبدالله خلف الدحيان، وعلى الشيخ عبد العزيز العلجى الإحسائى أيام تردده على الكويت للوعظ

---

(١)أدباء الكويت فى قرنين الجزء الأول ـ تأليف خالد سعود الزيد ـ الطبعة الأولى.

ـ «عصران من عصر» تأليف الشيخ عبد الله النورى .

ـ مقال: فرحان عبد الله الفرحان: الأنباء تاريخ ٢٥/ ١/ ١٩٨١ .

ـ الرائد ـ العدد ٥٠ ـ تاريخ ٢٢/ ١/ ١٩٨١ .

ـ مجلة النهضة ـ تاريخ ٢٣/ ٩/ ١٩٧١م.

والإرشاد والتدريس وعلى الشيخ المرحوم أحمد عطية الأثرى فى العربية وحضر سماعاً على الشيخ المرحوم عبد الرحمن محمد الفارسى.

*** عمله:**

كان يكسب من عمل يده حيث فتح دكاناً للبيع والشراء، وقد تولى وظيفة الإمامة فى بادئ الأمر فى مسجد العثمان فى حى القبلة وقد أزيل وكان يقع شرقى مجلس الأمة الجديد، ثم مسجد ابن سعيد، وقد عمل فى الخطابة فكان يقوم بالنيابة عن الشيخ المرحوم أحمد الخميس فى مسجد البدر ثم صار خطيباً فيه على الدوام ولما أزيل مسجد البدر صار يخطب فى مسجد العثمان السابق الذكر ثم مسجد الساير القبلى. ويقوم الآن ـ حفظه الله ـ بالإمامة فى مسجد السهول فى ضاحية عبد الله السالم[١].

*****

الشيخ عبد الوهاب الفارس[٢]

١٣١٨ـ ١٤٠٣هـ/ ١٩٠٠ـ ١٩٨٣م

ولادته وأسرته ـ رحمه الله:

وُلد الشيخ عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن محمد بن فارس فى بيت مبارك العطاء سنة ١٣١٨هـ ـ ١٩٠٠م. فهو من أسرة أنجبت رجالاً أخلصوا لله دينهم، وخلصوا إليه نجيًا غير مبالين بما هو دون ذلك.

شهد الشيخ عبد الله الخلف الدحيان لجدّ الشيخ عبد الوهاب فقال: (بهجة المجالس الشيخ محمد بن عبد الله بن فارس. العالم العامل والفاضل الكامل. كان مثالاً للورع فى اجتناب الشبهات.. كان يجلس بعد صلاة الفجر فى داره ويجمعُ أولاده وأحفاده لمدارسة القرآن العظيم إلى أن ترتفع الشمس ويحضهم على ذلك، ومن تخلّف منهم عن الحضور

---

(١)عناصر هذه الترجمة من الشيخ غنام الرشيد ـ حفظه الله.

(٢)عناصر الترجمة من مقال للأستاذ خالد سعود الزيد/ من مجلة البيان ص١٣ـ١٦ .

عاتبه ثم يصلى صلاة الضحى ويقرأ عليه من يريد القراءة فى الفقه).

هذا جزء من شهادة الشيخ عبد الله الخلف بحق أستاذه محمد بن فارس، ومن أكبرُ شهادة من الشيخ عبد الله وهو الذى أجمع الناس على حبه وتولّيه .

مكانته العلمية وشيوخه:

درس ـ رحمه الله ـ على يد الشيخ عبد الله الخلف وعبد المحسن البابطين ولزمهما حتى استوى على سوقه فانكب يقرأ وحده ما شاء له الله أن يقرأ وكان على منهج شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فقرأ كتبه ورسائله وما جمع من فتاويه.

وتولى رحمه الله إمامة مسجد الفارس وهو شاب وبقى فى إمامته أربعة وخمسين عاماً.

وتولى تدريس علوم القرآن وكان خطه حسناً فقام بتعليم الخط والإملاء فى مدرسة (السعادة) التى أنشأها شملان بن سيف من ثلث أيتام (سعد الناهض) رحمه الله. وكان شملان قيّماً على هذا الثلث فأنفقه لنصيحة صديقه الشيخ يوسف بن عيسى فى تعليم الأيتام والفقراء بالمجان حتى انتهى الثلث. فنسب فضل إنشاء المدرسة إليه.

وبعد إنشاء المعهد الدينى عمل مدرساً فيه سنة ١٩٥٠م بعد إلحاح من رئيس دائرة المعارف حينئذ الشيخ عبد الله الجابر الصباح. وبقى مدرساً فى المعهد مدة عشرين عاماً، وقد سافر إلى القاهرة بدعوة من الأزهر الشريف برفقة الشيخ عبد العزيز حمادة رحمهما الله واستُقبلا بحفاوة من مشيخة الأزهر وعلمائه ثم عادا بعد أن اطلعا على نظام التدريس فيه.

ورعه وزهده:

لقد عاش ـ رحمه الله ـ بعيداً عن الأضواء والجلبة، ولئن وقعت عيناك عليه فلن تراه إلا ذاكراً أو شاكراً، داعياً للناس محسناً إليهم فى صلواته وخلواته ولورعه هذا كان الناس يحرصون على أن يقوم الشيخ بنفسه بعقد النكاح لهم.

وكان يسير يوماً برفقة صديقه الشيخ محمد الجراح فصدمتهما سيارة فسقطا فى حفرة

وجرحا، وحين علما أن السائق كان سكران امتنعا عن مقاضاته وصفحا عنه خوفاً من أن يقفا مع سكران فى موقف واحد.

مؤلفاته:

للشيخ عبد الوهاب الفارس عدة مذكرات فقهية ألفها لطلبة العلم وما تزال مخطوطة لدى ورثته. وحقّق مع الشيخ محمد سليمان الجراح ومحمد سليمان المرشد كتاب (كشف المخدرات شرح أخصر المختصرات) على مذهب الإمام أحمد بن حنبل وهو من تأليف عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد البعلى بن محمد الدمشقى الحنبلى، وما زال التحقيق مخطوطاً غير مطبوع فى مكتبة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية فى الكويت تحت رقم ٣٨٣.

وفاته ـ رحمه الله:

صدمته سيارة وهو عائد إلى منزله وتوفاه الله فى اليوم التالى صباح يوم الأربعاء ودفن صباح يوم الثانى والعشرين من ربيع الأول عام ١٤٠٣هـ الموافق الثانى عشر من شهر يناير ١٩٨٣م، رحمه الله رحمة واسعة.

*****

الشيخ عبد الرحمن الدوسرى[١]

اسمه وولادته:

عبد الرحمن بن محمد بن خلف بن عبد الله الفهد آل ناور الدوسرى من أسرة هم أمراء بلدة (السليل) المشهورة من قبيلة الوادعين، ولد ـ رحمه الله ـ فى مدينة بريدة سنة ١٣٣٢هـ ثم سافر به والده إلى الكويت وهو صغير.

نشأته ودراسته:

نشأ الشيخ ـ رحمه الله ـ فى بيئة صالحة، فى محلة المرقاب ودرس فى مدرسة المباركية وحفظ

---

(١)عناصر الترجمة من رسالة للشيخ أحمد الحصين عن حياة الشيخ ـ رحمه الله.

فيها نظم السفارينى وهى مائتان وتسع أبيات فى التوحيد، والرحبية والبرهانية فى الفرائض ومنظومة هدية الألباب فى جواهر الآداب للشيخ محمد الجسر ومنظومة الآداب المشهورة لأبى عبد القوى، ولامية بن الوردي ولامية العرب ولامية العجم وقصائد كثيرة متنوعة قد حفظها عن ظهر قلب، وحفظ ـ رحمه الله ـ من متون الفقه «دليل الطالب لنيل المطالب» ومجموعة من أحاديث منتقى الأخبار، ودروساً فى السيرة النبوية والتاريخ، ومن عجائب حفظه أنه يقول: حفظت القرآن الكريم فى شهرين انقطعت عن الناس وأغلقت علىّ مكتبتى، ولم أخرج منها إلا للصلاة فقط.

شيوخه وأساتذته ــ رحمه الله:

أساتذته ـ رحمه الله ـ فى المدرسة المباركية:

١ـ الشيخ عبد العزيز الرشيد ـ رحمه الله.

٢ـ الشيخ محمد أحمد النورى ـ رحمه الله.

٣ـ الشيخ يوسف بن عيسى القناعى ـ رحمه الله.

٤ـ الشيخ محمد خراشى الأزهرى المصرى ـ رحمه الله.

وفى خارج المسجد قرأ على الشيخ عبد الله بن خلف الدحيان الفقه والتوحيد وكذلك استفاد من الشيخ صالح بن عبد الرحمن الدويس إمام مسجد الشايع، وكذلك استفاد من الشيخ قاسم بن مهزع من علماء البحرين فى زيارته التجارية هناك.

تلامذته:

كان للشيخ ـ رحمه الله ـ نشاطاً علميًا ودعوياً فى الكويت، حيث كان يحاضر ويعظ فى جميع المساجد ومعظم الدواوين، ويكتب فى المجلات وكان مجلسه فى مكتبته الكبيرة التى كانت تضم أمهات الكتب المتنوعة، وكان طلبة العلم يترددون عليه بالدراسة والأسئلة المشكلة عليهم، وممن درس على يديه:

١ـ أحمد بن غنام الرشيد.

٢ـ الشيخ محمد بن سليمان المرشد.

٣ـ الشيخ راشد بن عبد الله الفرحان.

وهؤلاء قد درسوا على يديه أصول الفقه على وجه الخصوص.

كتبه ــ رحمه الله:

كان رحمه الله صاحب قلم سيَّال فله عشرات الكتب التى لا زالت مخطوطة أسأل الله أن يتيسر لها الخروج ليستفيد منها طلبة العلم، ومن مطبوعاته «الحق أحق أن يتبع» شاركه فيه الشيخ عبد الله النورى، والشيخ عبد الرزاق الصالح رحمهما الله، بينوا فيه مخالفه القوانين الوضعية للشريعة الإسلامية. «فلسطينيات» قصيدتان من الشعر يصور فيهما الشيخ أسباب النكبة سياسيًا واجتماعيًا، وغير ذلك كثير.

نشاطه ــ رحمه الله:

كان رحمه الله نموذجاً لرجل الدعوة الذى سمع نداء ربه ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [1]، فكان يتنقل من بلد إلى بلد ومن مركز إلى مركز ينشر الدعوة ويصدع بالحق.

وفاته ــ رحمه الله:

وافاه الأجل ـ رحمه الله ـ فى العاشر من ذى القعدة سنة ألف وثلاثمائة وتسعة وتسعين فى المملكة العربية السعودية التى انتقل إليها سنة ألف وثلاثمائة وواحد وثمانين هجرية.

(١)التوبة: ٤٠.

الخاتمة

وبعد ، فقد حاولنا فى هذه الرسالة أن نوضح منزلة العلم ومكانة العلماء، وآداب العالم والمتعلم؛ لنستنهض الهمم في زمن تكاسل الناس فيه عن طلب العلم، ورضوا بالكسل عنوانا لحياتهم، وازدروا العلماء فأنزلوهم فى غير ما أراد الله لهم فظلموهم، وظلموا أنفسهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

خاتمة الكتاب

أخي القارئ ـ بعد أن عشت ساعات مع موضوعات هذا الكتاب تشاركني الرأى فى أننا ـ أجمعين ـ ينبغى أن نعمل على إحياء هذا الدين فى قلوبنا أولاً، وفى سلوكنا ثانياً، وفى مجتمعنا ثالثاً، صغر هذا المجتمع (أسرة، أو أصدقاء أو جماعات محدودة) أم كبر واتسع ليشمل الدولة كلها والأمة بأسرها.

ولن يسعد بهذا الدين، ويشعر بلذته، ويستعذب تكاليفه، ويهتدى إلى طريقه المستقيم حق الاهتداء إلا من تفاعل معه، فغير ما فى نفسه ليتواءم ويتوافق مع التعاليم التى جاءت من رب العالمين ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾[1] . والذين لا يتبعون منهج الحق يظلون هائمين على وجوههم، تائهين فى حياتهم، سائرين فى ظلام الوجود؛ لأن قلوبهم أقفرت من ينابيع النور التى قال الله عنها: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾[2]،ولأن سلوكهم وتصرفاتهم خلت من التوجيه الربانى فحقت عليهم كلمة الله: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾[3]، وإنى أربأ بك ـ أخى القارئ ـ أن تكون من هؤلاء، ولذا فإنى لعلى يقين من أنك ستكون ـ إن شاء الله ـ لبنة من لبنات المجتمع الإسلامى الذى يعلو فيه صوت الحق، وينتشر فيه العدل، وتختفى وتتوارى فيه السوآت والسيئات، ويتعاون فيه المسلمون على البر والتقوى، ولا يتعاونون على الإثم والعدوان.

---

(١) المائدة :١٦،١٥ .

(٢) الشور:٥٢ .

(٣) طه:١٢٤ .

ولعلنا فى هذا الكتاب قد وضعنا شمعة فى طريقك، حتى إذا ما شاركتنا جهدنا وتكاتفت معنا تحولت هذه الشمعة إلى مصابيح تضىء حياتنا فى مجتمعنا الإسلامى المنشود الذى يستظل فيه الجميع بشريعة الله فيأمنون ولا يخافون ولا يحزنون.

إن تفاعلك مع هذا الدين وتفاعل الآخرين الذى قد يبدأ محدوداً سرعان ما يتضاعف ويتكاثف حتى يصدق عليه قول الله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [1]، فتعلو بذلك كلمة الله فى الأرض، وتتحقق للمسلمين العزة بجهودهم التى يوجهها الدين، وتبتغى مرضاة رب العالمين وحينئذ: ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [2].

فهل وصلتك الرسالة؟ وهل بلغتك النصيحة؟ إنا على الطريق سائرون فأهلاً بك معنا صاحباً وأخاً وصديقاً عاملاً على إظهار هذا الدين وإعلاء شأنه فى العالمين.

---

(١) الأنعام:١٦٢، ١٦٣ .

(٢) الروم:٤، ٥ .

أهم المراجع

ـ طبقات الشافعية ، السبكى.
ـ في ظلال القرآن ، سيد قطب.
ـ كيف السبيل إلى وحدة الأمة الإسلامية، للمودودى.
ـ نحو إنسانية سعيدة ، محمد المبارك.
ـ مجموع الفتاوى ـ ابن تيمية.
ـ مجلة الشهاب ، عدد (١٩) سنة (١٧).
ـ إحياء علوم الدين، الغزالى ، دار المعرفة.
ـ مجلة المجتمع.
ـ الوفيات ، لابن خلكان.
ـ حلية الأولياء، أبو نعيم الأصفهاني.
ـ نحو ثورة سلمية، المودودى.
ـ خلق المسلم ، للغزالي.
ـ العقد الفريد، لابن عبد ربه.
ـ تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي.
ـ الترغيب والترهيب، للمنذري.
ـ الآداب الشرعية، لابن مفلح.
ـ الرد الوافر، لابن ناصر.
ـ مفتاح دار السعادة، ابن القيم.
ـ الوافي بالوفيات، للصفدى.
ـ معجم الأدباء، ياقوت الحموى.

- ترتيب المدارك ، القاضى عياض.
- الفوائد، لابن القيم.
- رسالة التعاليم، الإمام/ حسن البنا.
- طريق الدعوة في ظلال القرآن، أحمد فايز.
- مدارج السالكين، لابن القيم.
- تفسير ابن كثير، ط سامي سلامة.
- حسن البنا يتحدث إلى شباب العالم الإسلامى ، ط أولى ، دار القلم .
- لسان العرب، لابن منظور.
- دعوتنا ، الإمام / حسن البنا .
- مشكلات الدعوة والداعية، أ / فتحى يكن.
- لسان الميزان ، ابن حجر.
- الملل والنحل ، الشهرستانى ، دار المعرفة، ط ٢.
- تفسير القرطبي.
- الانتصار لحزب الله الموحدين، الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البابطين.
- جند الله : سعيد حوى.
- الدعوة إلى الإسلام ، أبو زهرة.
- مجموعة الرسائل، البنا، مؤسسة الرسالة.
- سيرة الرسول ﷺ ، محمد عزة دروزة، طبعة الحلبي.
- نظرية الإسلام وهديه (منهاج الانقلاب الإسلامي)، المودودى، مؤسسة الرسالة.
- معالم فى الطريق ، سيد قطب، طبعة ١٩٦٨م.
- حكمة الدعوة، رفاعى سرور ، مكتبة وهبة.

- كيف ندعو للإسلام، فتحى يكن، مؤسسة الرسالة.
- تذكرة دعاة الإسلام، للمودودى.
- تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق د/ أكرم ضياء العمرى، ط ثالثة، دار القلم .
- السيرة النبوية، للندوى.
- السيرة النبوية دروس وعبر، لمصطفى السباعى.
- دراسات في السيرة، لعماد الدين خليل.
- مختصر تفسير ابن كثير، الصابونى، دار القرآن الكريم.
- الجواب الكافى، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الفرقان ، ابن تيمية ، المكتب الإسلامي - بيروت، ط ٤ .
- محاسن التأويل، للقاسمي.
- العبودية ، ابن تيمية.
- الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، المودودى، مؤسسة الرسالة.
- ماذا يعنى انتمائي للإسلام، فتحي يكن، مؤسسة الرسالة.
- أصول الدعوة ، عبد الكريم زيدان.
- خصائص التصور الإسلامي ، سيد قطب.
- تذكرة الدعاة ، للبهي الخولى.
- المنطلق ، محمد أحمد الراشد.
- تذكرة السامع والمتكلم ، لابن جماعة الكناني ، دار الكتب العلمية.
- اقتضاء العلم العمل، الخطيب البغدادى.
- صيد الخاطر، لابن الجوزي.
- العوائق، محمد أحمد الراشد.

- حسن البنا الداعية، أنور الجندى.
- الرقائق، محمد أحمد الراشد.
- جولات فى الفقهين الكبير والأكبر، سعيد حوى ،ط. دار الأرقم.
- فى آفاق التعاليم، للشيخ سعيد حوى .
- مجلة الأخوة الإسلامية.
- رفع الملام عن الأئمة الأعلام، شيخ الإسلام ابن تيمية.
- اللامذهبية، البوطى.
- السلفية فى المجتمعات المعاصرة، محمد فتحى عثمان .
- مذكرات الدعوة والداعية ، حسن البنا .
- بعض ما علمنى الإخوان، عمر التلمساني.
- البداية والنهاية ، لابن كثير.
- سير أعلام النبلاء، للذهبى.
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للعلامة اللالكائى.
- وميض من وراء السديم.
- الإنصاف فى بيان الخلاف ، ولى الله الدهلوى.
- حسن البنا .. مواقف في الدعوة والتربية.
- مجلة منار الإسلام.
- حسن البنا الرجل القرآنى، روبيرجاكسون، ترجمة أنور الجندى.
- دراسات إسلامية ، سيد قطب.
- العبادة فى الإسلام، يوسف القرضاوى.
- مجلة البيان العربى.

- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، الزبيدى.
- سيرة ابن هشام.
- أحكام القرآن، لابن العربى.
- تاريخ الكويت، عبد العزيز الرشيد.
- مجلة الخليج الجديد.
- مجلة الكويت.
- مجلة النهضة.

فهرس الموضوعات

الإهداء نثراً ٩

الإهداء شعراً ١١

مقدمة الكتاب ١٣

الرسالة الأولى الأخوة ١٥

مقدمة ١٧

مدخل ١٨

المبحث الأول : فضائل الأخوة ٢٢

المبحث الثانى : من واقع الأخوة ٢٩

المبحث الثالث : من روابط الأخوة وسبل تحقيقها ٣٦

المبحث الرابع : آفات الأخوة ٣٩

المبحث الخامس :حقوق الأخوة ٤٢

المبحث السادس: ثمرات الأخوة ٥٦

المبحث السابع : أثر المحبة فى البناء الاقتصادى ٦٠

المبحث الثامن : وقفات مع ركيزة الأخوة ٦٦

الخاتمة ٧٩

الرسالة الثانية الصفات اللازمة للدعاة إلى الله ٨١

مقدمة ٨٣

القسم الأول : الصفات الفطرية ٨٥

القسم الثانى : الصفات المكتسبة ٩٩

الصفات العقلية ١١٥

الصفات الحركية ١٢٢

صفات المؤمنين فى سورة المائدة ١٣١

الخاتمة ١٣٨

الرسالة الثالثة الأهداف الرئيسية للدعاة إلى الله ١٤١

مقدمة ١٤٣

تمهيد.. ١٤٥

الدعاة إلى الله والحل المطلوب.. ١٥١

القواعد الحركية للعاملين فى الدعوة إلى الله.. ١٥٤

أهل السنة والجماعة هم أنصار الله ١٦٥

الجماعات الإسلامية فى دائرة الدعاة إلى الله ١٨٠

الأهداف الرئيسية للدعاة إلى الله ١٨٤

تحديد الأهداف الرئيسية للدعاة إلى الله ١٩٩

تكوين وصياغة الشخصية الإسلامية ٢٠٢

ضوابط إعداد الشخصية الإسلامية ٢١٤

الشخصية الإسلامية واتجاه العمل الحركى ٢٥٢

الخاتمة ٢٥٧

الرسالة الرابعة للدعاة فقط ٢٥٩

مقدمة ٢٦١

المبحث الأول : حقيقة دعوة الإخوان المسلمين ٢٦٤

المبحث الثاني: شبهات وردود ٣٢١

أصول رد الشبهات ٣٢٥

تفصيل الشبهات والرد عليها ٣٣١

أمنيات على طريق الدعوة الإسلامية ٣٦٧

الخاتمة ٣٧٨

الرسالة الخامسة طريق الأمناء لتحقيق الوفاء ٣٧٩

مقدمة ٣٨١

المبحث الأول : الوفاء فى الإسلام ٣٨٦

المبحث الثانى : أنواع العهود ومقتضاها ٣٩٨

المبحث الثالث : ما يعين على الوفاء ٤١٣

المبحث الرابع : تحمل المغارم والتضحيات فى سبيل الوفاء ٤١٨

المبحث الخامس : الحث على الوفاء والتحذير من الغدر ٤٣٠

المبحث السادس : جزاء الغادرين ٤٣٩

الخاتمة ٤٤٤

الرسالة السادسة إنسانية الرسول ﷺ ٤٧٧

مقدمة ٤٤٩

إنسانية الرسول ﷺ ٤٥١

حبه ﷺ لأولاده ٤٥٢

حبه ﷺ لأهله ٤٥٣

حبه ﷺ لأصحابه ٤٥٣

تواضعه ﷺ ٤٥٤

رحمته ﷺ بالحيوان ٤٥٦

من إنسانيته ﷺ فى حروبه ٤٦٢

الخاتمة ٤٦٥
الرسالة السابعة حوارات فى هموم أمة ٤٦٧
مقدمة ٤٦٩
العقيدة منبع القوة ٤٧١
أثر شريعة الله فى الحياة ٤٧٤
تطبيق الشريعة والمجتمع الأمثل ٤٨١
اليقين بمنهج الله طريق الخلاص من الفتن ٤٨٦
الإيمان بالقدر عزة للمسلمين ٤٩٠
القدس ... أينساها المسلمون؟ ٤٩٦
الحق الأبلج ٥٠٠
الصفح طريق المحبة ٥٠٣
بين المحبة النافعة والنصيحة ٥٠٦
لئن شكرتم لأزيدنكم ٥١٣
خلاف الفرعيات وتفرق الأمة ٥١٩
الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ٥٢٥
معالم التغيير ٥٣٢
صلاح الأمة وخيريتها ٥٣٩
الحرص النافع والحرص الفاجع ٥٤٥
الوقاية من السهام ٥٥٢
فبما كسبت أيديكم ٥٥٦
الأخلاق الإسلامية سياج يحمى ٥٦٣

من علائم الانكسار ٥٦٩
الظفر بعد المحنة ٥٧٤
معالم للرقى الروحى والمادى ٥٨١
الدعاء يدفع البلاء ٥٨٦
الخاتمة ٥٩٩
الرسالة الثامنة العلم بين يدى العالم والمتعلم ٦٠١
مقدمة ٦٠٣
العلم بين يدى العالم والمتعلم ٦٠٤
مسببات العلم ٦٢١
قوانين العلم ٦٢٦
شروط العلم وغايته ٦٣٤
آداب العالم ٦٤٤
آداب المتعلم ٦٥٣
من صور تعظيم أهل العلم والعلماء ٦٥٧
علماء من بلدى ٦٦٢
الخاتمة ٦٨٥
خاتمة الكتاب ٦٨٦
أهم المراجع ٦٨٨
فهرس الموضوعات ٦٩٣

هذا الكتاب

رسائل تخاطب العقل والوجدان معاً، وهى نفحات إيمانية تضع بين يدي الشباب مصابيح الهدى، وتغرس في قلوبهم مجموعة من القيم والمعاني.

وقد جاءت الرسالة الأولى: «الأخوة» تبين أن الأخوة هي التي جمعت بين أبناء الإسلام بعد قوة العقيدة.

وكانت الرسالة الثانية: «الصفات اللازمة للدعاة إلى الله» توضح أن نصرة الدين متوقفة على وجود القيادة الفذة، وليست بالضرورة أن تكون في صورة فرد قائد، فمجموع الحائزين على صفات القادة المؤمنين من الممكن أن يطلق عليهم القيادة الفذة.

والرسالة الثالثة: «الأهداف الرئيسية للدعاة إلى الله» تنبه التجمعات الإسلامية إلى حاجتها إلى تهديف واضح، وأن تكون منضبطة بقواعد الإسلام وحدوده الرئيسية.

والرسالة الرابعة: «للدعاة فقط» تتحدث عن (الإخوان المسلمين) بإيضاح الخصائص والمميزات، وذكر القواعد العامة في الرد على الشبهات التي تتردد عن الإخوان، والرد على بعضها.

والرسالة الخامسة: «طريق الأمناء إلى تحقيق الوفاء» تذكر أن الكلمة عند المسلمين قانون نافذ المفعول، والوفاء ينبغي أن يكون طابع الحياة كلها ليستريح الناس من نكبات الغدر.

والرسالة السادسة: «إنسانية الرسول ﷺ» تقدم شيئا من سيرة الرسول في الحب والتسامح والعفو والرفق حتى مع الحيوان البهيم.

والرسالة السابعة: «حوارات في هموم الأمة» تقدم الدواء الذي يتمثل في الدين القويم بعقيدته الثابتة الراسخة وأخلاقه التي تصنع سياجا يحمي ويصون.



للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت: ت/٩٩٥٥٧٤٧١ الرمز البريدي: ٤٣٧٥٦ ص. ب: ٦٦٥٢٠
E-mail: alsamaha_laib@gmail.com